

المجلس الأعلى للثقافة
ياكوب بوركهارت
ميراث الترجمة
حضارة عصر النهضة
فى إيطاليا ١
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد
825
الجزء الأول

المشروع القومى للترجمة

حضارة عصر النهضة فى إيطاليا

المجلد الأول

- الدولة كعمل فنى
- تطور الفرد
- انتعاش العصر العتيق

تأليف : ياكوب بوركهارت

ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد

مع مقدمة بقلم بنجامين نلسون وتشارلز ترنكاوس



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المحرر : طلعت الشايب

- العدد : ٨٢٥
- حضارة عصر النهضة فى إيطاليا - المجلد الأول
- ياكوب بوركهات
- عبد العزيز توفيق جاويد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

THE CIVILIZATION OF THE RENAISSANCE IN ITALY

VOLUME 1

JACOB BURCKHARDT

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المحتويات

القسم الأول

الدولة كعمل فنى

صفحة

القسم الثانى

تطور الفرد

القسم الثالث

انتعاش العصر العتيق

صفحة



استقبال البابا سيكستوس الرابع للعالم الإنسانى بلاتينا

مقدمة الطبعة الأمريكية فى سلسلة الشعلة

لسنا ....أصحاب أهداف الحكمة الأبدية: فإنها تخرج عن طوقنا. ويؤدى بنا هذا الادعاء (الهيجلى) الجرئ المتعلق بخطة عالمية إلى المغالطات، لأنه ينطلق عن قضايا مغلوطة...

على أننا مع ذلك سنبدأ من النقطة الواحدة المفتوحة أمامنا، وهى المركز الأبدى لجميع الأشياء - الإنسان فى معاناته، وكفاحه وفعله، شأنه الآن وكما كان وكما سيكون إلى أبد الآبدين.

- ياكوب بوركهارت، مقدمة

تأملات فى التاريخ

(١)

عندما أصدر ياكوب بوركهارت، منذ ما يقارب القرن من الزمان، كتابه "حضارة عصر النهضة فى إيطاليا"[1]، فإنه لم يكد يتكهن بأن هذه الدراسة، التى قدمها بتواضع شديد وأسماها بالمقالة، ستصبح التفسير القاطع لحقبة عظيمة فى التاريخ. وأقل من ذلك أن يدور بخلده، ولو على سبيل الزكن، أن كل مؤرخ ذى شأن لعصر النهضة سوف يحاول أن يشحذ أو يمحو الصورة التى خلقها بوركهارت. ولذا فيندر أن يكون لأى عمل تاريخى مثل ذلك الأثر المستمر. والحق، إن نفس الفكرة القائلة بأن حضارة جديدة فريدة مميزة تسمى "عصر النهضة" قامت فعلاً فى إيطاليا إبان القرون الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر لتبدو كأنما تقوم على قبول المرء أو رفضه

للتصور الذى ارتآه بوركهارت. ومن المؤكد أن هذه الصورة لتلك الفترة لم تبرز كاملة النمو مكتسية بالريش عن رأس بوركهارت بروزًا غير متصل ولا متأثر بتأويلات أقدم منه وأبكر. كذلك لا يخلو الأمر من بضعة أشياء تحذف ونقاط ضعف تقوم، ولابد من وضعها فى الحسبان.

وما كان بوركهارت ليتكدر من تلك التهم التى وجهت إليه فى الأيام التالية، بأنه لم ينصف بكفاية تلك الحضارة كثيرة النواحى والأوجه التى قام بدراستها بقدر وافر من العاطفة والعناية، لأنه كان يرى أن جهوده تقوم بوجه جوهرى على منهج تجريبى:

"وعندى أنه فى غمار ذلك المحيط الرحيب الذى نخوضه، تكون الطرق والاتجاهات الممكنة كثيرة وموفورة العدد؛ كما أن عين الدراسات التى خدمت هذا العمل ربما أدت بسهولة فى أيد أخرى، إلى تغيير الوضع تمامًا، وأفضت أيضًا إلى نتائج مختلفة اختلافًا جوهريًا. وتلك، فى واقع الأمر، هى أهمية الموضوع الذى لا يبرح ينادى ببحث جديد، كما أن فى الإمكان دراستها دراسة نافعة مجدية من أشد أنواع وجهات النظر تباينًا" (٢) .

وقد يستطيع المرء تمامًا، على ضوء هذا القول، أن يسأل لماذا تسبب هذا الكتاب فى حدوث هذا القدر الكبير من الجدل والخصومة بين أفراد قرانه الكثيرين من العلماء النابهين. بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أن ذهب إلى أن "عصر النهضة" لبوركهارت إنما هو أقرب إلى انعكاس لأفكار المؤلف وعصره ومثله العليا منه إلى الحقيقة التى أراد أن يصورها. ومع أن فى الإمكان التسليم أن كثيرًا من قسمات حضارة منتصف القرن التاسع عشر لا تبرح تحتفظ بحيويتها، فما أكثر الاهتمامات الجديدة التى نشأت منذ ذلك الوقت بحيث تجعل القوة والطاقة المستديمة لهذا الكتاب العظيم شيئًا لا يمكن تفسيره تفسيرًا كاملاً بمطالب خمسينيات الألف الثمانمائة العاطفية والثقافية. ومهما يكن من شأن الشئون الشاغلة للمؤرخين المعاصرين، فإنها يندر أن تلقى غيومًا كاملة على الفترة قيد البحث. على أنه يحدث بالفعل أن مثل تلك الاشتغالات قد تساعد فى الحقيقة على إيضاح الماضى.

وعند كاتبي هذه السطور أن البصائر النفاذة المركزية التي أظهرها بوركهارت في رؤيته لعصر النهضة سليمة غير مجرّحة من حيث الجوهر. فعلى الرغم من تجاوزات بوركهارت وأخطائه، وتعقيباته الأخلاقية والثقافية العميقة، فإنه يتجلى في كتابه حقيقة لم يسع العلماء الذين جاءوا بعده مهما كانوا يكرهون ذلك إلا أن يضطروا إلى تأكيدها[٣] . وحيثما كان يقصد بالهجمة على الفكرة البوركهارتية أن تكون كلية – وذلك بإنكار أنه كانت هناك فترة في تاريخ الحضارة الأوربية ، تحدد من حيث الزمان والمكان، يمكن أن تسمى اسمًا يلائمها بالضبط هو عصر النهضة الإيطالية – فإن من الممكن تبيان أن ما يرفض ويدحض ليس بالضبط تلك الحقيقة التاريخية التي وصفها بوركهارت قدر تفنيد ودحض القيمة التي ركزها عليها[٤] . ولو أننا أهملنا ونحينا جانبًا تلك المحاولات الخُلقية والفكرية لتنقيح الصورة البوركهارتية التي انهارت تحت وطأة مبالغاتها[٥] ، فإن الجهود الكثيرة لإظهار وجود صفات عصر النهضة في العصور الوسطى أو وجود صفات العصور الوسطى في عصر النهضة بالتمسك بتفاصيل معينة وضعها بوركهارت في الصورة التي رقشها، قد أخفقت على وجه العموم في تأمل تصميم الصورة بأكملها[٦] .

ذلك بأن ما كان يشغل بوركهارت ويهمه لم يكن الأجزاء المفردة لحضارة عصر النهضة وإنما الحصيلة الكلية. ومن المعلوم أن كتاباته الأولى كانت تعالج الفن والأدب الوسيطي[٧] ، كما أنه لم يكن بأية حال يجهل الثقافة الوسيطية ولا كان غير مدرك لقيمها. وستريك قراءة مدققة لكتاب "حضارة عصر النهضة" مدى الوضوح الذي أدرك به الدوام الدؤوب للنظرات والممارسات الوسيطية في ذات تلك الفترة التي كان يكتب عنها[٨] . كما أنه لم يكن يشترك في ذلك الاعتقاد الساذج بأن الدراسة المتشددة للأدب والفلسفة الكلاسيكية في عصر معين يمكن أن تنتج في حد ذاتها حضارة جديدة. وإنما هو على العكس من ذلك كان يرى أن "إحياء العصر العهيد" مجتمعًا إلى عناصر أصيلة وقومية للثقافة الإيطالية التي كانت جذورها وسيطة، هي التي تشكل عصر النهضة:

"واجتمعت إلى هذا الميل (وهو الإعجاب بالعالم العهيد) ، عناصر أخرى – وهي الخلة الشعبية العامة التي عدلها الزمن تعديلاً كبيراً، والمؤسسات

السياسية التى استوردها اللومبارد من جرمانيا (ألمانيا) ، والفروسية وغيرها من الأشكال الشمالية للحضارة، وسلطان الدين والكنيسة– فتلاقت كلها لتكون الروح الإيطالية الحديثة"[٩] .

أجل إن بوركهارت بلغ من شديد تنكره لاستمرارية التراث الكلاسيكى فى أوروبا الوسيطية، والتنبه لحيويته الخاصة فى أوقات معينة، أنه أصبح على شفا الوصول إلى فكرة عصر نهضة كارولنجى، وأيضًا عصر نهضة للقرن الثانى عشر[١٠] :

"ولا يخفى أن حضارة الإغريق وروما .... ظلت أمدًا طويلاً تستمتع بسلطان جزئى على أوربا الوسيطية، حتى خارج حدود إيطاليا نفسها. والثقافة التى كان شارل الأكبر ممثلاً لها، كانت، تلقاء بربرية القرنين السابع والثامن، عصر نهضة فى جوهرها، ولم يكن فى الإمكان أن تظهر تحت أى شكل آخر. وكما حدث بالضبط فى فن العمارة الرومانسكى فى أراضى الشمال، حيث تحدث أيضاً، إلى جوار المعالم العمومية الموروثة عن العالم العهيد، محاكيات مباشرة للعهد القديم، فكذلك أيضاً لم يقتصر التبحر العلمى الديرى (الخاص بالأديرة) فحسب فى تشرب كتلة ضخمة من الكتاب الرومان، بل تجاوز ذلك إلى الأسلوب منذ أيام إجينهارد Eginhard فصاعداً، حيث تتبدى فيه آثار التقليد الواعى"[١١] .

ومن المؤكد أن بوركهارت كان غير مدرك لكثير من تفاصيل المهارة والاقتدار فى العصر الوسيط وعصر النهضة فى الدراسات الكلاسيكية التى أحكمت وأتقنت من أيام جيورج ڤويجت[١٢] . Georg Voigt ولكن كل ما كان يهمه ويعنيه – وما يهمنا ويعنينا نحن أيضاً– هو كيف دخل مثل هذا العنصر الفرد للثقافة إلى النظرة العالمية العامة لأناس ذلك الوقت.

والواقع الذى لا شك فيه أن بوركهارت افترض مسبقًا معرفة أكبر كثيراً بالتاريخ الوسيطى والتاريخ العصرى المبكر السياسى والاجتماعى والثقافى من جانب قرائه الذين يطالعون "مقاله"، مما كانوا، أو على الأقل كثير منهم، راغبين أن يسلموا له به. وبنظرة أخرى تالية، يتجلى خطله حين افترض ذلك الافتراض. كان سخيًا أكثر مما

ينبغي أيضًا، في تقديره للتقمص الوجداني الجواني لدى قرائه العلماء. وهو فوق كل شئ، لم يتنبأ بالذيوع الهائل والشعبية البالغة التي لقيها عمله، تلك الشعبية التي وضعته في أيدي تلك الكثرة الهائلة التي ما كانت لتعرف ما كان على أستاذ عَلاَّمَة في جامعة بال (بازل Basel) أن يعرفه. ومع هذا، فلا مراء أنه أحس أن مما يدمر كتابه من الناحية الجمالية أن يقدم لتفسيره لعصر النهضة بتلاوة تفصيلية للحقائق التاريخية. ولو أنه فعل ذلك، لاشترك كتابه فيما يحتمل في النسيان الظالم الذي أصاب كثيراً من الأعمال والإنتاجات المتينة والواقعية فيما حملت من معلومات وثيقة. وغني عن البيان أن المجلدات التي وضعها هنري هالام Henry Hallam ، هي حالات تنطبق عليها هذه النقطة.

وكان بوركهارت محاولاً بمقالته خلق صورة لشئ أسماه "الروح القومية"– وذلك في عصر معين ذي احتواء ذاتي. ولم يكن ما حققه فحسب عملاً رائداً في ضربه، بل مثالاً فريداً لدراسة الثقافة التاريخية دراسة لا يكاد يشق لها غبار ويندر أن تتفوق عليها دراسة أخرى(١٣) .

والصعوبات التي ظلت زمنًا طويلاً تحاصر العلماء في الوصول إلى تقدير عادل إلى قصد بوركهارت وإنجازه الذي أنجز، لا بد أنها ترجع إلى حد كبير إلى ضيق صدر المؤرخين إزاء ما يعدونه شطحات لخياله وتعقيباته الفلسفية المريبة. وكما يحدث كثيرًا في مثل هذه الأمور، فإن المواقف التي يُنسب إلى بوركهارت أنه اتخذها لا تحتوي إلا على القليل أو على لا شئ من الإشارة إلى التضمينات البارعة في كتابه ولا إلى الدلائل المشيرة إلى أن نظرته مستمدة من كتابات أخرى له. وبدلاً من ذلك عُد مسئولاً عن كل تجاوز ارتكبه باسمه المفسدون الذين جعلوا فكره وعمله مبتذلين وسوقيين.

وقد أصبح اليوم واضحًا أن بوركهارت كان أقل كثيراً في نزعته الهيجلية مما ذهب إليه بعض مفسريه. على أن استخدامه لمصطلحات وتصورات هيجلية، وإن كانت شائعة الاستعمال بين الأوروبيين من ذوي النزعات والاعتقادات الفلسفية المتباينة، قد عدَّها

غير مقبولة كثير من العلماء الإنجليز والأمريكيين(١٤) الذين يحملون فى عقولهم أفكاراً عملية ، بل حتى مضادة للفلسفة ، حول المؤرخ الحق وكيف يكون. ومن عجائب القدر، من الناحية الأخرى، أن كثيراً من نقاده الأكثر رومانسية وتصوفاً فى القارة الأوروبية وجدوا أن أسلوب استخدامه يعد عقلانياً وواقعياً أكثر مما تطيقه أذواقهم.

وكما سبقت الإشارة فى البداية، فإن مفتاح ما كان بوركهارت يرمى إليه يكمن فى عنوان كتابه Die Cultur der Renaissance in Italien أى "ثقافة عصر النهضة فى إيطاليا"، وكانت ترجمة لفظة ثقافة Cultur الألمانية إلى كلمة الحضارة Civilization الأكثر شمولاً إجابة عن حقيقة واقعة هى أن بوركهارت وفكرته عن الفكر Geist ، وعن الثقافة Cultur ، كانت تعنى بوضوح شيئًا أوسع من تلك الدلالة الضيقة لكلمة الثقافة Culture الإنجليزية، أى التعليم والتربية ممتزجة بالتهذيب والذوق المقبول فى الأمور الجمالية. وفى الوقت الذى كانت تتم فيه الترجمة، كان الفكر والعرف الإنجليزى والأمريكى يتأخران عن فكر وعرف بوركهارت بصورة موجبة للأسف.

فأما اليوم فالموقف قد تغير. فبفضل التطورات الحديثة فى دراسة الإنسان، التى أخذ فيها العلماء البريطانيون والأمريكيون بمهام القيادة، لم تعد قائمة تلك الحواجز القديمة التى حالت دون فهم مقاصد بوركهارت ومناهجه. والآن أصبح علماء الاجتماع والجمهور المتعلم يستخدمون بانتظام مصطلح "الثقافة "Culture بمعنى آخر مختلف. وبفضل وطأة ووزن كتابات علماء الإنسان وعلماء الاجتماع، أصبحت "الثقافة" تدل على المشترك العام فى النظرة إلى الحياة والطرائق المتخصصة فى الاستجابة للمواقف من جانب مجموعة معينة من الناس المرتبطين اجتماعيًا. ولا شك أن مؤسسات الجماعة وأدواتها ووسائلها التقنية الفنية وأصولها السوية ومنظماتها الاجتماعية والسياسية واتجاهاتها العقلية والعاطفية – وبكلمة واحدة جميع ما يسمى باسم "خطتها فى العيش"– كل هذه يُتوقع منها الآن أن تكشف عند الدراسة المتعمقة عن "كلٍ معقد"، كما شهد بذلك السير إدوارد تايلر Sir Edward Tyler منذ أمد بعيد(١٥) . أو لو عمدنا إلى استعمال كلمات روث بنديكت Ruth Benedict، المألوفة أكثر لأسماعنا، يمكن أن يقال

إن هذه العناصر الثقافية تعرض على أنظارنا " نماذج وأنماطًا". ولكي يتيسر التعمق في النظر إلى أغوار ثقافة من الثقافات والشخصيات التي تجسدها وتعبر عنها، يرى علماء الاجتماع المعاصرون أن من الضروري، فوق كل شئ، الإمساك بالطرق الأساسية القاعدية التي يفكر بها معظم الأفراد ويحسون وينتمون إلى أي شئ يتصادف أن يواجهوه- سواء أكان ذلك الشئ شيئًا (غرضًا) أو مناسبة أو شخصًا. ولا شك أن الأنماط الجذورية للتوجيه Orientation والإثارة أو الدفع (Motivation) الشيئان اللذان يحب الفلاسفة وعلماء النفس كل بدوره أن يسموها بالذاتية subjectivity والتأثرية affectivity اختصت بها أية وحدة اجتماعية معطاة - تحدد الطرق التي تواجه بها وتعدل العوامل الموضوعية الموجودة.

فهذا المعنى للثقافة- وهو المعنى الدارج لدى علماء الإنسان في أيامنا هذه- هو الذي كان يعنى بوركهارت ويهتم به قبل كل شئ. فإن لم يكن هذا واضحاً، وفات حتى عهد قريب علماء الإنسان أن يلحظوه، فما ذلك إلا لأنه طبق الفكرة على شعب مدنى حضري لا على مجتمع بدائي[١٦]. والحق، أنه لو لم يكن التراث والتقاليد الطويلة العمر المألوفة - قائمة وراء كلمة "الحضارة" Civilization لأصبح من الأدق أن يعاد إصدار عمل بوركهارت تحت اسم "ثقافة عصر النهضة في إيطاليا" The Culture of the Ren- aissance in Italy.

والآن وقد قدمنا هذا الإيضاح لهدف بوركهارت، يصبح في الإمكان أن ننظر في ترتيب كتابه ومحتواه تحت ضوء كشاف ساطع. وما يكاد يتبين للناس أن قصده الأول كان هو تصوير الحالات العقلية المميزة الخصائص والأنماط الدافعة الخفية للشعب الإيطالي في أثناء القرون الرابع عش والخامس عشر والسادس عشر، لم يعد في الإمكان اتهامه بحذف بيانٍ وافٍ من العناصر التي يمكن مع الإصابة الصحيحة أن تدرج تحت مصطلح "الحضارة" والتي استبعدتها فكرته عن "الثقافة" وطريقة تصوره لها. ومن بين العناصر التي استبعدها خلاصة للأحداث السياسية العظمى في ترتيب تاريخي ومتصل بعضه ببعض اتصالاً عِلّيًا؛ ودراسة لتطور المؤسسات الاقتصادية

والسياسية والكهنوتية؛ ووصف منظم للمناشط والإنتاجات الفكرية والعلمية والحرفية والفنية. ومعلوم أن جميع المؤرخين يضعون قيمة كبيرة لمثل هذه السرود والتحليلات ويطالبون بها. وكان بوركهارت يقدم لنا ما يقدمه انتهالاً من معارفه المترامية الأطراف بهذه الأمور ولكن لم تخامره أية نية في إدخال هذه الأمور في دراسته "لروح"– و"ثقافة" عصر النهضة.

وقد أنتج في كتابه التالي عن "تاريخ فن العمارة الإيطالي في عصر النهضة"[(١٧)] Geschichte der Renaissance in Itlien، دراسة نظامية و"موضوعية" لا تزال حتى اليوم تخدمنا بوصفها مرجعًا دراسيًا. ومع هذا، فإن القوة الأساسية للعمل الحالي تكمن في حقيقة مُهِمَّة هي أنه لم يتشتت في شعاب التفاصيل السردية بل ركز جهوده على ارتياد الثقافة كما تتضح في الأداء والكتابة والفن. وتأسيسًا على ذلك، كانت محاولاته التالية لخلق صورة للذاتية القائمة في عصر النهضة غير قادرة إلى حد كبير على الفكاك من سلطانه.

(٢)

سيجد القارئ قلب الصورة التي ارتآها بوركهارت لوعي عصر النهضة ماثلاً أمامه في الصفحات التي يفتتح بها القسم الثاني من الكتاب بعنوان "تطور الفرد". فبينما كان رجال العصور الوسطى دون مراء "أفرادًا"، فإنهم ما كانوا في نظر عقل بوركهارت واعين وعيًا خاصاً لتلك الحقيقة التي تدور حولهم، كما أنهم لم يكونوا يقدرونها تقديراً خاصًا. "فالرجل من هؤلاء كان واعيًا لنفسه بوصفه فقط عضواً في جنس بشري أو شعب أو حزب أو عائلة أو هيئة– أي فقط من خلال فئة عامة". على أن الواقع في إيطاليا، من الناحية الأخرى، أنه أصبح "الرجل أو الإنسان "فرداً" روحيًا وعرف نفسه على هذا الوضع . وكان مما يرتبط ارتباطًا لا فكاك له بظهور هذا الإدراك وهذا التقدير العالي لفردية ذات الإنسان، وهو شئ مضى جنبًا إلى جنب حسب رأي

بوركهارت، تنبه متزايد وشديد إلى انفصالية الذات والنفس عن بقية الحقيقة بحيث أن معالجة "موضوعية" وتأملاً في "الدولة" وفي كل شيء يحتويه هذا العالم أصبح ممكنًا. ولم يوجد في العصور الوسطى ذلك التقسيم الواعي (الشعوري) للخبرة إلى ذاتية وموضوعية. وما لبث "جانبا الوعي البشري- ما انطوى منه وما انبسط ، أي ما اتجه إلى الداخل وما اتجه إلى الخارج- أن رقد يحلم أو في شبه يقظة تحت غلالة مشتركة. وكانت الغلالة نسيجًا من العقيدة والوهم، أو التحيز الطفولي، التي من خلالها كان العالم والتاريخ يُريان مطلبين بألوان عجيبة"[١٨]. هذا "والحقيقة السيكولوجية نفسها"[١٩] القائلة بأن الإيطاليين كانوا منذ زمن دانتي يمتلكون وعيًا مزدوجًا بأنفسهم بأنهم أفراد ذاتيون وبالعالم بوصفه شيئاً ما موضوعيًا وبرانيًا وهو أمر جعلهم، في رأي عين بوركهارت، "أول وبكر أبناء أوروبا الحديثة".

وينبغي لنا أن نلحظ أن بوركهارت لا يكتب "الأبناء الوحيدون لأوروبا الحديثة" أو "سادة الأسرة الأوروبية وملوكها" Sires وقد أدى الفشل في إدراك دقة ولطف حجته في هذه النقطة بالعلماء منذ أيامه إلى موقف حرج. وذلك لأنه لم يكن حريصًا على إظهار أن ثقافات أوروبا الحديثة مشتقة ومستمدة من عصر النهضة، حرصه على إظهار أن عصر النهضة لإيطاليا كان في حد ذاته أول الثقافات الأوروبية الحديثة - وليس المثل الأوحد أو الطراز الأوحد. من أجل ذلك نعتقد أنه يبدو أنه أهمل الروابط والتقاليد والموروثات التي تربط عصر النهضة إلى ماض قروسطي وأنه قدم النزر اليسير في مجال ربط إيطاليا بمستقبل قوميات وسياسات أوروبية أخرى. وقد لقي المؤرخون، والحق يقال، صعابًا جوهرية في محاولتهم أن يطوروا إما فكرة موحدة عن فترة عصر نهضة في أقطار أوروبية أخرى أو فكر عصر نهضة أوروبي نفسه. وكان الأثر المترتب على عصر النهضة الإيطالي على سائر أوروبا، أثرًا جزئيًا فيما يحتمل- ربما قام ببعض التعديل والتشكيل، ولكن لم يغير أبدًا تغييرًا أساسيًا تامًا شكل ونوع خطوط التطور الموجودة من قبل. وبذا يتضح أن عصر "النهضة الأوروبي" كان في الواقع تسمية فضفاضة لتاريخ أوروبا بأكمله من عام ١٣٠٠ إلى ١٦٠٠ [٢٠]. وكان

عصر النهضة فى إيطاليا، من الناحية الأخرى، فى رأى عين بوركهارت، ثقافة متميزة ينبغى أن تدرس وتصور فى أعمالها وأحداثها وإنتاجاتها الفنية كأداة تعبير تظهر هذه الحقيقة السيكلوچية لفردية أثيرة معززة "كلية النواحى"، كما تظهر معها موضوعية لا يدخل الوهم فيها. فما من شئ يتعلق بتاريخ إيطاليا فى كل أدواره وأوجهه أثناء تلك الفترة بممكن أن ينظر فيه فى كتاب بوركهارت إلا بوصفه تصويرات لهذه الفكرة الجوهرية، أو بوصفه تفسيرات أو تعديلات هامة للفكرة.

وكانت لهذه الثقافة المستقلة (أى المتمتعة باكتفاء ذاتى) لإيطاليا عصر النهضة بداية ونهاية، كما أن بوركهارت شغل نفسه بجدية تامة بتأسيس هذه الحدود الزمنية وارتياد حالات النفس المميزة بقدر ما كان فيما يبدو غير آبه ولا مكترث بتسجيل التطورات التاريخية الواقعة فيما بينها. ولم يحدث إلا فى ثنايا عرض بوركهارت للأحوال التى أدت إلى أن يسود وعى إيطالى جديد والظروف التى تمخضت عن زوال ذلك الوعى أن اتخذ بوركهارت ذلك الدور التقليدى أكثر للمؤرخ بوصفه دارسًا لمشكلة التغير. وحتى هنا، نجده مقتصداً بصورة مسترعية للنظر فيما قدم لمشكلة التعليل التاريخى. وهو قانع بأن يؤكد ما يعده كثير من المؤرخين فى هذه الأيام السبب "المباشر" أكثر منه السبب "الجوهرى" فى المواقف الثقافية والسلوك الاجتماعى للإيطاليين بين عامى ١٣٠٠ و١٥٣٠ وفى رأى بوركهارت أن السبب الذى جعل فى الإمكان قيام عصر النهضة هو الظروف السياسية بإيطاليا عند نهاية القرن الثالث عشر، تلك الظروف التى استمرت بطريقة ما حتى القضاء على "دول المدينة" الإيطالية وسيادتها وحياتها الحضرية القوية على يد آل هابسبرج الإسبانيين فى أثناء النصف الأول من القرن السادس عشر. "ففى شخص هذه الدول، سواء أكانت جمهوريات أو استبداديات (طغيانيات)، لا يكمن السبب الوحيد وإنما الرئيسى للتطور المبكر للإيطالى"[٢١].

وحتى لو كان أحد المؤرخين قانعًا بالتهوين من شأن العوامل الاقتصادية والاجتماعية ومنضمًا إلى بوركهارت فى اعتباره الظروف السياسية السبب الأوّلى فى

ثقافة عصر النهضة، فإنه سوف يجد أنه حدث هنا أيضًا أن قدرًا كبيرًا من الأشياء اعتبر مسلمًا به. وسيرى القارئ في القسم الأول من هذا الكتاب، بعنوان : "الدولة كعمل فني"، أن بوركهارت لا يقدم وصفًا ولا تفسيراً للتاريخ الدستوري للمدن الإيطالية. وإنما هو في الغالب يتحدث عن الممارسة الجريئة، بل والمحسوبة في نفس الوقت، للقوة على يد الأفراد الذين حاولوا اكتساب غاياتهم الخاصة عن طريق احتياز المناصب العامة، الذي يرى أنه اكتساب لم تكبحه كوابح خُلقية بسبب "عدم شرعية" كل أنواع الحكم. هذا وقد كان الكفاح الطويل بين البابا والإمبراطور، ذلك الصراع الذي عاق تكوين حكومة مركزية قوية بإيطاليا وإن سمح بقيام عدد لا يحصى من السلطات المدينية، ووجودها بصفة دائمة عن طريق تفاعل إحداها مع الأخرى، كان سببًا أفضى إلى الانحطاط الشديد في قوى الإمبراطور وإزاحة البلاط البابوي إلى أفينيون في مطالع القرن الرابع عشر. وظلت إسبانيا مفككة غير متحدة ومشتغلة بكفاحها الطويل مع عرب المغرب؛ وما لبثت فرنسا أن اشتبكت في حرب المئة عام مع انجلترا، كما ظلت منقسمة على نفسها داخليًا أيضًا. وكانت النتيجة في إيطاليا تقارب ما نسميه اليوم باسم الفراغ السياسي. وفي هذا الموقف من "اللاشرعية" ازدهرت الدول (أو الولايات) الإيطالية، وتحاربت إحداها مع الأخرى كما كان يقتتل فوق أرضها الطغاة (المستبدون) الطموحون، والفئات الجامحة والأحزاب، والطبقات الاجتماعية. وهكذا اتجه بوركهارت بأوجز طريقة إلى أن لا يقدم إلا ما يعده الكثيرون تفسيرًا جزئيًا واضح الجزئية، أي تفسيرًا سلبيًا على أحسن الفروض. ويقدم إلينا تحرير إيطاليا في مدى قرنين من الزمان تقريبًا إما من قبضة حاكم وطني أو من أي تدخل جسيم من الخارج على أنه هو السبب في تلك الطاقة الأخاذة التي بُثت في الكفاحات الداخلية السياسية والتطورات الفردية.

وكل ما كان بوركهارت يهتم به أولا وقبل كل شئ، هو بالطبع الظروف النفسية (السيكلوچية) الناجمة عن هذا الموقف السياسي، وبوجه خاص الخُلق الشخصي للمستبدين والحكام. وعندما يشير إلى الدولة بوصف كونها "عملاً فنيًا"، فإنه لا

يستخدم ذلك المصطلح بالمعنى الجمالى للحب المعزول عما عداه الشكل النقى البحت، وإنما يستخدمه للدلالة على الحب الذى يستنبط ويشكل قصداً وعمداً ويصنعه الأفراد بوصفه مناقضًا لأية عملية لا شعورية أو تطور "طبيعى" للمؤسسات وأساليب الحياة(٢٢).

"والتكييف المتعمد للوسائل بلوغًا إلى الغايات، ذلك الذى لم يدر فى خلد أى أمير خارج إيطاليا فى ذلك الزمان ولا وقع فى تصوره، بالإضافة إلى السلطان المطلق أو يكاد داخل حدود الولاية، كل ذلك تمخض بين المستبدين الطغاة عن شيئين هما الرجال وطرائق العيش.. وعدم شرعية حكمه عزلت "الطاغية" وأحاطته بخطر دائم؛ وكان أشرف أنواع التحالف الذى كان يستطيع أن يعقده هو الذى يضرب مع الجدارة الفكرية، دون نظر إلى أصلها ومنبتها. وكانت تحررية أمراء الشمال فى القرن الثالث عشر مقصورة على الفرسان، أى على النبلاء الذين يخدمون ويُنشِدون. وكان الأمر على نقيض ذلك مع المستبد الإيطالى. فهو بما طبع عليه من ظمأ إلى الشهرة وذيوع الصيت، وشهوته القوية إلى الأعمال التذكارية الضخمة، كان الشئ الذى يعوزه هو الموهبة لا المولد. وكان يحس بنفسه قائمًا فى موضع جديد حتى أتيح له رفقة الشاعر والعالم العليم- يكاد يخيل له معه فى واقع الأمر أنه يستمتع بامتلاك شرعية جديدة"(٢٣).

فأما فيما وراء ذلك، فإن بوركهارت لا يقدم أى تفسير، وهو يقدم فى المقام الأول فى هذا القسم من كتابه استعراضًا مذهلاً من النوادر والأمثلة من الحكام، العظيم منهم والصغير، الذين كانوا لا يقفون عند حد فى متابعتهم لطلب القوة والسؤدد، وعن الاستفزازات المتنوعة للأنانية التى لا كابح لها فى كل من الاستبداديات والجمهوريات. ومن ثم فإنه فى هذا الجو، جو الكفاح الدائم على السلطان السياسى، يحدث "تطور الفرد".

وأدى البحث الذى لا يفتر عن أسباب "جوهرية" بكثير من مؤرخى القرن العشرين إلى تثبيت أبصارهم على الأحوال والقوى الاقتصادية. وكانوا يدفعون بوجه رئيسى،

وقد قبلوا بوجه عام تصور بوركهارت لطبيعة عصر النهضة، بأن روح الفردية إنما نبتت من ممارسة الجهود والمساعى الاقتصادية على يد قوم مبرزين من التجار، وأصحاب المصارف (البنوك)، ورجال الأعمال الذين شجعهم التطور المتعجل المبتسر للمؤسسات "الرأسمالية" فى إيطاليا القروسطية[٢٤]. ومن المصادفات التاريخية اللطيفة أن الرجل الذى أسهمت أفكاره بدرجة كبيرة فى النظرية القائلة بأن عصر النهضة كان حضارة "حضرية للمدينة"- وهو كارل ماركس- ولد فى نفس السنة التى ولد فيها ياكوب بوركهارت. ومع أن بوركهارت لم يكن يعد المؤسسات الاقتصادية على نفس الأهمية الحاسمة فى إنتاج عصر النهضة، فإنه لم يكن بأى حال غير واع بالأهمية الكبيرة للدور الذى كانت تلعبه تلك المؤسسات فى تطوير مواقف وممارسات التقدير العقلانى للأمور، وفى المعالجة الكمية والإحصائية للشئون المالية، وفى معالجة موضوعية بوجه عام للأشياء، فى جمهوريتى فلورنسا والبندقية (فينيسيا) العظيمتين.

وأبحاث القرن العشرين فى التطورات الاقتصادية لعصر النهضة فى إيطاليا قد أثْرت بعمق الصورة التى أنعم بها بوركهارت علينا، وعمّق بها إلى أكبر حد فهمنا لتلك الحقبة[٢٥]. ومع هذا فإننا لا نستطيع الإحساس بأن بوركهارت كان مخطئاً فى منحه ذلك التأكيد الشديد الذى ركزه على الخبرات السياسية التكوينية، ولا على نظره إلى الحياة الاقتصادية بأنها فقط واحدة من العناصر التى تكيف طريقة الفكر الموضوعى، أو من وجهة خاصة هامة جداً هى رؤيته إياها بأنها المصدر الأكبر للثروة بالمدن الإيطالية الذى مكن المدنين (المواطنين سكان المدينة) فيها من الإغداق بمثل هذه الوفرة على الفن والأدب ومباهج العيش[٢٦].

ويمكن مشاهدة أثر الثِقَل الذى وضعه بوركهارت على الطبقات العليا فى المدن الإيطالية- وهو تصور ينتقل بحرية تامة من الأحوال الضرورية الاقتصادية والسياسية إلى الحاجات الثقافية الجوهرية للسكان- عندما يفسر دوافع "انتعاش العصر العهيد" والغبادة غير المسبوقة بأية سابقة لأى شئ كلاسيكى.

"ولكن حماسة الإيطاليين العامة والضخمة للعالم العهيد الكلاسيكي لم تسفر عن وجهها قبل القرن الرابع عشر. إذ كان لا بد لذلك من حدوث تطور في الحياة المدنية الحضرية، وهو أمر لم يحدث إلا بإيطاليا، ولم يحدث هناك حتى أنذاك. وكان الأمر محتاجًا أن يتعلم النبيل والحضرى الفرد أولاً كيف يعيشان معاً على قدم المساواة، وأن ينشأ عالم اجتماعي ويشعر بالحاجة إلى الثقافة، ويملكان من وقت الفراغ وسعة الوسائل ما يمكنهما من الحصول عليه. غير أن الثقافة لم تستطع، بمجرد أن خلصت نفسها من روابط العصور الوسطى الوهمية، أن تجد طريقها فوراً وبغير عون من أحد، إلى فهم العالم الطبيعي المادى والفكرى العقلاني. كانت بحاجة إلى دليل يهديها ووجدت ذلك الدليل في الحضارة القديمة، بما حوت من غنى في الصدق والحق ومن معرفة بكل اهتمام من الاهتمامات الروحية. وقد تم تبنى كل من شكل هذه الحضارة ومادتها تبنيًا ينطوى على شعور الشكر المقترن بالإعجاب؛ فأصبحت الجزء الرئيسى لثقافة العصر"[٢٧].

(٣)

وبهذه الملاحظة يستهل بوركهارت عرضًا لإحياء العالم العهيد، الذى كان مُهمًّا عظيم القدر لديه ، ليس بوصفه أولاً منجزًا حياتيًا فكريًا ولكن بوصفه بالحرى طريقًا أُعطى به شكل خاص معين للشعور الذى كان يسود طليان عصر النهضة عن أنفسهم وفترتهم. وإذ يعود بوركهارت هكذا للمرة الثانية إلى توكيد الحالة العقلية الباطنة، تراه يعد مثل هذه الإظهارات للانتعاش والابتعاث الكلاسيكى اهتماماً نهمًا في البقايا الأثرية (الأركيولوچية) لروما وبحثًا عن مخطوطات المؤلفات الكلاسيكية لأسلوب جاء على شاكلة تثبت أنها متمشية تمشيًا منطقيًا مع التبحر العلمى الحديث.

وقد تسلطت على أبحاث القرن العشرين فى هذا الموضوع ثلاث من وجهات النظر:

مدرسة نزعت إلى التقليل من شأن طرافة الدراسات الكلاسيكية لعصر النهضة فى تاريخ الدرس والتعلم، مشيرين وهم على صواب إلى أن علماء العصر الوسيط (كما عرف ذلك بوركهارت نفسه) كانوا سابقين، بل حتى أنهم فى بعض النواحى كانوا متفوقين، على الإنسانيين الإيطاليين، كما أنهم أوضحوا أيضًا أن التبحر العلمى السليم حقاً الذى تأسس عليه علم اللغة وفقه اللغة (الفيلولوجيا) الحديث لم يظهر إلى الوجود إلا بعد ذلك(٢٨). وما كان أمام بوركهارت مع وجهة النظر هذه إلا القليل من العراك وذلك لأنه لم يكن من الناحية الجوهرية معنيًا بحوليات الدراسات الكلاسيكية:

> "ولا شك أن نمو عملية نقد النصوص الذى رافق الدراسة الماضية فى طريق التقدم للغات والعصر العهيد إنما تنتسب بدرجة قليلة إلى موضوع هذا الكتاب بقدر ضآلة انتسابها إلى التبحر العلمى بوجه عام. فنحن هنا ننشغل، لا فى دراسات الإيطاليين فى حد ذاتها، وإنما ننشغل بإعادة إظهار وإنتاج العالم العهيد فى مجالى الأدب والحياة"(٢٩).

وتبنت جماعة ثانية من علماء عصر النهضة منظوراً يتفق أكثر مع حماسة الإنسانيين بوصفهم منافسين للمدرسانية ((Scholasticism) القروسطية (ومن المفارقات المتناقضة أن ذلك يتم من كل من وجهتى النظر الكهنوتية والمضادة للكهنوتية)(٣٠). وثمة جماعة ثالثة، تنتقد مغالاة الجماعة الثانية، أنتجت دراسات تصحيحية موثقة بوثائق جمعت بحرص، دراسات تركز على الخصيصة الحرفية للإنسانيين بوصفهم استمراراً– فى فترة من التنظيم الاقتصادى والسياسى المعقد– لوظيفة الكاتب الناسخ فى العصور الوسطى(٣١). فهم يرون فى المذهب الإنسانى أنه انتعاش للتراث اللاتينى البيانى العتيق الخالى للعلوم الإنسانية Humanities الذى سيطر أيضًا على الثقافة الوسيطية حتى غطاه وأخنى عليه الاهتمام المدرسانى بالعلم والفلسفة الإغريقية – العربية(٣٢) (Graeco-Arabic) ومعالجتهم لهم تتفق ومقاربة بوركهارت، الذى ركز على دور الإنسانيين فى حياة تلك الحقبة بوصفه ليس فقط جامعًا

للمخطوطات والعهيديات وبوصفهم ليسو فقط مترجمين عن الإغريقية (القسم الثالث، الفصلين الثاني والثالث)، بل بوصفهم معلمين، وكتّابًا للرسائل وخطباء عموميين وسفراء، وكتّابًا لعلم الأخلاق ومؤرخين وشعراء (القسم الثالث، الفصول الخامس والسابع والثامن والعاشر)- وذلك كله يجرونه في أسلوب وطريقة تفكير لاتينية كلاسيكية فصيحة ويعيشون بصورة مباشرة في خدمة الأمراء والأرستقراطية وأهل المدن والباباوات والجمهوريات (القسم الثالث، الفصلين السادس والتاسع)(٢٣).

ويبدو أن ما كان يشغل بوركهارت أكثر من كل شئ إنما هو نشوء اتجاه نفسي (سيكلوچي) جديد ناجماً عن العلاقة المتبادلة بين العالم والراعي الناصر للعلم. فهو يتحدث عن " التحالف الطبيعي بين الطاغية المستبد والعالم، اللذين كان كل منهما معتمداً على مواهبه الشخصية"(٢٤). وفي الموقف الأكثر حرية في فلورنسا قبل عهد سيطرة أسرة مديتشي، يشهد بوركهارت بعض الإنسانيين يصعدون مدارج القوة والسلطان والمواطنين البارزين يكرسون حيواتهم لاستثمار العالم العهيد. وهو يتبين في ثنايا هذه العلاقات وجه الإنساني وهو يطور وينمي نفس تلك الأنانية التي لا حد لها بكل ما حوت من القيم والأخطار التي وجدها في رجل المنصب والقوة.

> "وليس بين الرجال الذين أسسوا -الدهر- طبقة من الطبقات من هو مثلهم (الإنسانيين) في أنهم كانوا أقل الناس إحساسًا بمصالحهم المشتركة وأقل الناس احتراماً لما كان من ذلك الإحساس. وكانت جميع الوسائل تعد مشروعة، لو أن أحدهم لمح فرصة لنزع آخر وخلعه.. لا يقنعون بتفنيد الخصم، وإنما يحاولون إبادة ذلك الخصم. وينبغي أن يضاف شئ من هذا إلى حساب مركزهم وظروفهم ؛ وقد رأينا كيف أن العصر الذي كانوا منه أعلى المتكلمين صوتاً كان يُحمل بشراسة ذهاباً وجيئة، بفعل شهوة المجد وشهوة الهجاء. وكذلك أيضًا كان مركزهم في الحياة العملية، مركزًا لم يكن بد على الدوام من أن يقاتلوا دونه"(٢٥).

وكانت فئة الشاب المبكر النضج العقلي الذي يرغب أن يصبح إنسانيًا يتم تصورها مقدمًا في نفاذ بصيرة خارق للمعتاد:

"وكان بهذا مضطرًا أن ينغمس فى حياة انفعال وتقلب أحوال، تتعاقب فيها بطريقة مربكة ومحيرة للعقول إحداها بعد الأخرى كل من الدراسات المنهكة للقوى، والتلمذات ووظائف السكرتيريات، ووظائف الأستاذية ووظائف ديار الأمراء، والعداوات القاتلة والأخطار المميتة، والترف والشحاذة، وما لا حد له من إعجاب وما لا حد له من نبذ واحتقار، وفيها أيضًا كانت تدفع جانبًا أصلب أنواع الجدارة والعلم فى كثير من الأحيان على يد الوقاحة السطحية البحتة. على أن أنكى وأسوأ شئ كان أن مركز الإنسانى كان لا يستقيم مع وجود منزل ثابت، وذلك نظرًا لأن ذلك المركز كان يستلزم بالضرورة حدوث تغييرات كثيرة للحصول على الرزق، أو بلغ به أن أثر فى عقل الفرد بحيث أصبح من المحال عليه أن يشعر بالسعادة طويلاً فى مكان واحد. . . ولا يكاد المرء يتصور وجود مثل هؤلاء الرجال دون أن يتحلوا بكبرياء جامح.. فهم أمثلة وضحايا أخاذة إلى آخر حد لنزعة الذاتية Subjectivity الجامحة الدرجة القصوى"[٣٦].

ومن أعظم أسباب عداء كثير من العلماء المحدثين لفكرة بوركهارت عن عصر النهضة- بل عدائهم أحياناً لفكرة أنه كان هناك عصر نهضة إيطالى على الإطلاق- أنه لا يوجد إلا النزر اليسير من الأدلة على إسهام مباشر من الإنسانيين فى مضمار العلم الحديث[٣٧]. وقد أصبح من الواضح اليوم أن المبتدعات الكبرى فى العلم قبل التقدمات الضخمة للقرنين السادس عشر والسابع عشر حدثت فى سياق ما تبقى حيًا من الجامعات والدراسات المدرسانية[٣٨]. وقد تطورت المدرسانية بإيطاليا فى وقت أوخر منه فى الجامعات الفرنسية والإنجليزية، بحيث اتفق زمان فترة أهميتها مع زمان فترة الإنسانية. وبينما كان الإنسانيون يُمنحون على التدريج المناصب فى الجامعات، أصبحوا المنافسين المشتركين بين دوائر رجال اللاهوت والفلاسفة وأساتذة القانون والطب[٣٩]. وربما لم يكن من المستطاع، برغم ذلك، نسبة الأعمال المُهِمَّة فى الطب

والفلسفة الطبيعية والمنطق، والغيبيات (الميتافيزيقيات) الخاصة بالتراث[٤٠] الإيطالي المدرساني أو الجامعي، إلى الحركة الإنسانية ولا إلى روح الفردية في عصر النهضة.

ولم يشغل بوركهارت باله بالجامعات إلا بقصد الإشارة إلى بدايات كراسي الأستاذية الخاصة بالإنسانيين، وهو تطور استهان به وصغّر من شأنه. ولم يكن فحسب مُدركًا أن الإنسانيين أسهموا بسهم ضئيل في العلم ، بل أضاف إلى ذلك أيضًا أن الدراسة الإنسانية اجتذبت إلى نفسها خير قوة في الأمة وبذلك دون ريب أنزلت الضرر بالبحث الاستنباطي للطبيعة[٤١]. وكان مدركًا أيضًا لما هو عليه من قصور في تاريخ العلوم[٤٢]. ومع أنه جعل "اكتشاف العالم" نقطة كبرى في مقاربة عصر النهضة للوجود، فإنه قنع بعدد ضئيل من الأمثلة الموضِّحة لفكرته: حدوث انتشار بين الناس عامة لاستعداد عام للنظر إلى العالم الخارجي نظرة سليمة صحيحة، وبموضوعية واستقلال. فحكى عن اهتمام الإيطاليين بالجغرافيا والرحلات والمناظر البرية والنباتات والحيوانات والأنماط السلالية البشرية. فكل ما كان يشغله من ثم كان اتخاذ الناس موقفًا تجاه الطبيعة، موقفاً له دلالة ثقافية رحبة، أكثر من اهتمامه بالإنجازات العلمية الخاصة بالنوع.

وحيثما أكب الإنسانيون إكبابًا أصيلاً أكثر وحقيقيًا أكثر على فلك الفلسفة المدرسانية، كان ذلك في مجال الأخلاق وفي فكرة دور الإنسان في الحياة. وأقام كثير من الإنسانيين أنفسهم في مقام المعارضة لمنافسيهم من المدرسانيين على أساس أن الأخيرين كانوا ينشغلون من الناحية الفنية (التكنيكية) البعيدة عن كل مصلحة وهوى بالمنطق والحق (أو الصدق)، بينما الإنسانيون كدارسين وممارسين لفن إجادة الكلام، كانوا يشغلون أنفسهم بإقناع الناس وإلهامهم بما يدفعهم إلى حياة الفضيلة. فاتبعوا في ذلك شرعية بترارك، الذي قال يوما في نقضه "لأخلاق" أرسطو: "خير أن يريد الإنسان الخير من أن يعرف الحقيقة والصدق"[٤٣]. وبهذا الموقف زودوا أنفسهم بتبرير لدراساتهم الكلاسيكية بأنها موصلة إلى الحياة المسيحية الأحسن.

وقد عكس الإنسانيون في فكرتهم حول الحياة المتمسكة بالفضيلة موقف حياتهم الخاصة إلى درجة عالية، وهم في ذلك يقرون ويؤيدون توكيد بوركهارت على فرديتهم

الذاتية النزعة. ولما كانوا يُستخدمون حِرَفيًّا على يد الأمراء والجمهوريات، فإنهم كانوا يعدون حياة الواجب الحضرى عملاً مسيحياً حقاً للغاية، واستطاعوا من ثم أن يستخرجوا سنداً لذلك الرأى من نفس تلك "الأخلاق" التى وضعها أرسطوطاليس فضلاً عن كتاب شيشرون المعنون [٤٤]. De Officiis على أن بعض الإنسانيين الآخرين الذين كانوا فى حالة من الإعواز والاعتماد فى معاشهم على العمل راحوا يؤكدون على القيمة العليا الفائقة لحياة انعزال أدبى وسكون وراحة جوانية. فلم يجدوا لذلك سنداً فقط فى التقاليد الديرية بل عند الكتاب القدماء مثل الرواقى سينيكا[٤٥] . Seneca وفى هذا المجال من الفلسفة الخلقية، لا يمكن أن يقال عنهم إنهم صنعوا إسهامات نظامية ذات أصالة أو أهمية، ولكنهم فى الوقت نفسه ظلوا صادقى التمسك بتوكيدهم البيانى أو الأخلاقى. ولا شك أن منا علّموه فى هذا الفلك له بالفعل ذات الأهمية التى أضفاها عليهم بوركهارت حيث نسب إليهم أنهم شكلوا وكشفوا الستر عن الاتجاهات الثقافية والحالات العقلية الشائعة بين الناس.

وهناك مرحلة مُهِمَّة لتاريخ الفلسفة إبان عصر النهضة علق عليها بوركهارت أهمية استثنائية خاصة هى تطوير مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino، بتشجيع وتمويل من كوسيمو دى ميديتشى Cosimo de'Medici، لعلم لاهوت مسيحى تم بناؤه والتوفيق بينه وبين كتابات أفلاطون والنصوص المصنفة للأفلاطونية الحديثة والتصوف. ومما لا مراء فيه أن أفلاطونية عصر النهضة الحديثة كان لها وقع ووطأة متسعة الجنبات وقوية المُنّة على الأمراء ورجال الحاشية، والعلماء والشعراء والفنانين ومهندسى العمارة والمادنين[٤٦]. ومع أنه قد تم التوسع فى وجهة نظر حول العالم تتفهم كلا من الأنشطة الدينية والدنيوية، المتوازيتين توازيًا عجيبًا مع التكوين التركيبى الكبير لمدرسانية القرن الثالث عشر[٤٧]، فإنها وجهة نظر تقوم أساسًا على أفلاطون لا على أرسطو.

وكان بوركهارت يرى أن الأفلاطونية الحديثة الإيطالية إنما هى صهر ومزج عصرى بصورة جوهرية فى ثماره، جمع بين الروحانية العتيقة، والقروسطية وعصر النهضوية:

"إذ تفيض أصداء التصوف القروسطي هنا في تيار واحد مع المبادئ والنظريات الأفلاطونية، ومع روح عصرية الخصوصية، وهنا تصل إلى مرتبة النضج واحدة من أثمن ثمرات المعرفة بالعالم وبالإنسان، التي بسببها وحدها يجب أن يسمى عصر النهضة الإيطالي باسم زعيم العصور الحديثة"[٤٨].

كان يعرف جيد المعرفة مدى دائرة الاهتمام الديني في أثناء هذه الفترة الدنيوية النزعة جداً كما يعلم كيف حاول الإنسانيون وغيرهم التوفيق بين المسيحية والكلاسيكيات الوثنية. ومع هذا ففي رأيه أن المذهب الإنساني كان من بعض النواحي :

"وثنياً، وزاد في نزعته تلك رويداً رويداً مع اتساع آفاقه أثناء القرن الخامس عشر. وممثلوه، الذين وُصفوا من قبل بأنهم مقدمة الحرس في نزعة فردية لا كابح لجماحها، يظهرون طابعًا عامًا بحيث أنه حتى عقيدتهم التي يُعَبَّر عنها في بعض الأحيان بطريقة محددة جداً، تصبح محل عدم الاهتمام لدينا"[٤٩].

ولبوركهارت اقتراح شائع "بوثنية" عصر النهضة، أصبح فكرة واسعة الانتشار كثيرة المبالغة. وقد تولدت عنه بدوره مدرسة معارضة تعمد في مبالغة معادلة إلى تفضيل أن تعتبر المذهب الإنساني في عصر النهضة حركة دينية في جوهرها.

(٤)

وعلى الرغم من الآراء المصحفة التي تسببت فيها اقتراحاته غير الدقيقة العبارة فإن بوركهارت يقترح مفتاح الفهم كله في تمييزه للعلاقة الوثيقة بين "الوثنية" ومذهب الفردية. وكان الشئ الذي أبرز أعظم تحد للثقافة القروسطية القديمة، هو تقدم الأنشطة الدنيوية نفسها والتحمس الذاتي، الذي كان يلاحقهم، وليس المعتقدات الدينية الجديدة.

وشأن الفيلسوف العظيم هيجل، الذى جمع بوركهارت فى كتابه "تأملات فى التاريخ" (٥٠) Reflections on History بين دحض آرائه واعتمادها وضمها إليه، كان بوركهارت يرى أن كل ثقافة تاريخية موحدة تملك فى أشد قسماتها رسوخًا بذور هلاكها. ويندر أن تعثر على عالم دارس أنصف بوركهارت فى أسلوب تقديمه لهذا الجزء من قصته!! لقد اجتاحت الجيوش الأجنبية إيطاليا فى القرن السادس عشر فلم تفقد حريتها فحسب، بل وثقافة عصر النهضة التى أحرزتها. على أن بوركهارت يعتقد أن الإيطاليين هم الذين مهدوا السبيل إلى هذا الخراب. فهو يكتب قائلاً: "ليس فى الإمكان إنكار أن إيطاليا وجدت نفسها عند بداية القرن السادس عشر بين براثن أزمة خلقية خطيرة لم يكن خير الرجال يكادون يجدون لها منها مخرجًا"(٥١). فنتجت الأزمة عن فرط تلك "الفردية" نفسها التى طالما أعجب بها وأحس أنها مفتاح ثقافة عصر النهضة. ومع ذلك فينبغى أن نوضح أنه على العكس من ستاندال ونيتشه، اللذين كان يتفق معهما فى الرأى إلى حد كبير، فإن إعجابه بالفردية لم يكن غير محدود:

"إذا نحن حاولنا تلخيص القسمات الرئيسية فى الخلق الإيطالى لذلك الزمان، كما نعرفه عن طريق دراسة حياة الطغاة فى إيطاليا، فسنحصل على شئ ما يشبه النتيجة التالية. كانت الرذيلة الجوهرية لذلك الطابع هى فى نفس الحين شرط عظمته، وهى بوجه خاص الفردية المفرطة. إذ يبدأ الفرد باطنيًا ينبذ سلطان دولة هى ، فى واقع الأمر، فى معظم الحالات استبدادية وغير شرعية . . . ويدفعه حجم الأنانية الظافرة للآخرين أن يدافع عن أنانيته هو بذراعه الأيمن. وبينما هو يفكر فى استرجاع توازنه الداخلى يقع، عن طريق ذلك الانتقام الذى ينفذه، فى قبضة قوى الظلام . . . وتأسيسًا على هذا، فإن كانت الأنانية بمعناها الأوسع فضلاً عن الأضيق، هى جذر ونبع الشر كله، فإن الإيطالى الأعلى تطورًا كان لهذا السبب أميل إلى الشر والولوع بالأذى من أعضاء الأمم الأخرى لذلك الزمن"(٥٢).

وربما جاز لنا أن نعيد إلى الأذهان أن اتهام بوركهارت لم ينطو فقط على الحكام والطبقات العليا لإيطاليا بل وأيضًا الإنسانيين والعلماء الذين جرهم تيار تقلبات الحياة إلى إتيان أعمال صارخة من الأنانية والفساد والولس والانغماس في الشهوات، وأن تلك الحالة هى التي أفضت إلى سقوط الحركة الإنسانية ونبذها ظهرياً في القرن، السادس عشر الذى يقدم بوصف كونه أوج "انتعاش العالم العهيد". وعلى شاكلة مماثلة، في "الدولة كعمل فني"، يرجئ بوركهارت حتى النهاية كشف عورات الفساد في قلعة القداسة: أحوال البابوية لعهد اسكندر السادس ويوليوس الثاني وليو العاشر وكلمنت السابع.

وينبغي ألا يفوتنا، مع ذلك، أن بوركهارت لم يعد نتيجة عصر النهضة، مهما كانت عنده صادمة مزعجة، شراً مستطيراً بأكملها. كتب عن الإنسانيين يقول:

> "ومع هذا، كانت تعيش حية في صدور كثير من علماء اللغويات نزعة واضحة لا يخطئها الفهم إلى الدقة الشديدة في المسائل المتعلقة بالديانة والأخلاق، كما أنها برهان على ضآلة المعرفة بتلك الفترة، لو وجه الاتهام إلى الطبقة بكاملها"(٥٣).

ولقد ينمو عن الفردية في عصر النهضة، إحساس بالمسئولية في الإنسان الحديث :

> "ولكن هذه التطورات الفردية لم تعتوره نتيجة خطأ ارتكبه، بل قل عن طريق حاجة تاريخية. وكذلك لم تعتوره هو وحده، بل وأيضًا، وبوجه خاص بواسطة الثقافة الإيطالية، الأمم الأوروبية الأخرى، فشكلت منذئذ الجو الأعلى الذى يتنفسونه. وهى في حد ذاتها ليست بالحسنة ولا السيئة، ولكنها ضرورية؛ ونما في داخلها معيار حديث للخير والشر- إحساس بالمسئولية الخلقية - يختلف اختلافًا جوهريًا عن ذلك الإحساس الذى كان مألوفًا للعصور الوسطى"(٥٤).

وبهذا القول تصل دراما بوركهارت عن إنسان عصر النهضة وثقافتها إلى مرحلة "حل الحبكة denouement المسرحية". فالتراث الذى كتب لعصر النهضة أن يتركه للمستقبل لم يكن يخلو من بعض الغموض: كان دعوة إلى المسئولية أكثر منه

تخلصاً من القيود. وفى النهاية، على ما يتصور بوركهارت، كان ما وهبه عصر النهضة للإنسان عبئاً لا يتم إلا بحمله، وبحمله فقط، أن يجئ أى ضرب خلاق من التجديدات وتكرار الميلادات- أى عصور نهضة- قد تنتج بعد ذلك من تلك الكتلة المعاندة الغاوية لرجال وإناث العصر المنبثق، عصر الحديد والصلب الذى كان عصره وعصرنا.

(٥)

وينبغى أن يُنظر إلى بوركهارت بوصفه أحد الأساتذة الأعلام بين المؤرخين الفلاسفة فى القرن التاسع عشر. وهو جدير بأن يوضع فى مصاف "من هزوا الأرض" من الفلاسفة - شوبنهاور وكيركجارد ونيتشه - الذين تحولوا عن تجريدات "المثالية المطلقة" إلى واقعيات الوجود التى لا مفر منها[٥٥]. فلا عجب إذن فى أن يتردد اسم بوركهارت فى هذه الأيام بين رواد "الوجودية" المعاصرين. وليست له تلك الانتصارات الجوفاء والمصالحات النهائية، التى تدار وتعالج ببالغ السهولة وبصورة لا مفر منها على يد هيجل بما درج عليه من جدل شامل. وكل وجود فردى يعتبر حيوياً للغاية، وكل احتمال تاريخى يعد بالغ الأهمية لا سبيل إلى تجاهله، بحيث لا يستطاع إحداث الانسجام فى إدخالها نسيجاً وهمياً شيطانياً من الفئات المنطقية. وكان رعبه من الثيوديسية Theodicy، أعنى تأييد عدالة الله فى خلق عالم يوجد فيه الشر، متنكرة فى ثوب التاريخ، مطلقًا لا حدود له، وكانت كراهيته للسياسة المتخذة لصور الأحلام الدينية الرائعة شيئًا ثابتًا لا سبيل إلى تغييره، وذلك حتى لو كان نبى العقيدة صديقًا حميمًا مثل نيتشه. وإذا نحن صنعنا منه، كما يفعل بعض الناس، رسولاً للتسامح الوثنى مع النفس أو مع التقدم الذى لا حد له نحو الكمال كان معنى ذلك تشويه تعاليمه تشويهاً مخزياً.

وظل بوركهارت أيام حياته كلها مفكرًا متأملاً فى الاتهامات للنفس والمجتمع والإنسان الغربى وثقافته. فلو أنه بدا فى ثنايا جميع ما كتب غير ميال إلى ترتيب الحقائق التى يعرفها جيداً وحبكها فى صورة حكايات ساحرة عن خلاص البشر، فإن

ذلك يعود إلى أنه كان يفهم أن حكايته لا تصلح تمامًا أن تكون وسيلة تعجيل النعاس إلى عيون الأطفال عند إرخاء الليل سدوله. وإذ كان من دأبه أن يظل متواضعًا تلقاء الحقيقة والواقع، فإنه لم يكن ليضخم من شاهد الخطة المرسومة بحيث يغطى على ويطمس الأهمية البالغة للإرادة اللاشرعية والدافع فى التغير التاريخى.

وجدير بالذكر أن مؤرخىْ وفيلسوفىْ الثقافة فى القرن العشرين اللذين يمكن أن يجمع إليهما بصورة ملائمة ولائقة تماماً هما يوهان هويزينجا Johan Huizinga وماكس ڤيبر .Max Weber وليس بذى شأن أن هويزينجا وويبر وجدا بعض العيوب فى تفاصيل ما أورده بوركهارت من بيان حول عصر النهضة. وإن بوركهارت ليتحد مع كل من هويزينجا وويبر فى نفاذ البصيرة والتعقيبات. إذ تقع تحت سطوح كتبهم "حضارة عصر النهضة فى إيطاليا" The Civilization of the Renaissance in Italy و"اضمحلال العصور الوسطى"(*) The Waning og the Middle Ages و"الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية" The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism صور مختلفة لفكرة أو نغمة مشتركة:

لقد طرد الرجل (الإنسان) الغربى طردًا لا مرد له- أو قل طرد نفسه- من عالم كعالم الطفولة، قائم على السحر وعدم التوزع والتشتت. وقد ظل منذ أيام نفيه (أم هو كان انسحابه؟) يتجول فى أرجاء العالم. وحيثما ذهب فسرعان ما يُعرف، نظراً لأنه يحمل عبئًا يراه الناس جميعًا - هو عبء الذات. فالأنا Ego هو فى نفس الوقت علامة قابيل كما أنه تاج مجده.

هذا وإن محاولة التخلص من هذا العبء الثقيل بأية وسيلة ممكنة، إنما هو نوع من الرغبة فى قلب أوضاع لا سبيل إلى قلبها. وعندئذ لا بد أن يقع كل إنسان على

(*) قامت هيئة الكتاب بإعادة إصدار ترجمته منذ فترة قريبة لنفس مترجم هذا الكتاب .

وجـهـه من خـلال متـاهات لا نـهاية لها دون أن يجـد مرفـأ هادئًا يركن إليـه ولا نهـاية لرحلتـه. وهكذا يكون اتخاذ التدابير لمنع التشنج من الداخل أو من الخارج على يد ميراث الذاتية المقدورله؛ وهـكذا يكون استثمار التراث المبهم بحيث لا يترتب على ذلك فوضـى واضطراب روحى أو "لا تـحجر ميكانيكى"- كانت تلك هى التكليفات الكالحة التى ألقيت على عاتق رجال عصر النهضة والتي تلقى على كواهلنا نحن ورثتهم.

هـذا وقـراءة ما سطره بوركهارت مـن صـفحات إنمـا هـو بمثابـة النظـر فى مرآة.

بنجامين نلسون،
كلية هوفسترا
شارل ترينكاوس،
كلية سارة لورانس

مدينة نيويورك، مارس ١٩٥٨

ملحوظـة : البحث السـابق ألقى فى مؤتمر جامـعة كولومبيا عن عصر النهضة فى ٦ مايو ١٩٥٨

هوامش المجلد الأول

ملحوظات على المقدمة

(١) صدر هذا العمل لأول مرة فى ١٨٦٠ تحت عنوان Die Culture der Renaissance in Italien: Ein Versuch. وكانت الإصدارات التالية والترجمات كثيرة العدد. وأعظمها قدرًا هى الإصدارات الثالثة وما عقبها التى وَسّعها لودفيج جايجر Ludwig Geiger والإصدارات الثالثة عشرة وما بعدها التى أعيدت مسيرتها الأولى على يد فالتر جويتس Walter Goetz . فأما الترجمة الحالية بقلم س. ج. ش. ميدلمور S. G. C. Midllemore فقامت على الطبعة الألمانية الخامسة عشرة.

وقد ولد بوركهارت فى ١٨١٨ بمدينة بازل (بال) بسويسرا ومات بها فى ١٨٩٧، والدراسات الحديثة التالية نافعة بوجه خاص فى تقدير حياته وأعماله وأهميته الكبيرة:

Werner Kaegi, Jacob Burckhardt: Eine Biographie (Basel and Stuttgart, 1947 ff); Alfred von Martin, Die Religion Jacob Burckhardts, 2d ed. (Munich, 1947); Karl Loewith, Von Hegel zu Nietzsche, 3d ed (Zurich, 1950).

وقدم چيمس هاستينجز نيكولز James Hastings Nichols مقدمة مثيرة لترجمته لكتاب بوركهارت "تأملات فى تاريخ العالم" Weltgeschichtliche Betrachtungen؛ انظر: Force and Freedom: Reflections on History, (New York, 1943; reprinted Meridian Books, 1955). وانظر أيضاً اسكندر درو Alexander Dru فى مقدمته لترجمته، The Letters of Jacob Burckhardt (New York,1955).

(٢) انظر القسم الأول، الفصل الأول؛ وانظر أيضًا القسم السادس، الفصل الأول إن شئت بيانًا أخاذًا.

(٣) قارن ولاس ك. فرجسون، Cf. Wallace K. Ferguson, The Renaissance in Historical Thought (Cambridge, Mass., 1948)، طلباً لأهم دراسة حديثة قيمة "لفكرة النهضة". قارن أيضًا كارلو أنجيليرى Carlo Angelieri, Il problema religioso del Rinascimento: Storia della critica e bibliografia (Florence, 1952).

(٤) انظر لين ثورنديك Lynn Thorndike، الذى دافع بقوة عن إنكاره لأصالة وتميز عصر النهضة فى كثير من كتاباته، وينتهز الفرصة فى حديثه عن "عصر النهضة أو ما قبل النهضة؟"، (-Journal of the Histo

ry of Ideas, January 1943, Vol. IV, No. i, pp. 63-74)، ليميز أن بوركهارت كان يبغي وضع حدود "روح" النهضة، ولكنه يعترض بأن "كتابه لا يكاد يمس حقل التاريخ الفكري ويبدو كأنما يملك نوع القلق ذي الأمل الخادع".

(٥) مثال ذلك هانريش تود Heinrich Thode, Franz von Assisi und die Anf?nge der Kunst der Renaissance (Berlin, 1885)، وكونراد بورداخ Konrad Burdach, Vom Mittelalter zur Reformation (Halle, 1893). وعن نقد مثل هذا الاشتقاق للنهضة باللغات الأوروبية من التصوف الديني الفرنسيسكاني، انظر فالتر جويتس Walter Goetz, "Renaissance und Antike", Historische Zeitschrift, CXIII (1914), 237-59; "Franz von Assisi und die Entwicklung der mittelalterlichen Religiösitat", Archiv fur Kulturgeschichte, XVII (1927), 129-49. وعن الجهود الأكثر بقًة المبذولة لتعقب علاقة الروحانية الوسيطية، وبالأخص الفرنسيسكانية، مع مذهب "الفردية" عند بترارك وتصور الإنسانيين للكمال المسيحي، انظر الورقتين الحديثتين بقلم دايتون فيليبس: "مذهب بترارك في التأمل"، "Dayton Phillips: "Petrarch's Doctrine in Meditation Vanderbilt Studies in the Humanities, I (1951) 251-75، وكذلك انظر شرحه "الطريق إلى الكمال الديني حسب عمل القديس بونافينتوري" idem, "The Way to Religious Perfection according to St. Bonaventure's De Triplice Via." Essays in Medieval Life and Thought, ed. J. H. Mundy, R. W. Emery, and B. N. Nelson (New York, 1955), 31-58, esp. p. 58.

(٦) عن هذه النزعة إلى انتقاء أجزاء منعزلة من النموذج الكلي، انظر نورمان نلسون Norman Nelson, "Individualism as a Criterion of the Renaissance", The Journal of English and Germanic Philology, XXXII (1933), 316-34.

(٧) انظر Kunstwerke der belgischen Stadte (1842) and Conrad von Hochstaden (1843) in Vol. I of Gesamtausgabe (Stuttgart, 1930-34. Ferguson, op. cit., 183.. وكان بوركهارت راجع ووسع في ١٨٤٧ كتاب فرانز كوجلر Franz Kugler, Handbuch der Geschichte der Malerei von Constantin dem Grossen bis auf die neuere Zeit (2 vols., Berlin 1837).

(٨) قارن القسم السادس "الأخلاق والدين"، وبخاصة الفصل الثاني "الدين في الحياة اليومية".

(٩) انظر القسم الثالث، الفصل الأول.

(١٠) قارن شارلز هومر هاسكينز Cf. Charles Homer Haskins, The Renaissance of the Twelfth Century (Cambridge, Mass., 1927), reprinted New York: Meridian Books, 1957؛ وإروين بانوفسكي Erwin Panofsky, "Renaissance and Renascences", Kenyon Review, VI (1944), 201-236. وستجدون تعبيراً مثيراً لهذه النظرة عند يوهان نوردستروم Johan Nordström, Moyen-Age et Renaissance (Paris, 1933).

(١١) انظر القسم الثالث، الفصل الأول.

(١٢) انظر ج. فـويجت، G. Voigt, Die Wiederbelung des classischen Altertums, oder das erste Jahrhundert des Humanismus (Berlin, 1859): قـارن دراسـات ر. ر. بولجـار R. R. Bolgar، وإ. كورتيوس E. Curtius، ور. سابَاديني R. Sabbadini، وج. توفَانين G. Toffanin، ور. فايس R. Weiss، وانظر فوق كل شئ التلخيص الذي دبجه ب. او. كريستيلر P. O. Kristeller, The Classics and Renaissance Thought (Cambridge, Mass., 1955). وعن اسـتـعـراض نفيس للأبحاث على ناحية واحدة هامة لهذه الفكرة القيمة، انظر كينيث م. سيتّون Kenneth M. Setton, "The Byzantine Background to the Italian Renaissance".. في Proceedings of the American Philosophical Society, Vol. 100, No. 1 (February 1956), 1-76..

(١٣) لعل أشد الأعـمـال تقديراً من الجـمـيع في هذا الضـرب الأدبي منذ أيام بوركـهارت هـو كـتـاب يوهان هويزنجا Johan Huizinga " اضـمـحـلال العـصـور الوسطى[*] The Wanning of the Middle Ages (London, 1924)، وصدر الآن في طبعات رخيصـة في سلسلة Anchor Books. وكتاب دي توكـفـيل De Tocqueville، الديمقـراطيـة في أمريكا Democracy in America (1835)، وإن لم يقصد منه أن يكون تاريخًا للثقافة، يستحق أن يذكر أيضاً في هذا الصدد.

(١٤) وهكذا يكتب الأستاذ هرشل بيكر Professor Herschel Baker ... " :إن بوركهارت في طول كتابه 'حضارة عصر النهضة في إيطاليا' وعرضه يتصور أن الثقافة Kultur حقيقة متعالية روحانية متسامية تجد تعبيراً عنها في أعمال عمال مهرة صنّاع. فإن أحكامه الجمالية (الاسطاتيكية) الحادة تتغلغل فيها بكل الاتجاهات عـبـارات مـثـل Entwicklung des Individuums and die Entdeckung-des-Menschen und der Welt". في The Dignity of Man (Cambridge, Mass., 1947). وتصادف أن العبارات المعطاة في الكتاب الأصلي للأستاذ بيكر ظهرت قبل بوركهارت في النثر الفرنسي الأقل وعورة لميشليه Michelet، الذي كان، دون ريب، متـأثراً تأثرًا عظيمًا بهيجل. والفرق بين نسـخـة بوركهارت عن عصر النهضة ونسخة هيجل ونسـخة ميشليه يحتاج إلى تأكيد هنا بنفس قوة تأكيد أوجه التشـابه. والموضـوع كله يسـتحق دراسـة خـاصـة. انظر، الآن، فيـرجسـون op. Cit. 169-194؛ وقـارن ك.لوويث cf. K. Loewith, "Burckhardts Stellung zu Hegels Geschichtsphilosophie", Deutsche Vierteljahrschrift für Litteraturwissenschaft und Geistesgeschichte, VI (1928), 719 ff.

(١٥) انظر إ. ب. تايلور E. B. Tylor, Primitive Culture (London, 1871)، وهـو مـوجـود الآن في سلسلة الشعلة Harper Torchbook series, New York 1958, Part I, p. 1. وينبغي أن يلاحظ

(*) ترجمة إلى العربية مترجم هذا الكتاب ، وصدر عن الهيئة المصرية للكتاب باسم اضمحلال العصور الوسطى ، وحصل المترجم عن ترجمته له على جائزة الدولة التشجيعية في الترجمة ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ١٩٨١ ، وقد قامت هيئة الكتاب بإعادة طبعة للمرة الثانية في ١٩٩٨

أن بوركهارت سبق تايلور فى استعماله العلمى لفكرة وتصور كلمة "الثقافة culrture". وعن الاستخدامات السابقة للمصطلح، التى ظهرت بالفعل بمعان عديدة فى صفحات كانت Kant، انظر أ. ل. كروبير A. L. Kroeber, "The Concept of Culture in Science", (1949) in The Nature of Culture (Chicago, 1952), 118-35, esp. at 119.

(١٦) وقد أصبحت أهمية بوركهارت كمفسر ومنظر للثقافة تكتسب اعترافاً متأخراً، وذلك على الأقل عند أساتذة الأنثروبولوجيا. وأ. ل. كروبير مثلاً فى مقال له صدر فى ١٩٥٠ حول "The History and Present Orientation of Cultural Anthropology", The Nature of Culture, Chigaco, 1952, 144-51، يضع بوركهارت بين مؤسسى العلم فى السنوات بين ١٨٥٩ و ١٨٧١ عندما ظهرت على التعاقب كتب دارون وتايلور.

وعن المحاولات الحديثة لتصنيف "تصورات" و"مقومات" و"مدمرات" الثقافة والشخصية، انظر س. كلاكهون C. Kluckhohn, "The Study of Culture", in The Policy Sciences, ed. D. Lerner and Harrold Lasswell (Palo Alto, Calofornia: Stanford University Press, 1951). ch v; C. Kluckhohn and H. A. Murray, eds. Personality in Nature, Society, and Culture (New York, 1953), Hans Gerth and C. Wright Mills, Character and Social Structure (New York, 1953).

(١٧) شتوتجارت، ١٨٦٧.

(١٨) انظر القسم الثانى، الفصل الأول. وهذه الجملة ومعها جمل أخرى متناثرة فى أرجاء العمل، لم يفتها أن توقع فى محنة جميع دارسى العصور الوسطى المحترفين. وينبغى أن يقال دفاعاً عن بوركهارت إنه لم يتوقع أن يحكم عليه برأى على أساس جمل من هذا النوع وحده. فإنه اعتمد على رغبة قرائه فى أن يكونوا ذوى قدرة على التميز، فى كل من تعرّف سياق الأقوال التى نطق وتشكيل معانيه من فصل إلى آخر فى الكتاب وفى كتاباته السابقة. وكما يقول بصراحة نموذجية فى مقدمته: "...سيسعدنا كثيراً ان نُمنح استماعاً يتصف بالأناة والصبر، وأن يُؤخذ هذا الكتاب ويُحكم عليه ككل متكامل. وإن أخطر صعوبة فى تاريخ الحضارة لتبدو عندما يقتضى الأمر أن تقسم عملية فكرية كبرى إلى فئات مفردة، بل إلى فئات قد تبدو فى الغالب تعسفية، لكى تصبح مفهومة بطريقة ما. وكانت نيتنا معقودة فيما سبق على أن نملأ الثغرات فى هذا الكتاب بتصنيف "عمل" أى كتاب خاص عن فن عصر النهضة- وهى نية تمكنّا مع ذلك من تنفيذها جزئيًا فقط". انظر القسن الأول، الفصل الأول. ولا يزال لدى ج. ب. جوتش G. P. Gooch فى صفحاته المعتدلة عن بوركهارت وأهدافه وإنجازاته شئ يقوله للنقاد المتحيزين والمتحذلقين الذين تصدوا لدرته الكريمة: انظر History and Historians in the Nineteenth Century, 2nd ed. (New York, 1952), 529-33.

(١٩) انظر القسم الثانى، الفصل الأول.

(٢٠) قارن تعقيبات فرجسون فى الفصل الذى عقده عن "The Traditional Interpretation of the Renaissance in the North", op. cit., pp. 253-57; idem, The Interpretation of the Ren-

aissance: Suggestions for a Synthesis", Journal of the History of Ideas, XII (1951), p. 48..ويمكن ملاحظة البنيان العريض للمصطلح عند مايرون جيلمور Myron Gilmore, The World of Humanism (New York, 1952)، والفصول عن عصر النهضة التي جمعها ونشرها ج. ر. بوتر G. R. Potter، والتي صدرت مكونة المجلد الأول من The New Cambridge Modern History (Cambridge, 1958).

(٢١) انظر القسم الثاني، الفصل الأول.

(٢٢) عن ضوء إضافي شائق عن مسألة طبيعة الدولة هذه والاتجاه نحوها، انظر ج. هـ. هيكستر J. H. Hexter, "Il principe and lo stato", Studies on the Renaissance, IV (1957), 113-38. وهناك دراسات نافعة حول الحياة والنظرية السياسية تأليف ر. فون ألبرتيني R. von Albertini، وهـ. بارون H. Baron، وإ. إمرتون E. Emerton، وأ. جيويرث A. Gewirth، وألن هـ. جيلبرت Allen H. Gilbert، وفيليكس جيلبرت Felix Gilbert، ون. روبينشتاين N. Rubenstein، ون. ڤاليرى N. Valeri، وغيرهم.

(٢٣) انظر القسم الأول، الفصل الثاني.

(٢٤) هناك تعبيرات عن نقطة النظر هذه يمكن العثور عليها في كتابات ف. أنتال F. Antal، وهانز بارون Hans Baron، وإ. ب. شيني E. P. Cheyney، وألفرد دورين Alfred Doren، وأرنولد هاوسر Arnold Hauser، وهالفدان كوت Halvdan Koht، وجينو لوزاتّو Gino Luzzatto، وإ. رينوارد Y. Renouard، وأرماندو سابورى Armando Sapori، وفرديناند شيفيل Ferdinand Schevill، وو. سومبارت W. Sombart، وادجار زيلسيل Edgar Zilsil، وغيرهم. وهناك محاولة لإظهار بعض العيوب في التصويفات العادية لهذه المسألة وربط الأمر كله بما يفرضه ماكس ويبر Max Weber حول الأخلاق عند البروتستانت و"روح الرأسمالية" يمكن الاطلاع عليها عند ب. ن. نلسون B. N. Nelson في "The Usurer and the Merchant Prince. Italian Businessmen and the Ecclesiastical Law of Restitution, 1100-1550", The Journal of Economic History (annual supplemental issue), VII (1947), 104-22; Cf. idem, The Idea of Usury: From Tribal Brotherhood to Universal Otherhood (Princeton, 1949), esp. pp.18-28.

(٢٥) عن مقدمات نافعة بوجه خاص للمصادر والمشاكل، انظر الكتابات الحديثة لرايموند دى روڤر Raymond de Roover، وإيف رينوارد، وأرماندو سابورى. (وأوراق الأخير ومقالاته المجموعة التي نشرت تكريماً له تعد مناجم للمعرفة والمعلومات). وأصدر إيريس أوريجو Iris Origo مؤخراً بياناً وثائقياً مملوءاً بالحيوية عن حياة وتقدم الأعمال المتوسعة لتاجر بارز في القرن الرابع عشر هو فرانشيسكو دى ماركو داتيني Frncesco di Marco Datini من براتو Prato؛ تحت اسم A Merchant of Prato (New York, 1957).

(٢٦) مثال ذلك، انظر القسم الخامس، الفصل الأول. والمواد التي لا يستغنى عنها في الوضع الثقافي والاقتصادى في إنتاج الفن أثناء عصر النهضة سنجدها في عمل م. واكرناجل M. Wackemagl,

Der Lebensraum des Künstlers in der florentinischen Renaissance (Leipzig, 1938). وإن ر. س. لوبيز R. S. Lopez اتخذ في الأونة الأخيرة نظرة متطرفة تقول بأن المواطنين المبرزين كانوا يستثمرون أموالهم في الفنون بسبب تقلص الفرص البديلة للكسب في كل من الأسواق الداخلية والأجنبية. ويعد هذا توسيعاً وإسهاباً في أطروحة خاصة حول "الأزمة" أو "الركود" للأشغال المالية والتجارية في العصور الوسطى وعصر النهضة، وهو الأمر الذي تبناه في السنوات الأخيرة عدد من مؤرخي الاقتصاد في أوربا. انظر لوبيز "Hard Times and Investment in Culture", Renaissance News, Vol. V (1952), pp. 61-63.

(٢٧) انظر القسم الثالث، الفصل الأول.

(٢٨) قارن هاسكينز .Cf. Haskins, op. Cit., chs iv., v., ix ومن الناحية الأخرى، كما أوضح ذلك ب. أو. كريستيلر P. O. Kristeller، بينما "كانت العصور الوسطى تمتلك مجموعة مختارة لها وزنها من الأدب الكلاسيكي"، فإن "إنسانية عصر النهضة مددت معرفتها أو كادت إلى أقصى مدى في بقاياها الحية..." كما أن، "كل مجال الأدب الإغريقي الفلسفي والعلمي بأسره جُعل مُتاحًا بدرجة أكمل لتناول الغرب مما كان في العصور الوسطى أو في العهد الروماني العتيق..." انظر The Classics and Renaissance Thought, pp. 17, 23.

(٢٩) انظر القسم الثالث، الفصل الثالث.

(٣٠) قارن من ناحية، الكتابات المتنوعة لجيسيبي توفّانين Giuseppe Toffanin، الذي ترجم كتابه Storia dell'umanesimo (Naples, 1933) إلى الإنجليزية حديثاً إليو جيانتوركو Elio Gianturco, History of Humanism (New York, 1954). ويمكن من الناحية الأخرى ذكر يوجينيو جارين Eugenio Garin, L'umanesimo italiano (Bari, 1952).

(٣١) انظر ب. أو كريستيلر، P. O. Kristeller, op. cit., p. 12 and "Humanism and Scholasticism in the Italian Renaissance", Studies in Renaissance Thought and Letters (Rome, 1956), 553-83.

(٣٢) انظر كريستيلر، The Classics and Renaissance Thought, pp. 11-14.

(٣٣) يؤكد كريستيلر أن هذه الأنظمة الخمسة الخاصة بالأجرومية (قواعد اللغة والنحو) وعلم البيان والشعر والتاريخ والفلسفة الأخلاقية تنطوي على دراسة المذهب الإنساني studia humanitatis للإنسانيين؛ قارن .cf الأعمال التي سبق إيرادها. ويحتفظ ثورندايك Thorndike بكلمات ثناء الوحيدة على كتاب بوركهارت. "الواقع أنه من بين جميع أقسامه الستة، يبدو الثالث منها الذي يدور حول انتعاش العصر العهيد دليلاً على تمكنه من علمه وأستاذيته، حيث يعترف بالنقائص والجدارات على حد سواء لدى الإنسانيين الإيطاليين ويحتوي على كثير من شذرات التفاصيل المضيئة" loc. cit., p. 69.

(٣٤) انظر القسم الثالث، الفصل السادس.

(٣٥) انظر القسم الثالث، الفصل الحادي عشر.

(٣٦) انظر القسم الثالث، الفصل الحادي عشر.

(٣٧) وبخاصة ثورندايك، Science and Thought in the Fifteenth Century op. cit., pp. 71-3; (New York, 1929), Introduction. ولعل جورج سارتون George Sarton هو الذي قال أشد الأقوال عنفاً حول الإنسانيين وعصر النهضة تأسيساً على قلة إسهامهم في تاريخ العلوم في محاضرته "Science in the Renaissance", in The Civilization of the Renaissance (Chicago, 1929). ومع هذا قارن cf. كتابه الأحدث من: The Appreciation of Ancient and Medieval Science during the Renaissance, 1450-1600 (Philadelphia, 1955); and Six Wings: Men of Science in the Renaissance (Bloomington, Ind., 1957)، حيث يتخذ رأياً معتدلاً أكثر.

(٣٨) كتب أ. ر. هول A. R. Hall في الأونة الأخيرة: "من الواضح أن. . . التمسك الشديد التصلب لثمار التضلع العلمي الإنساني لم ينتج لعصر النهضة النشاط العلمي الذي بدأ في أخريات القرن الخامس عشر. والأغلب أنه نتج عن اقتران العناصر في العلوم القروسطية مع غيرها مما اشتق من العصر العهيد الذي تم اكتشافه من جديد". The Scientific Revolution, 1500-1800 (New York, 1954), p. 9. وتوجد خلاصة قوية للتطورات القروسطية والحديثة المبكرة في أ. ك. كرومبي A. C. Crombie, From Augustine to Galileo: The History of Science, A.D. 400-1650 (London, 1952; Cambridge, Mass., 1953)، وبخاصة الفصلين الرابع والخامس وقائمة المراجع. وقارن أيضاً إرنست مودي Ernest Moody, "Galileo and Avempace", Jooumal of the History of Ideas, XII (1951), 163-93, 375-422.

(٣٩) قارن كريستيلر، Humanism and Scholasticism", Studies in Renaissance Thought" and Letters. وأيضاً يوجينيو جارين، La disputa delle arti nel Quattrocento (Florence, 1948).

(٤٠) قارن مارشال كلاجيت Marshal Clagett, Giovanni Marliani and Late Medieval Physics (New York, 1941)؛ وج. هـ. راندال J. H. Randall, Jr., "Development of the Scientific Method in the School of Padua", Journal of the History of Ideas, I (1940), 177-206.

(٤١) انظر القسم الرابع، الفصل الثاني.

(٤٢) انظر القسم الرابع، الفصل الثاني.

(٤٣) انظر "من جهله الخاص "On His Own Ignorance، الترجمة الإنجليزية، على يد هانز ناخود Hans Nachod في كاسيرر Cassirer، وكريستلر، وراندال. The Renaissance Philosophy of Man (Chicago, 1948), p. 105.

(٤٤) هناك كتاب يؤكد أشد التأكيد على الاحتجاج بهذه الناحية من المذهب الإنساني ألفه هانز بارون Hans Baron, The Crisis of the Early Italian Renaissance (Princeton, 1955). قارن أيضاً يوجينيو جارين. Umanesimo e vita civile (Florence, 1947).

(٤٥) انظر شارلز ترينكاوس "Petrarch's Views of the Individual and His Society", Osiris, XI (1954), 169-198، بالإضافة إلى Adversity's Noblemen: The Italian Humanists on Happiness (New York, 1940).

(٤٦) وبالإضافة إلى الأثر المعروف على بمبو Bembo وكما تم التعبير من خلاله على كاستيليوني Castiglione في رجل البلاط Il Cortegiano، فإن روبولف ويتكوار Rudolf Wittkower, Architectural Principles in the Age of Humanism (London, 1949)، وشارلز دي تولناي Charles de Tolnay, Michelangelo, II, The Sistine Ceiling (Princeton, 1945)، يمكن الإشارة إليهم بعرضهم بيانًا تفسيريًا لتطبيق الأفلاطونية الحديثة المسيحية في العمارة والتصوير.

(٤٧) قارن ب. أو. كريستيلر "The Scholastic Background of Marsilio Ficino", Studies in Renaissance Thought and Letters, p. 35-55، وكتابه The Philosophy of Marsilio Ficino (New York, 1943)؛ ويوجينيو جارين Giovanni Pico della Mirandola, Vita e dottrina (Florence, 1937).

(٤٨) انظر القسم السادس، الفصل الخامس.

(٤٩) انظر القسم السادس، الفصل الثالث.

(٥٠) ونشر باسم Force and Freedom: Reflections on History (New York, 1943), pp. 79-103.

(٥١) انظر القسم السادس، الفصل الأول.

(٥٢) انظر القسم السادس، الفصل الأول.

(٥٣) انظر القسم الثالث، الفصل الحادي عشر.

(٥٤) انظر القسم السادس، الفصل الأول.

(٥٥) انظر ك. لوويث K. Loewith, Von Hegel zu Nitzsche, esp. 324-6؛ قارن مقارنة آ. فون مارتين عن بوركهارت Die Religion Jacob Burckhardts

القسم الأول

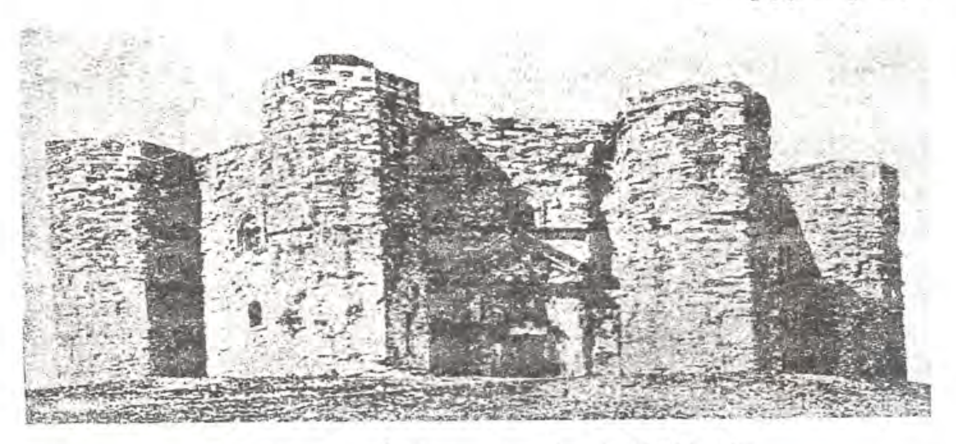
الدولة كعمل فنى

الفصل الأول

مقدمة

يحمل هذا العمل عنوان "مقالة" Essay بأدق معاني الكلمة. وليس هناك إنسان أشد وعيًا من الكاتب بالوسائل والقوة المحدودة التي أبهظ بها كاهله إذ أقدم على أن يعالج مثل هذا العمل الشاق. وحتى لو أنه استطاع أن ينظر بثقة أكبر إلى ما قام به من أبحاث سابقة فإنه لا يكاد مع ذلك يشعر بتأكد واطمئنان أكثر إلى استحسان القضاة والحكام الأكفاء. وربما حملت خلاصة حضارة معينة لكل عين صورة مخالفة؛ وفي معالجة كهذه لحضارة هي أم حضارتنا، ولا تزال تأثيراتها تعمل عملها بين ظهرانينا، ليس هناك مفر من أن الحكم والإحساس الفرديين يكون لهما أثرهما في كل لحظة على كلٍ من الكاتب والقارئ على السواء. فالمحيط الواسع الخضم الذي نجرؤ أن نمخره تكثر فيه الطرق والاتجاهات الممكنة؛ وربما لم تتلق نفس الدراسات التي خدمت هذا العمل، لو وضعت في أيد أخرى، إلا معالجة مختلفة تمامًا وتطبيقًا آخر تمامًا، بغاية السهولة، وليس ذلك فحسب بل وتؤدي أيضاً إلى نتائج مبانية مُبَايَنَةٌ كلية. وذلك في الواقع هو بالغ أهمية الموضوع حيث لا ينفك يستدعي أبحاثًا جديدة، كما يمكن دراسته مع منفعة صالحة من أشد وجهات النظر تباينًا. وفي الحين نفسه سيسعدنا كثيرًا أن نُمنح استماعًا يتصف بالأناة والصبر، وأن يؤخذ هذا الكتاب ويحكم عليه ككل متكامل. وإن أخطر صعوبة في تاريخ الحضارة لتبدو عندما يقتضي الأمر أن تقسم عملية فكرية كبرى إلى فئات مفردة، بل إلى فئات قد تبدو في الغالب تعسفية، لكي تصبح مفهومة بطريقة ما. وكانت نيتنا معقودة فيما سبق على أن نملأ الثغرات في هذا

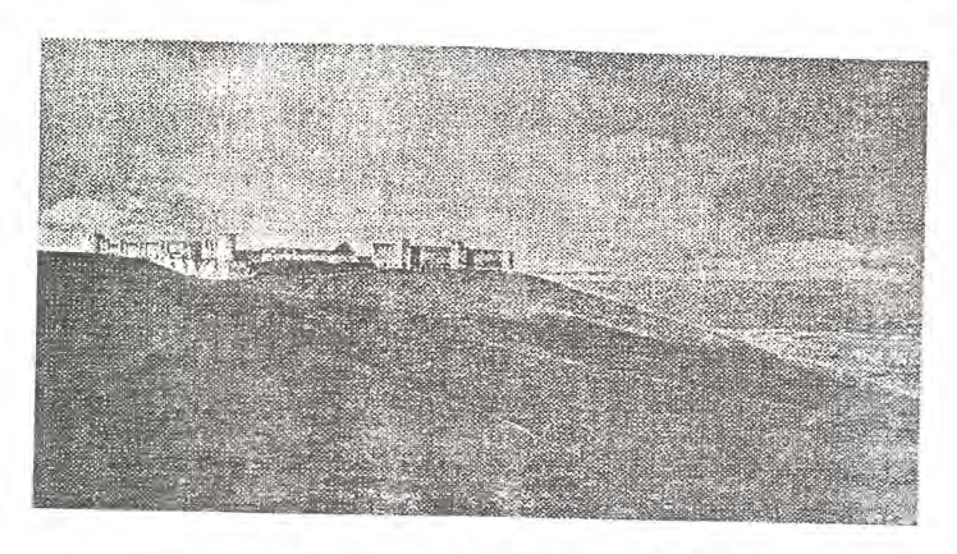
الكتاب بتصنيف "عمل" أى كتاب خاص عن فن عصر النهضة- وهى نية تمكنّا مع ذلك من تنفيذها جزئياً فقط[1].



شكل (١) كاسل ديل مونتى: معقل أسرة هوهنشتاوفن

وقد عاد الكفاح بين البابوات وأسرة هوهنشتاوفن Hohenstaufen على إيطاليا بحالة سياسية تختلف اختلافاً جوهرياً عنها فى كل أقاليم الغرب. فبينما كان نظام الإقطاع بكل من فرنسا وإسبانيا وإنجلترا من بالغ التنظيم بحيث أنه إبان فترة ختام وجوده تحول بصورة طبيعية إلى ملكية موحدة، وبينما ساعد فى ألمانيا على الاحتفاظ، من الناحية الظاهرية على الأقل، بوحدة الإمبراطورية، فإن إيطاليا نبذته نبذاً تاماً أو كادت. ولم يعد أباطرة القرن الرابع عشر، حتى فى أحسن ظروفهم مواءمة، يُستقبلون ويُحترمون بوصفهم سادة إقطاعيين، بل كزعماء منتظرين ومؤيدين لدول موجودة وقائمة أنفاً؛ بينما البابوية[2]، بما تهيأ لها من صنائع وحلفاء، أوتيت من القوة القدر الكافى لتعويق الوحدة القومية فى المستقبل، لأنها هى نفسها لا تبلغ القدرة الكافية على إحداث تلك الوحدة. وقد قام بين الاثنين حشد ضخم من الوحدات السياسية – ما بين جمهوريات ومستبدين- منها ما كان له أمد طويل ومنها ما كان حديث العهد، وكلها كان وجودها لا يقوم إلا على قوتها وتمكنها من المحافظة عليه[3]. ونحن نجد فيهن جميعاً لأول مرة الروح السياسية الحديثة لأوروبا، مستسلمة استسلاماً غامراً لغرائزها

الخاصة، التي تكشف في أحوال كثيرة عن أسوأ ملامح الأنانية التي لا كابح لها والتي تنتهك كل حق وتخمد أنفاس كل جرثومة لثقافة أكثر صحة. ولكن حيثما تم التغلب على هذه النزعة الشريرة أو تمت مكافأتها وتعويضها بأية سبيل من السبل فإن حقيقة جديدة تظهر في ساحة التاريخ- هي "الدولة" كثمرة للتأمل والحساب المحسوب، "الدولة" كعمل فني. وتكشف هذه الحياة الجديدة نفسها في مائة شكل وصورة، في كل من الدول الجمهورية والاستبدادية، وتحدد دستورها الداخلي مثلما تحدد سياستها الخارجية تمامًا. وسنقتصر على الحديث والتأمل في الطراز الأتم والأكثر تحديداً واضحًا، الذي تقدمه الدول الاستبدادية.



شكل (٢) معقل أسرة هوهنشتاوفن في لوتشيرا.

وكان للحال الداخلية في الدول المحكومة حكمًا استبداديًا شبه جدير بالتذكر هو الإمبراطورية النورماندية بجنوب إيطاليا وصقلية بعد تغيرها الشامل على يد الإمبراطور فريديريك الثاني[٤] ذلك بأن فريديريك الذي نشأ بين ظهراني المخاطر والخيانة إلى جوار العرب الشراقنة، وكان أول حاكم من الطراز العصري الحديث جلس

على عرش، عوّد نفسه منذ عهد مبكر، فى كل من مجالى النقد والعمل، على معالجة الأمور معالجة موضوعية بحتة. وكانت معرفته وثيقة وحميمة بالأحوال الداخلية والإدارة فى دول العرب الشراقنة؛ كما أن الكفاح المميت الذى اشتبك فيه مع البابوية أجبره، مثلما أجبر خصومه تماماً، أن يدخل إلى الميدان كل الموارد التى كانت تحت تحكمه. والتدابير التى اتخذها فريديريك (وخاصة بعد ١٢٣١) كانت ترمى إلى إنزال التدمير التام بالدولة الإقطاعية وإلى تحويل الناس إلى جمهور تعوزه الإرادة ووسائل المقاومة، ولكنها كانت نافعة إلى أقصى حد لخزانة الدولة. وأدخل المركزية، بطريقة لم تُعرف فى الغرب حتى آنذاك، إلى طرائق الإدارة القضائية والسياسية جمعاء بتأسيسه حق استئناف أحكام المحاكم الإقطاعية (التى لم يعمد رغم ذلك إلى إلغائها) أمام القضاة الإمبراطوريين. ولم يعد من المباح منذ ذلك الحين أن يشغل إنسان وظيفة بالانتخاب الشعبى، وإلا كان الجزاء تخريب المنطقة المخالفة وتحويل سكانها إلى أرقاء. وأدخل نظام فرض الضرائب؛ وكانت الضرائب المفروضة بصورة شمولية، والموزعة طبقًا للعرف الإسلامى، تجبى بطرائق قاسية ومؤذية، وهى طرائق لم يكن من الممكن بدونها والحق يقال، الحصول على ضرائب من الشرقيين. وموجز القول إننا لا نجد هنا شعبًا، بل مجرد جمهور مشذب من الرعايا؛ الذين كان من المحرم عليهم مثلاً الزواج من خارج الإقليم بدون إذن خاص، كما أنهم لم يكن مباحًا لهم تحت أى ظروف أن يتعلموا خارج البلاد. وكانت جامعة نابولى أول من نعرف أنها قيدت حرية الدراسة، بينما ترك الشرق، فى هذه الجوانب على أية حال، شبابه خلوًا من كل قيد. واقتداء من فريديريك بالحكام العرب تاجر لحسابه الخاص فى كل أرجاء البحر المتوسط، محتفظًا لنفسه باحتكار كثير من السلع، ومضيقاً بطرائق شتى سبل الاتجار على رعاياه. وكان الخلفاء الفاطميون، بالرغم من الاعتقاد الغريب (كذا!!)، متسامحين، فى بواكير عهدهم على الأقل، إزاء الفوارق الدينية فى شعبهم؛ فأما فريديريك فإنه، من الناحية الأخرى، توج نظام حكمه بمحكمة تفتيش دينية، ستبدو أكثر استحقاقًا للائمة إذا نحن تذكرنا أنه فى ثنايا اضطهاده لأشخاص الكفرة كان يضطهد ممثلى الحياة الحضرية المدنية الحرة. وأخيراً كان رجال الشرطة الداخلية، وقوام الجيش اللازم للخدمة فى الخارج،

مكونين من العرب الشراقنة الذين أُحضروا من صقلية إلى نوتشيرا **Nocera** ولوتشيرا - **Lucera** وهم رجال صم الآذان لصيحة البؤس، غير آبهين بما تفرضه الكنيسة من حرم. وفي زمن متأخر عن ذلك، أصبح الرعايا الذين نسوا طرق استخدام الأسلحة من زمن بعيد، شهوداً ومتفرجين سلبيين على سقوط مانفرد **Manfred** واستيلاء شارل من أنجو على الحكم؛ وواصل الأخير استخدام النظام الذى وجده معمولاً به من قبل.





شكل (٢) عملة من عهد فريديريك الثانى

وظهر إلى جوار الإمبراطور المركز للدولة مغتصب من أعجب الأنواع: هو نائبه وزوج ابنته، إيزيلينو دا رومانو .Ezzelino da Romano وهو يقوم أمامنا غير ممثل لأى نظام من نظم الحكم أو الإدارة، وذلك بأن نشاطه بأجمعه يدور فى سبيل السيادة على الجزء الشرقى من إيطاليا العليا؛ ولكنه كنمط سياسى كان شخصية لا تقل أهمية للمستقبل عن حاميه ومولاه الإمبراطور فريديريك. وكانت الفتوح والاغتصابات التى حدثت حتى ذلك الحين فى العصور الوسطى تقوم على ادعاءات حقيقية أو مدّعاة للإرث أو ما شاكل ذلك من دعاوى، أو قل كانت تُدّعى على الكفرة والمحرومين كنسياً. وهنا لأول مرة تمت علناً محاولة إقامة عرش عن طريق القتل الجماعى والأعمال البربرية التى لا آخر لها، وبالاختصار، باستخدام أى وسيلة من الوسائل دون النظر إلى أى اعتبار سوى الهدف المنشود. ولم يصل أى من خلفائه، حتى ولا سيزار بورجيا نفسه، إلى مضارعة الإجرام الهائل الذى ارتكبه إيزيلينو؛ وإن كان الواقع أن المثل الذى ضرب لم ينس قط، ولذا فإن سقوطه لم يؤد إلى عودة العدالة سيرتها الأولى بين الأمم، كما لم يقم بأى تحذير للمعتدين فى المستقبل.

وكان من العبث في مثل ذلك الزمان أن ينبرى القديس توماس الأكويني، وهو أحد الرعايا المولودين في عهد فريديريك، لوضع نظرية الملكية الدستورية، التي يساند الأمير فيها مجلس أعلى يعينه الأمير نفسه، وهيئة منتخبة تمثيلية ينتخبها الشعب؛ وعبثًا حاول أن يخول الشعب حق الثورة(٥). ولم تكن نظريات من هذا القبيل تلقى أى صدى خارج قاعة المحاضرات، ومن ثم لم يزل فريديريك وإيزيلينو هما الظاهرتين السياسيتين العظميين بإيطاليا في القرن الثالث عشر. إذ أن شخصياتهما، التى أصبحت نصف أسطورية فعلاً، كانت تشكل أهم موضوع فى الحكايات المائة القديمة The Hundred Old Tales، التي تقع كتابتها الأصلية دون أدنى ريب في حدود ذلك القرن(٦). ويمثل فيها فريديريك فعلاً في صورة من يملك الحق في أن يفعل ما يشاء بأملاك رعاياه، ويمارس على الجميع، حتى المجرمين أنفسهم، نفوذًا عميقًا بفضل قوة شخصيته؛ والحكايات تتحدث عن إيزيلينو بالرهبة التي تتركها من ورائها جميع الشخصيات القوية. وأصبح شخصه البهرة المركزية في أدب بأكمله، وذلك بدءًا بالأخبار وعرض الأحداث chronicles التي يرويها شهود العيان إلى المأساة التراچيدية(٧) نصف الخرافية التي كتبها من جاء بعد ذلك من شعراء.

وبعد سقوط فريديريك وإيزيلينو مباشرة ظهرت على المسرح جمهرة من الطغاة. وسنحت فرصتهم في فترة الصراع بين الجويلف والجيبيلين. وبصفة عامة ظهروا كأنهم قادة جيبيليين، ولكن في أحيان وتحت ظروف بلغت من التغير أن جعلت من المحال ألا يعترف في ثنايا تلك الحقيقة بقانون ضرورة عليا وشاملة. وكانت الوسائل التى استخدموها هى المألوفة آنفاً في الصراعات الحزبية فيما سلف من الزمان- وهى إنزال النفى أو التدمير بخصومهم وبيوت أولئك الخصوم.

هوامش الفصل الأول - القسم الأول

(١) انظر History of Architecture، تأليف فرانز كوجلر Franz Kugler. النصف الأول من المجلد الرابع، الذي يعالج فن العمارة والزخرفة لعصر النهضة الإيطالي تحت عنوان History of the Renaissance (Leipzig, 1868).

(٢) انظر مكيافيلي Machiavilli, Discosi, lib. i, c. 12، حيث يقول ما نصه: "E la cagione, che la' Italia non sia in quel medesimo termine, ne habbia anch' ellaöuna republicaöun prencipe che la governi, è solamente la Chiesa; perchè havendovi habitato e tenuto imperio temporale non è stata si potente ne di tal virtù, che l' habbia potuto occupare il restante d' italia e farsene prencipe".

(٣) كان الحكام وأتباعهم يسمون lo stato. ثم اكتسب هذا الاسم فيما بعد معنى الوجود المجموعي لمنطقة.

(٤) انظر ك. وينكلمان C. Winckelmann, De Regni Siculi Administatione qualis fuerit Frederico II (Berlin, 1859)؛ وأ. ديل فيكيو A. del Vecchio, La Legislazione di Federico II Imperatore (Turin, 1874). ودرس وينكلمان وشيرماخر Schirmacher وهامبه Hampe الإمبراطور فريدريك الثاني دراسة مستوفاة وتامة. انظر بخاصة هامبه Hampe, Kaiser Friedrich II, Hist. Ztschr., 83.

(٥) انظر يوهان يوليوس باومان، Johann Julius Baumann, Staatslehre des Thomas von Aquino, especially pp. 136 sqq. (Leipzig, 1873).

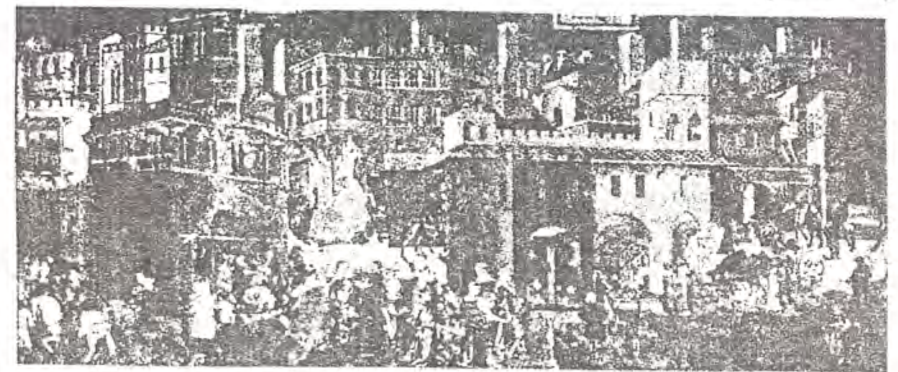
(٦) انظر الحكايات المئة القديمة Cento Novelle Antiche (ed. 1525). وعن فريديريك انظر Nov. 2. 21, 23, 24, 30, 53, 59, 59, 90, 100؛ وعن إيزيلينو انظر Nov. 31, and especially 84.

(٧) انظر سكارديونيوس Scardeonius, De Urbis Patav. Antiqu., in J. G. Græevius, Thes. Antiqu. et Hist. Italicæ, vi, 3, p. 259.

الفصل الثانى

طغيان القرن الرابع عشر

لا شك أن طغاة القرن الرابع عشر، كبيرهم وصغيرهم، يعتبرون برهانًا دائمًا على أن هذا النوع من الأمثلة لم يكن هناك أحد يثور للتخلص منه. فإن سيئات أعمالهم كانت تصرخ بأعلى صوت، وتعرض لها المؤرخون بالتفصيل. ولما كانت تلك الدول تعتمد فى وجودها على أشخاصهم فقط، كما أنها كانت من الناحية العلمية تنظم على أساس النظر إلى هذا الهدف، فإنها تقدم إلينا نقطة أهمية أعلى من أهمية مجرد السرد البحت لقصتها.



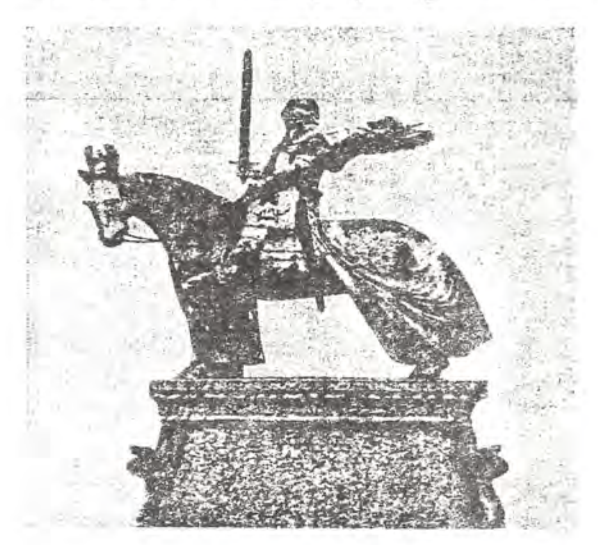
شكل (٤) منظر فى مدينة فى القرن الرابع عشر

لأمبروجيو لورينتزيتى

سيينا، بالتزو بوبليكو

تصوير أليناری

وكان أن ما جرى من تعمد تكييف الوسائل للغايات، وهو وضع لم يكن لدى أى أمير خارج إيطاليا فى ذلك الزمان أدنى فكرة عنه، مجتمعًا إلى سلطات مطلقة أو تكاد داخل حدود الدولة، أنتج بين المستبدين كلا من رجال وطرائق حياة عجيبة الشكل والتكوين.[١] وكان السر الرئيسى فى يدى حاكم حصيف يكمن فى ترك جهد طاقته شئون الضرائب وفرضها حيث وجدها، أو على الشاكلة التى نسقها بها أول مرة. وكانت أهم مصادر الإيرادات هى ضريبة أرض، تقوم على تقدير قيمتها؛ وضرائب محدودة على السلع الاستهلاكية ورسومًا على البضائع المصدرة والمستوردة؛ فضلاً عن الثروة الخاصة للبيت الحاكم. وكانت الزيادة الممكنة الوحيدة تشتق من نمو الأشغال المالية التجارية وزيادة الرخاء العام. فأما القروض، من النوع الذى نجده فى المدن الحرة، فشئ غير معروف هنا؛ وكانت مصادرة الأراضى بعد رسم خطة محكمة لذلك تعد فى نظرهم وسيلة مفضلة لجمع المال، على شريطة واحدة فقط أن يترك الرصيد العام سليمًا لم يمسه اهتزاز- وهى غاية كانوا يتوصلون إليها، مثلاً، باستخدامهم العادة الشرقية البحتة، عادة خلع القائم على الشئون المالية ونهب أمواله[٢]



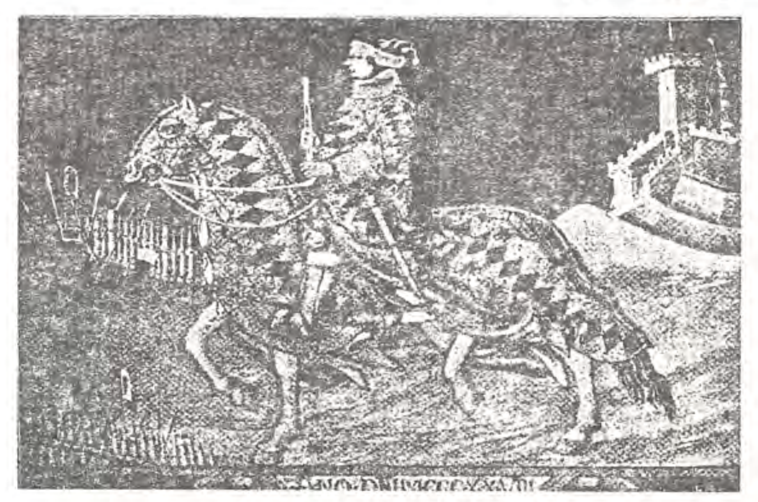
شكل (٥) تمثال كان جراندى ديللا سكالا فى هيئة فارس
من مقابر أسرة سكاليجيرى، فيرونا

ومن هذا الدخل كانت تواجه نفقات البلاط الصغير الخاصة، والحرس الخاص، وأرزاق الجند المرتزقة ونفقات المبانى العامة، فضلاً عن أعطيات المهرجين وأصحاب المواهب الذين ينتمون إلى أتباع الأمير الشخصيين. وكانت عدم شرعية حكم الطاغية تعزله عن الناس وتحيطه على الدوام بأخطار مستمرة؛ وكان أشرف أنواع التحالف الذى هو مستطيع عمله هو المعقود بينه وبين الجدارة الفكرية، دون أى اعتبار لأصلها ومنبتها. وكان سخاء أمراء القرن الثالث عشر الشماليين مقصوراً على الفرسان، وعلى طبقة النبلاء التى كانت تخدم وتغنى. وكان الحال غير ذلك تماماً عند المستبد الإيطالى. فهو بتعطشه إلى الشهرة وشغفه الشديد بالأعمال التذكارية المشيدة كان ما يحتاج إليه هو الموهبة، لا الأصل والمولد. وكان يحس بنفسه وهو فى صحبة الشاعر ورجل العلم بأنه فى وضع آخر حقًّا- يكاد يتملك به حقًّا شرعية جديدة.

ولم يكن ثمة أمير أعلى شهرة فى هذا الصدد من حاكم فيرونا، وهو كان جراندى ديللا سكالا Can Grande della Scala، الذى ضم عداد المنفيين الألمعيين الذين أكرم وفادتهم فى بلاطه بوصفهم ممثلين لإيطاليا بأسرها[٣]. ولم يكن حملة الأقلام من الأدباء غير شاكرين فضله. وهناك بترارك، الذى لقيت زيارته لبلاط مثل هؤلاء الرجال قدراً قاسياً من النقد والتثريب، قد وضع مخطط صورة مثالية لأمير القرن الرابع عشر[٤]. وهو يطالب بأشياء عظيمة من وليه ونصيره، سيد بادوا، ولكن بطريقة أبرزت أنه يعده قادراً عليها.

"ينبغى ألا تكون سيد الرعايا بل أباهم، وينبغى أن تحبهم كأطفالك؛ نعم كأعضاء من جسمك[٥]. فالسلاح والحرس والجند يمكنك ويجوز لك أن تستخدمها على العدو- فأما مع الرعايا فحسن النية كاف. وأنا بطبيعة الحال أعنى بكلمة المواطنين من يحبون النظام الموجود؛ وذلك بأن الذين يرغبون فى حدوث التغير يوميا إنما هم من المتمردين الثوار والخونة المارقين، الذين ينبغى أن تجرى العدالة الصارمة ضد مثلهم مجراها".

وهنا تجئ، مُشكَّلة بتفصيل تام، الخرافة العصرية البحتة بقدرة الدولة على كل شئ. ويكون الأمير مستقلاً عن حاشيته ورجال بلاطه، ولكنه يتولى الحكم فى الوقت ذاته ببساطة وتواضع؛ وعليه أن يأخذ كل شئ فى رعايته، وأن يحافظ على الكنائس والمبانى العامة ويرممها، وأن يحتفظ بشرطة المدينة[٦]، وأن يجفف المستنقعات، وأن يرعى توريد النبيذ والذرة؛ وأن يمارس العدل صارماً، حتى يمكنه أن يوزع الضرائب بصورة يستطيع الشعب معها أن يعرف ضرورتها وأن يذكر أسف الحاكم أن يضطر إلى وضع يده فى جيوب غيره من الناس؛ وعليه أن يعول المرضى والعجزة، وأن يحيط برعايته وإيناسه الشخصى رجال العلم المتميزين، الذين ستعتمد عليهم سمعته وحسن أحدوثته فى قابل العصور.



شكل (٦) . جيدوريتشيو فوجليانى

لسيمونى مارتينى

سيينا، بالاتزو بوبليكو

تصوير سيمان، لايبزج

ومهما تكن النواحى البيضاء البهيجة فى النظام، ومزايا بعض الحكام الفرادى وجدارتهم، فإن رجال القرن الرابع عشر لم يحرموا من وعى مميز بدرجة ما عن الولاية

القصيرة غير المؤكدة ولا الثابتة لمعظم هذه الاستبداديات. وبقدر ما كانت المؤسسات السياسية التي من هذا النوع بطبيعة الحال ثابتة راسخة القدم بصورة تتناسب وحجم واتساع رقعة الدولة التي فيها تتواجد، فإن الإمارات الأكبر حجمًا كانت على الدوام تحس بما يغريها بابتلاع تلك الأصغر..ومن ثم فإن حشوداً بأكملها من صغار الحكام كانوا يقدمون على مذبح التضحية في هذا الزمان لصالح أسرة فيسكونتي وحدها.

ونتيجة لهذا الخطأ الخارجي كان اختمار داخلي يعمل عمله ناشطًا دون توقف؛ كما أن أثر الموقف في شخصية الحاكم كان على الجملة من أسوأ الأنواع. فالقوة المطلقة، مع إغراءاتها إلى الترف وحب النفس الذي لا كابح له، والأخطار التي كان يتعرض لها من الأعداء والمتآمرين، حولته بصورة لا مفر منها أو تكاد إلى طاغية بأسوأ معاني الكلمة. ويكون من حسن طالعه أن يستطيع الثقة بأقرب أقاربه! ولكن حيث يكون كل شئ غير شرعي لا يمكن أن يكون هناك قانون للوراثة، لا فيما يتعلق بالتعاقب في تولي الحكم ولا في تقسيم ممتلكات الحاكم؛ ونتيجة لذلك فإن الوارث، إن كان عديم الكفاية أو قاصراً، كان عرضة لأن يخلع لصالح العائلة نفسها ويحل محله عم أو ابن عم ذو خلق أشد عزمًا. وكان الاعتراف بالأبناء غير الشرعيين أو استبعادهم مصدراً واسع الرحاب والنتائج للصراع؛ ومن ثم نكبت معظم هذه الأسر نتيجة لهذا بجمهور غفير من الأقارب المتذمرين النازعين إلى الانتقام. وأسفرت هذه الحال عن نشوب أحداث لا تقف عند حد من الخيانة وإلى مشاهد مخيفة من سفك الدماء العائلية. وكان المطالب بالعرش يعيش في بعض الأحيان خارج البلاد في المنفى، كما أنه شأن الفيسكونتي الذي مارس صناعة صيد السمك في بحيرة جاردا(٧) كان ينظر إلى الموقف بعدم اكتراث غامر بالصبر. وعندما سأله رسول منافسه متى وكيف كان يفكر في العودة إلى ميلانو أجاب بقوله: "بنفس الطرق التي طردت بها، ولكن ليس قبل أن ترجح جرائمه جرائمي". وقد يحدث أحيانًا أيضًا، بدافع من إنقاذ الأسرة، أن يضحي الأقارب بالمستبد تلبية للضمير العام للناس الذي انتهكه وجرحه بغلظة شديدة(٨). وحدث في حالات قليلة أن كان الحكم في يد الأسرة بأكملها، أو على الأقل كان الحاكم ملزماً أن يشاورهم في الأمور؛ وهنا أيضًا كان توزيع الممتلكات والنفوذ والسلطان كثيراً ما يؤدى إلى منازعات مريرة.

وكان هذا النظام كافة يثير الكراهية العميقة ودائمة الإلحاح بين الكُتّاب الفلورنسيين في تلك الحقبة. وحتى الفخامة والمظاهر التى ربما كان المستبد أقل شغفًا بها لإشباع غروره عن التأثير على الخيال الشعبي العام كانت توقظ أشد وأعمق أنواع السخرية فى أنفسهم. والويل لأى مغامر إذا وقع فى أيديهم، شأن محدث النعمة دوج أجويللو Doge Aguello من بيزا (١٣٦٤)، الذى اعتاد أن يخرج بموكبه حاملاً صولجانًا ذهبيًا، وأن يعرض نفسه في شرفة بيته، "بنفس الطريقة التي تعرض بها الآثار المقدسة"، وهو مسترخ على أغطية للأثاث وطنافس موشاة ونمارق مطرزة، على أن تُقدم إليه الخدمات على شاكلة البابا أو الإمبراطور من أتباع راكعين[٩]. ومع ذلك فالأغلب أن المسنين من أهالى فلورنسا يتحدثون فى هذا الموضوع بنغمة جدية مترفعة. وقد شهد دانتى بعينى رأسه وأجاد تصوير السوقية والسمة المبتذلة التى تتصف بها أطماع هؤلاء الأمراء الجدد[١٠]. "وأى شئ كان يعنى نفيرهم وأجراسهم وأبواقهم وناياتهم، إلا قولة "تعال أيها الجلاد– وأقبل أيها النسر"؟". ولم تكن قلعة الطاغية، كما يتصورها العقل العام، إلا بناء مرتفعًا قائمًا وحده، مليئًا بالسراديب وأنابيب التصنت[١١]، ودار للقساوة والشقاء. وكان الشقاء من نصيب كل من يدخل فى خدمة المستبد،[١٢] يتكهن الكل له به، ثم إذا هو يصبح حتى هو نفسه يوماً ما فى آخر المطاف موضع الرثاء: إذ لا مفر له من أن يكون عدواً لكل طيب وشريف من الرجال؛ وهو لا يستطيع أن يثق بأحد، كما أنه مستطيع أن يقرأ فى وجوه رعاياه توقع سقوطه. "وكما تقوم دولة المستبد وتنمو وتتماسك، فكذلك ينمو بين ظهرانيهم العنصر المتوارى الذى لا بد أن ينتج تفككها وخرابها"[١٣]. ولكن أعمق أساس للكراهية لم يتعرض أحد لذكره؛ فإن فلورنسا كانت آنذاك مسرحاً لأغنى أنواع تطور الفردية الإنسانية، بينما أنه فى نظر المستبدين لم يكن ليطاق أن تعيش أى فردية أخرى وتزدهر إلا فرديتهم وفردية أقرب أتباعهم. وكان التحكم فى الأفراد يطبق بشدة عاتية، حتى وصل إلي حد تأسيس نظام لجوازات السفر[١٤].



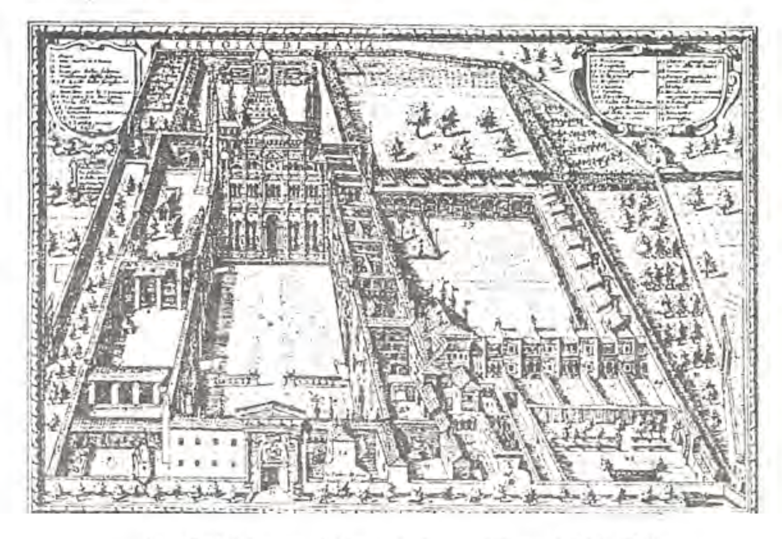
شكل (٧) صيد العفر. منمنمة من الأطروحة عن الصيد المكتوبة لأجل فرانشيسكو سفورزا

شانتيلي، متحف كوندي

وكانت الخرافات المتصلة بالتنجيم انعدام إيمان كثير من الطغاة بالدين، بيث في عقول معاصريهم لونًا خاصًا لهذا الوجود الفظيع الذي سمى الله فسميه. وعندما لم يعد في مستطاع آخر أمراء آل كارارا الدفاع عن أسوار وبوابات مدينة بادوا المنكوبة بالطاعون، وقد أحاط بها البنادقة من كل الجهات (١٤٠٥)، سمعه جنود الحرس ينادي الشيطان ويستصرخه "أن يجيء ليقتله".

ولن تجد أكمل أنواع الطغيان وأشدها إرشاداً للمتأمل في القرن الرابع عشر دون أي منازعة أو ريب قدر ما تجدها في آل فيسكونتي من ميلانو منذ وفاة كبير الأساقفة چيوڤاني فصاعداً (١٣٥٤). فإن التشابه العائلي الذي تجلى بين برنابو Bernabo وبين أسوأ أباطرة الرومان شيء لا يخطئه النظر[١٥]؛ وكان أهم هدف عام للناس هو صيد الأمير للعفر (الخنزير الوحشي)؛ فمن سولت له نفسه التدخل في هذا الشأن كان جزاؤه الموت المصحوب بالعذاب؛ وكان الأهالي العائشون في رعب دائم يلزمون بنفقات طعام خمسة آلاف كلب صيد للخنزير، مع تحميلهم مسئولية مشددة عن صحتها وسلامتها. وكانت الضرائب تبتز من الناس ابتزازاً بجميع وسائل الغصب التي

يتصورها عقل؛ فتلقى سبعة من بنات الأمير صداقًا قدره مائة ألف فلورين ذهبى نقداً لكل واحدة، كما جمع باسمهن ثروة طائلة. وصدر أمر من الأمير عند وفاة زوجته (١٣٨٤) "إلى الرعايا" أن يشاركوه أحزانه، كما شاركوه يومًا ما سروره، وأن يلبسوا ثياب الحداد عليها مدة عام كامل. وكانت الضربة (١٣٨٥) **coup de main** التى استطاع بها ابن أخيه جيانجالياتزو **Giangaleazzo** أن يوقعه بها فى قبضة يده- وهى من تلك المؤامرات العبقرية المحكمة التى تجعل حتى قلوب المؤرخين المتأخرين أنفسهم تكاد تنخلع من شدة الهول[١٦]- تمثل ذلك الرجل بصورة أخاذة صاعقة. فإن جيانجالياتزو الذى كان موضع احتقار أقاربه بسبب عقيدته الدينية وشغفه بالعلوم، صمم على أن ينتقم لنفسه، فترك المدينة تحت ستار التوجه للحج، وانقض على عمه الخالى الذهن من شره، وأخذه أسيراً، وشق طريقه بالقوة عائداً إلى داخل المدينة على رأس ثلة مسلحة، واستولى على مقاليد الحكم، وأسلم قصر برنابو للعامة ينهبونه ويسلبونه.



شكل (٨) قصر الشيرتوزا، قرب بافيا: رسم تخطيطى عام

ويتجلى فى شخص جيانجلياتزو بأوسع نطاق ذلك الشغف الجامح بكل شئ عظيم ضخم الذى شاع بين معظم المستبدين. فتولى، منفقًا ثلاثمائة ألف فلورين ذهبى، إقامة

سدود الماء الضخمة، لكي يحول إذا احتاج الأمر نهر مينشيو Mincio من مانتوا ونهر برينتا Brenta من مدينة بادوا، وبذلك يحرم هاتين المدينتين من كل قدرة على الدفاع[١٧]. وليس من المستبعد حقًا أنه فكر في أن يجفف بحيرات البندقية الساحلية. وقد أسس أبدع ما صنعه إنسان من أديرة، وهو دير شيرتوزا في بافيا[١٨]، وكاتدرائية ميلانو "التي تفوق في حجمها وضخامتها جميع كنائس العالم المسيحي بأجمعه". وربما كان القصر الذي أقيم في بافيا، الذي شرع في بنائه أبوه جالياتزو والذي أتم هو بناءه، أفخم مساكن الأمراء في أوروبا على الإطلاق. وإليه نقل مكتبته الشهيرة والمجموعة الضخمة من آثار القديسين، التي كان يؤمن بها إيمانًا غريبًا. وأنعم عليه الملك ونسسلاوس Winceslaus بلقب دوق (١٣٩٥) ؛ على أنه لم يكن ليطمع إلى شئ أقل من مملكة إيطاليا نفسها[١٩]، أو حتى التاج الإمبراطوري ذاته، ولكنه في ١٤٠٢ أصيب بعلة وقضى نحبه. ويقال إن ممتلكاته وأراضيه بأكملها أغلت له في غضون عام واحد، فضلاً عن المساهمة المنتظمة التي قوامها مليون ومائتى ألف فلورين ذهبي، ما لا يقل عن ثمانمائة ألف أخرى جمعت في تحويلات غير عادية. وبعد وفاته عادت الأراضي التي جمعها عن طريق كل الوسائل العنيفة فتمزقت إربًا؛ وظل خلفاؤه ردحًا من الزمن يحافظون بأشد الجهد على النواة الأصلية لممتلكاته. فما الذي كان يئول إليه أمر ابنيه چيوڤاني ماريا (توفي ١٤١٢) وفيليبو ماريا (توفي ١٤١٧)، لو أنهما عاشا في قطر آخر وبين ظهراني تقاليد أخرى؟ ذلك أمر لا يمكن التكهن به. على أنهما ورثا بوصفهما ورثة لبيتهما ذلك الرصيد الفظيع من القسوة والجبن الذي تجمع من جيل إلى جيل.

ويشتهر چيوڤاني ماريا، أيضًا بكلابه، التي لم تعد مع ذلك تستخدم في الصيد بل لتمزيق الأجسام البشرية. وقد حفظت المأثورات التاريخية أسماءها، مثلما حفظت أسماء دببة الإمبراطور ڤالنتينيان الأول[٢٠]. وفي مايو ١٤٠٩، عندما كانت الحرب لا تزال دائرة الرحى، والشعب الجائع يصيح به في الشوارع "السلام! السلام!" !Pace! Pace أطلق عليهم جنده المرتزقة، وتمت التضحية بحياة مائتين من الأنفس! وتحت التهديد بحبل المشنقة كان من المحظور النطق بكلمتي "السلم pace والحرب guerra،

وأمر القسوس أن يقولوا "الراحة" tranquillitatem بدلاً من "أعطنا السلام"dona nobis pacem . وأخيراً انتهزت عصبة من المتآمرين اللحظة التى رقد فيها فاتشينو كانى Facino Cane ، كبير قواد المرتزقة condottiere لدى الحاكم المعتوه، مريضاً فى مدينة بافيا، فقتلوا جيوڤانى ماريا شر قتلة فى كنيسة القديس جوتاردو بميلانو؛ وفى اليوم نفسه حمل فاتشينو وهو يلفظ آخر أنفاسه ضباطه أن يحلفوا له بمناصرة الوريث فيليبو ماريا، بينما قام هو نفسه بحض زوجته[٢١] بأن تتخذ منه زوجاً ثانياً. واتبعت زوجته، بياتريس دى تندا Beatrice di Tenda تلك النصيحة. وستعرض لنا فيما بعد فرصة الحديث عن فيليبو ماريا.

وفى أزمان كهذه كان كولا دى رينتزى Cola di Rienzi يحلم بأن يؤسس على الحماسة المهزوزة لشعب روما الفاسد دولة جديدة تضم تحت جناحيها إيطاليا بأجمعها. ولا شك أن هذا الرجل لا يمكن أن يبدو إلى جوار حكام من هذا النوع الذى وصفناه لك من توّنا إلا فى صورة أحمق مسكين مخدوع.

هوامش الفصل الثانى - القسم الأول

(١) انظر سيسموندى.. Sismondi, Hist. Des Rép. Italiennes, iv, p. 420; viii, pp. 1 sqq.

(٢) انظر فرانكو ساكيتي. Franco Sacchetti, Nov. 61 and 62.

(٣) حقًا إنه يقال إن دانتي فقد عطف هذا الأمير، الذى عرف الدجالون كيف يحتفظون به انظر البيان المهم عند بترارك. De Rerum Memorandarum, lib. ii, 3, 46.

(٤) انظر بترارك Epistolæ Seniles, lib. xix,1، إلى فرانتشسكو دى كارارا Francesco di Carrara (٢٨ نوفمبر ١٣٧٣). وأحيانًا تطبع تلك الرسالة منفصلة، تحت عنوان De Republica Optime Ad-ministranda- مثال ذلك برن ١٦٠٢.

(٥) لم يحدث إلا بعد مئة عام أن تحدث الناس عن الأميرة بوصفها أم الشعب. انظر هيرون Hieron. وخطبة كريڤيللى Crevelli الجنائزية على بيانكا ماريا فيسكونتى Bianca Maria Visconti، فى ميوراتورى، Miratori, Scriptores Rerum Italicarum, xxv, col. 429. وكان عن طريق المعارضة الساخرة لهذه الفقرة أن سميت إحدى أخوات سيكستوس الرابع فى جاكوبو ڤولاتيرانوس Jac. Volaterranus (Murat., xxiii, col. 129) باسم أم الكنيسة. mater ecclesiæ.

(٦) مع ذلك الطلب الاعتراضى الذى تم موصولاً بمحادثة سابقة بأن الأمير سيعود مرة ثانية إلى حظر تربية الخنازير فى شوارع بادوا نظرًا لأن منظرها كان مما لا يسر الناس وبخاصة الغرباء، كما أن منظرها عرضة لتخويف الخيل.

(٧) انظر بترارك .De Rerum Memorandarum, lib. iii, 2, 66 وماتيو فيسكونتى الأول Matteo I Visconti وخصمه، جيدو ديلا تورى Guido della Torre، الذى كان آنذاك يحكم ميلانو، هم الأشخاص المشار إليهم.

(٨) انظر ماتيو ڤيللانى :Matteo Villani, v, 81 المقتل السرى لماتيو الثانى مافيولو (Maffiolo) فيسكونتى على يدى إخوته.

(٩) انظر فيليبو فيلانى .Filippo Villani, Istorie, xi, 101 ويتكلم بترارك بنفس نغم المستبدين مزداناً "مثل الهياكل التى تقام فى الحفلات". ودُبج وصف دقيق لموكب نصر كاستراكان Castracane فى لوكا فى حياته على يد تيجريمو. Tegrimo, in Murat., xi, col. 1340.

(١٠) انظر De Vulgari Eloquentia, i, c. 12: " . . .qui non heroico more, sed plebeo se-quuntur superbiam".

(١١) هذه الأمور نجدها في القرن الخامس عشر أولاً، ولكن تمثيلاتها مؤسسة بالفعل على معتقدات أزمنة أقــدم: L. B. Alberti, De Re Adif., v, 3; Franc. Di Giorgio, Trattato, in Della Valle, Lettere Sanesi, iii, 121.

(١٢) انظر فرانكو ساكيتي. Franco Sacchetti, Nov. 61.

(١٣) انظر ماتيو فيللاني. Matteo Villani, vi, 1.

(١٤) يشير فرانكو ساكيتي إلى إدارة الجوازات في بادوا في منتصف القرن الرابع عشر في Nov.117، بهذه الكلمات "quelli delle bullette". وفي السنوات العشر الأخيرة من حكم فريدريك الثاني، عندما كان أشد الضبط والتحكم يمارس على السلوك الشخصي لرعاياه، فإن نظامه لا بد أن يكون عالي التطور حقًا.

(١٥) انظر كوريو .Corio, Storia di Milano, fol. 247 sqq ولاحظ الكتاب الإيطاليون المحدثون أن أسرة فيسكونتي كان لا يزال لزامًا عليها أن تجد مؤرخًا يصبح، وقد احتفظ بالمتوسط العادل بين ألوان المديح المبالغ فيها عند المعاصرين- كبترارك مثلاً- وبين التنديدات والسباب العنيفة التي برزت على يد الخصوم السياسيين (حزب الجويلف) المتأخرين، يصبح واجبًا عليه أن ينطق حكمًا نهائيًا عليهم.

(١٦) مثال ذلك عن باولو جيوفيو .Paolo Giovio, Elogia. Virorum Bellica Virtute Illustrium, p .85 (Basel, 1575)، في حياة جيانجالياتزو ((.Vita, pp. 86 sqq)، الذي يدافع عن جيوفيو "post Theodoricum omnium pr?stantissimus". انظر أيضاً باول. جوفيوس، -Vitæ XII Viceco mitum Mediolani Principum, pp. 165 sqq. (Paris, 1549).

(١٧) انظر كوريو .Corio, fol. 272, 285

(١٨) انظر كانيولا .Cagnola, in the Archiv. Stor., iii, p. 23

(١٩) وكذلك كوريو Corio, fol. 286 وبوجيو .Poggio, Hist. Florent., lib. iv, in Murat., xx, col .290 وكانيولا (الموضع المذكور) يتحدث عن خططه على التاج الإمبراطوري. أنظر أيضاً السونيتة في تروكي :Trucchi, Poesie Ital. Ined., ii, p. 118

"Stan le città lombarde con le chiave
In man per darle a voi . . .etc
Roma vi chiama: Cesar mio novello
Io sono ignuda, e l' anima pur vive:
Or mi coprite col vostro mantello," etc

(٢٠) انظر كوريو ..Corio, fol. 301 sqq وانظر أميان. مارسيللين. .Ammian. Marcellin., xxix, 3

(٢١) وكذلك باول. جوفيوس Paul. Jovius, Elogia, pp. 88-92؛ وجو. ماريا فليبوس -Jo. Maria Phi lippus؛ و .Vit? XII Vicecomitum, pp. 175-189

الفصل الثالث

استبداد القرن الخامس عشر

تتبدى لنا طواغيت القرن الخامس عشر فى سمة متغيرة. فإن كثيرًا من المستبدين الأدنى شأنًا، وبعض الأعظم قدراً، مثل أسرتى سكالا وكارارا، قد اختفوا من الوجود، بينما الأسرات الأقوى، التى عظّم الفتح والغزوات من شأنها، قد أسبغ كل منها على أنظمتها تطورها المميز. فإن نابولى، مثلاً، تلقت دافعًا جديداً أشد قوة من أسرة أراجون الجديدة. إذ تبدو هناك ظاهرة أخاذة لتلك الحقبة هى محاولة قادة المرتزقة condottiere أن يؤسسوا أسرات مالكة لأنفسهم. وهنا ينحصر الاعتبار فقط فى الحقائق والعلاقات الواقعية بين الأشياء بغض النظر عن التقديرات التقليدية؛ وتفوز الموهبة والجرأة بأعظم الجزاء. ولكى يحصل المستبدون الأهون شأنًا على دعم جدير بالثقة، شرعوا يدخلون فى خدمة الدول الأكبر حجمًا، ويصبحوا هم أنفسهم قادة للمرتزقة، يتلقون الأموال فى مقابل خدماتهم ، فضلاً عن حصانتهم من العقوبة عما يرتكبونه من سيئات، إن لم يصيبوا زيادة فى رقعة ممتلكاتهم. وينبغى لهم جميعاً، الصغير والكبير على السواء، أن يبذلوا قصاراهم أكثر وأكثر، وينبغى أن يعملوا بحذر أكبر وتقدير محسوب بصورة أدق، كما ينبغى أن يتعلموا الامتناع عن إتيان الفظائع الجماعية الهمجية؛ ولم يكن الرأى العام يسمح بأساوات من هذا النوع الكبير إلا بالقدر اللازم للغاية المنشودة، وهو أمر لم يكن المشاهد غير المتحيز ليجد فيه عيبًا ولا خطأ يلام. ولن تجد هنا أثراً لذلك الولاء شبه الدينى الذى كان يدعم أمراء الغرب الشرعيين؛ وكانت الشعبية الشخصية للفرد هى أقرب ما نستطيع أن نجده من السبل إلى تلك

المساندة. فالموهبة والتقدير المحسوب هما الوسيلتان الوحيدتان للتقدم. وكانت شخصية كشخصية شارل الجسور، التي أفنت نفسها في الملاحقة المنفعلة الحارة لغايات غير عملية، لغزًا لم يستطع فهمه الإيطالي.

لم يكن السويسريون إلا فلاحين، وإذا قتلوا جميعًا لم يكن في قتلهم مرضاة للنبلاء البورجانديين الذين قد يسقطون في ساحة الحرب. فلو امتلك الدوق سويسرا كلها دون كفاح لم يكن دخله ليزداد خمسة آلاف من الدوقيات على أكثر تقدير[1].



شكل (٩) تتويج إمبراطور

للوكا ديللا روبيا (؟)

فلورنسا، المتحف القومي

وكانت الظواهر القروسطية في شخصية شارل وطموحاته ومثله العليا الفروسية، قد أصبحت منذ أمد بعيد غير مفهومة تمامًا لدى الإيطالي العادي. وأحس الدبلوماسيون الجنوبيون بأنه مفقود ومضيع، عندما رأوه يضرب ضباطه ويحتفظ بهم مع ذلك في خدمته، وعندما أساء معاملة جنده رغبة في معاقبتهم على هزيمة لقوها، ثم يعود فيلقي باللائمة على مستشاريه بحضرة هؤلاء الجند أنفسهم[٢]. فأما لويس الحادي عشر، من الناحية الأخرى، الذي كانت سياسته تتفوق على سياسة الأمراء الإيطاليين في أسلوبهم الخاص، والذي كان معجبًا صريح الإعجاب بفرانشيسكو سفورزا، فإنه ينبغي أن يوضع في كل ما يتعلق بالثقافة والتهذيب بموضع أدنى كثيراً من هؤلاء الحكام.

لقد كان الخير والشر يختلطان اختلاطًا عجيبًا في الدول الإيطالية إبان القرن الخامس عشر. إذ أصبحت شخصية الحاكم متطورة تطوراً بالغًا، بل كثيراً ما تكون ذات أهمية عميقة قصوى وممثلة في خصائصها المميزة لأحوال الزمان وحاجاته بحيث تصبح عملية تكوين وإصدار حكم أخلاقي وافٍ عليها أمرًا ليس باليسير[٣].

لقد كان أساس النظام كله غير شرعي وظل كذلك ما بقي النظام، ولم يستطع شيء أن يزيل عنه اللعنة التي جثمت فوقه. ولم يكن لموافقة الإمبراطور أو قراره والتنصيب في وظيفة أي أثر أو تغير في الأحوال، وذلك لأن الناس كانوا قليلي الاهتمام بكون المستبد قد اشترى قطعة من الرق في مكان ما بالبلاد الأجنبية، أو من غريب من الغرباء مار بالبلاد(٤). فلو كان الإمبراطور يصلح لأي شيء- وهو مجرى المنطق في العقل العام العادي غير الناقد- لما سمح بقيام الطاغية إطلاقًا. ومنذ الحملة الرومانية التي أرسلها شارل الرابع لم يزد الأباطرة فيما فعلوه في إيطاليا على أن يصدقوا على قيام طغيانية قامت بغير مساعدتهم، ولم يكن في وسعهم أن يمنحوها أي سلطان عملي آخر إلا ما قد يضفيه عليه مرسوم إمبراطوري. وكان سلوك شارل كله بإيطاليا مهزلة سياسية مدنسة بالفضائح. ويروي ماتيو ڤيللاني[٥] Matteo Villani كيف صحبه آل ڤيسكونتي في أرجاء ممتلكاتهم، ثم صحبوه أخيراً خارجها؛ وكيف أخذ يتجول في

البلاد كبائع سرّيح وهو يبيع سلعته (كالامتيازات وغيرها)، مقابل النقود؛ ويشير إلى منظره المُزرى الذى بدأ به فى روما، وكيف انتهى به المطاف إلى أنه حتى ولم يستل سيفًا، عاد إلى دياره بخزائن معظمة بالأموال عبر جلال الألب. ومع ذلك، فإن الوطنيين المتحمسين والشعراء، وقد شحنت نفوسهم بعظمة الماضى، عقدوا آمالاً ضخامًا على مجيئه، ما لبث بعد ذلك سلوكه المحزن أن بددها. وكان بترارك- بعد أن كتب رسائل عديدة يحث فيها الإمبراطور على عبور جبال الألب ويعيد إلى روما عظمتها الزائلة ويؤسس من جديد إمبراطورية جديدة شاملة، وقد رأى الإمبراطور الذى عاد أخيرًا غير مكترث بهذه المشروعات المحلقة فى السماء- قد ظل يؤمل أن يرى تحقيق أحلامه، فعاد بالخطابة والكتابة يحاول بغير سأم، أن يؤثر فى الإمبراطور بتلك الآمال، ولكنه دُفع فى النهاية بعيدًا عنه مشمئزًا عندما رأى السلطة الإمبراطورية تهان من جراء خضوع الإمبراطور شارل للبابا[٦]. وقد حضر سيجيسموند Sigismund ، فى المرة الأولى على الأقل (١٤١٤)، حاملاً نية طيبة فى أن يحمل يوحنا الثالث والعشرين أن يشترك فى مجلسه؛ وفى أثناء تلك الرحلة نفسها، عندما كان البابا والإمبراطور يطلان من برج كريمونا العالى على المشهد العام للومبارديا، تملكت مضيفهما الطاغية جابينو فوندولو Giabino Fondolo الرغبة فى إلقائهما من حالق البرج. وفى رحلته الثانية حضر سيجيسموند كمجرد مغامر بحت، دون أن يظهر أية آية من آيات حقوقه وامتيازاته الإمبراطورية، فيما عدا تتويجه وتنصيبه بيكاديللى Beccadelli كشاعر؛ وظل أكثر من نصف سنة محتبسًا فى سيينا؛ كأنما هو مدين فى سجن، ولم ينجح إلا بعسر شديد وفى فترة تالية أن يتوج فى روما. ثم ما الرأى فى فريديريك الثالث؟... إذ كان يحيط برحلاته إلى إيطاليا جو رحلات العطلة أو جولات التماس المسرة والمتعة وهى تجرى على حساب أولئك الذين كانوا يريدون منه أن يؤكد لهم حقوقهم وامتيازاتهم، أو الذين كان غرورهم يغريهم باستضافة إمبراطور. والحالة الثانية هى وضع ألفونسو من نابولى، الذى دفع مائة وخمسين ألف فلورين للحصول على شرف زيارة إمبراطورية[٧]. وفى فيرارا[٨]، عند عودته الثانية من روما (١٤٦٩)، قضى فريديريك يومًا بأكمله دون أن يغادر مخدعه الخاص، موزعًا ما لا يقل عن ثمانين رتبة

ولقبًا؛ فتوجد فرسانًا وكونتات ودكاترة ووجهاء- كونتات كانوا ، والحق يقال ، من درجات متفاوتة، مثل كونتات البالاتين (وهو أمير إقطاعي يتمتع بسلطات ملك)، وكونتات يملكون الحق في منح لقب الدكتوراة في حدود أربع أو خمس أفراد ، وكونتات لهم الحق في إضفاء الشرعية على الزنماء وتعيين الوجهاء وما إلى ذلك. وكان المستشار يتوقع مع ذلك في مقابل تسجيل البراءات الممنوحة منحة أو حلوان كان أصحاب الشأن يرون فيها مبالغة باهظة في فيرارا[٩]. ولم يرد إلينا رأى بورسو، الذى عين هو نفسه دوقًا على مودينا وريجيو في مقابل دفعة سنوية مقدارها أربعة آلاف فلورين ذهبي، عندما كان مولاه الإمبراطوري يوزع الألقاب والدبلومات على جميع أفراد البلاط الصغير. وانقسم الإنسانيون، وهم كبار خطباء العصر، في الرأى تبعاً لمصالحهم الشخصية، وذلك بينما كان الإمبراطور يتلقى التحيات من بعضهم[١٠] بالهتافات التقليدية لشعراء روما الإمبراطورية. واعترف بوجيو[١١] Poggio أنه لم يعد يعرف للتتويج معنى؛ فلم يكن يتوج في قديم الزمان إلا الإمبراطور المنتصر، وكان يتوج عند ذاك بأكاليل الغار[١٢].

وبدأت بعهد مكسيميليان الأول تدخلات الأمم الأجنبية، فضلاً عن سياسة إمبراطورية جديدة تتعلق بإيطاليا. ولم تكن أولى الخطوات – وهي تنصيب لودوفيكو إيل مورو Lodovico Il Moro على دوقية ميلانو واستبعاد ابن أخيه التعس- من النوع الذى يحمل الثمار الطيبة. وطبقًا لنظرية التدخل العصرية، عندما تقتتل طائفتان حتى يتمزق القطر شر ممزق، قد تتقدم طائفة ثالثة لتشترك في الأمر، وعلى هذا المبدأ كانت الإمبراطورية تتصرف. على أن أحداً لم يعد يحتكم إلى الحق والعدل. وعندما كانت جنوا تتوقع زيارة من لويس الثاني عشر (١٥٠٢) وأزيل النسر الإمبراطوري من كل أرجاء القصر الدوقي وحلت محله الزنابق المرسومة بالطلاء، سأل المؤرخ سينّاريجا[١٣] Sennarega عن المعنى الذى يؤديه، بعد كل شئ، ذلك النسر الذى احتفظت به قائمًا العديد من الثورات، وأى مدعيات تملكها الإمبراطورية على جنوا. ولم يكن أحد يعرف عن ذلك الأمر شيئًا إلا تلك العبارة التي تقول إن جنوا إن هي إلا دويلة إمبراطورية

camera imperii والحق إن أحـداً فى إيطاليـا لم يكن بمسـتطيع أن يعطى جـواباً واضحًا عن أسئلة مثل هذه. وأخيراً، عندما قبض شارلكان (شارل الخامس) على مقاليد إسبانيا والإمبراطورية مجتمعتين، تمكن بمساعدة القوات الإسبانية من أن يجعل المدعيات الإمبراطورية حقيقة واقعة؛ ولكن من سوء الأحدوثة أن ما كسبه بذلك انقلب لا إلى مصلحة الإمبراطورية وإنما لمصلحة الملّكية الإسبانية.

ومما يرتبط ارتباطًا وثيقًا باللاشرعية السياسية للأسرات الحاكمة فى القرن الخامس عشر، ذلك عدم الاهتمام الذى يبديه الجمهور نحو الميلاد الشرعى، الذى كان يبدو لعين الأجانب - كومسنيس Comines مثلاً- شيئًا بالغ الجدارة بالملاحظة. وكان الأمران يمضيان جنباً إلى جنب مضياً طبيعيًا. وفى الأقطار الشمالية، شأنه فى بورجانديا، كان الأحفاد اللاشرعيون يكفلون ماليًا عن طريق طبقة مخصصة من الإقطاع كالأسقفيات أو الأبروشيات وما شابهها؛ وفى البرتغال كان الفرع غير الشرعى لا يعول نفسه على حساب العرش إلا بالجهد المستمر الجهيد؛ فأما إيطاليا فعلى النقيض من ذلك، فلم يعد يوجد بها بيت أمير، حتى فى خط التسلسل المباشر، لا يلقى فيه الزُّنَماء التسامح الصابر. وكان ملوك الأراجون فى نابولى ينتمون إلى الفرع غير الشرعى، ووقعت أراجون نفسها نصيبًا لشقيق ألفونسو الأول. وربما لم يكن فيديريجو العظيم من أوربينو من أسرة مونتيفيلترو على الإطلاق. وعندما كان البابا بيوس الثانى فى طريقه إلى مؤتمر مانتوا (١٤٥٩) انطلق ثمانية من الأبناء غير الشرعيين من أسرة إيستى راكبين جيادهم لاستقباله فى فيرارا، من بينهم الدوق بورسو الحاكم نفسه يصحبه اثنان غير شرعيين من أبناء أخيه غير الشرعى وسلفه ليونيللو Leonello.[١٤] وكان للأخير أيضًا زوجة شرعية، هى نفسها أيضًا بنت غير شرعية لألفونسو الأول صاحب نابولى من امرأة أفريقية[١٥]. وكثيراً ما كان الأبناء غير الشرعيين يتم إدخالهم فى ولاية العرش متى كان الأبناء الشرعيون قصّراً والموقف ينذر بأخطار داهمة؛ وعندئذ تتخذ قاعدة الأرشدية (الأكبرية فى السن) أساسًا ويعترف بها دون أن يقام وزن لميلاد نقى أو غير نقى. إذ كانت لياقة الفرد وقدرته وكفايته أرجح وزنًا من القوانين ومن العرف

المتبع فى أماكن أخرى ببلاد الغرب. وهذا لعمرى هو العصر الذى كان أبناء البابوات فيه يؤسسون الأسرات المالكة. وفى القرن السادس عشر، وبفضل تأثير الأفكار الأجنبية ونفوذ حركة الإصلاح المضاد التى بدأت عندئذ، كان الحكم على المسألة بأسرها أشد تدقيقًا: ويكتشف فاركى Varchi أن وراثة الأطفال الشرعيين للعروش "شئ يأمر به العقل كما أنه إرادة السماء منذ الأزل"[١٦] وأسس الكاردينال إيبوليتو دى ميديتشى Ippolito de'Medici دعواه للولاية على فلورنسا على حقيقة أنه هو نفسه ربما كان ثمرة زواج قانونى، كما أنه على كل حال ابن لسيدة من السراة، وليس كالدوق أليساندرو Alessandro ابنا من خادمة[١٧] . وفى هذا الزمان بدأت موجة ذلك النوع العاطفى من الزواج غير المتكافئ الذى لو حدث فى القرن الخامس عشر، نتيجة لأسباب سياسية أو أخلاقية، لم يكن له أى معنى على الإطلاق.



شكل (١٠) نصب تذكارى لقائد المرتزقة بارتولوميو كوليونى على هيئة فارس لأندريا ديل فيروكيو
البندقية
تصوير بروبيليان-فيرلاج، برلين

على أن أعلى أنواع الزواج غير الشرعى وأشدها احتيازًا للإعجاب فى القرن الخامس عشر قدمه إلينا قائد المرتزقة الذى، مهما يكن الشأن فى أصله، قد رفع نفسه إلى مركز حاكم مستقل. ولو نظرنا إلى الأمور نظرة متعمقة لوجدنا احتلال النورمان لإيطاليا السفلى فى القرن الحادى عشر شيئًا من هذا القبيل. وقد شرعت هذه المحاولات تضع شبه الجزيرة بأكمله آنذاك فى حالة اختمار دائم.

وكان فى إمكان أى قائد مرتزقة الحصول على السيادة على إحدى المناطق حتى بدون اغتصاب، وذلك فى حالة إقدام من يستخدمونه، بسبب الإعواز فى المال أو القوات بتزويده بما يلزمه فى هذا السبيل[18]؛ ومهما كانت الظروف فإن قائد المرتزقة، حتى وإن طرد من خدمته مؤقتًا معظم قواته، كان محتاجاً إلى مكان أمين يستطيع أن يرسى فيه مركز قيادته الشتوى وأن يودع فيه مخازنه ومؤنه. وكان أول مثال لقائد أعطى نصيبًا من الحكم هو جون هوكوود John Hawkwood ، الذى منحه جريجورى الحادى عشر السيادة على بانياكافالو Bagnacavallo وكوتينيولا[19] Cotignola. وعندما ظهرت بظهور ألبريجو دا بارديانو Albrigo da Barbiano جيوش وقادة إيطاليون على المسرح زاد عدد فرص تكوين الإمارات أو توسيع رقعة القائم منها. وكان أول انفجار باكانلياني (bacchanalian) عربيد كبير للطموح العسكرى فى دوقية ميلانو بعد وفاة جيانجالياتزو (١٤٠٢). وقد ركزت سياسة ولديه على تدمير الاستبداديات الجديدة التى أسسها قادة المرتزقة؛ ومن أعظمهم شأنًا وهو فاتشينو كانى، ورث بيت فيسكونتى قائمة ضخمة من المدن فضلاً عن أرملته، وأربعمائة ألف فلورين ذهبى، وحدّث ولا حرج عن جند زوجها الأول الذين أحضرتهم معها بياتريس دى تندا[20] Beatrice di Tenda. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا أصبحت تلك العلاقة غير الأخلاقية بين الحكومات وبين قادة المرتزقة التابعين لها التى يتميز بها القرن الخامس عشر هى الشئ الشائع العام أكثر فأكثر. وثمة قصة قديمة[21]- من تلك القصص الحقيقية وغير الحقيقية، والموجودة فى كل مكان وغير الموجودة فى أى مكان- تصف هذا الأمر على الوجه التالى. فإن سكان إحدى المدن (ويبدو أن المقصود بها هو سيينا)

كان يعمل في خدمتهم ضابط أنقذهم من العدوان الأجنبي؛ وكانوا في كل يوم يعقدون مجلساً يتباحثون فيه حول طريقة مكافأته، حتى وصلوا في خاتمة المطاف إلى أن أي مكافأة في طاقتهم لا تفيه حقه مهما بلغت حتى ولوعينوه واليًا على المدينة. وأخيراً نهض أحدهم وقال: "لنقتله ثم لنعبده قديسًا نصيرًا وحاميًا". وهكذا فعلوا به، متبعين المثال الذى ضربه مجلس الشيوخ (السنات) الروماني مع رومولوس والواقع أن قادة المرتزقة كان لديهم من الأسباب ألا يخافوا أحدًا أكثر مما يخافون سادتهم ومستخدميهم؛ فإن هم نجحوا في مغامراتهم كانوا خطرين، وأزيحوا عن الطريق شأن روبرتو مالاتيستا Roberto Malatesta فور الانتصار الذى أحرزه على سكستوس الرابع[٢٢] (١٤٨٢)؛ وإن هم فشلوا في مهمتهم فإن الانتقام الذى أنزله البنادقة بكارمانيولا[٢٣] Carmagnola يوضح مدى الأخطار التى كانوا يتعرضون لها (١٤٣٢). والطابع المميز للوجه الخلقي للموقف هو أنه كثيرًا ما كان قائد المرتزقة يضطرأن يترك زوجته وأولاده رهائن، ورغم ذلك لم يكن أحد يشعر بالثقة أو يوحي بها. بيد أنهم كانوا من أبطال نكران الذات من لهم نفس طبائع بيليساريوس Belisarius ، التى لا يمكن أن يفسدها بغض أو مرارة؛ ولم يكن لينقذهم من أشد أنواع الظلم الجائر إلا أشد الطيبة كمالاً. فلا عجب إذن أن تجدهم عامرى القلوب بالاحتقار لكل مقدس، وقساة خائنين لإخوانهم وزملائهم- رجالاً لا يأبهون بشيء قلامة ظفر، سواء أوقعوا تحت حرمان الكنيسة أم لم يقعوا. وفي نفس الحين وبفعل ضغط نفس الظروف، بلغت عبقرية الكثيرين منهم وكفايته وقدرته أبلغ حد يمكن تصوره من النمو والتطور، فاكسبتهم الحب المتين المليئ بالإعجاب من أتباعهم؛ فجيوشهم هى أول الجيوش في التاريخ الحديث التى تكون سمعة القائد وقيمته هى القوة المحركة الوحيدة لها ويتجلى لنا مثال رائع لامع لهذا في حياة فرانشيسكو سفورزا[٢٤]؛ ولم يكن أى تحيز ضد حسن المولد ليمنعه من الفوز بولاء لا حد له وضمه إلى حسابه متى احتاج إليه، من كل فرد كان يتعامل معه، وحدث أكثر من مرة أن أعداءه ألقوا أسلحتهم عندما رأوه محيين إياه باحترام برفع قلانسهم عن رءوسهم وكل منهم يكرم في شخصه "الأب العام المشترك لكل من حمل السلاح من الرجال". ذلك أن سلالة سفورزا كانت تنطوى على هذا الاهتمام الخاص،

وهو أننا نستطيع منذ بداية تاريخها نفسها أن نتعقب محاولاتها في سبيل التاج[٢٥].
وكان حجر الأساس لحظ هذه السلالة يكمن في الخصوبة العجيبة التي اتصفت بها الأسرة؛ إذ كان لچاكوبو والد فرانشيسكو، وهو في حد ذاته رجل ذائع الصيت، عشرون أخا وأختًا، من الذين تربوا تربية خشنة بمدينة كوتينيولا بالقرب من فاينزا Faenza ، وسط مخاطر إحدى نوبات الثأر الرومانيولي Romagnole vendette التي لا حصر لها بين بيتهم وبيت باسوليني Pasolini وكان مسكن العائلة مجرد ترسانة وحصن منيع؛ وكانت الأم وبناتها محاربين أشداء كأقربائهن من الرجال تمامًا. نعم إن چاكوبو فر في سنته الثالثة عشر وذهب إلى بانيكالي Panicali لاجئًا إلى بولدرينو Boldrino قائد مرتزقة البابا- الذي ظل حتى بعد أن غالبه الموت يقود جنده، حيث كانت كلمات الأوامر تصدر عن الخيمة المرفوع عليها اللواء، التي كان الجسد المحنط يرقد تحتها، إلى أن تمكن القوم من أن يجدوا في النهاية قائدًا كفئًا يخلفه. حتى إذا صنع چاكوبو لنفسه في أخرة المطاف شهرة في خدمة قادة مرتزقة مختلفين أرسل يطلب أقرباءه وأهله وحصل بواسطتهم على نفس المميزات التي يحصل عليها أمير من انتسابه لأسرة موفورة العدد. وكان هؤلاء الأقرباء هم الذين حفظوا تماسك الجيش وهو يرقد أسيرًا في قلعة ديل يوفو Castel dell' Uovo قرب نابولي؛ وأخذت أخته المبعوثين الملكيين أسرى بيدها، فأنقذوه بهذه الفعلة الانتقامية من الموت. وكان چاكوبو في شئونه المالية جديرًا بالثقة إلى أقصى حد، وتلك دلالة على رحابة ومدى قدراته؛ فكان نتيجة لتلك الثقة يستطيع أن يستدين من أرباب المصارف حتى في إبان هزائمه. وجرت عادته أن يحمي الفلاحين من عبث جنوده، وكان لا ينزل الدمار أو الأذى بالمدن التي يفتحها إلا كارهًا. وقد عمد إلى تزويج خليلته الشهيرة لوتشيا، أم ولده فرانشيسكو من أحد الرجال ليتحرر من كل تحالف بأحد الأمراء. وبلغ الأمر به أنه حتى زيجات أقاربه كانت تنظم وفق خطة محددة. وعاش متباعدًا عن حياة معاصريه الفاجرة الماجنة المنافية للتقوى، كما نشّأ ولده فرانشيسكو على القواعد الثلاث: "دع زوجات غيرك من الرجال وشأنهم؛ لا تضرب أحدًا من أتباعك، وإن فعلت فارسل الرجل الجريح النفس بعيدًا؛ لا تركب حصانًا جموحًا ولا حصانًا يسقط حدوته". على أن المصدر الرئيسي لسلطانه

إنما يكمن فيما يتحلى به من سجايا، إن لم تكن سجايا قائد عظيم فهي على الأقل شيم جندي عظيم. وكان جسمه قويًا، ينميه ويطوره بكل نوع من أنواع التدريبات؛ وكانت قسمات الفلاح التي يكتسي بها وجهه وأخلاقه الصريحة تكسبه شعبية واسعة؛ وكان يتمتع بذاكرة رائعة، إذ كان بعد انقضاء سنوات عدة نستطيع أن يتذكر أسماء أتباعه، وعدد خيولهم ومقدار أعطياتهم. وتلقى تعليما إيطاليًا صرفًا: أنفق كل وقت فراغه في دراسة التاريخ، وأمر بالكتب والمؤلفات الإغريقية واللاتينية فترجمت له. وركز فرانشيسكو ولده الأوسع بعد ذلك شهرة، فكره منذ البداية على تأسيس دولة قومية، وتمكن بفضل القدرة الرائعة في القيادة العسكرية، وعدم الوفاء الذي لا يتورع عن أي شيء، من الاستيلاء على مدينة ميلانو العظيمة (١٤٤٧-١٤٥٠).

وكان تصرفه وسلوكه عدوى انتقلت إلى غيره، فإن إينياس سيلڤيوس -nias Sylvi us كتب في قريب من ذلك الحين[٣٦] يقول: "في إيطاليا بلدنا المولع بالتغير، الذي لا يدوم فيه شيء ثابتًا على حاله، والذي لا توجد فيه أسرة مالكة عريقة، يستطيع أي خادم بغاية اليسر أن يصبح ملكًا". على أن هناك رجلاً واحدًا بوجه خاص أسمى نفسه "رجل الحظ" استطاع أن يملأ أدمغة القطر بأكمله وأخيلتهم هو چاكوبو بيتشينينو Jacopo Piccinino ، ابن نيكولو. وكان من المسائل المتأججة في ذلك الزمان بحثهم: هل يستطيع هو أيضًا أن يؤسس بيت إمارة؟ وكانت للدول الكبرى مصلحة واضحة في الحيلولة دون ذلك، بل إن فرانشيسكو سفورزا نفسه كان يرى أن من الأفضل ألا تكبر القائمة الحاوية للولاة العصاميين. بيد أن الجيوش والقادة الموجهين عليه، في ذلك الوقت مثلاً، وعندما كان يهدف إلى بسط سيادته على سيينا، أدركوا أن مصلحتهم تقتضي مساندته وتأييده[٣٧]: "فلو قضي عليه وانتهى أمره، وجب علينا أن نعود إلى ديارنا ونحرث حقولنا". حتى إنهم وهم يحاصرونه في أوربيتيلو Orbetello زودوه بالميرة (المؤن)؛ وخرج من مأزقه مكللاً بالشرف. ولكن أخيرًا غلبه القدر. وكانت إيطاليا كلها تتراهن على النتيجة، عندما حدث في عام ١٤٦٥، بعد قيامه بزيارة لسفورزا بميلانو، أنه ذهب إلى الملك فيرانتي Ferrante بنابولي. فعلى الرغم من

التعهدات التى قطعت له وعلاقاته بعلية البلاد، قتل فى قلعة ديل يوفو[٢٨]. وحتى قادة المرتزقة الذين حصلوا على ممتلكاتهم عن طريق الإرث لم يكونوا يشعرون بالأمن على أنفسهم أبداً. فعندما مات روبرتو مالاتيستا وفيديريجو من أوربينو فى نفس اليوم (١٤٨٢)، الأول منهما فى روما والثانى فى بولونيا، تبين[٢٩] أن كل منهما قد أوصى بولايته للآخر ليرعاها. وفى هذا الجو الطافح بالرجال الذين لا يلتزمون بعهد كان المعتقد السائد بين الجميع اعتبار كل شئ مُباحًا. وكان فرانشيسكو سفورزا قد تزوج وهو بعد فى مطالع شبابه وارثة غنية من كالابريا هى بوليسّينا روسّا **Polissena Russa**، كونتيسة مونتالتو، وقد ولدت له بنتًا؛ ودست إحدى العمات السم لكل من الأم وطفلتها واستولت على الميراث[٣٠].



شكل (١١) قائد المرتزقة روبرتو مالاتستا
جزء من رسم لكوسيمو روسيلينى "عبور البحر الأحمر"
روما. كنيسة السيستين
تصوير أندرسون، روما

ومنذ وفاة بيتشينينو فصاعداً أصبح تأسيس الدول الجديدة على يد قادة المرتزقة **condottieri** فضيحة لا يجوز التغاضى عنها. وكونت الولايات الأربع

الكبرى بإيطاليا وهى نابولى وميلانو والبابوية والبندقية فيما بينها توازنًا سياسيًا كان يأبى السماح بأى إزعاج أو قلاقل. وفى ولايات الكنيسة التى ازدحمت بطغاة صغيرى الشأن، كانوا إلى حد ما، أو فيما سلف من أيامهم، من قادة المرتزقة condottieri، احتكر أبناء أخوة البابوات، منذ زمن سيكتوس الرابع، الحق فى القيام بجميع هذه المهام. ولكن ما تكاد تبدو بوادر أية أزمة سياسية حتى يظهر ثانية الجند ملتمسو الثراء (soldiers of fortuna) على المسرح فوراً. وفى أيام الإدارة التعسة للبابا إنوسنت الثامن أوشك أن يحدث أن شخصاً ما اسمه بوكالينو Boccalino، قضى مدة فى خدمة الجيش البورجاندى، سلم نفسه ومدينة أوسيمو Osimo التى كان قائداً عليها للقوات التركية[٣١]؛ ومن حسن الحظ أنه أظهر بفضل وساطة لورنزو الفاخر، الرغبة فى أن يُشترى بالمال، وانصرف بنفسه. وفى ١٤٩٥، إبان حروب شارل الثامن التى قلبت إيطاليا رأسا على عقب، أقدم قائد المرتزقة ڤيدوڤيرو Vidovero من بريشيا Brecia على تجربة قواه[٣٢]؛ وكان استولى من قبل فعلاً على مدينة تشيسنا Cesna وقتل كثيراً من نبلائها وسكانها الحضريين؛ على أن القلعة صمدت له حتى اضطر إلى الانسحاب. غير أنه تمكن بعد ذلك، زاحفًا على رأس مفرزة من الجند أعاره إياها وغد آخر هو باندولفو مالاتيستا من ريمنى، ابن روبرتو الذى أسلفنا الحديث عنه، وقائد المرتزقة البندقى، من اغتصاب مدينة كاستيلنوفو من كبير أساقفة رافنا. وخشى البنادقة من أن يقع بهم ما هو أفدح بعد ذلك، وأيضًا بتحريض من البابا، فأمروا باندولفو "بأرق أنواع النوايا" أن ينتهز الفرصة لاعتقال صديقه الطيب: وتم الاعتقال وإن "فى أسف عظيم"، وعندئذ جاء الأمر بإحضار الأسير إلى المشنقة. على أن باندولفو أوتى من التلطف وحسن الرعاية ما جعله يخنق الأسير فى سجنه، ثم يعرض جثته أمام الناس. وكان آخر مثال جدير بالذكر لمثل هؤلاء الغاصبين هو كاستيلان Casteggan الشهير من موسو Musso، الذى بلغ به الأمر أنه فى أثناء الفوضى التى عمت المناطق الميلانية والتى أعقبت معركة باڤيا (١٥٢٥) Pavia أن استحدث لنفسه سيادة على بحيرة كومو.

هوامش الفصل الثالث - القسم الأول

(١) انظر دى جـينجـينس De Gingins, Dépêches des Ambassadeurs Milanais (Paris and Geneva, 1858), ii, pp. 200 sqq. (N. 213). Cf. ii, p. 3 (N. 144), and ii, pp. 212 sqq. (N. 218).

(٢) انظر باول. چوڤيوس Paul. Jovius, Elogia, pp. 156 sqq..

(٣) هذا المُركَّب من القوة والعقل يسميه ماكيافيللى virtù، كما أنه يتوام تمامًا مع Iscelleratezza. انظر مثلاً في Discorsi, i, 10، في حديثه عن سيب. سيڤيروس Sep. Severus.

(٤) انظر حول هذه النقطة فرانتشسكو ڤيتّورى Franc. Vettori, Archiv. Stor., vi, pp. 293 sqq.: " إن التعيين في المناصب الكهنوتية على يد رجل يقيم في ألمانيا، وليس به شئ من صلاحيات الإمبراطور الروماني إلا الاسم الأجوف، لا يمكن أن يحول رجلاً نذلاً ولصًا إلى مولى وسيد حقيقي لمدينة".

(٥) انظر م. ڤيللانى M. Villani, iv, 38, 39, 44, 56, 74, 76, 92; v, 1, 2, 14-16, 21, 22, 36, 51, 54. ومن العدل البسيط اعتبار كراهية آل ڤيسكونتي سببًا مؤديًا إلى توضيح أسوأ من الحقائق التى يبررها. فإن شارل الرابع كتب فيه ڤيللانى مرة واحدة (iv, 74) ثناء عاليًا.

(٦) لقد كان إيطاليًا، هو فـاتزيو ديلي أوبيـرتي Fazio degli Uberti (Dittamondo, lib. vi, cap. 5- about 1360)، ذلك الرجل الذى حبذ لشارل الرابع القيام بحملة صليبية إلى الأراضى المقدسة. والفقرة من أجود فقرات القصيدة، كما أنها تعد ذات امتياز خاص من نواح أخرى. وطرد الشاعر من الناووس المقدس على يد تركي وقح:

"Coi passi lunghi e con la testa bassa
Oltre passai e dissi: ecco vergogna
Del cristian che'l saracin qui lassa!
Poscia al Pastor [the Pope] mi volsi per rampogna
E tu ti stai, che sei vicar di Cristo,
Co' frati tuoi a ingrassar la carogna?
Similimente dissi a quel sofisto [Charles IV]
Che sta in Buemme [Bohemia] a piantar vigne e fichi
E che non cura di si caro acquisto:

Che fai? Perchè non segui l primi antichi
Cesari Romani, e che non segui,
Dico, glo Otti, i Corradi, i Federichi?
E che pur tieni questo imperio in tregui?
E se non hai lo cuor d' eeser Augusto,
Che no'l rifiuti? O che non ti dilegui?" etc.

وقبل ذلك بثمان سنوات، حوالى ١٣٥٢، كتب بترارك (إلى شارل الرابع، Charles IV, Epist. Fam., lib. xii, Ep. 1, ed. Fracassetti, vol. ii, p. 160) نصه: "Simpliciter igitur et aperte. . . pro maturando negotio terr? sanct?. . . oro tuo egentem auxilio quam primum invisere velis Ausoniam"..

(٦) اطلب التفاصيل فى Vespas. Fiorent., ed. Mai, Spicilegium Romanum, vol. i, p. 54. Cf. 160 and Panormita, De Dictis et Factis Alfonsi, lib. iv, No. 4.

(٨) انظر Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col., 217 sqq..

(٩) انظر "Haveria voluto scortigare la brigata". كما أن چيوڤانى ماريا ڤيليلفو، اثناء إقامته فى برجامو، كتب قصيدة ساتيرية (هجائية) عنيفة "in vulgus equitum auro notatorum". انظر ترجمة حياته فى Favre, Mélanges d'Histoire Littéraire, i, p. 10 (1856).

(١٠) انظر Annales Estenses, in Murat. xx, col. 41.

(١١) انظر بوچيو Poggio, Hist. Florent. Pop., lib. vii., in Murat., xx, col. 381. وهذا الرأى يتفق مع عواطف كثير من الإنسانيين المناهضين للملكية فى تلك الأيام. انظر البراهين المقدمة من بيزولد Bezold, Lehre von der Volkssouver?nit?t w?hrend des Mittelalters, Hist. Ztschr., Bd. xxxvi, p. 365.

(١٢) وبعد ذلك ببضع سنوات ينحى البندقى ليوناردو جوستنيانى Leonardo Guistiniani باللائمة على كلمة "إمبراطور" ويعدها غير كلاسيكية، ومن ثم غير لائقة للإمبراطور الجرماني، ويدعو الجرمان بالبرابرة بسبب جهلهم لغة العهود القديمة وأعرافها. على أن قضية الجرمان دافع عنها الإنسانى هـ. بيبل H. Bebel. انظر ل. جايجر L. Geiger فى Allegem. Deutsche Biog., ii, 196.

(١٣) انظر سيناريجا Sennarega, De Reb. Genuens., in Murat., xxiv, col. 575.

(١٤) المتضمنة فى Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 203. انظر Cf. Pii II Comment., ii, p. 102 (ed. Rome, 1584).

(١٥) انظر مارين سانودو Marin Sanudo, Vita dei Duchi di Venezia, in Murat., xxii, col. 1113.

(١٦) انظر ڤاركى Varchi, Stor. Fiorent., i, p. 8.

(١٧) انظر ســوريانو Soriano, Relazione di Roma, 1533, in Tomasso Gar, Relaz. Della Corte di Roma (in Alberi, Relaz. Degli Ambasc. Veneti, ii, ser. iii, p. 281).

(١٨) عما يتبع ذلك انظر كانستريني Canestrini في "المقدمة" للمجلد ١٥ من .Archiv. Stor

(١٩) وعنه انظر شبرد-تونيللي .Shepherd-Tonelli, Vita di Poggio, App., pp. vii-xvi

(٢٠) انظر كـانيـولا Cagnola, Archiv. Stor., iii, p. 28: "Et [Filippo Maria] da lei [Beatrice] ebbe molto texoro e denari, e tutte le giente d' arme del dicto Facino, che obedivano a lei".

(٢١) انظر إنفيسّورا .Infessura, in Eccard, Scriptores, ii, col. 1911 وعن البدائل التي يضعها مكيافيللي أمام قائد المرتزقة المنتصر، انظر .Discorsi, i, 30 فإن عليه بعد النصر إما أن يسلم مقاليد الجيش إلى من يستعمله وينتظر بسكون وصول جائزته إليه، وإلا فعليه أن يجتذب الجند لاحتلال القلاع ويعاقب الأمير ".di quella ingratitudine che esso gli userebbe"

(٢٢) (وهذا الرأى لبوركهارت خاطئ: أثبت باستور في تاريخ البابوات ، الكتاب الثاني Pastor (Hist. Of the Popes, Bk. II) بما لا يدع مجالاً للشك أن مالاتيستا مات بالحمى- و. ج. .W. G)

(٢٣) انظر بارتوليو فاتشيوس Barth. Facius, De Vir. Ill., p. 64، الذي يخبرنا أن كارمانيولا Carmagnola كان قائداً لجيش عدته ٦٠،٠٠٠ رجل. وليس من المحقق هل البنادقة لم يسمموا ألفيانو في ١٦١٥ لأنه، كما يقول براتو في Archiv. Stor., iii, p. 348، ساعد الفرنسيين ببالغ الحماسة في معركة سان دوناتو. وجعلت الجمهورية من نفسها وريثة لكوليوني Colleoni وبعد وفاته في ١٤٧٥ صادرت ممتلكاته رسمياً، انظر ماليبيرو .Malipiero, Annali Veneti, in Archiv. Stor., vii, I, 244 وكان ذلك محبوباً عندما كان قواد المرتزقة يستثمرون أموالهم في البندقية. نفس المصدر، ص. ٣٥١

(٢٤) انظر كانيولا .Cagnola, in Archiv. Stor., iii, pp. 121 sqq

(٢٥) على كل حال، في باول. جيوفيوس Paul. Jovius, Vita Magni Sforta (Viri Illustres), Rome, 1539 (المهدى إلى الكاردينال أسكانيو سفورزا)، إحدى أشد ترجمات جانبية.

(٢٦) انظر إينياس سيلفيوس ,?neas Sylvius, Comment. De Dictis et Factis Alfonsi, p. 251 Opera, ed. 1538: "Novitate gaudens Italia nihil habet stabile, nullum in ea vetus regnum, facile hic ex servis reges videmus".

(٢٧) انظر .Pii Comment., i, 46; cf. 69

(٢٨) انظر سيسموندى Sismondi, x, 258؛ وكوريو Corio, fol. 412، حيث يتهم سفورزا بالاشتراك في جريمة، لأنه كان يخاف الخطر على أولاده من شعبية بيتشينينو. وعلى الرغم من الإنكارات الحديثة لهذا الاشتراك في الجريمة من جانب سفورزا، فقد أثبته د. جيانبييترو D. Gianpietro in Archiv. Stor.

فنأنا كيف أغرى قائد Delle Prov. Napol., vii. Storia Bresciana, in Murat., xxi, col. 902. المرتزقة البندقى كوليونى فى ١٤٦٦ فحديث يحدثنا به ماليبييرو Malipiero, Ann. Venet. Archiv. Stor., vii, i, p. 210. إذ عرض عليه المنفيون الفلورنسيون أن يجعلوه دوقًا لميلانو إن هو قبل أن يطرد من فلورنسا عدوهم بييرو دى ميديتشى.

(٢٩) انظر ألليجريتو Allegretto, Diari Sanesi, in Murat., xxiii, p. 811.

(٣٠) انظر Orationes Philelphi, fol. 9 (ed. Venet., 1492)، فى الخطبة الجنائزية على فرانتشسكو.

(٣١) انظر مارين سانودو Marin Sanudo, Vita dei Duchi di Venezia, in Murat., xxii, col. 1241. انظر رويمونت Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, pp. 324-327 (Leipzig, 1874)، والأسناد الثقة الذين يُقتبسون هناك.

(٣٢) انظر ماليبييرو Malipiero, Ann. Venet. Archiv. Stor., vii, i, p. 207.

الفصل الرابع

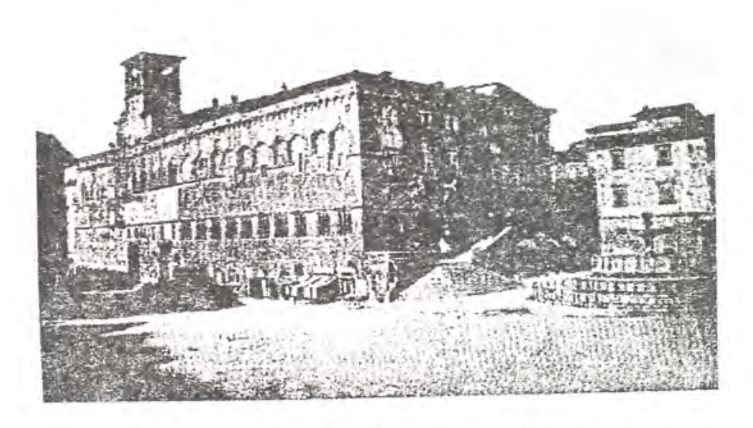
الطغيانيات الصغيرة

يمكن أن يقال بوجه الإجمال عن الطغيانيات الصغيرة في القرن الخامس عشر إن أبشع الجرائم كانت أشد ما تكون كثرة فى أصغر الدويلات. ففي هذه، حيث كان عدد أفراد العائلة كبيرًا، وكان كل أفرادها يرغبون أن يعيشوا في رغد يتناسب ومرتبتهم، كانت المنازعات التي تدور حول الوراثة شيئًا لا مفر منه. فإن برناردو فارانو من كاميرينو أعدم (١٤٣٤) اثنين من إخوته[١] رغبة منه فى تقسيم ممتلكاتهما بين أبنائه. وحيثما كان حاكم مدينة يمتاز بحكم حكيم معتدل متصف بالرحمة والإنسانية وبالحماسة للثقافة الفكرية، فإنه كان على العموم ينتسب إلى أسرة عظيمة، أو كان يعتمد سياسياً على أسرة عظيمة. وهذا هو، على سبيل المثال، حال أليساندرو سفورزا[٢]، أمير بيسارو، وأخي فرانشيسكو العظيم وزوج أم فيديريجو من أوربينو (توفى ١٤٧٣). ولما كان حصيفًا في إدارته للشئون، عادلاً بشوشًا في حكمه، فإنه استمتع بعد سنوات من الحرب بعهد يشمله الهدوء وجمع مكتبة عظيمة وقضى وقت فراغه فى أحاديث علمية أو دينية. وثمة رجل من نفس الطبقة هو جيوفانى الثانى بنتيفوجليو Bentivoglio من بولونيا (١٤٦٢-١٥٠٦)، الذى كانت تحدد سياسته سياسة أسرتى إيستى Este وسفورزا. ومن الناحية الأخرى، فكم من الشراسة والظمأ الشديد إلى الدم التي تتبدى في ڤارانى Varani من كاميرينو، ومالاتيستا من ريمينى، وأسرة مانفريدى Manfreddi من فاينزا، وفوق كل شئ بين ظهرانى أسرة باجليونى

Baglioni ببيروجيا! وإنا لنجد صورة أخاذة للأحداث فى الأسرة الأخيرة قرب نهاية القرن الخامس عشر فى ذلك السرد التاريخي المعجب عند جرازياني Graziani وماتيراتزو[٢] Materazzo .

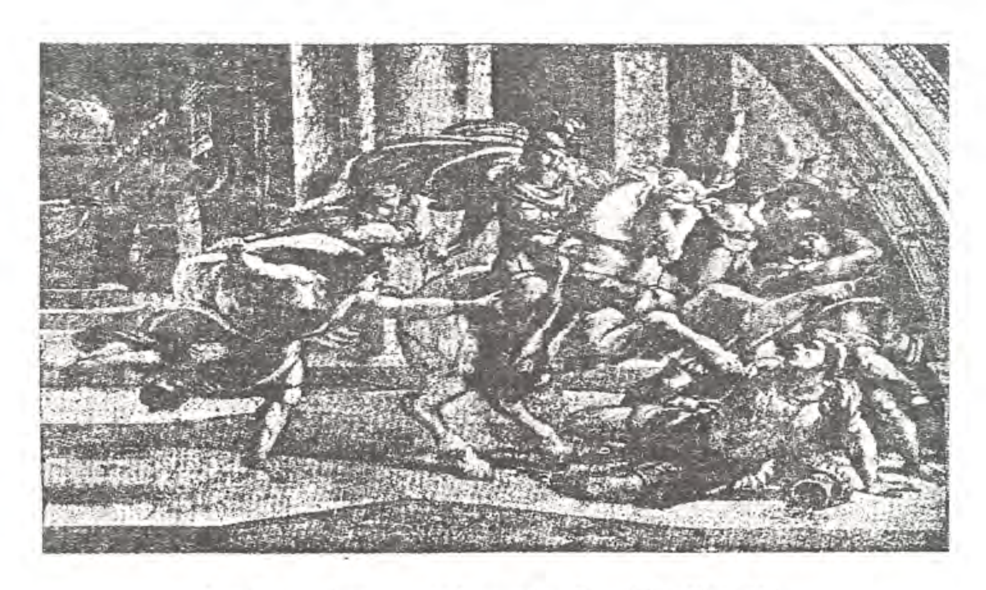
وكانت أسرة باجليوني واحدة من تلك الأسر الذين لم يتخذ حكمهم قط هيئة الاستبدادية المعروفة المُسلَّم بها. والأحرى أن يقال عنها إنها كانت زعامة تمارس عن طريق ثروتهم الطائلة ونفوذهم الواقعي فى اختيار الموظفين العموميين. فأما فى داخل العائلة فقد جرت العادة بأن يعترف برجل واحد رأسًا لها؛ على أن الغيرة العميقة الخفية عن الأنظار كانت منتشرة بين أفراد مختلف فروع العائلة. غير أنه كانت تقف قبالة أسرة باجليوني طائفة أرستقراطية أخرى معارضة أو حزب تتزعمه أسرة أودّى Oddi. وفى ١٤٨٧ حولت بيروجيا إلى معسكر، وازدحمت بيوت زعماء المواطنين بالقتلة المؤجرين؛ ومن ثم أصبحت مشاهد العنف تحدث كل يوم. فقد حملت السلاح كلّيتان عند دفن طالب ألماني لقي مصرعه اغتيالاً ووقفتا وجهًا لوجه؛ وكان يحدث فى بعض الحين أن هؤلاء القتلة المؤجرين التابعين لمختلف البيوتات كانوا يشتركون فعلاً فى القتال فى الميدان العام. وذهبت شكاوى التجار والصناع أدراج الرياح؛ وكان الحكام الباباويون والمحاسيب (النيبوتيون) Nipoti يمسكون ألسنتهم عن الكلام وينسحبون من الموقف عند سنوح أول فرصة. وفى خاتمة الأمر اضطرت أسرة أودّى إلى التخلى عن بيروجيا، وأصبحت المدينة قلعة محاصرة تحت حكم الاستبداد المطلق لأسرة باجليوني، الذين استخدموا الكاتدرائية نفسها كثكنات. وكانت المؤامرات والهجمات الفجائية تُقَابَل بانتقامٍ قاسٍ؛ وفى ١٤٩١، وبعد قتل مائة وثلاثين متآمرًا شقوا طريقهم عنوة إلى قلب المدينة وعلقوا عند القصر العام، أقيم فى الميدان خمسة وثلاثون مذبحًا أو هيكلا، وظلّت القداسات تقام ثلاثة أيام، كما كانت تعقد المواكب لإماطة اللعنة التى حلت بالمكان. واغتيل ابن أخ للبابا إنوسنت الثامن فى الشارع فى رابعة النهار. كما أن ابن أخ لإسكندر السادس، الذى أرسل لتهدئة الأمور، طُرد مشيعًا بالاحتقار العام من

الجماهير. وفى الحين نفسه وعلى طول المدى كان زعيما البيت الحاكم، وهما جويدو وريدولفو، يعقدان مقابلات كثيرة مع الراهبة كولومبا Suor Colomba من رييتى Rietti ، وهى راهبة دومينيكانية ذات سمعة قديسية وقدرة إعجازية، فأمرتهم بعد تهديدهم بالويل والثبور بأن يخلدوا إلى السلم- وعبثًا كان جهدها بطبيعة الحال. ومع هذا فإن مدونة الأخبار التاريخية تنتهز الفرصة لتوضيح ما كان عليه أفراد الأهالى الأطيب شيمة فى بيروجيا من إيمان وتقوى أثناء حكم الإرهاب ذاك. وعندما حدث فى ١٤٩٤ أن الإمبراطور شارل الثامن اقترب من الباجليونيين قادمًا من بيروجيا، خاض المنفيون المعسكرون فى أسيسى وما جاورها الحرب بشراسة بالغة بحيث أن كل بيت بالوادى سُوِّى بالأرض. فتركت الحقول بلا زرع ولا حرث، وتحول الفلاحون إلى متوحشين من الناهبين والقتلة، وامتلأت مناطق الآجام والشجيرات بالأيائل البرية والذئاب، وسمنت الوحوش على أجساد القتلى، أو بما سمى "باللحم المسيحى". وعندما انسحب إسكندر السادس فى ١٤٩٥ إلى أمبريا Umbria من أمام شارل الثامن، وهو يعود آنذاك من نابولى، خطر بباله وهو فى بيروجيا أنه ربما استطاع التخلص من أسرة باجليونى إلى الأبد؛ فاقترح على جويدو إقامة حفل كبير أو مرماح أو برجاس أو أى شئ آخر من هذا القبيل، يستطاع به جمع جميع أفراد العائلة سويًا. على أن جويدو كان يرى "أن أروع مشهد هو أن تشاهد القوة العسكرية بأسرها لبيروجيا مجتمعة فى صعيد واحد". وعند ذلك عدل البابا عن مشروعه. وسرعان ما قام المنفيون بهجوم آخر، لم تحرز لآل باجليونى النصر فيه إلا بطولة باجليونى الشخصية دون غيرها. وهنا قاتل سيمونى باجليونى، وهو غلام لم يكد يبلغ الثامنة عشر فى الميدان مع حفنة من الأتباع ضد مئات من أفراد العدو؛ وأخيراً سقط بعد إصابته بنيف وعشرين جرحًا، ولكنه ما لبث أن أفاق عندما هب لنصرته استورى باجليونى، حتى إذا امتطى صهوة جواده فى دروع مذهبة وعلى خونته رسم باز "خاض كأنه مارس إله الحرب وضعًا وهيئة وعملاً غمار ذلك الصراع".



شكل (١٢) القصر الكومينالى (العام) ، بيروجيا

وفى ذلك الوقت كان رافاييل وهو غلام فى الثانية عشرة، بمدرسته تحت إشراف بييترو بيروجينو. وربما خلفت انطباعات تلك الأيام فى الصور الصغيرة المبكرة للقديس ميشيل والقديس جورج. فإن شيئًا من قبيلهما ربما يعيش إلى أبد الآبدين فى التصويرة العظيمة للقديس ميشيل. وإذا كان استورى باجليونى وجد فى أى مكان تمجيدة كممثل أعلى، فلقد وجده فى شخص ذلك الفارس السماوى المقام فى الهيليودوراس Heliodorus .



شكل (١٣) . الفارس السماوى من "طرد هيليودوراس من المعبد"

لرافاييل

روما، الفاتيكان

وتم تدمير خصوم أسرة باجليونى جزئياً، وتفرقوا فى رعب جزئيًا، وظلوا منذ ذلك الحين عاجزين عن القيام بأى مغامرة من ذلك النوع. ثم عقد بين الطرفين بعد فترة من الزمن صلح جزئى، سمح بمقتضاه لبعض المنفيين بالعودة على أن بيروجيا لم تصبح مع ذلك أكثر أمنًا ولا هدوءاً؛ إذ انفجر الشقاق الداخلى بين الأسرة الحاكمة فى إسراف مخيف. وتشكلت معارضة ضد جويدو وريدولفو وأبناءهما جيانباولو وسيمونيتو واستورى وجيسموندو وجنتيلى ومارك أنتونيو، وغيرهم على يد حفيدين لأخ هما جريفونى وكارلو بارتشيجليا؛ وكان الأخير من هذين الاثنين هو أيضاً ابن أخ لفارانو، أمير كاميرينو، وأخًا لأحد المنفيين السابقين وهو إيرونيمو ديللا بينا Ieronimo della Penna. وعبثًا حاول سيمونيتو، يحدوه حس باطنى مسبق بالشر، أن يتوسل إلى عمه راكعاً على ركبتيه أن يسمح له بأن يقتل بينا؛ ولكن جويدو رفض. ونضجت المؤامرة

فجأة عند مناسبة زواج أستورى من لافينيا كولونا فى منتصف صيف ١٥٠٠ ، فقد بدأ الاحتفال بالأفراح التى دامت عدة أيام تظللها نذر قاتمة، وصف كاتارازو تراكم الظلمة فيها وصفًا جديراً بالإعجاب. وظل فارانو يحثهما ويشجعهما بمهارة شيطانية: فأخذ يشتغل على جريفونوى مؤملاً إياه بفكرة السلطان الكامل غير الموزع، ويقصص عن مؤامرات وهمية تحيكها زوجته زينوبيا مع جيانباولو. وأخيراً تم تزويد كل متآمر بضحية. (وكانت أسرة باجليونى يعيشون جميعًا فى بيوت منفصلة قام معظمها فى موقع القلعة الحالية). وتسلم كل منهم خمسة عشرة من القتلة المؤجرين تحت أمره، فأما الباقون فكلفوا بالمراقبة. وفى ليلة الخامس عشر من يوليو فتحت الأبواب عنوة واغتيل جويدو وأستورى وسيمونيتو وجيسموندو؛ وتمكن الآخرون من الهرب.

وبينما جثة أستورى ترقد إلى جوار جثة سيمونيتو فى الشارع راح المشاهدون، "وبخاصة الطلبة الأجانب"، يقارنونه برومانى قديم، فما أبلغ عظمته التى بدا فيها وقوة أثره فى النفوس. ولم تزل تتجلى على قسمات سيمونيتو مخايل من الجرأة والشهامة والتحدى لم تسطع أن تخفف من حدتها يد الموت نفسه. وجال الغالبون المنتصرون جولة بين أصدقاء الأسرة، وبذلوا قصاراهم فى تزكية أنفسهم؛ فوجدوهم جميعًا وعينهم تفيض بالدمع وقد تهيأوا للنزوح إلى الريف. وفى الحين نفسه تمكن الفارون من آل باجليونى من جمع القوات فى خارج المدينة، وفى اليوم التالى شقوا طريقهم غصبًا إلى داخلها، وعلى رأسهم جيانباولو، وسرعان ما وجدوا حولهم مناصرين بين آخرين كان مارتشيجليا يتوعدهم بالموت. وعندما وقع جريفونى فى أيديهم قرب سان إركولونو أسلمه جيانباولو إلى أتباعه ليعدموه. وفر بارتشيجليا وبينا إلى فارانو، وهو المدبر الرئيسى للمأساة، فى مدينة كاميرينو؛ وفى لحظات قليلة وبدون خسائر تذكر أصبح جيانباولو سيداً المدينة.

وعند ذلك عادت أتالانتا، وهى أم جريفونى التى لم تبرح صغيرة السن جميلة، وقد انسحبت فى اليوم السابق إلى دار ريفية لها مع زينوبيا زوجة الأخير وطفلين لجيانباولو، وقد سبق لها أن طردت ابنها أكثر من مرة مشيعًا بلعنات الأم الحانقة،

عادت الآن مع زوجة ابنها بحثًا عن الرجل الذى يحتضر. ووقف الكل جانبًا بينما تقتربان، وقد انكمش كل رجل مخافة أن تتبين فيه ذابح جريفونى، وقد امتلأ قلبه بالرهبة من أن تحل عليه نقمة الأم. ولكنهم كانوا مخدوعين: فإنها هى نفسها توسلت إلى ولدها أن يعفو عمن أنزل به الضربة القاضية، ومات مشيعًا بدعوتها وبركتها. وتابعت أعين الجماهير المرأتين باحترام وإجلال وهما تعبران الميدان فى ثيابهما الملطخة بالدماء. وهذه كانت أتالانتا التى رسم لها رافاييل فيما بعد الصورة عالية الصيت المسماة الشهادة Deposition ، التى تمكنت بواسطتها من أن تضع أحزانها الأمومية عند قدمى عذاب أعلى وأقدس.



شكل (١٤) . سيجيسموندو مالاتيستا

ريمينى، الكاتدرائية

تصوير أليناري

فأما الكاتدرائية التى تم بجوارها تمامًا تنفيذ الشطر الأكبر من هذه المأساة فقد غسلت بالنبيذ وأعيد تدشينها ثانية. وظل قوس النصر الذى أقيم تذكاراً للزفاف قائمًا مصوراً صورة لأعمال استورى واشعار المديح التى وضعها قاص هذه الأحداث، وهو المكرم ماتارازو Matarazzo .

ونشأ تاريخ رطازى الصورة، ما هو إلا مجرد انعكاس وتطوير لهذه الفظائع، يقوم على الأيام الباكرة لأسرة باجليوني. وهو يقص أن جميع أفراد هذه العائلة منذ البداية ماتوا ميتة سيئة- منهم سبعة وعشرون ماتوا معًا في مناسبة واحدة؛ كما أن بيوتهم قيل إنها سويت بالأرض مرة قبل ذلك، وأن شوارع بيروجيا رصفت بأحجار هذه البيوت، إلى غير ذلك من أقوال من هذا القبيل. على أنه حدث حقًا أن تم تدمير قصورهم في عهد البابا بول الثالث[٤].

وجاء حين من الدهر بدا فيه أنهم استقروا على رأى وتصميم سليم وأنهم نظموا حزبهم، وأنهم أسدلوا حمايتهم على الموظفين العموميين ضد الأعمال التعسفية التي يرتكبها النبلاء. غير أن اللعنة القديمة انفجرت ثانية كالنار الممتدة تحت الرماد. واستدرج جيانباولو إلى روما في عهد البابا ليو العاشر، حيث قطعت رأسه؛ هذا إلى أن أحد أبنائه وهو أورازيو، الذى حكم بيروجيا مدة وجيزة جدًا مستخدمًا أشد وسائل العنف كشريك لدوق أوربينو (الذى كان هو نفسه واقعًا تحت تهديد البابا)، عاد كرة أخرى فكرر في عائلته وذوى قرباه أنفسهم نفس ألوان الرعب التي لقيتها في الماضي. فقد اغتيل عمه وثلاثة من أبناء عمومته، وعند ذلك أرسل إليه الدوق كلمة يقول فيها أن كفى ما قد جرى[٥]. وخلد أخوه مالاتيستا باجليوني، وهو القائد الفلورنسي، اسمه أبد الدهر بخيانته التي ارتكبها في ١٥٣٠؛ كما أن ريدولفو ابن مالاتيستا، وهو آخر أفراد الأسرة، تمكن من الوصول عن طريق قتله للنائب البابوى والموظفين العموميين في ١٥٣٤، إلى سلطان وجيز الأمد ولكنه ملطخ بالدم.

ونلتقي هنا وهناك بأسماء حكام ريميني. وندر أن اجتمع في شخص واحد من موت الضمير وقلة التقوى والمهارة والثقافة العالية ما اجتمع عند سيجيسموندو مالاتيستا (توفى ١٤٦٧)[٦]. ولكن لا بد أن كمية الجرائم المتراكمة على عاتق عائلة كهذه ينبغي في النهاية أن ترجح كل موهبة، مهما عظمت، ولا بد أن تجر الطاغية إلى الهاوية. ونجح باندولفو، ابن أخي سيجيسموندو، وقد ورد ذكره آنفاً، في الاستمساك بموقعه لمجرد سبب وحيد هو أن البنادقة رفضوا التخلي عن قائد المرتزقة التابع لهم،

مهما يكن الجرم الذى قد يتهم به؛ وعندما أقدم رعيته (١٤٩٧)، بعد استفزاز شديد وكاف[٧]، على ضربه بالمدافع فى قلعته بريميني، ثم سمحوا بعد ذلك بأن ينجو بنفسه، فإن منفويًا بندقيًا أعاده ثانية، وهو ملطخ آنفًا بجريمة قتل الأخ ويكل تهمة بشعة أخرى. وبعد ذلك بثلاثين حولاً أصبح أبناء أسرة مالاتيستا من المنفيين المفلسين المعدمين. وفى ١٥٢٧، كما كان الحال فى زمن سيزار بورجيا، حل بالطواغيت الصغار نوع من الوباء؛ قل منهم من عاش بعد ذلك، كما لم يبلغ أحدهم من زمانه خيراً. وحدث فى ميراندولا، التى كان يحكمها أمراء صغار غير مهمين من أسرة بيكو، أن كان يعيش فى ١٥٣٣ عالم فقير هو ليليو جريجوريو جيرالدى، كان فر من حادثة نهب روما إلى الدار المضيافة لچيوڤانى فرانشيسكو بيكو الشيخ ابن أخى چيوڤانى الذائع الصيت؛ وتمخضت المناقشات حول الناووس التذكارى، الذى كان الأمير يشيده لنفسه، عن دراسة، يحمل الإهداء فيها تاريخ شهر أبريل من هذه السنة. على أن الحاشية التى أضيفت لتلك الدراسة حزينة[٨]. "هوجم الأمير التعس فى أكتوبر من تلك السنة عينها أثناء الليل وسلبت منه حياته وعرشه، سلبهما ابن أخيه؛ ونجوت أنا بأعجوبة أضيق نجاة، وأصبحت الآن فى أعمق أعماق العسر والشقاء".

وثمة شبه طغيانية زائفة ليس لها ظواهر مميزة، كالتى مارسها باندولفو بتروتشى فى ١٤٩٠ فى سيينا، وكانت تمزقها آنذاك الخلافات الحزبية، وهى لا تكاد تستحق تأملاً أكثر. كان على ضآلة شأنه وسوء حقده وضره يحكم بمساعدة أستاذ فى فقه القانون ومُنَجِّم، وكان يُرهب شعبه بالقتل بين حين وحين. وكانت تسليته فى شهور الصيف أن يدحرج كتل الحجر من قمة جبل مونتى أمياتا، دون أن يهتم أنملة ماذا تصيب أو من تصيب. وبعد أن نجح، حيث فشل أكيس الرجال، فى النجاة من أحابيل سيزار بورجيا، مات فى آخر المطاف منبوذاً مرذولاً من الجميع[٩]. واحتفظ أبناؤه بسيادة محددة أمد عدة سنين بعد ذلك.

هوامش الفصل الرابع - القسم الأول

(١) انظر ..Chron. Eugubinum, in Murat., xxi, col. 972 وانظر Cf. Feliciangel in Gion. Stor., 13, 1 sqq.

(٢) انظر فيسبازيانو فيورينتينو .Vespas. Florent., p. 148

(٣) انظر .Archiv. Stor., xvi, Parte I and II (ed. Bonaini, Fabretti, Polidori)

(٤) غزا يوليوس الثاني بيروجيا بغاية السهولة في ١٥٠٦، وأجبر جيانباولو باجليوني Gianpaolo Baglione على الخضوع. وأضاع الأخير كما يحدثنا ماكيافيللي في (Discorsi, i, 27)، فرصة الخلود عندما أحجم عن قتل البابا.

(٥) انظر فاركي ..Varchi, Stor. Fiorent., i, pp. 242 sqq

(٦) انظر.Cf (inter al.) Jov. Pontan., De Immanitate, cap. 17

(٧) انظر ماليبيرو ..Malipiero, Ann. Venet. Archiv. Stor., vii, i, pp. 498 sqq ويعد أن بحث عبثًا عن محبوبته، التي حبسها أبوها في دير، هدد الوالد وأحرق الدير ومباني أخرى وارتكب كثيراً من أعمال العنف.

(٨) انظر ليل. جريج. جيرالدوس ,Lil. Greg. Giraldus, De Sepulchris ac Vario Sepeliendi Ritu i, pp. 640 sqq. (Opera, ed. Bas., 1580) والطبعة التالية على يد ج. فايس J. Faes (Helmstädt, 1676) والإهداء والحاشية من عمل جيرالدوس "Gir., "ad Carolum Miltz Germanum، في هذه الطبعة التي بدون تاريخ ؛ ولا تحتوي أي منهما الفقرة الواردة في النص. وفي ١٤٧٠ كانت حدثت فعلاً كارثة مصغرة في العائلة نفسها (حيث أمر جاليوتو بأخيه أنطونيو ماريا فزج به في السجن). انظر Cf. Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 225.

(٩) «انظر، بالتضاد مع السابق، دفاع بتروتشي على يد س. فالليتي-فوستي C. Falletti-Fossati, Atti d. Acc. Dei Fisiocritici, vol. x, p. 92 (1883). ج. W. G.» .

الفصل الخامس

الأسرات الكبرى

إن من المناسب في معالجتنا للأسرات الرئيسية بإيطاليا أن نفحص عن أمر أسرة أراجون، بسبب ما لها من خصيصة مميزة، بمعزل عن الأخريات. فإن نظام الإقطاع، الذى ظل قائمًا منذ أيام النورمان فى صورة سيادة البارونات على المناطق الأرضية، أضفى لونًا مميزًا على البنية السياسية لنابولي؛ وذلك بينما كان الوضع بكل مكان آخر من إيطاليا، باستثناء الجزء الجنوبى من الممتلكات الكنسية فقط، وفى مناطق قليلة أخرى، كانت تسود حيازة مباشرة للأرض دون أن يسمح القانون بأية قوة وراثية. وكان ألفونسو العظيم، الذى حكم نابولي منذ ١٤٣٥ فصاعدا (توفى فى ١٤٥٨)، رجلاً يختلف صنعًا عن سلالته الحقيقيين أو المزعومين. ورغم أنه كان ألمعيًا فى كل أثناء حياته، غير هياب فى اختلاطه بشعبه، وادعًا وكريمًا نحو أعدائه، مهابًا بشوشًا فى اختلاطه بالناس، متواضعًا على شرعيته في الوراثة، متلقيًا للإعجاب أكثر من اللوم على ولعه كرجل شيخ بلوكريتسيا دالانيا Lucrezia d'Alania، اتصف بصفة سيئة وحيدة هى الإسراف[1] ، الذى نجمت عنه، مع ذلك، عاقبته الطبيعية. فظل المولون عديمو الضمير متسلطين مهيمنين طويلاً على البلاط، حتى سلبهم الملك المفلس وجردهم من كل غنائمهم؛ وبدأ دعوة تبشيرية لحرب صليبية، اتخذت ذريعة لفرض الضرائب على رجال الدين؛ وأجبر اليهود على استنقاذ أنفسهم من اعتناق المسيحية قهرًا، بالإضافة إلى إجراءات جائرة أخرى، بالهدايا ودفع الضرائب المنتظمة؛ وعندما حدث زلزال كبير فى منطقة أبروتزى Abruzzi اضطر الأحياء إلى التعويض عما وجب أداؤه من الموتى.

على أنه من ناحية أخرى أبطل الضرائب غير المعقولة، كتلك المفروضة على لعبة النرد (الطاولة)، وهدف إلى إراحة رعاياه الأفقر حالاً من المكوس التي كانت تثقل كاهلهم بشدة. وبمثل هذه الوسائل تمكن ألفونسو من أن يستضيف الضيوف المتازين بفخامة لا ضريب لها؛ وكان يجد متعة عظمى في إنفاق النفقات التي لا تنتهي عند حد، حتى لو عادت بالنفع على أعدائه، كما أن إغداقه المال على العمل الأدبي لم يكن له مثيل على الإطلاق. وقبض بوجيو خمسمائة قطعة ذهبية مقابل ترجمته لقصيدة زينوفون المسماة سيروبيديا Cyropaedia .

فأما فيرانتي(٢)، الذي خلفه، فقد مر من غير اعتراض بوصفه ولداً غير شرعي من سيدة إسبانية. على أنه ليس بمستبعد أن يكون ابنًا لخلاسية مولدة مراكشية من فالنسيا. ومهما يكن بسبب نوع دمه أو المؤامرات التي حاكها على حياته البارونات فمررت طبيعته وأسدلت عليها ظلمة، فإنه من المحقق أنه شخص لم يعدله أحد في شراسته من أمراء زمانه. وإذ كان شديد النشاط القلق، معترفًا له بأنه من أقوى العقول السياسية في عصره، خاليًا من رذائل الخليع، فإنه ركز كل قواه، التي ينبغي أن يحسب بينها عميق الرياء والخداع وروح انتقامية لا مجال للصلح معها وإرضائها، على تدمير خصومه. وقد نالته الجراح في كل ناحية يتعرض فيها الحاكم للهجوم؛ وذلك بأن زعماء البارونات وإن ارتبطوا به زواجًا، كانوا مع ذلك حلفاء لأعدائه من الأجانب. وأصبحت الإجراءات المتطرفة جزءًا لا يتجزأ من سياسته اليومية. وكانت الوسائل المالية التي اتخذها لهذا الكفاح مع باروناته ومن أجل حروبه الخارجية، هي نفس وسائل العرب الشراقنة التي أدخلها فريديريك الثاني في الاستخدام: فكانت الحكومة وحدها هي التي تتجر في الزيت والنبيذ؛ وأقدم فيرانتي على وضع تجارة البلاد بأكملها في يد التاجر الثري فرانشيسكو كوبولا، الذي جعلت بيده المقاليد التامة لرسو السفن على السواحل، وقاسم الملك الأرباح. وكانت الخسائر تعوض بالقروض الإجبارية، وبالإعدام والمصادرة وببيع المناصب الكهنوتية (السيمونية) علناً، وبالاشتراكات والمساهمات المجبية من الهيئات الكنسية الإكليروسية. وفضلاً عن الصيد، الذي كان

يمارسه الملك بغض النظر عن كل حق للناس في ملكيتهم، فإن ملذاته كانت من نوعين: فإنه كان يحب أن يكون خصومه قريبين منه، إما أحياء في سجون قوية الحراسة أو موتى ومحنطين وقد ارتدوا الملابس التي كانوا يرتدونها أيام حياتهم[٣]. وإنه ليضحك أثناء حديثه عن الأسرى مع أصدقائه، ولا يحاول أن يخفي بأية حال متحف المومياءات. وكان ضحاياه غالبًا هم الرجال الذين أوقعهم في حبائله عن طريق الخداع والغش؛ وبعضهم تم اعتقاله بينما كان ضيفًا على المائدة الملكية. وكان سلوكه مع وزيره الأول أنتونيللو بيتروتشي، الذي مرض وشاخ وشاب في خدمته، والذي تمكن بسبب خوف الأخير المتزايد من الموت من أن يغتصب منه هدية بعد هدية، شيطانيًا بمعنى الكلمة الحرفي. وأخيرًا اتخذ من اشتباهه في اشتراكه في آخر مؤامرة للبارونات ذريعة لاعتقاله وإعدامه. ومات معه كوبولا. والطريقة التي تورد بها كل هذه الأحداث عند كاراتشيولو وبورزيو تجعل شعر رأسك يقف. واستمتع أكبر أبناء الملك ألفونسو، وهو دوق كالبريا، فيما عقب من سنين بنوع من المساواة الملكية مع أبيه. كان داعرًا متوحشًا بهيميًا- يصفه كومينيس بأنه "كان أقسى وأردأ وأخبث وأخس رجل شهده العالم أبدا"- وكان من ناحية الصراحة وحدها يمتاز على فيرانتي، وكان يعترف جهرة باحتقاره للدين وكل ما حوى من عرف وممارسات[٤]. ولم تكن أنبل وأفضل سجايا الطغيانيات الإيطالية موجودة عند أمراء هذه الأسرة؛ وكل ما كانوا يمتلكونه من فن عصرهم وثقافته إنما يخدم أهداف الترف أو المظاهر التي كانوا يتقلبون فيها[٥]. ولقد يبدو أنه حتى الإسبان الأصلاء كانوا ينحدرون وينحلون دائما تقريبًا في إيطاليا؛ بيد أن نهاية هذا البيت المهجن (١٤٩٤ و١٥٠٣) تعطينا دليلاً واضحًا على حاجة إلى الدماء. ومات فيرانتي بسبب الهموم والمتاعب العقلية؛ واتهم ألفونسو أخاه فيديريجو، وهو العضو الشريف الوحيد في تلك العائلة، بالخيانة وأهانه على أشنع صورة. وأخيرًا، ومع أنه كان حتى أنذاك يعد من أكفأ القواد في إيطاليا، فإنه فقد رشاده ذات يوم وفر إلى صقلية، تاركًا ابنه فيرانتي الأصغر فريسة للفرنسيين وللخيانة العائلية. وإن أسرة حكمت كما حكمت هذه، لا بد أنها على الأقل كانت تبيع حياتها بالثمن الراجح، لو أن أبناءها حلموا يومًا أو أملوا في استرداد عرشهم. ولكن كما قال كومينيس، متحيزًا، وإن أصاب في قوله

علـى وجـه الجملة، وهو يعلق على هذه المناسبة: "لم يكن مثله رجل قاس غير هياب" . Jamais homme cruel ne fut hardi



شكل (١٥) . فيليبو ماريا فيسكونتي.

ويتجلى فى استبدادية دوقات ميلانو، الذين كانت حكومتهم منذ عهد جيانجاليتزو فصاعداً ملكية مطلقة من أشد الأنواع تطرفاً، الطابع الحقيقى الأصيل للقرن الخامس عشر. ويعد آخر أفراد أسرة فيسكونتى وهو فيليبو ماريا (١٤١٢-١٤٤٧)، شخصية لها أهمية مشوقة خاصة، ومن حسن الحظ أن وصفاً معجباً له بقى لنا حتى اليوم [٦]. فياله من رجل ذى مواهب غير عادية ومركز رفيع صاغته له عاطفة الخوف، ذلك ما يتجلى هنا ممتزجاً بما يمكن تسميته بالاكتمال الحسابى الرياضى. وكرست كل موارد الدولة لغاية واحدة هى تامين سلامته الشخصية، وإن كانت أنانيته القاسية لم تتحدر لحسن الحظ إلى مجرد ظمأ بحت لا هدف له إلا الدماء. كان يعيش فى قلعة ميلانو، تحيط به الحدائق البديعة والأشجار الباسقة ومروج النجيل. وظل سنوات عدة لا تطأ قدماه قط أرض المدينة، قاصراً نزهاته ورحلاته على الريف وحده، حيث يقوم العديد من قلاعه الفخمة؛ وكان يحمله إليها الأسطول الصغير، الذى تجره أسرع الجياد، ماراً بقنوات أنشئت لذلك الغرض وحده، وكان مُرَتَّباً ومنظماً بحيث يسمح باتباع أدق أنواع

أدب السلوك. فكل من دخل القلعة كانت تلحظه مئة عين؛ وكان مجرد الوقوف بالنوافذ محظوراً، خشية أن تعطى إشارات للواقفين المترصدين فى الخارج. وكل من أدخل فى الخدمة بين أتباع الأمير الشخصيين كانوا يوضعون تحت طائفة من أدق أنواع الاختبارات؛ فإذا تم قبوله نيطت به أعلى مهام دبلوماسية كما يكلف بأدنى الخدمات الشخصية اتضاعًا- إذ كان كلا الخدمتين الوضيعة والشريفة متماثلتين شرفًا وكرامة. ذلك هو الرجل الذى قاد حروبًا طويلة وعسيرة، والذى كان يعالج عادة شئونًا سياسية من الدرجة الأولى من الأهمية، وكان يرسل فى كل يوم رسله المفوضين فوق العادة إلى كل أرجاء إيطاليا. وكانت سلامته تقوم على حقيقة أن خدامه لم يكونوا يثقون فيمن عداهم من الناس، وأن قادة المرتزقة عنده كان الجواسيس يراقبونهم ويضللونهم، وإن السفراء والموظفين الكبار لتنزل بهم الحيرة والارتباك وفرق بينهم بألوان من الحسد والغيرة توقد نيرانها بصورة مصطنعة، وذلك بوجه خاص باستخدام وسيلة القرن بين رجل شريف ورجل حقير. وكانت عقيدته الجوانية أيضاً ترتكز على نظم متباينة متناقضة؛ إذ كان يؤمن بالضرورة العمياء، وبأثر النجوم، مع تقديم الصلوات فى الحين نفسه الى كل من يأنس فيهم العون من أى نوع كان[٧]؛ وكان يدرس كتابات قدامى المؤلفين فضلا عن قصص الفروسية الفرنسية. ومع ذلك فإنه هو الرجل نفسه الذى لا يسمح بأن يذكر الموت بحضرته[٨]، كما كان يأمر بخاصة المقربين من رجاله إذا حضرهم الموت أن ينقلوا من القلعة، حتى لا تقع أى ظلال قاتمة على مثوى السعادة، وقد عجل [illegible] بموته هو نفسه بإقفاله جرحاً أصابه، ورفضه أن يحجم دمه، حتى مات [illegible] الكرامة والوقار.



شكل (١٦) قلعة ميلانو في القرن الخامس عشر

عن طبعة فيتروفيوس المنشورة في ١٠٤٨

وربما كان ابن زوجته وخليفته على العرش، وهو قائد المرتزقة السعيد الحظ فرانشيسكو سفورزا (١٤٥٠-١٤٦٦، انظر القسم الأول، الفصل الثالث)، أقرب الناس إلى قلوب أبناء عصره بين جميع الإيطاليين فى القرن الخامس عشر. فلم يحدث أبداً أن تجلى انتصار العبقرية والقوة الفردية بأروع مما تجلى فيه؛ فأما الذين أبوا أن يعترفوا بجدارته فقد اضطروا أن يعجبوا لشأنه على الأقل بوصف كونه الابن المدلل للحظ. وادعى أهالى ميلانو جهراً بأن من المشرف لهم أن يحكمهم أمير على هذا المستوى الرفيع من الامتياز: وعندما دخل المدينة حمله سكانها المتزاحمون وهو على ظهر جواده إلى الكاتدرائية دون أن يعطوه فرصة للترجل عن جواده[٩]. فلننظر إلى صحيفته وما له وما عليه فى حياته، فى تقدير البابا بيوس الثانى، وهو قاض وحكم كفء فى مثل هذه الأمور[١٠].



شكل (١٧) فرانشيسكو سفورزا

البارجيللو، فلورنسا

وفى ١٤٥٩، عندما حضر الدوق إلى المؤتمر المنعقد فى مانتوا، كان قد بلغ الستين من العمر (فى الحقيقة الثامنة والخمسين)؛ وكان وهو مُمتطٍ صهوة جواده يبدو شاباً

فى ريعان الشباب؛ ذا شخصية باذخة قوية الأثر فى الناس وله قسمات جادة يجمع بين الهدوء والبشاشة فى حديثه، فهو أمير فى كل نواحى سمته، ويجمع بين المواهب الجسمية والفكرية بما ليس له ضريب فى زماننا، لا يقهر فى ميدان القتال- ذلكم هو الرجل الذى رفع نفسه من مكانة وضيعة إلى مكانة التحكم فى إمبراطورية. وكانت زوجته حسناء عفيفة، وكان أطفاله كملائكة السماء؛ وقل أن أصابه مرض، كما أن كل رغباته الكبرى قد تحققت. ومع ذلك لم تعفه الأيام من صدمات سوء الحظ. إذ قتلت زوجته عشيقته بدافع الغيرة؛ وتخلى عنه رفيقاه وصديقاه القديمان ترويلو وبرنورو، وانضما إلى الملك ألفونسو؛ وثمة آخر هو شياربوللونى **Ciarpollone**، اضطر أن يشنقه الأمير لخيانته؛ ومما قاساه من الدهر أن أخاه اليسّاندرو ألّب الفرنسيين عليه؛ وأن أحد أبنائه دبر المؤامرات عليه، فسجن؛ وكان مارش أنكونا، الذى سبق وأن احتازه في الحرب، قد فقده مرة أخرى بنفس الطريقة. ولا يمكن أن يتعم أى رجل بمثل هذا الحظ الصافى بحيث أنه في مكان ما يجب عليه أن يقاتل الحظ العاثر. ويا له من سعيد من كان له متاعب قليلة فقط.



شكل (١٨) . جاليانزو ماريا سفورزا، لانتونيو ديل بوللايولو

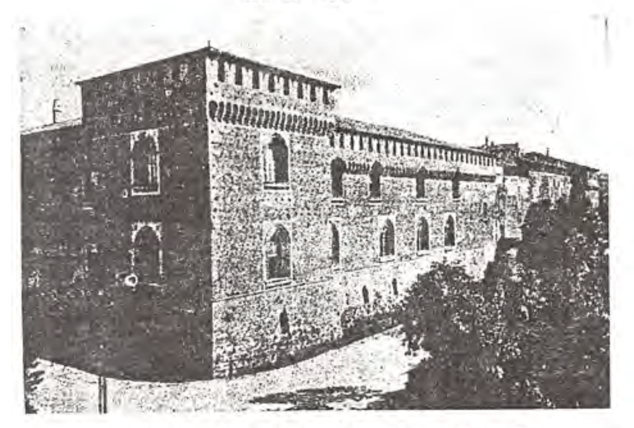
فلورنسا، أوفيزى

تصوير آلينارى

وبهذا التعريف السلبى للسعادة كان البابا المثقف يصرف القارئ. ولو كان قادراً على رؤية الغيب ومعرفة المستقبل، أو لو كان راغبًا في التوقف ومناقشة عواقب الحكم المطلق الاستبدادى غير المتحكم فيه، فإن حقيقة واحدة سائدة لم تكن لتغيب عن ملاحظته – وهي غياب جميع الضمانات للمستقبل. فإن هؤلاء الأطفال، الحسنى الصورة كالملائكة، والذين تعلموا وتربوا بعناية ودقة كما حدث، وقعوا فريسة وضحايا عندما شبوا لفساد أنوية لا تقارن. فإن جالياتزو ماريا (١٤٦٦-١٤٧٦)، الذى كان قلقًا وجزعًا فقط للأثر الخارجي، كان يفخر بجمال يديه، وبالمرتبات العالية التي كان يدفعها، وبالرصيد المالى الذى كان يتمتع به، وفي كنزه الذى يتكون من مليونين من القطع الذهبية، وبالرجال المبرزين الّذين كانوا يحيطون به، وفي الجيش وطيور القنص التى كان يحتفظ بها. وكان مغرمًا بصوته، ويتحدث بطريقة جذابة وبطلاقة، ربما، عندما تكون لديه الفرصة لإهانة سفير بندقي[١١]. وكان عرضة للنزوات، مثلاً كغرفة ملونة مبرقشة بالأشخاص في ليلة مفردة؛ وما هو أسوأ، كان يتعرض لنوبات من الفسوق التى لا معنى لها وفي إيقاع القسوة المقززة للنفس بأقرب أصدقائه. وكان يبدو طاغية لا يستحق الحياة لقلة من المتحمسين، الذين كان يرأسهم چيوڤانى أندريا دى لامبونيانو Giovanni Andrea di Lampugnano ؛ وقد قتلوه[١٢]، وبذلك وضعوا الدولة في يد إخوته، الذين وضع واحد منهم، هو لودوفيكو إيل مورو (المغربى) Lodovico il Moro ابن أخيه في السجن واستولى على مقاليد الحكم. وعن طريق ذلك الاغتصاب للعرش جاء التدخل الفرنسى والكوارث التى أصابت إيطاليا بأكملها.



شكل (١٩) لودوفيكو إيل مورو
جزء من قطعة مذبح آل سفورزا
ميلانو، بيريرا
تصوير أليناري



شكل (٢٠) . قلعة ميلانو: الواجهة الشمالية الغربية
تصوير سيمان، لابزيج

ويعد المغربى النموذج الأتم الأكمل لطاغية ذلك العصر، وكنوع من الثمرة الطبيعية يكاد يجردنا من كل قدرة على إصدار الأحكام الخلقية. ورغم اللاأخلاقية العميقة التى تتصف بها الوسائل التى كان يستخدمها، فإنه كان يستخدمها بمهارة تامة؛ وربما لم يكن أحد ليدهش أكثر منه إن يعلم أنه بالنسبة لاختيار الوسيلة فضلاً عن الغاية يكون

الكائن البشرى مسئولاً من الناحية الأخلاقية؛ على أنه كان يعدها بالأحرى فضيلة فريدة أنه امتنع بقدر إمكانه عن الإسراف فى استخدام عقوبة الموت. وهو يتقبل من الإيطاليين، بوصفه شيئًا لا يتجاوز حقه، ذلك الاحترام شبه الخرافى الذى كانوا يولونه لعبقريته السياسية[١٣]. ففى ١٤٩٦ فاخر بأن البابا إسكندر كان قسيسه الخاص، وأن الإمبراطور مكسيميليان هو قائد مرتزقته condottiere ، وأن البندقية إنما هى التشريفاتى الخاص به، وأن ملك فرنسا ساعيه الخاص الذى ينبغى أن يجئ ويغدو بأمره[١٤]. وكان يستطيع بحضور ذهنى رائع أن يزن، حتى وهو فى أقصى حالات الضغط عليه، كل وسائل الهرب الممكنة، وأخيراً يقرر، لاعتبارات تختص بالشرف، أن يكل نفسه إلى طيبة الطبيعة البشرية؛ فرفض اقتراح أخيه الكاردينال أسكانيو Ascanio ، الذى رغب أن يظل فى قلعة ميلانو، على أساس خلاف قديم: "يا مولانا الكاردينال لا تغضب منى ولكنى لا أثق فيك، وإن كنت أخى"؛ وعَيَّن على إمرة القلعة، "كضمان لعودته"، رجلاً طالما أحسن إليه على الدوام ولكنه خان عهده على الرغم من ذلك[١٥] وكان ذلك المغربى فى الداخل حاكمًا صالحًا نافعًا وظل حتى النهاية يعتمد على محبة الناس له وشعبيته فيهم بكل من مدينتى ميلانو وكومو. وقد حدث فى سالف سنواته (بعد ١٤٩٦) أنه استنزف موارد دولته، وكان قد أمر بمدينة كريمونا، بدافع من مجرد اتخاذ التدبير الواقى، بأن يُخنق خفية مواطن محترم وجَّه النقد إلى الضرائب الجديدة. ومنذ ذلك الوقت كان إذا عقد اجتماعًا عامًا باعد بين شخصه وبين زائريه بحاجز، بحيث أنهم كانوا عندما يتحدثون إليه يضطرون أن يرفعوا أصواتهم إلى أقصى حد يستطيعونه[١٦]. وفى بلاطه، وهو ألمع بلاط بأوروبا منذ زوال البلاط البورجاندى، كانت تنتشر حالة لا أخلاقية من أرذل الأنواع: فكان الأب يبيع ابنته، والزوج يبيع زوجته، والأخ يبيع أخته[١٧]. وكان الأمير نفسه دائب النشاط، وكان بوصفه ابنًا لجهوده وثمره وأفعاله يدعى صلة القربى بكل من هم مثله يقفون متكئين على جدارتهم الشخصية- من العلماء والشعراء والفنانين والموسيقيين. وأدت الأكاديمية[١٨] التى أسسها الخدمات لشخصه وأغراضه الخاصة أكثر مما خدمت فى سبيل تعليم المتعلمين؛ ولم يكن ما يجتذبه هو شهرة الرجال الممتازين الذين كانوا يحيطون به قدر ما كان يهمه مجلسهم معه

وخدماتهم له. ومن المحقق أن برامانتى **Bramante** كان يتلقى أجرًا ضئيلاً فى بداية الأمر[٢٠]؛ على أن ليوناردو كان من الناحية الأخرى حتى ١٤٩٦ يتلقى جعلاً مناسبًا- وفضلاً عن هذا، فما الذى كان يبقيه فى البلاط إن لم يكن بمحض إرادته؟ فقد كانت أبواب العالم مفتحة الرتاج أمامه، كما لم تكن مفتحة أمام أى كائن حى آخر فى ذلك الزمان؛ وإذا كان العنصر الأكرم فى طبيعة لودوفيكو إيل مورو يعوزه البرهان الثابت، فهو قائم فى المدة الطويلة التى مكثها فى بلاطه ذلك الأستاذ الحافل بالألغاز. على أن دخول ليوناردو بعد ذلك فى خدمة سيزار بورجيا وفرانسيس الأول كان راجعًا على الأرجح إلى ما كان يملأ نفسه من اهتمام بالشخصية الأخاذة للرجلين.



شكل (٢١) . تجمع لعائلة جونزاجا

لمانتينيا

مانتوا، كاستيللو دى كورتى

وبعد سقوط المغربى- إذ قبض عليه الفرنسيون فى أبريل ١٥٠٠، بعد عودته من فراره إلى ألمانيا- تربى أبناؤه تربية سيئة بين الغرباء، ولم يبدوا أية قدرة على تنفيذ رسالته السياسية. فأما الأكبر ماسيميليانو، فلم يكن يشبهه فى قليل ولا كثير؛ وأما الأصغر فرانشيسكو، فكان على أى الحالات غير محروم من الروح الوثابة. وحاولت

ميلانو، التى ظلت فى تلك السنوات تغير حكامها كثيراً وتقاسى من الآلام فى غضون التغيير ما لا يمكن التعبير عنه، أن تحصن نفسها ضد ردود الأفعال. إذ حدث فى ١٥١٢ أن الفرنسيين، وهم يتراجعون أمام جيوش مكسيميليان والإسبان[٢٠]، حُملوا على إعلان تصريح بأن أهل ميلانو لم يشتركوا فى طردهم، ويمكنهم دون أن يتهموا باقتراف جريمة العصيان، أن يسلموا أنفسهم إلى فاتح جديد[٢١]. ومن الحقائق ذات بعض الأهمية السياسية، أنه فى مثل لحظات الانتقال والتحول هذه فإن المدينة التعسة، شأن نابولى عند فرار أسرة آراجون، كانت عرضة أن تقع فريسة فى أيدى عصابات (كثيراً ما كانت تتشكل من الطبقة الأرسقراطية العليا) من الأوغاد والمجرمين.



شكل (٢٢) . إيزابيلا ديستى

لتيتيان

ڤيينا، متحف الفن

وكانت أسرتا جونزاجا من مانتوا ومونتيفيلترو من أوربينو من خير العائلات نظاماً وأغناها بالرجال ذوى القدرة فى أثناء النصف الثانى من القرن الخامس عشر. وكانت أسرة جونزاجا أسرة يسودها الانسجام إلى حد مقبول؛ إذ لم تُعرف بينهم أية حادثة قتل أمد زمن طويل، كما أنه كان فى الإمكان عرض موتاهم على أعين العالم

بلا خوف. فكان المركيز فرانشيسكو جونزاجا[٢٢] وزوجته إيزابيللا ديستي، على الرغم من بعض ألوان قليلة من الخلاف بينهما، زوجين متفقين ومحترمين، فانشئا أبناءهما ليكونوا ناجحين حتى استرعوا الأنظار إليهم، في وقت كانت فيه ولايتهما الصغيرة البالغة الأهمية معرضة لخطر دائم لا ينقطع. فأما أنه كان حتمًا على فرانشيسكو، سواء كرجل دولة حصيف أو كجندي، أن يصطنع سياسة نزاهة استثنائية، فأمر لم يكن الإمبراطور، ولا البندقية، ولا ملك فرنسا ليتوقعوه أو يرغبوه؛ ولكن المحقق أنه منذ المعركة التي دارت رحاها قرب تارو (١٤٩٥)، شعر وتصرف في حدود الشرف العسكري- تصرف وطني إيطالي، وبث الروح نفسها في زوجته[٢٣]. فإنها أحست بأن كل عمل من أعمال الولاء والبطولة مثل الدفاع عن فاينزا ضد سيزار بورجيا، كان انتقامًا ودفاعًا عن شرف إيطاليا. ولا يحتاج حكمنا عليها أن يقوم على ما تلقته من مديح من الفنانين والكتاب، الذين أعطوا الأميرة الجميلة جزاء ثريًا لقاء رعايتها لهم؛ فإن خطاباتها هي نفسها تصورها لنا امرأة ذات عزم لا يهتز، مليئة بالرفق وقوة الملاحظة المشوبة بالفكاهة. وقد أرسل كل من بيمبو وبانديللو وأريوستو وبرناردو تاسو أعمالهم إلى هذا البلاط، رغم صغره وضعفه الفعلي وفراغ خزانته الخاوية كما وجدوها. ولم تكن الناس لتجد في إيطاليا دائرة أشد صقلاً ولا أخذًا بالألباب منذ تفكك البلاط القديم لأوربينو (١٥٠٨)؛ كما أن مجتمع فيرارا كان ينقص عن مجتمع مانتوا في ناحية واحدة هي حرية الحركة. فأما في الشئون الفنية فقد أوتيت إيزابيللا معرفة صحيحة ودقيقة، كما أن كتالوج مجموعتها الصغيرة والمنتقاة لا يمكن أن يقرأه محب للفنون بدون أن تسرى في جوانحه هزة الانفعال.



شكل (٢٣) . بلاط الاغانى المنعقد بواسطة إيزابيلا ديستى

للورنزو كوستا

باريس، متحف اللوفر

وكانت اوربينو تمتلك فى فيديريجو الكبير (١٤٤٤-١٤٨٢)، سواء كان حقا من أسرة مونتيفيلترو الأقحاح أم لم يكن، ممثلاً يمثل الأمراء على أروع وجه. وظل بوصفه كبير مرتزقة condottiere - كما كان فى حدود هذا الوصف يخدم الباباوات مدة ثلاثين سنة بعد أن أصبح أميراً- يشارك فى الأخلاقيات السياسية للجند الساعين وراء المال، وهى أخلاق لا تقع تبعتها عليهم وحدهم؛ وقد تبنى بوصفه حاكماً لولايته الصغيرة خطة إنفاق المال الذى يكسبه فى الخارج فى داخل وطنه، وسُنّة فرض اخف ما يمكن من الضرائب على شعبه. ونحن نقرأ عنه وعن خليفتيه جويدو بالدو وفرانشيسكو ماريا، ما يلى: "لقد أقاموا المبانى وشجعوا زراعة الأرض، وعاشوا داخل وطنهم ووفروا الأعمال لعدد كبير من أبناء شعبهم؛ وكان رعاياهم يحبونهم"[٢٤]. على أنه لم تكن الدولة وحدها، بل والبلاط أيضًا، عملاً من أعمال الفن والتنظيم، وكان ذلك فى الواقع بكل معانى الكلمة. وكان يعمل فى خدمة فيديريجو خمسمائة إنسان؛ كانت تنظيمات البلاط

كاملة شأنها في عواصم أعظم الملوك، ولكن لم يكن هناك شئ يضيع عبثًا؛ فلكل شئ هدفه، وكل شئ يراقب ويضبط بعناية وحرص. ولم يكن البلاط مسرحًا للرذيلة أو الانغماس في الملذات: وإنما كان مدرسة للتربية العسكرية لأبناء البيوتات العليا الأخرى، وكان اكتمال ما فيها من ثقافة نقطة شرف وتكريم عند الدوق. والقصر الذى بناه، وإن لم يكن من أفخم القصور، فإنه كان كلاسيكيًا رائعًا في اكتمال هيئته وخطته وإتقانها؛ ففيه وضعت أعظم كنوزه وهو المكتبة الشهيرة(٢٥). وإذ أنه شعر بالأمن في بلد يتكسب كل إنسان فيها أو يحصل على الوظيفة في حكمه، ولم يكن فيها متسول قط، فإنه اعتاد أن يخرج بين الناس غير مسلح ودون مرافقين أو حرس تقريبًا؛ وهو وحده بين كل أمراء عصره الذى كان يجرؤ أن يمشي في حديقة مفتوحة وأن يتناول وجباته الزهيدة الطعام في غرفة مفتوحة، بينما يتولى بعضهم قراءة مؤلفات ليقى على مسامعه أو بعض الكتب الدينية في إبان الصيام. وكان في عصر ذلك اليوم نفسه يستمع إلى محاضرة حول أحد الموضوعات الكلاسيكية (أى التى من الأدب العتيق)، ومنها ينتقل إلى دير الكلاريس Clarisse ويتحدث عن الأشياء المقدسة مع رئيسة الدير من خلال الحاجز الحديدى. وإنه ليطل في المساء على التدريبات العسكرية لشباب بلاطه في مرج القديس فرانشيسكو، المعروف بمنظره الفاخر، وهو حريص أن يتأكد أن كل أعمال المهارة والحذق تتم على أتم وجه وأكمله. وكان يحاول جاهدًا أن يكون بشوشًا على الدوام مفتوح الأبواب لدخول الناس إلى أقصى حد، يزور مهرة الصناع الذين يشتغلون الأشغال له في دكاكينهم، ويعقد الاستقبالات المتعددة، ويستمع، إذا أمكن، لالتماسات كل فرد في نفس اليوم الذى تقدم إليه فيه. فلا عجب أن الناس كانوا وهو يمشي بينهم في الشوارع، يجثون على ركبهم ويصيحون: "أدامك الله يا مولانا! "Dio ti mantenga, signore . وكان المفكرون يدعونه "نور إيطاليا"(٢٦).



شكل (٢٤) . باتّيستا سفورزا، زوجة الدوق فيديريجو من أوربينو

لبييرو ديللا فرانشيسكا

فلورنسا، أوفيزى

وتمكن ابنه الموهوب جويدوبالدو(٢٧)، وقد ألمت به العلة وسوء الطالع من كل نوع، من أن يعطى فى النهاية (١٥٠٨) دولته إلى الأيدى الأمينة لابن أخيه فرانشيسكو ماريا (وهو أيضًا ابن أخى البابا يوليوس الثانى)، الذى تمكن على الأقل من المحافظة على أراضى البلاد من كل احتلال أجنبى دائم. ومن الجدير بالملاحظة كيف أنه بكل جرأة أذعن جيدوبالدو وفر أمام سيزار بورجيا كما فعل ذلك فرانشيسكو أمام جيوش ليو العاشر؛ حيث عرف كل منهما أن استرداده للعرش سيكون أسهل كثيرًا وأقرب إلى الشعبية ورضى الناس بقدر ما تقل معاناة البلاد من جراء دفاع لا جدوى منه. وعندما حسب لودوفيكو الحسبة نفسها بميلانو نسى الأسس الكثيرة للبغضاء التى كانت موجودة ضده عند الناس- وقد خلد بلاط جويدوبالدو بوصفه المدرسة العليا للآداب المهذبة المصقولة على يد بالداسارى كاستيجليونى Baldassare Castiglione، الذى

يمثل إكلوغته (eclogue) ثيرسيس Thyrsis أمام تلك الجمعية وتكريماً لها (١٥٠٦)، والذى قام بعد ذلك (١٥١٨) بوضع مشهد scena الحوار فى كتابه رجل البلاط Cortigiano فى الحلقة المحيطة بالدوقة المثقفة إليزابيتّا جونزاجا.



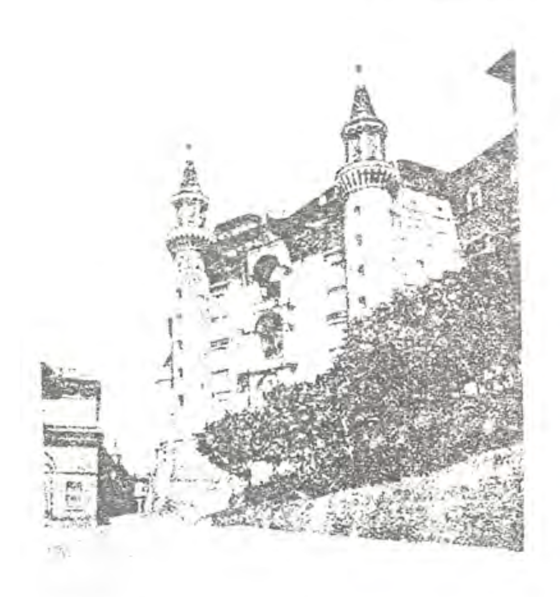
شكل (٢٥) . الدوق فيديريجو دا مونتيفيلتيرى من أوربينو

لبييرو ديللا فرانشيسكا

فلورنسا، أوفيزى

ويتجلى فى حكم أسرة إيستى فى فيرارا ومودينا وريجيو تناقضات عجيبة بين العنف والشعبية[٢٨]. فأما فى داخل القصر فكانت ترتكب أعمال مخيفة؛ إذ قطعت رأس أميرة (١٤٢٥) لاتهامها زعماً بالزنا مع ابن زوجها[٢٩]، وكان الأبناء الشرعيون واللا شرعيون يفرون من البلاط، وكانت حياتهم حتى وهم فى خارج البلاد مهددة من مغتالين يرسلون لتعقبهم (١٤٧١). ولم تكن هناك نهاية تقف عندها المؤامرات الخارجية؛ فإن زنيماً ابن زنيم حاول أن يغتصب التاج من الوارث الشرعى هيركيوليس

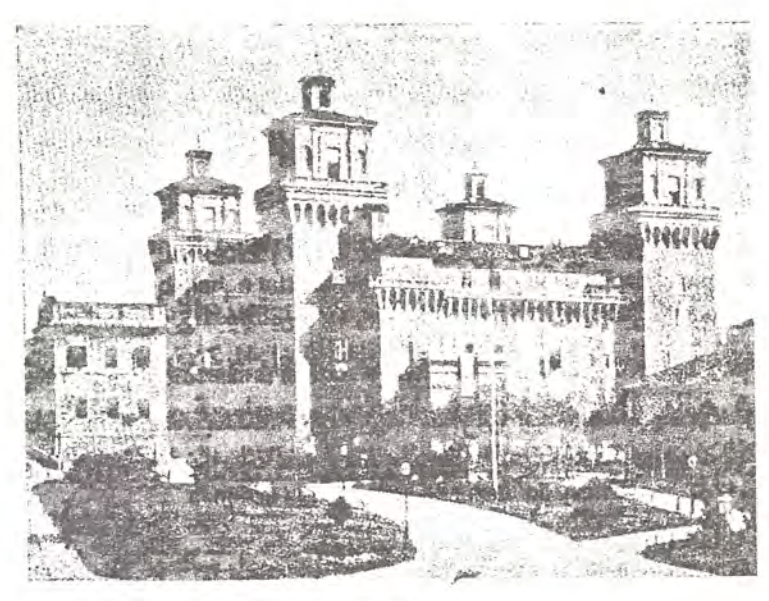
الأول. وقيل بعد ذلك إن هذا الأخير دس السم فى ١٤٩٣ لزوجته عندما اكتشف أنها بتحريض من أخيها فيرّانتى من نابولى، قد انتوت أن تسممه. وتختم هذه القائمة من الدسس بمؤامرة اثنين من الزنساء غير الشرعيين على أخويهما، الدوق الحاكم ألفونسو الأول والكاردينال إيبوليتو (١٥٠٦)، وهى مؤامرة اكتشفت فى الوقت المناسب وتلقى مقترفوها عقوبة السجن مدى الحياة.



شكل (٢٦) . قصر الدوقية فى أوربينو

وكان النظام المالى لهذه الدولة من أضبط الأنواع، وهو أمر اقتضته الضرورة، وذلك نظراً لأن واحدة من القوى الكبيرة أو ذات الدرجة الثانية فى إيطاليا لم تتعرض لمثل هذا الخطر الذى تعرضت له ولم تقف فى حاجة مستديمة إلى التسلح والتحصينات. وكان من آمال الحكام أن يتواكب الرغد المتزايد لدى الناس مع العبء المتزايد للضرائب، كما أن المركيز نيكولو (توفى ١٤٤١) اعتاد أن يعبر عن رغبته فى أن يمسى شعبه أكثر غنى من شعوب البلاد الأخرى. فإذا كانت الزيادة السريعة فى

عدد السكان مقياساً لليسار الذى تم لهم فعلاً بلوغه، فإنها بالتأكيد حقيقة لها أهميتها أنه فى ١٤٩٧، ورغم الاتساع المدهش لرقعة العاصمة، لم تكن هناك بيوت للإيجار[٣٠].
وتعد فيرارا أول مدينة عصرية حقًا فى أوروبا ؛ فقد نشأت بها أحياء ضخمة جيدة البناء بأمر الحاكم: فهنا، بفضل تركز الطبقات الشاغلة للوظائف وتقدم الحرف والتجارة، تكونت عاصمة حقيقية؛ وكان اللاجئون الأثرياء من كل أرجاء إيطاليا، ولا سيما الفلورنسيون، يستقرون بفيرارا ويبنون قصورهم. بيد أن فرض الضرائب غير المباشرة لا بد أنه على كل حال قد بلغ نقطة أصبح عندها لا يكاد يطاق إلا كداً. حقًا إن الحكومة اتخذت من إجراءات التخفيف ما كان يستخدمه أيضًا ويتبناه المستبدون الإيطاليون الآخرون، مثل، جالياتزو ماريا سفورزا: ففى أيام المجاعات كان القمح يجتلب من أماكن بعيدة، ويبدو أنه كان يوزع بالمجان[٣١]؛ على أنه كان فى الأيام العادية يعوض نفسه بنظام الاحتكار، الذى إن لم يفرض على القمح فقد فرض على الكثير من ضروريات الحياة- مثل السمن واللحم المملح، والفواكه والخضروات، والأخيرة منها كانت تزرع بعناية على أسوار المدينة وقربها. على أن أهم وأضخم مصدر للدخل كان مع ذلك هو البيع السنوى للوظائف العامة، وهى عادة فشت فى كل أرجاء إيطاليا، ولدينا حول العمل بها فى فيرارا معلومات أدق وأضبط. فإننا نقرأ مثلاً أنه حدث عند عيد رأس سنة ١٥٠٢ أن الأغلبية الكبرى من الموظفين شروا مناصبهم بأثمان باهظة prezzi salati ؛ وتذكر الأخبار بالاسم موظفين عموميين من أشد الضروب تنوعاً، كموظفى الجمارك ومساعدى مأمور التنفيذ (massari) والموثقين والقضاة بل حتى القادة- أعنى نواب المحافظين فى المدن الإقليمية الريفية. وكواحد من "ملتهمى الشعب" الذين كانوا يدفعون ثمن مناصبهم غاليًا، والذين كانوا "يُبغضون أكثر مما يبغض الشيطان"، يُذكر اسم تيتو ستروزى- ونأمل أنه ليس الشاعر اللاتينى ذائع الصيت[٣٢] وفى نفس الموعد من كل عام اعتاد الأدواق أن يقوموا بجولة من الزيارات فى فيرارا وهى المسماة باسم andar per ventura، وفيها كانوا يأخذون، على أية حال، الهدايا من المواطنين الأكثر ثراء. ومع هذا فإن الهدايا لم تكن تدفع نقداً بل عينًا فى صورة منتجات طبيعية.



شكل (٢٧) القلعة، فيرارا

وكان من دواعي فخر الدوق[٣٣] أن تعرف إيطاليا كلها أن في فيرارا يحصل الجند على أعطياتهم ويحصل أساتذة الجامعة على مرتباتهم في موعد لا يتأخر يومًا واحدًا عن يوم الاستحقاق؛ وأن الجند لم يتجاسروا قط على مد أيديهم بالعسف إلى مواطن أو فلاح؛ وأن المدينة كانت منيعة على كل هجوم؛ وأن مبالغ طائلة من النقود المسكوكة كانت مختزنة في القلعة. وكان الاحتفاظ بمجموعتين من الحسابات يبدو شيئًا غير ضروري؛ وكان وزير المالية هو نفسه في الحين ذاته مديرًا لقصر الدوق. وكانت المباني التي شادها بورسو (١٤٣٠-١٤٧١)، والتي بناها هيركيوليس الأول (حتى ١٥٠٥) وألفونسو الأول (حتى ١٥٣٤) وفيرة العدد جدًا، وإن كانت صغيرة الحجم: وهي تحمل الطابع المميز لدار أمير التي كانت، مع كل ما تحمل من حب للفخامة- فإن بورسو لم يكن يظهر قط أمام الناس إلا في ثياب موشاة مطرزة بجواهر- لا تتسامح إزاء نفقات غير محسوبة جيدًا. وربما كان ألفونسو يتكهن بالمصير الذي كان يختزنه القدر لفيللاته الصغيرة الساحرة الجمال: وهي البلفيدير، بما حوت من حدائق غناء ظليلة، والمونتانا، بما حوت من نافورات ومن تصاوير جصية من الفريسكو.



شكل (٢٨) بورسو ديستى وحاشيته

فيرارا، بالاتزو شيفانوجا

تصوير أليناري

ولا نكران أن الخطر الذى كان يتعرض له هؤلاء الأمراء على الدوام كان ينمى فيهم قدرات من نوع أخاذ عجيب. ولم يكن يستطيع أن يرجو بلوغ النجاح فى عالم بالغ التصنع كهذا إلا رجل ذو براعة بالغة الذروة؛ وكان كل خاطب للامتياز مضطراً أن يزكى مدعياته بالجدارة الشخصية ويبين للناس أنه جدير بالتاج الذى ينشد. على أن شخصياتهم لم تخل من النواحى القاتمة؛ بيد أنهم جميعًا كانوا ينطوون على تلك الصفات التى كانت تتطلع إليها إيطاليا آنذاك بوصفها مثلها الأعلى. فما الذى كان يرمى إليه جاهداً أى عاهل أوروبى فى ذلك الزمان لتنمية ثقافته الخاصة، بقدر ما كان يفعله ألفونسو الأول؟ فإن رحلاته فى فرنسا وانجلترا والأراضى المنخفضة (هولندا) كانت بقصد الدراسة؛ وبفضل هذه الرحلات حصل على معرفة دقيقة بالصناعة والتجارة القائمة فى تلك الأقطار[٣٤]. ومن المضحك أن يوجه الناس إليه اللوم على صنعة الخراطة التى كان يمارسها فى وقت فراغه، وهو عمل كان يرتبط فعلاً بمهارته فى صب المدافع، وبالحرية المطلقة التى كان بها يحيط نفسه بأساتذة كل فن من

الفاون. ولم يكن الأمراء الإيطاليون، شأن معاصريهم فى الشمال، معتمدين على مجتمع الأرستقراطية التى كانت تعد نفسها الطبقة الوحيدة الجديرة بالاعتبار، والتى انتقلت منها إلى الملك عدوى ذلك الغرور. ففى إيطاليا كان الأمير يُسمح له ويُجبر أيضاً أن يعرف وأن يستخدم رجالاً من كل مرتبة من مراتب المجتمع؛ كما أن النبلاء وإن كانوا بحكم مولدهم طائفة خاصة، كانوا يضطرون فى ثنايا الاختلاط الاجتماعى أن يعتمدوا على مؤهلاتهم الشخصية وحدها. على أن هذه نقطة سنعود لمناقشتها مناقشة أوفى فى ثنايا هذا الكتاب.



شكل (٣٩) ألفونسو الاول من فيرارا

حسب تيتيان

فلورنسا. بالاتزو بيتّى

وكان شعور أهالى فيرارا نحو البيت الحاكم مزيجاً عجيباً من الرهبة الصامتة، ومن الاحساس الإيطالى الحق بالمصلحة المحسوبة جيداً، ومن ولاء الرعية فى عصرنا الحديث؛ إذ يتحول الإعجاب الشخصى إلى إحساس جديد بالواجب. فإن مدينة فيرارا أقامت فى١٤٥١ تمثالاً برونزياً على هيئة فارس لأميرهم نيقولو الذى مات قبل ذلك بعشر سنوات. ولم يتورع بورسو (١٤٥٤) عن إقامة تمثاله، وهو أيضاً مصنوع من

البرونز، ولكنه في وضع الجلوس، بالقرب منه في ساحة السوق؛ وبالإضافة إلى ذلك قررت المدينة، عند بداية حكمه، إهداءه "عمود نصر من الرخام". وعندما ووري التراب أحس الناس على بكرة أبيهم أن الرب نفسه هو الذي توفى مرة ثانية[٣٥]. وعندما تكلم مواطن وهو خارج البندقية جهرة بالقول السئ عن بورسو، تم شجبه عند عودته للوطن وحكم عليه بعقوبة النفي وبمصادرة بضائعه؛ ثم بغاية العسر مُنع مواطن موال للأمير عن قتله بالسيف أمام المحكمة نفسها، وذهب المجرم وحول عنقه حبل إلى الدوق والتمس منه أن يهبه العفو كاملاً. وكان لدى الحكومة مجموعة ضخمة من الجواسيس، وكان الدوق يفحص بشخصه القوائم اليومية للمسافرين التي كان أصحاب الفنادق ملزمين إلزامًا شديداً بتقديمها. وفي عهد بورسو[٣٦] ، الذي كان شغوفًا بأن لا يترك أجنبياً ذا شأن دون تكريم، جعلت هذه التعليمات وسيلة لإكرام الضيافة؛ واستخدمها هيركيوليس الأول[٣٧] كمجرد إجراء وقائي. وفي بولونيا أيضًا جرت القاعدة، في عهد جيوفاني الثاني بينتيفوجليو، بأنه متى دخل أي مسافر عابر من إحدى بوابات المدينة وجب عليه أن يحصل على بطاقة لكي يستطيع الخروج من بوابة أخرى[٣٨]. وثمة وسيلة لا تخيب أبدًا في اجتذاب الشعبية هي إنزال الطرد الفجائي لكل موظف جائر. وعندما قام بورسو بنفسه باعتقال مستشاريه الرئيسيين الحافظين لأسراره، وعندما خلع هيركيوليس الأول وألحق العار والخزي بجابي ضرائب ظل يمتص أمد بضع سنين دم الناس، أطلقت الألعاب النارية ودقت الأجراس بالكنائس تكريماً لهما. ومع هذا فإن هيركيوليس ترك الأمور مع أحد خدامه تمضي إلى درجة قصوى. فإن مدير الشرطة، أو قل فيه ما شئت من أسماء تطلقها عليه قائد الجيزتيزيا (capitano di guistizia) ، وهو جريجوري زامبانتي من لوكا- كان رجلاً محليًا لا يليق لوظيفة من هذا النوع. وكان الجميع حتى أبناء الدوق وإخوته يرتجفون خشية أمام هذا الرجل؛ وبلغت قيمة الغرامات التي وقعها مئات وآلاف الدوقيات، وكان التعذيب ينزل بالفرد حتى قبل سماع القضية بالمحكمة: وكانت الرُشا تقبل من المجرمين الأغنياء، ويحصل لهم على العفو من الدوق بعرض معلومات زائفة عليه. وكان الناس على استعداد لأن يدفعوا بسرور أي مبالغ مالية لهذا الحاكم مقابل طرد "عدو الله والإنسان". ولكن هيركيوليس كان قد وهبه

لقب فارس واتخذه أبًا روحيًا لأولاده؛ وسنة بعد سنة ادخر زامبانتي ألفى دوقية - ولم يكن يجرؤ إلا على تناول الحمام الذى ربى فى منزله، ولم يكن يستطيع عبور الشارع بدون مفرزة من الرماة والقتلة. وقد حان وقت التخلص منه؛ ففى (١٤٩٠) قتله فى بيته وهو ينام القيلولة طالبان ويهودى متنصر سبق أن آذاهم، ثم ساروا خلال المدينة ممتطين خيولاً كانت تنتظرهم، رافعين عقيرتهم بقولهم "اخرجوا! اخرجوا! لقد قتلنا زامبانتى". وجاء متعقبوهم بعد فوات الأوان، إذ وجدوهم فى بر الأمان وقد تخطوا الحدود. وبديهى أن الدنيا أمطرت آنذاك قصائد السخرية- فمنها ما كان فى صورة أهازيج، ومنها ما جاء غرائد (أى قصائد غنائية).



شكل (٣٠) . إيركول الأول ديستى

لدوسو دوسى

مودينا، جاليريا إيستينس

تصوير أندرسون، روما

وكان مما يتمشى تمامًا وروح هذا النظام أن الحاكم كان يفرض احترامه الخاص لخدامه النافعين على كل من البلاط والشعب. وعندما حدث فى (١٤٦٩) أن مستشار بورسو الخاص لودوفيكو كاسيلا توفى، لم يسمح لأية محكمة أو دار للأعمال بالمدينة، ولا أية قاعة محاضرة بالجامعة، أن تفتح أبوابها: فقد ألزم الجميع بتشييع

الجثمان إلى كنيسة القديس دومينيكو، وذلك نظراً لأن الدوق كان ينوى حضور الجنازة. وكان فى الواقع "أول فرد من آل إيستى يرعى جثماناً لأحد رعاياه". وقد سار متشحاً بالسواد، خلف النعش، وهو يبكى، على حين صار خلفه أقرباء كاسيللا، يرافق كل منهم سيد من رجال البلاط؛ وحمل جثمان المواطن البسيط نبلاء من الكنيسة إلى المقبرة حيث دفن. والواقع أن هذا العطف الرسمى المقترن بعاطفة الأمير ظهر لأول مرة فى الدول الإيطالية[٣٩]. وربما كان يكمن فى جذور هذه العادة إحساس إنسانى جميل؛ كان التعبير عنه، وبخاصة عند الشعراء، راجعاً فى العادة إلى شعور مبهم بالصدق والإخلاص. وقد احتوت إحدى القصائد القوية للشاعر أريوستو[٤٠] عند وفاة ليونورا من أراجون زوجة هيركيوليس الأول- بالإضافة إلى زهور المقبرة التى لا يُستغنى عنها، والتى تنتشر فى مراثى جميع العصور- على بعض الملامح العصرية تماماً.

"وكان موتها ضربة قاصمة لفيرارا لم تتغلب على آثارها أمد بضع سنين: إذ أصبحت تلك الخيِّرة المحسنة لساناً يدافع عنها فى السماء، وذلك لأن الأرض لم تكن جديرة بها؛ بل الواقع أن ملاك الموت لم يأت إليها، كما يأتى لنا نحن البشر العاديين الفانين، ذوى المناجل الملطخة بالدماء، ولكنها جميلة المنظر (onesta) ، ولها وجه فيه من آيات الرقة ما جعل كل خوف فى القلوب يهدأ".

على أننا نلتقى أيضًا مع عطف من نوع آخر مخالف. فهناك الروائيون، الذين كان اعتمادهم تامًا على عطف نصرائهم، وهم يخبروننا بأقاصيص غرام أميرهم، حتى قبل وفاته[٤١]، بطريقة قد تبدو للأزمان التالية من أعلى مراتب الطيش، ولكنها مرت آنذاك ببساطة بوصفها تحية بريئة. بل لقد بلغ الأمر بالشعراء الغنائيين أن تغنوا باللهب المحرم الذى كان يتقد فى صدور سادتهم المتزوجين زواجًا شرعيًا- مثل شعر أنجلو بوليزيانو عن لورنزو الحكيم، ومثل شعر جيوڤانو بونتانو المتدفق بحماسة فريدة عن ألفونسو من كالابريا. وتكشف القصيدة التى نتحدث عنها[٤٢] كشفًا غير شعورى عن تلك النزعة البغيضة لدى الحاكم الأراجونى؛ وفى هذه الأشياء أيضاً لا بد أنه كان

أسعد الناس حظًا، وإلا فالويل لن كان أكثر نجاحًا ! ولم يكن قيام الفنانين العظام، كليوناردو مثلاً، برسم خيلات سادتهم ونصرائهم إلا ضربًا من مجرى الأمور العادية.



شكل (٣١) بورسو دیستی ومضحكه ورجال حاشيته

لوحة جصية فى بالاتزو شيفانوجا، فيرارا

تصوير آليناری

على أن بيت إيستى لم يكن ليقنع بمدائح الآخرين؛ فتولى بنفسه إعلانها والاحتفال بها. ففى قصر بالاتزو شيفانوجا جعل بورسو من نفسه موضوعًا لمجموعة من الصور التاريخية، وظل هيركيوليس يقيم العيد السنوى لجلوسه على العرش بموكب يضاهى عيد الجسد المسيحى (عيد القربان): فكانت الحوانيت تغلق مثلما تغلق يوم الأحد؛ وسار فى وسط الموكب كل أعضاء بيت الأمير (بما فيهم الزنماء غير الشرعيين)، وهم يرتدون الأردية المزركشة بالوشى. فأما أن التاج كان نبع الشرف والسلطان، وأن جميع ألوان الامتياز الشخصى كانت تفيض منه وحده، فأمر ظل أمدًا طويلاً [٤٣] يُعبر عنه ويُعترف به فى هذا البلاط بوسام المهماز الذهبى - وهو وسام ورتبة لم يكن يتصل فى أى شئ بفروسية العصور الوسطى. وأضاف هيركيوليس الأول إلى المهماز سيفًا

وحرملة موشاة بأشرطة الذهب، ومنحة من النقود ، لا شك أنه كان مطلوبًا في مقابلها من المنعم عليه بها خدمات منتظمة.

ورعاية الفنون والآداب، التى اكتسب من أجلها هذا البلاط سمعة وصيتًا عمّا العالم أجمع، كانت تمارس عن طريق الجامعة، التى كانت من أشد جامعات إيطاليا كمالاً، كما كانت تتم عن طريق منح المناصب فى الخدمة الرسمية أو الشخصية للأمير؛ ومن ثم فإنه أمر لم يكن يستتبع بطبيعة الحال أية نفقات إضافية. وكان بوجاردو، بوصفه سيِّداً ثريًا وموظفًا كبيرًا من الريف، ينتسب إلى هذه الطبقة. وفى الوقت الذى شرع فيه أريوستو فى أن يبرز بامتيازه، لم يكن هناك بلاط بالمعنى الصحيح للكلمة، لا في ميلانو ولا فلورنسا، وسرعان لم يعد هناك بلاط أيضًا في أوربينو ولا فى نابولي. ومن ثم اضطر أن يقنع بمكان بين موسيقيي ومشعوذى الكاردينال إيبوليتو حتى ضمه ألفونسو إلى خدمته. واختلف الشأن فى وقت لاحق مع توركاتو تاسو الذى كان وجوده فى البلاط مطلوبًا بغيرة شديدة.

هوامش الفصل الخامس - القسم الأول

(١) انظر جوفيانوس بونتانوس Jov. Pontan., Opp., ed. Basile?, 1538, t. i, De Liberalitate, cap. 19, 29, and De Obedientia, lib. 4. وانظر سيسموندى Cf. Sismondi, x, p. 78، وبانورميتا Panormita, De Dictis et Factis Alfonsi, lib. i, No. 61; iv, No. 42.

(٢) انظر تريستانو كاراتشيولو Tristano Caracciolo, De Fernando qui postea Rex Aragonum fuit ejusque Posteris, in Murat., xxii, col, 113-120؛ جوفيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Prudentia, lib. iv; De Magnanimitate, lib. i; De Liberalitate, cap. 29, 36; De Immanitate, cap.8؛ وكام. بورتزيو Cam. Portzio, Congiura dei Baroni del Tegno di Napoli contro il Re Ferdinando i (Pisa, 1818), cap. 29, 36, passim (new ed., Naples, 1859); [والاعتماد على بورتزيو يتشكك فيه فر. توراكا- ل. ج. Fr. Torraca, Scritti Critici, p. 466 (Naples, 1907)- L. G.]. وانظر كومينيس، شارل الثامن، الفصل السابع عشر Comines, Charles VIII, Chapter 17، مع الخصائص العامة لأسرة أراجون. انظر معلومات أخرى تتعلق بأعمال فيرانتى من أجل شعبه Regis Ferdinandi Primi Instructionum Liber, 1486-87، الذى نشره سكيبيونى فولبيتشيلا (Scipione Volpicella نابولى ١٨٦١)، الأمر الذى يجعلنا نميل إلى التخفيف إلى حد ما من الحكم القاسى الذى صدر ضده. وأيضاً انظر ترينكيرا Trinchera,Codice Aragonese (2 vols., Naples, 1868-70).

(٣) انظر باولوس جوفيوس Paul. Jovius, Histor., i, p. 14، فى خطبة سفير لميلانو؛ وانظر Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 294. ويفسر جوثين، Gothein, Kulturentwicklung Süditaliens, p. 525, note 1، أن عادة تزيين وإلباس الجثث هذه لم تكن راجعة إلى قلة الإنسانية في فيرانتى، ولكنها ترجع إلى عرف لا يزال أهالى نابولى اليوم يستحسنونه.

(٤) وكان يعيش على صلة أوثق ما تكون باليهود- مثل اسحق أبرانافيل Isaac Abranavel، الذى فر معه إلى ميسينا. انظر زونز .Cf. Zunz, Zur. Gesch. und Lit., p. 529 (Berlin, 1845)

(٥) انظر مونتز Müntz, Hist. De l'Art pend. La Renaissance، حيث يصرح بأنه بتأثير لورنزو ديميديتشى أصبحوا أعظم نصراء للفن.

(٦) انظر Petri Candidi Decembrii Vila Philippi Mariæ Vicecomitis, in Murat., xx، وهو ما يقول عنه جوفيوس (Vitæ XII Vicecomitum, p. 186 قول الصواب: "Quum omissis laudibus

qu? in Philippo celebrandæ fuerant, vitia notaret". ويثني جوارينو ثناء عظيماً على هذا الأمير. انظر روسميني .Rosmini, Guarino, ii, p. 75 وجوفيوس في المرجع المذكور أعلاه (ص. ١٨٦) وجوفيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Liberalitate, ii, cap. 28 and 31. يوجهان ملاحظة خاصة إلى سلوكه الكريم نحو الأسير ألفونسو.

(٧) هل الأربعة عشر تمثالاً رخامياً للقديسين في القلعة بميلانو، نفذت على يديه؟ انظر تاريخ أسرة فروندسبورج .History of the Frundsbergs, fol. 27

(٨) كان ذلك يزعجه: .'quod aliquando 'non esse' necesse esset"

(٩) انظر كوريو Corio, fol. 400؛ وانظر كانيولا في .Cagnola, Archiv . Stor., iii, p. 125

(١٠) انظر .Pii II Comment., iii, p. 130. Cf. ii, 87, 106 وثمة تقدير آخر هو بالحرى أشد كدراً وأقتم لحظ سفورزا يقدمه كاراتشيولو Caracciolo, De Varietate Fortunæ, in Murat., xxii, col. 74. وعن الرأي المضاد انظر ألوان الثناء على حظ سفورزا في Oratio Parentalis de Divi Francesci Sphortiæ Felicitate، تأليف فيليلفو (المدّاح الجاهز المستعد لأى سيد يأمره)، الذى تغنى، بغير نشر، بعظائم أعمال فرانتشسكو في الاسفورزيادة .Sforziad وحتى ديسيمبريو، الخصم الأخلاقي والأدبي لفيليلفو، يحتفل بحظ سفورزا ويذيع به في ترجمته لحياته (Vita Franc. Sphor-tiæ, in Murat., xx) المنجمون "إن نجم فرانتشسكو يجلب طالع السعد لأي رجل، ولكنه يجلب الدمار على ذريته" . انظر أرلوني Arluni, De Bello Veneto, lib. vi, in J. G. Grævius, Thes. Antiqu. et Hist. Italicæ, v, Pars III. انظر أيضًا بارتوليو فاتشيوس Barth. Facius, Cf . De Vir. Ill., p. 67.

(١١) انظر ماليبيرو .Mialpiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 216 sqq., 221-224

(١٢) وقد نشر ج. دادّا G. D'Adda وثائق مُهمَّة حول مقتل جاليانزو ماريا سفورزا في Archivio Storico Lombardo; Giornale della Società Lombarda, vol. ii, pp. 284-294 (1875): (1) انقش قبر لاتيني على قبر القاتل لامبونيانو Lampugnano، الذى فقد حياته أثناء المحاولة، والذى يمثله الكاتب كأنما يقول 'Hic lubens quiesco, æternum inqum facinus monumentumque ducibus, principibus, regibus, qui modo sunt quique mox futura trahantur ne quid adversus justitiam faciant dicantve"؛ (٢) هناك خطاب باللاتينية لدومينيكو دى بللى Domini-co de'Belli، الذى شهد جريمة القتل بعينيه وهو بعد فى الحادية عشرة من عمره؛ (٣) إن lamento لجاليتزو ماريا الذى عمد فيه، بعد استصراخه العذراء مريم وقصه الاعتداء الذى وقع عليه، إلى استدعاء زوجته وأطفاله وخدمه والمدن الإيطالية التى أطاعته، أن يبكوا حظه ويرسل على الملأ توسله إلى جميع أمم الأرض وإلى عرائس الفن والشعر التسع وإلى ألهة العالم العهيد، أن يرسلوا صيحة حزن عامة شاملة.

(١٣) انظر .Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 65

(١٤) انظر ماليبيرو .Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 492. Cf. 482, 562

(١٥) إن كلماته الأخيرة إلى الرجل نفسه برناردينو دا كورتي Bernardino da Corte، يمكن أن يعثر عليها، مضافًا إليها بالتأكيد زخرفات ومحسنات خطابية، ولكن لعلها تتفق فى جل شأنها ومعظمه مع أفكار المغربي The Moor، فى سيناريجا .Sennarega, Murat., xxiv, col. 567

(١٦) انظر .Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 336, 367, 369 وكان الناس يعتقدون أنه يكوِّن كنزًا.

(١٧) انظر كوريو .Corio, fol. 448 يمكن أن تتبين بوضوح تام النتائج البعيدة المترتبة على حال الأمور هذا في نتائج قصص وروايات ومقدمات بانديللو التي تتصل بمدينة ميلانو. «مالا جوتزى ڤاليرى Malaguzzi Valeri (La Corte de Lodovico il Moro, La Vita Privata e l'Arte, pp. 126 sqq., Milan, 1913)، يفند الرأى القائل بأن الجرائم كانت كثيرة كثرة خاصة ببلاط ميلانو- ل. ج. L. G.» .

(١٨) انظر أموريتّى .Amoretti, Memoris Storiche sulla Vita Ecc. Di Lionardo da Vinci, pp 35 sqq. 83 sqq. [في الواقع أن هذه الأكاديمية لم توجد قط. انظر ;Cf. Giorn. Stor., xxix, 534 lxxxvii, 414-. ج. L. G.) وهنا يمكننا أيضًا أن نذكر جهود المغربى لتحسين جامعة بافيا.

(١٩) انظر سونيتاته في تروكي .Trucchi, Poesie Ital. Ined.

(٢٠) (إنها مسألة تخص بالأكثر جيوش الحلف المقدس وماكسيمليان الأول- و. ج. W. G.) .

(٢١) انظر براتو Prato، في .Archiv. Stor., iii, 298. Cf. 302

(٢٢) ولد في ١٤٦٦، وخطب إيزابيلا (وكانت في السادسة من عمرها) في ١٤٨٠، وتولى العرش في ١٤٨٤، وتزوج في ١٤٩٠، ومات ١٥١٩، وكانت وفاة إيزابيلا في ١٥٣٩، وأبناؤهما، فيديريجو (١٥١٩-١٥٤٠)، نصب دوقاً في ١٥٣٠، والشهير فيرانتي جونزاجا. وما يعقب ذلك مأخوذ من مراسلات إيزابيلا، مع تنبيلات، Archiv. Srtor., App., tom. ii، قام بتوصيلها داركو .d'Arco انظر نفس الكاتب، Delle Arti e degli Artifici di Mantova (2 vols., Mant., 1857-59). وتم طبع كتالوج المجموعة مرارًا. انظر صورة إيزابيلا وترجمة حياتها في ديدوه -Didot, Alde Manuce, pp. lxi-lxviii (Paris, 1875). انظر أيضاً أ. لوتشيو-ر. رنيير -A. Lucio-R. Renier, Mantova e Urbino, Isabella d'Este e Elisabetta Gonzaga nelle Relazioni Famigliari e nelle Vicende Politiche (Turin and Rome, 1893). ويمكن العثور على ملخص واف في مقال كتبه ف. ف. بيزولدس F. v. Bezolds, Aus dem Briefwechsel der Markgr?fin Isabella von Este-Gonzaga, in the Archiv. Für Kulturgeschichte, 8 (1910).

(٢٣) (الحقيقة أن فرانتشسكو جونزاجا على النقيض من زوجته استمر على التردد والترنح بين فرنسا وميلانو- و. ج. W. G.) .

(٢٤) انظر فرانك. ڤيتورى في .Franc. Vettori, Archiv. Stor., App., tom. vi, p. 321 وعن فيديريجو انظر ڤيسبازيانو فيورنتى ..Vespas. Fiorent., pp. 132 sqq، وبريندیلاكوا Prendilaqua, Vita di Vittorino da Feltre, pp. 48-52. وحاول ڤيسبازيانو أن يهدئ من روع فيديريجو الشاب الطموح، الذى كان تلميذه عندئذ، بهذه الكلمات ".Tu quoque Cæsar eris" وهناك الشيء الكثير من المعلومات المتعلقة به في فافر مثلاً .Favre, Mélanges d'Histoire Littéraire, i, p. 125, note1

(٢٥) انظر بعده، القسم الثالث، الفصل الثالث.

(٢٦) انظر كاستيليونى .Castiglione, Cortigiano, lib. i

(٢٧) انظر بيتروس بيمبوس Petr. Bembus, De Guido Ubaldo Feretrio deque Elizabetha Gonzaga Urbini Ducibus (Venetis, 1530)؛ وكذلك أيضاً فى بيمبو ,Bembo's Works, i pp. 529-624 (Basel, 1566). فى صورة محاورة؛ ويحتوى ضمن أشياء أخرى رسالة فريد. فريجوسوس Frid. Fregosus وخطبة أوداكسيوس Odaxius على جويدو Guido وحياته وموته.

(٢٨) وما يتبع ذلك مأخوذ بوجه رئيسى من Annales Estenses, in Murat., xx, and the Diario Ferrarese, in Murat., xxiv.

(٢٩) انظر بانديللو .Bandello, i, Nov. 32

(٣٠) انظر .Diario Ferrarese, loc. cit., col. 347

(٣١) انظر بول. جوفيوس (Paul. Jovius, Vita Alfonsi Ducis (ed. Florence, 1550، وأيضاً بالإيطالية على يد جيوفانباتيستا جيللى .(Giovanbattista Gelli (Florence, 1553

(٣٢) (عارض تيتو ستروتزى Tito Strozziهذه الهجمات بقوله: "Nulla magistratus gestos mihi sordida labes Foedavit, mundasque manus, dum munera cura Publica servavi". وحاول كويل. كالكاجنينوس Coel. Calcagninus أن يثبت أن شيوع كراهية الشاعر بين العامة كان شيئاً لا يستحقه الشاعر- ل. ج. L. G.) .

(٣٣) انظر بول. جوفيوس بالموضع السابق.

(٣٤) ويمكن أن تذكر هنا أيضاً رحلة ليو العاشر وهو كاردينال. انظر بول. جوفيوس ,Cf. Paul. Jovius Vita Leonis X, lib. i.. وكان غرضه جدياً أقل وموجهاً بالأكثر نحو التسلية والمعرفة بالعالم؛ ولكن الروح هنا حديثة تماماً. وما كان أحد الشماليين عندئذ ليرحل رامياً إلى أهداف من هذا القبيل.

(٣٥) انظر .Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 232 and 240

(٣٦) انظر جوفيانوس بونتانوس .Jov. Pontan., De Liberalitate, cap. 28

(٣٧) انظر جيرالدى .(Giraldi, Hecatommithi, vi, Nov. 1 (ed. 1565, fol. 223a

(٣٨) انظر فاسارى .Vassari, xii, 166, Vita di Michelangelo

(٣٩) منذ زمن مبكر هو ١٤٤٦ تبع أعضاء بيت جونزاجا جثة فيتورينو دا فيلترى مشيعين. وعن مثال مبكر آخر انظر برنابو فيسكونتي في الفصل الثاني، القسم الأول.

(٤٠) انظر كابيتولو ,Capitolo 19, and in the Opere Minore, ed. Lemonnier, vol. i, p. 425 entitled Elogia 17. ولا شك أن سبب هذا الموت (الوارد أعلاه فى نفس هذا الفصل الخامس، القسم الأول) كان مجهولاً لدى الشاعر الشاب، وكان يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره.

(٤١) إن الروايات (القصص) فى هيكاتوميثى Hecatommithi لجيرالدى التى تتصل ببيت إستى، يمكن العثور عليها، مع استثناء واحد (i, Nov. 8) فى الكتاب السادس، المُهدى إلى فرانتشسكو دى إستى

ماركيز ديللا ماسا، عند بداية القسم الثاني من العمل بأكمله، الذي كُتب لألفونسو الثاني، "الدوق الخامس لفيرارا". والكتاب العاشر أيضًا مُهدى إهداء خاصًا إليه، ولكن واحدة من الروايات لا تشير إليه شخصيًا، وتشير واحدة فقط إلى سلفه، هيركيوليس الأول؛ والباقيات تشير إلى هيركيوليس الأول، "الدوق الثاني"، وألفونسو الأول "الدوق الثالث لفيرارا". ولكن الحكايات المروية عن هؤلاء الأمراء ليست في معظم شأنها حكايات غرام. وتتحدث إحداها (Nov. 8) ,لعن فشل محاولة قام بها ملك نابولي لحمل هيركيوليس الإستي على حرمان بورسو من حكم فيرارا؛ وواحدة أخرى (vi, Nov. 10) تصف معاملة هيركيوليس المرحة للمتآمرين. والقصتان اللتان تعالجان شأن ألفونسو الأول (vi, Nov. 2, 4)، ويلعب في الثانية منهما دورًا ثانويًا فقط، هما أيضًا، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب وكما يدل الإهداء إلى فرانتشسكو الوارد اسمه أعلاه، تفسر تفسيرًا أوفى بيانات atti di cortesia نحو الفرسان والأسرى، ولكن ليس نحو النساء، وبذا تكون القصتان الباقيتان هما وحدهما حكايات غرام. وهما من الصنف الذي يمكن أن يروى أثناء حياة الأمير؛ وفيهما شرح لنبالته وسخائه وفضيلته وكبحه لنفسه. وإذن فهناك واحدة فقط (vi, Nov. 1) تشير إلى هيركيوليس الأول، الذي كان مات قبل جمع الروايات بزمن طويل، وواحدة فقط لهيركيوليس الثاني الذي كان حيًا يوم ذاك (ولد ١٥٠٨ ومات ١٥٦٨)، وابن لوكريتزيا بورجيا وزوج ريناتا التي يقول عنها الشاعر: "Il giovane, che non meno ha benigno l'animo, che cortese l'aspetto, come già il vedemmo in Roma, nel tempo, ch'egli, in vece del padre, venne a Papa Hadriano". والقصة المقدمة عنه تتلخص في التالي. إن لوسيللا، الابنة الحسناء لأرملة فقيرة ولكنها نبيلة، تقع في غرام نيكاندرو، ولكنها لا تتمكن من الزواج منه، لأن أباه اعترض على زواجه من أنسة لا بائنة لديها. وعندئذ يجد هيركيوليس، الذي يشاهد الفتاة ويفتنه جمالها، طريقه إليها من خلال إغضاء أمها، إلى غرفة نومها، ولكنه تأخذه الرقة إزاء توسلاتها حتى احترم طهارتها، ثم إذا هو يعطيها صداقًا ويمكنها من الزواج من نيكاندرو.

وفي بانديللو تشير الروايتان ٨ و٩ في الكتاب الثاني (ii, Nov. 8 &9) إلى أليساندرو دي ميديتشي، والرواية ٢٦ (ii, 26) إلى ماري الأرجوانية، (ii, 26)، والرواية ١٣ الكتاب الرابع (iv, 13) إلى جالياتزو سفورزا، والروايتان ٣٦ و ٣٧، الكتاب الثالث (iii, 36 and 37) إلى هنري الثامن الإنجليزي، والكتاب الثاني الرواية ٢٧ (ii, 27) إلى الإمبراطور الجرماني ماكسيمليان. والإمبراطور "الذي يمتدح كل الكتّاب طيبته الفطرية وسخاؤه الأكثر من إمبراطوري"، بينما هو في لهو الصيد والطراد وراء غزال يفقد أتباعه ويضل الطريق، وأخيرًا يسأل عند خروجه من الغابة عن الطريق أحد الريفيين. ويرجو الرجل، المنشغل بتحميل الخشب، من الإمبراطور، ولم يعرفه، أن يساعده، ويتلقى مساعدة راضية. وبينما ماكسيمليان لا يزال يساعده ينضم إليه أتباعه، وعلى الرغم من إشارته إليهم، يقدمون إليه التحية باحترام، فيعرفه من ثم الفلاح، الذي يضرع إليه طالبًا العفو والغفران عن رفع التكليف الذي انزلق إليه غير مدرك. ويرفع الإمبراطور المتوسل الراكع بين يديه، ليقف ويعطيه المنح والهدايا ويعينه تابعًا خاصًا ويحبوه بميزات ممتازة. ويختم الراوية حديثه قائلاً: "Dimostrò Cesare nello amontar da cavallo e con allegra ciera aiutar il bisognoso contadino, una indicibile e degna d'ogni lode humanità, e in sollevarlo con danari e privilegii dalla sua faticosa vita, aperse il suo

Hecatommithi (viii, وهناك حكاية فى هيكاتوميثى veramente animo Cesarieo° (ii, 415).
Nov. 5) وهى تدور أيضًا حول ماكسيمليان. وهى نفس الحكاية التى أحرزت شهرة عالمية عن طريق مسرحية شكسبير المسماة بقة بدقة (Measure for Measure وعن مدى انتشارها انظر كيرشهوف Kirchhof's Wendunmuth, ed. Oesterley, Bd. v, pp. 152 sqq.)، والمشـهـد الذى نقله جيرالدى إلى إينزبروك. وماكسيمليان هو البطل، وهنا أيضًا يتلقى أعطر الثناء. وبعد أن سمى فى البداية باسم "مكسيمليان العظيم "Massimiliano il Grande يسمى بانه الرجل "che fù faro esempio de cortesia,. di magnanimità dt singulare giustizia°.

(٤٢) فى .Deliciæ Poet. Italorum, ii, pp. 455 sqq. (1608) ومع هذا فإننى لا أعتقد أن الملحوظة أعلاه تنطبق انطباقًا عادلاً على هذه القصيدة، التى تعبر بوضوح عن المسرات التى يجدها ألفونسو مع دروسولة Drusula، ويصف الأحاسيس التى يحسها العاشق السعيد، الذى يظن فى أثناء نوبات جذله أن الآلهة نفسها لا بد أنها تحسده– ل. ج. .L. G) .

(٤٣) ورد ذكره فى وقت مبكر هو ١٣٦٧، فى البوليسترو Polistro, in Murat, xxiv, col. 848، إشارة إلى نيكولو الأكبر الذى ينصب اثنى عشر شخصًا فرسانًا تكريمًا للرسل الاثنى عشر.

الفصل السادس

خصوم الطغيان

فى ظروف كهذه وفى وجه هذه السلطة المركزية كانت كل معارضة شرعية داخل حدود الدولة غير مجدية إطلاقًا. إذ أن جميع العناصر اللازمة للحفاظ على أية جمهورية قد دمرت إلى الأبد، كما أن الميدان كله كان معداً للعنف والطغيان. فأما النبلاء، وقد جردوا من الحقوق السياسية، حتى فى الأمكنة التى كانوا يمتلكون فيها حيازات إقطاعية، وربما أطلقوا على أنفسهم أسماء من أمثال الجويلف والجيبيلين حسبما يشتهون، فربما ألبسوا قتلتهم المأجورين السراويل المبطنة باللباد والقلانس المزركشة بالريش[١] ، أو أى شئ يحبون؛ وكان المفكرون من الرجال أمثال مكيافيللى[٢] يعلمون علم اليقين أن ميلانو ونابولى كانتا أشد "فسادًا" من أن تكونا جمهوريتين. وتنزل أحكام عجيبة على هاتين الفئتين المسماتين بالأحزاب رغمًا، واللتين كانتا لا تعملان آنذاك إلا على التصديق الرسمى على المنازعات الشخصية العائلية. وهناك أمير إيطالى نصحه أجريبا Agrippa من نيتيسهايم[٣] Nettesheim بأن يقضى عليهما فأجابه بأن معاركهما تجلب على خزانته كل عام أكثر من اثنى عشر ألفًا من الدوقيات كغرامات. وفى ١٥٠٠، أثناء العودة الوجيزة للودوفيكو إيل مورو إلى ولاياته، استدعى حزب الجويلف فى تورتونا جزءًا من الجيش الفرنسى المجاور إلى المدينة للقضاء دفعة واحدة وإلى الأبد على خصومهم. فبدأ الفرنسيون بالتأكيد عملهم بنهب وتدمير حزب الجيبيلين وانتهوا إلى إيقاع نفس الأذى بمضيفيهم، حتى أصبحت تورتونا قاعًا صفصفًا من

دمار[٤]. فأما في رومانيا Romagna، التي كانت مرتعًا لكل حمية شعواء وشهوة عنيفة، فإن هذين الاسمين فقدا من زمن بعيد كل معنى سياسي لهما. ومن علامات الخداع السياسي الذي كان يملأ قلوب الجماهير أنهم كانوا في غير قليل من الأحيان يعتقدون أن الجويلف هم الحلفاء الطبيعيون للفرنسيين وأن الجيبيلين حلفاء للأسبان. ومن العسير أن يرى المرء ما يدل على أن الذين حاولوا أن يستفيدوا من هذا الخطأ حصلوا بما فعلوا على الشئ الكبير من المنفعة. على أن فرنسا اضطرت بعد كل تدخلاتها، إلى التخلي عن شبه الجزيرة في خاتمة المطاف، فأما مآل أسبانيا بعد أن دمرت إيطاليا برمتها، فأمر معروف لكل قارئ.

ولنعد الآن إلى المستبدين في عصر النهضة. فربما ذهب أي عقل نقي وبسيط، فيما نعتقد، إلى أنه لما كانت جميع السلطات مصدرها الله، فإن هؤلاء الأمراء كانوا يستطيعون، لو لقوا المساندة المتسمة بالولاء والأمانة من جميع رعاياهم، أن يتمكنوا قطعًا وفي الوقت المناسب من تحسين أنفسهم وليبرءوا من كل آثار منشئهم وأصلهم العنيف. على أن أشخاصًا وأخيلة يلهبها الانفعال والطموح لم يكن من المعقول أن ينتظر منها تفكير عقلي من هذا النوع. فإنهم شأن الطبيب الردئ كانوا يفكرون في معالجة الداء بإزالة الأعراض، وتصوروا أنه لو أُنزل الموت بالطاغية لتبعته الحرية تلقائيًا. وإلا فإنهم اقتصروا، بدون تأمل حتى إلى هذا المدى، على محاولة إعطاء فرصة للتنفيس عن الكراهية العامة، أو أخذ الثأر انتقامًا لأية كارثة تحل بالأسرة أو أية مجابهة شخصية متحدية. ونظرًا لأن الحكومات كانت مطلقة اليد وحرة من كل قيود قانونية فإن المعارضة كانت تختار أسلحتها بحرية مساوية تمامًا. ويصرح بوكاتشيو علنًا[٥]:

> "هل أسمي الطاغية ملكاً أم أميرًا، وأطيعه بولاء باعتباره مولاي؟ كلا، فإنما هو عدو الدولة الديمقراطية commonwealth. وأنا أستطيع أن استخدم ضده الأسلحة والمؤامرات والجواسيس والكمائن والغش والخداع؛ ففعل ذلك يُعد عملاً مقدسًا أكثر من دم طاغية".

ولا حاجة بنا أن نشغل أنفسنا بالحالات الفردية؛ فإن مكيافيللي[٦] في فصل ذائع الصيت من كتابه المحاضرات Discorsi، يعالج المؤامرات في العصور القديمة والحديثة منذ أيام طغاة الإغريق فما دونها، ويصنفها بعدم اهتمام هادئ الأعصاب بارد الدماء تبعًا لمختلف خططها ونتائجها. ولسنا بحاجة إلا إلى ذكر ملحوظتين، أولاهما عن عمليات القتل التي ارتكبت بالكنائس، وثانيتهما عن قوة سلطان العصر الكلاسيكي العتيق. إذ بلغ من شدة الحراسة على الطاغية أن أصبح من المستحيل أن تناله يد إلا أثناء الصلوات الدينية الجادة المهيبة؛ ولم تكن العائلة بأكملها لتوجد في أي مكان آخر مجتمعة بعضها مع بعض إلا هناك. وهكذا تمكن الفابريانيون[٧] من اغتيال أعضاء البيت الحاكم من عائلة كيافيستيللي Chiavestelli (1435)، في أثناء القداس الأكبر، وكانت الإشارة هي كلمات قانون الإيمان المسيحي "Et incarnatus est". واغتيل الدوق چيوڤاني ماريا فيسكونتي (١٤١٢) في ميلانو عند مدخل كنيسة القديس جوتاردو، وجالياتزو ماريا سفورزا بكنيسة القديس ستيڤانو (١٤٧٦)، وأفلت لودوفيكو إيل مورو فقط (١٤٨٤) من خناجر الموالين للدوقة المترملة بونا بفضل دخوله كنيسة القديس أمبروجيو من باب آخر غير الذي كان يُتوقع دخوله منه. ولم تكن العملية تنطوي على أي انعدام متعمد للتقوى؛ إذ لم يفت قتلة جالياتزو أن يقيموا الصلاة للقديس نصير تلك الكنيسة قبل إقدامهم على فعلتهم، وأن يستمعوا بخشوع إلى القداس الأول. ومع ذلك، فقد كان من أسباب الفشل الجزئي لمؤامرة أسرة باتزي Pazzi على لورنزو وچوليانو دي ميديتشي (١٤٧٨) أن المجرم مونتسيكّو، الذي ساوم على ارتكاب جريمة القتل في أثناء مأدبة، امتنع عن إتيانها في كاتدرائية فلورنسا. وحُمل جماعة من رجال الدين "الذين يترددون على ذلك المكان المقدس، ومن ثم لم يخالجهم أدنى خوف"، على الحلول محله[٨].

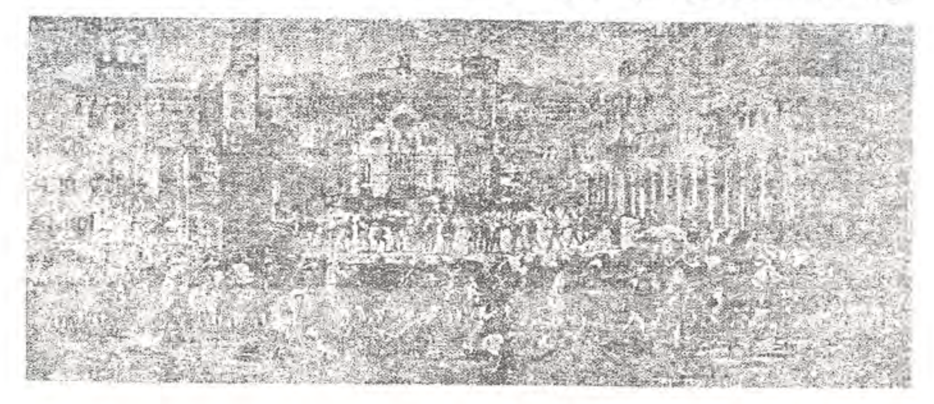


شكل (٣٢) . اغتيال جالياتزو ماريا سفورزا

حفر معاصر على الخشب

فأما من حيث محاكاة العصور القديمة، الذى كان تأثيرها على الشئون الأخلاقية وبوجه أخص على الشئون السياسية، وهى شئون سنكثر من الإشارة إليها، فإن الحكام أنفسهم هم الذين يضربون المثل للناس فى تلك المحاكاة، وهم الذين كانوا فى كل من تصورهم للدولة وسلوكهم الشخصى يتخذون الإمبراطورية الرومانية القديمة صراحًا وجهرًا مثلاً لهم يحتذونه. وعلى نفس الشاكلة كان خصومهم، عندما يشرعون فى العمل على أساس نظرية متعمدة، يتخذون نموذجهم المحتذى من قتلة المستبدين القدماء. وربما كان من العسير إثبات ذلك فى النقطة الأساسية للموضوع- أى فى تشكيل العزم فى حد ذاته- فإنهم كانوا يتبعون بوعى تام المثال الكلاسيكى الأقدم؛ على أن اللجوء إلى العصر العتيق وأساليبه لم يكن مجرد عبارة يتشدقون بها. وقد بقيت لنا أشد أنواع الاعترافات أخذًا بالألباب بصدد قتلة جالياتزو سفورزا- وهم لامبنيانى وأولجياتى وفيسكونتى[٩]. والثلاثة، وإن كان وراءهم أغراض شخصية يخدمونها، فإن مغامرتهم يمكن أن تنسب جزئيًا إلى أسباب ومبررات أعم. وفى قريب من ذلك الزمان تمكن كولا دى مونتانى، وهو إنسانى وأستاذ للفصاحة، من أن يوقظ بين كثير من

الشبان النبلاء بميلانو حمية غامضة للمجد والقيام بالإنجازات الوطنية، كما أوضح لكل من لامبونيانى Lampugnani وأولجياتى Olgiati أمله فى تخليص ميلانو من كل ضرر. وسرعان ما أثيرت الشبهات ضده: فنفى من المدينة، وألقى بتلاميذه لدعاة التعصب الذين استنفرهم. وقبل وقوع الحادث بحوالي عشرة أيام التقوا جميعًا وأقسموا يمينًا مهيبًا في دير القديس أمبروجيو. يقول أولجياتي "وهنا، فى ركن بعيد رفعت بصرى أمام صورة القديس سيد الدير وتوسلت إليه أن يكون معوانًا لنا ولكل شعبه". وأُهيب بحامى المدينة السماوى أن يبارك العمل، كما جرى فيما بعد أن أهيب بالقديس ستيفان، الذي تم تنفيذه بكنيسته. وكان كثير من رفاقهم على علم بالخطة، ومن ثم عقدت اجتماعات كل ليلة بمنزل لامبونيانى، وأخذ المتآمرون يتدربون على عملية القتل بأغماد خناجرهم. ونجحت المحاولة، ولكن لامبونيانى قتل فى نفس المكان على أيدى أتباع الدوق؛ وألقى القبض على الباقين: وأظهر فيسكونتى التوبة، ولكن أولجياتى ظل واثق القلب أثناء ألوان التعذيب التى أنزلت به بأن العمل زلفى مقبولة عند الله، وصاح عندما كان الجلاد يحطم أضلاعه "الشجاعة يا جيرولامو! فإنك سوف تُذكر طويلًا. الموت مرير ولكن المجد أبدى خالد"(١٠)



شكل (٢٦) سقوط البوناكولزى
لدومينيكو مورونى
ميلانو، بريرا
تصوير بروبيلان-شيرساج، مرابى

ولكن مهما بدا الهدف والغرض من مثل هذه المؤامرات مثاليًا، فإن الطريقة التى كانت تنفذ بها تكشف عن قوة سلطان من هو أسوأ من كل المتآمرين، وهو كاتيلينى- وهو رجل لم يكن للحرية أى مكان فى أفكاره. وتخبرنا حوليات سيينا بوضوح أن المتآمرين كانوا طلابًا من تلاميذ سالّوست Sallust، وهى حقيقة يؤكدها بطريقة غير مباشرة اعتراف أولجياتى(١١). وفى مواطن أخرى أيضاً نلتقى واسم كاتيلينى، ولن تجد إلا بالجهد الجهيد نموذجًا آخر للمتآمر جذاب أكثر، بغض النظر عن الغاية التى كان يسعى وراءها.



شكل (٣٤) جوديث

لدوناتيللو

فلورنسا، لوجيا دى لانتزى

وجرت العادة بالفلورنسيين، كلما تخلصوا من آل ميديتشى، أو حاولوا التخلص منهم، أن يتخذوا من قتل الطاغية وسيلتهم المقبولة من الناس جميعاً والمستحسنة بعامة. وبعد فرار آل ميديتشى فى ١٤٩٤ أخذت مجموعة دوناتيللو البرونزية(١٢)- وهى تمثل

جوديث(*) مع جثة هولوفيرنيس المذبوح- من مجموعتهم ووضعت أمام قصر الإمارة Palazzo della Signoria، في نفس الموقع الذى فيه الآن تمثال داوود David لمايكل أنجلو، منقوشة بكلمات "مثال السلام العام (١٤٩٥) Exemplum salutis publicae cives posuere 1495[١٣]. ولم يكن هناك مثال أشد شعبية من مثال بروتوس الأصغر، الذى يظهره دانتى[١٤] فى "الجحيم "Inferno، راقداً مع كاسيوس ويهوذا الإسقريوطى فى أدنى حفرات الجحيم لخيانته للإمبراطورية. وكان بييترو باولو بوسكولى، الذى فشلت مؤامرته على جوليانو وجيوفانى وجوليو دى ميديتشى (١٥١٣)، معجبًا متحمسًا ببروتوس، ولكى يمضى فى أعقابه تمامًا ظل ينتظر لعله يجد كاسيوس جديداً. ولم يلبث أن وجد ذلك الشريك في شخص أجوستينو كابونى. وكان آخر ما نطق به فى السجن من كلمات[١٥]- وهى آية قوية أخاذة بما جبل عليه ذلك الزمان من شعور دينى- تبيانًا واضحًا للجهد البالغ الذى خلّص به عقله من هذه التخيلات الكلاسيكية لكى يموت مسيحيًا. وكان لزامًا على صديق له وعلى قسيس الاعتراف أن يؤكدا له أن القديس توماس الأكوينى يشجب المتآمرين شجبًا مطلقًا لا هوادة فيه؛ على أن قسيس الاعتراف اعترف بعد ذلك للصديق نفسه أن القديس توماس خط خطًا فاصلاً ومميزاً وأباح المؤامرات على الطاغية الذى فرض نفسه عنوة على شعب ضد إرادته. وبعد أن قتل لورنزينو دى ميديتشى الدوق أليسّاندرو (١٥٣٧)، ثم لاذ بالفرار ، ظهر اعتذار وتبرير للفعلة، ربما كان من صنع يديه هو نفسه، كما أنه صيغ بالتأكيد لمصلحته[١٦]، وفيه يمتدح عملية قتل الطاغية وينعتها بأنها عمل من أعلى درجات الجدارة؛ وعلى افتراض أن أليسّاندرو كان ميديتشيًا شرعى المولد، وكان يمت إليه من ثم برابطة القرابة، وإن من بعيد، فإنه قارن نفسه بوقاحة بتيموليون، الذى ذبح أخاه من أجل وطنه. واستخدم آخرون، فى نفس المناسبة، نفس المقارنة ببروتوس، وأن كون مايكل أنجلو نفسه، حتى وقد تقدمت به السن، لم يظهر كراهية لأفكار من هذا النوع يعد شيئًا يمكن استنتاجه

(*) جوديث: هى امرأة يهودية تمكنت بجمالها من إغراء هولوفيرنيس قائد قوات نبوخذ نصر أثناء حصاره بيت المقدس ٦٣ ق. م. ثم ذبحته. (المترجم).

من ذلك التمثال النصفي لبروتوس في أوفيزي. وقد تركه ناقصاً لم يكمله شأن معظم أعماله تقريبًا، ولكن السبب لم يكن بالتحقيق أن مقتل قيصر كان بغيضاً إلى نفسه ومشاعره، كما تصرح بذلك المقطوعة الشعرية المسطرة أسفل التمثال.



شكل (٣٥) : تمثال نصفي لبروتوس
لمايكل أنجلو
فلورنسا، بارجيللو

حيث يستطيع أن تعثر في ولايات عصر النهضة الاستبدادية على نزعة راديكاليه شعبية تعارض على نفس الشكل الذي تُعارض به ملكيات الأزمان التالية. وكان كل فرد يحتج في دخيلة نفسه على الاستبداد، ولكنه كان أميل إلى أن يقيم معه صلات معقولة أو مستفيدة منه، عن أن يتجمع ويشترك مع آخرين للعمل على تدميره. ولابد أن الأمور بلغت من السوء نفس القدر الذي بلغته في كاميرينو أو فابريانو أو ريميني (القسم الأول، الفصل الرابع)، قبل أن يتحد المواطنون للقضاء على البيت الحاكم أو طرده بأنهم كانوا يعرفون جيد المعرفة أن ذلك لم يكن ليعني إلا مجرد تغير للسادة. وكان أنجح الجمهوريات في أفول، على التحقيق.

هوامش الفصل السادس - القسم الأول

(١) انظر بوريجوتزو Burgozzo، في Archiv. Stor., iii, p. 432.

(٢) انظر Discorsi, i, 17، عن ميلانو بعد وفاة فيليبو فيسكونتي.

(٣) انظر De Incert. et Vanitate Scientiar., cap. 55.

(٤) انظر براتو Prato, Archiv. Stor., iii, p. 241.

(٥) انظر De Casibus Virorum Illustrium, lib. ii. Cap. 15.

(٦) انظر Discorsi, iii, 6؛ وانظر Cf. Stor. Fiorent., lib. viii. وكان وصف المؤامرات تيمة أي موضوعاً محبباً لدى الكتّاب الإيطاليين منذ أمد سحيق جداً. ويعطينا لويتبراند (Luitprand من كريمونا Mon. Germ., iii, 264-363) أمثلة قليلة تعد مفصّلة أكثر من تلك التي أوردها أي كاتب آخر معاصر في القرن العاشر؛ وفي القرن الحادي عشر تسنح، بفضل تخليص ميسينا من يد العرب الشراقنة والذي تم بفضل استدعاء نورمان روجر (Baluz., Miscell., i, p. 184)، فرصة لنوع خاص من السرد من هذا النوع (١٠٦٠)؛ ولا نكاد نحتاج إلى الكلام عن التلوين الدرامي الذي يضفي على الفسبر Vespers الصقليين (١٢٨٢). وتشتهر نفس النزعة والميل عند كتّاب اليونان.

(٧) انظر كوريو Corio, fol. 333. وطلبًا لما يعقب ذلك انظر نفس المصدر fol. 305, 422 sqq., 440.

(٨) وكذلك في الاقتباسات عن جاللوس Gallus, in Sismondi, xi, 93. وعن الموضوع بأكمله انظر رويمونت Reumont, Lorenzo dei Medici, pp. 387-397, especially 396.

(٩) انظر كوريو Corio, fol. 422. وانظر الليجريتو Allegretto, Diari Sanesi, in Murat. xxiii, col. 777. وانظر الفصل الخامس، القسم الأول.

(١٠) إن الحماسة التي يتكلم بها الفلورنسي ألامانو رينوتشيني (Alamanno Rinuccini (ولد ١٤١٩) في Ricordi (ed. by G. Aiazzi, Florence, 1840) عن القتلة وأعمالهم مسترعية للنظر للغاية. وعن اعتذار معاصر، وإن لم يكن إيطاليًا، عن المستبدين الطغاة انظر كيرفين دي ليتنهوف Kervіyn de Let-tenhove, Jean sans Peur et l'Apologie du Tyrannicide, in the Bulletin de l'Académie de Bruxelles, xi, pp. 558-571 (1861). وبعد قرن من الزمان تغير الرأي في إيطاليا تغيراً تامًا. انظر إدانة عمل لامبونياني Lampugnani في إغناطيوس Egnatius, De Exemplis Ill. Vir., Ven., fol. 99b؛ وانظر أيضًا cf. 318b.

ويكتب بطرس كرينيتوس (Petr. Crinitus (De Honesta Desciplina, fol. 134b, Paris, 1510 أيضاً قصيدة De Virtute Jo. Andr. Lamponiani Tyrannicidæ يمتدح فيها عمل لامبونياني مدحاً عظيماً ويمثّل فيها هو نفسه على صورة رفيق لبروتوس يلقى التقدير العظيم.

انظر أيضًا القصيدة اللاتينية -Bonini Mombritii Poeta Mediol. Trenodi? in Funere Illus (trissimi D. Gal, Marie Sfor. (two books, Milan, 1504، التي نشرها أسكالون فالليس -As (calon Vallis (sic، الذى راح في إهدائه إلى المشرع چاك. بالساموس Jac. Balsamus يمتدح الشاعر ويسمى قصائد أخرى جديرة بالمثل أن تطبع. وفي هذا العمل، الذى يظهر فيه ميجايرا Megæra ومارس، وكاليوبى Calliope والشاعر، في صورة متحاورين، يلام القاتل- وهو ليس لامبونياني، وإنما هو رجل من عائلة وضيعة من الصناع- لومًا قاسيًا، ويعامل ورفاقه المتآمرون معه معاملة المجرمين العاديين؛ ويتهمون بالخيانة العظمى بسبب مشروع تحالف مع شارل البورجندى. ولم يقلّ عدد من ذُكروا من المتكهنين بوفاة الدوق جالياتزو عن عشرة. ويوصف مقتل الأمير وعقوبة القاتل وصفًا ناصعًا؛ وتتكون الخاتمة من تعزيات عامرة بالتقوى موجهة إلى الأميرة المترملة ومن تأملات دينية.

(١١) ويقول أليجريتو : ".Con studiare el Catalinario" انظر (في كوريو) جملة كالجملة التالية في عزل أولجياتى: -Quisque nostrum magis socios potissime et infinitos alios sollicitare, in" festare, alter alteri benevolos se facere c pit. Aliquid aliquibus parum donare: simul magis noctu edere, bibere, vigilare, nostra omnia bona polliceri," etc.

(١٢) انظر فاسارى .Vasari, iii, 251, note to V. di Donatello

(١٣) نقل الآن إلى اللوجيا دى لانزى .Loggia de' Lanzi

(١٤) انظر الجحيم .Inferno, xxxiv, 64

(١٥) رواه سامع، هو لوكا ديللا روبيا، .Luca della Robbia, Archiv. Stor., i, 273 انظر بول. جوفيوس .Cf. Paul. Jovius, Vita Leonis X, iii, in the Viri Illustres

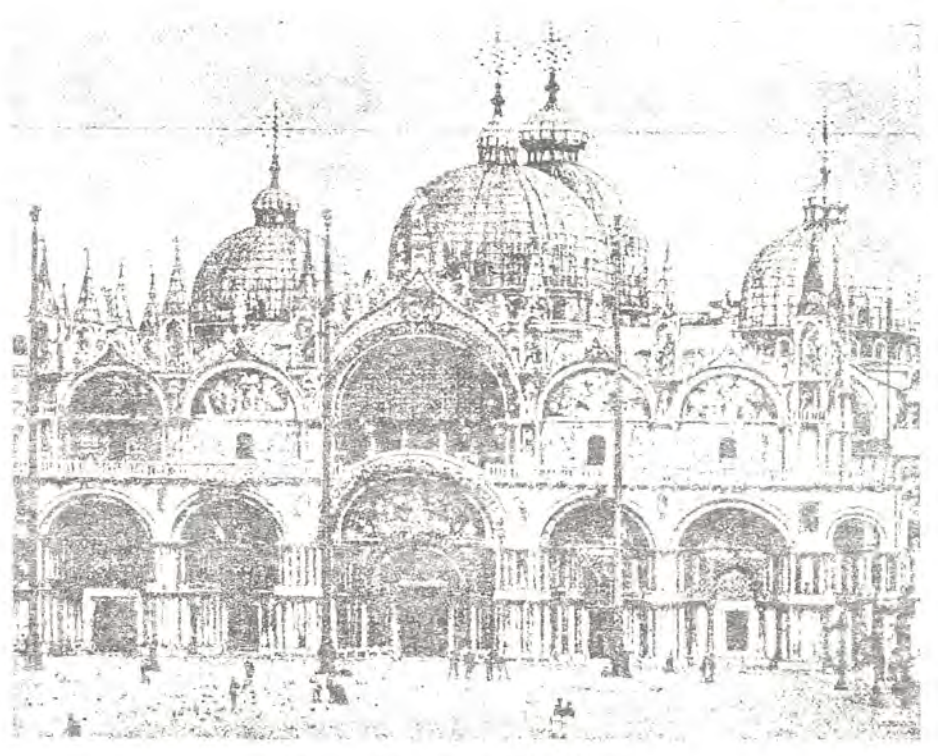
(١٦) طبعت أولاً في ١٧٢٣ كملحق لتاريخ فاركي، ثم في روسكو -Roscoe, Life of Lerenzo de' Medi ci, vol. iv, App. 12، ومواطن أخرى غالبًا. انظر Cf. Reumont, Gesch. Toscana's seit dem Ende des Florent. Freistaates, i, p. 67, note (Gotha, 1876) انظر أيضًا التقرير الوارد في .Lettere dai Principi, ed. Venez., 1577, iii, fol. 162 sqq

الفصل السابع

الجمهوريات : البندقية وفلورنسا

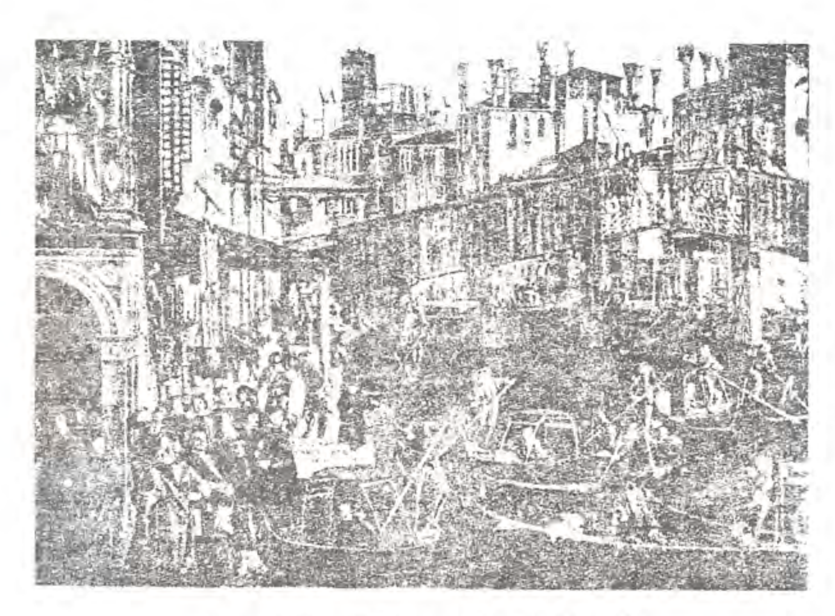
كانت المدن الحضرية الإيطالية قد قدمت، فى الزمان القديم، آيات بينات على تلك القوة التى حولت المدينة إلى الدولة. ولم يبق بعد ذلك إلا أن تتحد تلك المدن فى اتحاد كبير؛ وظلت تلك الفكرة تتردد فى أذهان رجال السياسة الإيطاليين، مهما تكن الفوارق بين الأشكال التى تبدو عليها من زمن إلى آخر. والواقع أنه حدث أثناء كفاح القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن شكلت المدن فعلاً عصبات عظيمة ضخمة وقوية؛ ويرى سيسموندى أن وقت تشكيل الاتحاد الكونفيدرالى اللومباردى ضد باربا روسا كان هو اللحظة التى أمكن فيها تشكيل عصبة إيطالية شاملة. بيد أن الدول الأقوى قد طورت آنفًا قسمات لها خاصيتها تجعل من مثل تلك الخطة شيئًا غير عملى. فكانوا لا يتورعون فى معاملاتهم التجارية عن اللجوء إلى أى إجراء، مهما يكن مُتطرفًا، قد يؤدى إلى دمار منافسيهم؛ وكانوا يضعون جيرانهم الأضعف منهم فى وضع غريب من الاعتماد العاجز عليهم- فهم تصوروا بالاختصار أنهم يستطيعون المضى فى الدنيا بمفردهم بغير حاجة إلى مساعدة الباقين، وبذا مهدوا الطريق للاغتصاب مستقبلاً. وكان المغتصب قادمًا مع الأيام عندما تنشب الصراعات الطويلة الأمد بين النبلاء والشعب، وبين مختلف أحزاب النبلاء، وتوقظ الرغبة فى حكومة قوية، وعندما تتجمع مناسر المرتزقة المستعدة والراغبة فى بيع مساعداتها لمن يدفع أعلى ثمن وتحل محل التجنيد العام للمواطنين، وهو الشئ الذى كان زعماء الأحزاب يجدونه آنذاك غير مناسب لأغراضهم[1]. وقضى الطغاة على حرية معظم المدن، وكانوا يُطردون هنا وهناك، ولكن

ليس بطريقة مبرمة قاطعة، أو يُبعدون إلى أمد قصير فقط؛ كما أنهم كانوا يرجعون إلى أماكنهم على الدوام، وذلك نظراً لأن الظروف الداخلية كانت موائمة لهم، والقوى المناهضة منهكة.



شكل (٣٦) كنيسة سانت مارك، البندقية

ومن المدن التي احتفظت باستقلالها اثنتان تُذكران لما لهما من أهمية عميقة في تاريخ الجنس البشري: وهما فلورنسا مدينة الحركة الدائبة التي لا تفتر، والتي تركت لنا سجلاً لأفكار وآمال كل من ظل على امتداد ثلاثة قرون متتالية يشارك في هذه الحركة، والبندقية مدينة الركود الظاهري والسرية والغموض السياسي. ولا يمكن تصور أي نقيض مباين أقوى مما تقدمه إلينا هاتان المدينتان، كما أن أي واحدة منهما لا يمكن مقارنتها بأي شئ أنتجه العالم حتى وقتذاك.



شكل (٣٧) البندقية تجاه نهاية القرن الخامس عشر
جزء من لوحة "معجزة الصليب الحق"، لكارباتشيو
البندقيه، الأكاديمية
تصوير أندرسون، روما

عرفت البندقية في نفسها منذ البداية مخلوقة عجيبة وخفية، وأنها ثمرة قوة عليا تعلو المهارة البشرية. وكان التأسيس المهيب للمدينة موضوعاً لإحدى الأساطير. ففي ٢٥ مارس ٤١٣، قام المهاجرون من بادوا عند ساعة الزوال بوضع الحجر الأول لمبنى الريالتو(*) Rialto، لكي يحصنوا على ملجأ مقدس منيع يقوم بين ظهراني الفساد الذي يحيث به البرابرة في الأرض. ونسب المؤلفون المتأخرون إلى مؤسسي ذلك المبنى التنبؤ بالعظمة المستقبلة للمدينة؛ وهنا يتحدث المايسترو أنطونيو سابيلليكو، الذي أعلن الحدث العظيم بشعره سداسي التفاعيل الوقور، فيجعل القسيس، الذي يتولى عملية التدشين، يصيح بأعلى صوته منادياً السماء "عندما نحاول فيما بعد القيام بأعمال عظيمة امنحنا الرغد والرفاهية! فنحن الآن نركع أمام هيكل فقير متواضع؛ ولكن إن

(*) الريالتو: في ذلك إشارة إلى المركز التجاري والسوق والمسارح. (المترجم)

لم تكن أقسامنا ترسل عبثًا فإن مئة معبد، يا رباه، من الذهب والرخام سترفع من أجلك*[٢]. وكانت مدينة الجزر (البندقية) في نهاية القرن الخامس عشر شكمجية الجواهر في العالم. ويصفها بذلك النعت سابيلليكو[٣] نفسه، بما حوت من قباب قديمة وأبراج مائلة، ومن واجهات رخامية مطعمة، وفخامة متزاحمة مكدوسة، حيث لم تحل أغنى الزخارف دون الاستخدام العملي لكل ركن من أركان الفراغات المتاحة. وهو يأخذنا إلى الميدان المكتظ بالناس أمام كنيسة القديس جياكوميتو عند الريالتو، حيث تتم صفقات الأعمال التجارية للعالم، لا وسط الصياح والفوضى واختلاط الحابل بالنابل، بل بالهمهمة الخافتة للأصوات الكثيرة، حيث يجلس في الشرفات المحيطة بالميدان[٤] والأروقة المعمدة للشوارع المجاورة مئات من صرافي النقود وصاغة الذهب، مع صفوف لا آخر لها من الدكاكين والمخازن التي تقوم فوق رءوسهم. وهو يصف الفونداكو العظيم للألمان وراء الجسر، حيث ترقد بضائعهم ومساكنهم، والتي أمامها تُسحب سفنهم جنبًا إلى جنب على طول القناة؛ وأعلى من ذلك يرسو أسطول كامل محمل بالنبيذ والزيت، وعلى امتداده ومحاذيًا له على الشاطئ الشديد الاكتظاظ بالحمالين، كانت أقبية التجار؛ ثم تجيء بعد ذلك ابتداء من الريالتو إلى ميدان القديس مارك الحانات والنُزل وأكشاك باعة العطور. وهكذا يقتاد القارئ من حي من أحياء المدينة إلى آخر، حتى يصل في خاتمة المطاف إلى المستشفيين اللذين كانا بين مؤسسات الخدمة العامة التي لم تكن في مدينة أخرى على مثل وفرتها في البندقية. وكانت العناية بالشعب، في كل من السلام والحرب سواء، من الصفات المميزة التي اختصت بها هذه الحكومة، كما أن اهتمامها بالجرحى، حتى جرحى الأعداء أنفسهم، كان يثير إعجاب الدول الأخرى[٥]. وكانت المؤسسات العامة من كل نوع تجد في البندقية أنموذجها المحتذى؛ وكان منح المعاشات للمحالين على المعاش يتم بطريقة منتظمة، ويشمل مد الأرامل واليتامى بالمعاش اللازم. فإن الغنى واليسار والأمن السياسي والمعرفة بالبلاد الأخرى أنضجت فيهم القدرة على فهم هذه المسائل. لقد كان هؤلاء الرجال النحيفو القوام ، الشقر الشعور[٦]، الذين يمشون بخطى محاذرة هادئة ويتكلمون بكلمات المتروي المنتقي لكلامه، لا يختلفون عن بعضهم في الثياب والهيئة إلا أقل الاختلاف الطفيف؛ فأما الحلي وبخاصة اللآلئ فكانوا يحتفظون بها للنساء والبنات.

وفى ذلك الزمان كان اليسار، رغم الخسائر التى كانوا يتكبدونها على يد الأتراك، لا يزال باهراً يخطف الأبصار؛ فإن الذخر العظيم من الطاقة التى كانت المدينة تمتلكها، والأهواء العامرة بالعطف عليها المنتشرة فى أوروبا كلها مكنتها فى زمن متأخر عن ذلك كثيراً أن تعيش وتتحمل الضربات القاصمة التى أنزلتها بها الاستكشافات البحرية للطريق إلى الأهناد(*)، وسقوط المماليك بمصر، وحرب عصبة كامبراى.

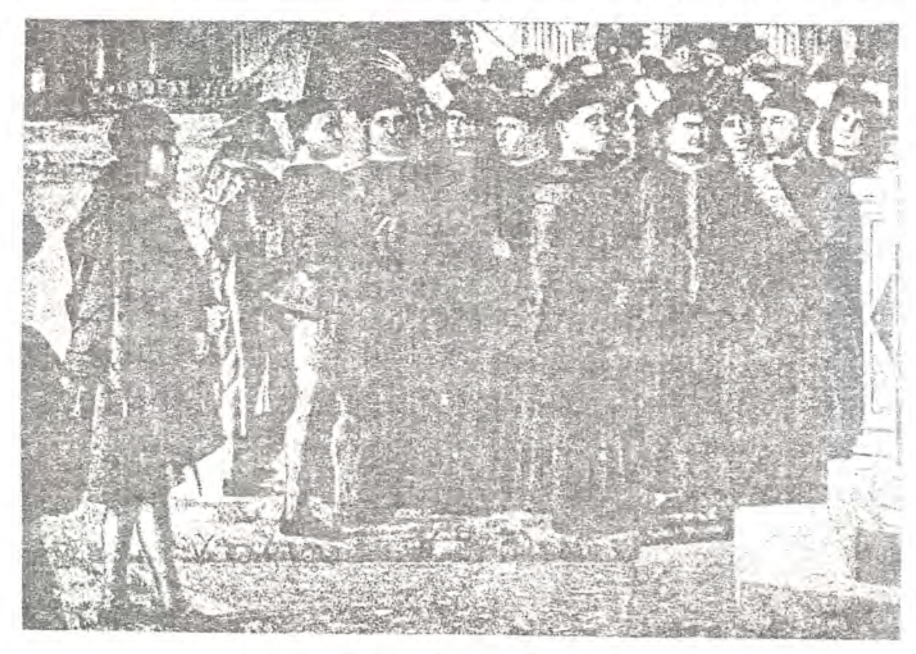


شكل (٣٨) موظف بندقى
جزء من لوحة تتبع سلسلة سانت أورسولا
لكاربانتشيو
البندقية، الأكاديمية

(*) الأهناد Indies : اسم جمع عام للدلالة على الهند والشرق الأقصى. (المترجم)

يقول سابيلليكو، الذى ولد قرب تيفولى، والذى تعود على الهذر الصريح لعلماء عصره، ملاحظًا فى مكان آخر(٧) فى شئ من الدهشة، أن النبلاء الذين جاءوا ذات صباح للاستماع إلى محاضراته لم يكن من الممكن التأثير عليهم حتى يخوضوا فى مناقشات سياسية: "عندما أسألهم عما يفكر فيه الناس ويقولونه ويتوقعونه حول هذه الحركة أو تلك فى إيطاليا يجيبون جميعًا بصوت واحد إنهم لا يعرفون شيئًا عن ذلك الموضوع". ومع ذلك فإنه على الرغم من التحريات الدقيقة للدولة، كان فى الإمكان معرفة الشئ الكثير من أعضاء الهيئة الأرستقراطية الأشد ولسًا وفسادًا لمن كانوا مستعدين أن يدفعوا المبالغ الكافية فى مقابل ذلك. وفى الربع الأخير من القرن الخامس عشر كان هناك خونة بين صفوف أعلى الموظفين منزلة(٨)؛ فقد كان للباباوات والأمراء الإيطاليون، بل حتى قادة المرتزقة من الدرجة الثانية الذين يعملون فى خدمة الحكومة، مخبرين ومتسمعين يتلقون أجورًا منهم، كان منهم أحيانًا من يحصل على مرتبات منتظمة؛ وبلغ الأمر من السوء أن مجلس العشرة كان يجد من الأحصف أن يخفى أخبارًا سياسية هامة عن مجلس البريجادى، بل لقد زُعم أحيانًا أن لودوفيكو إيل مورو كان يتحكم فى عدد محدد من الأصوات بين أعضاء المجلس الأخير. فهل كان مجديا إنزال الشنق بفرادى الجناة والمكافآت العالية- كمنح معاش مدى الحياة مقداره ستون دوقية لمن يبلغ عنهم- تلك مسألة من الصعب إصدار حكم فيها؛ ومن أكبر أسباب هذا الشر أن فقر كثير من أعضاء طبقة النبلاء أمر لم يكن من الممكن إزاحته والقضاء عليه بين يوم وليلة. ففى ١٤٩٢ قدم اثنان من تلك الطبقة اقتراحًا بأن تقوم الحكومة فى كل عام بإنفاق سبعين ألف دوقية لتخفيف الأعباء عن أولئك النبلاء الأكثر عسرًا الذين لا يتولون وظيفة عامة فى الدولة؛ وأوشك الموضوع أن يعرض على المجلس الكبير، وربما حصل فيه على أغلبية، لولا أن تدخل مجلس العشرة فى الوقت المناسب ونفى صاحبى الاقتراح مدى الحياة إلى نيقوسيا، فى جزيرة قبرص(٩). وفى قريب من ذلك الوقت شُنق واحد من عائلة سورانزو، وإن لم يتم ذلك فى البندقية ذاتها، بتهمة انتهاك حرمة المقدسات، ووضع واحد من عائلة كونتارينى فى السلاسل بسبب جريمة سطو؛ ثم تقدم آخر من نفس العائلة فى ١٤٩٩ أمام مجلس السيادة وشكا بأنه ظل سنوات

كثيرة بلا وظيفة، وأنه لا يمتلك إلا سته عشرة دوقية فى السنة وتسعة أطفال، وأن ديونه بلغت ستين دوقية، وأنه ليست له حرفة يمتهنها وأنه طرد إلى الشوارع فى الآونة الأخيرة. ويمكننا أن نفهم لماذا أكثر بعض النبلاء الأكثر مالاً من تشييد البيوت، بل أحياناً صفوفًا بأكملها منها، لتزويد زملائهم المعوزين بالمساكن المجانية. ومن هذه الأعمال ما يتجلى فى الوصيات التى أوصى بها الأغنياء بين أعمال البر(١١).



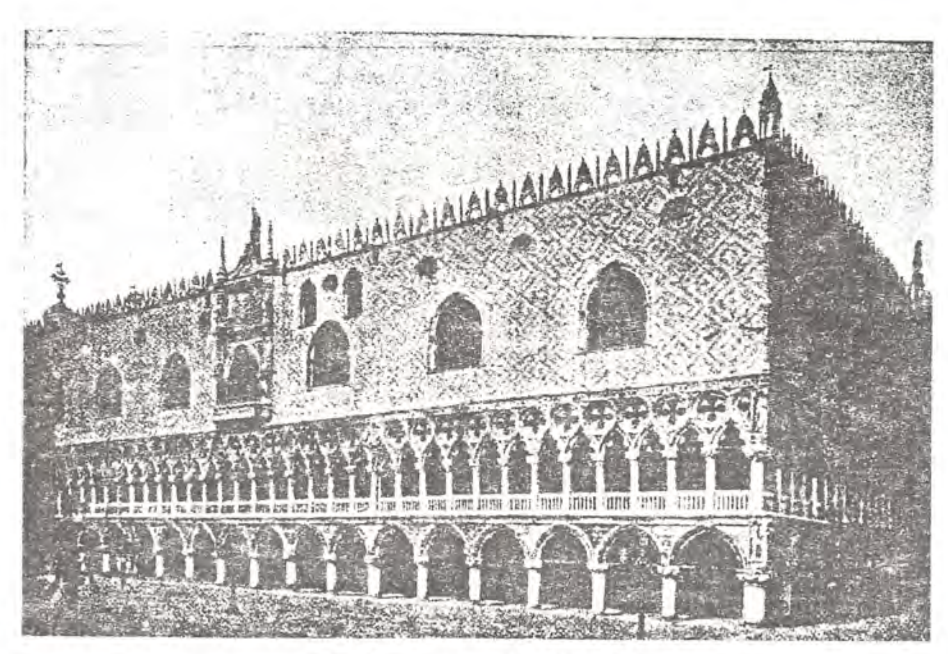
شكل (٣٩) . مواطنون بنادقة

جزء من لوحة تتبع سلسلة سانت أرسولا، لكارباتشيو

الأكاديمية، البندقية

ولكن لئن حدث يوماً أن أعداء البندقية أقاموا آمالاً جادة على إساءات من هذا القبيل فقد أخطأوا وخانهم التوفيق. وربما ظُن أن النشاط التجارى للمدينة، الذى يضع فى متناول يد أدنى الناس منزلة جائزة سنية فى مقابل كده فى عمله، وأن المستوطنات المقامة على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، لا بد أنها كانت تستبعد عن الشئون

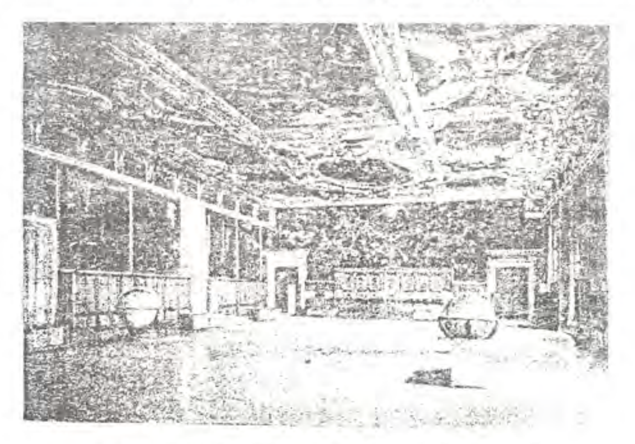
السياسية جميع العناصر الخطرة فى المجتمع. والرد على ذلك نجيب: ولكن ألم يكن التاريخ السياسى لجنوة، على الرغم مما هو مألوف فيه من مزايا مماثلة، من أشد التواريخ امتلاء بالعواصف؟ والأرجح أن سبب الاستقرار الذى عاشت فى ظله البندقية هو المزج بين الظروف التى لم توجد متآلفة فى أى مكان آخر. كانت فى موقع منيع يعصمها من كل هجوم، فتمكنت من ثم منذ البداية أن تعالج الشئون الخارجية بأكمل أساليب التفكير وأكثرها هدوءاً، وأن تتجاهل تجاهلاً تامًا أو يكاد تلك الحزبية والأحزاب التى كانت تمزق سائر إيطاليا، وأن تنجو من التورط فى الأحلاف الدائمة، وأن تدفع أغلى الأثمان فى تلك الأحلاف التى ترى من المناسب لها أن تعقدها. ومن ثم فإن مفتاح النغمة (وهو تعبير موسيقى أوروبى) للخلق البندقى كان بالتبعية روح اعتزال متكابرة متعالية محتقرة للغير، إذا ضم إليها الكراهية التى تحسها نحو المدينة بقية دول إيطاليا الأخرى، تسبب فى نشوء شعور قوى بالتضامن فى الداخل. وفى نفس الحين كان يوحد كلمة السكان أقوى روابط المصلحة فى التعامل مع المستوطنات ومع ممتلكات المدينة على الأرض الإيطالية، الذى كان يضطر أهالى المجموعة الأخيرة - أعنى سكان جميع المدن حتى برجامو- أن يبتاعوا أو يشتروا فى البندقية وحدها. ولم يكن من المستطاع لقوة أو دولة تقوم على وسائل مفتعلة إلى هذا الحد أن تستمر إلا على أساس الانسجام والوحدة الداخليين؛ وبلغ من شدة انتشار هذا الاقتناع بين مواطنى المدينة أن المتآمرين ما كانوا ليحصلوا إلا على عناصر قليلة يستخدمونها ويقيمون عليها جهودهم. كما أن المتذمرين- إن وجد هناك متذمرون - كانوا يوضعون موضع العزلة البعيدة على يد الانقسام بين النبيل والمواطن العادى بحيث أن تفاهمًا متبادلاً لم يكن سهلاً ميسراً. ومن الناحية الأخرى، وبين صفوف النبلاء أنفسهم، أن الأسفار والأشغال التجارية، والحروب التى لا تنتهى مع الأتراك أنقذت الأغنياء والخطرين من ذلك المصدر المستثمر فى التآمر- وهو الكسل. وكانوا فى هذه الحروب ينقذهم، وإلى درجة إجرامية فى كثير من الأحيان، القائد المتولى الإمرة، كما أن سقوط المدينة تم التكهن به على يد كاتو البندقية لو استمر خوف النبلاء "من إيقاع الأذى ببعضهم البعض" على حساب العدالة[11]. ومع ذلك فإن هذه الحركة الحرة فى الهواء الطلق وعلى مرأى من الناس أتاحت للأرستقراطية البندقية فى مجموعها تحيزًا صحيًا.



شكل (٤٠). قصر الدوجات، البندقية
تصوير سيمان، لايبزيج

وعندما كان الحسد والطموح يناديان بالمطالبة بإشباعهما فإن ضحية رسمية بين الكبار كانت توشك أن تقع، وكانت الوسائل والسلطات القانونية تقف على أهبة الاستعداد. وما العذاب المعنوى الذى ظل الدوج فرانشيسكو فوسكارى (توفى ١٤٥٧) يعانيه على أعين البندقية كلها إلا مثلاً مخيفًا لانتقام لا يمكن حدوثه إلا فى الأرستقراطية. فإن مجلس العشرة، الذى كان له يد فى كل شئ، والذى كان يتصرف بغير استئناف فى شئون الحياة والموت وفى الشئون المالية والتعيينات العسكرية، والذى كان يضم أعضاء محاكم التفتيش بين أعضائه، والذى خلع فوسكارى كما خلع من قبل كثيراً من أقوياء الرجال- كان ذلك المجلس ينتخب من جديد كل عام من بين أفراد الهيئة الحاكمة بأسرها، وهى المجلس الأكبر Gran Consilio، وكان تبعًا لذلك أشد أنواع التعبير المباشر عن إرادتها. وليس من المحتمل أنه حدثت مؤامرات خطيرة فى تلك الانتخابات، وذلك لأن قصر مدة المنصب والتعرض للمسئولية والمحاسبة التى تعقبه

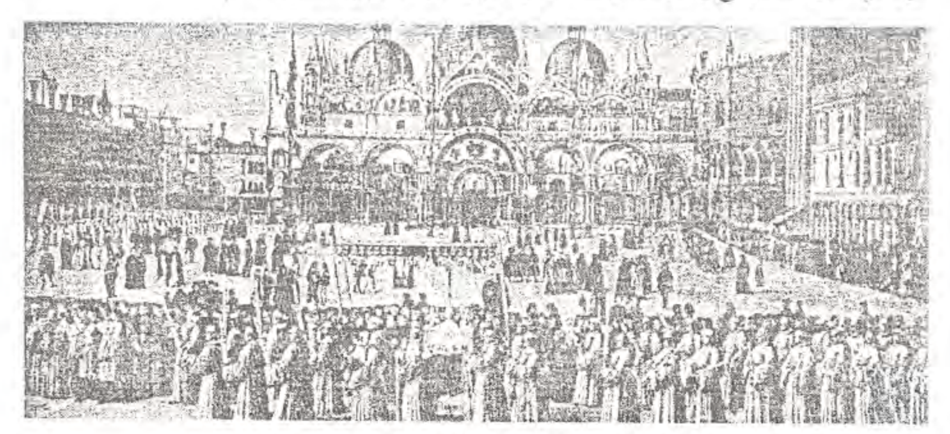
كانت تجعل منه شيئًا غير مرغوب فيه. ولكن مهما تكن الإجراءات العنيفة والخفية لهذه السلطة وغيرها من السلطات، فإن البندقى الأصيل كان يتقرب من قراراتها وأحكامها أكثر مما يتهرب، وليس ذلك لأن الجمهورية كان لها أذرع طويلة وإن لم تستطع الإمساك به فلقد كانت تستطيع معاقبة أسرته، بل لأنه فى معظم الحالات كانت تلك السلطة تتصرف بدوافع عقلانية وليس لظمأ إلى الدماء[١٢]. ولم يحدث قط، والحق يقال، أن دولة مارست يوما ما سلطانًا أدبيًا على رعاياها أكبر من هذا، سواء أكان ذلك السلطان عليهم فى داخل وطنهم أو خارجه. فإذا حدث أن وجد خونة فى صفوف البريجادى فقد كانت هناك مكافأة وافية عن ذلك متمثلة فى أن كل بندقى يعيش بعيداً عن وطنه كان جاسوسًا بطبعه لبلاده. وكان من المسائل الطبيعية المسلم بها أن الكرادلة البنادقة فى روما كانوا يرسلون إلى بلدهم أخبار المداولات السرية للمجالس الكنسية البابوية. فقد أمر الكاردينال دومينيكو جريمانى بضبط الرسائل التى أرسلها اسكانيو سفورزا إلى أخيه لودوفيكو إيل مورو حيث ضبطها بالقرب من روما (١٥٠٠)، وأرسلها إلى البندقية؛ فأما أبوه، وكان آنذاك مُعرَّضًا لتهمة خطيرة، فطالب بإعدامه [illegible] بالقضاء بجزاء هذه الخيانة التى أسداها ولده أمام المجلس الأكبر Gran Consilio أو بعبارة أخرى أمام العالم بأسره[١٣].



شكل (٤١) قصر الدوجات، البندقية: القاعة الكبرى

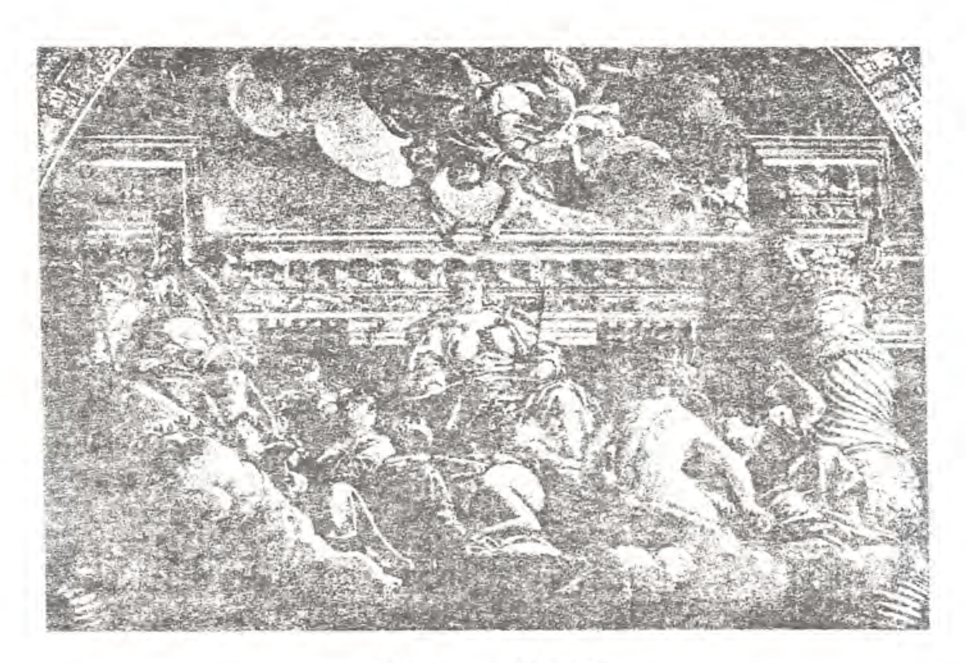
وقد تحدثنا آنفًا عن مسلك الحكومة البندقية مع قادة المرتزقة الذين يتلقون أجرهم منها. وكان الضمان الوحيد لإخلاصهم الذى كان يمكن الحصول عليه يكمن فى كثرة عددهم، الذى كان يجعل الخيانة صعبة بقدر سهولة اكتشافها. ويدهش المرء إذ ينظر إلى قائمة الجيش البندقى أنه بين قوات ذات تركيب مخلط كهذه كان يمكن قيام عمليات عامة مشتركة. فنحن نجد فى كتالوج حملة عام ١٤٩٥ ما عدته خمسة عشر ألفاً وخمسمئة وستة وعشرين (١٥٥٢٦) من الفرسان، مقسمين إلى عدد من الفصائل الصغيرة[١٤]. ويبلغ عدد رجال جونزاجا من مانتوا وحده ألفًا ومائتين (١٢٠٠)، كما أن جيوفريدو بورجيا كان معه سبعمئة وأربعون (٧٤٠)؛ ثم يتبع ذلك ستة ضباط مع كل منهم كتيبة تتراوح بين ستمئة وسبعمئة رجل، وعشرة ضباط بأربعمئة، واثنى عشر ضابطًا معهم من مائتين إلى أربعمئة، وأربعة عشرة ضابطًا أو ما يقاربها بعدد بين المئة والمئتين، وتسعة على رأس ثمانين، وستة معهم ما بين الخمسين والستين، وهكذا. وكانت هذه القوات تتألف جزئيًا من جند البندقية القدامى وجزئيًا من بعض محنكة الجند يقودهم نبلاء بنادقة من المدينة أو الريف؛ ومع هذا فإن غالبية القواد كانوا من الأمراء أو من حكام المدن أو من أقاربهم. وإلى هذه القوات ينبغى أن يضاف أربعة وعشرون ألف جندى من المشاة- ولسنا نعلم كيف كانوا يُجمعون ولا كيف كانوا يُقادون- فضلاً عن ثلاثة آلاف وثلاثمئة من الجند الإضافية، كانوا فيما يرجح ينتسبون إلى الخدمات الخاصة. وفى زمن السلم كانت المدن القائمة فى الأراضى الأصلية، أعنى فى شبه الجزيرة الإيطالية، تعيش بغير حماية على الإطلاق أو تحتلها حاميات غير ذات وزن. وكانت البندقية تعتمد، إن لم يكن ذلك بالضبط على ولاء رعاياها فعلى الأقل على حكمتهم وحسن تقديرهم؛ وقد راحت البندقية فى حرب عصبة كامبراى (١٥٠٩) تحلّهم، كما هو معروف، من يمين الولاء لها، وتركتهم يوازنون بين ما يلقونه من راحة على يد الاحتلال الأجنبى وبين الحكم المعتدل الذى اعتادوا عليه. ونظراً لأنه لم يكن هناك خيانة فى التخلى عن القديس مارك، وبالتبعية لم يكن أحد يخشى من إنزال أى عقوبة به، فإنهم عادوا إلى سادتهم القدماء بأقصى شوق ورغبة[١٥] ونلاحظ هنا بصورة عابرة، أن هذه الحرب كانت نتيجة صيحة دامت قرناً كاملاً، ضد رغبة البنادقة

فى التوسع والعظمة. بيد أن البنادقة لم يكونوا فى الحقيقة خالين من خطأ الأقوام المتطرفى المهارة والذكاء الذين لا يعترفون لخصومهم بأى خلق عقلانى ويحتوى على تقدير للأمور[١٦]. ونظراً لأنهم ضُللوا بهذا التفاؤل، الذى ربما كان نقطة ضعف عجيبة تلزم الأرستقراطية، فإنهم تجاهلوا تجاهلاً مطلقًا جميع الاستعدادت التى أعدها السلطان محمد الثانى للاستيلاء على القسطنطينية، بل وحتى إجراءات التسلح التى تجهز بها شارل الثامن، حتى وقعت الضربة غير المنتظرة أخيراً[١٧]. وكانت عصبة أو حلف كامبراى حدثًا من نفس هذا القبيل، بحيث كان واضحًا أنه قام مناوئًا لمصالح العضوين الرئيسيين فيه وهما لويس الثانى عشر والبابا يوليوس الثانى. ويبدو أن بغض إيطاليا بأسرها للمدينة المنتصرة كان مركزًا فى صميم عقل البابا، وأنه أعماه عن الشرور التى ينطوى عليها التدخل الأجنبى؛ فأما سياسة الكاردينال دى امبويزى وملكه، فهى شئ كان ينبغى على البندقية قبل ذلك بزمن بعيد أن تدرك أنه قطعة من البلاهة الشريرة، وأن تقف منه موقف المحاذرة التامة. فأما بقية أعضاء العصبة أو الحلف فقد اشتركوا فيه بسبب ذلك الحسد الذى قد يكون مهذبًا إصلاحيًا للثراء العظيم والقوة العاتية، ولكنه فى حد ذاته شعور حقير كشعور المتسولين. وخرجت البندقية من الصراع بشرف، ولكنه ليس بغير أن يصيبها ضرر دائم.



شكل (٤٢) موكب فى ميدان سان مارك، البندقية
لجينتيلى بيللينى
الاكاديمية، البندقية

والقوة أو الدولة التى أساسها على مثل هذا القدر من بالغ التعقيد، والتى كانت مناشطها ومصالحها تملأ مسرحاً عظيم الاتساع، لا يمكن أن يتصورها العقل خالية من إشراف منتظم على الأمر كله أو مجردة من التقدير للوسائل والأعباء والمكاسب والخسائر. وتستطيع البندقية أن تؤكد إلى حد ما إدعاءها بأنها المكان الذى ولد فيه علم الإحصاء، بالإضافة إلى فلورنسا فيما يحتمل، وتابعتها فى ذلك الاستبداديات الأكثر استنارة. وكانت دولة العصور الوسطى الإقطاعية لا تعرف إلا القوائم (الكتالوجات) الحاوية لمكانة وحقوق السادة (urbaria) ؛ وكانت تنظر إلى الإنتاج بوصفه كمية ثابتة، الأمر الذى هو كذلك تقريباً، ما دام الأمر يتعلق بالممتلكات من الأرض فقط. فأما المدن، من الناحية الأخرى، فكانت فى كل أرجاء الغرب ومنذ أزمنة بعيدة جداً تعالج الإنتاج، الذى كان عندهم يعتمد على الصناعة والتجارة، بوصفه شيئاً مفرط التغير؛ ولكن الذى حدث فى أشد أيام حلف الهانسيا Hanseatic League ازدهاراً هو أنهم لم يتجاوزوا قط مجرد ميزانية تجارية بسيطة. فكانت الأساطيل والجيوش والقوة السياسية والسلطان تقع تحت حساب مدين ودائن فى دفتر حسابات لتاجر. فأما فى المدن الإيطالية فإن وعياً سياسياً واضحاً، والنموذج المتمثل فى الإدارة الإسلامية المجاورة، والتدريب الطويل الناشط على التجارة والحرف، اتحدت كلها لتنتج لأول مرة علماً حقيقياً للإحصاء[١٨]. وقد نظمت الملكية المطلقة لفريديريك الثانى بإيطاليا السفلى (الجنوبية) على أساس هدف أوحد هو ضمان الحصول على قوة مركزة تحسباً للكفاح حتى الموت الذى كان يخوضه. فأما فى البندقية، على نقيض ذلك، لكانت الأهداف العليا هى الاستمتاع بالحياة والقوة، والمزيد من المزايا الموروثة، وخلق أشد أنواع الصناعة ربحاً، وفتح قنوات جديدة للتجارة.



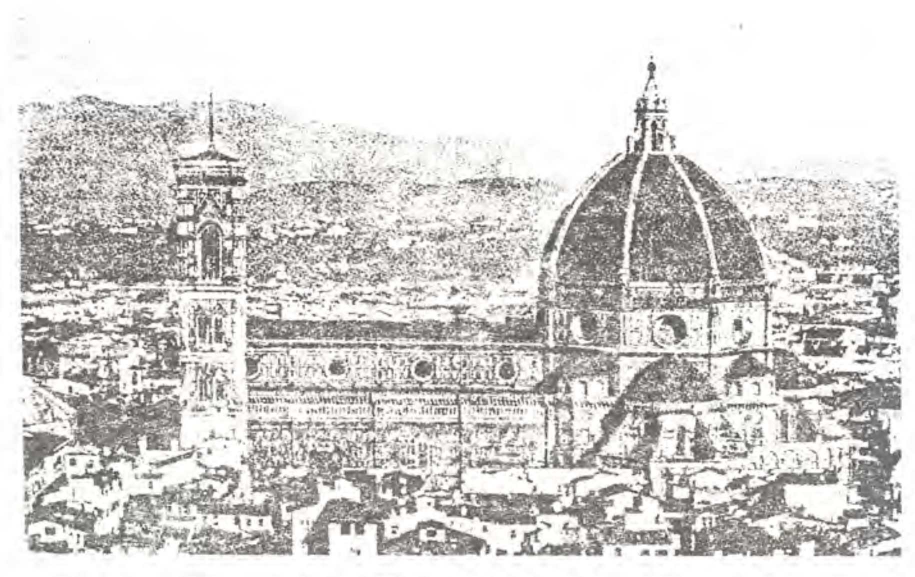
شكل (٤٣) تمجيد البندقية
جزء من لوحة سقفية فى قصر الدوجات، لباولو فيرونيزى
البندقية

ويتحدث كُتَّاب ذلك الزمان عن هذه الأشياء بأعظم قدر من الحرية[١٩] ونحن نعلم عن طريقهم أن سكان المدينة بلغوا فى ١٤٢٢ مئة وتسعين ألف نسمة؛ ولعل الإيطاليين أول من قدر، ليس على أساس عدد البيوت، ولا عدد الرجال القادرين على حمل السلاح، أو من لهم القدرة على المشى، وما إلى ذلك من وسائل التعداد، بل طبقاً لعدد النُّسم anima، وبذلك يحصلون على أشد الأسس محايدة للحسابات التالية. وفى قريب من ذلك الوقت[٢٠]، عندما رغب الفلورنسيون أن يُكَوِّنُوا تحالفًا مع البندقية ضد فيليبو ماريا فيسكونتى، رفض طلبهم، إلى حين، على أساس اعتقاد قائم على حساب للمزايا والفوائد التجارية العائدة يتصف بالضبط والدقة أن الحرب بين البندقية وميلانو- أى بعبارة أخرى بين البائع والمشترى- تكون من الحماقة بمكان. فإنه حتى لو أن الدوق أجرى بوساطة زيادة فى جيوشه فإن الميلانيين سوف يضطرون نتيجة لزيادة

الضرائب التي لا مناص من أن يؤدوها، أن يصبحوا زبائن أسوأ وأقل قدرة على الشراء.

"وإنني فالأفضل ان ندع الفلورنسيين يُهزمون، وعندئذ يحدث أنهم وهم المعتادون على حياة مدينة حرة، سوف يضطرون إلى السكنى معنا ويحضرون معهم صناعتهم الحريرية والصوفية، كما فعل اللوتشيون أثناء محنتهم".

والحديث الذي ألقاه الدوج المحتضر موتشينيجو Mocenigo (1423) إلى عدد قليل من أعضاء مجلس الشيوخ الذين استدعاهم وهو على فراش الموت[٢١]، يعد ذا شأن أعجب. فإنه يحتوي على أهم العناصر الرئيسية للحساب الإحصائي لجميع موارد البندقية المالية. ولا أستطيع أن أقول هل يوجد أو أين يوجد توضيح وتنوير كامل مطلق لهذه الوثيقة المحيرة؛ ويمكن أن نقتبس الحقائق التالية على سبيل التمثيل. إذ بعد تسديد دين حرب مقداره أربعة ملايين دوقية، لم يزل الدين العام (il monte) يبلغ ستة ملايين دوقية؛ وبلغت قيمة التجارة الجارية (فيما يبدو) عشرة ملايين كانت تغل، فيما ينبئنا النص، مكسبًا قيمته أربعة ملايين. وكانت للسفن navigli الثلاثة آلاف، والمراكب navi الثلاثمئة والغلايين الخمسة والأربعين بحارة عددهم على التوالي سبعة عشر ألف وثمانية آلاف وأحد عشر ألفًا (أي أكثر من مائتي رجل لكل غليون). وينبغي أن يضاف إلى هذا العدد ستة عشرة ألفًا من صناع السفن. وقدرت قيمة المنازل في البندقية بمبلغ سبعة ملايين، تغل إيجارًا قدره نصف مليون[٢٢]. وكان هناك ألف نبيل يتراوح دخلهم بين سبعين وأربعة آلاف دوقية. وجاء في فقرة أخرى أن الإيراد العادي للدولة في نفس تلك السنة كان مليون ومئة ألف دوقية؛ وهبط الدخل بسبب اضطراب الأحوال التجارية نتيجة للحروب قرب منتصف القرن إلى ثمانمائة ألف دوقية[٢٣].



شكل (٤٤) الكاتدرائية، فلورنسا

فلئن كانت البندقية، قياساً على هذه الروح الحسابية، وذلك الاتجاه العملي الذى أسبغته على تلك الروح، أول ممثل يمثل أوفى تمثيل ناحيه هامة من نواحي الحياة السياسية العصرية، فإنها لم تكن تقف فى المرتبة الأولى فى تلك الثقافة، من الناحية الأخرى، التى تقدرها إيطاليا أعلى تقدير وذلك أن الدافع الأدبى كان يعوزها، وتعوزها بوجه خاص تلك الحماسة للعصر العتيق الكلاسيكى التى كانت منتشرة فى كل مكان آخر[٢٤]. وجدارة البنادقة، فيما يقول سابيليكو، فى الفلسفة والفصاحة كانت فى حد ذاتها لا تقل استرعاء للنظر عن أهليتهم فى التجارة والسياسة؛ ولكن تلك الجدارة لم تكن تُطور فى أنفسهم ولا كانت تكافأ فى الغرباء كما كانت تكافأ فى سائر أرجاء إيطاليا. وقد دعى فيليلفو **Filelfo**، إلى البندقية، لا من الحكومة بل من أفراد خصوصيين، ولم يلبث ان خابت كل توقعاته؛ كما آن چورچ من تريبيزوند، الذى وضع فى ١٤٥٩ الترجمة اللاتينية لقوانين آفلاطون عند قدمي الدوج، وعُيِّنَ أستاذاً لعلم فقه اللغة (الفيلولوچيا) بمرتب سنوى مقداره مئة وخمسون دوقية، وأخيراً أهدى كتابه البيان إلى مجلس السيادة[٢٥]، سرعان ما عاد وغادر المدينة غير راضٍ.

إذ الواقع أن الأدب، شأن سائر الأشياء بالبندقية، كانت له فى الأغلب غاية عملية توضع نصب الأعين. ومن ثم فإننا لو راجعنا بإمعان تاريخ الأدب البندقى الذى جعله فرانشيسكو سانسوفينو ملحقًا لكتابه ذائع الصيت[٢٦]، لما وجدنا فى القرن الرابع عشر إلا كتب تاريخ وأعمالاً خاصة فى علم اللاهوت وكتب تاريخ التشريع والقانون والطب؛ وفى القرن الخامس عشر، حتى نصل إلى أرموكو باربارو و ألدو مانوتشى، كانت الثقافة الإنسانية لدى مدينة على مثل هذه الدرجة من الأهمية لا تلقى إلا أقل قدر من التمثيل. وبالمثل لا نجد إلا الأثر القليل نسبيًا من العاطفة، واضحة القوة فى كل مكان آخر، نحو جمع الكتب والمخطوطات؛ كما أن النصوص الثمينة التى تشكل جزءًا من تراث بترارك كانت مُحتَفَظًا بها على أسوأ حال حتى لم يلبث كل أثر لها أن فقد سريعًا. ولم تنج المكتبة التى وهبها الكاردينال بيسّاريون إلى الدولة فى عام ١٤٦٨ من التبديد والتدمير إلا بشق الأنفس. ولا شك أن العلوم كانت تُنمّى فى جامعة بادوا، حيث كان الأطباء والمشرعون– والأخيرون بوصفهم واضعى الرأى القانونى– يتناولون أعلى أجر على الإطلاق. وظل نصيب البندقية من الخَلْق الإبداعى الشعرى تافهًا قليل الشأن أمدًا طويلاً، حتى صُحِّحَت فى بداية القرن السادس عشر أوضاع النقص فيها[٢٧]. فحتى فن عصر النهضة نفسه كان يستورد إلى المدينة من الخارج، ولم يحدث إلا بعد نهاية القرن الخامس عشر أنها تعلمت كيف تتحرك فى هذا الميدان بحرية مستقلة وقوة. على أننا لا نزال نجد أمثلة أكثر استرعاء للنظر فى مجال التأخر الفكرى. فإن هذه الحكومة، التى جعلت رجال الدين طوع يدها تمامًا، والتى احتفظت فى يدها بحق التعيين فى جميع الوظائف الكهنوتية الهامة، والتى تجرأت مرة بعد أخرى على تحدى بلاط روما البابوى، أظهرت من آيات التقوى الرسمية ألوانًا فذة رائعة[٢٨]. فإن أجسام القديسين والآثار المقدسة التى استوردت من بلاد الإغريق بعد الفتح التركى اشتريت بأبهظ التضحيات واستقبلها الدوج بموكب مهيب[٢٩]. وتقرر (١٤٥٥) أن يُعرض فى مقابل رداء بلا لفق مدرز عشرة آلاف دوقية، ولكن لم يمكن الحصول عليه. ولم تكن هذه الإجراءات ثمرة لأى انفعال شعبى، ولكنها ثمرة القرارات الهادئة لرؤساء الحكومة، وربما أمكن التجاوز عنها دون إحداث أى تعقيب، كما أنه

لو حدث في فلورنسا في مثل هذه الظروف لانتهى الأمر في آخر المطاف إلى إهمالها والتجاوز عنها. ولن نتحدث بشئ عن تقوى الجماهير وعن اعتقادهم المتين وإيمانهم الراسخ بصكوك الغفران التي كان يصدرها من يدعى اسكندر السادس. ولكن الدولة نفسها كان لها، بعد امتصاصها للكنيسة إلى حد لم يعرف بمكان آخر والحق يقال، عنصر كنسي في تكوينها، كما أن الدوج، وهو رمز الدولة، كان يظهر في اثنى عشر موكبًا عظيمًا[٣٠] ((andateفي صورة نصف كهنوتية. وكانت كلها تقريبًا احتفالات في ذكرى الأحداث السياسية، تنافس في مظاهر الفخامة الأعياد الكبرى للكنيسة؛ كما أن ألمعها وأشدها بهاء، وهو العيد الشهير للزواج من البحر، كان يتوافق مع عيد الصعود.

ويمكن العثور على أسمى أنواع الفكر السياسي وعلى أشد أنواع التطور الإنساني تنوعًا متحدة مندمجة في تاريخ فلورنسا، التي تستحق بمقتضاها في حدود هذا المعنى أن تسمى باسم أول دولة حديثة في العالم. لأن الشعب كله هنا منشغل بما هو في المدن الاستبدادية شأن أسرة مفردة. فإن ذلك الروح الفلورنسي العجيب الأخاذ، الذي يجمع في الوقت نفسه بين النزعة الناقدة الحادة والميول الفنية الخلاقة، ظل بلا انقطاع يعمل على تحويل الأحوال الاجتماعية والسياسية في الدولة، كما ظل بنفس الاستمرار وعدم الانقطاع يصف التغيير ويصدر الحكم فيه. وبذا أصبحت فلورنسا وطن المذاهب والنظريات السياسية ومعمل التجارب والتغيرات المفاجئة، ولكنها أيضًا، شأن البندقية، موئل علم الإحصاء، كما أصبحت وحدها وفوق دول العالم جميعًا مأوى التمثيل التاريخي بالمعنى العصري للعبارة. على أن مشهد روما القديمة وصورتها، والألفة بكتّابها الكبار لم تكن غير ذات تأثير؛ إذ يعترف چيوڤياني ڤيللاني[٣١] أنه تلقى أول دافع إلى عمله (كتابه) العظيم من يوبيل ١٣٠٠، حيث بدأه فور عودته إلى وطنه. ومع هذا فكم بين حجاج تلك السنة البالغ عددهم مئتي ألف من يمكن أن يكون نظيرًا له في المواهب والميول، ومع ذلك لم يكتبوا تاريخًا للمدن التي ينتمون إليها!! وذلك لأنه قل منهم من يستطيع أن يشجع نفسه على تبني فكرة أن "روما تهبط؛

ومسقط رأسي يرتفع، ومستعد لإنجاز عظائم الأشياء، وبناء على هذا فإنني أرغب في أن أروى تاريخها الماضي، وأرجو أن أوفق إلى مواصلة القصة حتى زماننا الحاضر، ما دام فيّ عرق ينبض". وفضلاً عن شهادة شاهد على ماضيها، فإن فلورنسا حصلت عن طريق مؤرخيها على شئ آخر- حيث أوتيت صيتًا وشهرة أعظم مما هبط على أية مدينة أخرى في إيطاليا[٣٢].

وليس من واجبنا الحالي أن نسطر تاريخ تلك الدولة المسترعية للأنظار، ولكن مجرد تقديم بضعة دلالات على الحرية الفكرية والاستقلال العقلي الذي من أجله أصبح الفلورنسيون مدينين لهذا التاريخ[٣٣].

ولم يحدث في أية مدينة أخرى بإيطاليا أن بلغ الصراع بين الأحزاب السياسية هذا المبلغ من المرارة، وهذا المبلغ من القدم والتأصل، وهذا المبلغ من الدوام المستمر. وأوصاف هذه الأمور، وإن كانت تعود حقاً إلى فترة تالية بدرجة ما، تقدم الشواهد الواضحة على تفوق النقد الفلورنسي وشموخه.

وأي سياسي ذلك الذي هو الضحية الكبيرة لهذه الأزمات، وهو دانتي أليجييري، الذي نضج بالمثل على يدى وطنه وعلى يدى منفاه!! وقد عبر عن سخريته لهذه الاختيارات التي لا تنتهي عند حد وهذه التجارب التي تجرى في دستور بلده ومسقط رأسه بأشعار أصلب من الجلاميد، ستظل إلى الأبد مضرب الأمثال ما عادت إلى الوجود أحداث سياسية من ذلك النوع نفسه[٣٤]؛ كان يخاطب وطنه بألفاظ التحدي ولوعة الحنين التي لا بد أنها حركت قلوب مواطنيه. غير أن فكره كان يطوّف على إيطاليا بأكملها وكل العالم بأسره؛ ولئن لم تكن حماسته للإمبراطورية، على كان يتصورها، إلا وهماً خادعاً، فإنه ينبغي مع ذلك التسليم بأن الأحلام الشابة الفتية بأفكار وآمال سياسية جديدة وليدة لم تخل في حالته من لمسة من فخامة شعرية. وهو فخور بأنه أول من وطئ هذا الدرب[٣٥]، وطأه بالتحقيق على آثار خطى أرسطو، وإن يكن ذلك على طريقته هو الخاصة، وفي استقلال تام عنه. والمثل الأعلى للإمبراطور لديه هو قاض عادل، رؤوف يعتمد على ربه وحسب، وهو وارث السلطان الشامل العام لروما، الذي ينتسب إليه إقرار الطبيعة والحق وإرادة الله. وبناء على هذه النظرة، يكون

غزو العالم أمراً مسوّغاً قائماً على حكم إلهى بين روما والأمم الأخرى المقيمة على ظهر الأرض، والله أعطى موافقته على هذه الإمبراطورية، فإنه فى ظلها اتخذ أقنوم الإنسان، حيث خضع عند ميلاده وأصبح رعية للإمبراطور أوغسطوس، وسلم عند وفاته لحكم بونطيوس بيلاطيوس. وربما وجدنا شيئاً من الصعوبة فى تقدير هذه وغيرها من الحجج التى من قبيلها، ولكن عاطفة دانتى لم تخفق قط فى حملنا معه. وهو يبدو فى رسائله كأنما هو أحد أوائل الصحفيين الإعلاميين(٢٦)، كما أنه ربما كان أول رجل عادى نشر المقالات السياسية على هذه الصورة. والحق أنه بدأ مبكراً. فإنه ما لبث بعد وفاة بياتريس بزمن قليل أن وجه حول دولة فلورنسا نشرة "إلى الأفراد العظماء فى الأرض"، كما أن جميع ما فاه به من أقوال عامة فيما أعقب ذلك من سنى حياته، والتى بدأت بفترة نفيه، موجه بأسره إلى الأباطرة والأمراء والكرادلة. ففى هذه الرسائل وفى كتابه **De Vulgari Eloquentia** يتكرر على الدوام ذلك الشعور بتلك الآلام المريرة، بأن المنفى ربما وجد فى مكان آخر غير بلد مولده وطناً فكرياً فى كل من اللغة والثقافة لا يمكن أخذها منه. وسنعاود الحديث فى هذه النقطة فى تتمة الكتاب.



شكل (٤٥) قصر فيكيو، (مقر مجلس السيادة)

فلورنسا

ونحن لا ندين لفيللاني وجيوڤاني فضلاً عن ماتيو بقدر كبير من التأمل السياسي العميق بقدر ما ندين لهم بملاحظات جديدة وعملية، بالإضافة إلى العناصر الإحصائية الفلورنسية والبيانات الهامة الصادرة عن دول أخرى. وهنا أيضًا قدمت التجارة والصناعة الدافع إلى العلوم السياسية فضلاً عن الاقتصادية. فلم تقم في مكان آخر من العالم معلومات كهذه مضبوطة حول الشئون المالية. وقد كانت ثروة البلاط البابوي في أفينيون، التي بلغت عند وفاة يوحنا الثاني والعشرين خمسة وعشرين مليون فلورين ذهبي، لا يكاد يصدقها عقل لو ارتكنت إلى مرجع أقل أهلية الثقة[٣٧]. فهنا فقط بمدينة فلورنسا، نلتقي بقروض هائلة الضخامة مثل ذلك الدين الذي اقترضه ملك انجلترا من البيوت المالية الفلورنسية باردي وبيروتزي، اللذين خسرا من أجل جلالته مليونًا وثلاثمئة وخمسة وستين ألف فلورين ذهبي في ١٣٣٨- هي مالهم ومال شركائهم- ومع ذلك فقد نهضا من الصدمة سالمين[٣٨]. على أن حقائق بالغة الأهمية تسجل هاهنا حول حال فلورنسا في هذا الزمان[٣٩]: هي الدخل العام (وهو فوق ثلاثمائة ألف فلورين ذهبي) والمصروفات؛ وعدد سكان المدينة، وهو هنا لا يقدر إلا تقديراً تقريبيًا طبقًا لاستهلاك الخبز مقدراً بالأفمام (bocche) بتسعين ألفًا، وعدد سكان المنطقة كلها؛ والزيادة الإضافية المتراوحة بين ثلاثمئة وخمسمئة من الأطفال الذكور، من بين خمسة آلاف وثمانمئة إلى ستة آلاف الذين يعمدون سنويًا[٤٠]؛ وتلاميذ المدارس، الذين كان فيهم عدد يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف يتعلمون القراءة، ويتعلم من ألف إلى ألف ومائتين الحساب في ست مدارس؛ وفوق هؤلاء ستمئة من الطلبة الذين كانوا يتعلمون قواعد ونحو (أجرومية) اللغة اللاتينية والمنطق في أربع مدارس. ثم يعقب ذلك إحصائيات الكنائس والأديرة؛ والمستشفيات التي كانت تتسع لأكثر من ألف سرير؛ وعن تجارة الصوف، بكل ما حوت من تفاصيل قيمة؛ وعن دار سك النقود، وعن تموين المدينة، والموظفين العموميين، إلى غير ذلك[٤١]. وهنا يجئ عرض كثير من الحقائق العجيبة؛ كيف حدث، مثلاً، عندما تأسس الرصيد العام (il monte) لأول مرة في ١٣٥٣، أن تحدث الرهبان الفرنسيسكانيون على المنابر تأييداً لذلك الإجراء، وتحدث الدومينيكيون والأوغسطيون ضده[٤٢]. ولم تكن النتائج الاقتصادية لوباء الموت الأسود موضع الملاحظة والوصف كما كانت هنا في هذه المدينة[٤٣]. إذ لم يكن

أ[illegible] غير الفلورنسي بمستطيع التدوين لمن بعده كيف كان من المتوقع أن النقص في عدد السكان كان كفيلاً بأن يجعل كل شيء رخيصاً، وكيف أنه بدلاً من ذلك تضاعفت أسعار العمالة والحاجيات الضرورية؛ وكيف أن عامة الناس لم يرغبوا في البداية أن يقوموا بأي عمل إطلاقاً، بل أقبلوا ببساطة على الاستسلام للتمتع؛ وكيف أنه في المدينة نفسها لم يكن من الممكن الحصول على الخدم والخادمات إلا بأجور فاحشة؛ وكيف لم يقبل الفلاحون أن يحرثوا ويزرعوا إلا أجود الأراضي، وتركوا سائرها غير مزروع؛ وكيف بدت فيما بعد غير مجدية تلك التركات الهائلة التي كانت توهب للفقراء إبان الطاعون، وذلك نظراً لأن الفقراء إما أنهم ماتوا أو كفوا عن أن يظلوا فقراء. وأخيراً، بمناسبة هبة عظيمة يتبرع فيها محسن محب للإنسانية عديم الولد بستة داناري dana[illegible] لكل متسول في المدينة، جرت محاولة لتقديم حساب إحصائي شامل لمستوى [illegible][٤٤]



الشكل (١-٦) ماكيافيللي

لسانتي دي تيتو

مجموعة [illegible]، لندن

تصوير [illegible]

وزادت هذه النظرة الإحصائية للأشياء بفلورنسا فى زمان تال نمواً وتطوراً عالياً أكثر. والنقطة الجديرة بالملاحظة فى هذا الصدد هى أننا فى العادة نستطيع إدراك علاقتها مرتبطة بالنواحي الأعلى شأناً من التاريخ وبالفن وبالثقافة بوجه عام. وتذكر قائمة جرد[٤٥] بالموجودات فى ١٤٢٢ داخل نطاق الوثيقة نفسها، مكاتب الصرافة الاثنين والسبعين التى كانت تحيط "السوق الحديثة" Mercato Nuovo ؛ ومقدار النقود المسكوكة المتداولة (مليونان من الفلورينات الذهبية)؛ والصناعة الجديدة آنذاك، صناعة غزل الذهب خيوطاً؛ والبضائع الحريرية؛ وفيليبو برونيلليسكو وهو مشغول آنذاك باستخراج فن العمارة الكلاسيكي من مدفنه؛ وليوناردو أريتينو، سكرتير الجمهورية، وهو يعمل بجد فى إحياء الأدب القديم والفصاحة الخالية؛ وأخيراً تتحدث القائمة عن الرخاء العام للمدينة، وهى آنذاك خلو من الصراعات السياسية، وعن حسن حظ إيطاليا، التى خلصت نفسها آنذاك من المرتزقة الأجانب. وتتحدث إحصائيات البندقية المقتبسة أعلاه (انظر نفس هذا الفصل)، التى ترجع إلى هذه السنة نفسها تقريباً، فتعطينا بالتأكيد أية على وجود ممتلكات أعظم وأرباح أوفر ودلائل عن مسرح العمليات أوسع مجالاً؛ لقد كانت البندقية سيدة للبحار منذ أمد بعيد قبيل أن ترسل فلورنسا أول غلايينها (١٤٢٢) إلى الإسكندرية. على أنه لن يفوت أى قارئ أن يميز الروح العالية أكثر المتجلية فى الوثائق الفلورنسية. ويتردد ظهور مثل هذه القائمة وأمثالها على فترات تمتد إلى عشر سنوات، وهى مرتبة ومجدولة بصورة منظمة، بينما لا نجد فى أمكنة أخرى على خير الظروف إلا ملحوظات عابرة بين الفينة والفينة. ونستطيع أن نشكل تقديراً تقريبياً للممتلكات والأشغال التجارية لأول أفراد أسرة ميديتشى؛ فإنهم دفعوا فى الصدقات والمبانى العامة والضرائب من ١٤٣٤ إلى ١٤٧١ ما لا يقل عن ٦٣٣,٧٥٥ من الفلورينات الذهبية، منها ما يتجاوز ٤٠٠,٠٠٠ كانت من نصيب كوسيمو وحده، وكان لورنزو الفاخر يعبر عن ابتهاجه لأن الأموال أُنفِقَت على هذا النحو الحسن[٤٦]. وإنا لنحصل فى ١٤٧٢ للمرة الثانية على نظرة بالغة الأهمية وكاملة فى حد ذاتها وفى أسلوبها لتجارة المدينة وحرفها[٤٧]، ومنها ما يمكن وضعه فى الاعتبار بصفة كاملة كلية أو جزئية بين الفنون الجميلة– كتلك التى ترتبط

بالدمقس ووشى الذهب والفضة، وبالحفر فى الخشب والفسيفساء الملبسة intarsia، وبقطع النحت شبيه العربى (الارابسك) فى الرخام والحجر الرملى، وبالصور من الشمع، وبالجواهر والأشغال الذهبية. وتتجلى الموهبة الفطرية للفلورنسيين فى تنظيم الحياة الخارجية واضحة فى كتبهم التى كتبوها حول الزراعة والأشغال التجارية والاقتصاد المنزلى، التى تتفوق تفوقاً ملحوظًا على ما لدى الشعوب الأوروبية الأخرى فى القرن الخامس عشر. وقد كان من الصواب إزماع نشر مختارات من هذه الأعمال(٤٨)، وإن كان استنباط نتائج واضحة ومحددة منها أمرًا غير يسير يحتاج إلى مشقة غير قليلة. ومهما يكن الأمر فليس هناك صعوبة فى التعرف على وتمييز المدينة التى يرجو فيها الوالدون المحتضرون فى وصاياهم من الحكومة أن تُغرِّم أبناءهم ألف فلورين إن امتنعوا عن ممارسة حرفة منتظمة(٤٩).

والراجح أن دولة أخرى فى العالم إبان النصف الأول من القرن السادس عشر لم تكن تملك وثيقة تماثل ذلك الوصف المجيد لفلورنسا الذى ألفه فاركى(٥٠). وفوق هذا خلفت لنا تلك المدينة فى الإحصائيات الوصفية، فضلاً عن أشياء كثيرة أخرى، ما لا نظير له فى العالم، قبل أن تغيب حريتها وعظمتها فى مثواها الأخير(٥١).

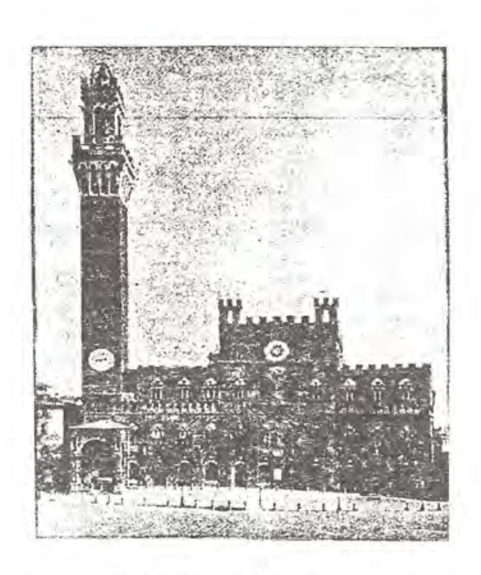
وهذا التقدير الإحصائى للحياة الظاهرية يصحبه بانتظام متصل مع ذلك سرد للأحداث السياسية التى أشرنا إليها من قبل.

ولم يقتصر الأمر بفلورنسا أن عاشت فحسب فى ظل أشكال أنظمة سياسية أكثر اختلافًا وتنوعًا مما ساد الدول الحرة بإيطاليا وأوروبا بوجه عام، بل إنها كانت منعكسة عليهن بصورة أعمق كثيرًا– فهى مرآة صادقة لعلاقة الأفراد والطبقات بكلٍّ متغير. والحق إن صور ديمقراطيات المدن فى فرنسا وفلاندر، كما يرسم خطوطها الأساسية فرواسار Froissart المؤرخ والمدون، وسرود المدونين التاريخيين الجرمان فى القرن الرابع عشر، أشياء ذات أهمية كبيرة؛ ولكن واحدة منها لم تحو الناحية الشمولية للفكر والتطور العقلانى للحكاية بحيث لا تتحمل الموازنة مع الفلورنسيين. فإن حكم النبلاء والطغيانيات، وكفاح الطبقة الوسطى مع الطبقة البروليتارية الشعبية، والديمقراطية

المقيدة وغير المقيدة، والديمقراطية شبه الزائفة وسيادة بيت واحد، والحكم الثيوقراطي (الديني) لسافونارولا، والأشكال المخلطة للحكم التي مهدت الطريق لاستبدادية أسرة ميديتشي، كل هذه وُصفت وصفًا بلغ من دقته أن أعمق دوافع من قاموا على مسرح الأحداث من ممثلين كُشفت للعيان تمامًا[٥٢]. وفي آخرة المطاف يعرض ماكيافيللي في تاريخه الفلورنسي (الذي يغطي الحقبة حتى ١٤٩٢) مدينته ومسقط رأسه في صورة كائن حي (مُتَعَضٍّ) ينبض بالحياة، كما يوضح أن تطورها عملية طبيعية وفردية؛ وهو أول العصريين الذين ارتفعوا إلى هذه الفكرة. على أنه مما يخرج عن حدود مجالنا أن نحدد هل أوقع مكيافيللي بالتاريخ شرًا؟ وفي أية ناحية فعل ذلك؟ كما هو شأنه في كتابه سيئ السمعة تاريخيًا عن حياة كاستروتشيو كاستراكاني- وهو صورة خيالية للمستبد النموذجي. وربما وجدنا شيئًا نقوله ضد كل سطر من أسطر التاريخ الفلورنسي Istorie Fiorentine، ومع هذا فإن القيمة الكبيرة والفريدة ستظل سليمة لم يؤثر فيها شيء. كما أن معاصريه وخلفاءه هم جاكوبو بيتي[٥٣] وجويتشارديني وسيجني ڤاركي وفيتُّوري، ويا لها من دائرة من الأسماء السامقة! ويا لها من قصة تلك التي يسردها على مسامعنا أولئك الأساتذة! فهنا يُكشف الستار عن الدراما العظيمة الجديرة بالتذكر، دراما العقود الأخيرة للجمهورية الفلورنسية. هذا وإن ذلك السجل الضخم لانهيار أعلى أنواع الحياة وأشدها أصالة، التي استطاع العالم آنذاك إخراجها وعرضها على أبصارنا، ربما بدا لأحد الناس مجرد مجموعة من العجائب النادرة، وربما أيقظ في آخر ابتهاجًا شيطانيًا بذلك الحطام المدمر لهذا القدر البالغ من النبل والعظمة. وقد يبدو لثالث كأنه جلسة محكمة تاريخية عظيمة؛ كما أنها ستكون لديهم جميعًا مدار تفكير ودراسة إلى آخر الزمان. على أن الشر الذي ظل أبد الدهر يرهق سلام المدينة كان حكمها لمنافسين كانوا يومًا ما أقوياء ثم أصبحوا الآن مقهورين مثل بيزا- وهو حكم كانت نتيجته الحتمية حال مزمنة من العنف. وكان العلاج الوحيد، وهو دون ريب علاج متطرف لم يكن أحد عدا سافونارولا(*) بمستطيع أن يقنع فلورنسا بقبوله، وذلك فقط

(*) سافونارولا: (١٤٥٢-١٤٩٨) واعظ ديني وسياسي وأخلاقي، أنظر المجلد الثاني . (المترجم)

بمساعدة فرص مناسبة، هو اتخاذ توسكانيا قرارها في الوقت المناسب تمامًا بالتحول إلى اتحاد فيدرالي مع المدن الحرة. وقد أدت هذه الخطة في فترة لاحقة، وهي لم تكن آنذاك إلا حلمًا بعصر ماض قد خلا، إلى دفع مواطن قوى الوطنية من لوكا (١٥٤٨) إلى منصة الموت حرقًا[٥٤]. وعن هذا الشر وعن الميول الجويلفية منكودة الطالع لفلورنسا نحو أمير أجنبي، الأمر الذي جعل التدخل الأجنبي أمرًا هينًا مألوفًا لديها، جاءت جميع النكبات التي أعقبت ذلك. ولكن من ذا الذي لا يعجب بالشعب، الذي صاغه واعظه الجليل الموقر حتى انغمس في حالة مزاجية من الترفع المتواصل إلى حد أنه لأول مرة في إيطاليا نصب من نفسه المثال المحتذى للعفو عن عدو مهزوم، بينما تاريخ ماضيه برمته لم يكن يلقنه إلا درس الانتقام والإبادة؟ وربما بدا الوهج الذى أذاب الروح الوطنية حتى أصبحت روحًا مولدة توليًا خُلقيًا، عندما ينظر إليه من بعيد، كأنما ولى سريعًا وانقضى زمانه؛ ولكن خير نتائجه لا تلبث أن تضئ للمرة الثانية في ذلك الحصار الجدير بالتذكر في ١٥٢٩-١٥٣٠ كانوا "حمقى مافونين"، كما كتب جويتشارديني أولئك الذين اجتلبوا هذه العاصفة على أم رأس فلورنسا، ولكنه يعترف هو نفسه بأنهم حققوا أشياء كانت تبدو بعيدة التصديق؛ وعندما أعلن أن عقلاء الناس ما كانوا إلا ليبتعدوا عن طريق الخطر فإنه لم يكن يعني أكثر من أن يقول إنه كان ينبغي على فلورنسا أن تخضع نفسها في صمت وسكون وقلة مجد وتستسلم لأيدى أعدائها. فذلك كان يعود عليها دون أدنى شك بالمحافظة على أرباضها وضواحيها الفاخرة وبساتينها الغناء وعلى حيوات ورغد من لا حصر لهم من المواطنين، ولكنها كانت لتخسر إحدى أكبر ذكرياتها وأشدها امتيازًا بالنبل.

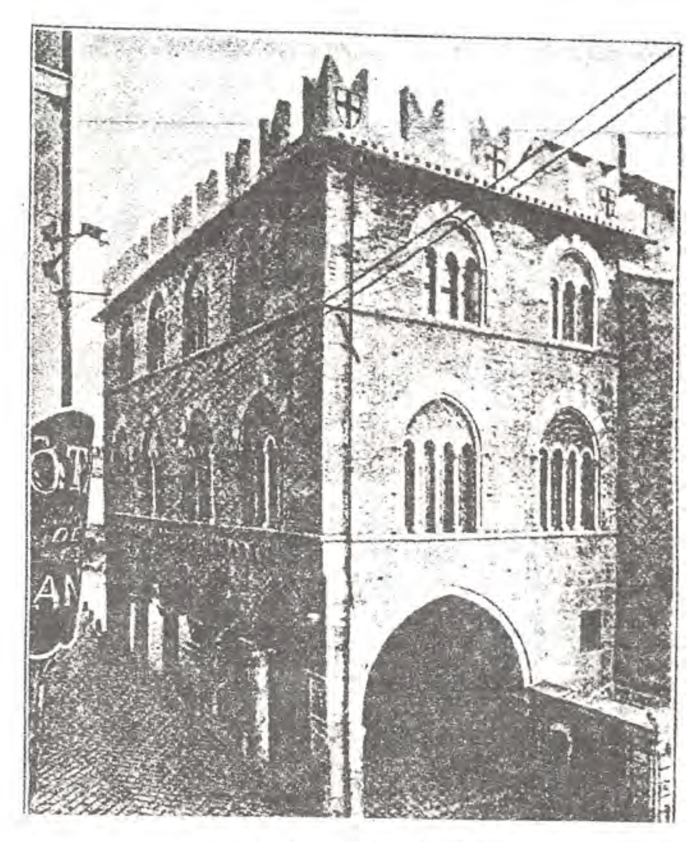


شكل (٤٧) القصر العام (مجلس المدينة)، سيينا

ويعد الفلورنسيون من حيث كثير من جداراتهم الرئيسية النموذج المحتذى وأقدم طراز للإيطالى والأوروبى العصرى بعامة؛ وهم على نفس هذا الوجه فى كثير من عيوبهم ونقائصهم. وعندما يقيس دانتى المدينة التى كانت دائبة على الدوام فى إصلاح دستورها بالرجل المريض الذى يظل باستمرار يغير من أوضاع جسمه فراراً من الألم، فإنه ... بهذه الموازنة ملمحاً دائماً فى الحياة السياسية لفلورنسا. لقد ظلت المغالطة العصرية الكبيرة الذاهبة إلى أن الدستور يمكن أن يُصنع، بعملية مزج للقوى الموجودة والميول القائمة[٥٥]، تعمل عملها وتثمر ثمارها فى الأوقات العصيبة العاصفة؛ حتى إن مكيافيللى نفسه لم يخل منها خلواً تاماً. ولم تخل البلاد يوماً من الفنانين الدستوريين الذين حاولوا بعملية توزيع وتقسيم ماهرة للقوة السياسية، وبالانتخابات غير المباشرة المعقدة أشد التعقيد، وبارتشاء وظائف اسمية بحتة، أن يؤسسوا نظاماً دائماً للأشياء، وأن يرضوا أو يخدعوا الأغنياء والفقراء على حد سواء. وهم فى ذاك يطلبون بسذاجة أسوتهم المحتذاة من العصر الكلاسيكى العتيق، كما يستعيرون أسماء الأحزاب ottimati, aristocrazia بطبيعة الحال[٥٦]. وقد أصبح العالم منذ ذلك الحين

دريًا بهذه التعبيرات، كما أنه أعطاها معنى أوروبيًا تقليديًا متفقًا مع الأوضاع، بينما جميع أسماء الأحزاب السابقة كانت قومية بحتة، كما أنها كانت إما تحمل الخصائص المميزة للقضية المطروحة أو تنبثق ناجمة عن نزوة من نزوات الصدف. ولكن كيف يستطيع الاسم أن يلون أو يمحو اللون عن قضية سياسية!

على أن أعظم من زعموا بأن في الإمكان تشييد دولة هو مكيافيللي[٥٧] بغير منازع. وهو يعامل القوى الموجودة مُسَلِّمًا بأنها حية وناشطة فعالة، وينظر نظرة واسعة المدى مضبوطة الدقة إلى الإمكانات المتبادلة، ولا يحاول أن يضلل نفسه ولا الآخرين. ولم يكن إنسان أشد منه خلوًا من الغرور وحب الظهور؛ والحق إنه لم يكن يكتب للجمهور وإنما للأمراء ورجال الدولة والإدارة أو من أجل أصدقائه الشخصيين. والخطر المحدق به لا يكمن في ادعاء العبقرية ولا في ترتيب زائف للأفكار، ولكنه يكمن بالأحرى في خيال قوى من الواضح أنه كان يتحكم فيه بصعوبة. وفي بعض الأحيان كانت موضوعية حكمته السياسية تستهوى الألباب بإخلاصها؛ ولكنها علامة تؤذن بزمان من الحاجة والخطر غير العاديين يوم كان من الصعوبة بمكان الإيمان بالحق أو الاعتراف للآخرين بفضل التعامل العادل. والغضب النزيه الذى يتم على حسابه يقذف علينا نحن الذين شهدنا المعنى الذى تُفهم عليه الأخلاقيات السياسية عند رجال الدولة والتدبير في قرننا هذا. وقد كان مكيافيللى على كل الأحوال قادرًا أن ينسى نفسه في قضيته. والحق فإنه بالرغم من أن كتابته، باستثناء بضعة كلمات قليلة جدًا، خالية تمامًا من الحماسة، ومع أن الفلورنسيين أنفسهم عاملوه في آخرة المطاف على أنه مجرم، فإنه كان صاحب وطنية بأوفى معانى الكلمة[٥٨]. ولكنه وهو الحر فعلاً، شأن معظم معاصريه، في كل من حديثه وأخلاقياته، فإنه كان يضع مصلحة الدولة في مركز الصدارة ويجعلها مناط فكره الأول والأخير.



شكل (٤٨) قصر سان جورجيو
المركز الرئيسى لبنك جنوة سابقًا

وإن أشد برامجه اكتمالاً فى نطاق تشييد نظام سياسى جديد فى فلورنسا ليعرض على أنظارنا فى الخطاب التذكارى الموجه للبابا ليو العاشر[٥٩]، الذى أُلّف بعد وفاة لورنزو دى ميديتشى الأصغر، دوق أوربينو (توفى ١٥١٩)، الذى أهدى إليه من قبل كتابه "الأمير". وكانت الدولة فى ذلك الحين فى أقصى درجات الشدائد، كما كان يعمها الولس والفساد المطلق، ولم تكن العلاجات المقترحة مما يمكن على الدوام تبريره تبريراً خلقياً؛ بيد أنه أهم من ذلك أن نرى كيف يرجو أن يقيم الجمهورية فى شكل ديمقراطية معتدلة، لتكون وارثة لأسرة دى ميديتشى. ولن يمكن تصور خطة أشد من

هذه مـهـارة فى إعطـاء التنازلات للبـابـا، أو لأعـوان البـابا المتنوعين، وللمـصـالح الفلورنسـيـة المختلفة؛ وربما تصـورنـا أنفسنا ها هنا ناظرين إلى عـدد وآلات إحـدى السـاعـات. إذ توجـد فـى كـتـابه "المحـاضـرات" Discorsi أعـداد كـبيـرة من المبـادئ والملاحظات والمقـارنات، والتنبؤات السـيـاسـيـة ومـا إلى ذلك، ومنهـا مـا هـو ومـضـات تنطوى على نفاذ بصيرة مدهش. مثال ذلك أنه يتبين ويدرك قانون تطور مستمر وإن لم يكن مطرداً فى المؤسسـات الجـمـهـورية، ويطـالب بأن يكون الدسـتـور مرنًا ذا قـدرة على التـغـيـر، بوصف كون ذلك الوسيلة الوحيدة للاستغناء عن سفك الدماء والنفى. ولسـبب مماثل هو الرغبة فى التحرر من العنف الفردى الخاص والتدخل الأجنبى- "موت كل حرية"- يتمنى لو أُدخل إجراء قانونى (accusa) ضد المواطنين المكروهين، الذى لم يكن عند فلورنسـا حتى آنذاك بدلاً منه سـوى محكمـة العيب. وهو يجسم لنا صفة القـرارات المتـأخـرة واللاإرادية، التى تلعب دوراً بالـغ الأهـمـيـة فى الأوقـات الحـرجـة فى دول الجمهوريات، بأسلوب أستاذى ماهر فى التناول. نعم إنه حدث ذات مرة أن خياله أضله كـمـا أضله ضـغـط الأحـداث حتى مـدح الشـعب مدحًا لا يسـتحـقه، وهـو الذى يخـتـار مـوظفيـه، كمـا قـال، أفضل مما يخـتـارهم أى أمـيـر، والذى يمكن شـفـاؤه من أخطائه "بالنصيحة الصالحة"[٦٠]. فـأما عن حكومة توسكانيـا، فلا يخـالجه شك فى أنها تنتمى إلى مـدينتـه ومسـقط رأسـه، كـمـا يدفع فى حديث أو مـحـاضـرة خـاصـة Discorso بأن إعـادة فتح بيزا مسـألة حياة أو موت؛ وهو يتـأسف حسرة لأن أريتزو لم تسو بالأرض بعد عصيـانها فى ١٥٠٢؛ وهو يسلم بوجه عام بأن الجـمـهـوريات الإيطالية ينبغى أن يسمح لهـا بـالامتداد والتوسع ملء حريتهـا وزيادة رقعتهـا لكى تسـتمـتـع بالسـلام فى الداخل، وإنه لا يجوز أن يهاجمها الآخرون، ولكنه يصرح بأن فلورنسا كانت تبدأ دائمًا من البداية الخاطئة، وأنها صنعت لنفسـها منذ البداية أعداء ألدّاء من كل من بيزا ولوكا وسيينا، بينما بيستوجا، "التى عوملت كأخ"، خضعت لها طواعية بإرادتها[٦١].

ومـن غير المعقول أن نرسـم مـوازنة بين الجـمـهـوريات القليلة الأخرى التى ظلت قائمـة فى القرن الخامس عشـر وبين هذه المدينة الفريدة فى نوعها – وهى أهـم "ورشـة"

أو مصنع للروح الإيطالية، بل وأيضًا على التحقيق، الأوربية الحديثة. وقاست سيينا العناء من أشد الأمراض العضوية خطورة، ولذا فإن رخاءها النسبى فى الفن والصناعة ينبغى ألا يضللنا فى هذه النقطة. وتطلع إينياس سيلفيوس[٦٢] باشتياق من مسقط رأسه إلى المدن الإمبراطورية الجرمانية "المرحة"، حيث الحياة لا يمررها أى مصادرة للأراضى والبضائع، ولا يزعجها موظفون متعسفون، ولا شقاق أحزاب سياسية[٦٣].
ولا تكاد جنوة تدخل فى نطاق عملنا، لأنها قبل عهد أندريا دوريا لم تكد تشترك تقريبًا أو تقوم بدور فى عصر النهضة. والحق إن ساكن الريفييرا كان مضرب الأمثال بين الإيطاليين فى احتقاره لكل أنواع الثقافة الأعلى[٦٤]. وهنا كانت الصراعات الحزبية تتخذ سمة بالغة الشراسة، وتزعج بعنف مسرف مجرى الحياة برمته، حتى ليعسر علينا أو يكاد فهم كيف أمكن قط بعد تلك الثورات والغزوات أن توصل الجنويون إلى حالة مطاقة من الحياة. وربما كان ذلك راجعًا إلى أن جميع من اشتركوا فى الشئون العامة كانوا فى الحين نفسه وبدون استثناء واحد تقريبًا رجال أعمال ناشطين[٦٥]. ويتجلى بطريقة أخاذة من المثل الذى ضربته جنوة كيف يستقيم عدم الأمن الذى عاشت فيه مع الثروة والتجارة الهائلة المترامية، ومع أى اضطرابات داخلية تم امتلاك المستوطنات البعيدة.

وكانت لوكا غير ذات وزن فى القرن الخامس عشر.

هوامش الفصل السابع - القسم الأول

(١) عن النقطة الأخيرة انظر جاك. ناردي Jac. Nardi, Vita de Ant. Giacomini, Luca, p. 18 (1818).

(٢) انظر "Genethliacum Venet? Urbis" في كارمينا أنطونيو سابيليكوس Carmina of Antonio Sabilicus. وقد اختير ٢٥ مارس "essendo il cielo in singolar disposizione, si come da gli astronomi è stato calcolato più volte". انظر Cf. Sansovino, Venezia Città Nobilissima e Singolare, Descritta in 14 Libri, fol. 203 (Venezia, 1581). وعن مجموع الفصل انظر Johannis Baptistæ Egnatii Viri Doctissimi de Exemplis Illustrium Virorum Venetæ Civitatis atque Aliarum Gentium (Paris, 1554). وإن أقدم، أو بالحرى من أقدم، المدونات البندقية يضع فيها يوهان دياكوني Joh. Diaconi, Chron. Venetum, in Pertz, Monum. SS. Vii, pp. 5, 6 احتلال الجزر في زمن اللومبارد وتأسيس الريالتو فيما بعد.

(٣) "De Venetæ urbis apparatu panegiricum carmen quodoraculum inscribitur".

(٤) تغير الحي بمجموعه تغيراً تاماً في عملية إعادة البناء التي جرت في القرن السادس عشر.

(٥) أنظر بينيديكتوس Benedictus, Carol. VIII, in Eccard, Scriptores, ii, col. 1597, 1601, 1621. وانظر في Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 26، تعدد الفضائل السياسية للبنادقة: "bontà, innocenza, zelo di carità, pietà, misericordia".

(٦) كان كثير من النبلاء يحتذون شَعرهم. انظر Erasmi Colloquia, ed. Tiguri, year 1553: "miles et carthusianus".

(٧) انظر Epistolæ, lib. v, fol.28.

(٨) انظر ماليبييرو Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, pp. 377, 431, 481. 493, 530; ii, pp. 661, 668, 679. Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 57. Diario Ferrarese, ibid., col. 240. وانظر أيضاً Dispacci di Antnio Giustiniani, i, p. 392 (Florence, 1876).

(٩) انظر ماليبييرو في Archiv. Stor., vii, ii, p. 691. Cf. 694, and i, 535.

(١٠) انظر مارين سانودو Marin Sanudo, Vite dei Duchi, in Murat., xxii, col. 1194.

(١١) انظر Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 105.

(١٢) انظر .Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 123 sqq كما أن ماليبييرو بالموضع المذكور، loc. cit. vii, i, pp. 175, 187 sqq. يروى السقطة الهامة التى سقطها الأدميرال أنطونيو جريمانى Antonio Grimani، الذى، عندما اتهم بسبب رفضه تسليم القيادة العليا لآخر، وضع بنفسه الحديد فى قدميه قبل وصوله إلى البندقية، وقدم نفسه على هذه الصورة إلى مجلس الشيوخ. وعنه وعن نصيبه فى المستقبل، انظر إغناطيوس .Egnatius, fol. 183a sqq., 198b sqq

(١٣) انظر .Chron. Venetum, loc. cit., col. 166

(١٤) انظر ماليبييرو بالموضع المذكور .Malipiero, loc. cit., vii, i, 349 وعن قوائم أخرى من النوع عينه انظر مارين سانودو Marin Sanudo, Vite dei Duchi, in Murat., xxii, col. 990 (year 1440), col. 1088 (year 1440), in Corio, fol. 435-438 (year 1483), in Guazzo, Historie, fol. 151 sqq..

(١٥) (انظر مانفرين Manfren, Del Preteso Scioglimento di Sudditarza dopo la Battaglia di Agnadello, Arch. Veneto (1872)، التى يثبت فيها ويتأكد أن هذه الحكاية مختلقة- ل. ج. L. G.)

(١٦) كان جويتشارديني Guicciardini (Ricordi, n. 150) أحد أوائل من لاحظوا أن شهوة الانتقام يمكن أن تغرق أوضح صوت للمصلحة الذاتية.

(١٧) انظر ماليبيرو .Malipiero, loc. cit., vii, i, p. 328

(١٨) من المحقق أن رأى ميلانو الإحصائى فى .Manipulus Florum, (in Murat., xi, 711 sqq.)، عن ١٢٨٨ يعد مُهمًا، وإن لم يكن واسع الرحاب. وهو يتضمن أبواب المنازل، والسكان والرجال فى سن الجندية ومساكن loggie النبلاء والأشجار والآبار والمخابز والحانات ودكاكين الجزارين وباعة السمك، واستهلاك القمح والكلاب وطيور الصيد والقنص وثمن الملح والخشب والتبن والخمر؛ وكذلك القضاة والموثقين والأطباء والمدرسين وكتبة النسخ وصناع الدروع والحدادين والمستشفيات، والأديرة والهبات والهيئات الدينية. وهناك قائمة لعلها أقدم عهداً، وجدت فى Liber de Magnalibus Mediolani in Heinr. de Hervordia, ed. Potthast, p. 165. وانظر أيضًا البيان الإحصائى لاستى Asti حوالى ١٢٥٠ عند أوجريوس الفيريوس .Ogerius Alpherius (Alfieri), De Gestis Astensium . Histor. Patr. Monumenta, Scriptorum, tom. iii, col. 684 sqq

(١٩) وبخاصة مارين سانودو فى .Marin Sanudo, Vite dei Duchi, in Murat., xxii, passim

(٢٠) انظر عن الفارق الملحوظ بين فلورنسا والبندقية كتيبًا مُهمًا وجه فى ١٤٧٢ إلى لورنزو دى ميديتشى من بعض البنادقة، والإجابة عنه على يد بينيديتو داى ,Benedetto Dei, in Paganini, Della Decima . iii, pp. 135 sqq. (Florence 1763)

(٢١) فى سانودو .Sanudo, loc. cit., col. 958 وفيما يتعلق بالتجارة ينقله شيرر .Scherer, Allgem Gesch. Des Welthandels, i, 326, note.

(٢٢) هنا يكون المقصود هو جميع البيوت، وليس فقط تلك التى تملكها الدولة. على أن الأخيرة كانت فى بعض الأحايين تدر إيجارات هائلة. انظر ڤاسارى Vassari, xiii, 83, Vita d. Jac. Sansovino، وفى

تشيكيتي Cecchetti, La Vita dei Veneziani nel 1300, Archiv. Ven., vol. xxvii, pp. 34 sqq، تقدم بيانات التقويمات التقديرية لعامي ١٣٦٧ و١٤٢٥ بطريقة مخالفة. ففي ١٣٦٧ بلغت قيم البيوت ما يقارب ٢,٩٠٠,٠٠٠ من الدوقيات؛ وصلت في ١٤٢٥ إلى ٣,٦٣٦,٠٢٨ دوقية. وفي عام ١٥٨٢ كان بالبندقية ١٨٧ شحاذًا- ل. ج. (L. G.)

(٢٣) انظر سانودو .Sanudo, col. 963 وفي نفس الموضع تقدم قائمة بالدخول والإيرادات للقوى (الدول) الإيطالية والأوربية. ويمكن أن تجد تقديراً عن ١٤٩٠ في col. 1245 sqq ..

(٢٤) يبدو أن هذا البغض قد ارتفع إلى كراهية إيجابية عند بول الثاني، فإنه سمى الإنسانيين جميعًا بلا استثناء بالهراطقة. انظر بلاتينا .Platina, Vita Pauli II, p. 323 وعن الموضوع بوجه عام انظر أيضًا فويجت -Voigt, Wiedebelebung des classischen Alterthums, pp. 207-213 (Ber lin, 1859). ويقدم إهمال العلوم بوصف كونه السبب في الأحوال المزدهرة للبندقية على يد ليل. جريج. جيرالدوس Lil. Greg. Giraldus, Opera, ii, p. 439.

(٢٥) انظر سانودو Sanudo, loc. cit., col. 1167 .

(٢٦) انظر سانسوفينو .Sansovino, Venezia, lib. xiii وهو يحتوى تراجم الدوجات في ترتيب تاريخي، وإذ يتتبع حيواتهم واحداً بعد آخر وذلك بانتظام من ١٣١٢، تحت عنوان (Scrittori Veneti)، يورد ملحوظات قصيرة للكتّاب المعاصرين.

(٢٧) كانت البندقية عندئذ أحد المراكز الرئيسية للبطاركة. انظر ج. كريسبان -G. Crespan, Del Petrar chismo, in Petrarca e Venezia, pp. 187-235 (1874) .

(٢٨) انظر هاينريك. دى هيرفورديا Heinric. De Hervordia، عن السنة ١٢٩٣ p. 213, ed. Potthast، الذى يقول: "رغب البنادقة في الحصول على جثمان يعقوب من فورلي Jacob of Forli من يدى سكان ذلك المكان، نظراً لأن كثيراً من المعجزات كان يتوصل إليها بواسطته. فوعدوهم أشياء كثيرة في مقابل ذلك، جاء بين كثير منها الوعد بتحمل جميع نفقات إجازة المتوفى قديسًا، ولكن دون الحصول على ملتمسهم".

(٢٩) انظر سانودو بالموضع المذكور .Sanudo, loc. cit., col. 1158, 1171, 1177 وعندما أحضر جثمان القديس لوقا من البوسنة نشأ خلاف بين البندكتيين من أتباع سان جيوستينا St. Giustina في بادوا الذين ادعوا أنهم يمتلكونه فعلاً، حتى اضطر البابا أن يفصل بين الجماعتين. انظر جويتشارديني Cf. Guicciardini, Ricordi, n. 401 .

(٣٠) انظر سانسوفينو ;"Sansovino, Venezia, lib. xii, "dell' andate publiche del principe وعن الخوف الذى أحس به الناس من الحظر البابوى انظر إغناطيوس .Egnatius, fol. 50a -Egna tius, fol. 12a sqq ..

(٣١) انظر ج. فيلاني .G. Villani, viii, 36 وسنة ١٢٠٠ هي أيضًا تاريخ ثابت في الكوميديا الإلهية Divine Comedy .

(٣٢) ذكر ذلك حوالي ١٤٧٠ أسباسيانو فيورنتينو Vespas. Fiorent., p. 554 .

(٣٣) الفقرة التي تعقب هذه في الطبعات السابقة والمشيرة إلي مدونة دينو كومبانيي Chronicle of Dino Compagni حنفت هنا، لأن مصداقية المدونة قد أثبت زيفها بول شيفر بويخهورست -Paul Schef fef-Boichhorst, Florentiner Studien, pp. 45-210, Leipzig, 1874، واستمر التكذيب (Die Chronik des D. C., Leipzig, 1875) على النقيض من إثبات سلطان ثقة ممتاز هو ك. هيجل C.Hegel, Die Chronik des D. C., Versuch einer Rettung, Leipzig, 1875). ووجهة نظر شيفر معترف بها بوجه عام في ألمانيا (انظر و. برنهاردى -W. Bernhardi, Der Stand der Dino Frage, Hist. Ztsch. N. F., Bd., i, 1877)، بل إن هيجل نفسه يفترض أن النص على ما جاءنا إنما هو معالجة متأخرة لعمل غير مكتمل لدينو. فحتى في إيطاليا، ومع أن أغلبية العلماء كانوا يرغبون في تجاهل هذا الهجوم الضاري الناقد، كما فعلوا بأشياء أخرى من نفس النوع، ارتفعت بعض أصوات تطالب بالاعتراف بانتحال الوثيقة. (انظر بخاصة ب. فانفاني P. Fanfani في نشرته الدورية -Il Bor ghini، وفي كتاب .Dino Campagni Vendicato, Milan, 1875) وعن أقدم التواريخ الفلورنسية بصفة عامة، انظر مارتفيج (Hartwig, Forschungen (Marburg, 1876 وك. هيجل في هـ. فون سيبل .H. von Sybel's Historischer Zeitschrift, Bd. xxxv ومنذئذ أقدم إيسيدورو ديل لونجو Isodoro del Lungo، الذى أكد صحتها بحسم قاطع عجيب، على إتمام نشر أعمال دينو الكاملة، وزودها بمقدمة تفصيلية: (Dino Campagni e la Sua Cronaca (2 vols., Firenze, 1879-80 . وعثر في المدة الأخيرة على نسخة خطية من التاريخ يرجع تاريخها إلي بداية القرن الخامس عشر، فهو بالتبعية أقدم من جميع المراجع والإصدارات الأخرى المعروفة حتى الآن. ونتيجة لاكتشاف هذا المخطوط والأبحاث التى قام بها ك. هيجل، وبخاصة الأدلة الدالة على أن أسلوب العمل لا يختلف عن أسلوب القرن الربع عشر، فالرأى الغالب إذن حول الموضوع هو بالضرورة: أن المدونة تحتوى على بذرة مُهمَّة، هى بذرة حقيقية أصيلة، التى، مع ذلك، أعيد تشكيلها على أساس مدونة فيللاني، وربما تم هذا في القرن الرابع عشر نفسه. انظر جاسباري .Cf. Gaspary, Geschichte der italienischen Literatur, i pp. 361-369, 531 sqq. (Berlin, 1885) .

(٣٤) انظر المطهر Purgatorio, vi قرب النهاية.

(٣٥) انظر De Monarchia, i, 1 . (الطبعة النقدية الجديدة على يد فيتى (Witte, 71(Halle, 1863; الترجمة الألمانية على يد أو. هوباتش .OHubatsch, Berlin, 1872) .

(٣٦) انظر .(Dantis Allignerii Epistl?, cum notis C. Witte (Padua, 1827 وأيضًا في فراتيتشيللى Fraticelli, Opere Minori di Dante, iii (1862)، ومور .(Moore, Opere di Dante (1904 وقد شاء أن يحتفظ بالبابا وبالإمبراطور أيضًا في إيطاليا. انظر رسالته، ص. ٣٥، أثناء اجتماع الكرادلة في كاربنتراس Carpentras، عام ١٣١٤ لم تتس بعد بدقة كاملة مصداقية رسالة دانتى هذه- و. ج. .W.G حول الرسالة الأولي انظر La Vita Nuova, cap. 31, and Epist., p. 9.

(٣٧) انظر جيوفانى فيللانى .Giov. Cillani, xi, 20وانظر ماتيو فيللاني Cf. Matteo Villani, ix, 93، الذى يقول إن يوحنا الثاني والعشرين -astuto in tutte sue cose e massime in fare il da

naio"، خلف من ورائه ثمانية عشر مليونًا من الفلورينات نقدًا وما قيمته ستة ملايين من الفلورينات من الجواهر.

(٣٨) عن هذه وعن حقائق مماثلة لها انظر چيوڤاني ڤيلاني .Giov. Villani, xi, 87; xii, 54 وفقد أمواله الخاصة في الانهيار وسجن من أجل الدين. انظر أيضًا كرفين دي ليتنهوف Kervyn de Letten-hove, L'Europe au Siècle de Philippe le Bel, Les Argentiers Florentins, in Le Bul letin de l'Académie de Bruxelles, vol. xii, pp. 123 sqq. (1861).

(٣٩) انظر چيوڤاني ڤيلاني .Giov. Villani, xi, 92, 93 ونقرأ في مكيافيللي Machiavelli, Stor. Fior-ent., lib. ii, cap. 42 أن ستاً وتسعين ألف شخص ماتوا بالطاعون في ١٣٤٨.

(٤٠) وكان القسس يضعون على جنب فولة سوداء لكل ولد وفولة بيضاء لكل بنت. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للتسجيل.

(٤١) كان هناك بالفعل وأنقًا جهاز مطافئ مستديم في فلورنسا. انظر چيوڤاني ڤيلاني .Giov. Villani, xii, 35

(٤٢) انظر ماتيو ڤيلاني .Matteo Villani, iii, 106

(٤٣) المصدر السابق .Ibid., i, 2-7; cf. 58 وخير مرجع ثقة عن الطاعون نفسه هو ذلك الوصف المثير الذي كتبه بوكاتشيو في بداية كتابه الديكاميرون.

(٤٤) انظر چيوڤاني ڤيلاني .Giov. Villani, x, 164

(٤٥) انظر Ex Annalibus Ceretani, in Fabroni, Magni Cosmi Medicei Vita, Adnot. 34, vol. ii, p. 63.

(٤٦) انظر Ricordi of Lorenzo, in Fabroni, Laur. Med. Mag. Vita, Adnot. 2 and 25. on Cosmus.. وانظر باول. چوڤيوس Paul. Jovius, Elogia, pp. 131 sqq ..

(٤٧) أوردها بينيديتو دي Benedetto Dei، في الفقرة المقتبسة أعلاه هامش ٢٠ . وينبغي أن نذكر أن البيان أورد ليكون تحذيرًا للمهاجمين. وعن الموضوع بأكمله انظر ريومونت Reumont, Lorenzo de' Medici, ii, p. 419. والمشروع المالي لشخص اسمه لودوفيكو جيتي Lodovico Ghetti، مع حقائق هامة، يقدم في روسكو .Roscoe, Life of Lorenzo de' Medici, ii, App. I

(٤٨) مثلاً، في .(?) Archiv. Stor., iv وكنقيض لهذا انظر الدفتر البسيط جدًا لأوت. نولاند Ott. Nuland 1455-1462 (شتوتجارت، ١٨٤٣)، وانظر عن فترة متأخرة نوعاً ما الدفتر اليومي للوكاس ريم Lukas Rem، ١٤٩٤-١٥٤١، الذي نشره ب. جرايف (B. Greiff (أوجزبرج Augsburg، ١٨٦١). وهناك طبعة مُهمّة جدًا هي Il Libro Segreto di Gregorio Dati، نشره كارلو جارجيوللي Carlo Ghar-giolli (بولونيا ١٨٦٩). والكاتب، وهو تاجر كبير، عاش من ١٣٦٢ إلى ١٤٢٥ . انظر أيضاً دفاتر حسابات روسبيليوسي من بيستوچا Rospigliosi of Pistoja، ودفتر أسرة تشيبو Cybö، الذي نشره ل. ستافيتي .(L. Staffeti (1908 وانظر أيضًا دفتر برنابو فيسكونتي Bernabò Visconti عن ١٣٦٦ في .Arch. Stor. Lomb., xxxv

(٤٩) انظر ليبرى Libri, Histoire des Sciences Mathématiques, ii, 163 sqq ..

(٥٠) انظر ڤاركى Varchi, Stor. Fiorent., iii, pp. 56 sqq.، حتى نهاية الكتاب التاسع. وهناك أرقام واضحة الخطأ وليست فيما يحتمل أكثر من أغلاط للكاتب أو المطبعى.

(٥١) فيما يتعلق بالجوائز والثروة فى إيطاليا، فإنى لا أستطيع، بسبب نقص المزيد من وسائل البحث، أن أجمّع بعض الحقائق المتناثرة بعضها إلى بعض، ألتقطها من هنا ومن هناك. وينبغى إهمال المبالغات الواضحة ودفعها جانبًا. والنقود الذهبية التى تستحق الإشارة إليها هى الدوقية ducat والسكوين sequin والفلورين الذهبى fiorino d'oro والاسكودو الذهبى scudo d'oro. وقيمتها جميعًا متساوية تقريبًا، هى خمس وستون إلى ستين فرنكًا من العملة الفرنسية الحالية.

ففى البندقية مثلاً فإن الدوج أندريا فندرامين Doge Andrea Vendramin (1475)، الذى كان يملك ١٧٠,٠٠٠ دوقية، كان يعتبر رجلاً غنيًا فاحش الثراء (ماليبييرو بالموضع المذكور .Malipiero, loc cit., vii, ii, p. 666) . وبلغت قيمة الثروة المصادرة لكوليونى Colleoni 216.000 فلورينًا، الموضع المذكور loc. cit., p. 244.

وحوالى عام ١٤٦٠ كان بطريرك أكويليا Aquileia، لودوفيكو باتاڤينو Lodovico Patavino، الذى كان يملك ٢٠٠,٠٠٠ دوقية، يسمى "فيما يحتمل أغنى الإيطاليين" (انظر جاسب. فيرونينس Gasp. Veronens. Vita Pauli II, in Murat. iii, ii, col. 1027) وفى مواطن أخرى بيانات خرافية.

دفع أنطونيو جريمانى Antonio Grimani 30.000 دوقية من أجل انتخاب ولده كاردينالاً. وقد قدرت نقوده الحاضرة بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ دوقية (Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 125) .

وعن ملحوظات جاءت متعلقة بالحبوب فى التجارة وفى أسواق البندقية انظر بوجه خاص ماليبييرو بالموضع المذكور .Malipiero, loc. cit., vii, ii, pp. 709 sqq التاريخ ١٤٩٨

وفى عام ١٥٢٢ لم تعد البندقية، بل جنوا، بعد روما، هى التى توضع فى الترتيب أغنى مدينة فى إيطاليا (وذلك مصدق فحسب على أساس من صدق رواية فرانتشسكوڤ ڤيتُّورى .Francesc. Vettori انظر تاريخه فى .(Archiv. Stor., App., tom. vi, p. 343 ويذكر بانديللو Bandello, ii, Nov. 34 and 42، أن أغنى تاجر جنوى فى عهده هو أنسالدو جريمالدى.

وبين ١٤٠٠ و١٥٨٠ يجرى فرانتشسكو سانسوفينو تخفيضًا قيمته ٥٠ فى المائة من قيمة النقود (Venezia, fol. 151 bis) .

ومن المعتقد فى لومبارديا أن العلاقة بين ثمن القمح فى منتصف القرن الخامس عشر ومنتصف القرن التاسع عشر هى كنسبة ٣: ٨ (.Sacco di Piacenza, in Archiv. Stor., App., tom. v ملحوظة من الناشر سكارابيللى).

وفى فيرارا كان هناك أناس فى عهد الدوق بورسو يملكون ما بين ٥٠,٠٠٠ و٦٠,٠٠٠ دوقية (Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 207, 214, 218؛ وبيان فيه سرف، .col. 187). والمعطيات فى فلورنسا استثنائية، ولا تبرر الوصول إلى نتيجة ختامية تتعلق بمتوسط المعدلات. ومن هذا النوع القروض التى تمنح للأمراء الأجانب، التى لا يبدو فيها إلا أسماء بيت واحد أو بيتين، ولكنها كانت فى الحقيقة عمل

شركات كبيرة. وكذلك أيضاً كانت الغرامات الهائلة المفروضة على الأحزاب المنهزمة؛ فنقرأ مثلاً أنه بين عامي ١٤٣٠ إلى ١٤٥٣ دفعت سبع وسبعون عائلة ٤,٨٧٥,٠٠٠ فلورينا ذهبيًا (ڤاركي Varchi, iii, p. 115 sqq.)، وأن جيانوزو مانيتّي وحده، الذي سنجد فرصة للتحدث عنه فيما بعد، أرغم على دفع مبلغ قدره ١٣٥,٠٠٠ فلوريناً ذهبياً، فهبط بذلك إلى درجة التسول (Reumont,, i,157) .

وبلغت ثروة چيوڤاني دي ميديتشي عند وفاته (١٤٢٨) ١٧٩,٢٢١ من الفلورينات الذهبية، ولكن الثاني فقط من ولديه كوسيمو ولورنزو ترك عند وفاته (١٤٤٠) مبلغًا وصل إلى ٢٣٥,١٣٧ فلورينًا (Fabroni, Laur. Med., Adnot. 2) . وترك بييرو ابن كوسيمو عند وفاته (١٤٦٩) ٢٣٧,٩٨٢ سكوديًا (Reumont, Lor. Dei Medici, i, 286) .

ومما يستدل منه على النشاط العام للتجارة أن الصياغ الأربعة والأربعين في بونتي ڤيكيو Ponte Vecchio دفعوا في القرن الرابع عشر إيجاراً قدره ٨٠٠ فلورينًا إلى الحكومة (Vasari, ii,114, Vita di Taddeo Gaddi). وتمتلئ مفكرة بوناكورسو بيتي Buonaccorso Pitti (in Delécluze, Florence et ses Vicissitudes, vol. ii) بالأرقام التي توضح، بطريقة مهما تكن عامة، السعر العالي للسلع والقيمة المنخفضة للنقود.

فأما عن روما فإن إيراد مجلس الإدارة البابوية الذي كان يُستمد من جميع أرجاء أوربا لا يعطينا أي معيار؛ وكذلك لا يمكن الثقة كثيراً فيما يقال عن الكنوز البابوية وثروات الكرادلة. وترك المصرفي الذائع الصيت المعروف جيدًا أجوستينو كيجي Agostino Chigi في عام١٥٢٠ ثروة قيمتها ٨٠٠,٠٠٠ دوقية (Lettere Pittoriche, i, App. 48) .

وفي أثناء الأسعار المرتفعة لعام ١٥٠٥ ارتفعت قيمة staro ferrarrese del grano الذي يزن عادة ما بين ٦٨ إلى ٧٠ رطلاً (ألمانيا)، إلى ٣/١ ١ دوقية. وبيعت semola or remolo بسعر venti soldi lo staro؛ وفي السنوات المثمرة التالية ارتفع ثمن staro إلى ٦ صولدي .soldi انظر بونافينتورا بيستوفيلو .Bonaventura Pistofilo, p. 494 وفي فيرارا كان إيجار المنازل يبلغ في ١٤٥٥ في العام الواحد ٢ء ليرة؛ انظر cf. Atti e Memorie, Parma, vi, 250 ؛ وانظر أيضًا صفحة ٢٦٥ فما بعدها عن بيان موثق بالوثائق عن الأسعار التي كانت تدفع للفنانين والنساخين.

ومن قائمة جرد متعلقات أسرة مديتشي (extracts in Munz, Précurseurs,158 sqq.) يظهر أن الجواهر قدرت قيمتها بمبلغ ١٢,٢٠٥ دوقية؛ والخواتم بمبلغ ١٧٩٢ دوقية واللآلئ (وهي كما هو واضح متميزة جداً من الجواهر الأخرى- س. ج. ش. م. (S. G. C. M.) بمبلغ ٣٥١٢ دوقية؛ والميداليونات والكاميوزات (حجر كريم بنقش بارز) والموزاييك بقيمة ٢٥٧٩ دوقية؛ والزهريات ٤٨٥٠؛ وأوعية الذخائر الدينية وأمثالها ٣٦٠٠؛ والمكتبة ٢٧٠٠؛ والفضيات ٧٠٠٠. ويقدر چيوڤاني روتشلاي Giov. Rucellai أنه في ١٤٧٣ (؟) دفع ٦٠,٠٠٠ فلورين ذهبي ضرائب و١٠,٠٠٠ صداقًا لبناته الخمس و٢٠٠٠ لتحسين أحوال كنيسة سانتا ماريا نوڤيللا. وفي ١٤٧٤ خسر ٢٠,٠٠٠ فلورينًا ذهبيًا بسبب مؤامرات أحد الأعداء.(Autografo dallo Tibaldone di G. R., Florence, 1872) . وتكلف زواج برناردو روتشلاي Bernardo Rucellai من نانّينا Nannina شقيقة لورنزو دي ميديتشي ٣٦٨٦ فلورين (Munz, Précurseurs, 244, i) .

(٥٢) فيما يتعلق بكوسيمو (١٤٣٣-١٤٦٥) وحفيده لورنزو الفاخر (مات ١٤٩٢)، يمتنع المؤلف عن إبداء أي نقد إلى سياستهم الداخلية. وعن ناقد له أهميته انظر چيوڤاني كاتزيوني Giov. Cazzione, Archiv. Stor., i, pp. 315 sqq. وإن التبجيل الذي يوجه إليهما كليهما، ويوجه خاص إلى لورنزو، على يد وليم روسكو في كتابه "حياة لورنزو دى ميديتشى الملقب بالفاخر" (Life of Lorenzo de' Medici, called the Magnificent, 1st ed., Liverpool, 1795; 10th ed. London, 1851)، يبدو أنه هو السبب الرئيسي في تفاعل الشعور ضدهما. وظهر رد الفعل هذا أولاً في سيسموندي Sismondi (Hist. Des Rép. Italiennes, xi)، الذي حدث إجابة لنقده اللاذع، الذي كان بعض الأوقات شديدًا بدرجة غير معقولة، أن انبرى روسكو للمرة الثانية في كتابه التصويرات: الحياة التاريخية والسياسية للورنزو دى مـديتـشى (Illustrations, Historical and Critical, of the Life of Lorenzo de' Medici, London, 1822)؛ وبعد ذلك عند جينو كابّوني Gino Capponi (Arch. Stor. Ital., i (1874), pp. 315 sqq.)، الذي قدم بعد ذلك (Storia della Rep. Di Firenze, 2 vols., Florence, 1875) براهين وتفسيرات أخرى لما أصدره من أحكام. انظر أيضًا عمل ڤون ريومونت von Reumont (Lor. Dei Medici il Magn., 2 vols., Leipzig, 1874)، وهو معروف ممتاز بدرجة لا تقل بما فيه من هدوء حكيم في الآراء عما فيه من تمكن من ناصية المواد الرحيبة المستخدمة. انظر أيضًا A. Castel-man, Les Médicis (2 vols., Paris, 1879). والموضوع هنا لم يمس إلا عرضًا. انظر عملين مخصصين على يد ب. بيوسر B. Buser (Leipzig, 1879) المكرس لسياسة آل ميديتشى الداخلية والخارجية: (١) Die Beziehungen der Medici zu Frankreich (1434-94, etc.); (2) Lo-renzo de' Medici als italienischen Staatsman, etc. (2nd ed., 1883). وينبغي أن يضاف إلى ذلك أنه في الطبعة الألمانية الثانية عشر، الكتاب الأول، صفحات ٢٥٨ فما بعدها، وسع جايجر Geiger ملحوظات بوركهارت هذه مع ملحوظات كثيرة من عنده فأصبحت مناقشة كاملة للموضوع- و. ج. (W. G.) .

(٥٣) أثبت ألك. جيورجيتي Alc. Giorgetti, Miscellanea Fiorentina, i (1866)، أنه في غالب الأمر استنسخ بيتّي Pitti فقط بارتولوميو تشريّتاني Bartolommeo Cerretani .

(٥٤) فرانك. بورلاماكي Franc. Burlamacchi، وهو والد رئيس بروتستانت لوتشيزي ميشيل ب.Michele B.. انظر Arch. Stor. Ital., ser. i, tom. x, pp. 435-599; Documenti, pp. 146 sqq.; أضف إلى ذلك كارلو ميتوتولي Carlo Minutoli, Storia di Fr. B. (Lucca, 1844)، وإضافات مُهمَّة كتبها ليون ديل بريتي Leone del Prete. في Giornale Storico degli Archiv. Toscani, iv, pp. 309 sqq. (1860). ومن المعلوم أن ميلانو، بما عرفت به من سوء معاملتها لجاراتها المدن الأخرى منذ القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر، مهدت الطريق لإنشاء دولة استبدادية كبرى، وحتى في زمن القضاء على أسرة فيسكونتي في ١٤٤٧، أفسدت ميلانو خلاص إيطاليا العليا، وذلك بوجه رئيسي من خلال عدم قبولها خطة كونفدرالية تنظر بعين الاعتبار إلى تعادل المدن وتساويها. انظر كوريو Cf. Corio, fol. 358 sqq ..

(٥٥) في الأحد الثالث من أعياد مجئ المسيح Advent 1494 وعظ سافوناورلا الناس كالتالي حول طرق إنشاء دستور جديد. كان على المجموعات الست عشرة للمدينة أن ينتج كل منها خطة، وكان على

الجونفالونييرى Gonfalinieri اختيار الأربعة الأفضل من هؤلاء، وعلى السادة Signoria أن يسموا خير الجميع فى القائمة المختصرة. ومع هذا فإن الأمور اتخذت اتجاهاً مختلفاً بتأثير الواعظ نفسه. انظر ب. فيلارى P. Villari, Savonarola. وإلى جانب هذه الموعظة كان سافوناورلا كتب Trattato circa il Regimento di Firenze وهى خطة مستوجبة للإعجاب (أعيد طبعها فى لوكا، ١٨١٧).

(٥٦) والثانى أولاً فى ١٥٢٧، بعد طرد آل مديتشى. انظر ڤاركى Varchi, i, 121, etc..

(٥٧) قال ماكيافيللى فى Stor, Florent, lib. cap. 1 ما نصه: "Un savio dator di leggi" كان يستطيع إنقاذ فلورنسا.

(٥٨) ڤاركى Varchi, Stor. Fiorent,, i, p. 210.

(٥٩) انظر Discorso sopra il Riformar lo Stato di Firenze, in the Opere Minori, p. 207 .

(٦٠) نفس الرأى، الذى لا شك أنه مستلف من هنا، ورد عن مونتيسكيو Montesquieu .

(٦١) وتنتسب إلى ما يكاد يكون مدة أوخر (١٥٢٢). قارن رأى جويتشارديني، وهو رهيب فى صراحته، حول أحوال والتنظيم السياسى الذى لا مفر منه للحزب الميديتشى. Lettere dei Principi, iii, fol. 124 (ediz. Venez., 1577) .

(٦٢) إينياس سيلفيوس æneas Sylvius, Apologia ad Martinum Mayer, p. 701. ولنفس التأثير اطلب ماكيافيللى Discorsi, i, 55، وفى أماكن أخرى.

(٦٣) أما كيف أثرت بطريقة غريبة نصف-الثقافة العصرية فى الحياة السياسية، فشئ يتجلى فى الصراعات الحزبية لعام ١٥٢٥. انظر ديللا ڤاللى Della Valle, Lettere Sanesi, iii, p. 317. وعدد من صغار أصحاب الدكاكين وقد استفزتهم دراسة ليفى وماكيافيللى Discorsi، فهبوا يطالبون بأعلى صوت بإنشاء محاكم الشعب والقضاة الرومانية أخرى ليكون ضداً لسوء حكم الأمراء ولطبقات الموظفين.

(٦٤) انظر بييرو ڤاليريانو Piero Valeriano, De Infelicitate Literator. متحدثاً عن بارتولوميو ديللا روڤيرى (Bartolommeo della Rovere. (عمل بييرو ڤاليريانو الذى كتب فى ١٥٢٧ يُقتبس نقلاً عن الإصدارة التى أصدرها مينكن Mencken, Analecta de Calamitate Leteratorum, Leipzig, 1707). والفقرة المقصودة هنا يمكن فقط أن تكون الواردة ص ٢٨٤، والتى لا نستطيع أن نستنتج منها ما هو وارد بيانه فى النص، ولكن نقرأ فيها أن بارتولوميو ديللا روڤيرى رغب أن يحمل ابنه على التخلى عن ذوق يميل به إلى الدراسة كان يتصوره ووضعه فى الأشغال التجارية.] ولكن جايجر يرى أن استبعاد جنوا لا أساس له، نظراً لأن تلك المدينة، فى الكتابات التاريخية على الأقل، تستطيع تقديم بعض الإنجازات والادعاءات الباهرة. انظر أيضاً براتشيو Cf. Braccio, Giac. Bracelli e l'Umanesi-mo dei Liguri al suo Tempo (Genoa, 1891) ر. ج. (W. G. .

(٦٥) انظر سيناريجا Sennarega, De Reb. Genuens., in Murat., xxiv, col. 548. وعن عدم الأمان فى ذلك الزمان انظر بوجه خاص col. 519, 525, 528, etc.. وعن لغة المبعوث الصريحة لمناسبة تسلم الولاية لفرانتشسكو سفورزا (١٤٦٤)، عندما أخبره المبعوث أن جنوا سلمت إليه على أمل العيش الآن فى أمان وراحة، انظر كانيولا Cagnola, Archiv. Stor., iii, pp. 165 sqq . وتشكل أرقام كبير الأساقفة، والدوج وكورسير و(فيما بعد) الكاردينال باولو فريجوسو Paulo Fregoso، نقيضاً جديراً بالملاحظة للصورة العامة لحالة إيطاليا.

الفصل الثامن

السياسة الخارجية للدول الإيطالية

كما أن غالبية الدول الإيطالية كانت فى بنيتها الداخلية أعمالاً فنية- أعنى أنها ثمرة التفكر والتعدل الدقيق الحريص- فكذلك كانت علاقتها بعضها ببعض وبالدول الأجنبية أعمالاً فنية أيضًا. فأما كونهن جميعًا على وجه التقريب كن نتيجة للاغتصابات حديثة العهد فكان فى حد ذاته حقيقة لها أثرها القتال فى سياستهن الخارجية والداخلية على حد سواء. فلم تعترف واحدة منهن بأخرى بغير تحفظ؛ ولربما أدت نفس لعبة الصدفة التى ساعدت على تأسيس وتضامن قواعد أسرة من الأسر إلى قلب أخرى رأسًا على عقب. وكذلك لم يكن من الأمور التى تجرى على أساس الاختيار عند المستبد أن يظل ساكنًا أم لا يلزم الهدوء. هذا وإن الضرورة التى كانت تحتم الحركة وتوسيع الرقعة شئ معروف مألوف لكل القوى غير الشرعية. وهكذا أصبحت إيطاليا مشهدًا "لسياسة خارجية" اكتسبت تدريجيًا، شأنها فى الدول الأخرى أيضًا، وضع نظام تعترف به للقانون العام. وقد بلغت المعالجة الموضوعية البحتة للشئون الدولية، بوصفها شيئًا خاليًا من التحيز والهوى خلوه من العوائق والموانع الخلقية، درجة من الكمال لا تخلو فى بعض الأحيان من قدر معين من الجمال والعظمة خاص بها وحدها. ولكنها على الجملة تمنحنا انطباعة بهاوية ليس لها من قرار.

والحق إن المؤامرات والتسلحات والعصبيات والفساد والولس تشكل التاريخ الظاهرى لإيطاليا إبان هذه الفترة. وقد ظلت البندقية زمنًا طويلاً متهمة من الجميع بالجرى وراء غزو شبه الجزيرة قاطبة، أو بالمتابعة التدريجية لإنقاص قوتها، بحيث تقع

كل دولة بعد الأخرى في قبضتي يديها[١] . ولكن لو دققنا النظر لاتضح لنا أن هذه الشكوى لم يكن مصدرها الشعب، بل جاءت بالأحرى من البلاطات وطبقات الموظفين الرسميين، التي كانت كلها على وجه العموم مكروهة من رعاياها، بينما الحكومة المعتدلة بالبندقية (ڤينيسيا) أحرزت لنفسها الثقة العامة[٢]. بل إنه حتى فلورنسا ذاتها، بما لها من مدن خاضعة هادئة، وجدت نفسها في وضع زائف فيما يتعلق بالبندقية، بعيداً عن كل غيرة تجارية وعن التقدم الجاري للبندقية في رومانيا Romagna[*] وفي خاتمة المطاف تمكنت عصبة كامبراي Cambray فعلاً من إنزال ضربة خطيرة بالدولة (انظر القسم الأول، الفصل السابع) كان ينبغي على إيطاليا بأجمعها أن تساندها بقوة متحدة متضافرة.

وكانت الدول الأخرى مستوفزة الأرواح بمشاعر لا تقل عداءً ومقتًا. كما كانت مستعدة في كل آن أن تستخدم إحداها ضد الأخرى أي سلاح يوسوس لها به ضمير السوء الذي تمتلئ به. وأوقع كل من لودوفيكو إيل مورو وملوك نابولي الأراجونيين والبابا سيكستوس الرابع- ودع عنك الحديث عن الدول الأصغر شأنًا- إيطاليا في حال من الاضطراب المستمر البالغ الخطر. وقد كان يكون الخير كله لو أن اللعبة الفظيعة كانت قاصرة على إيطاليا؛ ولكنها كانت تكمن في طبيعة الأشياء نفسها وهي أن التدخل والعون ينبغي في النهاية أن يُلتمسا من الخارج- وبوجه خاص من الفرنسيين والأتراك.

(*) رومانيا أو روماجنا Romagna : هي الجزء الشمالي الشرقي للدولة البابوية السابقة بإيطاليا، وتضم الولايات الحديثة بولونيا وفورلي ورافنا. (المترجم)



شكل (٤٩) محمد الثانى

لجنتيلى بيلليني

لندن، المتحف القومى

على أن عواطف الناس بوجه عام كانت على مدى الزمان كله متجهة إلى فرنسا. ولم تكف فلورنسا يوماً عن الاعتراف الصريح بسذاجة مزعجة عن إيثارها القديم الجويلفى للفرنسيين[٣] وعندما ظهر شارل الثامن فعلاً فى جنوب جبال الألب تقبلته إيطاليا كلها بحماسة بدت له هو نفسه وأتباعه عملاً يعوزه التعليل[٤]. وفى رأى الإيطاليين وخيالهم، لو اتخذنا من سافوناورولا مثلاً، أن الصورة المثالية لمنقذ وحاكم عاقل وعادل وقوى لم تزل حية، مع الفارق هو أنه لم يعد ذلك الإمبراطور الذى استصرخه دانتى لنصرتهم، بل هو ملك فرنسا من آل كابت[*]. على أن الوهم الخادع

(*) آل كابت Capet : هو اسم الأسرة المالكة الفرنجية الثالثة. أسسها هيو كابت وتفرع منها فيما بعد أسرتا فالوا وبوربون حتى الثورة الفرنسية. (المترجم)

ما لبث أن تبدد عند رحيله؛ على أنه مضت فترة طويلة قبل أن يفهم الجميع أن شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرانسوا الأول قد أخطئوا في علاقتهم الحقة بإيطاليا وعرفوا أي وضيع من البواعث كان يدفعهم. فأما الأمراء فإنهم راحوا يحاولون من جانبهم استخدام فرنسا بطريقة مختلفة تماماً. فعندما انتهت الحروب بين الفرنسيس والإنجليز، وعندما بدأ لويس الحادى عشر يلقى شباكه الدبلوماسية في كل الاتجاهات، وشرع شارل دوق برجانديا في خوض مغامراته الحمقاء، اتجهت المجالس الاستشارية الإيطالية إلى التقابل معهما في كل نقطة من النقاط. وأصبح من الواضح أن تدخل فرنسا كان فقط مسألة وقت، وإن لم تقم قط مدعيات في السيطرة على نابولي وميلانو، وأن التدخل القديم في شئون جنوا وبييدمونت لم يكن إلا نموذجًا لما سيحدث في المستقبل القريب. والواقع أن البنادقة توقعوه منذ زمن مبكر هو عام ١٦٤٢ (٥). ويتجلى الرعب القاتل الذى استشعره الدوق جالياتزو ماريا، دوق ميلانو، أثناء الحرب البرجاندية، التى كان في أثنائها يبدو حليفًا لشارل ولويس على السواء، وكان لديه نتيجة لذلك أسباب واضحة للخوف من هجوم يصدر منهما كليهما وتجليًا شديداً في مراسلاته(٦). ولم تكن خطة توازن القوى الإيطالية الأربعة الرئيسية، كما فهمها لورنزو الفاخر، إلا اتخاذ مظهر لروح مرحة متفائلة، شاخت على كل من اللامبالاة التي تظهر في سياسة تجريبية، والخرافات الجويلفية الفلورنسية، وقامت على اجترار الأمل في خير الأوضاع. وعندما عرض عليه لويس الحادى عشر المساعدة في حربه مع فيرانتى صاحب نابولي وسكستوس الرابع أجاب: "لا أستطيع أن أضع مصلحتي الخاصة فوق سلامة إيطاليا كلها؛ وأبتهل إلى الله ألا يدور بخلد ملوك الفرنسيس أن يحاولوا تجربة قوتهم في هذه البلاد! فلو أنهم فعلوا ذلك يومًا ما، ضاعت إيطاليا"(٧). فأما الأمراء الآخرون، فكان ملك فرنسا في نظرهم بعبعًا مفزعًا لهم ولأعدائهم على حد سواء، كما أنهم كانوا يهددون بعضهم بعضًا باستدعائه كلما وصلوا إلى حال لا يجدون فيها طريقة مناسبة لحل ما يشجر بينهم من متاعب. وأما البابوات فكانوا من جانبهم يتخيلون أنهم مستطيعون أن يستخدموا فرنسا دون أن يحدق بهم أى خطر، بل إنه حتى إنوسنت الثامن نفسه توهم أنه مستطيع أن ينسحب إلى الشمال لكي يظهر استياءه ثم يعود غازيًا فاتحًا لإيطاليا على رأس جيش فرنسى(٨).

نعم إن المفكرين من الرجال تنبأوا بالغزو الأجنبى قبل قدوم حملة شارل الثامن بزمن مديد(٩). وعندما عاد شارل مرة أخرى وأصبح على الجانب الآخر من جبال الألب كان واضحًا لكل ذى عينين أن حقبة من التدخل قد بدأت. وأخذت النكبة تتلو الأخرى؛ وأدرك الناس بعد فوات الأوان أن فرنسا وإسبانيا، وهما الغازيان الرئيسيان، أصبحتا قوتين أوروبيتين عظيمتين، وأنهما لن تعودا قانعتين بالإجلال الشفوى، ولسوف تقاتلان حتى الموت من أجل النفوذ والأراضى بإيطاليا. وكانتا بدأتا فى أن تماثلا الدول الإيطالية ذات النظام المركزى، بل تعملان فعلا على محاكاتها، ولكن على معيار ضخم هائل. وأخذت خطط استلحاق الأراضى وضمها أو المبادلة عليها تتكاثر فى فترة من الزمان تكاثرًا لا حد له. وكانت النهاية، كما هو معروف تمامًا، هى النصر التام لإسبانيا، التى قامت طويلاً، بوصفها سيفًا ودرعًا لحركة الإصلاح الدينى المضاد، بدعم البابوية بين رعاياها الآخرين. ولم تستطع تأملات الفلاسفة الحزينة العامرة بالسوداوية أن تريهم إلا كيف أن الذين استدعوا البرابرة لنصرتهم وصلوا جميعًا إلى نهاية سيئة.

وعقدت فى الوقت نفسه محالفات مع الأتراك أيضًا، بنفس الصورة من انعدام التحرج أو الخفاء والتوارى؛ إذ لم تكن تلك المحالفات تعد وسيلة أسوأ من أية وسيلة أخرى سياسية. لقد أصيب الاعتقاد بوحدة عالم المسيحية Christendom فى الغرب إبان فترات مختلفة من الحروب الصليبية باهتزاز خطير، كما أن فريديريك الثانى كان على الراجح قد شب عن الطوق فيها وخرج عليها. ولكن التقدم الجديد الذى أصابته الأمم الشرقية، والحالة التى كانت فيها إمبراطورية الروم الشرقية ثم دمارها، عادت فأحيت الشعور القديم، وإن لم يكن ذلك بنفس قوته القديمة، بكل أرجاء أوربا الغربية. ومع هذا فإن إيطاليا كانت استثناء مسترعيًا للأنظار لهذه القاعدة. ومهما عظم الرعب الذى سرى بين الناس من هول الأتراك والخطر الواقعى الناجم عنهم، فإنه لم تكد تكون هناك تقريبًا حكومة ذات شأن لم تتآمر على الدول الإيطالية الأخرى مع محمد الثانى وخلفائه. فإن لم يفعلوا ذلك فى بعض الحالات فإنهم اجتنوا مع ذلك من ثماره وجدواه؛ ولم يكن هناك ما هو أسوأ من إرسال من يدس السم بصهاريج المياه بمدينة البندقية،

وهي التهمة التي وُجهت ضد ورثة ألفونسو ملك نابولي[١٠]. ولم يكن يُنتظر من وغد مثل سيجسموندو مالاتيستا شئ أفضل عن استدعائه الأتراك إلى إيطاليا[١١]. بيد أن ملوك نابولي الأراجونيين، الذين انتزع منهم محمد الثاني- بتحريض من حكومات إيطالية أخرى فيما علمنا وقرأنا، وبخاصة حكومة البندقية[١٢]- مدينة أُترانتو Otranto ذات يوم (١٤٨٠)، عادوا بعد ذلك فتألبوا مع السلطان بايزيد الثاني على البنادقة[١٣] ووجهت التهمة نفسها إلى لودوفيكو إيل مورو. "إن دماء المذبوحين وتعاسة الأسرى على يد الأتراك لتجأر بشكواها إلى الله أن ينتقم منه"، فيما يقول مؤرخ الدولة. وكان معلوماً في البندقية، التي كانت حكومتها تُخطر بكل شئ، أن چيوڤاني سفورزا، حاكم بيسارو وابن عم المغربي (إيل مورو)، أولم الولائم للسفراء الأتراك الذين مروا به في طريقهم إلى ميلانو[١٤]. ومات أشد باباوات القرن الخامس عشر جلالاً واحتراماً، وهما البابوان نيقولا الخامس وبيوس الثاني، وهما في أشد أعماق الأسى لما شهداه من تقدم الترك، حيث توفي الثاني، والحق يقال، أثناء الإعداد لحملة صليبية كان يؤمل أن يقودها بشخصه؛ واختلس خلفاؤهما الأموال التي ساهم بها الناس وأرسلوها لهذا الغرض من جميع أنحاء "عالم المسيحية"، وحقروا من شأن صكوك الغفران التي تمنح في مقابل تلك الإسهامات المالية وحولوها إلى استثمارات تجارية[١٥]. وقبل إنوسنت الثامن أن يكون سجاناً للأمير الهارب جم Gem نظيرمرتب دفعه بايزيد شقيق السجين، كما أيد اسكندر السادس الخطوات التي اتخذها لودوفيكو إيل مورو في القسطنطينية لتشجيع هجوم تركي على البندقية (١٤٩٨)، وهو أمر هددته من أجله الأخيرة بعقد مجلس عام[١٦]. ومن الواضح أن المحالفة سيئة السمعة بين فرانسوا الأول وسليمان الثاني لم تكن شيئاً جديداً أو أمراً لم يسمع الناس بمثله.



شكل (٥٠) . بيوس الثانى يبارك الصليبيين فى أنكونا

لبونتوريكيو

سيينا ، مكتبة الكاتدرائية

تصوير آلينارى

بل الواقع أننا نعثر على حالات مجاميع كاملة من السكان لم يروا أية جريمة خاصة في أن يذهبوا بأنفسهم وينضموا للأتراك، وحتى لو تم التلويح بمثل هذا التصرف تهديداً للحكومات الجائرة، فإنه يدل على الأقل برهاناً على أن الفكرة أصبحت مألوفة. وفي وقت مبكر من الزمان هو ١٤٨٠ يحملنا باتيستا مانتوفانو بوضوح تام أن

نفهم أن معظم سكان الساحل الأدرياتيكى تكهنوا بشئ من هذا القبيل، وأن أنكونا بوجه خاص كانت ترغب فيه(١٧). وعندما كانت دولة رومانيا Romagna تقاسى الويلات من الحكم الجائر لحكومة ليو العاشر، قال مندوب عن رافنا جهاراً للقاصد البابوى الكاردينال چوليو دى مديتشى: "يا مولانا المونسنيور ان تسمح جمهورية البندقية الجليلة بدخولنا إليها، خشية الوقوع فى نزاع مع الكرسى البابوى المقدس؛ ولكن إذا وصل التركى إلى راجوزا Ragusa فإننا سنسلم أنفسنا لقبضة يديه"(١٨).

كان عزاء ضعيفاً هزيلاً ولكنه لا يعوزه السبب لعبودية إيطاليا التى بدأت آنذاك على يد الإسبان أن يقال إن البلاد كانت على الأقل بمأمن من التردى فى وهدة العودة إلى البربرية، التى كانت لتنتظرها تحت الحكم التركى(١٩). إذ أنها بلاد ما كانت- فيما هى عليه من الانقسام على نفسها- لتستطيع النجاة من هذا المصير.



شكل (٥١) : استعراض الاسطول فى نابولى بمناسبة زيارة لورنزو الفاخر

نابولى، متحف القديس مارتينو

تصوير ديدريش، يينا

فلئن حدث، رغم كل هذه العيوب، أن استحقت السياسة الإيطالية ثناءنا، فما ذلك إلا بسبب معالجتها العملية الخالية من الهوى لتلك المسائل التى لم تتأثر بالخوف أو الانفعال العاطفى أو النزعة الشريرة. فهنا لم يقم بالبلاد نظام إقطاعى على طريقة أهل الشمال، بما له من خطة مصطنعة للحقوق؛ ولكن السلطان الذى كان يملكه كل منهم كان يمسك به عملياً مثلما يمسك به نظرياً. وهنا لم تكن هناك طبقة نبيلة تابعة لتركز فى عقل الأمير الإحساس القروسطى بالشرف، بكل ما حوى من عواقب عجيبة؛ بيد أن

الأمراء والمستشارين كانوا على اتفاق تام في قيامهم بالعمل وفق المقتضيات التي تحتمها الحالة الخاصة والغاية التي وضعوها نصب أعينهم. ولم يكن هناك أحد يحس بكبرياء طبقي أو طائفي، يمكن أن ينفر مؤيداً أو مسانداً، إزاء الرجال الذين كانت خدماتهم تستخدم وإزاء الحلفاء، مهما يكن مصدرها، كما أن طبقة قواد المرتزقة condottieri ، التي لم يكن للمولد فيها شأن يذكر، تظهر بوضوح كاف نوع الأيدي التي كانت تستقر فيها القوة؛ ويجئ أخيراً أن الحكومة، وهي في يدي مستبد مستنير، كانت لديها معرفة أعمق وأدق، بصورة لا سبيل معها للمقارنة، بأحوال بلدها وأحوال جيرانها مما لدى معاصريها الشماليين، كما أنها كانت تستطيع تقدير القدرات الاقتصادية والأخلاقية التفصيلية أعظمها وأضألها للصديق والعدو. وكان الحكام، رغم ما لعلهم ارتكبوه من أخطاء خطيرة، أساتذة مطبوعين مولودين بالفطرة في علم الإحصاء. وكانت المفاوضة مع مثل هؤلاء الرجال أمراً ممكنًا ميسوراً؛ وربما ذهب ظننا إلى أنهم ربما أمكن إقناعهم وأمكن تعديل رأيهم عندما تعرض عليهم أسباب عملية تدعوا لذلك. وعندما كان ألفونسو العظيم من نابولي ١٤٣٤ أسيراً لدى فيليبو ماريا فيسكونتي استطاع أن يقنع سجانه بأن حكم بيت أنجو بدلا من حكمه هو في نابولي سيفضي إلى جعل الفرنسيين سادة على إيطاليا؛ فأطلق فيليبو ماريا سراحه بغير فدية وعقد معه تحالفًا[٢٠]. وما كان أمير شمالي ليتصرف على مثل هذا النحو إلا في القليل النادر، وبالتأكيد لم يكن ليفعل ذلك أمير أخلاقياته في النواحي الأخرى مثل أخلاقيات فيسكونتي. وتتجلى الثقة التي تم الإحساس بها في قوة المصلحة الذاتية في ثنايا تلك الزيارة الذائعة الصيت التي قام بها لورنزو الفاخر، فأثار بها دهشة الفلورنسيين عامة، لفيرانتي، الذي لا يصون عهداً، بمدينة نابولي- وهو رجل ليس ثمة شك في أنه سيُغرى بالاحتفاظ به أسيراً، ولم يكن لديه إطلاقًا أي وازع خلقي يحول دون أن يفعل ذلك[٢١]. وذلك لأن في إلقاء القبض على ملك، ثم إطلاق سراحه بعد اغتصاب توقيعه قهراً على وثيقة ثم إنزال الإهانة به فضلاً عن ذلك، مثلما فعل شارل الجسور بلويس الحادي عشر بمدينة بيرون (١٤٦٨)، أمور كانت تبدو لعين الإيطاليين ضرباً من الجنون[٢٢]؛ وبذلك كان يتوقع من لورنزو إما أن يعود مكللاً بالمجد، وإما ألا يعود على الإطلاق. فإن فن الإقناع السياسي ارتفع في ذلك

الوقت إلى ذروة- وبخاصة على يدى السفراء البنادقة- حصلت الأمم الشمالية على فكرة عنها لأول مرة من الإيطاليين، كما لا تعطينا عنها المخاطبات والخطب الرسمية إلا فكرة بتراء بعيدة عن الكمال إلى أقصى حد. وما هى إلا مجرد قطع من "البيان" الإنسانى. كما إنه- رغم ما قام فى غير ذلك الوضع من آداب لياقة رسمية- لم يكن هناك أى افتقار عند الحاجة إلى الحديث الخشن الصريح فى التعامل الدبلوماسى(٢٣). فإن رجلاً مثل مكيافيللى ليبدو فى "إفاداته "legazioni فى ضوء يكاد يكون محزنًا. فإنه وقد زود بالقدر الضئيل من التعليمات، ومضى فى تجهيزات ومعدات رثة، وعومل على أنه عميل ذو مرتبة منحطة، لا يفقد قط موهبته فى إبداء الملاحظات الحرة الرحيبة الأفق ولا متعته بالوصف الجميل. ومنذ ذلك الوقت صارت إيطاليا، وظلت، بلد التعليم والعلاقات السياسية Istruzioni & relazioni. نعم لا شك أنه كان هناك الشئ الكثير من القدرة الدبلوماسية فى الدول الأخرى، ولكن إيطاليا وحدها فى تلك المدة الباكرة جداً هى التى كانت تحتفظ بشواهد وثائقية بقدر ضخم ملموس تشهد بذلك. وإن الرسالة الطويلة المسهبة المسطورة عن الفترة الأخيرة من حياة فيرانتى من نابولى (١٧ يناير ١٤٩٤)، التى خطتها يمين بونتانو ووجهت إلى مجلس مستشارى إسكندر السادس، لتعطينا أعلى فكرة عن هذه الطبقة من الكتابات السياسية، وإن جرى اقتباس مقتبسات منها بصورة عرضية وبوصفها واحدة فقط من جملة كتابات كثيرة تماثلها. فكم من الرسائل الأخرى المُهِمَّة كهذه، والمسطرة بقوة مثلها، فى العلاقات الدبلوماسية الدائرة فى هذا الزمان وما يليه من أزمان، لا تزال غير معروفة وغير منشورة(٢٤) !!

وإن قسمًا خاصًا من هذا العمل ليعالج الإنسان من الناحيتين الفردية والقومية، الأمر الذى مضى عند الإيطاليين ويده فى يد، مُجتَمِعًا مع، دراسة الأحوال الظاهرية للحياة البشرية.

هوامش الفصل الثامن - القسم الأول

(١) وكذا ڤاركي في تاريخ لاحق كثيراً . Stor. Fiorent., i, 57.

(٢) وفي الحق فإن چالياتزو ماريا سفورزا أعلن العكس (١٤٦٧) للوكيل البندقي- أي أن الرعايا البنادقة عرضوا أن يتحالفوا معه في شن الحرب على البندقية؛ ولكن هذا تفاخر فقط. انظر ماليبييرو Cf. Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, pp. 216 sqq . وفي كل مناسبة كانت المدن والقرى تستسلم طواعية إلى البندقية، وبصفة رئيسية، والحق يقال، تلك التي نجت من أيدي بعض الطغاة، بينما كان على فلورنسا أن تقمع الجمهوريات المجاورة، التي جبلت على الاستقلال، بواسطة قوة السلاح، كما يلاحظ جويتشارديني (Ricordi, n. 29) .

(٣) وربما بشكل أشد في تعليمات إلى السفراء الموفدين إلى شارل السابع في ١٤٥٢، (انظر فابروني، Fabroni, Cosmus, Adnot. 107, fol. ii, pp. 200 sqq) وكان لدى المبعوثين الفلورنسيين تعليمات لتذكير الملك بقرون العلاقات الودية التي سادت بين فرنسا وبين مدينتهم، وأن يذكروا له أن شارل الأكبر خلص فلورنسا وإيطاليا من براثن البرابرة (اللومبارد)، وأن شارل الأول والكنيسة الرومية (الكاثوليكية) كانوا "fondatori della parte Guelfa. Il qual fondamento fa cagione della ruina della contraria parte e introdusse lo stato de felicità, in che noi siamo". وعندما زار لورنزو الشاب دوق أنجو، الذي كان في ذلك الوقت ينزل فلورنسا، فإنه لبس زيًا فرنسيًا. فابروني Fabroni, ii. p. 9.

(٤) انظر كومينيس، Comines, Charles VIII, chap. 10. وكان الفرنسيون يعتبرون مثل القديسين comme saints. انظر Cf. chap. 17; Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 5, 10, 14, 15; Matarazzo, Chron. Di Perugia, Archiv. Stor., xvi, ii. p. 23، وذلك بدون ذكر عديد من الأدلة الأخرى. انظر بصفة خاصة الوثائق في ديجاردان Desjardin, op. cit., p. 127, note 1.

(٥) انظر Pii II Comment., x, p. 492.

(٦) انظر جينجينز، Gingins, Dépêches des Ambassadeurs Milanais, etc., i, pp. 26, 153, 279, 283, 285, 327, 331, 345, 359; ii, pp. 29, 37, 101, 217, 306. وقد تحدث شارل ذات مرة عن إعطاء ميلانو إلى دوق أورليانز الشاب.

(٧) انظر نيكولو ڤالوري Niccolò Valori, Vita di Lorenzo (Florence, 1568). ونشرت الترجمة الإيطالية للأصل اللاتيني أول مرة في ١٧٤٩ (وفيما بعد ذلك في جاليتّي -Galletti, Phil. Villani, Li

والفقرة المذكورة ;ber de Civit. Flor. Famosis Civibus, pp. 161-183 (Florence, 1847)
هنا في ص. ١٧١). ولا ينبغي، مع ذلك، أن يُنسى أن هذه السيرة الأبكر، والتي كتبت بعد وفاة لورنزو
بقليل، هي صورة متملقة أكثر منها أمينة، وأن الكلمات المنسوبة هنا للورنزو لم يذكرها المراسل
الفرنسي، ويمكن، في الواقع، أنها لم تُنطق قط. وكومينيس، الذي كلفه لويس الحادي عشر بالذهاب إلى
روما وفلورنسا، يقول " ;Memoires, lib. vi, chap. 5) لم أستطع أن أقدم له جيشًا، ولم يكن معي
سوى حاشيتي". (انظر رويمونت ,Cf. Reumont, Lorenzo dei Medici, i, pp. 197, 429; ii
(598 وفي خطاب من فلورنسا إلى لويس الحادي عشر نقُر (٢٣ أغسطس ١٤٧٨): "Omnis spes
A. Desjardin, Né- انظر ديجاردان nostra reposita est in favoribus suæ majestatis".
gociations Diplomatiques de la France avec la Toscane, i, p. 173 (Paris, 1859)
وبالمثل لورنزو نفسه في Kervyn de Lettenhove, Lettres et Négociations de Philippe de
Comines, i, p. 190. ولورنزو في الواقع، كما نرى، هو الذي توسل في طلب المساعدة متواضعًا،
وليس الذي رفضها متكبرًا .

(ويصر الدكتور جايجر في ملحقه أن رأى الدكتور بوركارت فيما يتعلق بسياسة لورنزو القومية الإيطالية
لا يؤيدها دليل. ولا يستطيع المترجم أن يدخل في هذه المناقشة. والأمر يستدعي برهانًا قويًا لإقناعه أن
تاريخ الدكتور بركهارت المتمكن والنافذ البصيرة كان مخطئًا في موضوع درسه بدقة وعناية شديدة.
وفي عهد كان الكذب الدبلوماسي والخيانة والغش السياسي أمرًا واقعًا وعاديًا فإن الدلائل الموثقة تفقد
كثيرًا من وزنها ولا يمكن أن تؤخذ بدون تحفظات بوصفها ممثلة للإحساس الحقيقي للأشخاص المعنيين،
الذين كانوا يتملصون ويتقلبون ويكذبون، أولاً على أحد الأطراف ثم على الطرف الآخر، بخفة حركة
تدهش أولئك المعتادين على العيش بين أقوام ينطقون الصدق دومًا. والأسناد الثقات الذين يقتبس منهم
الدكتور جايجر هم رويمونت .Reumont, Lorenzo dei Medici, 2nd ed., i, 310; ii, 450
وديجاردان ,Desjardins, Négociations Diplomatiques de la France avec la Toscane
Kervyn de Lettenhove, Letteres et Négocia- وكرفين دي ليتنهوف ,173 (Paris, 1859)
tions de Philppe de Comines, i, 180.- س.ج.ش.م. (S.G.C.M.) .

(٨) انظر فابروني .Fabroni, Laurentius Magnificus, Adnot. 205 sqq وفي واحدة من منكراته
كتب حرفيًا، "Flectere si nequeo superos, Acheronta movebo"؛ ولكن من المأمول أنه لم
يكن يقصد الأتراك. (Villari, Storia di Savonarola, ii, p. 48, of the Documenti) .

(٩) مثلاً، جوف. بونتان في كارون .Jov. Pontan. In his Charon وفي الحادثة بين أيكوس æcus
ومينوس Minus وميركوري Mercurius (Op., ed. Bas., ii, p. 1167) يقول الأول: "Vel quod
haud multis post s?culis futurum auguror, ut Italia, cujuS intestina te odia male
habent, Minos, in unius redacta ditionem resumat imperii majestatem" . وكرد على
تحذير ميركوري ضد الأتراك، يجيب إيكوس: "-Quamquam timenda hæc sunt, tamen si vet
era respicimus, non ab Asia aut Græcia, verum a Gallis Germanisque timendum
Italiæ semper fuit".

(١٠) انظر كومينيس، Comines, Charles VIII, chap. 7. ويحكي نانتيبورتو Nantiporto, in Murat., iii, ii, col. 1073 كيف حاول ألفونسو مرة خلال فترة الحرب أن يقبض على معارضيه أثناء مؤتمر. وكان خلفًا أصيلاً حقيقيًا لسيزار بورجيا.

(١١) انظر Pii II Comment., x, p. 492. انظر خطابًا لالاتيستا يوصي فيه لمحمد الثاني بمصور للوجوه، وهو ماتيو دي باستي Mattio de' Pasti من فيرونا، ويعلن عن إرساله كتابًا عن فن الحرب، في الراجح في ١٤٦٣، في Baluz., Miscell., iii, 113. وما قاله جالياتزو ماريا من ميلانو في ١٤٦٧ لمبعوث بندقي– وهو أنه هو وحلفاؤه سينضمون للأتراك للقضاء على البندقية– قيل فقط بهدف التهديد. انظر ماليبييرو Cf. Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 222. وعن بوكالينو انظر الفصل الثالث، القسم الأول.

(١٢) انظر بورزيو Porzio, Gongiura dei Baroni, lib. i, p. 5. وليس جديرًا بالتصديق أن لورنزو، كما يلمّح بورزيو، كان له يد فيها بالفعل. وأثبت م. بروش M. Brosch, Julius II, pp. 17-20، بطريقة قاطعة أن البندقية حثت السلطان على هذا الفعل. انظر رومانين Romanin, Storia Documentata de Venezia, lib. xi, cap. 3. وبعد أن سقطت أوترانتو نطق فيسبازيانو بيستيتشي نواحه على إيطاليا في عمله: Vespasiano Bisticci, Lamento d' Italia, Archi. Stor. Ital., iv, pp. 452 sqq ..

(١٣) انظر Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 14 and 76 .

(١٤) انظر ماليبيرو، بالموضع المذكور Malipiero, loc. cit., pp. 565, 568 .

(١٥) انظر تريتهيم، عن عام ١٤٩٠ Trithem., Annales Hirsaug., tom. ii, pp. 535 sqq. For the year 1490 .

(١٦) انظر ماليبيرو، بالموضع المذكور Malipiero, loc. cit., pp. 161; cf. p. 152. وعن استسلام الأمير جم لشارل الثامن انظر ص. ١٤٥، التي يتضح منها أن علاقة مخزية كانت موجودة بين إسكندر وبيازيد، حتى لو كانت المستندات في بوركاردوس Burcardus مزورة. ولكن لطلب برهان على أصالتها انظر رانكه Ranke, Zur Kritik .. وانظر عن الموضوع Zeitsch. f. Kirchengesch., v, pp. 511 sqq neuerer Geschichtschreiber, p. 99 (2 Auflage, Leipzig, 1874)، وجريجوروفيوس Gregorovius, Bd. vii, 353, note 1. وعن إعلان البابا بانه لم يكن متحالفًا مع الأتراك . انظر المصدر نفسه Ibid., p. 353, note 2.

(١٧) انظر بابت. مانتوانوس Bapt. Mantuanus, De Calamitatibus Temporum، في نهاية الكتاب الثاني، في أغنية نيريد دوريس Nereid Doris للأسطول التركي.

(١٨) انظر توماسّو جار Tomasso Gar, Relaz. Della Corte di Roma, i, p. 55.

(١٩) انظر رانكه Ranke, Geschichte der romanischen und germanischen Völker . ورأى ميشليه Michelet (Réforme, p. 467)، أن الأتراك كانوا سيتبعون الحضارة الغربية في إيطاليا، لا يرضيني. ويتم التلميح إلى مهمة إسبانيا، ربما للمرة الأولى، في الخطبة التي ألقاها فيدرا إنجرامي Fedra Inghirami في ١٥١٠ أمام يوليوس الثاني، في الاحتفال بالاستيلاء على بوجيا Bugia على يد أسطول فرديناند الكاثوليكي. انظر Anecdota Litteraria, ii, p. 149.

(٢٠) ومن بين كثيرين كوريو .Corio, fol. 333 و جوف. بونتان. .Jov. Pontan في بحثه -De Liberali tate, cap. 28، يعد الطرد غير المقيد لالفونسو برهانًا على لبرالية liberalitas فيليبو ماريا. (انظر أعلاه، هامش ٦، الفصل الخامس، القسم الأول). انظر أيضًا طريقة التصرف المتخذة فيما يتعلق بسفورزا، fol. 329 .

(٢١) نظر نيك. فالوري Nic. Valori, Vita di Lorenzo؛ وباول. جوفيوس Paul. Jovius, Vita Leonis X, lib. i.. والأخير بالتأكيد معتمداً على رأى خبير ثقة، بالرغم من أنه ليس خاليًا من الزخرفة البيانية. انظر أيضًا كونتي Cf. Conti, I, 89 حيث يقول ما نصه: "Laurentius enim, sive prius fide a rege data, sive in necessaria consilium periculosum secutus, quod plerumque fides habita fidem obligat". انظر أيضًا لاندوتشي ..Landucci. pp. 33 sqq وانظر أيضًا رويمونت Cf. Reumont, i, 487، والفقرة المقتبسة هناك.

(٢٢) إذا كان كومينيس، في هذه وغيرها من المناسبات، يراقب ويحكم بموضوعية كأي إيطالي، فإن اختلاطه بالإيطاليين، وبخاصة بأنجلو كاتّو Angelo Catto، يجب أن يؤخذ في الاعتبار.

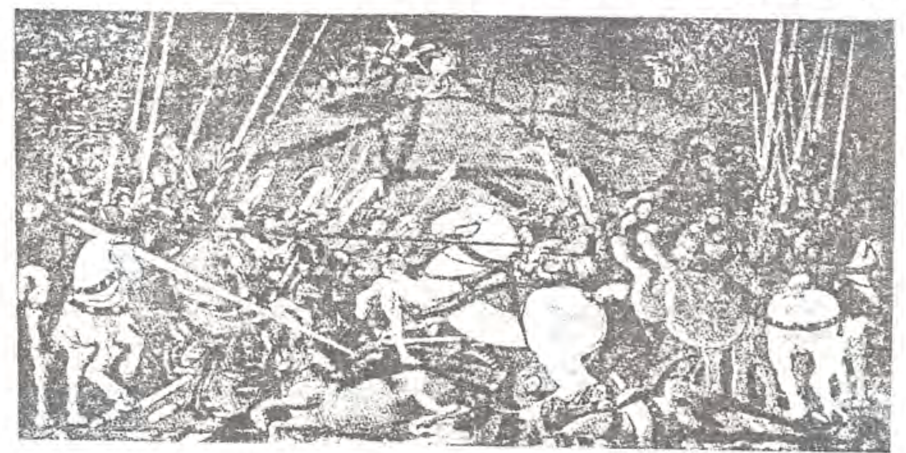
(٢٣) انظر، مثلاً، ماليبييرو Malipiero, pp. 216, 221, 236, 237, 468, etc، وانظر أعلاه هامش ٢، وهامش ١١ في نفس هذا الفصل. انظر أيضاً إغناطيوس .Cf. Egnatius, fol. 321a البابا يلعن سفيراً؛ ومبعوث بندقي يهين البابا؛ وآخر، لكي يكسب آذان سامعيه، يحكي خرافة.

(٢٤) في فيللاري Villari, Storia di Savonarola, vol. ii, p. xliii of the Documenti عن الوثائق Documenti، التي من بينها يُعثر على رسائل سياسية هامة أخرى. وتوجد وثائق أخرى، وبخاصة عن نهاية القرن الخامس عشر في بالوزيوس ..Baluzius, Miscellanea, ed. Mansi, vol. i وانظر بوجه خاص الرسائل الرسمية المجموعة عن السفراء الفلورنسيين والبنادقة عند نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر في ديجاردان Desjardins, Négociations Diplomatiques de la France avec la Toscane, vols. i and ii (Paris, 1859, 1861) .

الفصل التاسع

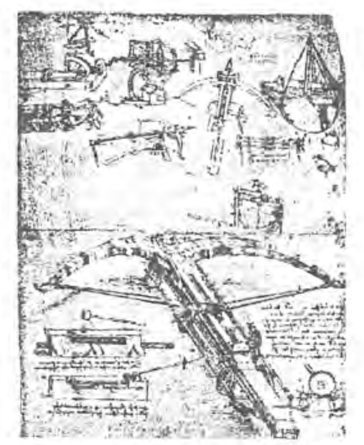
الحرب كعمل فنى

ينبغى أن نوضح هاهنا بإيجاز الخطوات التى اتخذ بها فن الحرب صفة نتاج فكرى[1] . ففى كل أرجاء بلاد الغرب كان تعليم الجندى الفرد فى العصور الوسطى متصفًا بالكمال فى نطاق حدود النظام السائد آنذاك للدفاع والهجوم؛ كما أنه لم يكن هناك عوز لأى مخترع حاذق فى فنون الحصار والتحصين. على أن تطور كل من فن الاستراتيچية (الإعداد للحرب) والتكتيك (مزاولة القتال) كان يعوقه طابع وامتداد الخدمة العسكرية ومطامع النبلاء، الذين يتنازعون على مسائل الأسبقية فى وجه العدو، كما تسبب، نتيجة للافتقار البسيط إلى النظام والانضباط، فى خسران معارك كبيرة، كمعركة كريسى Crecy وموبيرتويس Maupertuis



شكل (٥٢) مسرح حرب
لباولو أوتشيللو
فلورنسا، أوفيزى

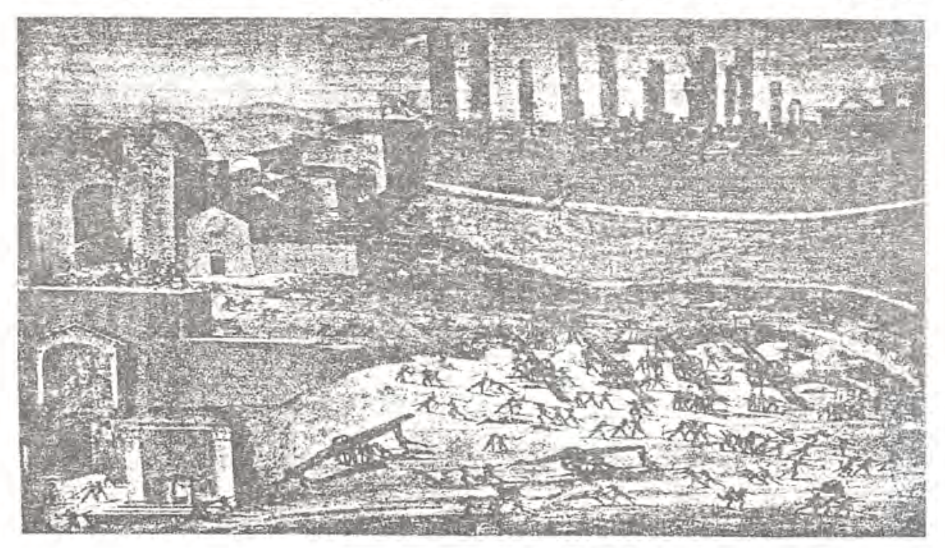
فأما إيطاليا فكانت، على عكس ذلك، أول بلد تتبنى نظام الجند المرتزقة، الذى كان يتطلب تنظيماً مختلفاً اختلافاً تاماً؛ كما أن إدخال الأسلحة النارية منذ أمد مبكر قام بنصيبه فى جعل الحرب عملية ديمقراطية، ليس فقط لأن أقوى القلاع وأشدها منعة أصبحت غير قادرة على الصمود حيال ضربات المدفعية، بل لأن مهارة المهندس وعامل صب المدافع والمدفعى- وهم رجال ينتمون إلى طبقة أخرى غير طبقة النبلاء- أصبحت اليوم فى الدرجة الأولى من الأهمية فى أى حملة عسكرية. وأحس الناس فى شئ من الأسف أن قيمة الفرد، التى كانت بمنزلة الروح من كوكبات المرتزقة الصغيرة المنظمة تنظيماً مسترعياً للإعجاب، لابد أن تكابد العناء على يد وسائل التدمير الجديدة هذه، التى كانت تقوم بعملها عن بُعد؛ وكان هناك قادة مرتزقة **condottiere** يعارضون إلى أقصى حد إدخال القرابينة (البندقية الطويلة الماسورة) على الأقل، وهى التى كانت قد اخترعت فى ألمانيا فى الآونة الأخيرة[٢]. ونحن نقرأ أن باولو فيتيللى[٣]، وإن اعترف بالمدفع وتبنى بنفسه استخدامه، سمل أعين أسراه من الأعداء **schioppettieris** وقطع أيديهم، لأنه رأى أنه لا يليق بفارس شهم، وربما نبيل أيضاً، أن يجرحه ويحط من قدره جندى مشاة عادى محتقر.



شكل (٥٣) رسومات تخطيطية لأسلحة حرب
لليوناردو دافنشى
كوديكس أتلانتيكوس

على أن المكتشفات الجديدة لقيت القبول إجمالاً واستخدمت استخداماً صالحاً، حتى جاء يوم أصبح فيه الإيطاليون هم المعلمين لأوروبا بأسرها، في كل من بناء التحصينات ووسائل مهاجمتها[٤]. واكتسب أمراء مثل فيديريجو من أوربينو وألفونسو من فيرارا قدرة أستاذية في هذا الموضوع ، لو قورنت إليها معرفة ماكسيميليان الأول لبدت سطحية. وفي إيطاليا، في زمن أبكر منه في أي مكان آخر، وجد علم وفن شامل للشئون العسكرية؛ فهنا، ولأول مرة، أحس الناس بشعور غير متحيز من الابتهاج بالقيادة المقتدرة من أجل ذاتها هي، وهو أمر يمكن توقعه حقًا من كثرة تغيير الحزب الحاكم ومن طريقة العمل الخالية تماماً من كل عاطفة لدى قادة المرتزقة condottieri. وفي أثناء حرب ميلانو-البندقية في ١٤٥١ و ١٤٥٢، بين فرانشسكو سفورزا وچاكوبو بتشينينو، كان يحضر إلى مركز القيادة العليا للأخير منهما العالم جيان أنتونيو بورتشللو دي باندوني، الذي كلفه ألفونسو من نابولي أن يكتب تقريراً عن الحملة[٥]. وهو تقرير مكتوب لا بأرقى لغه لاتينيه، بل بلاتينيه فياضه، وهي شئ يتجاوز قليلاً أسلوب الكلام الطنان المنمق للإنسانيين في ذلك الزمان، وهو يحذو حذو تعليقات قيصر Commentaries ، كما أنه تنتثر فيه هنا وهناك الخطب والأعاجيب وما إليها. ونظراً لأنه جرى في السنوات المئة الأخيرة نزاع خطير حول أيهما أعظم: سكيبيو الأفريقي Scipio Africanus أم هانيبال[٦]، فإن بتشينينو في كل أرجاء الكتاب ينبغي أن يُسمى سكيبيو وأن يُسمى سفورزا باسم هانيبال. على أنه لم يكن بدٌ من أن يحوى التقرير شيئًا إيجابيًا أيضًا يتعلق بالجيش الميلاني؛ وهكذا قدم السفسطائي نفسه إلى سفورزا، واقتيد بين صفوف الجند، فأثنى الثناء الجميل على كل ما شهد، ووعد بأن يسلم ثناءه إلى الذرية[٧]. وبغض النظر عنه فإن الأدب الإيطالي في ذلك الأوان ثريٌ بما حوى من أوصاف الحروب والوسائل الإستراتيجية المدبرة لها، وقد كُتب لمنفعة المتعلمين من الرجال عامة فضلاً عن المتخصصين، بينما السرود المسطرة المعاصرة لدى أهل الشمال، مثل "الحروب البرجاندية" Burgandian Wars الذي وضعه ديبولد شيلينج Diebold Schilling، لا تزال تحتفظ بسمة انعدام الشكل والواقعية والجفاف الذي عليه مدونات الأخبار البحتة. وكان أعظم من يهوى الفنون dilettante ممن خاضوا قط في

هذا الطابع[٨] للشئون العسكرية مشغولاً آنذاك بكتابة كتابه "فنون الحرب" Arte della Guerra . بيد أن تطور الجندى الفرد لقى أتم أنواع التعبير عنه فى هذه الصراعات العامة الجادة بين زوجين أو أكثر من المتقاتلين التى كانت تُمارس قبل تحدى بارليتا الشهير[٩] Challenge of Barletta (1503) بأمد طويل. وكان المنتصر مطمئنًا تمامًا إلى تلقى مدائح الشعراء والفلاسفة، التى كان يُضن بها على محارب الشمال. ولم تَعد نتيجة هذه النزالات تُعد حكمًا إلهيًا، بل انتصاراً للجدارة الشخصية، كما أنها كانت تبدو لعين المشاهدين وعقولهم حسمًا لمنافسة مثيرة وإرضاء لشرف الجيش أو الأمة[١٠].



شكل (٥٤). المعركة أمام باب كاموليا، سيينا (١٥٢٦)

لجيوفانى تشيتى

سيينا، محفوظات الدولة

تصوير أليناري

ومن الواضح أن هذه المعالجة العقلانية البحتة للشئون الحربية كانت تسمح، تحت ظروف معينة، بوجود أسوأ أنواع الفظائع، حتى فى حالة عدم وجود كراهية سياسية قوية، وذلك، على سبيل المثال، كما يحدث عندما يُوعد الجند بنهب مدينة من المدن. فبعد

انتهاب بياتشينتزا، الذى دام أربعة أيام ، والذى اضطر سفورزا أن يسمح به لجنده (١٤٤٧)، ظلت المدينة طويلاً خالية من الناس، وفى نهاية الأمر كان لابد أن تُملأ بالسكان قسرًا[11]. على أن انتهاكات من هذا القبيل لا بعد شيئًا يذكر بالموازنة إلى الشقاء الذى أنزل فيما بعد بإيطاليا على يد الجنود الأجانب، وعلى يد الإسبان خاصة على أشد وجه، وهم الذين لعل لمسات من الدم الشرقى تسرى فى عروقهم، أو لعل إلفهم بمشاهد محكمة التفتيش أطلق فيهم العنان للعنصر الشيطانى فى الطبيعة البشرية. فبعد مشاهدتهم وهم يعملون فى براتو وروما وبعض الأماكن الأخرى لا يعود من السهل الاهتمام بالعنصر الأعلى فى فرديناند الكاثوليكى وشارل الخامس، اللذين كانا يعرفان صفة هذه الجموع، ومع ذلك لم يقدما على كبح جماحهم. وستظل مجاميع الوثائق، التى تخرج إلى النور على التدريج من خزانات هؤلاء الحكام على الدوام مصدرًا مُهمًّا للمعلومات التاريخية؛ على أن رجالاً من هذا الطراز لا يمكن أن يُتوقع لديهم أى فكرة أو تصور سياسى مثمر



شكل (٥٥) : معركة كادورى

لتيتيان، على نسق الحفر الخشبى لمونتانا

هوامش الفصل التاسع - القسم الأول

(١) وقد تناول هذا الموضوع بتفصيل أكبر ماكس يانز Max Jöns، في كتابه Die Kriegskunst als .. Kunst (Leipzig, 1874)

(٢) انظر Pii II Comment., iv, p. 190، لعام ١٤٥٩.

(٣) وقد تفاخر الكريمونيون بمهارتهم في هذا المجال. أنظر Cronoca di Cremona in the Bibliotheca Historia Italica, vol. i, p. 214, and note (Milan, 1876). وقد فعل البنادقة نفس الشئ: Eg . (natius, fol. 300 sqq.)

(٤) ولهذا المعنى بول. جوفيوس Paul. Jovius (Elogia, p. 184)، الذي يضيف: "Nondum enim in-vecto externarum gentium cruento more, Italiæ milites sanguinarii et multæ cædis avidi esse didicerant". وهذا يذكرنا بفيديريجو من أوربينو، الذي كان كان "يخجل" أن يرى كتاباً مطبوعاً في مكتبته. أنظر فيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent .

(٥) انظر .. Porcelli Commentaria Jac. Piccinini, in Murat., xx وعن استمرار حرب ١٤٥٢، انظر نفس المصدر، .xxv وينتقد بول كورتيسيوس Paul Cortesius (De Hominibus Doctis, p. 33, Florence, 1734)، الكتاب بشدة بسبب الأشعار الرديئة ذات الستة مقاطع.

(٦) ويطلق بورتشيللو Porcello على سكيبيو Scipio اسم "إميليانوس "Æmilianus" عن طريق الغلط، ويعني بذلك Africanus Major (الأفريقي الأكبر).

(٧) انظر سيمونيتّا، .Simonetta, Hist. Fr. Sforti?, in Murat., xxi, col. 630

(٨) وقد كان يُعتبر كذلك فعلاً. .Cf. Bandello, i, Nov. 40

(٩) انظر، مثلاً، De Obsidione Tiphernatium، المجلد الثاني vol.2 من Rer. Italic. Scriptores ex Codd. Florent., col.690. والمبارزة بين مارشال بوتشيكولت Marshal Boucicault مع جالياتزو جونزاجا (١٤٠٦) في كانيولا، .Cagnola, Avchiv, Stor., iii, p. 25 ويخبرنا أنفيسّورا عن الشرف الذي أسبغه سيكستوس الرابع على المتبارزين من حرسه. فأما خلفاؤه فقد أصدروا القرارات بتحريم المبارزة. .Sept. Decret., v, Tit. 17

(١٠) وربما يمكننا هنا ملاحظة (انظر يانز Jöns، صفحة ٢٦ وما بعدها) الجانب الأقل مناسبة لتكتيكات قواد المرتزقة .condottieri فكانت المعركة مجرد قتال زائف، يتم فيها إجبار العدو على الانسحاب بمناورات. وكان هدف المتقاتلين هو تجنب سفك الدماء، وعلى الأسوأ أخذ الأسرى متطلعين إلى الفدية. وحسبما ذكر مكيافيللي فإن الفلورنسيين خسروا رجلاً واحداً فقط في معركة كبرى في ١٤٤٠

(١١) عن التفاصيل انظر .Avchiv. Stor., App., tom. v .

١

الفصل العاشر

البابوية وأخطارها

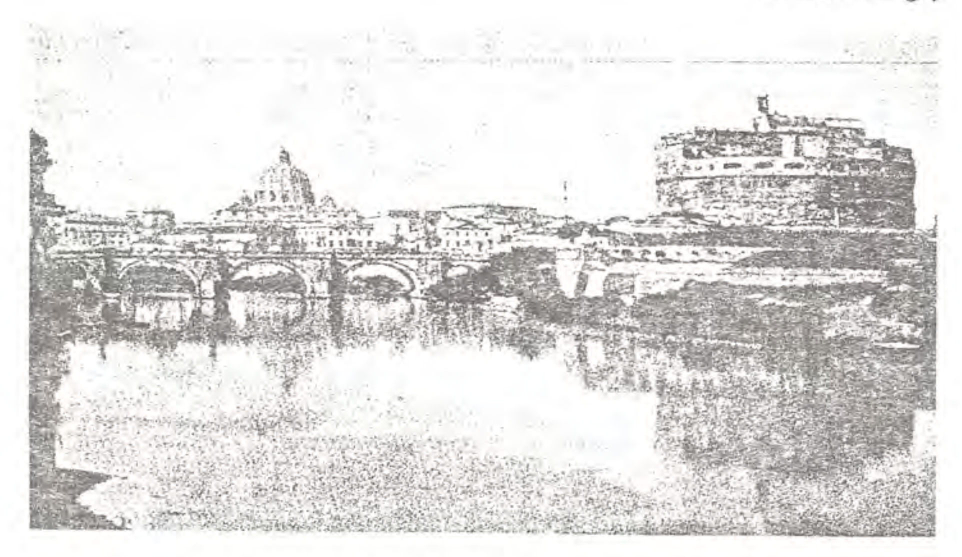
إن البابوية وسيطرة الكنيسة[1] مخلوقان مستحدثان من نوع خاص جداً حتى لقد عمدنا حتى الآن، فى ثنايا تحديدنا للخصائص المميزة للدول الإيطالية، إلى عدم الإشارة إليهما إلا بصورة عرضية وحسب. وغنى عن البيان أن الاختيار المتعمد والتطويع المقصود للوسائل السياسية، اللذين يضفيان أهمية كبرى على الدول الأخرى، هو الشئ الذى نجده على أضأل صورة فى روما، وذلك لأنه كان فى مستطاع السلطة الروحية هنا أن تخفى على الدوام عيوب السلطة الدنيوية ونقائصها أو تتولى تزويدها. ويا لها من محن وتجارب نارية تلك التى مرت بها هذه الدولة فى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر، يوم اقتيدت البابوية أسيرة إلى أفينيون! وفى بداية الأمر، ألقى كل شئ بين براثن الفوضى والارتباك؛ ولكن البابا كان يملك المال والجنود وكان لديه رجل دولة وتدبير وقائداً عظيماً هو ألبورنوز Albornoz الإسبانى، وهو الرجل الذى رد الدولة الكنسية إلى جادة الخضوع التام مرة أخرى. على أن خطر الانحلال النهائى كان ما يزال أعظم وأفدح فى عهد الصدع أو الانقسام، يوم لم يكن بابا روما ولا البابا الفرنسى من الثراء بدرجة كافية لإعادة فتح الدولة التى فُقدت حديثًا؛ ولكن ذلك تم فى عهد البابا مارتن الخامس، بعد إعادة توحيد الكنيسة، كما تم ثانية تحت يوچينيوس الرابع، عندما تجدد الخطر نفسه للمرة الثانية. ولكن الدولة الكنسية كانت بل ظلت دوماً نقطة شذوذ تماماً بين قوى (دول) إيطاليا؛ فإن البابوية كانت تواجه بالتحدى فى داخل روما نفسها وبالقرب منها من العائلات العظيمة: كولونا Colonna وأورسينى Orsini

وساڤيللى Savelli وأنجويللارا Anguillara؛ وفى أومبريا Umbria ، وفى مناطق التخوم ورومانيا Romagna، أضحت تلك الجمهوريات المدنية الحضرية، التى أبدت نحوها البابوية أضأل قدر من شكران الجميل إزاء إخلاصها، غير موجودة تماماً أو تكاد؛ إذ حلت فى مكانها جمهرة من أسرات الأمراء الكبيرة والصغيرة التى لم يكن ولاؤها ولا طاعتها تقدم أو تؤخر. فإنها بوصفها دولاً مستقلة، تقوم قائمتها على جدارتها الخاصة، فإنها كانت لها مصلحة خاصة تلزمها؛ ومن وجهة النظر هذه تم حتى الآن بحث أهمها شأناً (انظر الفصل الرابع والخامس، القسم الأول).

ومع هذا فلن يسعنا الاستغناء عن بضع ملحوظات عامة عن البابوية. فإن أخطاراً ومحناً جديدة وعجيبة أحدقت بها إبان القرن الخامس عشر، بينما شرعت الروح السياسية للأمة أن تضع يدها عليها من جوانب مختلفة وأن تجذبها داخل فلك عملها. وكان أدنى هذه الأخطار شأناً هو من السكان أو الخارج؛ وجاء أخطرها من شخصيات وأخلاق الباباوات أنفسهم.

فلنصرف النظر، إلى حين، عن الأقطار الخارجة عن نطاق جبال الألب. ففى الوقت الذى كانت البابوية معرضة فيه لخطر قتَّال فى إيطاليا لم تتلق ولا كان فى إمكانها أن تتلقى أهون مساعدة لا من فرنسا، التى كانت آنذاك تحت حكم لويس الحادى عشر، ولا من انجلترا، التى كانت تمزقها حروب الوردتين، ولا من الملكية الإسبانية المختلة آنذاك، ولا من جرمانيا (ألمانيا)، التى لم تكد تفيق من الخيانة الأخيرة التى تخلى بها عنها مجلس بازل. وفى إيطاليا نفسها كان هناك عدد من الناس المتعلمين بل حتى غير المتعلمين الذين كان كبرياؤهم القومى يتملقه ويشبع غروره الطابع الإيطالى للبابوية؛ فإن المصلحة الشخصية للعدد الغفير الكثير كانت تتوقف على تملكها (أعنى البابوية) لذلك الطابع والاحتفاظ به؛ كما أن جماهير ضخمة غفيرة من الشعب كانت لا تزال تؤمن بفضيلة البركة البابوية والتكرس الدينى البابوى[٢]؛ وفيهم بعض الأئمة المعتدين سيئى السيرة مثل ڤيتيللوتزو ڤيتيللى Vitellozzo Vitelli الذى ما زال يرجو ويتوسل أن يحله إسكندر السادس من آثامه عندما أمر ابن البابا به فذبح[٣]. على أن كل أسباب

التعاطف هذه مجتمعة ما كانت لتكفى لإنقاذ البابوية من أعدائها لو أنهم كانوا جادين حقًا، ولو أنهم عرفوا كيف يستفيدون من الحسد والكراهية التى كان الناس ينظرون بها إلى تلك المؤسسة.



شكل (٥٦). قلعة القديس أنجلو وكنيسة القديس بطرس، روما

وفى نفس الحين الذى كان فيه احتمال العون من الخارج ضئيلاً جداً برزت أشد الأعراض خطورة فى جسم البابوية نفسه. فالبابوية، إذ كانت تعيش على الصورة التى عاشت بها آنذاك، وتتصرف بروح الإمارات الدنيوية الإيطالية، كانت مضطرة أن تخوض عين التجارب والأعمال القاتمة التى كانت تلك الإمارات تخوضها؛ بيد أن طبيعتها الاستثنائية الخاصة أضفت لوناً خاصاً على الظلال.

وفيما يتعلق بمدينة روما نفسها، لم يكن أحد يعير اهتماماً كبيراً لاضطراباتها، فما أكثر عدد الباباوات الذين عادوا بعد أن طردهم العصيان الشعبى، وما أعظم الفائدة التى أداها وجود قسيس الإدارة البابوية لمصلحة شعب روما. بيد أن روما لم تبد وحسب فى بعض الأوقات نزعة محافظة راديكالية مضادة للبابوية[٤] واضحة فعالة،

ولكنها أيضًا قدمت الدليل حتى فى أشد المؤامرات التى حيكت خطورة على وجود أيد خفية من خارج المدينة. وكان ذلك هو الوضع فى المؤامرة التى دبرها استيفانو بوركارو Stefano Porcaro ضد نيقولا الخامس (١٤٥٣)، وهو البابا عينه الذى بذل جهودًا ضخمة من أجل رغد المدينة ورخائها، ولكنه أثار تذمر الشعب بملئه جيوب الكرادلة بالثراء وتحويله روما إلى قلعة بابوية[٥]. وكان هدف بوركارو هو القضاء على السلطة البابوية قضاء تامًا، كما انضم إليه شركاء من علية الرجال المتفوقين. الذين، وإن لم تصل أسماؤهم إلينا[٦]، فإنه يمكن البحث عنهم بكل تأكيد بين رجال الحكومات الإيطالية فى ذلك الزمان[٧]. وفى ظل حكم ذلك الحبر نفسه، اختتم لورنزو ڤاللا Lorenzo Valla خطابه الشهير المندد بهبة قسطنطين، بإعلان الرغبة فى تحويل ولايات الكنيسة سريعًا إلى الطابع الدنيوى[٨].

وأعلنت العصابة الكاتيلينارية، التى اضطر بيوس الثانى أن يناضل وإياها[٩] (١٤٦٠)، بنفس الصراحة عزمها الأكيد على خلع حكومة القساوسة، كما أن زعيمها، تيبورتزيو Tiborzio، أنحى باللائمة على العرافين، الذين حددوا تلك السنة نفسها موعدًا لإنجاز رغباته. وكان كثير من كبار رجال روما، مثل أمير تارينتوم، وقائد المرتزقة جاكوبو بتشينينى، شركاء ومؤيدين لتيبورتزيو. والحق إننا عندما نفكر فى الأسلاب والغنائم التى تكدست فى قصور أثرياء القصاد الرسوليين- وقد ركز المتآمرون أنظارهم على كاردينال أكويليا Aquileia بوجه خاص- لندهش من أنه فى مدينة كهذه تكاد تكون خالية من الحراسة، لم تكن مثل هذه المحاولات أكثر من هذا عددًا ولا أكثر نجاحًا. ولعل من الواضح تمامًا لماذا كان بيوس الثانى يفضل الاقامة فى أى مكان آخر عدا روما؛ بل إن البابا بولس الثانى[١٠] تعرض لقدر غير قليل من القلق بسبب مؤامرة دبرها بعض المتولين عملية الاختزال المطرودين من الخدمة، الذين قاموا تحت إمرة بلاتينا Platina بمحاصرة الفاتيكان لمدة عشرين يومًا. ولم يكن مفر للبابوية إن عاجلاً أو آجلاً من أن تقع فريسة لمثل هذه المغامرات، إن هى لم تخمد أنفاس الأحزاب الأرستقراطية، الذين نمت هذه العصابات من اللصوص بظل حمايتهم نموًا كبيرًا.



شكل (٥٧). القديس فرانسيس يعظ أمام هونوريوس الثالث

مدرسة جيوتو

جزء من اللوحة الجصية لكنيسة القديس فرانشسكو العليا، اسيسى

تصوير أليناري

وقد أتم هذه المهمة البابا سيكستوس الرابع الرهيب. فكان أول بابا وضع روما وما حولها تحت سيطرته تماماً، وخاصة بعد هجومه المظفر على آل كولونا، فتم له تبعاً لذلك بكل من سياسته الإيطالية والشئون الداخلية للكنيسة، الإقدام على التصرف بجراة المتحدى، وقضى تماماً على الشكاوى والتهديدات بعقد مجلس يتجمع من كل أرجاء أوروبا. فزود نفسه بالأرصدة المالية الضرورية عن طريق بيع المناصب الكهنوتية، التى زادت زيادة فجائية بنسب لم يسمع الناس بمثلها من قبل، والتى امتدت من تعيين الكرادلة فنازلاً إلى منح الأفراد أتفه أنواع التعطف[١١]. والحق إن سيكستوس نفسه لم يصل إلى السدة البابوية إلا باستخدام الوسيلة نفسها.

ولا شك أن فساداً وولساً على هذه الدرجة من الشيوع والانتشار ربما جلب على الكرسي المقدس عواقب وخيمة مدمرة إن عاجلاً أو آجلاً، ولكن تلك العواقب كانت تكمن في المستقبل المحفوف بالشكوك. وكان الوضع بخلاف ذلك تماماً في حالة إيثار الأقارب بالوظائف ، وهي الحالة التي هددت ذات لحظة بالقضاء على البابوية قضاء مبرماً. وكان الكاردينال بييترو رياريو Pietro Riario، من بين جميع الأقارب (المحاسيب nipoti) الذين حظوا بالوظائف السامية، يستمتع في البداية بالعطف الأكبر والتأييد المطلق أو يكاد من البابا سيكستوس. وسرعان ما اجتذب إليه أنظار إيطاليا بأجمعها[١٢]، وكان ذلك من ناحية بسبب الترف الخرافي الذي ران على حياته، ومن ناحية أخرى بسبب الأقاويل التي شاعت عن عدم تدينه وعن خططه السياسية. فعقد صفقة مع الدوق جالياتزو ماريا Galeazzo Maria من ميلانو (١٤٧٢) يتعين بمقتضاها أن يصبح الأخير ملكاً على لومبارديا ثم يعاونه بعد ذلك بالمال والجنود في العودة إلى روما وارتقاء العرش البابوي؛ ويبدو أن سيكستوس كان ليتنازل له عنه راضياً متطوعاً[١٣]. غير أن هذه الخطة، التي كانت لتنتهي إلى تحويل الدولة البابوية إلى الطابع الدنيوي عن طريق تحويل البابوية إلى وراثية، فشلت بسبب وفاة بييترو فجأة. وظل جيرولامو رياريو Girolamo Riario المحسوب والقريب الثاني nipote المخصوص بالوظائف السامية محتفظاً بصفته الدنيوية، ولم يسع للحصول على وظيفة البابا. ومنذ ذلك الحين أصبحت طبقة الأقارب المحاسيب nipoti عن طريق تأسيسها للإمارات لنفسها، مصدراً جديداً للمتاعب والارتباك في إيطاليا. إذ حدث فعلاً أن البابوات حاولوا أن يضفوا الصحة على مدعياتهم الإقطاعية في حكم نابولي إيثاراً لمصلحة ذوي قرباهم[١٤]؛ على أنه منذ أن أخفق كاليكستوس Calixtus الثالث في مسعاه لم تعد هذه الخطة عملية قابلة للتنفيذ، كما أن جيرولامو رياريو، بعد أن أخفقت محاولته غزو فلورنسا (ومن يدري كم من مكان آخر حاول فيه؟)، اضطر أن يقنع بتأسيس ولاية داخل ممتلكات البابوية نفسها. وكان ذلك وضعاً يمكن تبريره بقدر ما كانت رومانيا Romagna، بكل ما حوت من أمراء ومستبدين على مدن، تهدد بأن تخلع عن عاتقها السيادة البابوية خلعاً لا رجعة فيه، وبذلك تعرضت لخطر الوقوع فريسة بين براثن سفورزا أو البنادقة،

عندما تدخلت روما لمنع الانفصال. ولكن من ذا كان يستطيع، فى أوقات وظروف كهذه، أن يضمن استمرار طاعة المحاسيب nipoti المعينين فى الوظائف السامية وورثتهم، وقد تحولوا الآن إلى حكام ذوى ولايات، لباباوات لم يكن لهم بهم أى علاقة مستقبلة؟ إن البابا لم يكن حتى فى مدة حياته متأكداً من ولاء ابنه أو ابن أخيه، وكان الإغراء قوياً يدفع إلى طرد محاسيب وأقارب بابا سابق واستبدالهم بآخرين تابعين له. وكان رد فعل ذلك النظام بأجمعه على البابوية بالغ الخطورة؛ واستخدمت جميع وسائل القهر، دنيوية كانت أم روحية، دون أى رادع من خلق سعياً للوصول إلى غايات مشبوهة إلى أقصى حد، وأخضعت لهذه الغايات جميع الأهداف الأخرى للكرسى البابوى. وعندما كان يتم بلوغ تلك الغايات، مهما بلغ ثمنها من ثورات وحرمانات من حماية القانون، تأسست أسرة حاكمة لم يكن لها من مصلحة أقوى من القضاء على البابوية



شكل (٥٨) اسكندر السادس

جزء من اللوحة الجصية "قيامة المسيح"، لبينتوريكيو

الفاتيكان، روما

تصوير أندرسون، روما

وعند وفاة سيكستوس استطاع جيرولامو تمكين نفسه من إمارته المغتصبة فورلي وإيمولا Forli and Imola، ولم يكن ذلك إلا ببذل أقصى ما أوتي من قوة وبمساعدة أسرة سفورزا. على أنه اغتيل في ١٤٨٨. وحدثت في اجتماع الكرادلة لانتخاب البابا (١٤٨٤) الذي أعقب وفاة سيكستوس- وهو الذي انتخب فيه إنوسنت الثامن- حادثة بدت كأنما زودت البابوية بضمان خارجي جديد. إذ أقدم اثنان من الكرادلة، كانا، في الحين نفسه، أميرين من أمراء البيوت الحاكمة، وهما چيوفاني داراجونا Giovanni d'Aragona ابن الملك فيرانتي، وأسكانيو سفورزا Ascanio Sforza شقيق المغربي، على بيع صوتيهما بكل وقاحة لا يداخلها خزي[١٥]؛ وبهذا حدث أن بيتي نابولي وميلانو الحاكمين أصبحت لهما، على كل حال، مصلحة تهمهما، بفضل اشتراكهما في الغنيمة، هي استمرار النظام البابوي. وحدث للمرة الثانية، في مجلس الكرادلة التالي المجتمع لانتخاب البابا، يوم باع جميع الكرادلة أنفسهم إلا خمسة، أن أسكانيو تلقى مبالغ هائلة من المال على سبيل الرشى، دون أن يخلو صدره من رجاء يداعبه بأن يكون هو المرشح المحظوظ في الانتخاب التالي[١٦].

وكان لورنزو الفاخر من ناحيته مشغولاً بألا يخرج بيت مديتشي خاوي اليدين، فزوج ابنته مادّالينا Maddalena من ابن البابا الجديد- وهو أول بابا اعترف بأطفاله- فرانشيسكيتو تشيبو Francesco Cybo، وكان يؤمل لا في الحصول فقط على المزايا والإكراميات بجميع أنواعها لولده الكاردينال چيوفاني، الذي أصبح فيما بعد ليو العاشر، بل وأيضًا الحصول على الترقية السريعة لزوج ابنته[١٧]. إلا أنه طالب فيما يتعلق بالأخير بالمستحيل. ففي عهد إنوسنت الثامن لم تعد هناك فرصة للمحسوبيات الوقاح التي كانت تُؤسس بمقتضاها الولايات، وذلك نظرًا لأن فرانشيسكيتو نفسه كان شخصية هزيلة مسكينة مثل أبيه البابا، ولم يكن يطلب السلطان إلا التماسًا لأحط الأغراض- هو احتياز الأموال وتكديسها[١٨]. ومع هذا، فلا بد أن الأسلوب الذي مارس به الوالد وولده هذه العملية قد أدى إن عاجلاً أو آجلاً إلى نكبة نهائية- هي تفكك الدولة. فلئن كان سكستوس ملأ خزائنه مرتكزًا إلى كرامات وتعاطفات روحية،

فإن إنوسنت وابنه، من جانبهما، أسسا منصبًا لبيع التعطفات الدنيوية، كانت تباع لديه صكوك العفو عن الاغتيال وقتل الأنفس عن غير عمد بمبالغ ضخمة من المال. ومن كل غرامة تُجبى كانت مئة وخمسون دوقية تدفع لخزانة البابا، فضلاً عما كان يُعطاه فرانشيسكيتو. وكانت روما، أثناء الشطر الأخير من حكم ذلك الحبر، تعج بالقتلة السفاحين الذين يحملون رخصًا والذين لا يحملون؛ وعادت الأحزاب، التي شرع سكستوس في إخماد أنفاسها، إلى نشاطها مرة ثانية؛ وقنع البابا، المحوط بحراسة قوية في الفاتيكان، بأن يبث بين حين وآخر شركًا يقع فيه شرير غني بين الفينة والفينة. وكانت النقطة الرئيسية التي تشغل بال فرانشيسكيتو أن يعرف كيف يستطيع، متى مات البابا، الفرار بخزائن مفعمة بالأموال. وأخيرًا كشف القناع عن نفسه، حين سمع نبأ كاذبًا (١٤٩٠) عن وفاة أبيه؛ فحاول أن يحمل معه جميع الأموال المكدسة في الخزائن البابوية، فلما تجلى له استحالة ذلك أصر أنه، على كل الحالات، لا بد أن يصطحب معه ، الأمير التركي، ليظل معه رأسمال حي، وليستطيع التخلص منه مقابل منافع مالية يصيبها، وربما تم له ذلك بتسليمه إلى فيرانتي أمير نابولي[١٩]. ومن العسير علينا تفسير الإمكانات السياسية للفترات البعيدة، ولكننا لا نملك إلا أن نسأل أنفسنا: هل كانت روما تستطيع مواصلة البقاء بعد حكم حبرين أو ثلاثة من هذه القبيل؟ فحتى لو وضعنا في حسباننا الأقطار المؤمنة في أوروبا، فقد كان من الحماقة ترك الشئون تجري على علاتها مطلقة العنان بحيث إن المسافرين والحجاج، بل وأيضًا جميع أعضاء سفارة مكسيميليان ملك الرومان، جردوا من ثيابهم حتى قمصانهم في الجيرة المحيطة بروما، وأن البعثات الموفدة كان تضطر دومًا أن تعود أدراجها بغير أن تخطو بقدم في المدينة.

عندما تدخلت روما لمنع الانفصال. ولكن من ذا كان يستطيع، فى أوقات وظروف كهذه، أن يضمن استمرار طاعة المحاسيب nipoti المعينين فى الوظائف السامية وورثتهم، وقد تحولوا الآن إلى حكام ذوى ولايات، لباباوات لم يكن لهم بهم أى علاقة مستقبلة؟ إن البابا لم يكن حتى فى مدة حياته متأكداً من ولاء ابنه أو ابن أخيه، وكان الإغراء قوياً يدفع إلى طرد محاسيب وأقارب بابا سابق واستبدالهم بآخرين تابعين له. وكان رد فعل ذلك النظام بأجمعه على البابوية بالغ الخطورة؛ واستخدمت جميع وسائل القهر، دنيوية كانت أم روحية، دون أى رادع من خلق سعياً للوصول إلى غايات مشبوهة إلى أقصى حد، وأخضعت لهذه الغايات جميع الأهداف الأخرى للكرسى البابوى. وعندما كان يتم بلوغ تلك الغايات، مهما بلغ ثمنها من ثورات وحرمانات من حماية القانون، تأسست أسرة حاكمة لم يكن لها من مصلحة أقوى من القضاء على البابوية



شكل (٥٨) اسكندر السادس

جزء من اللوحة الجصية "قيامة المسيح"، لبينتوريكيو

الفاتيكان، روما

تصوير أندرسون، روما

كما أن لوكرتزيا غنى لها بهاليل مهرجون من الإسبان وهى تدخل مدينة فيرارا، مرتدية ثيابًا إسبانية؛ وكان ألصق خدامهم من الأسبان، كما فعل ذلك أيضًا الرفاق سيئو السمعة المرافقون لجند سيزار في حرب عام ١٥٠٠؛ كما أنه يبدو أن جلاده الدون ميكيليتّو Don Micheletto وصاحب السم لديه، وهو سباستيان بينزون[٢١] Sebastian Pinzon، كانا من نفس العرق الإسباني. ومن بين إنجازاته الأخرى، ما أقدم عليه سيزار، على النهج الإسباني الحق، على قتل ستة من الثيران المتوحشة فى فناء مغلق، وفق قواعد الحرفة المعروفة. على أن الفساد والولس الرومانى، الذى يبدو كأنما بلغ الذروة فى هذه العائلة، كان بالغ الاستشراء فعلاً عندما وفدوا لأول مرة إلى المدينة.

فأما ما كانوا عليه، وأما ما فعلوه، فذلك أمر جرى وصفه كثيرًا وبكل دقة[٢٢]. وكان غرضهم المباشر، الذى تمكنوا من بلوغه فى واقع الأمر، هو الإخضاع التام لدولة البابوية الحبرية. فتم طرد أو القضاء على جميع المستبدين الصغار[٢٣]، الذين كانوا فى معظم أمرهم، وبدرجة ما قد تتفاوت، فصلاء (أى أتباعًا إقطاعيين) معاندين للكنيسة؛ فأما فى روما نفسها، فقد قُضى على الحزبين الكبيرين قضاء إبادة، وهما الحزب المدعو بالجويلف أورسيني Guelf Orsini والحزب المسمى بالجيبيلين كولونا Ghibelline Colonna . بيد أن الوسائل التى استخدمت بلغت من شدة الإخافة والإرهاب بحيث لم يكن مفر لها من أن تنتهى إلى دمار البابوية لولا أن حال دون ذلك على الفجاءة موت كل من الوالد وابنه بالسم فى زمن متقارب فتغير وجه الموقف بأجمعه. ومن المؤكد أن الغضب الخلقى لعالم النصرانية بأكمله لم يكن بأية حال مصدر خطر كبير على إسكندر؛ فإنه بلغ من القوة داخليًا أن يبث فى الناس الرعب ويلزمهم الطاعة قهرًا؛ كما أنه تمكن من اكتساب انحياز الحكام الأجانب إلى جانبه، حتى لقد بلغ الأمر بلويس الثانى عشر أن ساعده بأقصى ما استطاع من قوة. ولم تكد جماهير الشعوب وكتلتها بكل أرجاء أوروبا يكون لديها أى فكرة عما كان يجرى بإيطاليا الوسطى. واللحظة الوحيدة التى شابها الخطر- عندما كان شارل الثامن فى إيطاليا- ولت بحركة غير منتظرة من حسن الطالع، ومع هذا فإنه حتى فى تلك اللحظة لم تكن البابوية، بوصفها

ذاك، هي المعرضة للخطر، بل إسكندر الذي تعرض لخطر العزل وإحلال بابا أكثر احترامًا منه(٢٤). وكان الخطر الكبير الدائم والمتزايد على البابوية، يكمن في شخص إسكندر نفسه، كما يكمن فوق كل شئ في ابنه سيزار بورجيا.

فأما طبيعة الأب، فقد اقترن فيها الطموح والشح والشهوانية الحسية بصفات قوية ألمعية. وقد منح نفسه على أوفى معيار جميع مسرات السلطان والترف من اليوم الأول لتوليه المنصب الحبرى المقدس. لقد كان الوازع فيه ميتًا تمامًا في اختياره وسائل بلوغ تلك البغية؛ وعرف الناس على الفور أنه سيعوض نفسه أوفى تعويض، بل أكثر منه، عن التضحيات التي اقتضاه انتخابه بذلها(٢٥)، وأن سيمونية (أي بيع وشراء الوظائف الكهنوتية والبابوية) البائع ستفوق سيمونية الشاري بمراحل. وينبغي ألا يغيب عن بالنا أن منصب نائب المستشار وغيره من المناصب التي شغلها إسكندر من قبل علمته معرفة أوسع كما علمته أن يُحوِّل موارد الدخل المتنوعة إلى حسابات عملية أكثر من أي عضو آخر من أعضاء الإدارة البابوية. وفي زمن مبكر يرجع إلى عام ١٤٩٤، وُجد راهب كرميلي، هو أدم من جنوا، أقدم على إلقاء موعظة في روما ضد السيمونية، مقتولاً في فراشه مصاباً بعشرين جرحًا. ولم يكد كاردينال واحد يعين في منصبه دون أن يدفع مبالغ مالية طائلة.

ولكن عندما وقع البابا بمضي الوقت تحت سلطان ابنه سيزار بورجيا، اتخذت إجراءاته العنيفة تلك ذلك الطابع الرهيب من الشر الشيطاني الذي له بالضرورة رد فعله على الغايات المنشودة. وغني عن البيان أن ما جرى في الصراع مع نبلاء روما وطغيانات إقليم رومانيا Romagna (وهو روما وما حولها من بقاع) يفوق من حيث انعدام التقوى والإيمان والبربرية حتى ذلك المعيار الذي عوَّدَ حكام نابولي الأراجونيون عليه العالم من قبل؛ كما أن العبقرية في اتجاه الغش والخداع والولس كانت أعظم هي الأخرى. فالطريقة التي أتم بها سيزار بورجيا عزل والده عن الناس، إذ قتل أخاه وصهره وغيرهما من الأقارب ورجال البلاط كلما أحس بأن عطف البابا عليهم أو مركزهم من أي ناحية أخرى من النواحي غير مُرضٍ له، كانت طريقة رهيبة بالمعنى الحرفي

للكلمة. واضطر إسكندر إلى التغاضي مذعنًا عن مقتل أحب أبنائه إليه، وهو دوق جانديا، وذلك نظرًا لأنه هو نفسه كان يعيش في رعب دائم من سيزار[٢٦].

فماذا كانت المرامي النهائية التي رمى إليها هذا الأخير؟ فحتى في الأشهر الأخيرة من طغيانه، عندما اغتال قائد المرتزقة في سينجاجليا Sinigaglia، وكان ، مبدأ للدولة الكهنوتية بكل مرامي السيادة وأهدافها (١٥٠٢)، فإن من كانوا قريبين منه أجابوا إجابة متواضعة هي أن الدوق إنما كان فحسب يبغي أن يقضي على الأحزاب والمستبدين، وأن ذلك كله كان لمصلحة الكنيسة دون أي شئ آخر؛ وأنه لا يبغي لنفسه شيئًا سوى سيادة إقليم رومانيا، وأنه اكتسب شكر جميع الباباوات اللاحقين بتخليصهم من أسرتي أورسيني وكولونا[٢٧]. ولكن أحدًا من الناس لم يقبل هذا القول على أنه خطته النهائية المقصودة. بل إن البابا إسكندر نفسه في بحثه ومناقشاته مع السفير البندقي، غلا في الحديث أكثر من هذا عندما أسلم ولده لحماية البندقية. قال: "سأعمل باهتمام على أن تكون البابوية يومًا ما إما تابعة له أو تابعة لكم"[٢٨]. ومن المؤكد أن سيزار أضاف بأن إنسانًا لن يكون بابا بغير موافقة البندقية، وإنه من أجل هذه الغاية لا ينبغي للكرادلة البنادقة إلا أن يحتفظوا بتضامنهم معًا. وما إذا كان يشير إلى نفسه أم لا، فذلك ما لا نستطيع قوله؛ ومهما يكن من أمر، فإن تصريح والده كاف لإثبات نواياه وخططه التي كان يرسمها حول العرش البابوي. ونحن نحصل فوق هذا من لوكرتزيا بورجيا على قدر معين من البينات غير المباشرة، بقدر ما تستطيع مقتطعات معينة في بعض قصائد أركولي استروتزي Ercole Strozzi أن تكون صدى للعبارات التي سمحت لنفسها مبكرًا كدوقة لفيرارا أن تستخدمها. فهنا أيضًا يتم الحديث بصورة رئيسية عن آمال سيزار في البابوية[٢٩]؛ ولكن حدث بين حين وآخر صدور تلميحات وإشارات عن السيادة على إيطاليا بأكملها[٣٠]، ثم إننا أخيرًا ندفع دفعًا أن نفهم أن مشروعات سيزار، كحاكم دنيوي، كانت من أعظم ما يكون، وإنه من أجلها سبق له أن تنازل عن منصب الكاردينالية[٣١]. والواقع، أنه لا يمكن أن يخالجنا أدنى شك أن سيزار سواء انتخب بابا أم لم ينتخب بعد وفاة إسكندر، كان ينتوي

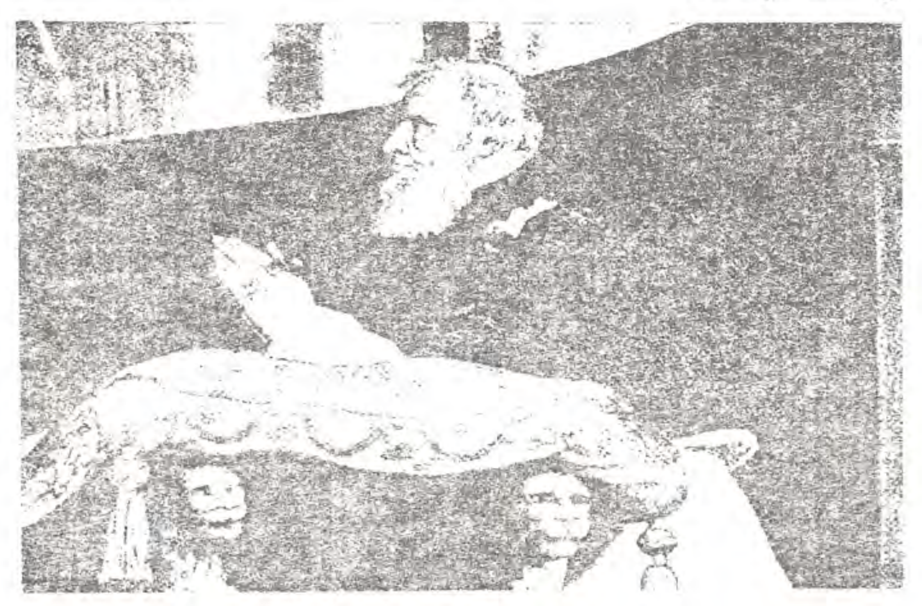
الاحتفاظ بامتلاكه للدولة البابوية بأى ثمن كان، وأن هذه البغية، بعد كل الكبائر التى اقترفها، لم يكن بمستطيع بوصفه البابا أن ينجح فى مواصلة إتيانها بصورة دائمة. وكان هو، وهو وحده دون أى شخص، مستطيعاً أن يقلب ولايات الكنيسة إلى الطابع غير الدينى، وكان سيضطر إلى فعل ذلك لكى يحتفظ بتلك الولايات فى قبضته[٣٢]. وما لم نكن واقعين بين براثن خداع شديد، فإن هذا هو السبب الحقيقى فى التعاطف الخفى الذى يعالج به مكيافيللى ذلك المجرم الكبير: فمن سيزار وحده، دون أى أحد غيره، كان يرجى أن "ينتزع النصل من الجرح"؛ أى بعبارة أخرى يعدم البابوية إعداماً ويقضى عليها قضاء مبرماً- وهى الأصل فى التدخل الأجنبى كله وفى كل ما عرى إيطاليا من انقسامات. ويبدو أن المتآمرين الذين فكروا فى أن يحدسوا ويسبروا أهداف سيزار ونواياه، عندما عرضوا عليه الأمل فى مملكة توسكانيا، قد طردوا شر طردة مع شديد الاحتقار[٣٣].



شكل (٦٠) لوكريتزيا بورجيا

ولكن جميع الاستنتاجات المنطقية المستخرجة من مقدماته المنطقية إنما هى حديث تافه بليد، ليس بسبب العبقرية التى لم تقدم لها علة والتى كان فى الواقع يتصف بها بالقدر القليل الذى يتصف به دوق فريدلاند، بل لأن الوسائل التى كان يستخدمها لم

تكن تتفق مع أى خطة كبيرة مستمرة للعمل. وربما حدث حقاً، فى ثنايا إفراطه الشديد فى الشر والخبث، أن بعض دلائل الخلاص للبابوية قد وجدت فعلاً بدون تلك الحادثة التى قضت على حكمه.



شكل (٦١) يوليوس الثانى

جزء من لوحة رافاييل "قداس بولسينا"

الفاتيكان، روما

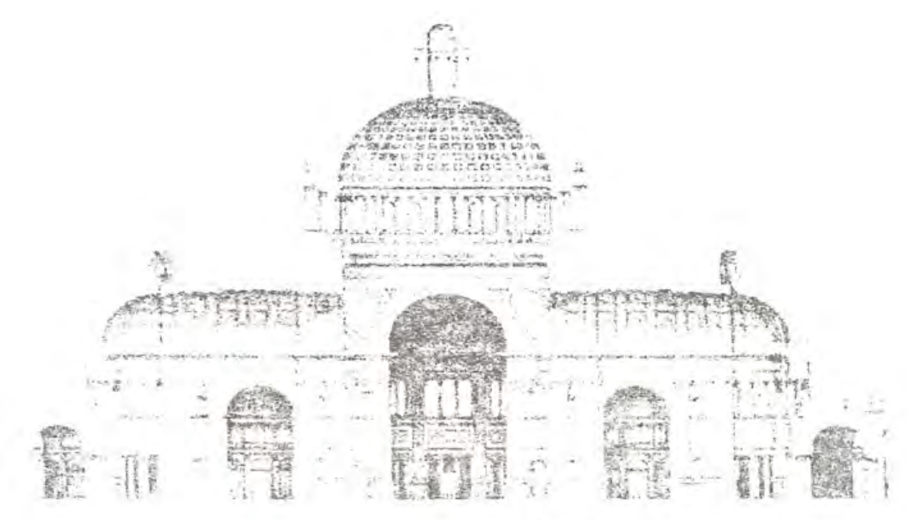
وحتى لو افترضنا أن دمار صغار طغاة المدن فى دولة البابوية الحبرية لم يكسبه إلا بعض التعاطف، وحتى لو اتخذنا الجيش دليلاً على مشروعاته الكبرى، وهو جيش مكون من خيرة جند إيطاليا وضباطها، وكبير مهندسيه ليوناردو دافينشى، جيش كان متتبعاً خطوات حظه فى ١٥٠٢، فإن هناك مع ذلك حقائق تتمثل فى طابع من عدم المعقولية، بلغ من قوتها أن حكمنا عليه أصبح، كحكم رقباء العهد المعاصر له، فى حيرة تامة من أمرها وعجز تام عن كل تفسير لها. وإحدى الحقائق من هذا النوع هى إعمال التدمير وإساءة المعاملة للولاية المكتسبة حديثاً، التى ظل سيزار ينتوى الاحتفاظ بها

وحكمها[٣٤]. وثمة حقيقة أخرى هى أحوال روما ومجلس الإدارة البابوية فى العقود الأخيرة من الحكم الحبرى البابوى. وسواء أكان للأب وابنه خططًا قائمة رسمية بأسماء الأشخاص الذين يهدر القانون حقوقهم[٣٥]، أم أن جرائم القتل كانت تصمم واحدة بعد واحدة، فإن آل بورجيا على كلا الحالين كانوا مصممين تمامًا على القضاء سرًا على كل من يقف فى سبيلهم ومن كانوا يطمعون جشعًا فى أن يرثوه. وفى هذا الصدد كان المال والمنقولات والبضائع تشكل أضأل جزء؛ مذ كان هناك مصدر أعظم بكثير لمكاسب البابا أن تتوقف بسبب الموت دخول كبار رجال الكهنوت، وأن يتلقى البابا إيرادات مناصبهم طالما هى شاغرة، ويحصل على أثمان هذه الوظائف حين يشغلها خلفاء الرجال المقتولين. وأعلن سفير البندقية باولو كابيللو[٣٦] Paolo Capello فى عام ١٥٠٠ :"فى كل ليلة يُكتشف أربعة أو خمسة رجال مقتولين– فيهم الأسقف أو المطران وغيرهم– حتى لقد أصبحت روما كلها ترتعد خوفًا من أن تقضى عليها يد الدوق سيزار ."وقد اعتاد هو نفسه التجول فى روما عسًّا فى الليل مع حراسه[٣٧]، وهناك أسباب قوية تدعوا للاعتقاد بأنه إنما كان يفعل ذلك ليس فقط لأنه، شأن تيبريوس، كان يخشى من عرض ملامحه البغيضة آنذاك على أنظار الناس فى وضح النهار، ولكن أيضًا لإشباع ظمأته المجنونة إلى الدماء، وربما كان ذلك حتى بالنسبة للأشخاص الذين لم يكن يعرفهم.

وفى زمن مبكر يرجع إلى عام ١٤٩٩ بلغ من عظم اليأس وانتشاره العام بين الناس أن كثيرين من رجال الحرس البابوى كان يُقطع عليهم الطريق ويُقتلون[٣٨]. فأما من لم يكن آل بورجيا يستطيعون مهاجمتهم بالعنف العلنى فكانوا يقعون فرائس لسمهم. وفى الحالات التى كان الأمر فيها يتطلب السرية كان مسحوق أبيض[٣٩] ذو طعم مقبول يُستخدم، ولم يكن يعمل عمله فورًا ولكن ببطء وبالتدريج، وكان يمكن خلطه دون أن يلحظه أحد فى أى طبق أو كأس. وقد تناول الأمير جم شيئًا منه فى شراب حلو قبل أن سلمه إسكندر إلى شارل الثامن (١٤٩٥)[٤٠]، وما عتم الوالد وولده فى نهاية مطاف تاريخهما أن سمما نفسيهما بنفس المسحوق عندما ذاقا بالصدفة

قطعة من الحلوى قُصد بها كاردينال ثرى، من المحتمل أنه أدريان من كورنيتو[٤١].
ويذكر أونوفريو بانفينيو[٤٢] Onufrino Panvinio، وهو الملخص الرسمى لتاريخ البابوات، ثلاثة من الكرادلة، هم أورسينى وفيريريو وميكيل، الذين أمر إسكندر بتسميمهم، كما يشير إلى رابع، هو چيوڤانى بورجيا، الذى تولى سيزار أمره بنفسه- وهكذا كان المرجح أن المطارنة الأغنياء قلما توفى أحد منهم فى روما فى ذلك الأوان دون أن يثير شبهات من هذا القبيل. وحتى الطلبة الوادعون الذين انسحبوا من المدينة للعيش فى بعض المدن الإقليمية لم يكونوا بمنجاة من قبضة ذلك السم غير الراحم. وكأنما كان يحيط بالبابا جو من الرعب الخفى؛ فكثيراً ما كانت تزعجه فى الأزمنة السابقة، العواصف والصواعق التى تدهم الجدران والحجرات؛ وفى عام ١٥٠٠ [٤٣]، عندما تكررت هذه الظواهر، كان الاعتقاد الشائع أنها من عمل الشيطان cosa diabolica ويبدو أن سيرة هذه الأحداث قد انتشرت فى خاتمة المطاف بكل أرجاء أوربا طولاً وعرضًا من خلال يوبيل[٤٤] عام ١٥٠٠، الذى توافد عليه الناس من كل حدب وصوب فى أوروبا، كما أن التجارة المرذولة فى صكوك الغفران فعلت فعلها هى الأخرى فى جذب الأنظار كلها جميعاً وتركيزها على روما. ٤٥ فإنه فضلاً عن الحجاج العائدين، فإن أشخاصًا عجيبى الصورة يرتدون الثياب البيضاء للتائبين كانوا يأتون من إيطاليا، وبينهم اللاجئون المتنكرون الفارون من الدولة البابوية، وليس معقولاً ولا محتملاً أن تخرس ألسنتهم عن الكلام. ومع هذا فإن أحداً لا يستطيع أن يُقدِّر إلى أى مدى بعيد مضت فضائح عالم المسيحية وغضبه قبل أن يُصبِح هؤلاء مصدراً لخطر داهم على إسكندر. ويقول بانفينيو فى مكان آخر[٤٦] :"وإنه ليتمنى لو أزاح جميع الكرادلة والمطارنة الأثرياء الآخرين من الطريق ليحصل على أملاكهم، لولا أن ضربه الموت وقضى عليه وهو فى معمعان خططه الكبرى التى كان يرسمها لولده". وأى شئ لم يكن سيزار لينجزه فى اللحظة التى توفى فيها أبوه، لِمَ لَمْ يُزجّ به هو نفسه فى فراش المرض! وأى انتخاب بابوى سرى كان يمكن أن يجرى، ذلك الانتخاب الذى كان يستطيع به، وهو مسلح بكل أسلحته، أن يغتصبه اغتصاباً من مجمع كرادلة، الذين تمكن بالتدبير البعيد النظر من تخفيض عددهم بسلاح السم- وذلك فى وقت لم يكن

فيه هناك جيش فرنسى قريب من البلاد! وإن الخيال، فى ثنايا متابعته لمثل هذا الافتراض، ليقع فى أعماق هوة سحيقة.



شكل (٦٢): كنيسة القديس بطرس، بروما

محاولة لإعادة بناء المقطع العرضى حسب تصميم برامانتى طبقًا لجيمولر

على أنه بدلاً من ذلك جاء مجلس الكرادلة السرى الذى انتخب فيه بيوس الثالث، والآخر الذى اجتمع بعد وفاته السريعة، فاختار يوليوس الثانى- وكلا الانتخابين كان نتيجة لرد فعل شعبى عام.

ومهما تكن أخلاقيات يوليوس الثانى الخاصة، فإنه كان من جميع النواحى الجوهرية منقذ البابوية. فإن درايته الحميمة بمجرى الأحداث منذ تقلد عمه سكستوس منصب الحبر الأعظم أتاحت له استبصاراً عميقًا بالأحوال والأسس التى تقوم عليها السلطة البابوية. وعلى هذين الأمرين أقام سياسته الخاصة، وركز عليها كل ما اجتمع فى روحه الثابتة غير المترددة من قوة وحمية. فصعد درجات عرش القديس بطرس بغير شراء المنصب (سيمونية) ووسط هتاف الجماهير، وعلى يديه توقفت على كل حال التجارة السافرة فى أعلى مناصب الكنيسة. وكان ليوليوس رجال يحبوهم بالحظوة، من

جملتهم بعض من يعدون أضداداً للجدارة، ولكن حظًا سعيداً خاصاً وضعه فوق إغراء المحسوبية في إسناد الوظائف. فكان أخوه چيوڤانى ديللا روفيرى، زوجاً لوارثة عرش أوربينو، شقيقة آخر أفراد أسرة مونتيفيلترو، جيدوبالدو، فوُلد له في ١٤٩١ من هذا الزواج ابن هو فرانشسكو ماريا ديللا روفيرى، الذى كان في الوقت نفسه محسوبياً nipote بابوياً ووارثاً شرعياً لدوقية أوربينو. وجرت عادة يوليوس في أى ناحية أخرى من تصرفاته أنه فيما يتصل بما كان يحصل عليه إما في ميدان القتال أو الوسائل الدبلوماسية أن يهبه بفخر للكنيسة لا لعائلته وذوى قرباه؛ فأما الممتلكات الكنسية، التي وجدها في حالة انحلال، فإنه أورثها لخلفه وقد أُخضعت للسلطان إخضاعًا تامًا، كما زيدت إليها بارما وبياتشنزا Piacenza . ولم يكن نتيجة خطأ منه أن لم تُضف فيرارا كذلك إلى ممتلكات الكنيسة. وكان من المقرر أن لا يسلم الحاكم السبعمائة ألف دوقية التي كانت مكنوزة في قلعة سان أنجلو إلى أحد عدا البابا القادم. فجعل من نفسه وريثًا للكرادلة، بل وفي الواقع لكل رجال الدين الذين يموتون في روما، وتم له ذلك بأشد الوسائل استبداداً؛ ولكنه لم يقتل ولا سم أحداً منهم(٤٧). فأما توليه بنفسه قيادة قواته في المعارك، فكان بالنسبة إليه ضرورة لا مناص منها، ومن المؤكد أنه شئ لم يعد عليه إلا بالخير في وقت كان كل رجل في إيطاليا مضطراً أن يكون مطرقة أو سنداناً، ويوم كانت الشخصية قوة أكبر من أشد الحقوق وضوحاً وعدم قابلية للنزاع. فلئن حدث على الرغم من صيحته الرنانة "إلى الخارج أيها البرابرة" ! إنه أسهم مع ذلك أكثر من أى رجل آخر في تثبيت استيطان الأسبان في إيطاليا، فلعله ظن أنها مسألة غير ذات شأن لدى البابوية، أو حتى زعم، على ما كانت تجرى الأمور، أنها مصلحة نسبية. فنحو من كانت الكنيسة تستطيع أن تشخص ببصرها عدا إسبانيا، التماساً للاحترام المخلص الدائم(٤٨)، في عصر كان فيه أمراء إيطاليا لا يعتزون بشئ قدر اعتزازهم بالمشروعات الحافلة بالمدنسات ضدها؟ ومهما يكن من أمر، فإن الطبيعة الأصيلة القوية التى كان يتمتع بها، والتي ما كانت لتستطيع ابتلاع أى غضب يساوره ولا إخفاء أية نية حسنة أصيلة تخامره بالسليقة، تترك على وجه الجملة ذلك الانطباع المرغوب فيه أكثر من كل شئ في موقفه وهو الانطباع عن الحبر الأعظم

القظيع pontefice terribile . ولقد كان حتى يستطيع أن يجرؤ، بضمير صافٍ، أن يدعو إلى عقد مجلس في روما، وبذلك يتحدى الصيحة التى رفعت عقيرتها بها المعارضة بكل أرجاء أوروبا. وإن حاكمًا من هذا الطراز ليحتاج إلى رمز ظاهرى عظيم لأفكاره وتصوراته؛ ووجد يوليوس ذلك الرمز فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس. وربما كان تصميمها على النحو الذى ارتآه برامانتى ورغب فيه، أعظم وأفخم تعبير عن القوة فى ظلال الوحدة يمكن تصوره. وثمة فنون أخرى عدا فن العمارة يعيش فيها وجه البابا وذكراه إلى الأبد على أروع الأشكال المثالية، وليس يخلو من مغزى كبير أنه حتى الشعر اللاتينى فى تلك الأيام يقدم من الآيات على حماسه ليوليوس، تختلف تمام الاختلاف عما كان يُبدى نحو أسلافه. وكان دخول الكاردينال أدريانو دا كورنيتو Adriano da Corneto مدينة بولونيا فى نهاية رحلة يوليوس الثانىIter Julii Secundi يومًا مشهورًا يتصف بروعة وفخامة خاصة، كما أن الشاعر چيوڤان أنتونيو فلامينيو[٤٩] Giovan Antonio Flaminio، فى واحدة من أروع وأبدع قصائد المدح، ليناشد روح الوطنية فى البابا أن يمنح حمايته لإيطاليا.

وأقدم يوليوس فى دستور ينظم مجلس اللاتيران لعهده، على التنديد الصارم بالسيمونية (شراء المنصب الكهنوتى) المتبعة فى الانتخابات البابوية[٥٠]. وبعد وفاته فى ١٥١٣ حاول الكرادلة المهتمون بحب المال تجنب الحظر باقتراحهم أن يتم تقسيم المنح والوظائف، التى يشغلها حتى وقتذاك المرشحون المختارون، بالتساوى بين أنفسهم، وفى هذه الحالة كانوا ليختاروا أكثر الكرادلة حصولاً على منحة، وهو رافاييل رياريو[٥١] Rafael Riario عديم الكفاية. لولا أن رد فعلٍ، نشأ بصفة رئيسية من أن أفراد مجلس الكهنوت المقدس، الذين كانوا يرغبون، فوق كل شئ، فى بابا ليبرالى تحررى، جعلوا من التجمع المبتئس غير ذى جدوى؛ فانتخب چيوڤانى دى ميديتشى Giovanni de'Medici- وهو ليو العاشر ذائع الصيت.



شكل (٦٣) ليو العاشر مع اثنين من الكرادلة

لرفاييل

فلورنسا، قصر بيتّي

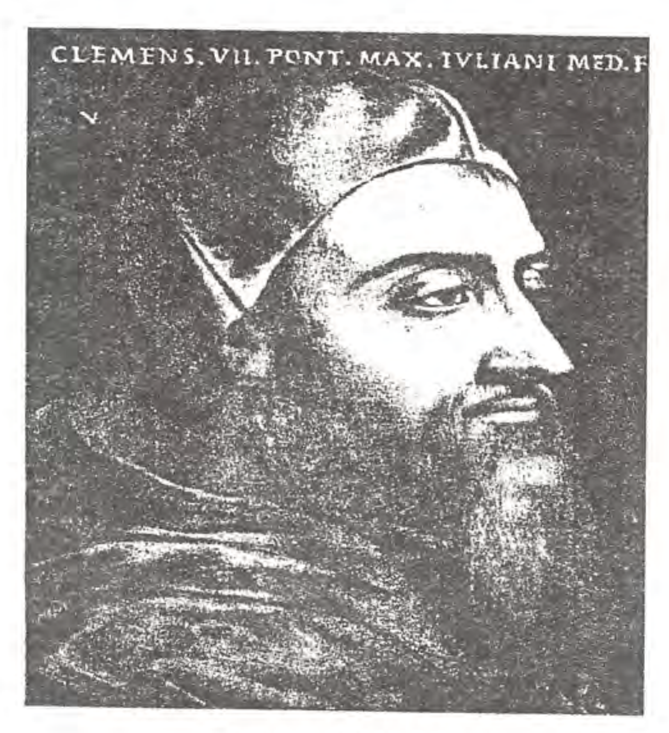
وسنلتقى به كثيراً أثناء معالجتنا لموضوع ظهيرة أوج عصر النهضة؛ فأما هنا فحسبنا أن نشير إلى أن البابوية فى عهده تعرضت ثانية لأخطار داخلية وخارجية جسيمة. ولسنا ندرج فى جملتها مؤامرة الكرادلة بتروتشى ودى ساوليس وورياريو وكورنيتو (١٥١٧)، وهى مؤامرة كانت ستنتهى فى أحسن الأحوال إلى مجرد تغير فى الأشخاص، ووجد ليو لها الترياق الناجع بإنشائه ما لم يسمع الناس بمثله وهو خلق وظيفة تسعة وثلاثين كاردينالاً جديداً، وهو إجراء نجمت عنه مزية إضافية هى منح مكافأة، فى بعض الحالات على الأقل، للجدارة الحقة[٥٢].

بيد أن بعض الدروب التى سمح ليو لنفسه باجتيازها أثناء السنتين الأوليين من ولايته كانت محفوفة بالمخاطر إلى أقصى حد. فقد حاول جد المحاولة أن يحصل عن طريق المفاوضات على عرش مملكة نابولى لأخيه چوليانو، وأن يحرز لابن أخيه لورنزو دولة إيطالية شمالية قوية، تضم ميلانو وتوسكانيا وفيرارا[٥٣]. وغير خافٍ أن الدولة البابوية، وقد طوقت على ذلك من جميع جوانبها، ما كانت إلا لتصبح إقطاعة ميديتشية بحتة- وأنه لم يكن بعد ذلك هناك حاجة إلى طبعها بالطابع الدنيوى[٥٤].

ولكن الخطة لقيت عقبة كأداء لا يمكن تخطيها هى الأحوال السياسية لذلك الزمن. على أن چوليانو عاجلته المنية. ولكى يعد ليو الأمور إعداداً طيبًا للورنزو، أخذ على عاتقه طرد الدوق فرانشسكو ماريا ديللا روفيرى من أوربينو- ولكنه لم يجنِ من الحرب إلا الكراهية والفقر، فاضطر فى غضون ١٥١٩، وقد لحق لورنزو بعمه إلى مثواه الأخير، أن يسلم إلى الكنيسة فتوحه التى لم يكد يحرزها[٥٥]. فكأنه فعل اضطراراً وبغير فضل منه ولا كرامة شيئًا لو أنه فعله طواعية لأصبح شرفًا أبديًا كريمًا له. فالذى حاول، بمفرده من ناحية جزئية، وبالمفاوضات المتبادلة بين حين وآخر مع فرانسوا الأول وشارل الخامس، ضد ألفونسو دوق فيرارا، كما تم إنجازه فعلاً ضد قلة من المستبدين الصغار وقواد المرتزقة، إنما هو شئ من المحقق أنه ليس من نوع يرفع به سمعته. وهذا كله فى زمن كانت فيه مَلَكيات الغرب تزداد سنة بعد أخرى اعتياداً على المقامرة

السياسية على معيار ضخم جبار، كان الرهان فيها على هذه أو تلك من ولايات إيطاليا[٥٦]. فمن ذا الذي كان يستطيع أن يضمن، منذ شهدت العقود الأخيرة تلك الزيادة الضخمة في سلطانهم داخل أوطانهم، أن يتوقف طموحهم دون ممتلكات دولة الكنيسة؟ وشهد ليو نفسه الفترة التمهيدية التي فرشت السبيل أمام ما تم إنجازه في عام ١٥٢٧؛ فإن سرايا قليلة من مشاة الإسبان ظهرت- من تلقاء نفسها، فيما يبدو- في نهاية عام ١٥٢٠ على تخوم أراضي الدولة الحبرية، قاصدة وضع البابا في موقف الالتزام بدفع فريضة مالية[٥٧]، لولا أن دفعتهم عنها قوات البابوية. وقد أخذ أيضًا الشعور الشعبي العام المضاد للفساد والولس في رجال الكهنوت في السنوات الأخيرة يقترب سريعًا نحو الذروة، وألح رجال يشخصون بأعينهم نحو المستقبل، مثل بيكو ديلا ميراندولا الأصغر، بالدعوة الصارخة إلى الإصلاح[٥٨]. وفي ذلك الوقت نفسه، كان لوثر ظهر فعلاً على مشهد الأحداث.

وفي عهد أدريان السادس (١٥٢٢-١٥٢٣) جاءت التحسينات القليلة المتخوفة التي طُبِّقت تلقاء الإصلاح الديني الجرماني العظيم متأخرة وبعد فوات الأوان. فلم يستطع أن يزيد عن أن يعلن رعبه من المجرى والاتجاه الذي اتخذته الأمور حتى آنذاك في مسائل السيمونية (بيع المناصب) ومحسوبية الأقارب والمحظوظين والإسراف الشديد ومناسر قطع الطرق والتهتك الخليع. فكأن الخطر الآتي من جانب اللوثريين لم يكن بأية حال أفدح الأخطار؛ فقد عَبَّر مُشاهد حاد الذكاء من البندقية اسمه جيرولامو نيجرو Girolamo Negro، عن تخوفه من كارثة عاجلة وفظيعة أوشكت أن تُطبق على مدينة روما نفسها[٥٩].



شكل (٦٤) كلمنت السابع

لأنجلو برونزينو

فلورنسا، أوفيزى

وفى عهد كلمنت السابع كان أفق روما كله بأجمعه مشحونًا بالأبخرة، مثل تلك الغمامات الرصاصية التى تقذفها ريح السيروكو على كومبانيا، والتى تجعل الشهور الأخيرة من الصيف قاتلة جداً. ولم يكن البابا ممقوتًا فى بلده أقل منه فى الخارج. وامتلأت قلوب المفكرين وذوى الرأى بالقلق[٦٠]، وكان النُسَّاك يظهرون فى شوارع روما ومياديها، يتنبأون بمصير إيطاليا والعالم، ويسمون البابا باسم المسيخ الدجال[٦١] Antichrist؛ ورفع حزب كولونّا رأسه متحديًا؛ وتجرأ الكاردينال الذى لا يقهر بومبيو كولونّا، الذى كان مجرد وجوده[٦٢] تهديداً للبابوية مستديماً، على مفاجأة المدينة فى ١٥٢٦، مؤملاً أن يصبح بمساعدة شارل الخامس بابا على الفور، بمجرد ما يتم

القضاء على كلمنت قتلاً أو أسراً. ولم يكن من حسن حظ روما أن استطاع ذلك البابا الفرار إلى قلعة سان أنجلو، كما أن القدر الذى كان ينتظر البابا نفسه يمكن أن يسمى بجدارة بأنه أسوأ وأنكى من الموت.

ونتيجة لتلك السلسلة المتصلة الحلقات من الأكاذيب التى لا يجسر على خوضها إلا القوى المتين، ولكنها تجر الخراب على الضعيف الهزيل، تسبب كلمنت فى اجتلاب زحف الجيش الجرمانى-الإسبانى بقيادة بوربون وفروندسبرج (١٥٢٧). ومن المؤكد(٦٣) أن مجلساً استشارياً لشارل الخامس كان ينتوى أن ينزل التوبيخ الشديد على أم رأسه، كما أنه لم يستطع أن يحسب مقدماً إلى أى مدى يمكن أن تنجرف حماسة حشوده التى لم تدفع إليها أجورها. لقد كان قليل العناء والجدوى أن يحاول أحد فتح باب التجنيد أمام الرجال بألمانيا دون دفع أى عطاء لهم، لولا أنه كان معلوماً تمام العلم مقدماً أن روما هى هدف الحملة. وربما جاز الذهاب إلى أن أوامر بوربون المكتوبة سيتم العثور عليها يوما ما، كما أنه ليس من المستبعد أنها ستكون مكتوبة بلغة معتدلة. ولكن عمليات النقد التاريخى لن تسمح لنفسها بأن توجه اتجاهاً مضللاً. ولا شك أن الملك والإمبراطور الكاثوليكى مدين لحظه وحده دون أى شئ آخر من حيث أن البابا والكرادلة لم يلقوا مصرعهم على يد جنوده. فلو أن ذلك حدث فعلاً لما كان أى جدل سفسطائى فى العالم لينقذه من المشاركة فى تلك الجريرة. وتدل المذابح التى أعملت فى العديد الذى لا حصر له من الناس صغار الشأن، وبسط اليد فى نهب أموال الباقين، وألوان الرعب المتصل بالتعذيب والتجارة فى الحياة البشرية بالقدر الكافى، مدى ما كان ممكناً إتيانه فى نهب روما Sacco di Roma .



شكل (٦٥) تتويج شارل الخامس بيد كلمنت السابع

لفاساري

فلورنسا، قصر فيكيو

تحرير أليناري

ويبدو ان شارل كان يرغب في حضار البابا، الذى فر مرة ثانية إلى قلعة القديس أنجلو إلى نابولي، بعد ابتزاز أموال طائلة منه، كما أن فرار البابا كلمنت إلى أورفيتو لا بد أنه حدث دون أى إغضاء من جانب إسبانيا[٦٤]. وسواء أفكَّرَ الإمبراطور

جديًا يومًا في بسط الطابع الدنيوى على دويلات الكنيسة[٦٥]، وهو أمر كان الكل مستعدًا لتقبله، وسواء أعدل عن ذلك حقًا بفضل احتجاجات هنرى الثامن ملك انجلترا، فتلك أمور ربما ظلت غامضة دون أن تلق توضيحًا على الإطلاق.

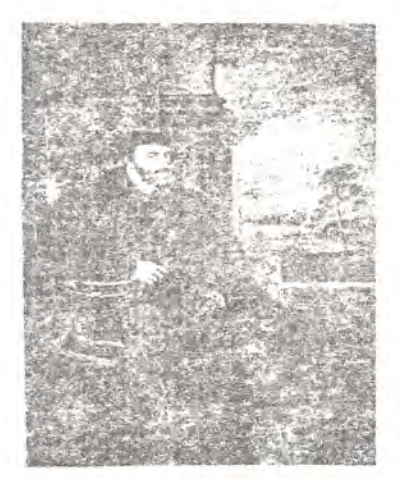
ولكن لو أن مثل هذه المشروعات وجدت فعلاً، لما أمكن أن تدوم طويلاً: إذ قامت من بين حطام المدينة الممزقة روح جديدة دبت فى كل من الكنيسة والدولة. وقد فرضت تلك الروح نفسها ملموسة محسوسة فى لحظة واحدة. وإليكم ما كتبه الكاردينال سادوليتو أحد شهود العيان لكثير من الأحداث:

> **"إن كان فى آلامنا شئ من إرضاء لنقمة الله وعدالته، وإن عادت هذه العقوبات المخيفة ثانية إلى فتح الطريق أمام قوانين وأخلاق أعظم، فإن ما حل بنا من ويلات وسوء حظ لم يكن الأفدح شأنًا. إذ أن ما لله إنما هو شئ يعنى به ويرعاه؛ وأمامنا الآن حياة إصلاح، لا يستطيع أى عنف نزعها منا. فلنتحكم هكذا فى أعمالنا وأفكارنا بحيث نلتمس من الله وحده المجد الحق للكهنوت وعظمتنا نحن وقوتنا"[٦٦].**

والواقع أن هذه السنة الحرجة (١٥٢٧)، أثمرت حتى آنذاك ثمارها بحيث استطاعت أصوات الرجال الجادين أن تجعل نفسها مسموعة فى الآذان للمرة الثانية. فلقد قاست روما أعظم المقاساة البليغة بحيث لم تعد تستطيع أن تعود، حتى فى عهد البابا بول الثالث، إلى الفساد والمرح والولس الذى ساد فى عهد ليو العاشر.

وشرعت البابوية هى أيضًا، عندما اشتدت بها الآلام والمعاناة، أن تستثير حولها تعاطفًا نصفه دينى ونصفه الآخر سياسى. فلم يعد الملوك يسمحون أن ينسب فرد منهم إلى نفسه فخر القيام بعمل سجان البابا، وعقدوا فيما بينهم (١٨ أغسطس ١٥٢٧) معاهدة إميان، التى كان من بين أهدافها تخليص كلمنت. وبذلك على كل حال حولوا لحسابهم الخاص ذلك العداء الشعبى الذى أثارته جنود الإمبراطور، وفى الحين نفسه وقع الإمبراطور فى حرج خطير، حتى فى إسبانيا نفسها، حيث لم يكن يراه الكرادلة والوجهاء دون أن يقدموا إليه أشد أنواع الامتعاض والاعتراض إلحاحًا وطلبًا لتعديل الأحوال. وعندما اقتُرِحَ على شارل قدوم وفد عام عن رجال الدين وسواد الناس

العاديين يرتدون جميعًا ثياب الحداد، أمر بمنع الخطة خشية أن تثور الفتن نتيجة لذلك، كما حدث في الفتن التي قمعت قبل ذلك ببضع سنين[٦٧]. ولم يكتف الإمبراطور فحسب بأن جبن فلم يجرؤ على إطالة أمد إساءة معاملة البابا، بل اضطر اضطراراً مطلقًا، حتى بغض النظر عن جميع اعتبارات السياسة الخارجية، إلى التصالح مع البابوية، التي جرحها قبل ذلك جرحاً بليغًا. وذلك لأنه خيل إليه أن مزاج الشعب الجرماني، الذي لا مراء أنه كان يتجه في مجرى آخر للأمور، وأنه شأن الشئون الجرمانية بوجه الجملة، لم يكن ليستسيغ منه إقامة أي أساس لأية سياسة. ومن الممكن أيضاً، كما يذهب أحد البنادقة[٦٨]، أن ذكرى انتهاب روما جثمت ثقيلة فادحة على ضميره، واتجهت إلى الإسراع بذلك التكفير الذي اختتم بخضوع الفلورنسيين خضوعاً دائماً لآل ميديتشي، وهي الأسرة التي كان البابا عضواً فيها. وكان المحسوب nipote والدوق الجديد أليساندرو دي ميديتشي، متزوجاً من الابنة غير الشرعية للإمبراطور



شكل (٦٦) شارل الخامس

لتيتيان

ميونخ، البيناكوتك القديمة

تصوير بروكمان، ميونخ

وفي السنوات التالية مكنت خطة لمجلس فرصة للإمبراطور شارل من وضع البابوية تحت تحكمه التام في كل النقاط الجوهرية، وأمكنته من حمايتها واضطهادها في نفس الحين. وقد تأجل إلى حين يقدر ببضعة قرون أعظم الأخطار جميعًا على البابوية- وهو طبعها بالطابع الدنيوي- وذلك هو الخطر الذي هب عليها من الداخل، أي من البابوات أنفسهم ومن محاسيبهم المقربين، بفضل الإصلاح الديني الألماني. وكما أن هذا الأمر وحده قد جعل في الإمكان توجيه الحملة (١٥٢٧) على روما وهيأ لها أسس النجاح، فإنه أجبر البابوية إجبارًا إلى أن تصبح مرة ثانية تعبيرًا عن قوة وسلطة روحية يعم نفوذها العالم أجمع، وأن ترفع نفسها من وهدة الانحطاط عديم الروح التي كانت تتردى فيها، وأن تضع نفسها على رأس جميع أعداء ذلك الإصلاح الديني. وهكذا، وقد طورت تلك الهيئة في أثناء السنوات التالية من حكم كلمنت السابع، وعهد بول الثالث، وبول الرابع وخلفائهم، في وجه ارتداد نصف أوروبا عن عقيدتها، فقامت هيئة كهنوت هرمية (ميراركية) جديدة تحاشت الفضائح العظمى والخطيرة التي كانت ترتكب في الأزمنة السالفة، وبخاصة المحسوبية (النيبوتية)، بما يقترن بها من محاولات التوسع في الممتلكات[٦٩]، والتي تهيأ لها، في التحالف والأمراء الكاثوليك وبدافع قوة روحية حديثة الولاد، أن تجد لها عملها الرئيسي في استرداد ما فقدت. وهي لم تقم ولم توجد، ولم تكن توجد ولم يكن لها من معنى مفهوم، إلا في نطاق المعارضة للمنشقين. وبهذا المعنى يمكن القول في صدق كامل موفور أن الخلاص الأخلاقي للبابوية إنما يرجع إلى أعدائها الألداء. والآن غدا مركزها السياسي أيضًا، وإن كان بكل تأكيد يعيش بظل الوصاية السياسية الإسبانية، شيئًا منيعًا لا يُنال؛ وبدون أي جهد تقريبًا واصلت إبادة أتباعها الإقطاعيين (أي فصائلها)، ميراث السلالة الشرعية من آل إيستي وبيت ديللا روفيري، أي دوقيات فيرارا وأوربينو. ولكن لو لم يجئ الإصلاح الديني- إن جاز لنا حقًا أن نستطرد في إعمال الفكر- لكانت الدولة الكنسية انتقلت من زمن بعيد إلى أيد دنيوية.

وسنعمد في الختام إلى تأمل أثر هذه الظروف السياسية في روح الأمة على اتساعها وجملتها.

فمن الواضح أن حالة عدم الاستقرار وعدم التأكد السياسية العامة بإيطاليا أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر كانت من نوع يستثير في الأرواح الأفضل طبيعة في ذلك الزمان اشمئزازًا ومعارضة قومية. فإن دانتي وبترارك[٧٠] في زمانهما أعلنا بأعلى صوت رجاءهما في أن تكون إيطاليا موحدة مشتركة بين الجميع، هدفًا لأعلى جهود أبنائها جميعًا. وربما اعترض بعضهم بأن هذا إنما هو فقط حماسة قلة من الرجال ذوي التربية العالية، حماسة لم يكن لجمهرة الشعب الغفيرة أي نصيب منها؛ ولكن الأمر لم يكن من المستطاع تقريبًا أن يكون كذلك حتى في ألمانيا نفسها، وإن كان ذلك البلد، ولو بصورة اسمية على الأقل، متحدًا ومعترفًا في شخص الإمبراطور برأس واحد أعلى. وأول أقوال قومية وطنية ظهرت في الأدب الجرماني، إن جاز لنا تقبل بعض أشعار المنشدين المتجولين Minnesanger، تنتسب إلى جماعة الإنسانيين في زمن مكسيميليان الأول[٧١] وما بعده، ونقرأها بوصفها صدى للقصائد الخطابية الإيطالية، أو ردًا على انتقادات إيطاليا لعدم النضج الفكري في بلاد الجرمن. ومع ذلك فالواقع أن ألمانيا كانت أصبحت منذ زمن طويل أمة حقة بمعنى حقيقي أكثر مما كانت إيطاليا أيام الرومان. وتدين فرنسا في وعيها بوحدتها القومية لصراعاتها مع الإنجليز بوجه خاص، كما أن إسبانيا لم تنجح أبدًا بطريقة مستديمة في امتصاص البرتغال وتمثلها فيها رغم الصلات الوثيقة الواضحة بين البلدين. وذلك لأنه في حالة إيطاليا كان وجود الدولة الكهنوتية، والظروف التي كانت هي وحدها تستطيع أن تستمر في بحرانها، عائقًا مستديمًا يحول دون الوحدة القومية، وهو عائق كان القضاء عليه وإزاحته من الطريق ضربًا من المحال. وعلى ذلك، فعندما يذكر أحيانًا اسم الوطن الأم (إيطاليا) مقرونًا بالتأكيد في حُدثان التعامل السياسي بين دويلاتها في القرن الخامس عشر، فإن ذلك يحدث في معظم الحال لتكدير صفو دويلة إيطالية أخرى[٧٢]. ولم تكن العقود الأولى من القرن السادس عشر، وهي السنوات التي بلغ فيها عصر النهضة أوجه، مناسبة مواتية لإحياء الوطنية؛ فإن الاستمتاع بالمتع الفكرية

والفنية، وصنوف جمامات الحياة ورشاقتها، والاهتمامات القصوى بتطوير الذات وتنميتها، دمرت أو وقفت حجر عثرة في سبيل حب الوطن. ولكن هذه الاستصراخات المحزنة والعميقة الجدية للشعور الوطني لم تعد تُسمع ثانية حتى انقضى بعض الوقت، يوم فات أوان لحظة الوحدة، ويوم غُمرت البلاد بالفرنسيين والإسبان، ويوم كان جيش جرماني أتم فتح روما. ويمكن أن يقال إنه بدرجة ما حل الإحساس بالوطنية المحلية محل هذا الشعور، وإن لم يكن إلا معادلاً هيناً له.

هوامش الفصل العاشر - القسم الأول

(١) نحيل القارئ هنا مرة أخيرة إلى رانكه Ranke's Paepste, vol. i، وإلى سوجينهايم Sugenheim, Geschichte der Entstehung und Ausbildung des Kirchenstaates. وقـد تم أيضًـا الاستفادة من الأعمال المتأخرة أكثر لجريجوروفيوس Gregorovius ورويمونت Reumont، كما تم الاقتباس منها في حالة تقديمها حقائق أو آراء جديدة. انظر أيضاً ف. فاتنباخ W. Wattenbach, Geschichte der römischen Papstthums (Berlin, 1876)، وباستور Pastor, Geschichte der Pöpste، وبخاصة المجلدات vols. i-iii .

(٢) عن الانطباع الذي أحدثه مباركة يوجينيوس الرابع في فلورنسا انظر فسباسيانو فيورنتينو Vespas. Fior-ent.,p. 18. انظر أيضًا الفقرة المقتبسة في رويمونت Reumont، Lorezo dei Medici, i, 171. وعن الشعائر المثيرة للعواطف ذات الانطباع القوي لنيقولاس الخامس انظر إنفيسّورا Infessura، في إيكارد Eccard, ii, col. 1883 sqq.، وج. مانيتّي J. Manetti, Vita Nicoli V, in Murt., iii, ii, col. 923. وعن التقدير والإجلال المقدم إلى بيوس الثاني انظر Diario Ferrarese, in Murat., xxiv, col. 205، و Pii II Comment., passim، وبخاصة iv, 201, 204, and xi, 562. وعن فلورنسا انظر Delizie degli Eruditi, xx, 368. وحتى القتلة المحترفون يحترمون شخص البابا.

وكانت الشعائر الكبرى في الكنيسة تعامل بوصفها ذات أهمية عظيمة على يد البابا المحب للأبهة بول الثاني (Platina, loc. cit., 321) والبابا سيكستوس الرابع، الذي، بالرغم من النقرس، عقد القداس في عيد الفصح وهو في وضع الجلوس.(Jac. Volaterran. Diarium, in Murat., xxiii, col. 131) . ومن اللافت للنظر أن نلاحظ كيف ميز الناس بين قوة التأثير السحرية المباركة وبين عدم جدارة الرجل الذي كان يمنحها؛ وعندما أصبح غير قادر على منح البركة يوم عيد الصعود في ١٤٨١ تذمرت الجماهير ولعنته. المصدر السابق (Ibid., col. 133) .

(٣) ماكيافيللي، Scritti Minori, p. 142، في المقالة الشهيرة عن كارثة سينيجاليا Sinigaglia. ومن الحقيقي أن الجنود الفرنسيين والإسبان كانوا متحمسين أكثر من الجنود الإيطاليين. انظر Cf. in Paul. Jovius, Vita Leonis X, lib. ii، الموقع قبل معركة رافنّا، والذي كان فيه المطران، وهو يبكي من الفرح، محاطاً بالقوات الإسبانية مُلتَمِسًا الغفران. انظر أيضًا البيانات بخصوص الفرنسيين في ميلانو (المصدر السابق).

(٤) في حالة هراطقة بولي Poli، في الكامبانيا the Campagna، الذين كانوا يعتنقون مذهب أن البابا الحقيقي لا بد أن يُظهر فقر المسيح كعلامة على دعوته، فإننا نجد مجرد مذهب والداوي Waldensian.

ويحكى إنفيسّورا عن سجنهم في عهد بول الثاني .(in Eccard, ii col. 1893), Platina, p. 317, etc

(٥) أنظُر، كتوضيح لهذا الإحساس، القصيدة الموجهة إلى البابا، والمقتبسة في جريجوروفيوس -Gregorovi us, vii,136.

(٦) انظر حوارات ستيفاني دي بوركاريس Dialogus de Conjuratione Stephani de Porcariis، لمعاصره بتروس جوديس دي فيتشينزا Petrus Godes de Vicenza، التي اقتبسها واستخدمها جريجوروفيوس .Gregorovius, viii,130 وانظر ل. ب. ألبرتي L. B. Alberti, De Porcaria Conjuratione, in Murat., xxv, col. 309. وقد كان بوركاري Porcari تواقًا "omnem pontif- iciam turbam funditus exstinguere". ويخلص المؤلف إلى: "Video sane, quo stent loco res Italiæ; intelligo qui sint, quibus hic perturbata esse omnia conducat" وهو يطلق عليهم الأسماء "Extrinsecus impulsores"، ويرى أن بوركاري سيجد خلفاء له في أعماله السيئة. وتحمل أحلام بوركاري بالتأكيد بعض أوجه التشابه لتلك الخاصة بكولا دي رينزي Cola di Rienzi.وهو أيضاً يعزو إلى نفسه قصيدة Spirito Gentil، الموجهة من بترارك إلى رينزي.

(٧) يشتبه معاصر في ألفونسو من نابولي، واكتشف حديثًا مستندات تظهر أنه في الراجع على حق.

(٨) "Ut Papa tantum vicarius Christi sit et non etiam C?saris Tunc Papa et dicetur et erit pater sanctus, pater omnium, pater ecclesiæ," etc. وقد كُتب عمل ڤاللا Valla في وقت أبكر، وكان مُوَجَّهًا على يوجينيوس الرابع. أنظر فالين، -Vahlen, Lor. Valla, pp. 25 sqq., es pecially 32 (Berlin, 1870) . ومن الناحية الأخرى، قام ڤاللا بمدح نيقولاس الخامس، -Gregoro vius, vii,136 .

(٩) انظر Pii II Comment., iv, pp. 208 sqq. Voigt, Enea Silvio, iii, pp.151 sqq .

(١٠) انظر بلاتينا .. Platina, Vita Pauli II انظر باستور .Cf. Pastor, ii, pp. 310 sqq، حيث ظلت المؤامرة، بعد تحقيق مستفيض، موضع التساؤل.

(١١) باتّيستا مانتوڤانو .Battista Mantovano, De Calamitatibus Temporum, lib. iii وكان العربي يبيع البخور والأرجوان الصوري والعاج الهندي : "Venalia nobis templa, sacerdotes, altaria sacra, coronæ, ignes, thura, preces, cælum est venale Deusque". Opera, fol. 302b (ed. Paris, 1507). ثم عقب ذلك حض البابا سيكستوس، الذي تم الثناء على مجهوداته السابقة، على وضع نهاية لهذه الشرور.

(١٢) انظر، مثلاً، the Annales Placentini, in Murat., xx, col. 943 .

(١٣) انظر كوريو .Corio, Storia di Milano, fol. 416-420 وقد ساعد بييترو فعلاً في انتخاب سيكستوس. انظر إنفيسّورا .Infessura, in Eccard, Scriptores, ii, col. 1895 ومن الغريب أنه في ١٤٦٩ تم التنبؤ بأن الخلاص سيجيء من سافونا (مسقط رأس سيكستوس، الذي انتخب في ١٤٧١) خلال ثلاثة أعوام. انظر الرسالة والتاريخ في بالوز Baluz., Miscell., iii, p. 181 . وطبقًا لما ذكر مكيافيللي، Stor. Fiorent., lib. vii، فإن البنادقة دسوا السم للكاردينال. وبالتأكيد لم يكونوا بغير

دوافع لفعل ذلك. (وكان حدس مكيافيللي خاطئًا غالبًا. وحتى الاتفاق المذكور أعلاه بين بييترو ودوق ميلانو كان مجرد شائعة!-و. ج. W. G) .

(١٤) كان هونوريوس الثاني Honorius II يرغب، بعد وفاة ويليام الأول (١١٢٧)، في أن يستولي على أبوليا Apulia، كإقطاعة تعاد إلى كنيسة القديس بطرس .St. Peter

(١٥) فابروني .Farboni, Laurentius Magn., Adnot. 130, pp. 256 sqq وأرسل مرشد، هو فيسبوتشي Vespucci، كلمة من كل : "Hanno in ogni elezione a mettere a sacco questa corte, e sono i maggior ribaldi del mondo" .

(١٦) انظر كوريو .Corio, fol. 450 والتفاصيل، جزئيًا من وثائق غير منشورة، عن أعمال الرشوة هذه موجودة في جريجوروفيوس Grgorovius, vii, 310 sqq .

(١٧) وتوجد رسالة تحضيض شديدة التميز كتبها لورنزو، في فابروني .,Fabroni, Laurentius Magn Adnot. 217، ومقتطفات في رانكه Ranke, Päpste, i, p. 45، وفي رويمونت -Reumont, Loren zo dei Medici, ii, pp. 482 sqq .

(١٨) وربما عن إقطاعات نابوليتانية معينة، والتي من أجلها دعا إنوسنت آل أنجيفينا Angevina مرة أخرى ضد آل فيرّانتي الراسخين. وقد كان تصرف البابا في هذه المسألة ومشاركته في مؤامرة البارونات الثانية أحمقًا وغير أمين بدرجة متساوية.

(١٩) انظر بصفة خاصة إنفيسُورا، في إيكارد، Scriptores, ii, passim .

(٢٠) ويجب مع ذلك التأكيد على أن عائلة بورجيا تفاخرت بأصلها الروماني، وأن سيزار درس في جامعات إيطالية، وأن اسكندر السادس ولوكريتسيا شجعا بحماسة الأدب والثقافة الإيطالية.

(٢١) حسب the Dispacci di Antonio Giustiniani, i, p. 60 and ii, p. 309، فإن سباستيان بينزون Sebastian Pinzon كان مواطنًا من كريمونا. وكان ميشيليتّو Micheletto إسبانيًا (Villari, Machiavelli, i, 390 note 1) .

(٢٢) مؤخرًا على يد جريجوروفيوس .(Lucrezia Borgia (2 Bd., 3 Auflage, Stuttgart, 1875

(٢٣) باستثناء آل بينتيفوجليو في بولونيا، وأسرة إيستي في فيرارا. وأجبرت الأخيرة على تكوين علاقة أسرية، بزواج لوكريتسا من الأمير ألفونسو.

(٢٤) طبقاً لكوريو (fol. 479) كان لدى شارل أفكار عن عقد مجلس، والتخلص من البابا، وحتى حمله بعيدًا إلى فرنسا، وذلك فور عودته من نابولي. وطبقًا لبينيديكتوس -Benedictus, Carolus VIII in Ec card, Scriptores, ii, col. 1584، فإن شارل، بينما كان في نابولي، عندما رفض البابا والكرادلة أن يعترفوا بتاجه الجديد، راودته بالتأكيد فكرة -"de Itali? imperio deque pontificis statu mutan do"، ولكن سرعان ما عقد رأيه بعد ذلك على الاكتفاء بالإهانة الشخصية لإسكندر. ورغم ذلك، فإن البابا هرب منه. والأشياء الجديرة بالذكر في بيلورجيري Pilorgerie, Campagne et Bulletins de la Grande Armée d'Italie, 1494, 1495 (Paris, 1866, 8vo)، حيث تناقش درجة خطورة

اسكندر في أوقات مختلفة (صفحات ١١١، ١١٧، إلخ). وفي رسالة، طبعت هناك، من رئيس أساقفة سان مالو إلى الملكة أن فإنه يُنص بوضوح على: "Si nostre roy eust voulu obtemperer à la plu-part des Messeigneurs tes Cardinaulx, ilz eussent fait ung autre pappe en intention de refformer l'église ainsi qu'ilz disaient. Le roy désire bien la reformacion, mais il ne veult point entreprandre de sa depposicion" وترجمتها كالتالي: "إذا أراد ملكنا التغلب على معظم السادة الكرادلة، فعليهم اختيار بابا آخر بقصد إصلاح الكنيسة كما يقولون. فالملك يرغب بشدة في الإصلاح، بيد أنه لا يريد إطلاقاً المغامرة بخلعه".

(٢٥) انظر كوريو، fol. 450. وانظر ماليبييرو Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 318. ويمكن رؤية جشع العائلة بأكملها في ماليبييرو، من ضمن خبراء ثقات آخرين، loc. cit., p. 565. فقد استقبل محسوب nipote في البندقية بوصفه مندوب بابوي، وجمع أموالاً طائلة من بيع الإعفاءات؛ وسرق خدمه، عند مغادرتهم، كل ما وقعت عليه أيديهم، ومن ذلك قطعة من القماش المطرز من المذبح الأعلى لكنيسة في مورانو.

(٢٦) وذلك عند بانفينيو Panvinio وحده من بين المؤرخين المعاصرين (Contin. Platin?, p. 339): "insidiis C?saris fratris interfectus. . . connivente. . . ad scelus patre". وهو بيان صحيح بالتأكيد، ويمكن مغايرته بتأكيدات ماليبييرو وماتارازّو (الذي يلقي باللوم على جيوفاني سفورزا)؛ انظر، بنفس النتيجة، باول جوفيوس Paul Jovius, Elog. Vir. Ill., p. 302. وهذه العاطفة العميقة عند اسكندر تبدو كأنها علامة على الاشتراك في الجريمة. وبعد استخراج الجثة من نهر التيبر كتب سانّازارو (Opera Omnia Latine Scripta, fol. 41a, 1535):

"Piscatorem hominum ne te non, Sexte, putmus

Piscaris natum retibus, ecce, tuum."

وبجانب الإبيجرامة المقتبسة هناك يوجد غيرها (fol. 36b, 42b, 47b 51a, b - في الفقرة الخامسة السابقة) عند سانّازارو عن- أعني ضد- اسكندر، ومن بينها واحدة شهيرة، مشار إليها عند جريجوروفيوس عن لوكريشيا بورجيا:

Ergo te semper cupiet Lucretia Sextus?"

O fatum diri nominis: hic pater est?"

ويلعن آخرون قساوته ويحتفلون بموته بوصفه بداية لعهد جديد. وعن اليوبيل يوجد إبيجرامة أخرى fol. 43b. وهناك كثيرات لا تقل عنفاً (fol. 34b, 35a, b, 42b, 43a) ضد سيزار بورجيا، من بينها نجد في واحدة من أعنفهن:

Aut nihil aut C?sar vult dici Borgia; quidni?"

Cum simul et C?sar possit, et esse nihil."

التي استخدمها بانديللو (iv, Nov. 11) . وعن اغتيال دوق جانديا انظر بصفة خاصة المجموعة

الجديرة بالإعجاب من أكثر مصادر الدلائل أصالة عند جريجوروفيوس vii, 399-407، والتي طبقًا لها صار إثم سيزار واضحاً. (طبقاً للبحوث الحديثة، مع ذلك، فإن مصادقة البابا على الاغتيال يظل أكثر من مثير للريبة. أما إنه حرض عليه، فأمر على أية حال، لم يثبت.- و. ج. W. G) .

(٢٧) انظرماكيافيللي Opere, ed. Milan, vol. v, pp. 387, 393, 395, in the Legazione al Duca . Valentino

(٢٨) انظر توماسّو جار Tomasso Gar, Relazioni della Corte di Roma, i, p. 12. in the Rel. dei P. Capello. وحرفيًا: "يحترم البابا البندقية أكثر من أي قوة في العالم." E però desidera che ella (Signoria di Venezia) protegga il figliuolo, e dice voler fare tale ordine, che il papato o sia suo, ovvero della signoria nostra . وكلمة suo لا تشير إلا لسيزار. وهناك مثال للغموض الذي أحدثه هذا الاستخدام يُعثر عليه في الخلاف الذي ما يزال حيًا فيما يتعلق بالكلمات التي استخدمها ڤاساري في Vita di Raffaello: "A Bindo Altoviti fece il ritratto suo". etc .

(٢٩) انظر Strozzii Poetæ, p. 19, in the Venatio of Ercole Strozzi: ". . . cui triplicem fata invidere coronam"؛ وفي المرثاة الغنائية عند موت سيزار صفحات ٣١ وما بعدها: "Speraretque olim solii decira alta paterni" .

(٣٠) المصدر نفسه. وقد وعد چوبيتر ذات مرة:

Affore Alexandri sobolem, quæ poneret olim'

Itali? leges, atque aurea s?cla referret," etc.

(٣١) المصدر نفسه. "Sacrumque decus majora parantem deposuisse" .

(٣٢) وقد كان متزوجًا، كما هو معروف جيداً، من أميرة فرنسية من أسرة ألبرت، وكان له ابنة منها؛ وبطريقة أو بأخرى لا بد أنه حاول أن ينشئ أسرة ملكية. وليس معروفاً أنه اتخذ خطوات لاستعادة قبعة الكاردينالية، بالرغم من أنه (وذلك طبقاً لماكيافيللي loc. cit. P. 285) كان يعتمد على الموت السريع لوالده.

(٣٣) انظر ماكيافيللي loc. cit. P. 334. وكانت الخطط على سيينا وفي نهاية المطاف، على توسكانيا كلها موجودة بالطبع، ولكن لم تكن قد نضجت بعد؛ وكان قبول فرنسا أمرًا أساسيًا .

(٣٤) انظر ماكيافيللي Machiavelli, loc. cit., pp. 326, 351, 414 ماتارانزو Matarazzo, Cronaca di Perugia, Archiv. Stor., xvi, ii, pp. 157 and 221. وقد رغب في أن يعسكر جنوده أينما شاءوا، حتى يكسبوا أكثر في زمن السلم عنهم وقت الحرب. ويقول بيتروس ألسيونيوس Portus Alcyonius, De Exilio (1522), ed. Menken, p. 19 عن أسلوب شن الحرب: "Ea scelera et flagitia a nostris militibus patrata sunt qu? ne Scyth? quidem aut Turc? aut P ni in Italia commisissent". ونفس الكاتب (صفحة ٦٥) يلقي باللوم على اسكندر بوصفه إسبانيًا: "Hispani generis hominem, cujus proprium est, rationibus et commodis Hispanorum consultum velle, non Italorum". انظر أعلاه في نفس هذا الفصل.

(٣٦) عن ذلك انظر بييترو ڤاليريانو Pietro Valeriano, De Infelicitate Literat., ed. Menken, p. 282، عندما يتحدث عن چيوڤانى ريجيو Giovanni Regio فيقول ما نصه: "In arcano proscrip- torum albo positus".

(٣٦) انظر توماسّو جار Tomasso Gar, loc. cit. P. 11. ومن ٢٢ مايو ١٥٢٠ فما بعده فإن عمل جوستينيانى Dispacci of Giustiniani، الذى نشره باسكوالى ڤيللارى Pasquale Villari، يقدم معلومات قيمة.

(٣٧) انظر باول. جوڤيوس Paul. Jovius, Elogia, p. 202, Cesare Borgia. وفى كتاب راڤاييل ڤولاتيرانوس Commentarii Urbani of Raph. Volaterranus, lib. xxii، يوجد وصف لاسكندر السادس، تم تأليفه فى عهد يوليوس الثانى، ومع ذلك مكتوب بطريقة حذرة. ونحن نقرأ هنا: "... Roma nobilis jam carnificina facta erat".

(٣٨) انظر Diario Ferrarese, in Murat. xxiv, col. 362.

(٣٩) انظر باول. جوڤيوس Paul. Jovius, Histor., ii. fol. 47.

(٤٠) (هذا الحدس، الذى أبداه المعاصرون، لا يزال غير مؤكد- و.ج.W.G).

(٤١) انظر الفقرات فى رانكه Ranke, R?m. Päpste; وسامتل فيركه Sämmtl. Werke, Bd. Xxxvi, 35, and xxxix, Anh. Abschn. 1, Nro. 4، وجريجوروڤيوس Gregorovius, vii, 497 sqq. وجوستينيانى لا يعتقد أن البابا تم دس السم له. انظر له Dispacci, vol. ii, pp. 107 sqq; وملحوظة ڤيللارى (Villari's note, iii, pp. 120 sqq.هذا الرأى لبوركهارت لا يمكن، مع ذلك، تأكيده بالدليل. انظر باستور Pastor, iii, pp 495 sqq-- و. ج. W. G).

(٤٢) انظر بانڤينيوس Panvinius, Epitome Pontificum, p. 359. وعن محاولة دس السم لخليفة اسكندر، وهو يوليوس الثانى، انظر صفحة ٣٦٣ وطبقاً لسيسموندى Sismondi, xiii, p. 246، فإنه بتلك الطريقة حدث أن لوبيز، كردينال كابوا، الذى كان لسنوات عديدة يشارك البابا جميع أسراره، لقى نهايته؛ وكذلك كاردينال فيرونا طبقاً لسانوتو فى رانكه (Ranke, Päpste, i, p. 52, note). وعندما توفى كاردينال أورسينى حصل البابا على شهادة تفيد موته موتة طبيعية من جماعة من الأطباء.

(٤٣) انظر براتو Prato, Archiv. Stor., iii, p. 254; انظر أيضًا أتيليو أليسيو Cf. Attilio Alessio, in Baluz., Miscell., iv, pp. 518 sqq.

(٤٤) وتحول إلى ربح وفير على يد البابا. انظر أيضًا Cf. Chron. Venetum, in Murat., xxiv, col. 133، المقدم فقط على هيئة تقرير: "E si giudiceva, che il Pontrfice dovesse cavare assai danari di questo Giubileo, che gli tornerà molto a proposito".

(٤٥) انظر أنسهيلم Anshelm, Berner Chronik, iii, pp. 146-156. وانظر تريتهيم Trithem., Anales Hirsaug., tom. ii, pp. 579, 584, 586.

(٤٦) انظر بانڤين Panvin., Contin. Platiæ, p. 341.

(٤٧) وتبعًا لذلك فخامة مقابر المطارنة التي بنيت أثناء حياتهم. وبذلك كان يتم إنقاذ جزء من الغنائم من بين يدى البابا.

(٤٨) على أنه يظل مشكوكًا فيه ما إذا كان يوليوس كان يأمل حقًا أن فرديناند الكاثوليكى يمكن حثه على إعادة أسرة أراجون المنفية إلى عرش نابولي، بالرغم من تصريح چيوڤيو (Vita Alfonsi Ducis) .

(٤٩) وكلتا القصيدتين فى روسكو .Roscoe, Leo X, ed. Bossi, iv, pp. 257 and 297 وعن وفاته فإن Cronaca di Cremona تقول: "Quale fu grande danno per la Italia, perchè era homo che non voleva tramontani in Italia, ed haveva cazato Francesi, e l' animo haveva de cazar le altri". انظر .(Bibl. Hist. Ital., i, 217 (1876 ومن الحقيقى أنه عندما كان يوليوس راقدًا ذات يوم، فى أغسطس ١٥١١، مصابًا بالإغماء، وقد اعتقدوا أنه مات، فإن الأعضاء القلقين من العائلات النبيلة- بومبيو كولونا Pompeo Colonna وأنتيمو ساڤيللى -Antimo Savelli تجرءا ودعيا "الشعب" إلى الكابيتول. وكما يخبرنا جويتشارديني فى كتابه العاشر، فإنه من أجل أن يحثوهم على خلع العباءة البابوية - ".a vendicarsi in libertà . . .a pubblica rebellione" انظر، أيضًا، باول. چوڤيوس فى Paul. Jovius, Vita Pompeii Columnæ، وجريجوروڤيوس Gregorovius, viii, 71-75 .

(٥٠) انظر Septima Decretal., lib. i, tit. 3, cap. 1-3 .

(٥١) أنظر فرانك. ڤيتُّورى Franc. Vettori, in the Archiv. Stor., vi, 297 .

(٥٢) وبالإضافة إلى ذلك فإنه يقال باول. لانج. (Paul. Lang., Chronicon Cilicense) . أنه أنتج ما لا يقل عن خمسمائة ألف فلورين ذهبي؛ وكانت طائفة الفرنسيسكان وحدها، التي عين قائدها كاردينالاً، قد دفعت ثلاثين ألفاً. وعن ملحوظة عن المبالغ المختلفة المدفوعة انظر سانودو Sanudo, xxiv, fol. 227؛ وعن الموضوع ككل أنظر جريجوروڤيوس Grgorovius, viii, 214 sqq ..

(٥٣) انظر Fran. Vettori, loc. cit., p. 301; Archiv. Stor., App. I, pp. 293 sqq.; Roscoe, Leo X, ed. Bossi, vi, pp. 232 sqq.; Tommaso Gar, loc. cit., p. 42 .

(٥٤) (وقد ناقض ف. نيتّى (F. Nitti (1892 أن ليو العاشر اتبع سياسة عائلية مجردة مثل هذه. ويؤمن باستور Pastor, Päpste, iv, i, p. 60 بسياسة توحد مصالح أسرته بأهدافه القومية والبابوية- و. ج. (W. G.) .

(٥٥) انظر أريوستو Ariosto, Sat., vii, v, 106. "Tutti morrete, ed è fatal che muoja Leone appresso". والساتيرة الثالثة والسابعة تسخر من المتمسكين ببلاط ليو.

(٥٦) وتقدم لنا Lettere dei Principi, i, 65 واحدة من الحوادث من أمثال هذه التركيبة، وذلك فى رسالة من الكاردينال بيبينا Bibbiena من باريس فى عام ١٥١٨ (٢١ ديسمبر).

(٥٧) انظر Franc. Vettori, loc. cit., p. 333 .

(٥٨) في وقت مجلس اللاتيران في ١٥١٢ كتب بيكو عنوانًا هو J. E. P. Oratioo ad Leonem X et Concilium Lateranense de Reformandis Ecclesiæ Moribus، (طبع ماجيناو في ١٥١٢ ed. Hagenau, 1512، وقد طبع مكررًا في طبعات أعماله). وكان العنوان مهدى إلى بيركهايمر Pirckheimer، وأعيد إرساله إليه في ١٥١٧، انظر روسكو Roscoe, Leo X, ed. Bossi, viii, pp. 105 sqq.. وانظر أيضًا Cf. Vir. Doct. Epist. ad Pirck., p. 8 (ed. Freytag, Liepzig, 1838).ويخشى بيكو أنه ربما أن ينتصر الشر على الخير بلا ريب في عهد ليو، "et in te bellum a nostræ religionis hostibus ante audias geri quam parari" .

(٥٩) انظر " Lettere dei Principi, i (Rome, March 17, 1523): تقف هذه المدينة على سن الإبرة، ونرجو الله ألا نقاد إلى أفينيون أو إلى نهاية المحيط. وإن لأتنبأ بالسقوط المبكر لهذه الملكية الروحية. . . وإن لم يساعدنا الله فنحن مفقودون". وما إذا كان أدريان قد تم في الحقيقة دس السم له أم لا فإنه أمر لا يمكن التأكد منه من بلاس أورتيز Blas Ortiz, Itinerar. Hadriani (Baluz., Miscell., ed. (Mansi, i. pp. 386 sqq.) : وكان أسوأ ما في الأمر أن الجميع كانوا يصدقونه.

(٦٠) انظر نيجرو Negro, loc. cit.، في ٢٤ أكتوبر (ينبغي أن يكون سبتمبر) و٩ نوفمبر ١٥٢٦، و١١ إبريل ١٥٢٧، ومن الحقيقي أنه وجد معجبين ومتملقين. وديالوج بتروس ألسيونيوس Petrus Alcyonius' De Exilio كتب في مدحه قبل فترة وجيزة من توليه منصب البابا.

(٦١) انظر فاركي Varchi, Stor. Fiorent., i, 43, 46 sqq ..

(٦٢) انظر باول. جوفيوس Paul. Jovius, Vita Pomp. Columnæ. وانظار أيضًا باستور Cf. Pastor, iv, ii. pp. 222 sqq ..

(٦٣) انظر رانكه Ranke, Deutsche Geschichte, ii, 262 sqq. (4 Auflage). وأيضاً باستور Pastor, iv, ii, pp. 241 sqq ..

(٦٤) انظر فاركي Varchi, Stor. Fioremt., ii, 43 sqq..

(٦٥) المصدر نفسه، ورانكه Ranke, Deutsche Geschichte, ii, 278, note, and iii, 6 sqq.. وكان المعتقد أن شارل سينقل مقر حكومته إلى روما. انظر باستور Pastor, iv, ii, pp. 307 sqq ..

(٦٦) انظر رسالته إلى البابا، المؤرخة في كاربنتراس Carpentras في ١ سبتمبر ١٥٢٧ في Anecdota Litt., iv, p 335 .

(٦٧) انظر Lettere dei Principi, i, 72. من كاستيليوني إلى البابا، بورجوس، في ١٠ ديسمبر ١٥٢٧

(٦٨) انظر توماسّو جار Tommaso Gar, Relaz. Della Corte di Roma, i, 299 .

(٦٩) وقد نجح الفارنيزيون Farnese في شيء من هذا القبيل، وتم تدمير الكارافيين Caraffa .

(٧٠) انظر بترارك Petrarch, Epist. Fam., i, 3, p. 574، عندما حمد الله أنه ولد إيطاليًا. ومرة أخرى في Aplolgia contra cujusdam Anonymi Galli Calumnias of the year 1367 (Opp., ed, Bas., 1581), pp. 1068 sq.. انظر ل. جايجر L. Geiger, Petrarca, pp. 129-145 .

(٧١) وبوجه خاص ما ذكر في الجزء الأول من سكارديوس Schardius, Scriptores Rerum Germanicarum (Basel, 1574). وعن فترة أبكر انظر فيليكس فابر Felix Faber, Historia Suevorum, libri duo (in Goldast, Script. Rer. Suev., 1605)؛ وعن فترة تالية، انظر إيرينيكوس Irenicus, Exegesis Germaniæ (Hagenau, 1518). وعن العمل الأخير والتواريخ الوطنية لذلك العهد انظر مختلف الدراسات التي أعدها أ. هوراويتز A. Horawitz, Hist. Ztschr., Bd. xxxiii, 118, note 1 .

(٧٢) وهذه حادثة واحدة من بين أخرى عديدة، إجابات دوق البندقية لوكيل فلورنسي فيما يتعلق ببيزا، ١٤٩٦، The Answers of the Doge of Venice to a Florentine Agent respecting Pisa, 1496, in Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vi, i, p. 427 .

القسم الثاني

تطور الفرد

الفصل الأول

الدولة الإيطالية والفرد

إن طابع هذه الدول أو الولايات، سواء أكانت جمهوريات أم استبداديات، لا يكمن فيه السبب الأوحد فحسب بل الرئيسى فى التطور المبكر للفرد الإيطالى. فإلى هذه كلها يرجع الفضل فى أنه كان بكر أبناء أوروبا الحديثة.

ففى العصور الوسطى كان كلا جانبى الوعى البشرى- ما كان منه انطوائيًا متجهًا للداخل وما كان انبساطيًا متجهًا للخارج- يرقد فى أضغاث أحلام أو نصف مستيقظ تحت غلالة مشتركة تعم الجميع. وكانت الغلالة منسوجة من العقيدة والأوهام والتحيزات الطفلية، وهى أمور كان العالم والتاريخ يُريان من خلالها مصطبغين بأصباغ عجيبة. ولم يكن الإنسان واعيًا بنفسه إلا بوصفه عضواً فى عرق (أى جنس بشرى) أو شعب أو حزب أو عائلة أو نقابة- أى فقط من خلال فئة عامة ما. والذى حدث فى إيطاليا هو أن هذه الغلالة ذهبت بددًا فى الهواء لأول مرة؛ فأصبح فى الإمكان قيام معالجة "موضوعية" و"تأمل موضوعى" فى الدولة وفى كل شئون هذا العالم. على أن الناحية "الذاتية" أبرزت نفسها فى الوقت ذاته بما يقابل ذلك من تأكيد، فأصبح الإنسان "فردًا" روحيًا(١)، واعترف بنفسه على حد هذا الوصف. وبنفس هذه الطريقة ميز الإغريقى نفسه ذات يوم من البربرى، كما أن العربى أحس نفسه فردًا فى وقت كان غيره من الأسيويين لا يعرفون أنفسهم إلا كأعضاء فى عرق. ولن يعسر علينا أن نثبت أن هذه النتيجة إنما ترجع، فوق كل شئ، إلى الظروف السياسية لإيطاليا.

وفى إمكاننا فى أزمان أشد إيغالاً فى القدم أن نحس هنا وهناك تطوراً للشخصية الحرة، لعله فى شمال أوروبا إما لم يحدث على الإطلاق أو لم يستطع أن

يكشف عن نفسه بنفس الطريقة. وتتبين لنا شخصيات من هذا النوع في ثلة المفسرين الجسورين في القرن السادس عشر الذين وصفهم لنا لويدبراند، وفي بعض معاصري جريجوري السابع، وقلة من خصومهم أول أفراد أسرة هوهنشتاوفن. على أن إيطاليا شرعت قرب نهاية القرن الثالث عشر تزدحم بالفردية؛ لقد تبدد السحر الذي أُضفي على الشخصية البشرية، ومن ثم تقابلنا ألف صورة كل منها بشكله الخاص وزيه الخاص. ومن ثم فإن قصيدة دانتي العظيمة ما كان يمكن أن تكون إلا مستحيلة في قطر آخر من أقطار أوروبا، ولو لسبب واحد فقط هو أنها جميعًا كانت ما تزال ترزح تحت تعويذة العرق. فأما بالنسبة لإيطاليا فإن ذلك الشاعر الفحل، في غمار ثراء الفردية التي كان هو مطلقها من عقالها، كان أشد البشراء وطنية في زمانه. على أننا سنعود إلى بحث هذا الكشف عن كنوز الطبيعة البشرية في الأدب والفن- أي هذا التمثيل والنقد مُتَعَدِّد الجوانب- في فصول منفصلة؛ فأما ها هنا فسنجتزئ بدراسة الواقع النفسي ذاته. ويتبدى هذا الواقع في شكل حاسم لا يتطرق إليه الخطأ. وكان إيطاليو القرن الرابع عشر يعرفون القليل عن التواضع الزائف أو عن النفاق في أي شكل كان؛ ولم يكن واحد منهم يخشى التفرد، أي أن يكون أو يبدو[٢]، غير مماثل لجيرانه[٣].

وكان الاستبداد، كما رأينا آنفًا، يعمل جاهدًا وإلى أقصى حد على تغذية وتنشيط الفردية، لا فردية المستبد أو قائد المرتزقة نفسه[٤] فحسب، بل فردية الرجال الذين كان يحميهم أو يستخدمهم آلات في يديه- ما بين سكرتير أو وزير أو شاعر أو رفيق. فهؤلاء الناس كانوا مجبرين على معرفة جميع الموارد الجوّانية لطبيعتهم الخاصة سواء منها العابرة أو الدائمة؛ كما أن استمتاعهم بالحياة كان يزداد قوة ويركز تركيزًا بعامل الرغبة في الحصول على أعظم جانب من الرضا من خلال فترة ربما تكون موجزة جدًا من السلطة والنفوذ.

ولكن حتى الرعايا الذين كان هؤلاء يحكمون لم يكونوا مبرأين من ذلك الدافع نفسه. وذلك بغض النظر تمامًا عن أولئك الذين ضيعوا حيواتهم في معارضة ومؤامرات سرية، فنحن هنا إنما نتحدث عن الغالبية التي كانت تقنع بمركز خاص تمامًا، شأن معظم سكان الحضر (المدن) في الإمبراطورية البيزنطية والدول الإسلامية. ولا شك أنه كثيرًا

ما كان من العسير على رعايا أحد الأمراء من أسرة فيسكونتى المحافظة على كرامة أشخاصهم وعائلاتهم، كما أن الجماهير الغفيرة لا بد أنها فقدت الشئ الكثير من صفاتها الخلقية المميزة من خلال العبودية التى كانوا يعيشون فى ظلها. ولكن ذلك لم يكن هو الحال فيما يتعلق بالفردية؛ وذلك لأن عدم القدرة السياسية لم تعق مختلف الميول والظواهر المتصلة بالحياة الخاصة عن الانتعاش والازدهار على أقوى وجه وأتمه تنوعًا. هذا وإن الثروة والثقافة، بقدر ما كان إظهار النعمة والتفاخر بها والتنافس مباحة غير محظورة عليهم، وحرية حضرية (أى خاصة بالمدن) لم تكف يومًا من الأيام عن أن تكون ضخمة جسيمة القدر، وكنيسة كانت، على عكس الكنيسة فى الدولة البيزنطية أو رجال الدين فى العالم الإسلامى، غير متطابقة مع الدولة- كل هذه الظروف لا شك أنها كانت مواتية تمامًا لنمو فكر الفرد، وهى أمور تم إعداد وقت الفراغ اللازم لها وتزويدها به عن طريق كف الصراعات الحزبية وإيقافها. وعند ذلك يبدو أن الإنسان الخاص المستقل، غير المهتم بالسياسة والمنشغل جزئيًا بانشغالات جادة هامة، وجزئيًا من ناحية أخرى باهتمامات هواة الفن والأدب dilettante، قد تشكل لأول مرة تشكيلاً كاملاً فى استبداديات القرن الرابع عشر هذه. وطبيعى أنه ليس من اللازم الاحتياج إلى الأدلة الوثائقية فى مثل هذه النقطة. فإن كُتَّاب الروايات الذين ربما توقعنا منهم إمدادنا بالمعلومات يصفون لنا الغرائب والمعجزات بوفرة، ولكن لا يفعلون ذلك إلا من وجهة نظر واحدة فقط وبقدر ما تتطلبه حاجات القصة. ويقوم مشهدها، أيضًا، بوجه رئيسى فى المدن الجمهورية.

وفى هذه الظروف الأخيرة كانت الأمور أيضًا مواتية لنمو الطابع الفردى، ولكن على نحو آخر. فكلما كثر تعدد تغير الحزب الحاكم، كان الفرد مجبرًا على بذل أقصى غاية فى ممارسة السلطة والاستمتاع بها. وأحرز رجال الدولة والزعماء الشعبيون، وبخاصة فى التاريخ الفلورنسى[٥]، طابعًا مميزًا شخصيًا يبلغ من تميزه أننا لا نكاد نعثر، ولو بصورة استثنائية، على نظيرٍ موازٍ لهم فى التاريخ المعاصر، بل لا نكاد نجده حتى فى شخص ياكوب فان أرتفلدى Jacob van Artevelde .

على أن أعضاء الأحزاب المنهزمة كانوا، من الناحية الأخرى، كثيرًا ما يصلون إلى موقف يماثل موقف رعايا الدول الاستبدادية، مع فارق هو أن الحرية أو السلطة

المحرزة فيما سلف، وفي بعض الحالات الأمل في استرجاعها، تضفي على فرديتهم طاقة أعلى. ومن جملة أولئك الرجال المضطرين إلى القناعة بالفراغ اللاإرادي، نجد على سبيل المثال أنجلو باندولفيني (توفى ١٤٤٦)، الذى يعد عمله فى الاقتصاد المنزلى[٦] أول برنامج كامل لحياة خاصة متطورة. وكانت تقديراته لواجبات الفرد بوصفها تدبيراً لمواجهة ما يكتنف الحياة العامة من أخطار ونكران للجميل[٧] تعد على علاتها أثراً باقياً حقيقياً عن ذلك العالم.

وللنفى أيضاً أثره فوق كل شئ، وهو أنه إما أن يبلى المنفى ويفنيه أو ينهض بأعظم ما فيه ويطوره. يقول جوفيانو بونتانو[٨]: "ترى فى جميع مدننا جمهوراً من الناس تركوا وطنهم بإرادتهم الحرة؛ ولكن الرجل من هؤلاء يأخذ فضائله معه حيثما ذهب". كما أن الواقع أنهم لم يكونوا بأية حال رجالاً نفوا من بلادهم فقط، بل إن آلاف منهم تركوا موطنهم ومسقط رأسهم طواعية لأنهم وجدوا حالها السياسية أو الاقتصادية لا تطاق. وشكل المهاجرون الفلورنسيون فى فيرارا واللوتشيون فى البندقية جاليات كاملة من أنفسهم.

ولا شك أن الروح العالمية cosmopolitan التى نمت بين أشد الدوائر الموهوبة إنما هى فى حد ذاتها مرحلة عالية من مراحل الفردية. ويجد دانتى، كما أسلفنا، موطناً جديداً فى لغة إيطاليا وثقافتها، ولكنه يتجاوز حتى هذا نفسه فى قوله "إن وطنى هو العالم أجمع!"[٩]. وعندما عرض عليه العودة إلى فلورنسا بشروط غير كريمة رد عليهم كاتباً ما يلى: "ألست أستطيع أن أشهد بعينى فى كل مكان ضوء الشمس والنجوم؛ وأن أتأمل فى كل مكان أنبل آيات الصدق، دون أن أبدو فى مظهر غير مجيد وصورة مخزية مخجلة أمام المدينة والشعب؟ لن يخذلنى خبزى نفسه!"[١٠]. ويبتهج الفنانون بصورة متحدية لا تقل عن هذه بحريتهم من الاضطرار إلى السكنى الثابتة والإقامة بمكان واحد. يقول جيبرتى[١١] Ghiberti : "إن الذى تَعلَّمَ كل شئ هو وحده الذى لا يكون غريباً فى أى مكان؛ وإن حُرِمَ من أصدقائه وجرد من ثروته، فإنه مع ذلك مواطن بكل بلاد الأرض، ويستطيع غير هيّابٍ ولا وَجِل أن يحتقر تقلبات الحظ". وفى نفس هذه النغمة يكتب إنسانى منفى فيقول "فحيثما وضع رجل عالم مقعده فثمة بلاده"[١٢].

هوامش الفصل الأول - القسم الثانى

(١) لاحظ التعبيرات uomo singolare و uomo unico للمراحل العليا والأعلى من تطور الفردية.

(٢) بحلول عام ١٣٩٠ لم يعد هناك أي موضة سائدة لملابس الرجال في فلورنسا، فكل فرد يلبس حسب ذوقه الخاص. انظر أغنية فرانكو ساكّيتّى canzone of Franco Sacchetti, "Contro alle nuove foggie"، في Rime, publ. Dal Poggiali, p. 52 .

(٣) عند نهاية القرن السادس عشر يورد مونتانى الموازنة التالية Montagne (Essais, lib. iii, chap. 5, vol. iii, p. 367, of the Paris ed., 1816) التى نصها كما يلى: "Ils [les Italiens] ont plus communement des belles femmes et moins de laides que nous; mais des rares et excellentes beautés j'estime que nous allons à pair. Et j'en juge autant des esprits; de ceux de la commune façon, ils en ont beaucoup plus et evidemment; la brutalité y est sans comparison plus rare; d'âmes singulière et du plus hault estage, nous ne leur en debvons rien" .

(٤) وكذلك أيضاً عن زوجاتهم، كما يتبين من عائلة سفورزا وحكام إيطاليين شماليين آخرين. انظر أيضاً فى عمل چاكوبوس فيل. برجومينسيس Cf. Jacopus Phil. Bergominsis. De Plurimis Claris Selectisque Mulieribus (Ferrara, 1497)، عن حيوات باتيستا مالاتيستا وبولا جونزاجا وبونا لومباردا وريكاردا ديستى، والسيدات الرئيسيات في عائلة سفورزا ، بياتريس وغيرهن. ومن بينهن من هى أكثر من سليطة مشاكسة أصيلة، وفى حالات كثيرة فإن المواهب الطبيعية يكملها ثقافة إنسانية. (أنظر أسفله، القسم الخامس، الفصل الثالث).

(٥) ويعدد فرانكو ساكّيتّى فى كتابه Capitolo (Rime, publ. Dal Poggiali, p. 56)، حوالى عام ١٣٩٠ أسماء ما يزيد عن مائة من الأشخاص المبرزين فى الأحزاب الحاكمة الذين علقوا فى باطن ذاكرته. ومع ذلك بالرغم من ذكره كثيرين من المتوسطين العاديين من بينهم، فإن القائمة ما تزال مثيرة للإعجاب بوصفها دليلاً على إيقاظ الفردية. وعن حياة فيليبو ڤيللانى Vite of Filippo Villani انظر أسفله، بقية هذا الفصل .

(٦) يشكل Trattato del Governo della Famiglia جزءاً من العمل La Cura della Famiglia (Opere Volgari di L. B. Alberti, publ. Da Anicio Bonucci, vol. ii, Florence, 1884). انظر vol. i, pp. xxx-xl, vol. ii, pp. xxxv sqq.. and vol. v, pp. 1-127. هناك سابقًا كان العمل بصفة عامة، كما فى النص، منسوبًا إلى أنيولو باندولفينى (Agnolo Pandolfini نقلر عنه ڤيسپازيانو

فيورنتينو .Vespas. Fiorentصفحات ٢٩١ و٣٧٩)؛ والأبحاث الأخيرة على يد فر. باليرمو Fr. Palermo (فلورنسا، ١٨٧١) تظهر ألبرتي على أنه المؤلف. والعمل مقتبس من طبعة تورينو (بومبا Pomba، ١٨٢٨).

(٧) انظر Trattato, pp. 65 sqq ..

(٨) انظر جوف. بونتان. Jov. Pontan., De Fortitudine, lib. ii, cap. 4, De Tolerando Exilio. وبعد ذلك بسبعين سنة استطاع كاردانوس (Cardanus (De Vita Propria, cap. 32أن يتساءل بمرارة "Quid est patria, nisi consensus tyrannorum minutorum ad opprimendos imbelles timidos, et qui plerumque sunt innoxii?" .

(٩) انظر De Vulgari Eloquentia, lib. i, cap. 6. وعن اللغة الإيطالية المثالية انظر cap. 17. وعن الوحدة الروحية للرجال المثقفين. انظر cap. 18. وعن افتقاد الوطن انظر أيضًا الفقرات في Cf. Purgatorio, viii, 1 sqq., and Paradiso, xxv, 1 sqq ..

(١٠) انظر Dantis Alligherii Ipistol?, ed. Carolus Witte, p. 65. (ومن المشكوك فيه أن هذه الرسالة تشير إلى العرض المعني- و. ج. W. G) .

(١١) انظر جيبرتي Ghiberti, Secondo Commentario, cap. xv (Vasari, ed. Lemonnier, i, p. xxix) .

(١٢) انظر حياة كودريوس أورسيوس Codri Urcei Vita، في نهاية أعماله، المطبوعة لأول مرة في بولونيا في ١٥٩٢. وهذا بالتأكيد يقترب من المثل القديم .Ubi bene, ibi patria ولم يطلق اسم كودروس أورسيوس نسبة لمكان ميلاده، ولكن نسبة لفورلي، حيث عاش طويلاً؛ انظر مالاجولا Malagola, Codro Urceo, cap. v, and App. XI (Bologna, 1877). وكانت وفرة المتع الفكرية المحايدة، التي هي في استقلال عن الظروف المحلية، والتي أصبح المثقفون الإيطاليون أكثر فأكثر قادرين عليها، جعلت النفي محتملاً بالنسبة لهم. وكذلك أصبحت العالمية cosmopolitanism علامة على عهد تم فيه اكتشاف عوالم جديدة، ولم يعد الرجال يحسون بالراحة في العوالم القديمة. ونحن نرى ذلك في الإغريق بعد الحرب البيلوبينية؛ ولم يكن أفلاطون، كما يقول نيبور Niebuhr، مواطنًا جيداً، وكان زينوفون Xenophon مواطنًا سيئًا؛ وذهب ديوجينيس Diogenes إلى مدى أبعد إلى حد أنه أعلن أن عدم المواطنة متعة، ويسمي نفسه، كما يخبرنا لايرتوس وربما أمكن هنا أن نذكر عملاً آخر مثيراً للإعجاب. فإن بتروس ألسيونيوس في كتابه Medices Legatus de Exilio Lib. Duo, Venice, 1522 (printed in Mencken, Analecta de Calam. Leteratorum, pp. 1-250, Leipzig, 1707)، يخصص لموضوع النفي مناقشة طويلة ومطنبة. وهو يحاول بطريقة منطقية وتاريخية أن يفند الأسباب الثلاثة التي من أجلها يصبح النفي شراً- أي، (١) لأن المنفي ينبغي أن يعيش بعيداً عن وطنه الأم، (٢) لأنه يفقد الشرف المعطى إليه في وطنه، (٣) لأنه ينبغي أن يتخلى عن أصدقائه وأقاربه؛ ويصل في النهاية إلى الخلاصة أن النفي ليس شراً. وتصل تأكيداته إلى منتهاها في الكلمات "Sapientissimus quisque omnem orbem terrarum unam urbem esse ducit. Atque etiam illam veram sibi esse patriam arbitratur quæ se perigrinantem exciperit, quæ pudorem, probitatem, virtutem colit, quæ optima studia, liberales disciplinas amplectitur, quæ etiam facit ut peregrini omnes honesto otio teneant statum et famam dignitatis su?".

الفصل الثانى

تشكيل الفرد

ربما استطاعت عين حادة مدربة أن تتعقب خطوة فخطوة الزيادة في عدد الرجال الكاملين فى أثناء القرن الخامس عشر. فهل كانوا يشخصون بأبصارهم أمامًا كهدف شعورى للتنمية والتطوير المنسجم لوجودهم الروحى والمادى؟ ذلك أمر يعسر القول فيه؛ على أن العديد منهم بلغ ذلك الحد، بقدر ما يتمشى الأمر مع النقص وامتناع الكمال فى كل ما هو أرضى دنيوى من الأمور. وربما كان الأفضل التخلى عن محاولة الوصول إلى تقدير النصيب الذى كان للحظ والخلق والموهبة فى حياة لورنزو الفاخر. ولكن انظر إلى شخصية كشخصية أريوستو، وبخاصة فيما سطّر من الساتيرات أى التهكميات الهجوية. فما أبلغ الانسجام والتناغم اللذين اتُّخِذَا تعبيراً عن كبرياء الإنسان والشاعر، والسخرية التى يعامل بها استمتاعاته هو، فهى من ثم أشد التهكميات دقة ورقة وأعمقها اعتماراً بحسن النية!.

فعندما اقترن هذا الدافع نحو أعلى التطورات الفردية[1] بطبيعة قوية متنوعة، تمكنت من زمام جميع عناصر ثقافة العصر، ظهر من ثم "الرجل جامع الجوانب أى صاحب جميع المواهب" - l'uomo universale الذى انتمى إلى إيطاليا وحدها. فهناك كان الرجال ذوى معرفة موسوعية إنسيكلوبيدية فى كثير من الأقطار أثناء العصور الوسطى، وذلك لأن هذه المعرفة كانت محصورة داخل حدود ضيقة؛ بل لقد كان هناك فى القرن الثانى عشر نفسه فنانون شاملون، ولكن مشاكل فن العمارة كانت بسيطة ومتماثلة متسقة نسبيًا، كما أنه فى النحت والتصوير كانت المادة أكثر أهمية من الشكل. على أننا فى إيطاليا فى أثناء عصر النهضة نجد فنانين فى جميع المجالات خلقوا أعمالاً جديدة تتصف بالكمال، وتركوا فى الناس أيضًا أعظم الأثر وأكبر

الانطباع بوصفهم رجالاً. وهناك آخرون، خارج نطاق الفنون التى يمارسونها، كانوا أساتذة لهم دائرة ضخمة من الاهتمامات الروحية.

وطفق دانتى، الذى كان حتى فى أيام حياته يسميه البعض شاعراً ويدعوه البعض الآخر فيلسوفاً والبعض الآخر لاهوتيًا ثيولوجيًا[٢]، يصب فى كتاباته جدولاً دافقًا من القوة الشخصية، يشعر القارئ بغض النظر عن دائرة اهتماماته بالموضوع، أنه يجترفه اجترافًا. فأية قوة إرادة تلك التى لا بد أن الإتقان الدءوب المتواصل للكوميديا الإلهية Divine Comedy قد احتاج إليها! وإذا نحن أنعمنا النظر فى القصيدة نفسها وجدنا إنه لا يكاد يكون هناك فى العالم الروحى أو الطبيعى (الفيزيقى) بأسره مادة هامة لم يسبر الشاعر أغوارها ولم يعجم عودها، ولم تكن أقواله فيها- وهى فى كثير من الأحيان بضع كلمات قليلة- أرجح الأقوال وزنًا فى زمانه. وهو بالنسبة للفنون التشكيلية فى الدرجة الأولى من الأهمية وذلك لأسباب أفضل من إشاراته إلى الفنانين المعاصرين- وسرعان ما أصبح هو نفسه مصدر إلهام[٣].



شكل (٦٧) أندريا ماتينيا

مانتوا، سان أندريا

تصوير أندرسون، روما

ويمتاز القرن الخامس عشر، فوق كل شئ، بأنه قرن الرجال المتعددى الجوانب. فليس هناك ترجمة حياة لا تتحدث، بالإضافة إلى العمل الرئيسى لبطلها، عن اتجاهات ودراسات أخرى تخرج عن حدود الهواية وممارستها Dilettantstism . وكان التاجر والسياسى الفلورنسى كثيراً ما يكون ضليعًا فى كل من اللغتين الكلاسيكيتين القديمتين؛ وكان أشهر الإنسانيين يستخدمون مَنْ يقرأون "الأخلاق والسياسة" لأرسطو على مسامعهم ومسامع أولادهم[٤]؛ بل إنه حتى بنات الأسرة كن يتلقين تعليمًا عاليًا. ففى هذه الدوائر عومل التعليم الخصوصى لأول مرة معاملة جدية. فاضطر "الإنسانى" فى حد ذاته للتزود بأشد ألوان التحصيلات تنوعًا، وذلك لأن دراساته الفيلولوچية (الفقه لغوية) لم تكن مقصورة، كما هو الحال اليوم، على المعرفة النظرية بالعصور العهيدة القديمة الكلاسيكية، بل لم يكن بد لها من أن تخدم الحاجات العملية للحياة اليومية. وبينما هو يدرس بلينى[٥] Pliny، يجمع مجموعات فى التاريخ الطبيعى؛ وكانت جغرافيا القدماء مرشده ودليله فى دراسته للجغرافيا الحديثة، وكان تاريخهم نموذجه المحتذى فى كتابته للأخبار chronicles المعاصرة، حتى وإن كتبت بالإيطالية؛ ولم يقتصر على مجرد ترجمة كوميديات بلوتوس Plautus، بل كان يعمل مخرجًا لها عندما تمثل على المسرح؛ وكل شكل مؤثر فعال ظهر فى الأدب القديم، حتى محاورات لوسيان، تراه يبذل قصاراه لتقليده؛ وإضافة إلى ذلك شغل وظيفة المتصرف أو المأمور Magistrate، والسكرتير والسياسى- دون أن يكون ذلك لمصلحته الخاصة فى كل الأحوال.

على أن من هؤلاء الرجال مُتعدِّدى الجوانب نهض عمالقة كالأبراج من فوقهم يمكن تسمية الواحد منهم باسم "الكلى الجامع لجميع الجوانب". وقبل تحليل الأوجه العامة للحياة والثقافة فى هذه الفترة، يجوز لنا هنا، ونحن على عتبات القرن الخامس عشر، أن ننظر متأملين هنيهة فى شخص أحد هؤلاء العمالقة- ليون باتّيستا ألبرتى Leon Battista Alberti (ولد ١٤٠٤ - ومات ١٤٧٢)[٦]. ولا تتحدث ترجمة حياته[٧]، التى ليست إلا جذاذة ناقصة ، عنه إلا قليلاً بوصفه فنانًا، ولا تشير أدنى إشارة إلى أهميته الكبرى فى تاريخ فن العمارة. وسنرى الآن ما هو ذلك الرجل، بغض النظر عن هذه الأحقية فى الامتياز.



شكل (٦٨). ليون باتّيستا البرتى

باريس مجموعة دريفوس

ففى كل مجال يُكتسب فيه الثناء، يتفوق ليون باتّيستا منذ طفولته. ومن بين هذه ضروب متنوعة من الألعاب والتدريبات الرياضية الباهرة، فنقرأ مندهشين كيف استطاع وقدماه متلاصقتان أن يقفز فوق أحد الرجال؛ وكيف أنه استطاع فى الكاتدرائية أن يرمى بقطعة من النقود فى الهواء لم يلبث الناس أن سمعوا صوت اصطكاكها بالسقف شاهق الارتفاع؛ وكيف أن أشد الخيول ضراوة كانت ترتعد تحته. وقد رغب أن يكون مبرءاً من كل خطأ فى عين الناس فى ثلاثة أمور: فى المشى وفى الركوب وفى الخطابة. وتعلم الموسيقى بلا معلم، ومع ذلك فإن تلحيناته الموسيقية كانت تلقى الإعجاب من حكام (خبراء) محترفين. واضطر تحت ضغط الفقر أن يدرس كلا من القانون المدنى والكنسى مدة سنوات كثيرة، حتى أورثه الإنهاك مرضاً عضالاً. ولما بلغ الرابعة والعشرين عُمْرَ، وقد وجد ذاكرته فى تحصيل الكلمات تضعف، وإن كان إدراكه للحقائق سليماً لم يصب بسوء، إلى الإكباب على دراسة الفيزيقا (الفيزياء) والرياضيات. وفى نفس الوقت استطاع الحصول على التميز والحذق، وطفق يسأل

الفنانين والعلماء ومهرة الصناع من كل نوع ووصف، حتى الإسكافيين (مصلحي الأحذية)، حول أسرار حرفهم ونقاطها الخاصة. ومارس التصوير بالألوان وصوغ التماثيل إلى جانب ذلك كله، كما تفوق بوجه خاص في إنشاء ورسم الشبه الدقيق للأشخاص من الذاكرة. وأثارت آلة تصويره العجيبة[٨] Camera Obscura كل إعجاب، وفيها أظهر مرة في وقت واحد النجوم والقمر بازغًا فوق التلال الصخرية، وفي أخرى منظر برى متسع الجنبات فيه الجبال والخلجان تتراجع حتى تنغمر في "منظور" غير واضح، وفيه أساطيل تتقدم في المياه في الظل أو ضياء الشمس. وكان يرحب بما أنتجه الآخرون في حبور ومسرة، كما كان يعد كل إنجاز بشرى يتبع قوانين الجمال شأنًا بالغ القدسية[٩]. وينبغي أن يضاف إلى كل هذا أعماله الأدبية، وأولها تلك الأعمال التي ألفها في الفن، وهي من الصور والمعالم والمراجع الثقة ذات الطراز الأول بين مؤلفات الشكل والتشكيل في عصر النهضة، وبخاصة في فن العمارة؛ ثم تأتي كتاباته اللاتينية النثرية– من روايات وغيرها من الأعمال– وقد ظن الناس بعضها من منتجات العهد العتيق (العصور القديمة)؛ وثمة قصائده في الرثاء وأناشيد الرعاة (إكلوجاته eclogues) وخطبه الفكهة الضاحكة في المأدب. وكذلك أيضًا كتب بالإيطالية رسالة في الحياة المنزلية[١٠] في أربعة أجزاء؛ وأعمالاً منوعة أخلاقية وفلسفية وتاريخية؛ وكتب خطبًا وقصائد كثيرة تضم خطبة جنائزية في كلبه. وعلى الرغم من إعجابه باللغة اللاتينية، فإنه كان يكتب بالإيطالية، وشجع غيره على احتذاء حذوه؛ كان هو نفسه تلميذًا للعلوم الإغريقية، ومع ذلك فإنه كان يرى أنه بغير المسيحية يجول العالم في متاهة من الخطأ. وكان الناس يعتقدون أن أقواله الجادة والمازحة جديرة بأن تُجمع، كما أن عينات منها، الكثير منها أعمدة طوال، تنتظمها سيرة حياته كمقتبسات. وكان يفضي إلى الناس بكل ما عنده وما عرفه، فعل النوع الثرى المعطاء من طبائع البشر، دون أدنى تحفظ، إذ يبوح بأهم مكتشفاته بغير مقابل. على أنه بقي علينا أن نتحدث عن أعمق نبع في طبيعته– وهي الحدة العامرة بالتعاطف الوجداني التي أدخلها في صميم الحياة المحيطة به بأسرها. فإنه كان لدى مرآه الأشجار السامقة النبيلة وحقول القمح المتموجة، يذرف الدمع: فأما الشيوخ الوقورون الأكرمون فكان يكرمهم ويبجلهم

على اعتبار أنهم "بهجة الطبيعة"، ومهما أطال النظر إليهم لم يعدَّ نفسه بلغ الكفاية. وكانت الحيوانات ذات التكوين الكامل تحظى بحسن رعايته باعتبارها محبوَّة بوجه خاص من الطبيعة؛ وهناك في أكثر من مرة كانت مشاهدته لمنظر برى وهو مريض تشفيه من سقمه(١١). فلا عجب من أن هؤلاء الذين رأوه في تلك الحالة من التقرب والتفاعل مع العالم أن نسبوا إليه موهبة التنبؤ بالمستقبل. إذ يقال عنه أنه تنبأ بوقوع كارثة دموية في أسرة إيستى، وبمصير فلورنسا، وبموت الباباوات قبل حدوثه بسنوات، وبالقدرة على أن يقرأ ما في ملامح الرجال وقلوبهم. ولا حاجة بنا إلى القول أن إرادة حديدية كانت تغطى وتشمل وتدعم شخصيته بأكملها؛ وشأن كل عظماء الرجال في عصر النهضة، قال: "يستطيع الرجال أن يفعلوا كل شئ إذا أرادوا".

وكان ليوناردو دافنشي يُعتبر عند ألبرتى الصاقل المنجز للأشياء بالنسبة للمبتدئين، والأستاذ الأكبر بالنسبة لكل هواة الفنون dilittante المتفوقين. فيا ليت عمل ڤاسارى Vasari لقى هنا جهداً مكملاً له في وصف يشبه وصف ألبرتى!. ومن أسف أن المعالم الخارجية العملاقة لطبيعة ليوناردو لا يمكن أن يتجاوز تصورها مجرد التصور البعيد الغامض.

هوامش الفصل الثانى - القسم الثانى

(١) إيقاظ الشخصية هذا يتجلى أيضًا فى الجهد الشديد الذى ألقى على النمو المستقل للخلق، فى الادعاء بتشكيل الحياة الروحية للنفس، منفصلاً عن الأبوين والأجداد. ويوضح بوكاتشيو (De Cas. Vir. Ill., Paris, s.a., fol. xxixb) أن سقراط انحدر من أبوين غير متعلمين، وأن يوريبيدس وديموستينيس انحدرا من أبوين غير معلومين، ويصيح قائلاً: "Quasi animos a gignentibus habeamus!".

(٢) انظر بوكاتشيو Boccaccio, Vita di Dante, p. 16.

(٣) وربما كانت الملائكة التى رسمها على ألواح فى ذكرى وفاة بياتريس (La Vita Nuova, p. 61) أكثر من عمل محب متذوق dilettante للفنون. ويقول ليون. أريتينو Leon. Aretino أنه رسم egregia-mente، وكان عاشقًا كبيرًا للموسيقى.

(٤) وعن هذا وما يليه انظر بوجه خاص فيسبازيانو فيورينتينو، وهو خبير ثقة من الطراز الأول فى الثقافة الفلورنسية فى القرن الخامس عشر. وانظر أيضاً صفحات ٣٥٩، ٣٧٩، ٤٠١، الخ. انظر أيضًا كتاب حياة جانُّوكتى مانيتّى الملئ بالإثارة الساحرة والمعلومات الوفيرة Vita Jannoctii Manetti (b. 1396), by Naldus Naldius, in Murat., xx, pp. 529-608.

(٥) وما يعقب ذلك تم اقتباسه من، مثلاً، بيان بيرتيكارى Perticari عن باندولفو كولينوتشيو Pandolfo Collenuccio، فى روسكو Roscoe, Leo X, ed. Bossi, iii, pp. 197 sqq.، ومن Opere del Conte Pertican, vol. ii (Milan, 1823).

(٦) لما يعقب ذلك انظر بوركهارت Cf. Burckhardt, Geschichte der Renaissance in Italien, es-pecilly pp. 41 sqq. (Stuttgart, 1868)، وأ. سبرينجر A. Springer, Abhandlungen zur neueren Kunstgeschichte, pp. 69-102 (Bonn, 1867).

(٧) انظر in Murat., xxv, col. 295 sqq.، مع الترجمة الإيطالية فى Opere Volgari di L. B. Alber-ti, vol. i, pp. lxxxix-cix، حيث تم تحديد وإظهار أن الحدس محتمل فى أن سيرة الحياة هذه Vita دبجها ألبرتى نفسه. انظر كذلك ڤاسارى Vasari, iv, 52 sqq.، وكان ماريو سوتزينى Mario Sozzi-ni، إذا صدقنا ما نقرأ عنه فى إينياس سيلفيوس (Opera, p. 622, Epist. 112)، محبًا ومتذوقًا di-lettante عاليًا للفنون، وفى نفس الوقت متمكناً من مواد متنوعة.

(٨) وقد تمت محاولات شبيهة، وبخاصة محاولة لآلة الطيران، حوالي عام ٨٨٠ على يد الأندلسى أبو العباس قاسم بن فرناس. انظر جيانجوس Cf. Gyangos, The History of the Muhammedan Dy-

Ham- ومقتطفات في هامر ;nasties in Spain, i, 148 sqq., and 425-427 (London, 1840)
.. mer, Literaturgesch. De Araber, i, Introd., p. li

9. "Quidquid ingenio esset hominum cum quadam effectum elegantia, id prope divinum ducebat".

(١٠) وهذا هو الكتاب، (انظر هامش ٦، الفصل السابق، أي القسم الثاني، الفصل الأول)، الذي كان جزء واحد منه يُعتقد لمدة طويلة أنه من عمل بانولفيني، وكثيرًا ما كان هذا الجزء يطبع بمفرده.

(١١) وفي عمله .De Re Ædificatoria, lib. viii, cap. i، يوجد تعريف لطريق جميل: "Si modo mare, modo montes, modo lacum fluentem fontesve, modo aridam rupem aut planitiem, modo nemus vallemque exhibebit."

الفصل الثالث

الفكرة الحديثة عن الشهرة

هذا التطور الجواني للفرد يقابله نوع جديد من التميز البراني- هو الشكل الحديث للمجد[١] .

فأما أقطار أوروبا الأخرى، فكانت الطبقات المختلفة تعيش فيها منعزلة بعضها عن بعض، لكل منها إحساسه بالشرف المنبعث عن طائفته القروسطية. وكانت الشهرة الشعرية للشعراء الجوالون من خصوصيات طبقة الفرسان. فأما في إيطاليا فإن المساواة الاجتماعية ظهرت قبل ظهور الطغيانيات أو الديمقراطيات. فهناك نجد آثارًا مبكرة لمجتمع عام له، كما سنوضح ذلك إيضاحاً أوفى فيما بعد، أساس مشترك في الأدب اللاتيني والإيطالي؛ وكان هذا الأساس لازمًا لكي ينمو فيه هذا العنصر الجديد في الحياة. وينبغي أن يضاف إلى هذا أن المؤلفين الرومان، الذين كانوا يُدرسون أنئذٍ بحمية وحرارة، ولا سيما شيشرون، وهو أكثرهم حظوة بالقراءة والإعجاب من الناس، مملوءون ومشبعون تمامًا بفكرة الشهرة، وأن موضوعهم نفسه- إمبراطورية روما العامة الشاملة- كان يقف نصب أعين الإيطاليين مثلاً أعلى مستديمًا. ومنذ تلك اللحظة كانت تتحكم في كل طموحات وإنجازات الشعب مسلمة أو مبدأ أساسي خلقي، كان لا يزال مجهولاً بكل مكان آخر في أوروبا.

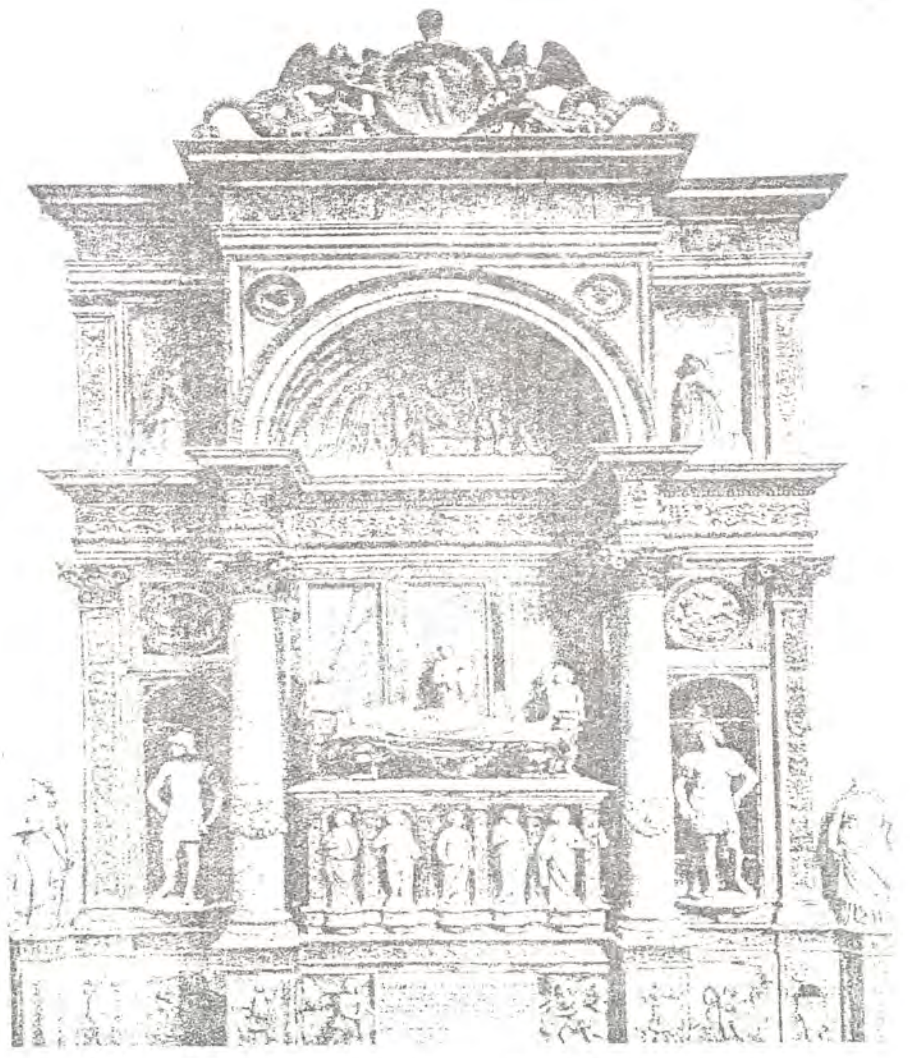
وهنا أيضًا، كما في كل النقاط الجوهرية، يكون أول شاهد يُطلب لأداء الشهادة هو دانتي. إنه قد جاهد لاكتساب إكليل غار الشعر[٢] بكل ما اجتمع في روحه من قوة. وقام، بوصفه كاتبًا خبيراً في الشئون العامة وأديبًا، بتشديد التأكيد على الحقيقة الواقعة وهي أن كل ما كُتب جديد لم يسبقه إليه أحد، وإنه يتمنى ، لا أن "يكون" كذلك

فحسب، وإنما أن يتلقى التقدير بوصفه الأول المبرز فى دروب مسيرته[٢]. على أنه حتى فى كتاباته النثرية يمس متاعب الشهرة مساً رقيقًا؛ فهو يعرف أن التعرف إلى مشاهير الرجال كثيراً ما يكون مخيبًا للآمال، ويوضح كيف أن هذا إنما يرجع من ناحية جزئية إلى ما عليه الرجال من أوهام هى أوهام الأطفال، ومن ناحية أخرى إلى الحسد، وأخرى إلى ما يتصف به البطل نفسه من نقص وعدم كمال[٣]. وهو يصر فى قصيدته الكبرى بثبات وحزم على القول بأن الشهرة شئ أجوف، وإن جاء ذلك القول بطريقة تنم عن أن قلبه لم يكن متحرراً من التشوق إلى الشهرة. ففى "الفردوس" يكون "ميركيورى" أى عطارد هو أريكة المبروكين المبرورين الذين هم فى الأرض ممن يعملون جاهدين على إحراز المجد وبذلك يكدرون صفاء "أشعة الحب الحقيقى". ومما له دلالته المميزة أن الضائعين المفقودين فى "الجحيم" يتوسلون إلى دانتى أن يحتفظ لهم بذكراهم وشهرتهم فى الأرض حية[٥]، بينما مَن فى "المطهر" يبتهلون إليه أن يمنحهم دعاءه وصلواته، بالإضافة إلى صلوات الآخرين من أجل خلاصهم[٦] فقط. وفى فقرة شهيرة[٧] يستنكر حب الشهرة -"lo grandesio dell'eccellenza" لسبب هو أن المجد الفكرى ليس شيئًا مطلقًا، وإنما هو شئ نسبى يتناسب مع الأزمان، ويمكن أن يتفوق عليه ويطمسه خلفاء أعظم.

وسرعان ما استطاع الجنس أو العنصر الجديد من الشعراء-العلماء أن يجعلوا أنفسهم سادة متحكمين فى هذا الميل الجديد. لقد توصلوا إلى ذلك فى حدود معنى مزدوج، هو أنهم هم أنفسهم معترف بأنهم أشهر مشاهير إيطاليا وفى نفس الحين أصبحوا بوصفهم شعراء ومؤرخين يتصرفون بوعى شعورى فى حسن أحدوثة غيرهم وسمعته. وهناك رمز خارجى لهذا النوع من الشهرة، هو تتويج الشعراء، الذى سنتحدث عنه فيما بعد.

وثمة معاصر لدانتى، هو البرتينوس موساتّوس Albertinus Musattus، أو موسّاتوس Mussatus، الذى توِّجَه شاعراً فى بادوا الأسقف رئيس الجامعة، كان يستمتع بشهرة لا تقل إلا قليلاً جداً عن مرتبة العبادة. ففى كل عيد ميلاد كان الأساتذة (الدكاترة) والطلاب فى كليتى الجامعة يمشون فى موكب مهيب أمام منزله ومعهم الأبواق ومعهم كذلك، فيما يبدو، الشموع المضيئة، لتقديم التحية إليه[٨] ويجلبون إليه الهدايا. وظلت

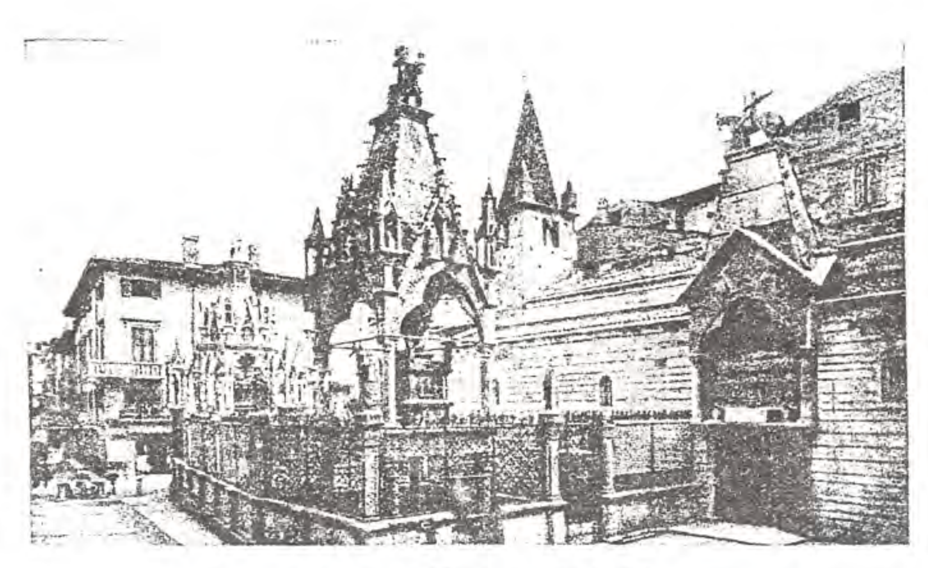
شهرته مزدهرة حتى حدث، فى ١٣١٨، أنه وقع فى خلاف جلب عليه المهانة مع الطغاة الحاكمين من آل بيت كرارا[٩].



شكل (٦٩) : نصب تذكارى لقبر الدوق فيندرامينى، لأليساندرو ليوباردى

البندقية، كنيسة القديسين چيوڤانى وباولو

ومُنح هذا اللون الجديد من إحراق البخور، الذى كان يوما ما لا يقدم إلا للقديسين والأبطال، إلى بترارك سحبًا متراصة، وقد أقنع نفسه فى سنيه الأخيرة أنه لم يكن إلا شيئًا أحمق متعبًا. فإن رسالته الموجهة "إلى الخَلَف "To Posterity" (١٠) إنما هى اعتراف من رجل شيخ ذائع الصيت يضطر إلى إرضاء فضول الجمهور. وهو يعترف بأنه يتمنى بلوغ الشهرة فى مُقبِل الأيام، ولكنه يؤثر ألاّ تظلله إبان حياته(١١). وهو فى محاورته عن النعمة والبؤس(١٢) يجعل المُحَدِّث الذى يؤيد عدم جدوى المجد، يخرج من المعركة منتصراً. على أن بترارك فى الحين نفسه يُسَر بأن الحاكم المطلق البيزنطى(١٣) يعرفه عن طريق كتاباته كما يعرفه شارل الرابع(١٣). والحق إنه حتى فى أيامه الأخيرة ترامت شهرته بعيداً حتى تجاوزت إيطاليا. كما أن الطموح الذى كان يملأ حسه كان شيئًا طبيعيًا عندما أخذه أصدقاؤه لمناسبة زيارته لبلدته أريتزو (١٣٥٠) إلى المنزل الذى ولد فيه وأخبروه كيف عملت المدينة على ألا يمس البيت أى تغير(١٤). وفى الأزمنة السابقة كانت مساكن بعض كبار القديسين تحفظ وتصان وتوقر على هذا النحو، كقلاية (خلوة) القديس توماس الأكوينى فى الدير الدومينيكى فى نابولى، وكوة (Portiuncula) القديس فرانسيس قرب أسيسى؛ كما أن واحداً أو اثنين من كبار المشرعين حظيا بنفس هذه الشهرة شبه الأسطورية التى أفضت إلى هذا التشريف. وفى قريب من نهاية القرن الرابع عشر كان الناس فى بانيولو Pagnolo، بالقرب من فلورنسا، يزورون مبنى قديمًا هو استوديو أو مرسم أكورسيوس (Accursius المولود حوالى ١١٥٠)، على أنهم سمحوا مع ذلك بتدمير ذلك المبنى(١٦). ومن المحتمل أن الدخل الكبير والنفوذ السياسى الذى حصل عليه بعض المشرعين بوصفهم محامين استشاريين تركت أثراً وانطباعًا دائمًا فى الخيال الشعبى العام.



شكل (٧٠) . مقبرة سكاليجيرى، فيرونا

تصوير اليناري

وينبغى أن يضاف إلى نحلة التقديس لسقط رؤوس مشاهير الرجال مكان قبورهم أيضاً وأرض مثواهم الأخير[١٧]، وفى حالة بترارك، كان المعوّل مُنصبًّا على البقعة التى مات فيها. وتخليداً لذكراه أصبحت أركوا Arqua منتجعًا حبيبًا لدى أهالى بادوا، وانتشرت فيها ڤيللات صغيرة رشيقة[١٨]. ولم يكن هناك فى ذلك الزمان إلا بقعة صغيرة مأثورة بالمحبة التاريخية بشمال أوروبا. وكانت أرتال الحجيج تتوافد فحسب على الصور والآثار المقدسة. وكان من دواعي التشريف لمختلف المدن أن تمتلك عظام مشاهير الرجال من أبنائها والغرباء عنها؛ ومما يسترعى الألباب إلى أقصى حد أن نشهد كيف أن الفلورنسيين حتى فى أثناء القرن الرابع عشر- أى قبل بناء كنيسة القديس كرتشى S. Croce - عملوا جاهدين بكل جد على جعل كاتدرائيتهم "بانثيونًا" أى مثوى لعظماء. وكان مقرراً أن تشيد قبور فاخرة هناك لكل من أكورسو ودانتى وبترارك وبوكاتشيو والمشرع زانوبى ديللا ستترادا[١٩]. وفى أخريات القرن الخامس عشر ناشد لورنزو الفاخر بنفسه أهالى أسبوليتا أن يسلموه جثة الرسام فرا فيليبو

ليبي Fra Filippo Lippi من أجل الكاتدرائية، ولكنه تلقى الرد بأنهم ليس لديهم حليات كثيرة للمدينة، وبخاصة في شخص الأناس المتازين، فهم من أجل ذلك يرجونه أن يعفيهم من هذا الطلب؛ حتى لقد اضطر في الواقع أن يقنع بإقامة قبر أجوف رمزي له (سينوتاف cenotaph)[٢٠] بل إنه حتى دانتي نفسه، على الرغم من جميع التوسلات التي ناشد بها بوكاتشيو الفلورنسيين بتوكيد مرير[٢١]، ظل راقداً في هدوء تام بكنيسة سان فرانشسكو في رافنّا، "بين القبور القديمة للأباطرة وأقبية القديسين، بين رفقة أكرم منزلة مما تستطيع انت أيها الوطن أن تقدمه إليه". بل لقد حدث أن رجلاً نزع ذات يوم، دون أن يلقى جزاء، الأنوار من الهيكل الذي يقف عليه تمثال المسيح المصلوب، ووضعها إلى جوار القبر، مشفوعة بهذه الكلمات "خذها؛ فإنك أجدر بها منه، الشخص المصلوب!"[٢٢].

وعندئذ أخذت المدن الإيطالية تتذكر من جديد سكانها ومواطنيها القدماء. فلربما لم تنس نابولي قط قبر فيرجيل بها منذ أن أصبح ضرب من الهالة الأسطورية مرتبطًا بذلك الاسم، كما أن ذكراها قد أحياها بترارك وبوكاتشيو، اللذان أقاما كلاهما في المدينة.

وكان أهالي بادوا، حتى إبان القرن السادس عشر، يؤمنون إيمانًا راسخًا بأنهم لا يمتلكون فقط العظام الحقيقية لمؤسسهم أنتينور Antenor، بل وأيضًا عظام المؤرخ ليفي[٢٣] .Livy يقول بوكاتشيو[٢٤]: "تعول سالمونا باكية من أن أوفيد يرقد دفينًا في المنفى بعيداً عن موطنه؛ كما أن بارما تطرب سروراً لأن كاسيوس يرقد داخل أسوارها". وسك أهالي مانتوا ميدالية (١٢٥٧) عليها صورة نصفية لفرجيل، وأقاموا تمثالاً يمثله. وفي نوبة من نوبات القحة الأرستقراطية[٢٥] أمر الوصي على الصغير جونزاجا، وهو كارلو مالاتيستا، بهدم ذلك التمثال في ١٣٩٢، ثم اضطر فيما بعد، عندما وجد شهرة ذلك الشاعر القديم أقوى منه، أن يقيمه مرة ثانية[٢٦]. وربما تم إبان ذلك الحين أيضًا أن كانت تعرض على الأجانب المغارة التي تبعد عن المدينة ميلين والتي يقال إن فرجيل كان يتردد عليها للتأمل[٢٧] مثل "مدرسة فرجيليو" Scuola di Virgilio في نابولي. وادعت كومو أن بليني الأصغر والأكبر كليهما ملك لها، وأقامت عند نهاية

القرن الخامس عشر تمثالين تكريمًا لهما، جالسين تحت مظلة رشيقة على واجهة الكاتدرائية[٢٨].

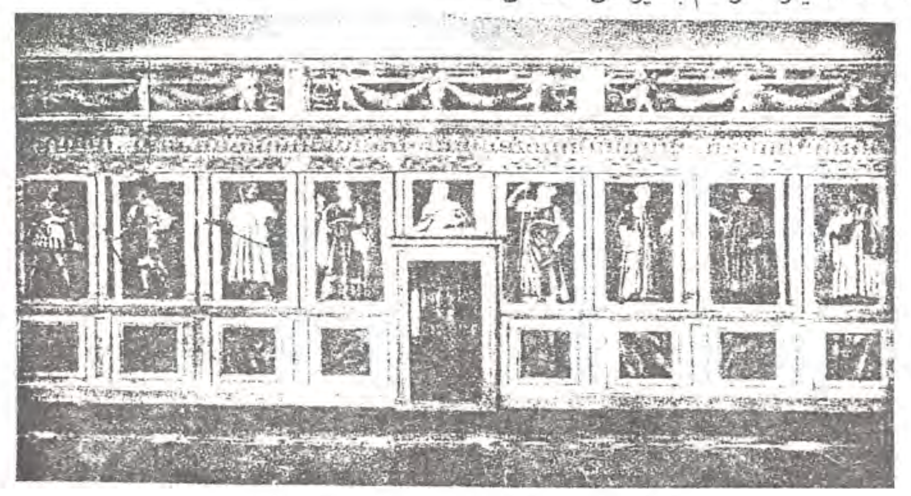


شكل(١١) : نصب تذكاري لبليني الأصغر
توماسو وبرناردينو روداري
كاتدرائية كومو
تصوير أليناري

لقد أصبحت أوساط التاريخ والطبوغرافية الحديثة حريصة على ألا تترك أى شخصية محلية ذائعة الصيت تذهب دون أن تلتفت إليها الأنظار. وفى نفس الفترة كانت المدونات التاريخية الشمالية لا تذكر إلا هنا وهناك، ضمن قوائم البابوات والأباطرة والزلازل والنيازك، ملحوظة تشير إلى أنه فى ذلك الوقت "ازدهر" هذا الرجل الذائع الصيت أو ذاك. وسنعمد فى موضع آخر إلى أن نطلع القارئ إلى أنه كان يحدث، بصفة رئيسية بتأثير فكرة الشهرة هذه، عملية تطور معجب لأدب التراجم. ولا بد لنا أن نقصر أنفسنا على الوطنية المحلية للطبوغرافيين الذين سجلوا مدعيات مدنهم فى الامتياز.

وكانت المدن فى العصور الوسطى تفخر بقديسيها وبالعظام والآثار المقدسة التى تضمها كنائسها[٢٩]. وبهم يبدأ مَدَّاح بادوا فى ١٤٤٠، وهو ميشيل سافونارولا[٣٠]، قائمته؛ ومنهم ينتقل إلى "مشاهير الرجال ممن لم يكونوا قديسين، ولكنهم بفضل عقليتهم وقوتهم العظيمة [virtus] يستحقون أن يضافوا [Adnecti] إلى القديسين"– وذلك كما كان يحدث فى العصور الكلاسيكية العتيقة يوم كان الرجل الفائق الممتاز يجئ رديفًا ملاصقاً للبطل[٣١]. فأما ما تلى ذلك من تعداد فكان فى الواقع يُعَبِّر تمامًا عن خصيصة الزمان. فأولاً يجئ أنتينور Antenor، شقيق بريام Priam، الذى أسس بادوا مع ثلة من اللاجئين الطرواديين؛ فالملك داردانوس Dardanus، الذى هزم أتيللا فى التلال اليوجانية، وتابعه ملاحقا له، وأرداه قتيلاً عند ريمينى بلوحة شطرنج؛ فالإمبراطور هنرى الرابع، الذى بنى الكاتدرائية؛ فملك اسمه ماركوس، وهو الذى يحتفظون برأسه فى مونسيليتشى (monte silicis arce)؛ ثم اثنان من الكرادلة والأساقفة بوصفهما مؤسسين لكليات وكنائس وما إلى ذلك؛ فاللاهوتى (الثيولوجى) الأوغسطى ذائع الصيت فرا ألبرتو؛ فمجموعة من الفلاسفة تبدأ بباولو ڤينيتوPaulo Veneto والشهير بييترو من أليانو؛ فالمشرع باولو بادوفانو؛ ثم ليفى والشعراء بترارك وموسّاتو Mussato، ولوڤاتو .Lovato فلئن كان هناك أى نقص فى مشاهير العسكريين فى القائمة، فقد كان الشاعر يعزى نفسه عن ذلك بوفرة العلماء الذين كان لزامًا عليه أن يعرضهم على الأنظار، وبأن المجد العقلى ذو طابع أدوم وأخلد؛ بينما شهرة الجندى إنما تدفن مع جسده حين يوارى التراب، فإذا هى دامت، فإنها لا تدين بدوامها إلا للعالم

وحده[٣٢]. ومع هذا فإن مما يشرف المدينة أن المقاتلين الأجانب يرقدون فى مدافنهم بها برغبتهم الخاصة، مثل بييترو دى روسّى Pietro de Rossi من بارما، وفيليبو أرتشيللى Fiippo Arcelli من بياتشنزا، وبخاصة جاتّاميلاتا Gattamelata من نارنى Narni (المتوفى ١٤٤٣)[٣٣]، الذى كان تمثاله البرونزى الذى يمثله فارسًا يقف فعلاً "كقيصر مكلل بالنصر"، بجوار كنيسة القديسين (السانتو Santo) ثم يذكر المؤلف بعد ذلك جمهرة من المشرعين والأطباء، ومن بين هؤلاء الأخيرين اثنان من أصدقاء بترارك، هما يوهانس آب هورلوجيو Johanes ab Horlogio وياكوب دى دونديس :Jacob de Dondis وهما نبيلان لم يقتصرا، شأن كثيرين غيرهم، على تلقى الشرف والتكريم فى لقب الفروسية بل استحقاه". ثم أعقبت ذلك قائمة بأسماء مشاهير الميكانيكيين والمصورين والموسيقيين، وتختتم القائمة باسم أستاذ فى سلاح الشيش والمسابقة، وهو ميكيل روسّو Michele Rosso، الذى أصبحت صورته، وهو أشد رجال صنعته امتيازاً، ترسم بكثير من الأماكن.



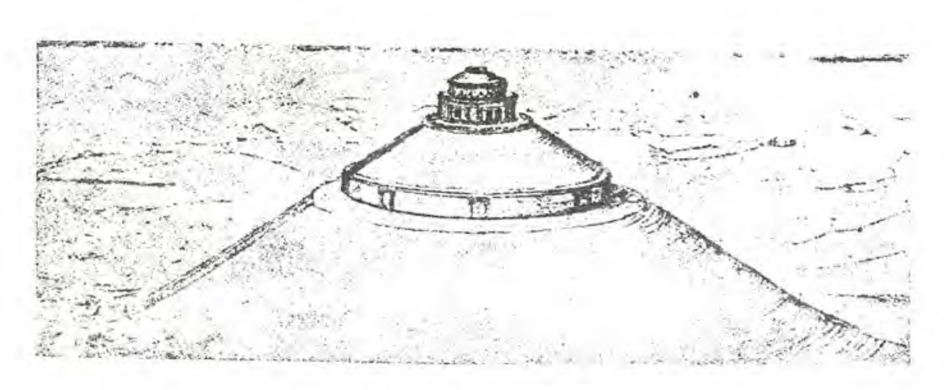
شكل (٧٢) . حائط عليه صور الرجال المشاهير
لأندريا ديل كانتانيو
فلورنسا، سانت أبوللونيا
تصوير أليناري

وإلى جوار هذه المعابد المحلية للشهرة، التي تكاتفت الرطازة والأسطورة والإعجاب الشعبي والتقاليد الأدبية على خلقها، رفع الشعراء العلماء مدفنًا عظيمًا للعظماء ذا شهرة ملأت أسماع العالم. لقد جمعوا مجاميع من مشاهير الرجال ومشاهير النساء، وكثيرًا ما كان ذلك فى محاكاة مباشرة لكورنيليوس نيبوس وسويتونيوس الزائف وفاليريوس ماكسيموس وبلوتارك (Mulierum Virtutes) وهيرونيموس (De Viris Illustribus) وغيرهم؛ أو هم قد كتبوا عن مواكب نصر تخيلوها أو عن جمعيات أوليمبية، كما فعل بترارك فى مؤلفه "انتصار الشهرة" (Trionfo della Fama)، وكما فعل بوكاتشيو فى "الرؤى الغرامية" Amorose Visione، حاوية مئات من الأسماء، ثلاثة أرباعها على الأقل ترجع إلى العصر العتيق، والربع الباقى من شخصيات العصور الوسطى[٣٤]. وسرعان ما أخذوا يعالجون هذا العنصر الجديد والعصرى نسبيًا بقدر أكبر من التوكيد؛ فشرع المؤرخون يدخلون فى كتاباتهم أوصافًا للخلق والشخصية، ونشأت مجموعات من تراجم المعاصرين النابهين، مثل سيرة فيليبو فيلاني وفيسبازيانو فيورنتينو وبارتولوميو وفاتشيو وباولو كورتيسى[٣٥]، وأخيرًا ترجمة باولو چيوڤيو.

ولم يكن شمال أوروبا، آنذاك، وحتى بدأ التأثير الإيطالي يفعل فعله فى كتابها- ونضرب مثالاً لذلك، تأثيرها فى تريثميوس، وهو أول جرمانى كتب سير حيوات مشاهير الرجال- ليملك إلا أساطير القديسين، أو أوصافًا للأمراء ورجال الكنيسة الذين تتصف سيرهم إلى حد كبير بخصائص الأساطير ولا يتبدى فيهم أدنى أثر لفكرة الشهرة- أى التميز الذى يكتسبه الرجل بجهوده الشخصية. وكان المجد الشعرى ما يزال قاصرًا على طبقات معينة فى المجتمع، كما أن أسماء مشاهير الفنانين الشماليين لا تُعرف عندنا فى تلك الفترة إلا بقدر ما كانوا أعضاء فى نقابات أو هيئات.

وكان "الشاعر العالِم" بإيطاليا، كما ألمعنا آنفًا، يعلم علم اليقين بأتم وعى شعورى بأنه هو المعطى للشهرة وخلود الذكر، أو لو شاء، فالنسيان وخمول الذكر[٣٦]. وينطق بترارك، رغم ما أبدى من مثالية فى حبه للورا، بأوضح بيان عن الشعور بأن أهازيجه

(سونيتاته Sonnets) الغرامية تضفي الخلود على محبوبته وعليه أيضًا على حد سواء[٣٧]. ويشكو بوكاتشيو من حسناء قدم إليها التكريم وظلت جامدة القلب نحوه حتى يواصل الثناء عليها ويملأ الآفاق صيتها، كما أنه يعطيها إشارة خفية بأنه محاول معها أن يجرب أثر توجيه قليل من اللوم لها[٣٨]. وثمة سانازارو، الذى يهدد ألفونسو من نابولى فى أهزوجتين فاخرتين غراميتين، بإخمال صيته إلى الأبد نتيجة لفراره الجبان أمام شارل الثامن[٣٩]. وفى جدية تامة ينصح أنجلو بوليتزيانو (١٤٩١) الملك جون البرتغالى[٤٠]، أن يفكر قبل فوات الأوان فى خلود اسمه مرتبطًا بالاستكشافات الجديدة فى إفريقيا، وأن يرسل إليه فى فلورنسا المواد اللازمة ليتولى تشكيلها هناك operosius excolenda وإلا حل به كما حل بجميع من كانت أعمالهم تمضى بغير مساعدة العلماء وتأييدهم، "نقمة أن تظل مخبوءة فى كومة الضعف البشرى الهائلة". فوافق الملك أو مستشاره إنسانى المذهب، ووعد بأنه سيتم نقل المدونات البرتغالية الخاصة بالشئون الإفريقية على الأقل، إلى اللغة الإيطالية، ثم ترسل إلى فلورنسا لكى تترجم إلى اللاتينية. ولا ندرى هل تم الوفاء بهذا الوعد أم لا. وليست هذه المدعيات على الإطلاق بغير أساس كما قد يبدو فى ظاهر الأمر؛ وذلك لأن الصورة التى تدلى بها الأحداث، حتى أعظمها شأنًا، إلى الأحياء المعاصرين وإلى الخَلَف ليست سوى شئ يتجلى فيه عدم الاهتمام. فإن الإنسانيين الإيطاليين، بطريقة عرضهم للموضوعات وأسلوبهم اللاتينى، كانوا منذ أمد بعيد المتحكمين فى عالم القراءة بأوروبا، كما أنه حتى القرن الثامن عشر كان الشعراء الإيطاليين معروفين ومدروسين بصورة أبعد أمدًا من شعراء أية أمة أخرى. وأطلق اسم التعميد الذى عمد به الفلورنسى أميريجو فيسبوتشى بسبب كتابه فى الرحلات- ولا شك أن ذلك تم باقتراح من مترجمه الألمانى إلى اللاتينية، مارتن والدسيمولار (Hylacomylus)[٤١] - على جزء جديد من الكرة الأرضية، ولئن وعد باولو چيوڤو، بكل ما ركب فيه من سطحية ونزوة رشيقة، نفسه بالخلود[٤٢] فإن توقعه لم يخب خيبة مطلقة.



شكل (٧٣) . مخطط ضريح

ليوناردو دافينشى

وفى معمعان كل هذا الإعداد الذى ظاهره اكتساب الشهرة واحتيازها ابداً كانت الستار تسحب جانباً بين الفينة والفينة، فنشهد بالبرهان المخيف طموحاً ويعطشاً لا حد لهما إلى العظمة، مستقلاً عن جميع الوسائل والعواقب. وهكذا حدث فى تمهيد كتاب التاريخ الفلورنسى لمكيافيللى، أنه يلوم على من سبقه من المؤرخين وهما ليوناردو أرتينو وبوجيو بسبب تحفظهما القائم على المجاملة إزاء الاحزاب السياسية بالمدينة:

"لقد أخطئا خطأ جسيماً وأظهرا أنهما لا يفهمان إلا قليلاً طموح الرجال والرغبة فى خلود الاسم. فما أكثر من كانوا يستطيعون أن يميزوا أنفسهم بلا شئ يستحق الثناء فحاولوا أن يفعلوا ذلك بإتيان أعمال ذات شنعة وسوء سمعة!. فهذان الكاتبان لم يقلبا النظر فى أن الأعمال العظيمة فى حد ذاتها، كما هو الحال فى أعمال الحكام والدول، يبدو أنها تحبو بالمجد أكثر من اللائمة، مهما يكن نوع تلك الأعمال ومهما تكن عقباها"(٤٣).

ولو تأملنا أكثر من واحد من الأعمال الأخاذة الجديرة بالاهتمام والرهيبة العظيمه وجدنا الدافع الذى يحدده لأنفسهم الكُتّاب الجادون إنما هو الرغبة الحميمة فى إنجاز شئ عظيم جدير بالتذكر. وليس هذا الدافع مجرد حالة متطرفة من الغرور العادى،

وانما هو شئ ما شيطاني، ينطوى فيما ينطوى عليه على استسلام الإرادة، واستخدام أية وسيلة من الوسائل، مهما بلغت فظاعتها، بل حتى عدم المبالاة بالنجاح نفسه. وفى حدود هذا المفهوم، مثلاً، يتصور مكيافيللى شخصية ستيفانو بوركارو (انظر القسم الثانى، الفصل الأول)[٤٤]؛ وفى إشاراتها إلى مصرع جالياتزو ماريا سفورزا، (انظر القسم الأول، الفصل السادس)، تخبرنا الوثائق بنفس القصة؛ كما أن مصرع الدوق اليسّاندرو الفلورنسى (١٥٣٧)، ينسبه فاركى إلى التعطش إلى الشهرة الذى كان يعذب القاتل، وهو لورنزينو دى ميديتشى (انظر القسم الأول، الفصل السادس). وفوق هذا فإن تاكيداً أشد يركزه باولو چيوفيو[٤٥] على هذا الدافع نفسه. فحسبما ذكر، تم التشهير بلورنزينو هو نفسه بواسطة منشور أذاعه مولتزا بسبب التنكيل ببعض التماثيل القديمة بروما، فأخذ يفكر فى إتيان عمل ينسى الناس بجدته وطرافته ما حاق به من مهانة، وينتهى به المطاف إلى قتل قريبه وأميره. فهذه هى الملامح المميزة لهذا العصر، عصر العواطف والقوى اليائسة شديدة التوتر، وتذكرنا بإحراق معبد ديانا فى إفيسوس فى عهد فيليب المقدونى.

هوامش الفصل الثالث - القسم الثانى

(١) وكاتب واحد من بين كثيرين، هو بلوندوس .Blondus, Roma Triumphans, lib. v, pp. 117 sqq، حيث جمعت تعريفات المجد من القدماء، والرغبة فيه مسموح بها بوضوح للمسيحي. وعمل شيشرون De Gloria، الذى يدعى بترارك (على الترجيح بطريق الخطأ) أنه له، سُرق منه على يد معلمه كونفينيفولى Convenevole، ولم يُر بعد ذلك. ويمدح ألبرتى الرغبة في الشهرة، في نص إنشائى شبابى وهو بعد فى العشرين من عمره (Opere, vol. i, pp. cxxvii-clxvi) .

(٢) انظر الفردوس Paradiso, xxv، في البداية: " Se mai continga," etc. انظر أيضًا بوكاتشيو Cf. Boccaccio, Vita di Dante, p. 49. "Vaghissimo fu e d' onore e di pompa, e per av-ventura più che alla sua inclita virtù non si sarebbe richiesto" .

(٣) انظر De Vulgari Eloquentia, lib. i, cap.i، وبوجه خاص De Monarchia, lib. i, cap. i، حيث يرغب فى وضع فكرة الملكية ليس فقط بغرض أن تكون مفيدة للعالم، بل أيضًا "ut palmam tanti bravii primus in meam gloriam adipiscar" .

(٤) انظر Convivio, ed. Venezia, 1592, fol. 5 and 6. Ed. By Moore, pp. 240 sqq. Oxford, 1894 . وانظر Paradiso, vi, 112 sqq

(٥) مثلاً، الجحيم Inferno, vi, 89; xiii, 53; xvi, 85; xxxi, 127 .

(٦) المطهر Purgatorio, v, 70, 87, 133; vi, 26; viii, 71; xi, 31; xiii, 147 .

(٧) المطهر Purgatorio, xi, 85-117. وبالإضافة إلى gloria فنحن نجد هنا grido, fama, rumore, nominanza, onore، وكلها أسماء مختلفة لنفس الشئ. وكتب بوكاتشيو "perpetuandi nominis desiderio"، كما يقر فى رسالته إلى يوهان بيزينجا (Op. Volg., xvi, 30 sqq.) Joh. Pizinga .

(٨) انظر سكارديونيوس Scardeonius, De Urb. Patav. Antiqu. (Græv., Thesaur. vi, iii, col. 260) . ولا يمكن القول ما إذا كانت cereis or certis muneribus ينبغى أن تكون فى القراءة. ويقول موساتوس نفسه فى Ep. I: "Præpositus binæ portans hastilia ceræ". وطبيعة موساتوس الجليلة يمكن إدراكها فى نبرة تاريخه عن هنرى السابع.

(٩) (وعن تفسير مختلف قليلاً انظر كلويتا Cloëtta, Beitr., ii, 18, 1- و ج W. G.) .

(١٠) انظر بترارك Petrarch, Posteritati, or Ad Posteros، فى بداية طبعات أعماله، أو الرسالة الوحيدة من الكتاب الثامن عشر Book XVIII of the Epp. Seniles؛ وكذلك أيضًا فى فراكاسيتى

Fracassetti, Petr. Epistolæ Familiares, i, 1-11 (1859) وبعض المحدثين من نقاد غرور بترارك لم يكونوا ليظهروا عطفًا وصراحة مماثلة لو أنهم كانوا مكانه.

(١١) أنظر .Opera, ed. 1581, p. 177: "De celebritate nominis importuna" وكانت الشهرة بين مجاميع الشعب عدوانية بوجه خاص بالنسبة له. انظر .Epp. Fam., i, 337, 340 ونحن نلاحظ في بترارك، كما في كثير من الإنسانيين من الجيل الأقدم، التناقض بين الرغبة في المجد وادعاءات التواضع المسيحي.

(١٢) انظر De Remediis Utriusque Fortunæ في طبعات الأعمال. وكثيرًا ما كانت تطبع منفصلة - مثلاً، طبعة برن، عام ١٦٠٠ . انظر أيضًا حوار بترارك الشهير Cf. De Contemptu Mundi, or De Conflictu Curarum Suarum والذي فيه المحاور أوغستينوس Augustinus يلقي باللوم على حب الشهرة بوصفه إثمًا عظيمًا.

(١٣) انظر .Epist. Fam., ed Fracassetti, lib. xviii, 2 ومعيار لشهرة بترارك يقدم بعد ذلك بمائة عام بتأكيدات بلوندوس (Blondus (Italia Illustrata, p. 416، بأنه حتى أي رجل مثقف لم يكن ليعرف أي شيء عن روبرت الصالح إلا بسبب أن بترارك تحدث عنه مرارًا وبطريقة عطوفة.

(١٤) وينبغي أن يلاحظ إنه حتى شارل الرابع، وربما كان ذلك بتأثير بترارك، تكلم في رسالة إلى المؤرخ مارنيولا Marignola عن الشهرة بوصفها هدف كل رجل مكافح. انظر هـ. فريديونج H. Friedjung, Kaiser . Karl IV und sein Antheil am geistigen Leben seiner Zeit, p. 221 (Vienna, 1876)

(١٥) انظر Epist. Seniles, xiii, 3، إلى چيوفاني أريتينو، ٩ سبتمبر ، ١٣٧٠.

(١٦) انظر فيليبو ڤيلاني .Filippo Villani, Vite, p. 19

(١٧) والاثنين معًا في إحياء ذكرى بوكاتشيو : Nacqui in Firenze al Pozzo Toscanelli; Di fuor' sepolto a Certaldo giaccio," etc.. وانظر أيضًا .Cf. Op. Volg. Di Boccaccio, xvi, 44

(١٨) انظر ميشيل سافونارولا Michele Savonarola, De Laudibus Patavii, in Murat., xxiv, col. 1157. وظلت أركوا منذ ذلك التاريخ محطًا لتبجيل خاص (انظر إيتّوري كونتي ماكولا cf. Ettore Conte Macola, I Codici di Arquà, Padua, 1874)، وكانت مسرحًا لاحتفالات مهيبة كبرى في الذكرى المئوية الخامسة لموت بترارك. ويقال إن مسكنه قد منحه آخر مالكيه، الكاردينال سيلفيستري، إلى مدينة بادوا .

(١٩) انظر قانون ١٣٩٦ وأسبابه في جاي Gaye, Carteggio, i, 123 .

(٢٠) انظر رويمونت Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, 180 .

(٢١) انظر بوكاتشيو Boccaccio, Vita di Dante, p. 39 .

(٢٢) انظر فرانكو ساكّيتّي Franco Sacchetti, Nov. 121 .

(٢٣) والأول هو ناووس شهير قرب سان لورنزو، والأخير موجود على باب في قصر ديلا راجيوني Palazzo della Ragione. وعن التفاصيل الخاصة باكتشافهما في ١٤١٣ انظر ميسّون Misson, Voyage en Italie, vol. i، وميشيل سافونارولا .Michele Savonarola, col. 1157

(٢٤) انظر .Vita di Dante, loc. cit. كيف عاد جثمان كاسيوس من فيليبي Philippe إلى بارما؟

(٢٥) يقول بيوس الثاني في تعقيباته (Comment., x, p. 473): "Nobilitatis fastu" and "sub obten-tu religionis,". ولا بد أن النوع الجديد من الشهرة كان غير موائم لأولئك المعتادين على النوع القديم منها.

وإن تسبُّب كارلو مالاتيستا في خلع تمثال فيرجيل من مكانه وإلقائه في نهر المينتشيو Mincio، وذلك ، كما يدعي، بسبب الغضب من التبجيل الذي وجهه إليه الشعب، هو حقيقة مؤكدة وموثقة، ومصدق عليها عن طريق هجاء مكتوب في عام ١٣٩٧ على يد ب. ب. فيرجيريو P. P. Vergerio ضد كارلو مالاتيستا، De Diruta Statua Virgilii P. P. V. Eloquentissimi Oratoris Epistola ex Tu-gurio Blondi sub Apolline, ed. By Marco Mantova Benavides (والمنشور بالتأكيد قبل ١٥٦٠ في بادوا). ومن هذا العمل يتضح أنه حتى ذلك التاريخ لم يكن التمثال قد أعيد إقامته. فهل حدث ذلك كنتيجة للهجاء؟ ويقول بارتولوميوس فاتشيوس Bartholomæs Facius (De Vir. Ill., pp. 9 sqq., in the life of P. P. V., 1456) إنه حدث لذلك السبب: "Carolum Malatestam invec-tus Virgilii statua, quam ille Mantuæ in foro everterat, quoniam gentilis fuerat, ut ibidem restitueretur, effecit"؛ ولكن دليله يقف وحيداً. ومن الحقيقي إنه، حسب علمنا، لا توجد حوليات معاصرة لتاريخ مانتوا في هذه الفترة (ولا يحتوى عمل بلاتينا Platina, Hist, Mant., in Murat., xx على أى شئ عن هذا الموضوع)، ولكن المؤرخين المتأخرين يتفقون على أن التمثال لم يعاد. انظر عن الأدلة برينديلاكوا Prendilacqua, Vita di Vitt. Da Feltre المكتوب بعد ١٤٤٦ بقليل (طبعة ١٨٧١، صفحة ٧٨)، حيث يتم التحدث عن تدمير التمثال، لا عن إعادة إقامته، وعمل أنت. بوسيفيني Ant. Possevini, jun. (Gonzaga, Mantua, 1628) حيث (صفحة ٤٨٦) يذكر خلع التمثال، وهمسات الشعب واعتراضاته العنيفة، والوعد الذى قطعه الأمير بأنه سوف يعيد التمثال، مع الإضافة ." Nec tamen restitutus est Virgilius" وبالإضافة إلى ذلك فإن چاكوبو دهاترى Jacopo d'Hatry يكتب في ١٧ مارس ١٤٩٩ رسالة إلى إيزابيلا ديستي تفيد بأنه تكلم مع بونتانو عن خطة للأميرة لنصب تمثال لفرجيل في مانتوا، وأن بونتانو صاح فرحًا بأن فيرجيريو Vergerio، لو كان حيًا، لابتهج أكثر منه، "che non se attristò quando el Conte Carola Malatesta per-suase abuttare la statua di Virgilio nel fiume". ويستطرد الكاتب ليتكلم عن أسلوب نصب التمثال، وعن النقش "P. Virgilius Mantuanus," and "Isabella Marchionissa Mantuæ re-stituit,"، ويقترح أن الرجل المناسب ليكلف بهذا العمل هو أندريا مانتينيا. وفي الواقع فإن مانتينيا وضع فعلاً الرسومات لهذا العمل. (والرسم والرسالة المعنية مقدمة في باشيت Baschet, Recherch-es de Documents d'Art et d'Histoire dans les Archives de Mantoue; Documents Inédits concernant la Personne et les Ouvres d'Andrea Mantegna, in the Gazette des Beaux-Arts, xx (1866), 478-492, especially 486 sqq.). ومن الواضح من هذه الرسالة أن كارلو مالاتيستا لم يعد إقامة التمثال وفي عمل كومباريتّي Comparetti عن فرجيل في القرون الوسطى تحكي القصة حسب رأى بوركهارت، ولكن بدون أسناد ثقة.

(٢٦) (وفى الحقيقة ، فإن ذلك لم يحدث إلا على يد إيزابيلا ديستى- ل. ج. L. G) .

(٢٧) انظر Cf. Keyssler's Neueste Reisen, p. 1016 .

(٢٨) كان بلينى الأسن، بطريقة رديئة السمعة، مواطنًا لفيرونا.

(٢٩) وهذه هى نبرة العمل المثير للإعجاب De Laudibus Papiæ, in Murat., xi، والذى يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر- كثير من الكبرياء المحلى، ولكن بدون أى فكرة عن الشهرة الشخصية.

(٣٠) انظر .De Laudibus Patavii, in Murat., xxiv, col. 1138 sqq وهناك، فى رأيه، ثلاث مدن فقط يمكن مقارنتها ببادوا- فلورنسا والبندقية وروما.

(٣١) "Nam et veteres nostri tales aut divos aut æterna memoria dignos non immerito prædicabant, quum virtus summa sanctitatis sit consocia et pari ematur pretio". وما يعقب ذلك هو خصيصى جدًا: ".Hos itaque meo facili judicio æternos facio".

(٣٢) وتأتى أفكار مشابهة عند كثير من الكتاب المعاصرين. ويقول كودروس أورسيوس Codrus Urceus, Sermo xiii (Opp., 1506, fol. xxxviiib)، متحدثًا عن جالياتزو بينتيفوجليو Galeazzo Bentivoglio، الذى كان عالمًا كما كان محاربًا: "cognoscens artem militarem esse quidem excellentem, sed literas multo certe excellentiores" .

(٣٣) وما يعقب ذلك مباشرة ليس، كما يلاحظ الناشر ((in Murat., xxiv, col. 1059, note، من تدبيج ميشيل سافوناورلا.

(٣٤) ويركز بترارك، فى الانتصار Triumph المقتبس هنا، فقط على شخصيات من العصر العهيد، وفى مجموعة De Rebus Memorandis لا يقول شيئاً يذكر عن المعاصرين. وفى Casus Virorum Illustrium لبوكاتشيو (يوجد من بين الرجال عدد من النساء، بالإضافة إلى فيليبا كاتينينسيس Philippa Catinensis التى تم تناولها فى النهاية، بل إنه حتى الربة جونو Juno يتم وصفها) فإن نهاية الكتاب الثامن والكتاب الأخير- التاسع- فقط هما اللذان يتناولان العهود غير الكلاسيكية. وعمل بوكاتشيو المثير للإعجاب De Claris Mulieribus لا يتناول أيضًا إلا العصر العهيد تقريبًا. ويبدأ بحواء Eve، ثم يتحدث عن سبعة وثلاثين من نساء العهد العهيد، وسبعة من العصور الوسطى، بادئًا بالبابا جوان Pope Joan ومنتهيًا بالملكة يوهانا Johanna من نابولى. وهذا حدث كذلك فى وقت أوخر كثيرًا فى تعقيبات أوربانى Commentarii Urbani لرفاييل فولاتيرانوس .Raphael Volaterranus وفى عمل De Claris Mulieribusلجاكوبوس بيرجومنسيس الأوغسطينى) Jacobus Bergomensis المطبوع فى ١٤٩٧، ولكن فى الأرجح نشر فى وقت أبكر) يحتل العهد العهيد والأسطورة المكان الرئيسى، ولكن لا تزال توجد سير حيوات قيمة لنساء إيطاليات. وهناك حياة أو أكثر لسيدات معاصرات لفيسبازيانو دا بيستيتشى .(.Vespasiano da Bistici (Arch. Stor. Ital., iv, i, pp. 430 sqq وفى سكارديونيوس Scardeonius (De Urb. Patav. Antiqu., Græv., Thesaur., ii, iii, col. 405 sqq.، لا تذكر سوى نساء شهيرات من بادوا. فأولاً تأتى أسطورة أو عرف من زمن سقوط الإمبراطورية، ثم حكايات تراجيدية عن صراعات الأحزاب فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر؛ ثم

إشارات عن سيدات بطلات كثيرات؛ ثم منشئة أديرة النساء، والسيدة السياسية، والطبيبة، والأم لأبناء كثيرى العدد من ذوى المراكز المُهمَّة، والمرأة المتعلمة المثقفة، والفتاة الفلاحة التى تموت دفاعاً عن عفتها؛ ثم الجميلة المثقفة بنت القرن السادس عشر، والتى يكتب عنها الجميع أغانى الحب؛ وأخيراً كاتبة القصة والشاعرة الأنثى من بادوا. ويعد ذلك بقرن من الزمان قد تضاف إليهن السيدة المدرسة الأستاذة. وعن سيدات أسرة إيستى الشهيرات انظر أريوستو Ariosto, Orlando, xiii .

(٣٥) انظر .Bartolommeo Facio and Paolo Cortese وكان عمل بارتولوميو فاتشيو Bartolommeo Facio's De Viris Illustribus Liber قد نشر لأول مرة على يد ل. ميهوس L. Mehus (فلورنسا ١٧٤٥). والكتاب بدأه المؤلف (المعروف بتأليفه أعمالاً تاريخية أخرى، والمقيم فى بلاط ألفونسو ملك نابولى) بعد أن أتم تاريخ ذلك الملك (١٤٥٥)، وأنهاه، كما توضح الإشارات إلى صراعات المجر وعدم علم الكاتب بارتقاء إينياس سيلفيوس رتبة الكاردينالية، فى ١٤٥٦. (انظر، مع ذلك، فالن Wahlen, Laurentii Vallæ Opuscula Tria, p. 67, note 1, Vienna, 1869). ولم يقتبس منه المعاصرون أبداً، وقلما اقتبس منه الكُتّاب التالين. ويرغب المؤلف فى هذا الكتاب أن يصف الرجال الشهيرين، بأنهم "ætatis memoriæque nostræ"، وبالتبعية لا يذكر سوى من ولدوا فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر، وكان ما يزال يعيش، أو مات قبل، منتصف القرن الخامس عشر. ويقصر نفسه بصفة رئيسية على الإيطاليين، إلا فى حالة الفنانين أو الأمراء، ومن بين الأخيرين يضم الإمبراطور سيجيسموند وألبرخت أخيليس Albrecht Achilles من براندنبرج؛ وفى ترتيب سير الحياة المختلفة فهو لا يتبع ترتيباً تاريخياً ولا درجة التميز التى بلغها كل منهم، ولكنه يضمهم "ut quisque mihi occurrerit"، منتوياً أن يتناول فى جزء ثان من لم يتناولهم فى الجزء الأول. ويقسم الرجال الشهيرين إلى تسع طبقات، وكلهم تقريباً يضع عنهم مقدمة تشمل ملاحظات عن صفاتهم المميزة: (١) الشعراء؛ (٢) الخطباء؛ (٣) المُشَرِّعون؛ (٤) الأطباء (مع عدد قليل من الفلاسفة وعلماء اللاهوت، على هيئة ملحق للعمل)؛ (٥) المصورون؛ (٦) المثّالون؛ (٧) المواطنون البارزون؛ (٨) القواد؛ (٩) الأمراء والملوك. ومن بين الأخيرين يتناول بتفصيل خاص البابا نيقولاس الخامس والملك ألفونسو ملك نابولى. وبوجه عام فهو يقدم فقط سيرة حياة قصيرة مدحية وتأبينية، مقتصراً فى حالة الأمراء والجنود على قائمة بأعمالهم، وفى حالة الفنانين والكتاب على تعداد أعمالهم. ولم يبذل أى محاولة لوصف مفصل أو لنقد هذه الأعمال؛ ولكن فقط يكتب باستفاضة أكثر عن عدد قليل من أعمال الفن التى رآها بنفسه. وأيضاً لم يبذل أى محاولة لتقييم الأفراد؛ فإن أبطاله إما أن يتلقوا بضع كلمات مديح عامة، أو يقنعوا بمجرد ذكر أسمائهم. ولا يتحدث الكاتب عن نفسه تقريباً أبداً. وهو يذكر فقط أن جوارينو كان معلمه، وأن مانيتّى كتب كتاباً عن موضوع عالجه هو نفسه، وأن براتشيليوس Bracellius كان مواطنًا له، وأن المصور بيسانو Pisano من فيرونا كان معروفاً لديه (صفحات ١٧، ١٨، ١٩، ٤٨)؛ ولكنه لا يقول شيئًا عندما يتحدث عن لورينتيوس فاللا Laurentius Valla عن صراعاته الخاصة العنيفة مع هذا العالم. ومن الناحية الأخرى، فإنه لا يكف عن إعلان تقواه وكرهه للأتراك (صفحة ٦٤)، وأن يبرز وطنيته الإيطالية بإطلاق اسم البرابرة على السويسريين (صفحة ٦٠)، وأن يقول عن ب. ب. فيرجيريوس P. P. Vergerius ما نصه: "dignus qui totam in Italia vitam scribens exegisset" (صفحة ٩).

ومن بين جميع المشاهير فهو يحتفظ بجلاء بالمقام الأول للعلماء، ومن بين هؤلاء الخطباء oratores، الذين يخصص لهم تقريباً ثلث كتابه ومع ذلك فإنه يكن احتراماً كبيراً للمشرِّعين، ويظهر إعزازاً خاصاً للأطباء، الذين يميز بوضوح بين النظريين منهم والعمليين، رابطاً بين التشخيص الناجح وعمليات الأخيرين. وكونه يتناول علماء اللاهوت والفلاسفة في ترابط مع الأطباء لهو شئ غريب تماماً كوضعه المصورين مباشرة بعد الأطباء، بالرغم، كما يقول، من أنهم مرتبطون أكثر بالشعراء. وبالرغم من توقيره للعلم، الذى يظهر نفسه فى المديح المقدم إلى الأمراء الذين يرعونه، فإنه بوصفه من رجال الحاشية الأميرية يسجل رموز وعلامات الرعاية الأميرية التى يتلقاها العلماء الذين يتحدث عنهم وأن يميز الأمراء فى مقدمة الفصول المخصصة لهم بأنهم "veluti corpus membra, ita omnia genera quae su-
pra memoravimus, regunt ac tuentur".

وأسلوب الكتاب سهل وغير مزخرف، والمادة فيه مليئة بالمعلومات، بالرغم من إيجازها. ومن المؤسف أن فاتشيوس Facius لم يدخل بالتفصيل فى العلاقات الشخصية وظروف الرجال االذين وصفهم، ولم يضف إلى قائمة كتاباتهم أية ملاحظة عن محتوياتها وقيمتها.

وعمل باولو كورتيزى Paolo Cortese (ولد ١٤٤٥، ومات ١٥١٠) De Homonibus Doctis Dialo-gus (first ed. Florence, 1734)، محدود أكثر فى طبيعته. فهذا العمل، المكتوب حوالى ١٤٩٠، حيث أنه ينكر أنتونيوس جيرالدينوس Antonius Geraldinus بوصفه ميتاً، وهو الذى توفى فى ١٤٨٨، وكان مهدى إلى لورنزو دى ميديتشى، الذى توفى فى ١٤٩٢، يتميز من عمل فاتشيوس، المكتوب قبل ذلك بجيل كامل، ليس فقط لأنه استبعد كل من كان غير عالم، بل بالخصائص الجوانية والبرانية المختلفة. فبداية عن طريق الشكل، الذى كان على هيئة حوار بين المؤلف واثنين من رفقائه، وهما اسكندر فارنيزى وأنتونيوس، ثم عن طريق الاستطراد والتناول غير المتساوى للشخصيات الناتج عنه؛ وثانياً عن طريق أسلوب التناول نفسه. فبينما يتحدث فاتشيوس عن رجال عهده فقط، فإن كورتيزى يتناول المتوفين، وجزئياً المتوفين منذ زمن بعيد، وبذلك يوسع دائرته أكثر من تضييقه لها باستبعاد الأحياء؛ وبينما فاتشيوس يكتب مجرد حوليات الأعمال والأفعال كأنها كانت مجهولة، فإن كورتيزى ينقد النشاط الأدبى لأبطاله كأنما القارئ كان حسن الاطلاع عليها مسبقاً. وهذا النقد مشكل عن طريق التقدير الإنسانى للفصاحة والبلاغة، الذى طبقاً له لا يستطيع أى رجل أن يُعتبر ذا أهمية إلا إذا حقق شيئاً ملحوظاً رائعاً من البلاغة- أى فى المعالجة الكلاسيكية الشيشرونية اللغة اللاتينية. وعلى هذا الأساس فإن دانتى وبترارك يُمنحون مديحاً متوسطاً، ويُلامون لأنهم حولوا جزءاً من جهدهم من اللاتينية إلى الإيطالية؛ ويوصف جوارينو بأنه الذى يلاحظ البلاغة الكاملة على الأقل من خلال سحابة؛ وليوناردو أريتينو يوصف بأنه الذى قدم لمعاصريه "aliquid splendidius"؛ ويوصف إينياس سيلفيوس بأنه in quo primum apparuit mutati saeculi signum". ووجهة النظر هذه تسود على ما عداها؛ ولم تؤخذ بهذه الطريقة من جانب واحد فقط إلا على يد كورتيزى. وحتى نأخذ فكرة عن طريقة تفكيره فليس علينا سوى سماع ملاحظاته على أحد سابقيه، وهو أيضاً الجامع المصنف لمجموعات كبيرة من التراجم، وهو سيكو بولينتونى Sicco Polentone التى نصها كما يلى: "Ejus sunt viginti ad filium libri scripti de claris scrip-toribus, utiles admodum qui jam fere ab omnibus legi sint desiti. Est enim in judi-

cando parum acer, nec servit aurium voluptati quum tractat res ab aliis ante tractatas; sed hoc ferendum. Illud certe molestum est, dum alienis vdrbis sententiisque scripta infarcit et explet sua; ex quo nascitur maxime vitiosum scribendi genus, quum modo lenis et candidus, modo durus et asper appareat, et sic in toto genere tanquam in unum agrum plura inter se inimicissima sparsa semina" .

ولم تتم معالجة كل شئ بمثل هذا التفصيل؛ فمعظمه يتم التخلص منه في جمل موجزة؛ وبعضه مجرد تسميات بدون إضافة كلمة واحدة. ومع ذلك يمكن تعلم الكثير من أحكامه. بالرغم من أننا قد لا نكون دائمًا قادرين على الموافقة معها. ولا يمكننا مناقشته هنا بتفصيل أكثر، وبخاصة وإنه قد استخدمت فعلاً كثير من ملاحظاته الخصيصية؛ وعلى الجملة فإنها تعطينا صورة واضحة عن الطريقة التي نظر بها زمن لاحق، متطور من الناحية البرانية، بازدراء نقدي من علٍ على عهد سابق، ربما كان أكثر ثراء من الناحية الجوانية، ولكنه خارجيًا أقل كمالاً.

وفاتشيوس، مؤلف العمل التراجمي المذكور أولاً، يتم التحدث عنه ولكن ليس عن كتابه. وكورتيزي، مثل فاتشيوس، هو رجل البلاط المتواضع، المتطلع إلى لورنزو دي ميديتشي كما نظر فاتشيوس إلى ألفونسو ملك نابولي؛ ومثله، فهو وطني يمدح التميز الأجنبي مرغمًا فقط ولأن ذلك ينبغي عليه، مضيفًا تأكيدات بأنه لا يرغب في معارضة وطنه الخاص. صفحة ٤٨، عندما يتحدث عن جانوس بانونيّوس (Janus Pannonius) .

والمعلومات عن كورتيزي جمعها برناردوس بابيرينيوس Bernardus Paperinius، وهو ناشر عمله؛ ويمكننا أن نضيف أن ترجمته اللاتينية لرواية ل. ب. ألبرتي L. B. Alberti, Hippolytus and Dejanira، طبعت لأول مرة في Opere di L. B. Alberti, vol. iii, pp. 439-463 .

ومقدار الشهرة العظيمة للإنسانيين تتبين من حقيقة أن المحتالين المدعين حاولوا أن يكتسبوا المال عن طريق استعمال أسمائهم. وهكذا ظهر في فيرونا رجل يلبس ملابس غريبة ويستخدم إيماءات غريبة، وهو، عندما أحضر أمام رئيس المدينة، تلا بقوة وافرة فقرات من الشعر والنثر اللاتيني، مأخوذة من أعمال بانورميتا، وأجاب ردًا على الأسئلة الموجهة إليه بأنه هو نفسه بانورميتا Panormita، وكان قادرًا على إعطاء تفاصيل صغيرة وغير معروفة على وجه العموم عن حياة ذلك العالِم بحيث أن بياناته كان لها وقع حسن بصفة عامة. وعلى ذلك عومل بشرف عظيم على يد الأسناد الثقات والرجال المثقفين في المدينة، ولعب دوره المزعوم بنجاح لمدة طويلة، حتى اكتشف التزوير جوارينو وغيره الذين كانوا يعرفون بانورميتا شخصيًا. انظر روسميني.. Cf. Rosmini, Vita di Guarino, ii, 44 sqq., 171 sqq. وقليل من الإنسانيين من كان يخلو من عادة التفاخر. واعتاد كودروس أورسيوس أن يجيب Codrus Urceus (Vita, at the end of the Opere, 1506, fol. Ixx)، عندما كان يُسأل عن رأيه حول أحد الرجال: "Sibi scire videntur". ويخبرنا بارتولوميو فاتشيوس Bartolommeo Facius, De Vir. Ill., p. 31، عن المشرع أنتونيوس بوترينسيس Antonius Butriensis ما نصه: "Id unum in eo viro notandum est, quod neminem unquam, adeo excellere homines in eo studio volebat, ut doctoratu dignum in examine comprobavit .

(٣٦) ويستخدم شاعر لاتيني من القرن الثاني عشر، وهو واحد من العلماء المتجولين الذين بقايض أغنيته بمعطف، هذا كتهديد. انظر كارمينا بورانا Carmina Burana, p. 76 (Stuttgart, 1847). Bibl. Des Lit. Vereins, xvi ..

(٣٧) انظر Sonnet cli, "Lasso ch' i ardo" .

(٣٨) انظر بوكاتشيو .. Boccaccio, Opere Volgari, vol. xvi. in Sonnet 13: "Pallido, vinto", etc.

(٣٩) وفي أماكن أخرى، وفي روسكو .. Roscoe, Leo X, ed. Bossi, iv, 203.

(٤٠) أنظر Angeli Politiani Epist., lib. x .

(٤١) Quatuor Navigationes, etc. Deodatum (Saint-Dié, 1507). Cf. O. Peschel, Geschichte des Zeitalters der Entdeckungen, 1859, ed. 2, 1876 .

(٤٢) انظر باول. جوفيوس. Paul. Jovius, De Romanis Piscibus, Præfatio (1525). وأول عقد (عشر سنوات) في تواريخه سيطبع قريباً، "non sine aliqua spe immortalitatis" .

(٤٣) انظر أيضًا. Cf. Discorsi, i, 27. حيث يُذكر أن: Tristizia (الجريمة) يمكن أن يكون لها grandezza وأن تكون alcuna parte generosa :in و يمكن للعظمة (grandezza) أن تجرد infamia من عمل ما؛ والرجل يمكن أن يكون onorevolmente tristo بالتناقض مع آخر يكون perfettamente buono .

(٤٤) انظر Stor. Fiorent., lib. vi, p. 20.

(٤٥) انظر باول. جوفيوس Paul. Jovius, Elog. Vir. Lit. Ill., p. 192، متحدثًا عن ماريوس مولتزا Marius Molza.

الفصل الرابع

الفكاهة والهجائية العصريتان

يكمن العامل الذى يحاول أن يعالج ويعادل هذه الرغبة العصرية فى الشهرة، فضلاً عن الفردية بالغة التطور، فى السخرية والتهكم، وخاصة عندما يعبر عنه فى صورته المنتصرة وهى الفكاهة أو النكتة[١] . فنحن نقرأ فى العصور الوسطى كيف كانت الجيوش المتعادية والأمراء والنبلاء يستفزون بعضهم بعضاً بالإهانة الرمزية، وكيف أن الفئة المنهزمة كانت تُثقل كواهلها بالإساءات الرمزية. فهنا وهناك أيضًا شرعت الفكاهة، بتأثير الأدب الكلاسيكى، فى أن تُستخدم سلاحًا فى المنازعات اللاهوتية (الثيولوچية)، كما أن شعر بروڤانس Provence أنتج طبقة كاملة من المُسطّرات الهجائية الساخرة. بل إنه حتى المنشدون الجوالون Minnesanger، كما توضح ذلك أشعارهم السياسية، استطاعوا أن يتبنوا هذه النغمة عند الضرورة[٢]. على أن الفكاهة لم يكن من المستطاع اتخاذها عنصراً مستقلاً فى الحياة إلا عندما تظهر ضحيتها المناسبة، وهى الفرد المتطور الذى له مدعيات غرور وخصائص شخصية. ولم تكن أسلحة الفكاهة قاصرة بأية حال على اللسان والقلم، بل كانت تضم كذلك الحيل والمقالب أى المازحات العملية- وهى المسماة باسم المحاكاة الساخرة burle and beffe،- التى تشكل موضوعًا رئيسيًا لكثير من مجاميع القصص الروائية.

ولم تتخذ "الحكايات المئة القديمة "The Hundred Old Tales، التى لا بد أنها صيغت قرب نهاية القرن الثالث عشر، حتى أنذاك، من النكتة، التى هى ثمرة التناقض

والتباين، ولا من المحاكاة الساخرة burla، موضوعًا[٣]؛ ولم يكن لها من هدف إلا أن تضفي عبارة بسيطة ورشيقة على الأقوال الحكيمة والحكايات الجميلة أو خرافات الحيوانات. ولئن كان هنا شئ ما يثبت عظيم قدم المجموعة فإن ذلك الشئ إنما هو بالضبط غياب عنصر الهجويات الساخرة (الساتير). وذلك لأنه بحلول القرن الرابع عشر يجئ دانتي، الذي هو، في نطقه للهزء وتعبيره عنه، يجعل جميع شعراء العالم متأخرين عنه كثيراً، والذي هو، ولو على الأقل بسبب الصورة العظيمة التي صورها للمخادعين الغشاشين[٤]، ينبغي أن يدعى الأستاذ الرئيسي للكوميديا العملاقة. وعلى يد بترارك[٥] يبدأ جمع الأقوال الفكاهية المازحة (أعني النكات) على النهج الذي ابتدعه بلوتارك (في أبوفثجماتا، إلخ.. Apophthegmata, etc) .

فكل مخزونٍ من المُلح والنكات التي تركزت في فلورنسا أثناء ذلك القرن يتجلى بصورة خاصة مميزة في روايات فرانكو ساكيتي. وما تلك، في معظم أمرها، بحكايات ولكنها أجوبة، تقدم تحت ظروف معينة– وهي قطع تصدم القارئ بسذاجتها naivete، يجيب بها سخفاء الناس ومضحكو البلاط واللصوص والنساء الداعرات. وتكمن كوميديا الحكاية في التباين والتناقض المروع بين هذه السذاجة naivete الحقيقية أو المفتعلة مع الأصول والمواضعات الأخلاقية والعلاقات العادية في العالم– فالأشياء تقدم وهي مقلوبة واقفة على رؤوسها. وتستخدم جميع وسائل العرض الجميل الجذاب، بما في ذلك إدخال بعض اللهجات الإيطالية الشمالية. وكثيرًا ما يوضع بدلاً من النكتة ضروب من الوقاحة البحتة والتلاعب السمج والبذاءة ومس الدين بالتجديف؛ وهناك نكتة أو نكتتان من التي تروى عن قواد المرتزقة[٦] condottieri تعدان من أشد النكات التي تم تسجيلها وحشية وشنعة. وكثير من المحاكاة الساخرة burle هزلية تمامًا، ولكن كثيراً منها تعد فقط أية حقة أو مفترضة على العلو الشخصي، وعلى العلية والسيادة على آخر. فإلى أي حد كان الناس يرغبون في التجاوز عن ذلك، وكم من حالة كان الضحية يقنع فيها باجتذاب الضحك إلى جانبه بإنزاله لعبة اقتصاص على خصمه، تلك

أمور لا يمكن الفصل فيها؛ نعم كان هناك قدر كبير من نزعة الشر القاسية الفؤاد العديمة الهدف مختلطة بالأمر كله، كما أنه لا ريب أن الحياة في فلورنسا كثيرًا ما جُعلت بغيضة لهذا السبب نفسه(٧). على أنه سرعان ما أصبح مخترعو النكات ورواتها شخصيات يتعذر اجتنابها(٨)، ولا بد أنه كان من جملتهم قوم ذوو نزعة كلاسيكية- متفوقون على جميع من هم مجرد مضحكين البلاط، ممن كان يعوزهم على التوالى الاهتمام والمنافسة والجمهور المتغير والفهم الذكى لدى الحاضرين وكل مزية للحياة فى فلورنسا. وكان بعض أصحاب الفكاهة المزاحين الفلورنسيين يخرجون فى جولة يجوسون فيها خلال بلاطات المستبدين في فلورنسا ورومانيا(٩) Romagna، فيجدون أنفسهم فى رغد وعطاء أكثر مما يجدونه فى وطنهم، حيث مواهبهم أرخص ثمنًا وأكثر عددًا. وكان أفضل نمط من هؤلاء الناس هو الرجل المسلى (l'uomo piacevole)، وأسوأهم هو المهرج والطفيلى السوقى الذى يقدم نفسه فى الأعراس والولائم بهذه المقدمة: "لئن لم أكن مدعوًا، فليست تلك غلطتي". ويحدث بين حين وآخر أن يجتمع الأخيران على الاحتيال على مبذر شاب(١٠)، ولكنهما كانا على الجملة يعاملان ويحتقران بوصفهما من الطفيليين، بينما الأذكياء الفاكهون من أصحاب مكانة أعلى كانوا يمضون بين الناس كأنهم أمراء، ويعدون موهبتهم شيئًا له سموه. ويروى أن دولشبينى Dolcebene، الذى أعلن شارل الرابع "إمبراطور بويم"Imperator di Buem أنه "ملك المضحكين الإيطاليين"، قال للإمبراطور فى فيرارا: " لسوف تغزو العالم، نظرًا لأنك صديقى وصديق البابا؛ فأنت تقاتل بالسيف، والبابا بمراسيمه وأنا بلسانى"(١١). وليست هذه مجرد مزحة أو نكتة، ولكنه إرهاص بظهور بييترو أريتينو.



شكل ٧٤ غرتسك Grotesque

حفر على النحاس ١٤٧٠-١٤٨٠

وأشهر مُضْحِكَيْن ظهرا حوالى منتصف القرن الخامس عشر كانا قسيسًا يسكن قرب فلورنسا، هو آرلوتو (1483) Arlotto، واشتهر بالنكتة المهذبة أكثر ((facezie، وأحمق أو مهرج البلاط فى فيرارا، جونيللا Gonnella، الذى اشتهر بالتهريج أو الهزل الماجن. ونحن لا نكاد نستطيع أن نوازن بين حكاياتهما بحكايات قس كالينبرج وتيل يولنشبيجل Till Eulenspiegel، وذلك نظرًا لأن الأخيرين نشئا بطريقة مختلفة وشبه خرافية، كثمرات لخيال شعب بأجمعه، ويمسا بالحرى كل ما هو عام مشترك ومفهوم المغزى لدى الجميع، وذلك بينما أرلوتو وجونيللا كانا كائنين تاريخيين لونتهما وشكلتهما المؤثرات المحلية. ولكن لئن جاز إقامة الموازنة وبسطها على نكات ومُلح الشعوب غير الإيطالية، فسنجد على الجملة أن المزحة فى الحكايات الخرافية fabliaux الفرنسية(١٢)، شأنها بين الجرمان، موجهة بصفة رئيسية إلى بلوغ مزية أو متعة؛ بينما نكتة أرلوتو ومقالب جونيللا كانت غاية فى حد ذاتها، وهى ببساطة تامة لا توجد إلا من أجل الانتصار فى إنتاجها. (ويشكل تيل يولنشبيجل هو أيضًا طبقة فى حد ذاته، بوصفه الشخصية غريبة الأطوار والمجسدة، وذلك على منوال كليل

تافه، لفتات وحركات معينة). وتمكن أحمق أو مهرج البلاط من إنقاذ نفسه أكثر من مرة بتهكمياته (ساتيراته) اللاذعة وأساليب انتقامه المتميزة[١٣].



شكل (٧٥) . رسم مهرج

أدوسو دوسي

متحف الفن، مودينا

تصوير أندرسون، روما

وعاش طراز الرجل المسلي uomo piacevole والمهرج buffone طويلا بعد انقضاء عهد حرية فلورنسا. وفي عهد الدوق كوسيمو ازدهر بارلاكيا Bariacchia، كما ازدهر في أوائل القرن السابع عشر فرانشسكو روسبولي Francesco Ruspoli وكورزيو ماريجنولي Curzio Marignolli. وتجلى حب المضحكين الحقيقي لدى الفلورنسيين في شخص البابا ليو العاشر بصورة أخاذة. فإن هذا الأمير، الذي كان تذوقه لأحد المتع الفكرية امتيازاً مفهوماً لا يشبع، كان يتحمل ويرغب في أن يجلس معه على مائدته عدد من المهرجين المكتسبين للقفاشين (jack-pudding)، كان فيهم راهبان ومُقعَد كسيح[١٤]، وكان يعاملهم في الحفلات العامة بسخرية وزراية متعمدة بوصفهم كائنات طفيلية، واضعا أمامهم القردة والغربان في مكان اللحوم الشهية. والحق أن ليو أبدى كلما

خاصًا بالمحاكاة الساخرة burla ؛ وكان من جملة طبيعته أحيانًا أن يعامل هوايتيه الأثيرتين: الموسيقى والشعر – بطريقة متهكمة ساخرة، مقلداً إياها تقليداً تهكميًا مع الكاردينال بيبيينا Bibbiena[١٥] مُستخدمُه في مختلف المهام. ولم يكن أحد منهما يرى أنه لا يليق به أن يستغفل سكرتيراً شيخًا أمينًا حتى يبلغ به الأمر أن يعتقد في نفسه أنه أستاذ في فن الموسيقى. وبلغ الأمر بناظم الشعر الارتجالى improvisatore برابالّو Baraballo من جايتا Gaeta أن اقتنع بنفسه نتيجة لإطراء ليو وتمليقه لكفايته، فتقدم بكل جدية لكى يتوج أميراً للشعراء فى الكابيتول. وفى العيد السنوى للقديس كوزماس والقديس داميان، وهما القديسان الراعيان لبيت ميديتشى، أجبر أولاً، وقد كُلل بالغار وجُلل بالأرجوان (رمز الملكية)، أن يسلى ضيوف البابا بقراءة أشعاره عليهم، وأخيراً وقد أوشك الجمع أن تتمزق صدورهم بالضحك، أن يمتطى فيلاً عليه رشمة ذهبية فى فناء الفاتيكان. وهو فيل أرسله هدية إلى روما عمانوئيل الأكبر ملك البرتغال، وذلك بينما كان البابا يطل عليه من علٍ من خلال منظاره[١٦]. ولكن الفيل، من رعبه من ضجة الأبواق والطبول وهتافات الجماهير، أصبح من المتعذر دفعه للمرور من فوق جسر (كوبرى) القديس أنجلو



شكل (٧٦) القرد لاوكون

حفر على الخشب لبولدرينى، حسب تيتيان

تصوير دويتشه فيرلاج أنشتات، شتوتجارت

كانت المعارضة الشعرية التهكمية الساخرة (الباروديا– (parody) لما هو وقور أو سام رفيع، وهى التى تلقانا هنا فى صورة موكب، قد اتخذت بالفعل مكاناً هاماً من الشعر[١٧]. وبطبيعة الحال اضطرت تلك المعارضات أن تختار ضحاياها من نوع آخر غير ضحايا أرسطوفانيس (الكاتب الإغريقى الشهير)، الذى أدخل الممثل التراجيدى العظيم فى مسرحياته. على أن نفس النضج فى الثقافة الذى أنتج فى فترة معينة ذلك الضرب المسمى بالباروديا، أى المعارضة الساخرة عند الإغريق فعل مفعوله نفسه فى إيطاليا. فلم يكد القرن الرابع عشر يبلغ ختامه حتى شرع رجال الكاريكاتور يستخرجون من بين الدفائن إعوالات أهازيج بترارك التى أضناها الهوى، وأهازيج أخرى من تلك الشاكلة؛ وتمت المعارضة البارودية الساخرة للجو الجاد لهذا الشكل من القصيد فى صورة أبيات شعرية من الهذر التصوفى (المستيقى). وكان دعوة قائمة مستديمة إلى الباروديا، أو المعارضة الساخرة كانت تصدر عن "الكوميديا الإلهية" Divine Comedy، فكتب لورنزو الفاخر صورة مضحكة أخاذة معجبة إلى أقصى حد على غرار "الجحيم" هى (Simposio or I Beoni) . ومن الواضح أن لويجى بوليتشى Luigi Pulci يقلد الشعراء المرتجلين Imprvisatori فى قصيدته مورجانتى Morgante، كما أن كلاً من شعره وشعر بوجاردو Bojardo إنما هو، من ناحية جزئية على الأقل، معارضة بارودیانية نصف شعورية للشعر الفروسى فى العصور الوسطى. وكانت مثل هذه المعالجة الكاريكاتورية يتولاها عمداً وقصداً البارودى العظيم تيوفيلو فولينجو Teofilo Folengo (حوالى ١٥٢٠). وقد نظم تحت اسم ليميرنو بيتوكّو Limerno Pitocco قصيدة الأورلاندينو Orlandino، وهى قصيدة لا تظهر فيها الفروسية إلا بصورة إطار مضحك قبالة جمهرة من الشخصيات والأفكار الحديثة. ثم عاد تحت اسم ميرلينوس كوكاجوس Merlinus Coccajus فوصف رحلات ومغامرات المتشردين المهاويس (وذلك أيضاً فى نفس الروح الباروديانية) فى شعر سداسى المقاطع نصف لاتينى، بكل الفخامة والتشدق المفتعلين اللذين يصاغ فيهما جميع الشعر الملحمى عند علماء ذلك الزمان (Opus Macatonicorum) .ومنذ ذلك الحين والكاريكاتور وجوده المستمر، والذكى اللامع فى كثير من الأحيان، وفى القصائد البارناسوسية الإيطالية Parnasus .



شكل ٧٧ رسوم كاريكاتورية

رسم ليوناردو دافنشى

وحدث حوالى الفترة الوسطى من عصر النهضة أن تم القيام بالتحليل النظرى للنكتة، كما أن تطبيقها العملى بين ظهرانى الطبقة المحترمة نُظم تنظيماً أدق وأضبط. وكان المُنظِّر له هو جيوفيانو بونتانو[١٨]. وهو يحاول فى كتابه عن الحديث (الكلام)، وبخاصة فى الجزئين الثالث والرابع، أن يصل عن طريق الموازنة بين كثير من المزح والنكات facetiae، إلى مبدأ عام. فكيف ينبغى أن تُستخدم النكتة بين ذوى المراكز الكريمة من الناس، ذلك ما يتصدى لتعليمه بالداسار كاستيليونى-Baldassar Castigli-one فى كتابه رجل البلاط[١٩] Cortigiano. والوظيفة الرئيسية لهذا الكتاب هى بطبيعة الحال أن يبعث فى الحضور الحيوية والبهجة بتكراره وإعادته القصص والأقوال الضاحكة أو الرشيقة؛ فأما المزاحات الشخصية فإنها، على العكس من ذلك، لا تلقى تشجيعاً بحسبان كونها مما يجرح قوماً تعساء، وكونها تظهر تكريماً مبالغاً فيه لمسن، وتحيل الأقوياء وأبناء الحظ الحسن المفسودين إلى أعداء[٢٠]؛ بل إنها حتى فى تكرارها وإعادتها على الأسماع تستلزم ذخيرة فسيحة من استخدام الإيماءات والحركات الدرامية من السيد الناطق بها. ثم تعقب ذلك- وهذا ليس فقط من أجل الاتجاه إلى الاقتباس والنقل بل وأيضاً لتكون نماذج محتذاة لدى المازحين فى المستقبل- مجموعة ضخمة من

التوريات والأقوال الفكاهية، وهي مرتبة بطريقة منهجية حسب أنواعها، ومن جملتها مجموعة تستحق الإعجاب. على أن المذهب الذى ينتهجه چيوڤانى ديللا كاساGiovanni della Casa بعد ذلك بحوالي عشرين عامًا، في كتابه دليل الأخلاق الطيبة، أدق وأضبط كثيراً وأشد حذراً[٢١]؛ فهو إذ يشخص ببصره إلى العواقب، يتمنى أن يرى الرغبة في الانتصار منزوعة تمامًا من النكات الساخرة burle . فهو البشير الأذن بقيام رد فعل، كان من المؤكد أن يظهر إن عاجلاً أو آجلاً.

لقد أصبحت إيطاليا في واقع الأمر مدرسة للفضائح، لا يمكن أن يقوم في العالم مثيل لها، ولا حتى في فرنسا في زمن فولتير. ولم يكن فيه وفي رفاقه دون أدنى ريب إي إعواز إلى روح الرفض والإنكار؛ ولكن أين كان يمكن العثور، في القرن الثامن عشر، على جمهور من الضحايا المناسبين تمامًا، تلك المجموعة التي لا تحصر من الكائنات البشرية المتطورة تطوراً عاليًا وذات الصفات المميزة وهم المشاهير ذائعو الصيت من كل نوع ورجال الدولة والتدبير ورجال الكنيسة والمخترعون والمكتشفون ورجال القلم والشعراء والفنانون، وكلهم أظهر أشد أنواع التجلي والاستعراض لفرديتهم اكتمالاً وتحرراً ؟ لقد كان ذلك الرهط الغفير يعيش في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وإلى جواره أنشأت الثقافة العامة لذلك الزمان فقسة (أي طبقة) سامة جديدة من عديمي الكفاية من أرباب النكتة والنقاد الموهوبين والساخرين المتهكمين، الذين كان يدعوهم حسدهم إلى إنزال المجازر بالضحايا؛ وكان ينضم إلى هذا كله تحاسد المشهورين من الرجال بعضهم على بعض. واشتهر رجال فقه اللغة في هذا المجال على أشنع وجه وكانوا على رأس الجميع- ومن جملتهم فيليلفو وبوجيو ولورنزو فاللا، وغيرهم- وذلك بينما كان فنانو القرن الخامس عشر يعيشون بعضهم مع بعض في منافسة تظللها الصداقة والسلام. وهنا يستطيع تاريخ الفن أن يدون ملحوظة تسجل هذه الحقيقة.

وكانت فلورنسا، وهي السوق العظيمة الشهرة، متقدمة على جميع المدن الأخرى في هذه النقطة. وكان الوصف الذي يطلق على سكانها في ذلك الزمان هو "عيون حادة

وألسنة سيئة"[٢٢]. والراجح أن احتقاراً مقروناً بالاستهانة لكل شئ ولكل إنسان كان هو النغمة المنتشرة فى المجتمع. ويحيل مكيافيللى، صواباً أو خطأ، فى التمهيد المستدعي للإعجاب لكتابه ماندراجولا Mandragola، الاضمحلال الواضح للعيان الذى حل بالقوة الأخلاقية إلى العادة الشائعة عادة سوء المقالة، ويتهدد المنتقصين الذامين له بإنبائه إياهم أنه يستطيع أن يقول فيهم أقوالاً جارحة شأنهم تماماً. ويجئ بعد فلورنسا البلاط البابوى، الذى كان ملتقى لأقذع الألسنة مرارة وأحفلها بالنكتة. وهناك كتاب بوجّيو المسمى النكات Facetiae، وهى رسائل محررة من قاعة الأكاذيب (Bugiale) الخاصة بالموثقين الرسوليين؛ وإذا نحن تذكرنا عدد مُخَيّبى الآمال، من متصيدى المكانة والوظيفة ومن المتنافسين اليائسين وأعداء المحظوظين الأثيرين عند البابا، ومن الكرادلة الفساق الكسالى المتجمعين هناك، اتضح لنا كم أصبحت روما موطناً للمقطوعات الهجائية (pasquinade)المتوحشة كما غدت موئلاً للقصيدة الساتيرية الهجائية الفلسفية. فإن أضفنا لهذا ذلك البغض واسع الانتشار للقساوسة، وغريزة الغوغاء المعروفة التى تلقى تبعة أى شئ مرعب على كواهل العظماء، لترتب على ذلك تكدس كتلة من الشنعة وسوء السمعة لا سبيل إلى تصورها[٢٣]. فأما من لديهم القدرة فكانوا يحمون أنفسهم على خير وجه مستطاع بتوجيههم الاحتقار بكل من الاتهامات الحقة والكاذبة، وباتخاذ المظاهر البراقة والمرحة[٢٤]. فأما ذوو الطبائع الأكثر حساسية فكانوا يغوصون فى غمرات اليأس المطلق عندما يجدون أنفسهم متورطين فى الإثم بعمق، ومشتبكين فى الافتراءات والقذف بعمق أشد[٢٥]. وبمضى الوقت أصبح الافتراء والتشنيع خلة عامة، كما أن أضبط فضيلة وأدقها كانت الوسيلة الأكيدة إلى أقصى حد فى أن تتحداها هجمات الشر. ومن خطباء المنابر العظماء الراهب فرا إيجيديو Fra Egidi من ڤيتيربو -Viterbo الذى عينه البابا ليو كاردينالاً بسبب جدارته واستحقاقه، والذى أثبت أنه رجل الشعب وراهب شجاع فى اضطرابات عام ١٥٢٧ [٢٦]- يحملنا چيوڤيو أن نفهم أنه حافظ على شحوبه كزاهد بفضل دخان التبن المبلل بالماء وأشياء أخرى من هذا القبيل. والحق أن چيوڤيو يعد عضواً بمعنى الكلمة فى الإدارة البابوية من حيث هذه الشئون[٢٧]. وهو يبدأ على الجملة بقص حكايته، ثم يردفها بأنه لا يصدقها، ثم

يشير فى النهاية إلى أنه بعد كل شئ، ربما يكون فيها شئ يعتد به. بيد أن كبش الفداء الحقيقى للزراية فى روما كان أدريان السادس التقى الأخلاقى النزعة. وكأنما جرى اتفاق عام بين الناس على تناوله من الناحية الهزلية دون غيرها. وكان أدريان أشار باحتقار إلى جماعة اللاوكون laocoon بأنها وثنية عهيدة عتيقة idola antiquorun، ومنع الدخول إلى البلڤدير Belvedere، وترك أعمال رافاييل غير مستكملة، ونفى الشعراء والممثلين من البلاط؛ بل لقد بلغ الأمر أن خشى الناس من أنه يحرق بعض التماثيل القديمة لكى يحصل على الجير اللازم لكنيسة القديس بطرس الجديدة. لقد اختلف من البداية مع فرانشسكو بيرنى Fracesco Berni القوى البأس، مهدداً بأن يلقى فى نهر التيبر، لا كما قال الناس [٢٨] بتمثال باسكوينو Pasquino، وإنما كُتّاب الساتيرات (أى القصائد الساخرة) أنفسهم. وكان الانتقام الذى قوبل به ذلك التهديد هو القطعة الشهيرة (Capitolo) التى كتبت هجاء فى البابا أدريان، والتى لم يكن الباعث فيها والموحى بها هو الكراهية بالضبط، وإنما الاحتقار للهولندى البربرى الفكاهى المضحك[٢٩]؛ وأعلن القوم أنهم يدخرون تهديدات وحشية أكثر للكرادلة الذين انتخبوه. ونُسب إليه أنه السبب فى الطاعون الذى كان مُنْتَشِراً آنذاك فى روما[٣٠]؛ وأقبل بيرنى وغيره[٣١] على تصوير الجماعة المحيطة بالبابا- وهم الجرمان الذين كانوا يوجهونه ويحكمونه[٣٢]- بنفس عدم الصدق البراق الذى يحيل فيه صحفى صفحة الفضائح feuilletonist العصرى الأسود إلى الأبيض، ويقلب كل شئ إلى أى شئ. و"الترجمة" الشخصية التى كلف كاردينال تورتوسا باولو چيوڤيو بكتابتها، والتى كان المطلوب أن تكون قطعة من المديح، لا تعد- لو اطلع عليها أى إنسان يستطيع قراءة ما بين السطور- إلا قطعة لا مثيل لها من الهجاء (الساتير). إذ قد يبدو مضحكًا تمامًا- ولو لإيطاليى ذلك الزمان على الأقل- أن يقال إن أدريان لجأ إلى مجمع كرادلة ورهبان ساراجوسا طالبًا عظمة فك القديس لامبيرت؛ وكيف أن الإسبان الأتقياء ما زالوا يزيدون فى زينته حتى بدا "فى صورة بابا حق أنيق الثياب"؛ وكيف قدم فى موكب مضطرب عديم الطعم والذوق الفنى من أوستيا إلى روما، وأخذ يستشير من حوله حول إحراق باسكوينو أو إغراقه، وأنه كان يترك بغتة أشد الأعمال أهمية عندما يتم إعداد الغداء؛ وأخيراً كيف أنه فى نهاية حكم تعس، مات من الإفراط فى شرب الجعة- ومن

ثم فإن بيت طبيبه نصبت فيه باقات الزهور على يد سكارى منتصف الليل، وزين بنقش كتب عليه "المحرر الوطني" Liberatori Patriae S. P. Q. R. أجل إن چيوڤيو فقد ماله في عملية المصادرة العامة للأرصدة العمومية، ولم يتلق إلا إحسانًا على سبيل التعويض لأنه "لم يكن شاعراً" - أعني أنه لم يكن وثنيًا[٣٣]. على أن الأقدار قدرت أن يكون أدريان آخر ضحية عظيمة. فبعد الكارثة التي نزلت بروما في ١٥٢٧ انحدر الطعن في الناس وهبطت معه النزعة الشريرة غير المكبوحة في الحياة الخاصة.

على أنه بينما كان ذلك الطعن لا يزال مزدهراً تطور، في روما خاصة، أكبر ساخر قادح في العصور الحديثة، وهو بييترو أريتينو .Pietro Aretino وإن نظرة واحدة إلى حياته وشخصيته لتكفينا مئونة الاهتمام بكثير من أفراد الطبقة الأقل منه امتيازًا.

ونحن نعرفه بوجه خاص في السنوات الثلاثين الأخيرة من حياته ١٥٢٧-١٥٥٧، التي قضاها بالبندقية، وهي الملاذ الوحيد الذي كان ممكنًا له. فمن هناك وضع كل ما كان شهيراً بإيطاليا في نوع من حالة حصار، وهنا أيضًا كان يتلقى الهدايا من الأمراء الأجانب الذين احتاجوا إلى قلمه أو خافوا ذلك القلم. وكان شارل الخامس وفرانسوا الأول يمدونه كلاهما بالعطاء في آن واحد، إذ كان كل منهما يأمل أن ينزل أريتينو بعض الضر بالآخر. وكان أريتينو يتملقهما كليهما، على أنه كان بطبيعة الحال يربط نفسه بشارل ربطًا أوثق، لأنه ظل سيداً بإيطاليا. وبعد انتصار الإمبراطور في تونس (١٥٣٥) تحول صوت الملق ذلك إلى أشد أنواع العبادة المضحكة، وهو شئ ينبغي لنا حين نلحظه ألا ننسى أن أريتينو كان يتعلق بالأمل في أن شارل سوف يساعده على الوصول إلى كرسي الكاردينالية وقبعتها. ومن المحتمل أنه كان يحظى بحماية خاصة بوصفه عميلاً إسبانيًا، وذلك نظراً لأن كلامه أو صمته كان له تأثير غير قليل على البلاطات الإيطالية الصغيرة وعلى الرأي العام بإيطاليا. وتظاهر بأنه يحتقر احتقاراً مطلقًا البلاط البابوي لأنه عرفه جيد المعرفة؛ على أن السبب الحقيقي في ذلك هو أن روما لم تكن لتستطيع ولا لترغب في أن تدفع إليه شيئًا بعد ذلك[٣٤]. فأما البندقية التي أوته، فإنه كان إزاءها من التعقل بحيث تركها دون مهاجمة. فأما ما بقي بعد ذلك من علاقته التحريرية بالعظماء فهو مجرد تسول وابتزاز سوقي للمال.

ويشكل أريتينو أول مثال كبير للاستخدام السئ للنشر العلنى فى سبيل غايات كهذه. والكتابات الجدلية العدوانية التى تبادلها قبل ذلك بمئة عام بوجّيو وخصومه لا تقل فى شنعتها نغمة وهدفاً، ولكنها لم تكن تسطر من أجل المطبعة والصحافة، ولكن من أجل نوع من النشر فى الدوائر الخاصة. وجنى أريتينو ربحه من العلنية الكاملة، ويمكن بمعنى ما اعتباره أباً لصناعة الصحافة الحديثة. وكانت خطابته ومقالاته المتنوعة الموضوعات تطبع طبعاً دورياً، بعد أن يتم نشرها وإذاعتها على جمهور واسع سعة لا بأس بها[٣٥].



شكل (٧٨) أريتينو
لتيتيان
فلورنسا، قصر بيتى

ولو قورن أريتينو بالأقلام الحادة فى القرن الثامن عشر، لتجلى أنه كان يتميز عليها بأنه لم يكن مثقل الكاهل بالمبادئ- لا بالمذهب التحررى (الليبرالى)، ولا بحب

الإنسانية، ولا أية فضيلة أخرى، ولا حتى بالعلوم؛ وكان متاعه كله من الحياة يتمثل في الشعار المعروف "الحقيقة الظاهرة .Veritas odium parit" ومن ثم فإنه لم يجد نفسه يومًا في موقف ڤولتير الزائف، الذي اضطر أن ينكر نسبة "بوتشيللي" Pucelle إليه، وأن يخفي عن الناس طوال حياته تأليفه لأعمال أخرى. وكان أريتينو يوقع باسمه على كل ما يكتب، ويفاخر علنًا بكتابه سيئ السمعة راجيوناميتني Ragionamenti . ولا مراء أن موهبته الأدبية وأسلوبه الواضح اللألاء وملاحظته المتعمقة الدقيقة للرجال والأشياء، كانت لتجعل منه كاتبًا جسيم القدر تحت أية ظروف، رغم أنه مجرد فعلاً من القوة على إبداع عمل فني أصيل، ككوميديا درامية حقة مثلاً؛ كما أنه أضاف إلى أعظم أنواع الشر امتيازًا نكتة غريبة بشعة بلغ من ذكائها ولماعيتها أنها لم تقل عن نكتة رابليه[٣٦] Rabelais .

ففي مثل هذه الظروف، ومع مثل هذه الأهداف والوسائل، يشرع في عمله في مهاجمة فريسته وتطويقها. والنغمة التي التمس بها إلى كلمنت السابع ألا يشكو أو يفكر في الانتقام[٣٧]، بل أن يعفو ويغفر، في اللحظة التي ارتفع فيها عويل المدينة المهيضة المجتاحة إلى عنان قلعة القديس أنجلو، حيث كان البابا نفسه أسيرًا، إنما هي زراية شيطان أو سخرية قرد. وفي أحيان كثيرة، عندما كان يضطر إلى أن يفض يده من كل أمل في الهدايا، ينفجر نباح حنقه فيصبح عواء وحشيًا، شأنه في رسالته Capitolo التي رفعها إلى أمير ساليرنو، الذي عاد، بعد أن ظل يدفع له المال حينًا من الدهر، فأبى أن يواصل ذلك بتاتًا. على أنه يبدو من الناحية الأخرى، أن بييرلويجي فارنيسي Pierluigi Farnese الرهيب، دوق بارما، لم يعره أي التفات على الإطلاق. إذ لما كان ذلك السيد تخلى فيما يرجح تخليًا تامًا عن متعة السمعة الحميدة، لم يكن من اليسير تكديره بأي مكدر؛ على أن أريتينو حاول ذلك بمقارنة شكله وهيئته بهيئة شرطي وطحان وخباز[٣٨]. ويبدو أريتينو مضحكًا إلى أقصى حد في تعبيره عن روح التسول الباكية، شأنه في رسالته (Capitolo) إلى فرانسوا الأول؛ غير أن الرسائل والقصائد التي قدّت من تهديدات وملق لا يمكن، رغم ما حوت من مضحك، أن تُقرأ إلا مقرونة بأعمق الاشمئزاز. وإن خطابًا مثل أحد كتاباته إلى مايكل أنجلو في نوفمبر ١٥٤٥ [٣٩] ليعد نسيجًا وحده؛ فبالإضافة إلى الإعجاب الذي كاله على صورة يوم الفصل الأخير Last

Judgment يعود فيتهمه بقلة الدين وقلة التهذيب والسرقة من وارثي يوليوس الثانى، ويضيف مسترضياً فى الحاشية فيقول: "إنى إنما أريد أن أريك أنك إن كنت مقدساً divino، فإننى لست دنيوياً d'acqua". وركز أريتينو تركيزاً شديداً على أنه هو نفسه ينبغى أن يدعى مقدساً- إما بدافع طفولة الغرور أو بأسلوب تصوير مشاهير الرجال تصويراً كاريكاتورياً- كما شرع أحد متملقيه قبل ذلك أن يدعوه؛ ولا ريب أنه بلغ من بُعد الصيت أن منزله بمدينة أريتزو اعتبر أحد آثار ذلك المكان العامة[٤٠]. وصحيح أنه كانت تنقضى شهور كاملة لا يستطيع أثناءها أن يجرؤ البتة على تخطى عتبة داره فى البندقية، خشية أن يلتقى صدفة بأحد الحانقين عليه من الفلورنسسن مثل استروتزى الأصغر. وفوق هذا فإنه لم يفلت من هراوات خصومه وخناجرهم[٤١]، وإن أخفقوا فى الوصول إلى الأثر والمصير الذى تنبأ به برنى Berni فى إحدى أهازيجه (سونيتاته) الشهيرة. ومات أريتينو حتف أنفه فى بيته مصاباً بالسكتة الدماغة apoplexy



شكل (٣٦) : قناع هجائى (ساتيرى)
لمايكل أنجلو
فلورنسا، المتحف القومى

والفروق المتنوعة التى أبداها فى طرائق تملقه شئ يأخذ بمجامع القلوب: فهو إن تعامل مع غير الإيطاليين كان باعثاً للغثيان مقززاً بصورة غليظة[٤٢]؛ فأما أقوام مثل الدوق كوسيمو من فلورنسا فكان يعاملهم معاملة بالغة الاختلاف. فإنه أطرى جمال ذلك الأمير، الذى كان عند ذاك فتيًا زاهر الشباب، والذى كان فى الواقع يشارك فى تلك الخلة أوغسطس بدرجة غير عادية؛ وأثنى على أخلاقه المعنوية، مع إشارة ملتوية إلى الاتجاهات المالية التى تترسمها والدة كوسيمو، ماريا سالفياتى Maria Salviati، ثم ختم بانتحاب تسَوُّلى بكَّاء على الأيام السيئة وما إلى ذلك. وعندما منحه كوسيمو معاشًا[٤٣]، وكان فى عطائه سخيًا، بالنظر إلى ما اعتاده من تقتير- إلى حد أنه بلغ فى النهاية مئة وستين دوقية فى السنة- فلا مراء أنه كان ينظر بعين الارتياب إلى خطورة كون أريتينو عميلاً إسبانيًا. لقد كان أريتينو يستطيع أن يضحك ساخراً من كوسيمو وأن يسبه، وأن يهدد فى الوقت ذاته العميل الفورنسى، بأنه مستطيع أن يحمل الدوق على استدعائه؛ وإذا شعر الأمير الميديتشى بأن نظرات شارل الخامس تخترقه عن بُعد فإنه لن يحس بطبيعة الحال بقلق من أن نكات أريتينو ومقطوعاته الشعرية ضده سوف تتداول فى بلاط الإمبراطور. وكانت قطعة من الملق عجيبة التهذيب تلك التى وُجهت إلى مركيز مارينيانو، السئ السمعة، الذى حاول بوصفه محافظًا لقلعة موسّو (انظر القسم الأول، الفصل الثالث)، أن يؤسس دولة مستقلة. يكتب أريتينو يشكره على هبته إياه مئة كرون فيقول:

> **"إن جميع الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها أمير حاضرة مجتمعة فيك، وإن جميع الرجال ليرون ذلك لولا أن أعمال العنف التى لا مفر منها فى بداية كل عمل تتولاه يترتب عليها أن تبدو خشنًا إلى حد قليل-as] pro]"[٤٤].**

وكثيراً ما لوحظ بصورة فريدة أن أريتينو كان لا يسب إلا العالَم وحده، وبدون أن يسب الرب أيضًا. وغنى عن البيان أن المعتقدات الدينية لرجل يعيش عيشته إنما هى مسألة تنطوى على عدم الاهتمام التام، شأنها أيضًا شأن الكتابات التهذيبية التى

سطرها لأسباب تخصه هو[٤٥]. على أن الواقع أن من العسير القول فى السبب الذى من أجله ينبغى أن يكون هذا الرجل كافراً مُجَدِّفًا. فإنه لم يكن أستاذًا ولا مفكرًا نظريًا ولا كاتبًا مؤلفًا؛ كما أنه لم يكن بمستطيع أن يبتز مالاً من الله لا بالتهديد ولا بالتملق، ولذا لم يحدث قط أنه استُدرِجَ أو دُفع إلى التجديف بسبب رفض قوبلت به أية مطالبة منه. وإن رجلاً مثله لا يمكن أن يتجشم عناء بغير مقابل.

ومن العلامات الحسنة الدالة على الروح الحاضرة فى إيطاليا أن شخصية كهذه وسيرة حياة كهذه أصبحت مستحيلة، بل أصبحت مستحيلة ألف مرة. على أن النقد التاريخى سيظل يجد فى أريتينو مجال دراسة مَهِم .

هوامش الفصل الرابع - القسم الثانى

(١) ومجرد الاحتجاج يوجد فى وقت مبكر جداً، فى بنزو من ألبا Benzo of Alba، فى القرن الحادى عشر (Mon. Germ., pp. xi, 591-681) .

(٢) والقرون الوسطى ثرية أيضًا بما يسمى القصائد الساتيرية (الهجائية)؛ ولكن الهجاء (الساتير) ليس فرديًا، ولكنه موجه نحو الطبقات والفئات والمجاميع السكانية ككل، وينصهر بسهولة فى النبرة المواعظية. وروح هذا الأدب كلها تتجلى أكثر ما تتجلى فى Reineke Fuchs، بكل أشكالها بين دول الغرب المختلفة. انظر عن هذا الفرع من الأدب الفرنسى عملاً رائعًا على يد لينينت Lenient, La Satire en France au Moyen-âge (Paris, 1860)، وكذلك التكملة التى لا تقل تميُّزًا La Satire en France, ou la Littérature Militante au XVIe Siècle (Paris, 1866) .

(٣) انظر هامش ٢، القسم الأول، الفصل الأول. وأحيانًا نجد نكتة مهينة: Nov. 37 .

(٤) انظر الجحيم Inferno, xxi, xxii. والتشابه الوحيد الممكن هو مع أريستوفانيس Aristophanes .

(٥) بداية متواضعة. انظر Opera, pp. 421 sqq., in De Rerum Memorandarum, lib. iv. ومرة أخرى فى Epist. Seniles, x, 2. وانظر أيضًا Cf. Epist. Fam., ed. Fracassetti, lib. i, 68 sqq., 70, 240, 245. والتورية نكهتها الخاصة بوطنها القروسطى، وهى الأديرة. ومن الممكن أن تقتبس أمثلة من أعمال بترارك القادحة contra Gallum, contra midicum objutgantem، وعمله De Sui Ipsius et Multorum Ignotantia، وربما أيضًا عمله Epistolæ sine Titulo، كأمثلة مبكرة على الكتابة الهجائية الساتيرية.

(٦) انظر Nov. 40 and 41؛ والرجل هو ريدولفو دا كاميرينو Ridolfo da Camerino .

(٧) والدعابة الشهيرة لبرونيليسكو Brunellesco مع نحات الخشب السمين، مانيتّو أمّاناتينى Manetto Ammanatini، الذى يقال أنه فر إلى المجر نتيجة للسخرية التى لاقاها، ماهرة ولكنها قاسية. (ومن المشكوك فيه ما إذا كانت هذه النكتة قد بدأت بأنتونيو مانيتّى -Ant. Manetti و. ج. W. G) .

(٨) الأرالدو "Araldo للسينيوريا الفلورنسية. وهناك حادثة من بين كثيرات، Commissioni di Rinaldo degli Albizzi, iii, 651, 669. وكان الأحمق لازمًا وضروريًا ليحيى الرفقة بعد العشاء: Petrus Alcyonius, De Exilio, ed. Mencken, p. 129 .

(٩) انظر فرانكو ساكّيتّى Franco Sacchetti, Nov. 49. ومع ذلك، حسب Nov. 67، كان مفهومًا أن فردًا من رومانيا Romaga كان أفضل من أسوأ الفلورنسيين.

(١٠) انظر ل. ب. ألبرتى L. A. Alberti, Trattato del Governo della Famiglia, Opere, ed. Bo- nucci, v, 171. وانظر أيضاً أعلاه هامش ٦ من هوامش الفصل الأول، القسم الثانى من كتابنا هذا.

(١١) انظر فرانكو ساكِّيتى Franco Sacchetti, Nov.156؛ وانظر أيضاً Nov. 24 عن دولتشيبينى Dol- cibene واليهود. (وعن شارل الرابع والحمقى انظر .Friedjung, loc. cit., p. 109) وكانت Face- ti? ليوجيو تشبه تلك الخاصة بساكِّيتى فيالموضوع- نكات عملية ووقاحات وبذاءات مصقولة يساء فهمها على يد الناس البسطاء؛ ويُخدع عالم الفيلولوچيا (علم اللغة) عن طريق العدد الكبير من النكات الشفوية. وعن ل. ب. ألبرتى انظر الفصل الثانى، القسم الثانى من كتابنا هذا.

(١٢) وبالتبعية فى تلك الروايات عن الإيطاليين المأخوذة مواضيعها منها.

(١٣) وطبقاً لبانديللو Bandello, iv, Nov. 2، فإن جونيللا كان يستطيع تحريك قسمات وجهه بحيث يشبه الناس الآخرين، وكان يقلد جميع لهجات إيطاليا.

(١٤) انظر باول. چوڤيوس Paul. Jovius, Vita Leonis X .

(١٥) "Erat enim Bibbiena mirus artifex hominibus ?tate vel professione gravibus ad in- saniam impellendis". ويتم تذكيرنا هنا بدعابات الملكة كريستين ملكة السويد مع علماء الفيلولوچيا الخاصين بها. انظر أيضًا الفقرة المثيرة للإعجاب لچوڤيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Ser- mone, lib. ii, cap. 9: "Ferdinandus Alfonsi filius, Neapolitanorum rex magnus et ipse fuit artifex et vultus componendi et orationes in quem ipse usus vellet. Nam ætatis nostri Pontifices maximi fingendis vultibus ac verbis vel histriones ipsos anteveniunt" .

(١٦) ولا أشير إلى العوينات فقط من صورة رافاييل، حيث يمكن تفسيرها على أنها عدسة مكبرة للنظر على المنمنمات فى كتاب الصلوات، بل من بيان لبيليكانوس يمكن منه أن يرى ليو موكباً من الرهبان يتقدم من خلال (cf. Züricher Taschenbuch, for 1858, p. 177) specillum، ومن cristallus con- cava، الذى، طبقًا لچيوڤيو، كان يستخدمه عند الصيد. ونحن نقرأ فى أتيليوس أليسيوس Attilius Alessius (Baluz., Miscell., iv, 518) ما يلى: "Oculari ex gemina (gemma?) utebatur quam manu gestans, signando aliquid videndum esset, oculis admovebat". وكان قصر النظر وراثياً فى أسرة دى ميديتشى. وكان لورنزو قصير النظر، وأجاب رداً على بارتولوميو سوتشينى Bartolommeo Soccini من سيينا، الذى قال إن هواء فلورنسا كان مضراً بالعين: "E quella di Siena al cervello.". وكان قصر نظر ليو العاشر مضرب الأمثال. وبعد انتخابه فسر الفكاهيون الرومان العدد المنقوش MCCCCXL فى الفاتيكان كما يلى: "Multi c?ci Cardinales creaverunt cæcum decimum Leonem". Cf. Shepherd-Tonelli, Vita del Poggio, ii, 23 sqq.، والفقرات المقتبسة هناك.

(١٧) ونجد هذا أيضًا فى الفنون التشكيلية- مثلاً، فى اللوح الشهير الذى يمثل بطريقة المحاكاة الساخرة مجموعة اللاوكون على أنها ثلاثة قرود. ولكن المحاكاة الساخرة هنا قلما تتجاوز الرسومات التخطيطية

وما مثلها، بالرغم من أن كثيراً، في الحقيقة، ربما قد تم تدميرها. والكاريكاتور، مرة أخرى، هو شئ مختلف. فإن ليوناردو، في الوجوه الفرتسيكية في المكتبة الأمبروسيانية Biblioteca Ambrosiana، يمثل كل ما هو شنيع وشائن عندما يكون وبسبب كونه كوميدى، ويبالغ في العنصر المضحك حسب الرغبة.

(١٨) انظر جوفيانوس بونتانوس .Jov. Pontan., De Sermone, lib. iv, 10 وهو يعزو موهبة خاصة في الظرف إلى أهل سيينا وبيروجيا، بالإضافة إلى الفلورنسيين، مضيفاً البلاط الإسباني متأدبًا .

(١٩) انظر رجل البلاط .Il Cortigiano, lib. ii, cap. 4 sqq., ed. Baude do Vesme, pp. 124 sqq (Florence, 1854). وعن تفسير الظرف على أنه من أثر المغايرة، بالرغم من عدم وضوح ذلك بدقة، انظر المصدر نفسه ibid., cap. lxxiii, p. 136 .

(٢٠) وجوفـيـانوس بونتـانوس Jov. Pontan., De Sermone, lib. iv, cap. 3، ينصح الناس بعدم استخدام السخرية ridicula ضد البؤساء أوالأقوياء.

(٢١) انظر Galateo del Casa, ed. Venez., 1789, pp. 26 sqq., 48 .

(٢٢) انظر Lettere Pittoriche, i, p. 71، في رسالة لفينس. بورجيني Vinc. Borghini، ١٥٧٧, ويقول ماكيافيللي (Sror. Fiorent.,vii, cap. 28) عن السادة الشباب في فلورنسا بعد منتصف القرن الخامس عشر بقليل: " Gli studî loro erano apparire col vestire splendidi, e col parlare sagaci ed astuti, e quello che più destramente mordeva gli altri, era più savio e da più stimato .

(٢٣) انظر أيضًا خطبة فيدرا إنجيرامي Cf. Fedra Inghirami في جنازة لودوفيكو بودوكاتارو Lodovico Podocataro (مات ٢٥ أغسطس ١٥٠٤) في Anecd. Litt., i, 319.. ويُذكر ماسيمو الأفاك في باول. جوفـيـوس، Paul. Jovius, Dialogus de Viris Litt. Illustr. (Tiraboschi, tom. vii, Parte IV, p. 1631).

(٢٤) وكانت هذه هي الخطة التي اتبعها ليو العاشر، ولم تكن حساباته مضيعة لآماله. وبالرغم من تناول الهجائيين لسمعته بالسوء الشديد، فإنهم لم يستطيعوا تعديل التقدير العام الذي تشكّل بشأنه.

(٢٥) ومن المحتمل أن هذه كانت حالة الكاردينال أرديتشينو ديللا بورتا Ardicino della Porta، الذي رغب في ١٤٩١ في أن يستقيل بكرامته وأن يلجأ إلى الدير. انظر إنفيسّورا Infessura, in Eccard, ii, col. 2000 .

(٢٦) انظر خطبة جنازته في Anecd. Litt., iv, p. 315. وقام بتجميع جيش من الفلاحين في مسيرة أنكونا، التي أعيقت عن العمل عن طريق خيانة دوق أوربينو. وعن قصائده الغرامية الرشيقة اليائسة، انظر تروكّي Trucchi, Poesie Inedite, iii, 123 .

(٢٧) ويُحكى في جيرالدي Giraldi, Hecatommithi, vii, Nov. 5، كيف استخدم لسانه على مائدة كليمنت السابع.

(٢٨) وكانت تهمة أخذ اقتراح إغراق باسكوينو في باول. جوفيوس (Paul. Jovius, Vita Hadriani) في الاعتبار قد حوِّلت من سيكستوس الرابع إلى أدريان، ولكنها تم تأكيدها على يد أريتينو في -Ragiona mento per le Corti (Venice, 1539). انظر أيضًا .Cf. Lettere dei Principi, i, 114 sqq، خطاب نيجرو Negro المؤرخ ٧ إبريل ١٥٢٣، وفي يوم عيد القديس مارك كان لدى باسكوينو احتفال خاص حظره البابا.

(٢٩) في الفقرات المجموعة في جريجوروفيوس Gregorovius, viii, 380, note, 381 sqq., 393 sqq ..

(٣٠) انظر بيير. فاليريانو -Cf. Pier. Valeriano, De Infel. Lit., ed Mencken, p. 178: "Pestilen tia quæ cum Adriano VI invecta Romam invasit" .

(٣١) مثلاً، فيرينزولا Ferenzuola, Opera, col. i, p. 116 (Milan, 1802), in the Discorsi degli Animali .

(٣٢) انظر أيضًا الأسماء في هوفلر Cf. Höfler, Sitzungsberichte der Wiener Academie, vol. 82, p. 435 (1876) .

(٣٣) وكلمات بيير. فاليريانو Pier. Valeriano, De Infel. Lit., ed Mencken, p. 382تنقل بشدة خصائص الشعور العام في روما: "Ecce adest Musarum et eloquentiæ totiusque nitoris hostis acerrimus, qui literatis omnibus inimicitias minitaretur, quoniam, ut ipse dictitabat, Terentiani essent, quos quum odisse atque etiam persequi c pisset voluntarium alii exilium, alias atque alias alii latebras quærentes tam diu latuere quoad Deo beneficio altero imperii anno decessit, qui si aliquanto diutius vixisset, Gothica illa tempora adversus bonas literas videbatur suscitaturus". ويرجع أيضًا الكره العام لأدريان بصفة جزئية إلى حقيقة أنه في معمعان المتاعب المالية التي وجد نفسه فيها فإنه اتبع وسيلة فرض ضريبة مباشرة. انظر رانكه .Ranke, P?pste, i, 411 وربما يمكننا هنا أن نذكر أنه كان هناك، مع ذلك، شعراء قاموا بمدح أدريان. انظر أيضاً فقرات مختلفة في Coryciana (ed. Rome, 1534), especially J. J., 2b sqq ..

(٣٤) إلى دوق فيرارا، في أول يناير ١٥٣٦ (Lettere, ed. 1539, fol. 39): " ستقوم الآن برحلة من روما إلى نابولي"، -ricreando la vista avvilita nel mirar le miserie pontificali con la contem plazione delle eccellenze imperiali".

(٣٥) والخوف الذي سببه للرجال ذوي الشأن والشهرة، وبخاصة الفنانين، بهذه الوسائل لا يمكن وصفه هنا. وكان السلاح الدعائي للإصلاح الديني الألماني هو بصفة رئيسية النشرة التي تتناول الأحداث حسبما تحدث؛ وكان أريتينو صحفيًا بمعنى أنه كان لديه في داخلية نفسه مناسبة أبدية دائمة للكتابة.

(٣٦) مثلاً شاعر سيئ في الكابيتولو عن ألبيكانتي Capitolo on Albicante؛ وللأسف فإن الفقرات غير مناسبة للاقتباس.

(٣٧) انظر Lettere, ed. Venez., 1539, fol. 12, dated May 31, 1527 .

(٣٨) فى الكابيتولو الأول إلى كوسيمو. والحقيقة هى أن أريتينو نفذها بنجاح لدرجة أن الدوق رشحه للكاردينالية.

(٣٩) انظر جاى Gaye, Carteggio, ii, 332 .

(٤٠) انظر الخطاب المهين لعام ١٥٣٦ فى Lettere Pittor., i, App. 34. انظر أعلاه، الفصل الثالث، القسم الرابع، عن المنزل الذى ولد فيه بترارك فى أريتزو.

(٤١)

L' Aretin, per Dio grazia, è vivo e sano,"

Ma'l mostaccio ha fregiato nobilmente,

E più colpi ha, che dita in una mano."

MAURO, Capitolo in Lode delle Bugie

(٤٢) انظر، مثلاً، الرسالة الموجهة إلى كاردينال اللورين، Lettere, ed. Venez., fol. 29، المؤرخة ٢١ نوفمبر ١٥٣٤، والرسائل الموجهة إلى شارل الخامس، التى يقول فيها أنه ما من رجل يقف أقرب إلى الله من شارل.

(٤٣) وعمَّا يعقب ذلك انظر جاى Gaye, Carteggio, ii, 336, 337, 345 .

(٤٤) انظر Lettere, ed. Venez., 1539, fol. 15, dated June 16, 1529. انظر أيضاً رسالة رائعة أخرى إلى م. أ. M. A. مؤرخة فى ١٥ إبريل ١٥٢٨ fol. 212 .

(٤٥) وربما فعل ذلك إما أملاً فى الحصول على القبعة الحمراء أو خوفًا من النشاط الجديد لمحاكم التفتيش، التى تجرأ على مهاجمتها بمرارة فى ١٥٣٥ (loc. cit., fol. 37). ولكن التى، بعد الاعتراف بالنظام فى ١٥٤٢، اتخذت فجأة بداية جديدة، وأخرست بسرعة كل صوت معارض.

القسم الثالث

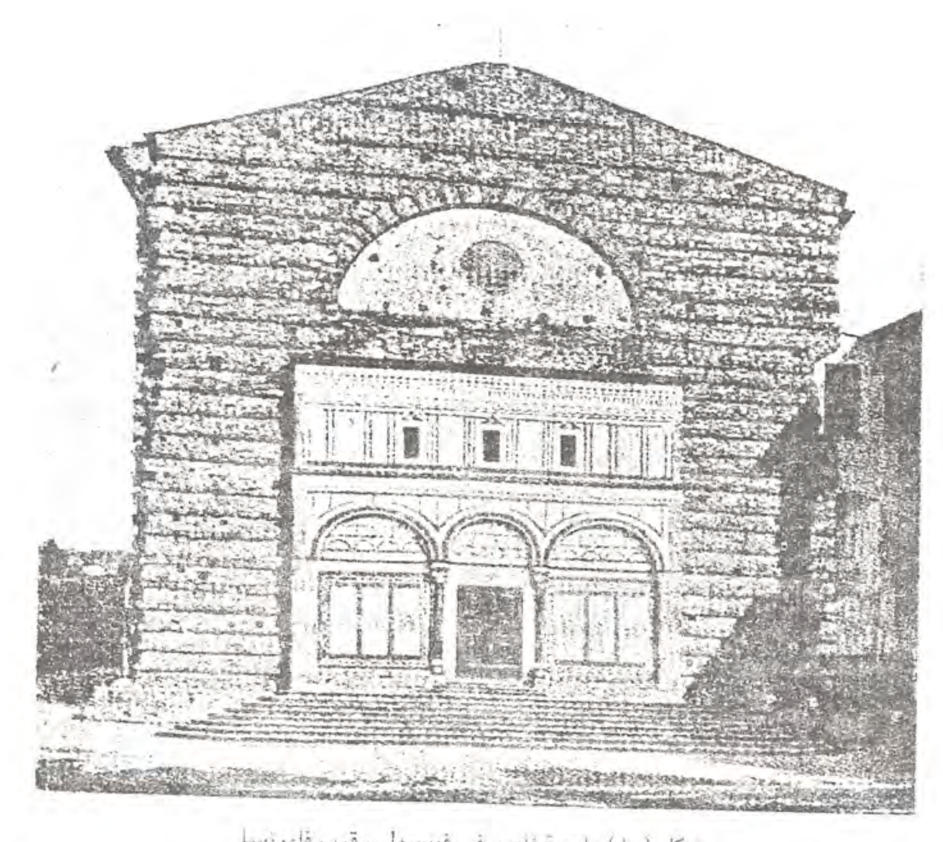
انتعاش العصر العتيق

الفصل الأول

ملاحظات تمهيدية

والآن، وقد بلغنا هذه النقطة من نظرتنا التاريخية للحضارة الإيطالية، حان الوقت للحديث عن التأثير الذى أحدثه العصر العهيد أو العتيق Antiquity الذى كان "الميلاد الجديد" له هو ذلك الاسم الذى اختير اختياراً من جانب واحد لكى يلخص الفترة برمتها. والأحوال التى وصفت حتى الآن كانت فى حد ذاتها تكفى، بغض النظر عن العصر العهيد، لقلب العقل القومى رأساً على عقب ولإنضاجه أيضاً؛ وتظل معظم الميول الفكرية التى بقى بعد ذلك أن توضع موضع الملاحظة أمراً يمكن قبوله وتصوره بدونه. غير أن كلاً مما جرى قبلاً وما بقى علينا الآن أن نبحثه ملون بألف طريقة بفعل تأثير العالم العتيق؛ ومع أن خلاصة الظاهرة ربما ظلت رغم ذلك هى هى بغير اختلاف، دون حدوث الانتعاش أو الإحياء الكلاسيكى، فإنهما لم يصبحا فعلاً ظاهرتين واضحتين لأبصارنا إلا مع ذلك الانتعاش أو الإحياء أو من خلاله. وما كان عصر النهضة ليكون عملية ذات أهمية عالمية، وهو حالها الذى تشكل بين يدينا، لو أنه كان فى الإمكان فصل عناصرها بمثل هذه السهولة الشديدة بعضها عن بعض. ولا بد لنا من أن نُصِرَّ هنا، بوصف ذلك أحد القضايا الرئيسية فى هذا الكتاب، على أن العامل لم يكن هو انتعاش العصر العهيد وحده، وإنما العامل هو أن اتحاده واجتماعه مع عبقرية الشعب الإيطالى هو الذى أنجز عملية غزو العالم الغربى. نعم إن مقدار الاستقلال الذى احتفظ به الروح القومى فى ثنايا هذا الاتحاد والاجتماع كان يختلف تبعاً للظروف. وهو ضئيل جداً فى الأدب اللاتينى لتلك الفترة، بينما هو فى الفن التشكيلى، بالإضافة إلى مجالات أخرى،

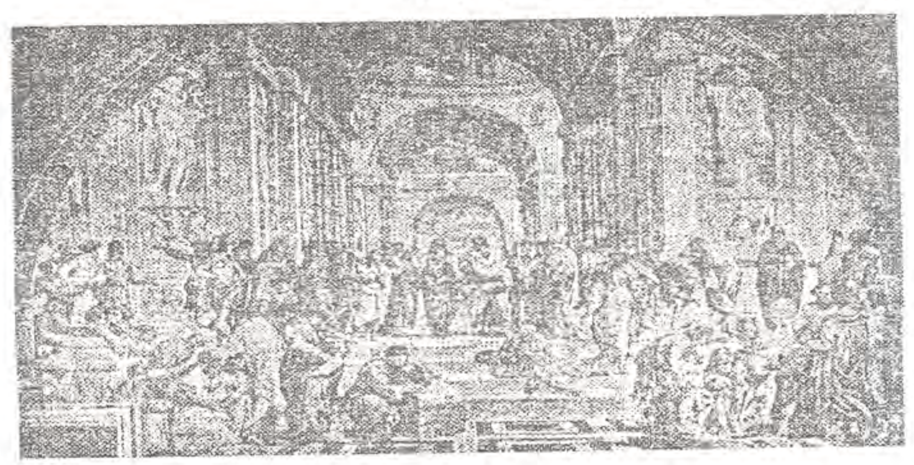
عظيم عظمًا مسترعيًا للنظر؛ ومن ثم تجلى أن التحالف بين حقبتين متباعدتين في حضارة نفس الشعب الواحد، بسبب التوصل إليه على أسس متعادلة، كان له ما يبرره وكان مثمرًا[1]. وكان سائر أوربا حرًا في الاختيار، فإما أن يصد، وإما أن يتقبل جزئيًا أو بالكامل، ذلك الدافع القوى الآتى من إيطاليا. فحيثما غلبت على الأوضاع الحالة الأخيرة أمكننا أن نتجاوز عن الشكاوى التى نسمعها حول الانحلال المبكر لعقيدة العصر الوسيط وحضارته. فلو أوتيت تلك العقيدة والحضارة القوة الكافية للاحتفاظ بموقعها لظلَّت على قيد الحياة إلى يومنا هذا. ولو قيض للطبائع الحزبية التى تتشوف إلى رؤيتهما يعودان، أن تمضى ولو ساعة واحدة بينهما لشعرت بالاختناق وأخذت تشهق طالبة العودة إلى الهواء الحديث. ومن الحقائق التى لا شك فى صدقها، أنه فى ثنايا عملية تاريخية كبيرة من هذا القبيل ربما هلكت زهرات الجمال الرائع دون أن تصبح خالدة فى ثنايا الشعر أو التقاليد؛ ومع ذلك لا نستطيع أن نتمنى لو أن العملية لم تتم. وتكمن النتيجة العامة للأمر فى أنه قامت إلى جوار الكنيسة، التى ظلت حتى ذلك الحين تمسك بأقطار الغرب بعضها إلى بعض (وإن عجزت عن الاستمرار فى ذلك زمناً أطول كثيرًا)، مؤثرةُ روحانية جديدة، أصبحت وقد نشرت نفسها خارج إيطاليا، أنفاس الحياة لجميع العقول المتعلمة أكثر بأوروبا. وأسوأ ما يمكن أن يقال عن تلك الحركة هو أنها كانت مضادة للمزاج الشعبى، وأنه بسببها أصبحت أوروبا لأول مرة مقسمة تقسيمًا حادًا إلى الطبقتين المهذبة المثقفة وغير المهذبة غير المثقفة. وسيبدو هذا اللوم الموجه هنا عديم الأساس عندما نفكر متدبرين أنه حتى فى هذا الأوان لا يمكن تغيير الحقيقة، وإن كانت مدركة أوضح إدراك. كما أن الفصل بين الفريقين أيضًا ليس على الإطلاق حادًا ولا مطلقًا فى إيطاليا كشأنه فى أماكن أخرى. فإن أعظم شعرائها فنية، وهو تاسّو Tasso، وصل إلى أيدى من هو حتى الأهون شأنًا والأكثر فقرًا.



شكل (٨٠) واجهة الدير في فييسولي، قرب فلورنسا
يعود تاريخه إلى حوالي ١٠٩٠، وتم تجديده في ١٣٠٠

والحضارة الإغريقية والرومانية، التي ظلت لها منذ القرن الرابع عشر قبضة بالغة القوة متمكنة من عنق الحياة الإيطالية بوصفها مصدر الثقافة وأساسها، وبوصفها هدف الوجود ومثله الأعلى، وبوصفها أيضاً، من ناحية جزئية رد فعل وانعكاساً مُسلَّماً به ضد الميول السابقة- هذه الحضارة ظلت أمداً طويلاً تؤثر تأثيراً جزئياً على أوروبا القروسطية، حتى خارج إيطاليا نفسها. والثقافة التي كان شارل الأكبر ممثلاً لها كانت، تجاه همجية وبربرية القرنين السابع والثامن، تعد في جوهرها "عصر نهضة"، ولم يكن من المستطاع ظهورها تحت أي شكل آخر. وكما حدث في فن العمارة

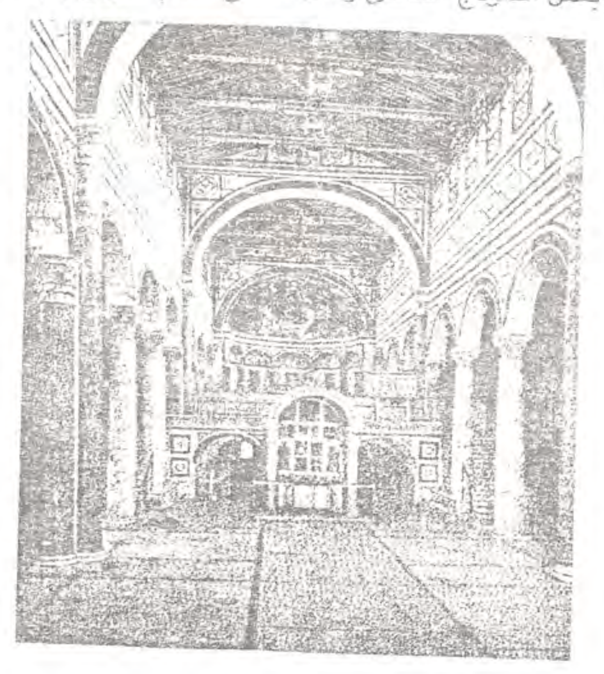
الرمانسكي في الشمال، حيث إلى جانب المعالم العامة الموروثة من العصر العهيد، تحدث محاكيات مباشرة أخاذة أخرى للعصر العهيد، كذلك أيضًا امتصت الحركة العلمية الديرية تدريجيًا كتلة هائلة من المواد نقلاً عن الكتاب الرومان، بل تجاوزت ذلك إلى اقتباس أسلوبها، منذ أيام إيجنهارت **Eginhard** فصاعداً، الذي تبدو فيه بعض الآثار التي تدل على المحاكيات الشعورية الواعية.



شكل (٨١) المدرسة
لرافاييل
الفاتيكان، روما

على أن إحياء العصر العهيد اتخذ في إيطاليا شكلاً مغايراً لذلك الذي تزيا به في الشمال. فلم تكد تنحسر موجة البربرية حتى أظهر الناس، الذين لم تكن حياتهم السابقة إلا ممحوة نصف محو، وعيا بماضيهم ورغبة في إعادة إنتاجه. فأما في أي مكان آخر في أوروبا فقد استعار الناس عمداً ومع التفكير والتدبر هذا العنصر أو ذاك من عناصر الحضارة الكلاسيكية؛ وأما في إيطاليا فإن وجدانات الناس المتعلمين منهم والشعب على السواء، كانت متجهة بالطبيعة إلى جانب العصر العهيد ككل ومتحيزة إليه، إذ يقف في رأي أعينهم رمزًا للعظمة الخالية. وفضلاً عن ذلك فإن اللغة اللاتينية كانت بالمثل سهلة على الإيطالي، كما أن مما سهل العودة إلى الماضي تلك الآثار والوثائق الكثيرة العدد التي انتشرت في أرجاء البلاد بوفرة. وإلى هذا الميل اجتمعت

عناصر أخرى- الطابع الشعبي الذي عدله الزمان وحوره كثيراً آنذاك، والنظم السياسية التي استوردها اللومبارديون من ألمانيا، كالفروسية وغيرها من أشكال شمالية للحضارة، وتأثير الدين والكنيسة - اجتمعت كلها فانتجت الروح الإيطالي الحديث، الذي قدر له أن يقوم بعمل النموذج المحتذى والمثل الأعلى للعالم الغربي بأجمعه.



شكل (٨٢) . كنيسة القديس ميناتو ألمونتي من الداخل
تصوير أليناري

فأما كيف بدأ العصر العهيد يعمل عمله في الفن التشكيلي بمجرد أن انحسر المد البربري، فأمر يتجلى بوضوح في مباني القرن الثاني عشر التوسكانية وفي نحائت وتماثيل القرن الثالث عشر. فأما في مجال الشعر أيضاً فلن تبدو هناك حاجة إلى أشباه ومتمثلات مثيلة لدى أولئك الذين يرون أن أعظم شاعر لاتيني في القرن الثاني عشر، أي الكاتب الذي عزف اللحن الأساسي (لحن المفتاح الموسيقي) للقصيدة اللاتينية ككل، كان إيطاليًا. ونعني بذلك مؤلف أجمل القطع التي يحتويها ما يسمى

بالكارمينا بورانا Carmina Burana . فإن هناك استمتاعًا صريحًا بالحياة ومتعها، تُلتمس فيه نصرة أرباب الوثنية بوصفهم النصراء والرعاة لذلك الاستمتاع، بينما يتبوأ كاتو Cato وسكيبيو Scipio وأضرابهما مقاعد القديسين والأبطال فى المسيحية- وهو استمتاع يفيض بتياره العارم فى كل ثنايا الأشعار المنظومة. ولو قرأنا تلك الأشعار قراءة استفاضة واسترسال لم نكد نملك إلا أن نصل إلى نتيجة محتمة هى أن إيطاليًا، يحتمل أن يكون لومبارديًا، يتكلم؛ والواقع إن هناك أسسًا إيجابية تدعو إلى الذهاب إلى هذا الرأى[٢] . وإلى حد ما كانت هذه القصائد اللاتينية التى نظمها القساوسة clerici vagantes أبناء القرن الثانى عشر، بكل ما لهم من خفة ماجنة تسترعى الأنظار، إنما هى دون مراء ثمرة كان لأوروبا بأجمعها نصيب فيها؛ بيد أن كاتب أغنية الفيليد وفلورا[٣] De Phyllide et Flora وإستوانس إنتريوس Æstuans interius كان من الممكن أن يكون شماليًا بنفس الدرجة القليلة التى كان بها ذلك المراقب والمعقب الأبيقورى المهذب الذى ندين له بقطعة Dum Dianae vitrea sero lampas oriur .

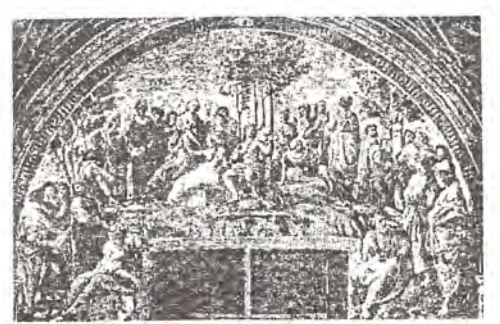


شكل (٨٣) عبادة الماجى

لنيكولو بيزانى

رسم على منبر التعميد، بيزا

وهنا تقوم، والحق يقال، إعادة إنتاج لوجهة النظر القديمة بأكملها للحياة، وهى تعتبر أخاذة بدرجة أشد كثيراً من الشكل الوسيطى للقصيدة الذى صيغت فيه بداية. وهناك أعمال كثيرة تعود لهذا القرن والذى يليه تبدو فيها محاكاة حريصة دقيقة للعتيق فى كل من بحور الشعر الخماسية والسداسية الوزن من البحور المستخدمة تقوم فى الطابع الكلاسيكى، الذى كثيراً ما يكون رطازياً (ميثولوچياً)، للموضوع المطروح، والذى ليس له مع ذلك أدنى مشابهة للروح نفسها الخاصة بالعصر العهيد. وفى المدونات التاريخية فى بحر سداسى الوزن هى وأعمال أخرى لجوليموس أبوليبنسيس Guliemus Apuleinsis وخلفاؤه (منذ حوالى عام ١١٠٠)، نجد آثاراً متفرقة عديدة لدراسة دؤوب لفرجيل وأوفيد ولوكان وأستاتيوس وكلوديان؛ غير أن هذا الشكل الكلاسيكى إنما هو هنا، بعد كل شئ، مجرد موضوع أركيولوچى بحت (أعنى ينضوى تحت علم الآثار)، شأن الموضوع الكلاسيكى عند الجامعين والنقلة مثل فنسنت من بوڤيه Beauvais، أو الكاتب الرطازى (الميثولوچى) والقصصى الرمزى المجازى ألانوس آب إينسوليس .Alanus ab Insulis وليس عصر النهضة بمجرد تقليد أو تجميع جزئى، لكنه ميلاد جديد؛ ويمكن مشاهدة العلامات الدالة على ذلك فى قصائد "القساوسة" المجهولون التى صدرت فى القرن الثانى عشر.



شكل (٨٤). بارناسوس
لرفاييل
الفاتيكان، روما
تصوير أندرسون، روما

على أن حماسة الإيطاليين العظيمة والعامة للعصر الكلاسيكي العهيد لم تتجل للعيان قبل القرن الرابع عشر. ومن أجل تلك البغية لم يكن بُدّ من قيام تطور للحياة الحضرية (حياة المدن)، وهو تطور لم يحدث في إيطاليا وحدها، ولم يحدث فيها إلا في ذلك القرن. وكان الأمر في أمس الحاجة إلى أن يتعلم النبيل وساكن الحضر (ابن المدينة) أولاً وقبل كل شئ كيف يتعايشان معًا وهما على قدم المساواة، وأن عالمًا اجتماعيًا ينبغي أن يقوم (انظر القسم الثاني، الفصل الثالث) يحس بالحاجة إلى الثقافة، وله من أوقات الفراغ ومن الوسائل ما يمكنه من الحصول عليها. على أن الثقافة بمجرد أن خلصت نفسها من الروابط والأغلال الوهمية للعصور الوسطى لم تكن لتستطيع بغير دفعة مساعدة أن تجد طريقها نحو فهم للعالم الطبيعي (الفيزيقي) والفكري. لقد احتاجت إلى دليل يهديها السبيل ووجدته في الحضارة القديمة، لما لها من ثروة من الصدق والمعرفة في كل موضع اهتمام روحي. فتم تبني كل من شكل هذه الحضارة ومادتها في شكران عامر بالإعجاب؛ فأصبحت الجزء الرئيسي في ثقافة العصر[٣]. وكانت الحالة العامة للبلاد موائمة لهذا التحول. ولا يخفى أن الإمبراطورية الوسيطية عمدت، منذ سقوط أسرة هوهنشتاوفن، إما إلى التخلي عن مدعياتها على إيطاليا أو عجزت دون إبراز تلك المدعيات وتوكيد صلاحيتها. وكان الباباوات هاجروا آنفًا إلى أفينيون. وكانت معظم القوى (الدول) السياسية القائمة فعلاً في ذلك العصر تدين بوجودها وأصلها لوسائل عنيفة وغير شرعية. لقد طفق روح الشعب، وقد استيقظ إلى وعيه الذاتي، يبحث عن مثل أعلى جديد وثابت وطيد يستطيع أن يرتكن عليه وهكذا استولت على العقل الشعبي رؤيا إمبراطورية إيطاليا وروما الشاملة للعالم قاطبة حتى بلغ من عمقها وقوتها أن كولا دي ريينزي Cola di Rienzi استطاع أن يحاول أن يتولى تنفيذها عمليًا. والتصور الذي أنشأه لعمله هذا، وبخاصة عندما أصبح تريبيونًا أي مدافعًا عن حقوق الشعب (Tribune) لأول مرة، لم يكن يستطيع أن ينتهي أمره إلا إلى مسرحية كوميدية مفرطة المبالغة؛ ومع هذا فإن ذكرى روما القديمة لم تكن بأية حال داعمًا ضعيفًا للعاطفة القومية. والآن وقد تسلح الإيطالي من جديد بثقافتها، فإنه سرعان ما أحس نفسه مواطنًا في أشد أمم الأرض رقيًا وتقدمًا.

ومن واجبنا الآن أن نرسم صورة تخطيطية لهذه الحركة الروحية، على ألاّ يكون ذلك، والحق يقال، في صورة اكتمالها المطلق، ولكن في أبرز ملامحها وقسماتها، وبخاصة في بداياتها الأولى[٥].

هوامش الفصل الأول - القسم الثالث

(١) (وقد قام ضد هذا الرأى لبوركهارت معارضون متشعبون؛ ولكن ينبغى أن نستبعد هؤلاء الذين، بوضع بداية عصر النهضة أقدم كثيراً فى القرون الوسطى، قد يرون فى تخور الفردية علامتها المميزة. ويمكن فقط الاعتراض ضد بوركهارت أنه لم يركز بصورة كافية على تطور عصر النهضة من القرون الوسطى، أى النمو المطرد من حقبة إلى أخرى.- و. ج. W. G) .

(٢) انظر كارمينا بورانا Carmina Burana, in the Bibliothek des literarischen Vereins in Stuttgart, vol. xvi (Stuttgart,1847) وإصدارة أخرى على يد أوسترلى .österley (Breslau, 1883) ويشهد كل من التالى إلى جانب افتراضنا: المقام فى باڤيا (p. 68 bis)، المراجع الإيطالية المحلية عموماً، المشهد مع الباستوريللا pastorella تحت شجرة الزيتون (p. 146، ذكر pinus) بوصفها شجرة مظللة (p. 156)، الإكثار من استخدام كلمة bravium (pp. 137, 144)، وبصفة خاصة الشكل "Madii" بدلاً من "Maji" (p. 141) .

(وحدس الدكتور بوركهارت بأن أفضل قطع كارمينا بورانا كتبت على يد كاتب إيطالى لا يستند إلى دليل. والأسس التى قدمت لدعم ذلك ذات وزن قليل (مثلاً، ذكر باڤيا- "Quis Paviæ demorans castus habeantur?"- التى يمكن تفسيرها على أنها تعبير شبيه بالأمثال، أو إشارة إلى إقامة قصيرة للكاتب فى باڤيا)، لا يمكن أيضاً أن تقف فى وجه أسباب الجانب الآخر، وأخيراً تفقد كل قوتها أمام التحديد المحتمل لهوية المؤلف. ومجادلات ا. هوباتش O. Hubatsch, Die lateinischen Vagantenlieder des Mittelalters, p.87 (G?rlitz, 1870)، ضد المنشأ الإيطالى لهذه القصائد هى هجومات، من بين أخرى، على رجال الدين الإيطاليين ومديح لمثلائهم الألمان، والتعنيفات للجنوبيين بوصفهم gens proterva، والإشارة إلى الشاعر بوصفه transmontanus. فمن كان هو فى الحقيقة، مع ذلك، فشئ لم يمكن تبينه بوضوح. وكون اسمه والتر لا يلقى أى ضوء على منشأه. وقد تم تحديده سابقًا على أنه جوالتيروس دى مابيس Gualterus de Mapes، وهو كاهن من ساليسبورى وقسيس الاعتراف للملوك الإنجليز فى نهاية القرن الثانى عشر؛ ومنذ ذلك الوقت، على يد جيسيبريخت Giesebrecht, Die Vaganten oder Goliarden und ihre Lieder, Allgemeine Monatschrift (1855)، على أنه والتر من ليل أو شاتيون Walther of Lille Or Chatillon، الذى مر من فرنسا إلى إنجلترا وألمانيا، وبعد ذلك على أنه من المحتمل رئيس الأساقفة راينهولد من كولن Reinhold of Koln (١١٦٤ و١١٧٥) إلى إيطاليا (باڤيا، الخ). وإذا كان ينبغى لهذه الفرضية الظنية، التى قدم ضدها هوباتش (الموضع نفسه .loc. cit)

اعتراضات معينة، أن لا يلتفت إليها، فإن منشأ جميع هذه الأغاني تقريبًا، بدون شك، ينبغي أن يُبحث عنه في فرنسا، التي منها انتشرت من خلال المدرسة المنتظمة التي وجدت هنا لها إلى ألمانيا، وهناك توسعت واختلطت مع الجمل الألمانية؛ بينما ظلت إيطاليا، كما بين جيسيبريخت، تقريبًا غير متأثرة بهذه الطبقة من الشعر. والمترجم الإيطالي لعمل الدكتور بوركهارت، وهو البروفيسور د. ڤالبوسا D. Valbusa، في ملحوظة على هذه الفقرة (i, 235) يعارض أيضًا المنشأ الإيطالي للقصيدة. انظر ج. سوسميلش J. Süssmilch, Die lat. Vagantenpoesie des 12 u. 13 Jahrh. (Leipzig, 1918)- ج. (L. G.

(٣) كارمينا بورانا Carm. Bur., p. 155، جزئًا فقط؛ والكل في رايت Wright, Walter Mapes, p. 258 (1841)انظر أيضًا هوباتش .Cf. Hubatsch, pp.27 sqq، الذي يشير إلى حقيقة أن هناك حكاية يتم تناولها بكثرة في فرنسا هي الأساس. انظر Æst. Inter., Carm. Bur., p. 67; Dum Dianæ, Carm. Bur., p. 124. وأمثلة أخرى: Cor patet Jovi: الأسماء الكلاسيكية للمحبين؛ قمرة، عندما يطلق عليها اسم بلانسيفلور Blanciflor، يضيف، كأنما ليعوضها، اسم هيلينا Helena .

(٤) ويرسم إينياس سيلڤيوس Æneas Sylvius (Opera, p. 603, in Epist. 105, to the Archduke Sigsmund) رسمًا تخطيطيًا موجزًا عن الطريقة التي تقوم بها العصور العهيدة بدور المرشد والمعلم في جميع أجزاء الحياة العليا.

(٥) وعن الوقائع المفردة لا بد أن نحيل القارئ إلى روسكو Roscoe, Lorenzo de' Medici and Leo X، بالإضافة إلى ڤويجت Voigt, Enea Silvio (Berlin, 1856-63)؛ وإلى أعمال رويمونت Reumont وإلى جريجوروڤيوس Gregorovius, Geschichte der Stadt Rom im Mittelalter .

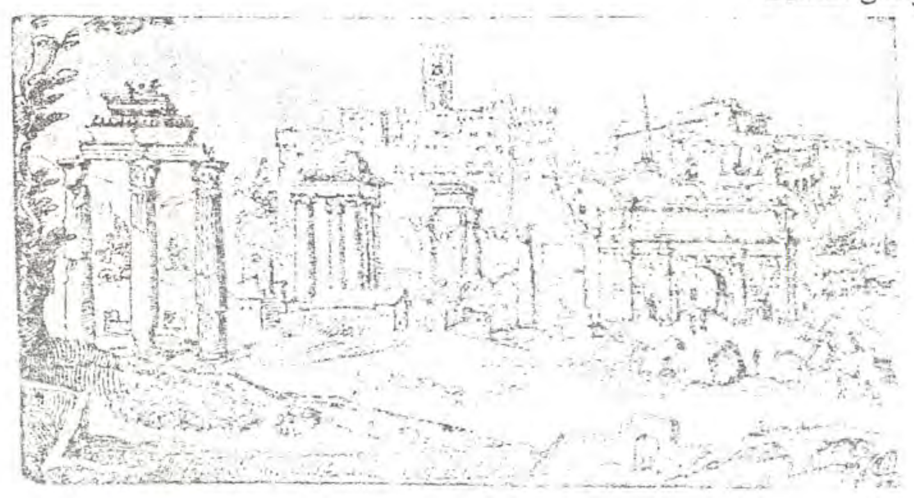
وليمكن تكوين فكرة عن المدى الذي بلغته الدراسات في بداية القرن السادس عشر فلا يمكننا أن نفعل أفضل من نتجه إلى عمل رفاييل ڤولاتيرآنوس Commentarii Urbani of Raphael Volaterranus (ed. Basil., 1544, fol. 16, etc).فهنا نرى كيف شكلت العصور العهيدة المقدمة والموضوع الرئيسي للدراسة في كل فرع من فروع المعرفة، من الجغرافيا والتاريخ المحلي وحيوات الرجال العظام والشهيرين والفلسفة الشعبية والأخلاقيات والعلوم الخاصة، حتى تحليل أرسطو بأجمعه التي ينتهي بها العمل. وحتى نفهم أهميته كمرجع ثقة في تاريخ الثقافة علينا أن نوازنه بجميع الموسوعات الأبكر منه. وهناك بيان كامل وظرفي عن الموضوع يقدمه عمل ڤويجت المثير للإعجاب Voigt, Die Wiederbelebung des klassischen Altertums oder das erste Jahrhundert des Humanismus (Berlin, 1859, 3rd ed. 1893, 2 vols., revised by M. Lehnerdt). وانظر أيضًا م. مونييه M. Monnier, Le Quattrocento (2 vols, Paris, 1900)؛ وف. روسي V. Rossi, Il Quattrocento (Florence, 1898).

الفصل الثانى

روما مدينة الخرائب

إن روما، التى هى نفسها مدينة الخرائب، أصبحت الآن هدفًا لنوع أخر من التقى مختلف تمامًا عن ذلك السائد يوم أنشئت قصائد روما العجيبة Mirabilia Romae ومجموعة وليم مالميسبورى William of Malmesbury . فإن خيال الحاج الورع، أو ملتمس العجائب[1] والكنوز، تحل محلها فى السجلات المعاصرة اهتمامات الوطنى الغيور والمؤرخ. بهذا المعنى ينبغى لنا أن نفهم كلمات[2] دانتى حين قال إن أحجار حيطان روما تستحق التوقير، وأن الأرض التى بنيت عليها المدينة أشد جدارة مما يقول الناس. ولم تكد أعياد اليوبيلات، وهى شئ لا يتوقف قط فى حياة المدينة، تدع سجلاً وحيدًا للتقوى فى الأدب الجدير بتلك التسمية. وكان أفضل شئ أحضره چيوڤانى ڤيلانى Giovanni Villani (انظر القسم الأول، الفصل السابع) من يوبيل عام ١٣٠٠ هو التصميم على الشروع فى كتابة تاريخه، ذلك التصميم الذى أيقظه فى نفسه منظر خرائب روما. ويبدى بترارك شواهد تدل على ذوق موزع بين العهيد الكلاسيكى والعهيد المسيحى. وهو يخبرنا أنه كم من مرة صعد مع چيوڤانى كولوناGiovanni Colonna الأقباء (جمع قبو) العملاقة لحمامات دقلديانوس[3]، وهناك فى الهواء الشفاف، بين أطباق الصمت المترامى، والمنظر البرى العريض الممتد بعيدًا حولهما، تكلما لا عن الأعمال والتجارة ولا عن الشئون السياسية، بل عن التاريخ، الذى أوحت به الخرائب تحت أقدامهما، حيث يبدو بترارك فى ثنايا حوارهما فى صورة النصير المتحيز للعصر العهيد الكلاسيكى، وچيوڤانى للعهيد المسيحى؛ ثم ينفلتان إلى حديث الفلسفة وإلى

مبدعي الفنون. فما أكثر ما حدث منذ ذلك الوقت، حتى أيام جيبون Gibbon ونيبور Niebuhr، أن أثارت هذه الخرائب والأطلال نفسها أخيلة الرجال فأفاضت العقول بنفس التأملات!



شكل (٨٥) السوق الروماني في النصف الأول من القرن السادس عشر
رسم لمارتن فان هيمسكيرك
برلين مجموعة من الحفر على النحاس

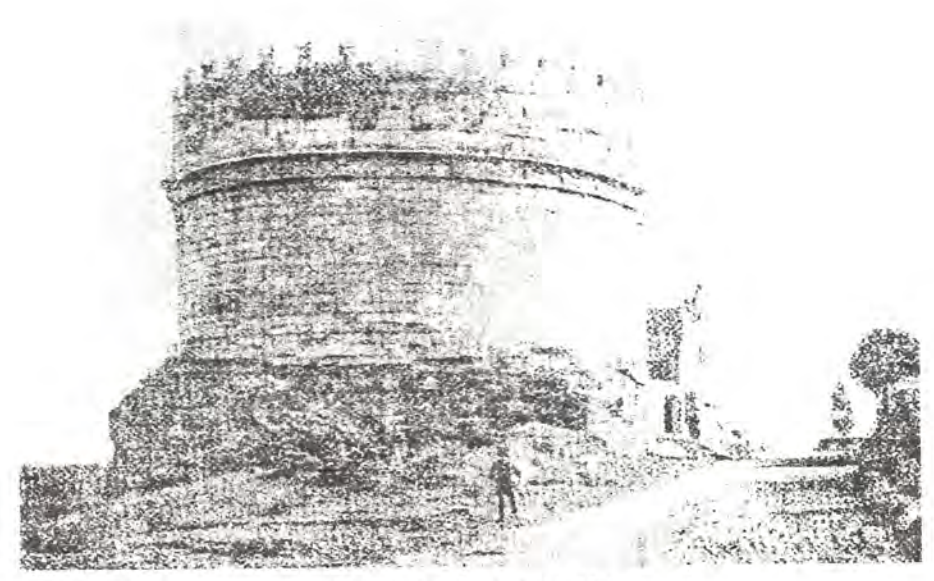
ويمكن أيضاً مشاهدة هذا التيار المزدوج للاحساس في قصيدة ديتّاموندو Ditt-mondo لفازيو ديجلي أوبيرتي Fazio degli Uberti التي نظمت حوالي ١٣٦٠- وهي وصف لأسفار متصورة في المنام، يصحب المؤلف فيها عالم الجغرافيا القديم سولينوس Solinus، مثلما صحب فرجيل دانتي. فهما يزوران باري تذكراً للقديس نيكولاس، ومونتي جارجانو Monte Garagano التابع لكبير الملائكة ميكال، وفي روما تُذكر أساطير أراتشيلي Araceli والقديسة ماريا في تراستيفيري .Trastevere ومع هذا، فإن الفخامة الوثنية لروما القديمة دون أدنى ريب تبدي سحراً لا شك فيه تمكن من التغلب عليهما بقدر أكبر. وتقص عليهم أم وقورة في ثياب ممزقة- ويقصد بذلك روما نفسها- نبأ الماضي المجيد، وتعطيهم وصفاً دقيقاً لأمجاد الانتصارات القديمة[٤] ؛ ثم

إذا هي تعود بعد ذلك فتقود الغرباء في أرجاء المدينة وتبين لهم التلال السبع وكثيرًا من الخرائب الرئيسية "كم هي جميلة" che comprender portrai, quanto fui bella .



شكل (٨٦). خريطة مدينة روما في القرن الخامس عشر

ومن سوء الحظ أن هذه روما باباوات "الصدع والأفينونيين" لم يعد لها وجود، من حيث البقايا الكلاسيكية، على الصورة التي كانت لها قبل ذلك ببضعة أجيال. إذ لا بد أن تدمير مئة وخمسة وأربعين دارًا محصنة للنبلاء الرومان على يد عضو الشيوخ برانكاليوني Brancalione في ١٢٥٨ قد غيرت طابع أعظم المباني القائمة آنذاك أهمية: إذ لا جدال أن النبلاء حجبوا أنفسهم واستكنوا في أسس تلك الأطلال وأشدها محتفظًا بحالتها الجيدة[٥]، ومع هذه فإن ما تُرك عندئذ أكثر كثيرًا مما نجده الآن بين يدينا ومن المحتمل أن كثيرًا من البقايا والآثار كانت لا تزال تحتفظ بكثير من ملصقاتها من التلبيسات الرخامية، ومداخلها المعمدة، فضلاً عن زخارف أخرى حيث لا يُرى الآن سوى هيكل لبناء حجري. وفي غلال حال الأمور هذه، وضعت أول ركيزة لبدايات الدراسة الطبوغرافية للمدينة القديمة.



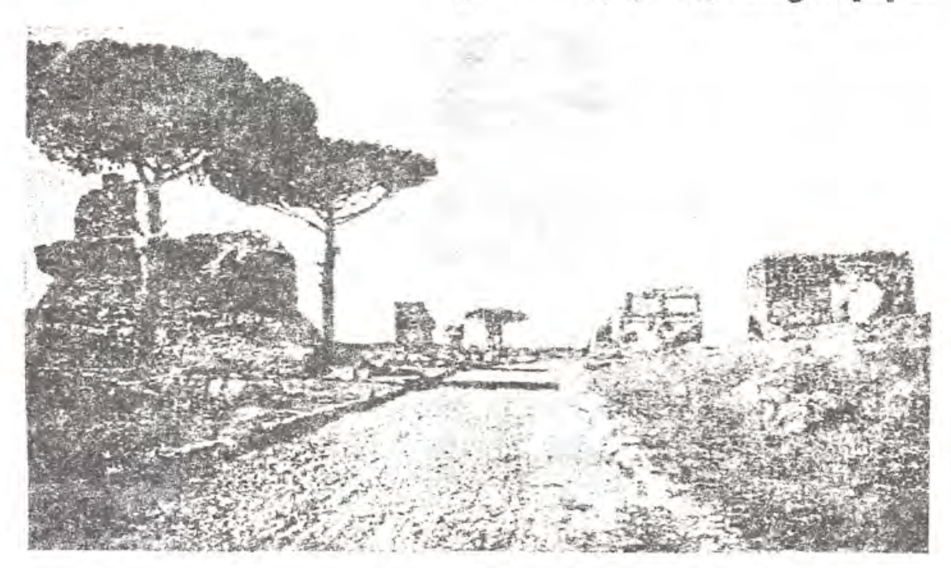
شكل (٨٧) قبر كايتشليا ميتيللا

تصوير سيمان، لايبزيج

وبفضل تجولات بوچيو في خلال روما[١] تتم دراسة البقايا والآثار ذاتها لأول مرة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بدراسة قدماء المؤلفين والنقوش- حيث بحث عن الأخيرة (أعني النقوش) بين المزروعات والنباتات التي كانت مطمورة تحتها[٧]- وهنا يقيد خيال الكاتب تقييداً قاسياً، كما أن ذكريات روما المسيحية كانت تستبعد بحرص شديد. والشيء الوحيد الذي نأسف له هو أن عمل بوچيو لم يكن أوفى اكتمالاً ولا محلًّى بالرسوم التخطيطية، وذلك بأن ما ترك في زمانه فاق في عدده ما عثر عليه رافاييل بعد ذلك بثمانين عاماً. فإن شاهد قبر كايتشليا ميتيللا **Cæcilia Metalla** والأعمدة القائمة أمام أحد المعابد على منحدر الكابيتول رآها كاملة محفوظة، ثم عاد بعد ذلك فرآها وقد دمرت نصف تدمير، بسبب تلك الصفة التعسة التي للرخام حيث يسهل حرقه إلى جير. كما أن مجمع أعمدة هائل قرب المنيرفا لقى نفس المصير جزءاً بعد جزء. ويخبرنا شاهد عيان في ١٤٤٣ أن صناعة الجير هذه استمرت "وهو عار مخجل، وذلك لأن

المبانى الجديدة شئ يستحق الرثاء، ولأن جمال روما كان فى أطلالها وبقاياها"(٨).
وكان سكان ذلك الزمان، وهم فى أرديتهم وأحذيتهم الريفية، يبدون للغرباء كأنهم قطعان بقر؛ كما أن الماشية فى الواقع كانت ترعى فى المدينة حتى البانكى .The Banchi وكانت الفرص الوحيدة للاجتماعات الاجتماعية هى وقت الصلوات التى تقام بالكنيسة، وهى المناسبة التى كان فى الإمكان إلقاء نظرة على النساء الجميلات.

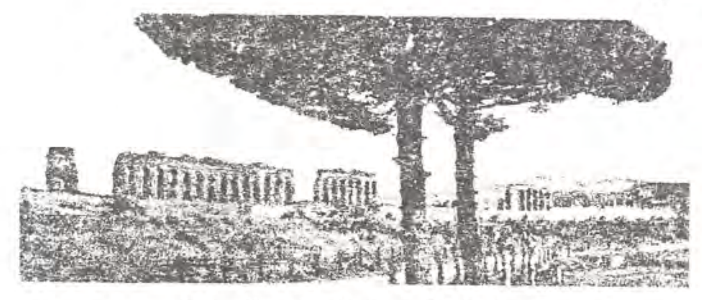
وفى السنوات الأخيرة من عهد يوجينيوس الرابع (Eugenius VI توفى ١٤٤٧) كتب بلوندس Blondus من فورلى كتابه روما المجددة Roma Instaurata، مستخدمًا كلاً من فرونتينوس Frontinus والمكتبة الملكية Libri Regionali، فضلاً عن أناستاسيوس Anastasius كما يبدو. ولم يكن يهدف من وراء كتابه فحسب إلى وصف ما كان قائمًا وموجودًا، بل تجاوز ذلك إلى استرجاع ما أضاعته الأيام. وتمشيًا مع إهداء الكتاب إلى البابا، تراه يعزى نفسه عن الخراب التعس بتفكيره فى بقايا وآثار القديسين التى كانت روما غنية بها أشد الغنى(٩).



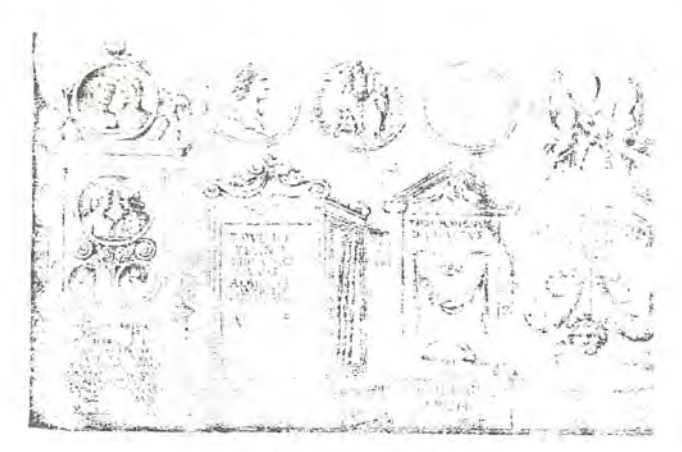
شكل (٨٨) الطريق الأبيانى

وباعتلاء نيقولاس الخامس (١٤٤٧-١٥٥٥) عرش البابوية ظهر ذلك الروح الضخم الجديد الذى تميز به عصر النهضة وتبين أثره على العرش البابوى. وجلب الحب الجديد لزخرفة المدينة وتزيينها معه من ناحية خطرًا جديدًا على الخرائب، كما اجتلب معه من الناحية الأخرى احترامًا لها، بوصف كونها تشكل واحداً من مدعيات روما فى التفرد والامتياز. وغلبت على مشاعر بيوس الثانى الحماسة لكل قديم، فلئن أقل فى الكلام عن آثار روما القديمة[١٠]، فلقد تعمق فى دراسة كل آثار سائر أجزاء إيطاليا الأخرى، وكان أول من عرف ووصف بدقة وصحة الآثار التى كثر عددها فى الأحياء المحيطة بالعاصمة والممتدة أميالاً عديدة[١١]. حقًا إنه، بوصفه قسيسًا وعالمًا بالعلوم الكونية (الكوزموجرافيا)، فإنه يجمع بين الاهتمام بالآثار الكلاسيكية والمسيحية وبعجائب الطبيعة. وإلا فهل كان يسئ إلى نفسه عندما كتب أن نولا Nola كانت تلقى تقديراً وتشريفًا أكبر بذكرى القديس بولينوس S. Paulinus أكثر مما كانت تلقى من استعادة ذكرياتها الكلاسيكية وبالكفاح البطولى لمارشيللوس Marcellus ؟ وليس معنى ذلك والحق يقال ، أن إيمانه بآثار القديسين كان شيئًا مزعومًا؛ ولكن من الواضح أن عقله كان ميالاً أو يكاد إلى اهتمام متفحص باحث فى الطبيعة وكل قديم عهيد، وإلى حماسة للأعمال التذكارية المقامة، وإلى ملاحظة حادة ودقيقة للحياة البشرية. وفى السنوات الأخيرة من حكمه البابوى، وقد تأثر بالنقرس ولكن ظل مع ذلك فى حالة مزاجية مرحة، نراه يُحمل فى محفة فوق التل والوادى إلى توسكولوم Tusculum وألبا Alba وتيبور Tibur وأوستيا Ostia وفاليرياى Falerii وأُكريكولوم Ocriculum، وكل ما شاهده راح يدوّنه. وتعقب خطوط الطرق الرومانية وقناطر السقايات محاولاً أن يثبت ويحدد حدود القبائل القديمة التى سكنت حول المدينة. وبينما هو فى رحلة إلى تيفولى بصحبة فريديريكو العظيم من أوربينو قضيا وقتهما فى سرور وسعادة فى حديث حول النظام العسكرى للقدماء، وبخاصة حديث حرب طروادة. وبلغ به الأمر أنه حتى وهو فى رحلته إلى مؤتمر مانتوا ١٤٥٩ بحث، وإن لم يوفق، عن قصر التيه (اللابيرانت) الخاص بكلوزيوم Clusium الذى أورد بلينى Plini ذكره، كما زار ما يسمى فيللا فرجيل على نهر مينتشيو .Mincio فأما أن مثل هذا البابا يطالب كُتَّاب الاختصار عنده أن يكتبوا

بأسلوب لاتيني كلاسيكي لأمر غير مستبعد بل هو المتوقع. وكان هو الذي عمد أثناء الحرب مع نابولي إلى منح الأمان والعفو لرجال أربينوم Arpinum، بوصفهم مواطنين لشيشرون وماريوس، وكان الكثير منهم يحملون اسميهما. وكان هو وحده دون غيره، بوصفه حاكمًا وراعيا نصيراً، من يستطيع بلوندس أن يهدي إليه كتابه "روما المنتصرة Roma Triumphans"، الذي هو أول محاولة عظيمة لعرض كامل مستوفٍ للعصر الروماني العتيق[١٢].



شكل (٨٩) قناطر السقايات الرومانية



شكل (٩٠) آثار ونقوش عتيقة

من كتاب رسومات جاكوبو بيلليني

باريس، متحف اللوفر

كما أن الحماسة للماضي الكلاسيكي لإيطاليا لم تكن قاصرة أثناء تلك الفترة على العاصمة. فإن بوكاتشيو[١٣] كان سمى من قبل خرائب باياى Baiae المترامية بأنها "الجدران القديمة التي هي مع ذلك جديدة لعين الأرواح العصرية"؛ ومنذ تلك اللحظة أصبحت تعتبر أشد المناظر القريبة من نابولى تشويقًا وإثارة للاهتمام. وفى تلكم الأيام أصبحت مجاميع الآثار العهيدة من جميع الأنواع شائعة[١٤]. وقد قام تشيرياكو Ciriaco من أنكونا (توفى ١٤٥٧)، الذى شرح (١٤٣٣) للإمبراطور سيجسموند الآثار الرومانية، برحلاته ليس فقط فى طول إيطاليا وعرضها، بل وفى أرجاء أقطار أخرى من العالم القديم، أمثال هيلاس (بلاد اليونان) وجزائر الأرخبيل، بل حتى أجزاء من آسيا وأفريقيا، وأحضر معه عند عودته ما لا يحصى من النقوش والرسوم التخطيطية. وعندما سئل لماذا حمّل نفسه كل هذه المشقة أجاب "لكى أوقظ الموتى"[١٥]. وكانت كتب تاريخ مختلف المدن الإيطالية منذ أقدم العصور تدّعى وجود علاقات حقيقية أو متخيلة مع روما، كما تزعم قيام بعض المستوطنات أو المستعمرات التى بدأت من العاصمة[١٦]؛ كما أنه يبدو أن المشتغلين بصنع الأنساب الزائفة كانوا يشتقون على الدوام أنسابًا نبيلة لعائلات مختلفة يرجعونها إلى أقدم دماء روما وأذيعها شهرة. ويبلغ من شدة علو التقدير للامتياز والتفرد أن تعلق الناس به حتى فى ضوء النقد الذى أخذ فجره يبزغ فى القرن الخامس عشر. وعندما كان بيوس الثانى بمدينة فيتربو[١٧] قال بصراحة للمندوبين الرومان الذين رجوه أن يعود: "إن روما هى موطنى بقدر سيينا، وذلك أن أسرتي وبيتى وهم آل بيكّولومينى Piccolomini وفدوا فى قديم الزمان من روما إلى سيينا، كما يثبت ذلك الاستخدام الدائم باسم إينياس وسيلفيوس بين أفراد عائلتى". وربما لم يكن لديه أى اعتراض على أن يعتبر سليلاً لأسرة يوليوس. وكان بول الثانى، وهو من أسرة باربو فى البندقية، يحس فخاراً بإرجاع أرومة أسرته، رغم وجود سلسلة نسب معاكسة يتبين حسبما ورد فيها أنها أسرة وفدت من ألمانيا، إلى أهينوباربوس Ahenobarbus الرومانى الذى قاد جماعة من المهاجرين إلى بارما، والذى اضطر خلفاؤه بسبب الصراعات الحزبية إلى الهجرة إلى البندقية[١٨]. فأما أن أسرة ماسّيمى Massimi كانت تدعى الانتساب إلى ك. فابيوس ماكسيموس Q. Fabius

Maximus، وأسرة كورنارو **Cornaro** إلى آل كورنيلليى **Cornellii**، فأمر لا يدهشنا. ومن الناحية الأخرى، فإن هناك حقيقة استثنائية بصورة مسترعية للأنظار بصدد القرن السادس عشر هى أن الروائى بانديللو حاول ربط دمه وأرومته إلى أسرة نبيلة من القوط الشرقيين **(i, Nov. 23)** .



شكل (٩١) أبوللو بيلفديرى

الفاتيكان روما

ولنعد الآن إلى روما. فإن السكان "الذين كانوا عند ذاك يسمون أنفسهم روماناً"، تقبلوا بنهم شديد ذلك التكريم الذى كان يقدم إليهم من سائر أرجاء إيطاليا. وفى عهد بول الثانى وسيكستوس الرابع واسكندر السادس كانت المواكب الفاخرة تؤلف جزءاً

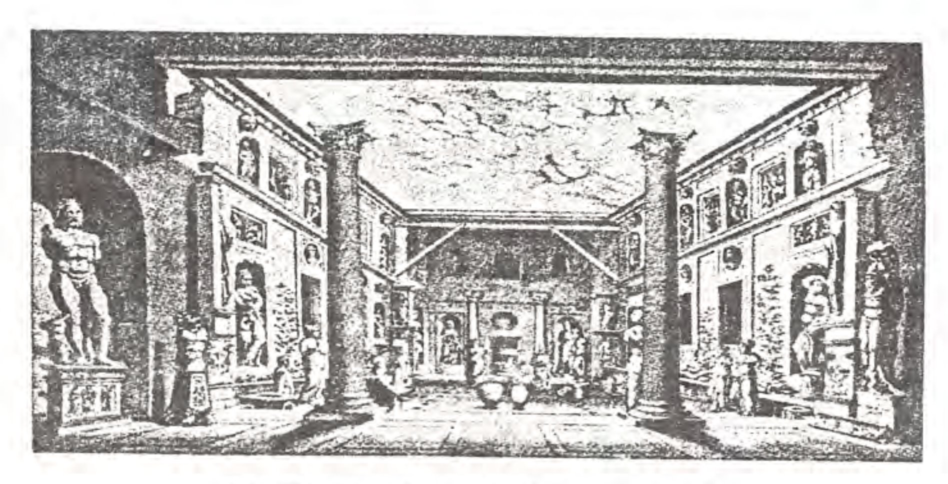
من الكرنفالات، التى تمثل أشد المشاهد جاذبية لخيال ذلك الزمان- وهو مشهد نصر الإمبراطور الروماني. لقد كانت عاطفة الشعب تعبر عن نفسها بصورة طبيعية على هذا الشكل وأشكال أخرى مماثلة. وفي هذه الحالة المزاجية للشعور العام تناقل الناس أنه فى الخامس عشر من أبريل ١٤٨٥، اكتشفت جثة شابة نبيلة من بنات الفترة الكلاسيكية- مدهشة الجمال ومحفوظة تمام الحفظ من كل بلى(١٩). وقيل أن بعض البنائين اللومبارد الذين كانوا يحفرون قبرًا قديمًا فى مزرعة تابعة لدير القديسة ماريا نوفيلا، في الطريق الأبياني، خارج الكايتشيليا ميتيللا، وجدوا ناووسًا رخاميًا نقشت عليه العبارة التالية: "جوليا، ابنة كلوديوس". وعلى هذا الأساس قامت الحكاية التالية. وهي أن اللومبارد اختفوا مع الجواهر والكنوز التى وجدت مع الجثة فى الناووس. وكان الجسد مطليًا بعطر معقم، وكان غضًا مرنًا لينًا كجسد بنت فى الخامسة عشرة لحظة وفاتها. وقيل أنها كانت لا تبرح تحتفظ بنضرة ألوان الحياة، وعيناها وفمها نصف مفتوحة. فحملت إلى سراى "الكونسرڤاتورى "Conservatore فى الكابيتول؛ وعندئذ بدأت أفواج الحجيج تفد عليها. وكان بين الجماهير أناس كثيرون جاءوا لتصويرها بالألوان، "وذلك لأنها كانت أجمل من أى قول أو كتابة، ولو قيل القول أو سطرت الكتابة، ما صدقها من لم يشاهدوها". ثم أمر بها إنوسنت الثامن فدفنت سرًا ذات ليلة خارج البوابة البنتشيانية Pincian؛ فأما الناووس الخالى فظل قائمًا فى فناء "الكونسرڤاتورى". ومن المحتمل أن قناعًا ملونًا من الشمع أو أية مادة أخرى قد شكل على الأسلوب الكلاسيكي على وجه ذلك الجثمان، بصورة تولد التناغم البديع مع ذلك الشعر المذهب الذى قرأنا عنه. والنقطة المؤثرة فى هذه الحكاية لا تكمن فى الواقعة نفسها، بل فى الاعتقاد الراسخ بأن جسمًا من العهد القديم، ظن الناس آنئذ أنه وقع فى نهاية المطاف تحت أبصارهم، لا بد أن يكون بالضرورة أشد جمالاً من أى شئ موجود فى زمانهم الحديث.



شكل (٩٢) أريادنى
المعروفة سابقًا باسم كليوباترا
الفاتيكان، روما

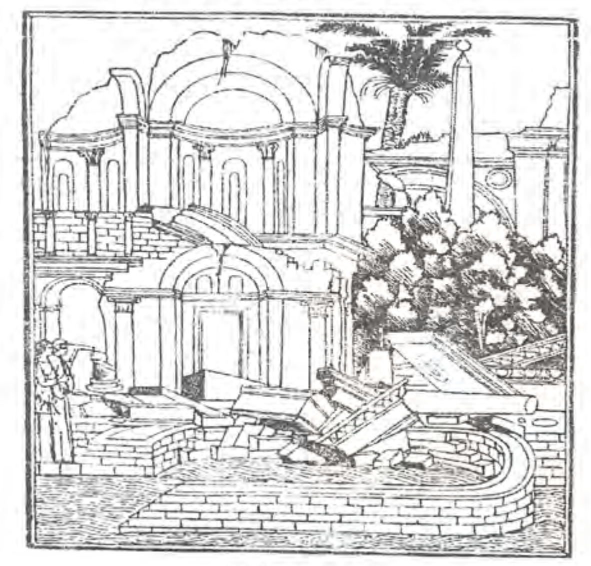
وفى نفس الحين تزايدت المعرفة الجوهرية بروما القديمة زيادة كبيرة بفضل الحفائر. وفى عهد إسكندر السادس اكتشف ما يسمى "بالجروتسكات" Grotesques، (أى الأشكال الغريبة البشعة)، - أعنى الزخارف الجدارية للقدماء- كما أن تمثال أبوللو البيلفديرى اُكتشف قرب بورتو دانزو. ثم جاءت بعد ذلك فى عهد يوليوس الثانى تلكم الاكتشافات العجيبة، اكتشافات لاوكون Laocoon وڤينوس الفاتيكان، والتمثال النصفى torso لكليوباترا[٢٠]. وشرعت قصور النبلاء والكرادلة تكتظ بقديم التماثيل والبقايا المكسرة. وتولى رافاييل لليو العاشر عملية استعادة جلال المدينة القديمة بأكملها، الأمر الذى تتحدث عنه رسالته الشهيرة لعام (١٥١٨) و (١٥١٩) [٢١]. وبعد شكوى مريرة مما يحدث من تدميرات، لم تتوقف حتى تلك الآونة، كما أنها كثرت بوجه خاص فى عهد البابا يوليوس الثانى، توسل إلى البابا أن يحمى بقايا الآثار القليلة التى تركت

لتشهد بالقوة والعظمة لتلك روح العهد القديم المقدسة، التي كانت ذكراها إلهامًا لكل من أوتي القدرة من الناس على إتيان عظائم الأشياء. وإذا هو يستمر بعد ذلك في نفاذ بصيرة في وضع أسس تاريخ مقارن للفن، وخلص من ذلك إلى وضع تعريف لمسح معماري تقبله الناس منذ زمانه؛ وهو يتطلب كلاً من التخطيط الأساسي والقطاع والارتفاع منفردة لكل بناء ظل موجوداً حتى عهده. فأما كيف توفر علم الأركيولوچيا أي علم الآثار القديمة بعد زمانه على دراسة المدينة الجليلة الموقرة حتى تطور فأصبح علمًا خاصًا، وكيف أخذت الأكاديمية الڤيتروڤيانية Vitruvian Academy على كل الأحوال على عاتقها بلوغ أهداف عظيمة[٢٢]، فأمر لا يمكن التحدث عنه هنا. ولعل الأحرى بنا التوقف عند أيام ليو العاشر، الذي تمكن في عهده الاستمتاع بالعهد العتيق مجتمعًا إلى كافة أنواع المسرات الأخرى أن يعطي الحياة الروحانية طابعًا وتكرسًا متفرداً فذًا[٢٣]. فأخذ الفاتيكان تدوي جنباته بالموسيقى والأناشيد، وأخذت أصداؤها تدوي في أرجاء المدينة بوصفها دعوة للفرح والحبور، وإن لم ينجح ليو بواسطتها في طرد الهموم والألم من حياته الخاصة، كما أن تدبيراته المتعمدة لإطالة عمره عن طريق المرح أحبطها وفاته المبكرة[٢٤]. وتؤلف روما ليو، كما وصفها باولو چيوڤيو، صورة فاخرة لا يستطيع البصر الانصراف عنها مثلما لا يخطئ النواحي الأقتم- وهي عبودية أولئك الذين كانوا يكافحون التماسًا للنهوض والارتفاع؛ والبؤس الخفي الذي كان يعيش فيه الكرادلة، الذين كانوا فوق ما يبهظ كاهلهم من ديون مجبرين على العيش عند أسلوب ومستوى يتناسب ومنزلتهم؛ ونظام الرعاية أو المناصرة الأدبية الذي كان يحول الرجال إلى كائنات طفيلية أو مغامرين؛ وأخيراً، سوء الإدارة الفاضح للشئون المالية للدولة[٢٥]. ومع هذا فإن أريوستو نفسه، الذي عرف هذا كله على أحسن زجه وسخر منه، قدم إلينا في الهجائية (الساتيرة) الساخرة السادسة صورة ملؤها الشوق إلى الاختلاط المنتظر بالشعراء المصقولين الذين سوف يقتادونه في أرجاء مدينة الخرائب، والمشورة المتبحرة في العلم التي سوف تجدها عندئذ جهوده هو الأدبية، ولكنوز مكتبة الفاتيكان. وعلى حد قوله فهذه وحدها، وليس الرجاء الذي طال فقده لرعاية أسرة ميديتشي وحمايتها، كانت هي صنوف الطُعْم الحقيقي الذي اجتذبه للذهاب ليكون سفيراً لفيرارا لدى روما عندما طلب منه ذلك.



شكل (٩٣) فناء به تماثيل عتيقة فى قصر فاللى-كابرانيكا

حفر حسب رسم لمارتن فان هيمسكيرك



شكل (٩٤)، أطلال

حفر على الخشب من بوليفيلى هيبنروتوماكيا (ألدوس مانيوتيوس، البندقية، ١٤٩٩)

بيد أن الخرائب المتناثرة داخل روما وخارجها لم توقظ فحسب الحمية الأركيولوچية من سباتها ولا الحماسة الوطنية القومية، بل هيجت شجناً ثانياً. فإننا نجد عند بترارك وبوكاتشيو لمسات من ذلك الإحساس (انظر أول هذا الفصل). فأما بوجيو (انظر أول هذا الفصل) فكثيراً ما زار معبد ڤينوس وروما، معتقداً أنه معبد كاستور Castor وبوللوكس Pollux حيث اعتاد مجلس الشيوخ فى كثير من الحالات أن يعقد جلساته، وإذا هو ينسى بل يفقد نفسه فى أرتال ذكريات كراسوس Crassus وهورتنسيوس Hortensius وشيشرون. هذا وإن فى لغة بيوس الثانى، وبخاصة فى وصفه تيفولى، لرنيناً عاطفياً مطلق العنان(٢٦)، وسرعان بعد ذلك ما ظهرت (١٤٦٧) أول صور للخرائب، مشفوعة بتعليق كتبه بوليفيلو(٢٧). وإن هناك لخرائب لعقود (بواكى) جبارة، ومجاميع عمدان ضخمة، توارت نصف توار فى أشجار الدلب، ونبات الغار، وأشجار السرو، والآجام- تتجلى كلها على صفحاته. وأصبح من المألوف فى الأساطير المقدسة، وما ندرى كيف حدث هذا، أن يجعل ميلاد المسيح بين أطلال قصر فاخر(٢٨). فأما أن الخرائب المصطنعة أصبحت فيما بعد ذلك ضرورية فى عملية إنشاء الحدائق ذات المناظر البرية، فما ذلك إلا نتيجة عملية لهذا الشعور.



شكل ٩٥ عبادة الرعاة

لجيرلاندايو

الأكاديمية، فلورنسا

هوامش الفصل الثاني - القسم الثالث

(١) ونلتقي في كتاب وليام من ماليسبوري .,William of Malmesbury, Gesta Regum Anglor بأحلام .lib. ii, 169, 170, 205, 206, (Ed. London, 1840), vol i, pp. 277 sqq. and pp. 354 sqq.) صائدي الكنوز، ڤينوس كحب شبحي، واكتشاف الجسد العملاق لبالاس Pallas، ابن إڤاندير Evander، حوالي منتصف القرن الحادي عشر. انظر أيضًا جاك. أب أكويس Cf. Jac. Ab Aquis, Imago Mundi (Hist. Patr. Monum. Script., t. iii, col. 1603)، عن منشأ بيت كولونا، مع الإشارة إلى اكتشاف كنز دفين. وبجانب الحكايات عن الباحثين عن الكنوز، فإن وليام من ماليسبوري يذكر مرثاة هيلدبيرت من مانز Hildebert of Mans، أسقف تور، وهو من الأمثلة الفريدة على الحمية الإنسانية في النصف الأول من القرن الثاني عشر.

(٢) انظر دانتي .Dante, Convivio, tratt. iv, cap. v

(٣) انظر Epist. Fam., vi, 2, ed. Fracassetti, vol. i, p. 125؛ إشارات إلى روما قبل أن يراها، وتعبيرات عن تشوقه للمدينة، ..انظر أيضًا Epist. Fam., vol. i, p. 213; vol. ii, pp. 336 sqq الإشارات المجموعة في ل. جايجر .L. Geiger, Petrarca, p. 272, note 3 وفي بترارك نجد فعلاً شكاوى من المباني الكثيرة المهدمة والمهملة، التي يعددها واحدة بعد واحدة ,.De Rem. Utriusque Fort) (118 ,... .lib. i، مضيفًا الملحوظة أن كثيرًا من التماثيل كانت من العصور العهيدة، ولكن لم يذكر أية رسومات (loc. cit., 41) .

(٤) انظر .Dittamondo, ii, cap. 3 والموكب يذكرنا أحيانًا بالملوك الثلاثة وتابعهم في الصور القديمة. ووصف المدينة (ii, cap. 31) ليس بدون قيمة أركيولوچية.(Gregorovius, vi, 697, note 1) وطبقًا=لبوليستورو (Polistoro (in Murat., xxiv, col. 845، فإن نيكولو Niccolò وأوجو بيستي Ugo d'Este رحلا في ١٣٦٦ إلى روما، "per vedere quelle magnificenze antiche, che al presente si possono vedere in Roma .

(٥) انظر جريجوروڤيوس ..Grgorovius, v, 316 sqq وقد يمكننا أن نقتبس دليلاً أجنبيًا أن روما في القرون الوسطى كان يُنظر إليها على أنها محجر. والقسيس الشهير سوجيريوس Sugerius، الذي كان في حوالي ١١٤٠ يبحث عن الأعمدة الضخمة لإعادة بناء سانت دينيس، فكر أولاً في شئ ليس أقل قليلاً من الحصول على الأحجار الجرانيتية من حمامات دقليديانوس Diocletian، ولكنه غير رأيه بعد ذلك. انظر Sugerii Libellus Alter, in Duchesne, Hist. Franc. Scriptores, iv, p.352 .

(٦) انظر ..Poggii Opera, fol. 50 sqq وانظر Ruinarum Urbis Rom Descruptio، المكتوب حوالى ١٤٣٠ . وكانت لحمامات كاراكالا ودقليديانوس عواميدها وكسوتها الرخامية. انظر جريجوروڤيوس Gregorovius, vi, 700-705 .

(٧) ويظهر بوجيو كواحد من أوائل جامعي النقوش في رسالته في Vita Poggii, in Murat., xx, col. 177، وكجامع للتماثيل النصفية (col. 183, and letter in Shepherd-Tonelli, i, 258). انظر أيضًا Ambros. Traversarii Epistol , xxv, 42.ويبدو أن كتابًا صغيرًا كتبه بوجيو عن النقوش قد فُقد. انظر شبرد Shepherd, Life of Piggio, trad. Tonelli, i, 154 sqq ..

(٨) انظرفابروني Fabroni, Cosmus, Adnot. 86. من خطاب من ألبرتو ديجلي ألبرتي Alberto degli Alberti إلى جيوفاني دي مديتشي. أنظر أيضًا جريجوروفيوس Gregorovius, vii, 557. وعن حالة روما تحت مارتين الخامس انظر بلاتينا صفحة ٢٢٧؛ وخلال غياب يوجينيوس الرابع Euginius IV انظر فيسبازيانو فيورينت. Vespas. Fiorent.,i, p. 23 .

(٩) Roma Instaurata .9 المكتوب في ١٤٤٧، والمهدى إلى البابا؛ طبع أول مرة في روما في ١٤٧٤

(١٠) انظر، مع ذلك، دوبيتاته في ڤويجت Voigt, Wiederbelebung des Altertums, p.275, note 2. وقد كان أول بابا نشر قرارًا لحماية الآثار القديمة (4Kal. Maj., 1462)، مع عقوبات في حالة عدم الطاعة. ولكن هذه الإجراءات كانت غير ذات فعالية. انظر أيضًا جريجوروڤيوس Cf. Gregorovius, vii, pp. 558 sqq ..

(١١) وما يعقب ذلك هو من عمل جو. أنت. كامبانوس Jo. Ant.Campanus, Vita Pii II, in Murat., iii,ii, col. 980 sqq.، وانظر Pii II Comment., pp. 48, 72 sqq., 206, 248 sqq., 501، وفي أماكن أخرى.

(١٢) أول إصدارة مؤرخة بريكسن Brixen، ١٤٨٢

(١٣) انظر بوكاتشيو Boccaccio, Fiammetta, cap. 5, Opere, ed. Moutier, vi, 91 .

(١٤) (بين جايجر أنه حوالى عام ١٣٣٥ ذهب مواطن من تريڤيزو Treviso إلى البندقية لينشئ مجموعة لنفسه، وكتالوج هذه المجموعة ظل باقيًا. انظر مونتز Müntz, Les Arts à la Cour des Papes, ii, p. 164, note, pp. 163-180، عن المعلومات حول المجموعات الإيطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر– و. ج. W. G) .

(١٥) عمله. Cyriaci Anconitani Itinerarium, ed. Mehus (Florence, 1742). انظر أيضًا Cf. Leandro Alberti, Descriz. Di Tutto l'Italia, fol. 285 .

(١٦) وهناك حادثتان من بين حوادث كثيرة: المنشأ الرائع لميلانو في مانيبولوس Manipulus (in Murat., xi, col. 552)، ومنشأ فلورنسا في جيوڤاني ڤيلاني (الذي هو هنا، كما في أي مكان آخر، يوسع في دورية ريكاردو ماليسبيني Ricardo Malespini المزورة)، والتي طبقاً لها فإن فلورنسا، لأنها كانت موالية لروما في عواطفها، دائماً على حق ضد فييسبولي Fiesiole المتمردة المعارضة لروما.(i, 9, 38, 41; ii, 2 انظر الجحيم لدانتي Inferno, xv, 76 .

(١٧) انظر Commentarii, p. 206, in the fourth book .

(١٨) انظر ميشيل كانيسيوس .Mich. Cannesius, Vita Pauli II, in Murat., iii, ii, col. 993 والمؤلف لن يكون غير مؤدب، حتى ضد نيرون Nero، ابن دوميتيوس أهينوباربوس Domitius Ahenobar- bus، بسبب صلته بالبابا. وهو يقول عنه فقط: "De quo verum Scriptores multa ac diversa com- memorant". وأسرة أفلاطون Plato في ميلانو ذهبت إلى مدى أكبر، ومدحت نفسها على انتسابها إلى المفكر الأثيني الكبير. وقد تجرأ فيليلفو Filelfo في خطبة ألقاها في زواج، وفي مديح عن المشرع تيودورو أفلاطون Teodoro Plato، أن يذكر هذا التأكيد؛ ووضع شخص اسمه چيوڤان أنتونيو أفلاطون Giova- nantonio Plato النقش التالي على صورة نحت بارز نحته بنفسه في ١٤٧٨ (فيبلاط بال. ماجنتا Pal. Magenta في ميلانو): "Platonem suum, a quo originem et ingenium refert" .

(١٩) انظر عن هذه النقطة نانتيبورتو Nantiporto, in Murat., iii, ii, col. 1094؛ وإنفيسّورا In- fessura, in Eccard, Scriptores, ii, col. 1951؛ وماتارازو Matarazzo, in the Archiv. Stor., xvi, ii, p. 180. ويقر نانتيبورتو، مع ذلك، أنه لم يعد ممكنًا معرفة ما إذا كانت الجثة لذكر أم أنثى. انظر أيضًا باستور Cf. Pasror, P?pste, iii, pp. 253 sqq..

(٢٠) ومنذ زمن مبكر، في عهد يوليوس الثاني، تم إجراء حفريات بأمل العثور على تماثيل. انظر فاساري Vasari, xi, p. 302, V. di Gio. da Udine. انظر أيضًا جريجوروڤيوس Cf. Gregorovius, viii, 186 .

(٢١) كان الخطاب معزوًا أولاً إلى كاستيليوني Castiglione, Lettere di Negozi del Conte Bald. Castiglione (Padua, 1736 and 1769)، ولكن تم إثبات أنه بيد رافاييل Raphael على يد دانيلي فرانشيسكوني Daniele Francesconi في ١٧٩٩، وهو مطبوع من مخطوط من ميونيخ في عمل باساڤانت Passavant, Leben Raphael's, iii, p. 44. انظر أيضًا جرويير Cf. Gruyer, Raphael et l'Antiquité, i, 435-457 (1864). انظر Quatremère, Stor. d. Vita Ecc. Di Rafaello, ed. Longhena, p. 531. انظر أيضًا Cf. Pastor, iv, i, pp. 466 sqq..

(٢٢) انظر Lettere Pittorche, ii, 1, Tolomei to Landi, November 14, 1542 .

(٢٣) وقد حاول "curis animique doloribus quacunque ratione aditum intercludere"؛ وكانت الموسيقى والمحادثات الحية تسحره، وكان يأمل عن طريقها أن يعيش أطول. انظر Leonis X Vita Anonyma, in Roscoe, ed. Bossi, xii, p. 169 .

(٢٤) وهذه النقطة يشار إليها في Satires لأريوستو. انظر الأول (Perc' ho molto," etc.) والرابع (Poiche, Annibale) .

(٢٥) انظر رانكه Ranke, P?pste, i, 408 sqq.؛ أو الأفضل، باستور Pastor, iv, i, pp. 363 sqq.. انظر Lettere dei Principi, p. 107. وانظر خطاب نيجري Negri، في ١ سبتمبر ١٥٢٢: "... tutti questi cortigiani esausti da Papa Leone e falliti". وقد انتقموا لأنفسهم بعد موت ليو عن طريق القصائد والنقوش الساتيرية.

(٢٦) انظر Pii II Comment., p. 251 in the fifth book. وانظر أيضًـا Cf. Sannazaro's elegy, In Ruinas Cumarum Urbis Vetustissim? (Opera, fol. 236 sqq., in Bk. II) .

(٢٧) انظر Polifilo (that is, Franciscus Columna), Hypnerotomachia, ubi humana omnia non nisi somnum esse docet atque obiter plurima scita sane quam digna commemorat (Venice, Aldus Manutius, 1499). انظر أيضًا عن هذا الكتاب الرائع وغيره أ. ديدوه Cf. A.. Didot, Alde Manuce, pp. 132-142 (Paris, 1875)، وجرويير Gruyer, Raphael et l'Antiquité, i, pp. 191 sqq. وى. بوركهارت J. Burckhardt, Geschichte der Renaissance in Italien, pp. 43 sqq.، وعمل أ. إيلج A. Ilg (Vienna, 1872) .

(٢٨) بينما كان كل آباء الكنيسة وكل الحجاج يتكلمون فقط عن كهف، والشعراء أيضًا لم يحتاجوا إلى القصر. انظر Cf. Sannazaro, De Partu Virginis, lib. ii, 284 sqq..

الفصل الثالث

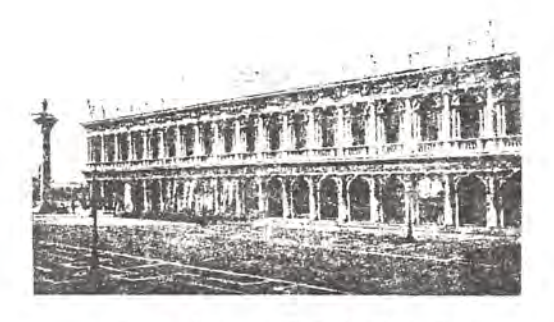
المؤلفون القدماء

على أن التراث الأدبي الذي خلفته العصور العهيدة Antiquity، سواء منها الإغريقية أم اللاتينية، كان أعظم أهمية بكثير من البقايا المعمارية، بل والحق يقال أعظم من جميع التراث الفني الذي خلفته تلك العصور. لقد اعتبره القوم إلى أقصى درجة مطلقة ينابيع المعرفة كلها جميعًا. ولا شك أن الأحوال الأدبية لذلك العصر، عصر الاستكشافات العظيمة، تنوولت بالبحث كثيراً؛ ولذا فلن نتجاوز هنا مجرد محاولة توضيح بضعة ملامح لا يعلمها الناس إلا قليلاً عن تلك الصورة[١] .

ومهما يبلغ من عظمة سلطان الكُتّاب الأول في العقل الإيطالي أثناء القرن الرابع عشر وقبله، فإن ذلك السلطان كان راجعًا فيما يرجع إلى رحابة انتشار ما ظل معروفًا أمداً طويلة أكثر من رجوعه إلى استكشاف الكثير مما كان جديداً. ويؤلف أشد الشعراء اللاتينيين شعبية، فضلاً عن المؤرخين والخطباء وكُتّاب الرسائل المحببين إلى قلوب الناس وعدد لا بأس به من الترجمات اللاتينية لأعمال مفردة لأرسطوطاليس وبلوتارك وقلة أخرى من مؤلفي الإغريق، المنهل العذب والكنز النفيس الذي انتهلت منه جماعة قليلة محظوظة في عهد بترارك وبوكاتشيو وحيها وإلهامها. فأما الأول منهما فكان، كما هو معروف لنا جميعًا، يمتلك ويحتفظ بعناية المتدين التقي نسخة إغريقية من إلياذة هوميروس لم يكن يستطيع قراءتها. على أن ترجمة لاتينية كاملة للإلياذة والأوديسا، وإن كانت ترجمة رديئة جداً، تمت باقتراح من بترارك وبمساعدة بوكاتشيو على يد إغريقي من كالابريا اسمه ليونزيو بيلاتو[٢] Leonzio Pilato . غير أنه مع بداية

القرن الخامس عشر بدأت القائمة الطويلة للمكتشفات الجديدة، في صورة الإنشاء المنتظم للمكتبات بواسطة استنساخ النسخ والتكاثر السريع للترجمات من الإغريقية[٣] .

ولولا حماسة قلة من جامعي الكتب في ذلك العصر، الذين لم يكونوا يدخرون وسعًا ولا مالاً مهما ضاقت ذات يدهم في بُحَاثهم، لما أمكننا أن نملك اليوم إلا جزءًا صغيرًا من الأدب، وبخاصة أدب الإغريق، الذي نملكه الآن بين يدينا. من ذلك أن البابا نيقولاس الخامس وقع، وهو بعد راهب بسيط، في ربقة دين باهظ بسبب شرائه المخطوطات أو تكليفه من يلزم باستنساخها، إذ أنه، حتى في ذلك الحين، لم يكتم عن الناس حبه الشديد للاهتمامين العظيمين في عصر النهضة: وهما الكتب والمباني[٤] . فلما تولى منصب البابوية احتفظ بكلمته ووفى بوعده. فظل النساخ يكتبون له والعيون (الجواسيس) يبحثون له منتشرين في نصف العالم. فحصل بيروتّو Perotto منه على خمسمئة فلورين ذهبي على الترجمة اللاتينية لبوليبيوس Polybius وحصل جوارينو Guarino على ألف فلورين ذهبي على ترجمته لاسترابون Strabo، كما أنه كان على أن يُنقد خمسمئة أخرى لولا وفاة البابا. وكان مفروضًا أن يتناول فيليلفو عشرة آلاف فلورين ذهبي مقابل قيامه بترجمة منظومة لهومبروس، ولم يحل دون حضوره من ميلانو إلى روما إلا وفاة البابا. وخلف نيقولاس من بعده مجموعة عدتها خمسة آلاف، أو حسب طريقة أخرى للعد، تسعة آلاف مجلد[٥] يستخدمها وينتفع بها أعضاء المجلس البابوي (Curia)، وهي ثروة طائلة أصبحت الركيزة التي قامت عليها مكتبة الفاتيكان. وكان من الضروري الاحتفاظ بها في القصر نفسه، بوصفها أروع وأنبل حليه، شأنها شأن مكتبة بطلميوس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphius بالإسكندرية. وعندما اقتضى الطاعون الذي تفشى في ١٤٥٠ فراره هو وحاشيته إلى فابريانو، التي منها كان يؤخذ احسن أنواع الورق، أخذ معه مترجميه وجامعيه ومصنفيه، حتى لا يتعرض لخطر ضياعهم من يديه.



شكل (٩٦) مكتبة القديس مارك، البندقية

بناها چاكوبو بانشوڤينو

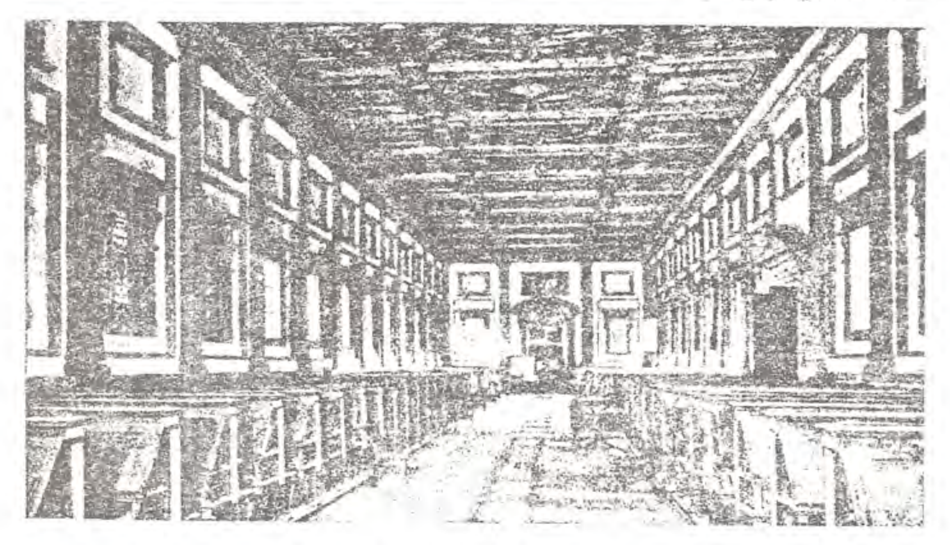
ومن الجدير بالذكر أن الفلورنسي نيقولو نيقولي[٦] Niccolo Niccoli، وهو عضو في تلك الدائرة المثقفة الزاهرة التي أحاطت بكوسيمو دي ميديتشي الأكبر، أنفق ثروته كلها في شراء الكتب. وأخيراً، وعندما نفدت نقوده، وضع آل ميديتشي كل كيس نقودهم تحت أمره ليأخذ منه أي مبلغ قد يحتاج إليه مأربه في هذا الشأن. ونحن مدينون له باستكمال أميانوس مرشيلينوس Ammianus Marcellinus لكتاب "عن الخطابة" De Oratore لشيشيرون ونصوص لوكريتيوس Lucretius التي لا تزال معتمدة تماماً، إلى غير ذلك من الأعمال؛ ثم إنه أقنع كوسيمو أن يبتاع أجود مخطوطات بليني من أحد الأديرة في ليوبيك Lübeck . وكم أبدى من الثقة النبيلة حين كان يعير كتبه لكل من سأله إياها، وسمح لكل الوافدين بالاطلاع عليها بمنزله هو، وكان على استعداد تام للتحدث إلى الدارسين فيما قرأوا. وبعد وفاته انتقلت مجموعته، التي قدر عددها بثمانمائة مجلد، وقدرت قيمتها بستة آلاف فلورين ذهبي، بفضل تدخل كوسيمو إلى دير القديس ماركو، شريطة أن يسمح للجمهور بالاطلاع عليها، وهي الآن من أنفس الجواهر في المكتبة اللورينتيانية.



شكل (٩٧) مكتبة القديس مارك، البندقية
بناها ميشيللوتزى
تصوير آليناري

ومن الباحثين العظيمين عن الكتب وهما جوارينو وبوجيو، عكف الثاني[٧] منهما، منتهزًا مناسبة مجلس كونستانس، وهو يعمل جزئياً وكيلاً وعميلاً لنيقولي، عكف بجد شديد على البحث في أديرة جنوب ألمانيا. وهناك اكتشف ست خطب لشيشرون، كما عثر على أول نسخة كاملة من كوينتليان Quintilian ومن نسخة القديس جال، وهي الآن بمدينة زيوريخ؛ ويقال عنه إنه استطاع نسخها في اثنين وثلاثين يوماً بخط جميل. وتمكن أن يضيف إضافات هامة إلى سيليوس إيتاليكوس Silius italicus، وإلى مانيليوس Manilius ولوكريتيوس وفاليريوس Valerius وفلاكوس Flaccus وأسكونيوس بيديانوس Asconius Pedianus وكولوميللا Columella وسيلسوس Celsus وأولوس جيليوس Aulus Gellius وستاتيوس Statius، وغيرهم، وتمكن بمساعدة ليوناردو أريتينو من كشف اللثام عن الكوميديات الإثنتي عشرة الأخيرة لبلوتوس Plautus،

بالإضافة إلى خطب فيرّيني Verrine عن "بروتوس" "Brutus" و"عن الخطابة" "De Oratore" لشيشرون[٨].



شكل (٩٨) مكتبة ميديتشي – لورينتسيانا

رسم تخطيطي لمشيل أنجلو

فلورنسا

تصوير البنّاري

وتهيأ للكاردينال اليوناني الذائع الصيت بيسّاريون[٩]، الذي اختلطت فيه الوطنية بحماسة قوية للأدب، أن يجمع مضحياً التضحيات الضخمة ٣٠،٠٠٠ فلورين ذهبي خمسمئة مخطوط لمؤلفين وثنيين ومسيحيين. ثم شرع بعد ذلك يتلفت حوله بحثاً عن مستودع يستطيع أن يأمنه عليها حتى يتهيأ لوطنه التعس (أعني اليونان)، لو حدث يوماً أن استرد حريته، أن يستعيد أدبه المفقود. وأعلنت حكومة البندقية عن استعدادها لبناء مبنى مناسب، وحتى يومنا هذا لا تزال مكتبة القديس مارك تحتفظ بجزء من تلك الكنوز[١٠].

فأما تأسيس المكتبة الميديتشية ذائعة الصيت فأمر له تاريخه الخاص الذي لا نستطيع خوضه في هذا المقام. وكان أهم جامع كتب لدى لورنزو الفاخر هو يوهانس

لاسكاريس Johannes Lascaris . ومن المعلوم أن المجموعة، بعد ما حدث من النهب في ١٤٩٤، قد توجب استعادتها جزءًا فجزء على يد الكاردينال چيوڤاني دي ميديتشي الذي أصبح فيما بعد البابا ليو العاشر(١١).

فأما مكتبة أوربينو(١٢)، التي يضمها الفاتيكان الآن، فكانت بأسرها ورمتها من عمل فيديريجو العظيم من مونتيفيلترو (انظر القسم الأول، الفصل الخامس). وقد بدأ هواية جمع الكتب وهو بعد غلام؛ وفيما أعقب ذلك من السنوات ظل يحتفظ بثلاثين أو أربعين نساخًا (Scrittori) يعملون في خدمته بأماكن متفرقة، كما أنفق بمضي الزمان ما لا يقل عن ٣٠,٠٠٠ دوقية ثمنًا لما جمع. وظلت المكتبة تتسع وتستكمل بصورة منتظمة وبوجه رئيسي خاص بمساعدة ڤسبازيانو Vespasiano، كما أن بيانه عنها يؤلف صورة مثالية لمكتبة في عصر النهضة. وكانت أوربينو تحوي كتالوجات بقوائم مكتبات الفاتيكان، ومكتبة القديس مارك بفلورنسا ومكتبة آل فيسكونتي في بافيا، بل حتى بكتب مكتبة أكسفورد. ومما كان يذكر بالفخر أن مكتبة أوربينو لم تكن مكتبة أخرى تستطيع منافستها من حيث غناها واستكمالها. ولعل أهم ما كانت تمثله بأقصى غاية من الاستيفاء علم اللاهوت ومؤلفات العصور الوسطى. فكان بها مجموعة كاملة لأعمال توماس الأكويني ومجموعة كاملة من ألبرتوس ماجنوس Albertus Magnus وأخرى كاملة من بوناڤينتورا Buonaventua . على أن المجموعة كانت مع ذلك مجموعة متعددة الجوانب، كما أنها حوت كل عمل في الطب أمكن الحصول عليه عندئذ. ومن بين "المحدثين" كان الكُتّاب العظام في القرن الرابع عشر– دانتي وبوكاتشيو مع مجموعة أعمالهما الكاملة– تشغل المنزلة الأولى. ثم يعقب ذلك خمسة وعشرون إنسانيًا مختارًا، وكلهم بلا استثناء تجمع المكتبة كلاً من كتاباتهم اللاتينية والإيطالية ومعها جميع مترجماتهم. فأما في مجال المخطوطات الإغريقية فكان آباء الكنيسة يتفوقون أعظم التفوق العددي على كل من عداهم؛ ومع هذا فنحن نجد في قائمة الأعمال الكلاسيكية جميع أعمال سوفوكليس Sophocles وجميع أعمال بيندار Pindar وجميع أعمال

ميناندار Menander . ولا بد أن الأخيرة اختفت بسرعة من أوربينو[١٣] وإلا لسارع علماء فقه اللغة (الفيلولوچيون) إلى نشرها. ومع هذا، فإن هذا العصر، عصر جمع الكتب، لم يخل من رجال يرفعون الصوت بالتحذير مما ينطوى عليه ذلك الولع الشديد من مزالق وتغير أهواء. ولم يكن هؤلاء القوم من أعداء العلوم والتحلى بها، بل كانوا أصدقاء لها، وقد خشوا أن يعود ضرر من اتجاه أصبح جنونًا. وبلغ الأمر أن بترارك نفسه احتج على هذه الموضة الحمقاء المتمثلة فى تكديس لكتب لا نفع وراءه؛ وفى ذلك القرن نفسه سخر چيوڤانّى مانزينى Giovanni Manzini من أندريولو دى أوكيس Andreolo de Ochis، وهو رجل فى السبعين من مدينة بريشيا Brescia، لأنه أبدى استعداداً للتضحية بداره وأرضه وزوجته ونفسه، لكى يزيد من مذخور مكتبته.

وفوق هذا فإن بين يدينا قدراً صالحًا من المعلومات حول الطريقة التى كانت تستكثر بها المخطوطات والمكتبات[١٤]. ومن الطبيعى أنه كان مما يعدّ من المصادفات السعيدة تمكن المرء من ابتياع مخطوط عتيق يحتوى على نص نادر، أو النص الكامل الوحيد، أو النص الموجود الوحيد، لكاتب قديم، وهى مصادفة محظوظة لسنا بحاجة إلى مزيد من تبيانها. وبديهى أن الناسخ الملم باليونانية كان يشغل بين زملائه النساخ المحترفين أعلى مرتبة، وكان هو بوجه خاص الذى يحمل لقب الشرف Scrittori أى "الكاتب". وكان عددهم محدوداً على الدوام، وكان أجرهم الذى يتقاضونه عاليًا جدًا[١٥]. وأما من عداهم، ممن لا يعرفون اليونانية ويسمون ببساطة بالنساخ copisti، فكانوا من ناحية جزئية مجرد كتبة يتعيشون من القيام بمثل هذا العمل، ومنهم من ناحية أخرى معلمون ورجال علم فقراء، يطلبون زيادة ما تضاف لدخلهم، ومنهم أيضاً الرهبان، أو حتى الراهبات، كانوا ممن يعدون ذلك عملاً مستوجبًا لمرضاة الله. وكان النساخ المحترفون فى المراحل الأولى من عصر النهضة قليلى العدد غير جديرين بالثقة؛ وكان جهلهم وطرائقهم المعوقة للعمل موضع الشكوى المريرة من بترارك. فأما فى القرن الخامس عشر فكانوا أكثر عدداً، كما كانوا يحملون إلى ساحة مهمتهم

معرفة أوسع، فأما من حيث الدقة والضبط فى العمل، فإنهم لم يرتفعوا قط إلى مستوى الدقة المستمسكة بالضمير التى كانت للرهبان القدامى. وكأنما كانوا يقومون بعملهم بطريقة مستاءة لا مبالية، وقلما وضعوا توقيعاتهم أسفل المخطوطة، كما لم يبدوا أدنى أثر لتلك الروح الفكاهية المرحة أو لذلك الوعى العالى بأنهم يقومون بنشاط مفيد، الأمر الذى كثيراً ما يدهشنا فى المخطوطات الفرنسية والجرمانية المسطرة فى نفس الفترة. وهذا أمر أعجب، نظرًا لأن النساخ فى روما فى عهد نيقولاس الخامس كانوا فى غالبية أمرهم من الجرمان أو الفرنسيين[١٦]- أى "البرابرة" كما كان يسميهم الإنسانيون الإيطاليون، وأغلب الظن أنهم كانوا رجالاً يلتمسون الرضا والعطف فى البلاط البابوى وكانوا يتعيشون فى الوقت نفسه بهذه الوسيلة. وعندما كان كوسيمو دى ميديتشى يتعجل تكوين مكتبة لمنشأته الأثيمة المسماة باديا Badia أسفل فيسولى Fiesole، أرسل فى طلب فيسبازيانو، وتلقى منه مشورته بأن يصرف النظر عن فكرة شراء الكتب، وذلك نظراً لأن ما يستحق منها أن يحصل عليه لم يكن من اليسير الوصول إليه بسهولة، وفضل له على ذلك استخدام النساخ؛ ومن ثم ساومه كوسيمو أن يدفع له قدرًا كبيراً من المال يوميًا، وبذا تمكن فيسبازيانو ومعه خمسة وأربعون من الكتبة يعملون بإشرافه، من أن يسلمه مئتى مجلد فى أثنين وعشرين شهرًا[١٧]. وتولى نيقولاس الخامس[١٨] إرسال "كتالوج" أى قائمة سطرها بيده إلى كوسيمو للأعمال التى ينبغى استنساخها. وطبيعى أن تشغل المقام الأول والأكبر من تلك القائمة الكتب الكنسية، والكتب اللازمة لكورال الصلوات (أى جوقات التراتيل فى الصلوات chorus) .


LAVII IOSEPHI PROLOGVS IN LIBRO DE BELLO
IVDAICO INCIPIT. LEGE EMM. FELICITER

شكل (٩٩) صفحة العنوان لكتاب لفلافيوس جوزيفوس

منتصف القرن الخامس عشر

فلورنسا، اللورينتسيانا

وكان الخط الذى الذى يكتبون به هو ذلك الخط الإيطالى الحديث الجميل الذى كان يستخدم قبل ذلك فى القرن السابق، والذى يجعل منظر أحد الكتب فى ذلك الزمان مثيراً للبهجة والمسرة. ذلك بأن البابا نيقولاس الخامس وبوجّيو وجيانوتزّو مانيتّى Gianozzo Manetti ونيقولو نيقولى، وغيرهم من كبار العلماء الممتازين كانوا أصحاب خطوط جميلة، وما كانوا يرغبون ولا يسمحون بأى شئ عدا الخط الجميل. وكانت الملاحق الإضافية الزخرفية، حتى ولو كانت المنمنمات (Miniatures) لا تشكل

جزءاً منها، طافحة بالذوق الجميل، كما يتجلى ذلك بوجه خاص فى المخطوطات اللورنتية، ذات اللولبيات المعقوفة الخفيفة والرشيقة التى كانت تبدأ وتنتهى بها السطور. والمادة التى كانوا يستخدمونها للكتابة عليها، عندما كان العمل يتم بأمر العظماء أو الأثرياء، هى الرقّ دائما؛ وكان التجليد، بكل من الفاتيكان وأوربينو، هو بلا اختلاف من القطيفة ذات اللون القرمزى ذى أبازيم من الفضة. وهنا يتضح لنا إزاء ذلك الحرص الكبير على إضفاء التكريم لمحتويات أحد الكتب بجمال مظهره الخارجى، لماذا لم يلق الظهور المفاجئ للكتب المطبوعة فى البداية أى حظوة. وعندما رأى مبعوثو الكاردينال بيساريون لأول مرة كتاباً مطبوعاً فى منزل قسطنطين لاسكاريس، أغرقوا فى الضحك عليه "بأنه المصنوع على يدى البرابرة فى إحدى المدن الجرمانية"، كما أن فيديريجو من أوربينو "كان يظهر الخجل من أن يملك كتاباً مطبوعاً"[١٩].



Prologus.

INCIPIT EXPOSITIO BEATI HIERONYMI PRAESBYTERI IN PSALTERIVM. ET PRIMO PROLOGVS EIVSDEM.

ROXIME CVM ORIGENIS

شكل (١٠٠) . طباعة بندقية من عام ١٤٩٨، بإطار من المعدن المحفور عليه رسومات

على أن النساخين المرهقين- ولا أعنى بهم أولئك الذين يتعيشون من هذه المهنة، وإنما هم الكثرة الذين كانوا يضطرون إلى نسخ أحد الكتب بغية الحصول عليه- فرحوا بالاختراع الألماني(٢٠)، "رغم الثناء والتشجيع الذي كان الشعراء يكيلونه للخط الجميل". وسرعان ما طبَّقَ الآفاق ذلك الاختراع في إيطاليا على عملية تكثير أعمال المؤلفين اللاتينيين أولاً ثم الإغريق، وظل الحال على ذلك مدة طويلة يمضي في سبيله بإيطاليا وحدها دون سواها، على أنه لم ينتشر بأية حال بتلك السرعة التي ربما كانت لتتوقع من الحماسة العامة المنتشرة بين الناس من أجل هذه الأعمال. وبعد مدة شرعت العلاقة العصرية بين المؤلف والناشر في التطور والنمو(٢١)، وفي عهد اسكندر السادس، يوم لم يعد من السهل تدمير كتاب، كما حدث يوم استطاع كوسيمو حمل فيليلفو على الوعد بذلك(٢٢)، ظهرت الرقابة التي تتولى المنع.

والنمو الذي أصابه نقد النصوص، ذلك النقد الذي صاحب دراسة اللغات والعصر العهيد (Antiquity)، إنما ينتمي بدرجة ضئيلة إلى موضوع كتابنا هذا مثلما ينتمي تاريخ العلوم والدراسات العلمية بوجه عام. فلسنا في هذا المقام منشغلين بالدراسات العلمية للإيطاليين في حد ذاتها، وإنما شغلنا الشاغل هو إحياء وإعادة إنتاج العصر العهيد في حقلي الأدب والحياة. وربما سمح المقام بكلمة واحدة أخرى حول الدراسات ذاتها.

كان العلم الإغريقي والعلماء الإغريق مقصورين على فلورنسا وعلى القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر. ولم يكن أبداً واسع الانتشار كالتضلع اللاتيني، وذلك من ناحية جزئية من جرّاء الصعوبات الأشد عسراً التي تندرج تحت ذلك، وجزئياً من ناحية أخرى بل بسبب أهم وأكبر هو تسلط الوعي بالتفوق الروماني، كما أن كراهية غريزية لليونانيين كانت تُرْجِح كثيراً الجاذبية التي يملكها الأدب الإغريقي على عقول الإيطاليين(٢٣).

وكان الدافع الصادر عن بترارك وبوكاتشيو(٢٤)، مهما تكن معرفتهما باليونانية سطحية، دافعًا قويًا، ولكنه لم يؤت فوراً أثره الفعال في معاصريهما(٢٥)؛ ومن الناحية

الأخرى، ماتت دراسة الأدب الإغريقى حوالى عام ١٥٢٠ [٢٦] بموت آخر فرد من الجالية اليونانية المنفيين، وكان من أروع سهام الحظ الحسن أن أقوامًا شماليين مثل أجريكولا Agricola ورويخلين Reuchlin وإيرازموس Erasmus وآل ستيفايني وبودايوس Budæus ، قد جعلوا من أنفسهم في غضون ذلك أساتذة قهروا تلك اللغة. وبدأت تلك المجموعة بمانويل كريسولوراس Manuel Chrysoloras وقريبه جون، وبجورج من طريبيزوند Trebizond . ثم جاء بعدهم حوالى زمن فتح القسطنطينية وبعده، يوهان أرجيروبولوس Joh. Argyropulos وتيودور جازا[٢٧] Theodore Gaza، وديمتريوس خالكونديلاس Demetrios Chalcondylas، الذى نشأ ولديه ثيوفيلوس The-ophilos وباسيليوس Basilios على أن يكونا عالمِين ممتازين بالهيللينستية (أى باللغة أو بالحضارة الإغريقية (Hellenists وأندرونيكوس كاليستوسAndronikos Kallistos وماركوس موسوروس Marcos Musuros وعائلة لاسكاريس Lascaris، ونضرب صفحًا عن ذكر غيرهم وغيرهم. على أنه بعد أن أخضع الترك بلاد اليونان لم يعد تعاقب العلماء متواصلاً إلا عن طريق أبناء اللاجئين، وربما حدث هنا وهناك بواسطة لاجئين من أهالي كانديا (بجزيرة كريت) أو قبرص. فأما أن اضمحلال الدراسات الهللينستية بدأ قرب وفاة البابا ليو العاشر فيرجع جزئيًا إلى تغير عام ألمَّ بالاتجاه الفكرى[٢٨]، وإلى قدر معين من التشبع بالمؤثرات الكلاسيكية ظهر مفعوله آنذاك؛ على أن تصادف حدوثه مع وفاة اللاجئين اليونانيين لم يكن من قبيل المصادفات المحضة. ويبدو أن دراسة الإغريقية بين ظهرانى الإيطاليين، إذا اتخذنا عام ١٥٠٠ قمة معيارية لذلك، كانت تجرى بحماسة غير عادية. فتعلم شباب ذلك الزمان الكلام بتلك اللغة، وبعد ذلك بنصف قرن، شأن البابا بولس الثالث وبولس الرابع، كانوا لا يزالون يستطيعون فعل ذلك حين تتقدم بهم السن[٢٩]. على أن هذا النوع من التمكن في تلك الدراسة يفترض مقدمًا الاختلاط باليونانيين الأقحاح.

وبالإضافة إلى فلورنسا، فإن روما وبادوا ظلتا على الدوام تقريبًا تستخدمان معلمى اليونانية المأجورين، كما أن فيرونا وفيرارا والبندقية وبيروجيا وبافيا وغيرها من

المدن الأخرى ظلت تستخدمهم بين حين وآخر(٣٠). وتدين الدراسات الهللينستية بدين طائل لمطبعة ألدو مانوتشي Aldo Manuci بمدينة البندقية، حيث طبعت كتب أهم الكُتَّاب وأضخمهم إنتاجًا لأول مرة بلغتها الأصلية. وقد خاطر ألدو بكل ما يملك في ذلك المشروع؛ وكان محررًا وناشراً لم يكد العالم يرى له مثيلاً إلا فيما ندر(٣١).



ἈΡΙΣΤΟΤΕΛΟΥΣ ἨΘΙΚΩΝ ἘΥΔΗΜΙΩΝ, ΤΟ Ε.

Πεὶ δὲ τυγχάνομεν πρότερον εἰρηκότες ὅτι
δεῖ τὸ μέσον αἱρεῖσθαι μὴ τὴν ὑπερβολὴν μηδὲ
τὴν ἔλλειψιν, τὸ δὲ μέσον ἐστὶν ὡς ὁ λόγος ὁ ὀρ
θὸς λέγει, τοῦτο διέλωμεν. ἐν πάσαις γὰρ
ταῖς εἰρημέναις ἕξεσι καθάπερ καὶ ἐπὶ
τῶν ἄλλων ἐστί τις σκοπὸς πρὸς ὃν ἀποβλέ
πων ὁ τὸν λόγον ἔχων ἐπιτείνει καὶ ἀνίησι
καί τις ἐστὶν ὅρος τῶν μεσοτήτων ἃς μεταξύ φαμεν εἶναι τῆς
ὑπερβολῆς καὶ τῆς ἐλλείψεως, οὔσας κατὰ τὸν ὀρθὸν λόγον.
ἔστι δὲ τὸ μὲν εἰπεῖν οὕτως, ἀληθὲς μὲν, οὐθὲν δὲ σαφές. καὶ

شكل (١٠١) عينة من طباعة من الطبعة المنشورة لأعمال أرسطو وثيوفراستوس

الطبعة المشار إليها طبعها ألدوس مانوتشيوس في البندقية، ١٤٩٥-١٤٩٨

وإلى جوار هذا الانتعاش الكلاسيكي اتخذت الدراسات الشرقية أنذاك نسبًا وأبعاداً ضخمة جسيمة(٣٢). فإن دانتي نفسه جعل للغة العبرية منزلة رفيعة، وإن كنا لا نستطيع أن نعتقد أنه كان يفهمها. ومنذ القرن الخامس عشر فصاعداً لم يعد العلماء يقنعون بمجرد الحديث عنها باحترام بل وجهوا أنفسهم إلى دراستها دراسة كاملة وافية. على

أن هذا الاهتمام العلمي بتلك اللغة كان منذ البداية إما أن تعززه الاعتبارات الدينية وإما أن تعوقه. مثال ذلك أن بوجّيو كان يعمد أثناء فترات الراحة من أعمال مجلس كونستانس إلى تعلم العبرية في ذلك المكان وفي بادن Baden على يد يهودي تنصر، وصفه بأنه "غبي شكس الأخلاق جاهل، كمعظم اليهود المعتنقين للنصرانية"؛ على أنه اضطر أن يدافع عن تصرفه ذاك ضد ليوناردو بروني Leonardo Bruni، الذي حاول أن يثبت له بالبرهان أن العبرية كانت غير ذات طائل، بل حتى إنها ذات مضرة. وإن الكتابات الجدلية لجيانوتزّو مانيتي[٣٣] (توفي ١٤٥٩)، وهو رجل السياسة والعلم الفلورنسي العظيم، ضد اليهود لتزجي إلينا بمثال مبكر للتمكن التام من لغتهم وعلومهم. وتلقى ابنه أنيولو Agnolo منذ نعومة أظافره تعلم العلم باللاتينية واليونانية والعبرانية. وقام الأب بأمر نيقولاس الخامس بترجمة المزامير، وإن اضطر أن يدافع عن أسس ترجمته بكتابة عمل أهداه إلى ألفونسو. ولما أن كلفه نفس البابا، الذي عرض عليه خمسة آلاف دوقية جائزة مكافأة له على اكتشافه النص العبراني الأصلي للحواري الإنجيلي متّى، جمع مجموعة من المخطوطات العبرانية، لا تزال محتفظاً بها في الفاتيكان، وشرع في إنشاء عمل تبريري عظيم ضد اليهود[٣٤]، وبهذا أصبحت دراسة العبرانية جزءاً مما يُقدَّم للكنيسة من خدمات. وتعلم تلك اللغة أيضًا الراهب الكامالدوسي أمبروجيو ترافيرساري[٣٥] Ambrogio Traversari، كما تعلمها أيضًا البابا سيكستوس الرابع، الذي شاد بناء مكتبة الفاتيكان، وأضاف إلى المجموعة مشتريات واسعة تولاها هو نفسه، وأدخل في خدمته كاتبًا وأمين مكتبة (librarios) Scrittori للشئون العبرانية فضلاً عن الإغريقية واللاتينية[٣٦]. والآن أصبحت دراسة اللغة أعم وأشيع؛ فجمعت المخطوطات العبرانية، كما شكلت في بعض المكتبات، كمكتبة أوربينو مثلاً، جزءاً ثمينًا بوجه خاص من ذلك الكنز النفيس المخزون بها؛ وبدأت طباعة الكتب العبرانية في إيطاليا في ١٤٧٥. فأصبحت الدراسة أسهل للإيطاليين أنفسهم ولجميع شعوب أوروبا الأخرى الذين داموا عدة سنوات يستدرون مواردهم منها من إيطاليا.
وسرعان ما تحول الحال، فلم تعد هناك مدينة ذات حجم معقول لا تحوي أفرادًا يعدّون أساتذة في تلك اللغة فضلاً عن كثيرين يتوقون إلى تعلمها، وفي ١٤٨٨ أنشئ كرسي

للعبرانية في بولونيا، وآخر في ١٥١٤ بروما. وزادت شعبية تلك الدراسة حتى غدت تفضل على اليونانية(٣٧).



شكل (١٠٢) درس الأجرومية (النحو)

نحت بارز، للوكا ديللا روبيا

الكامبانيلي، فلورنسا

ولم يكن من جملة من شغلوا أنفسهم بالعبرانية(٣٨) في القرن الخامس عشر من كان أهم شأناً من بيكو ديللا ميراندولا Picp della Mirandola . فإنه لم يقنع بمجرد المعرفة بقواعد النحو العبراني والكتب العبرانية المقدسة، بل تعمق في القابالاه أي

القبلانية اليهودية (Kabbalah)، بل لقد جعل نفسه دريًا بأدب التلمود ((Talmud)، (والقبلانية فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود). على أن هذه المساعي، وإن لم يمض بها فيما يحتمل أشواطًا بعيدة، إنما تهيأت له بفضل أساتذته اليهود. إذ الواقع أن معظم تعليم العبرانية كان يتم على يدي اليهود، الذين أصبح بعضهم، وإن كان ذلك في الأعم بعد اعتناقهم النصرانية، أساتذة جامعات ممتازين وكتّابًا يلقون التقدير الكثير[٣٩].

ومن جملة اللغات الشرقية الأخرى، درست العربية إلى جانب العبرانية. إذ لما لم يعد علم الطب قانعًا بالترجمات اللاتينية القديمة للأطباء العرب العظماء، فإنه أخذ يرجع بلا انقطاع إلى الأصول الأصلية، التي أصبح الوصول إليها يسيراً بفضل قنصليات البندقية المنتشرة في الشرق، التي كان يحتفظ فيها بانتظام بأطباء إيطاليين. على أن التبحر العلمي العربي في عصر النهضة ليس سوى صدى ضعيف للسلطان الذي مارسته الحضارة العربية في العصور الوسطى على إيطاليا وعلى العالم المتحضر بأسره، وهو سلطان لم يقتصر على السبق الزمني لسلطان عصر النهضة، ولكنه كان من بعض النواحي معاديًا لها، ولم يسلّم نفسه فيه بقوة. فترجم هيرونيمو راموسيو Hieronimo Ramusio، وهو طبيب من البندقية، شطراً كبيراً من ابن سينا Avicenna عن العربية، وتوفى بمدينة دمشق فى ١٤٨٦. كما أن أندريا مونجاجو Andrea Mongajo من بيللونو[٤٠] Belluno، وهو أحد تلاميذ ابن سينا نفسه، قد أقام طويلاً بدمشق، وتعلم العربية، وتفوق على أستاذه. وعينته حكومة البندقية فيما بعد أستاذاً لتلك المادة في بادوا. وحذت حكومات مدن أخرى حذو البندقية. وأخذ الأمراء الأثرياء يتنافسون بعضهم على بعض في جمع المخطوطات العربية. وبدأت أول مطبعة عربية في فانو لعهد البابا يوليوس الثاني كما دشنت في ١٥١٤ أيام ليو العاشر[٤١].



شكل (١٠٣) بيكو ديلا ميراندولا

فلورنسا . أوفيزى

تصوير أليناري

وهنا ينبغي أن نتمهل هنيهة أمام بيكو ديلا ميراندولا قبل الانتقال إلى بحث الآثار العامة لمذهب الإنسانيين، فإنه كان الرجل الوحيد الذي دافع جهاراً وبقوة عن صدق وعلم جميع العصور ضد عبادة العالم الكلاسيكي المهيد ذات الجانب الواحد المتغير[٤٢]. فإنه عرف كيف يقدر ابن رشد Averroes والبحاثة اليهود. فضلاً عن الكُتّاب المدرسانيين (Scholastic) في العصور الوسطى، حسب مادة كتاباتهم. وكأنما

كان يستمع إليهم بأذنه وهم يقولون: "سنعيش إلى أبد الآبدين، لا في مدارس من جعلوا همهم التقاط الكلمات، بل في دائرة الحكماء، حيث لا يتحدثون عن أم أندروماك Andromache ولا عن أبناء نيوبي Niobe، وإنما عن الأسباب الأعمق للأشياء سواء منها البشري أو الإلهي؛ فإن من يمعن النظر سيرى أنه حتى الرجل من البرابرة نفسه كان لديه (mercurium) ذكاء لا على طرف لسانه بل في صدره". فأما هو نفسه فكان يكتب لاتينية قوية، لا تعوزها الرشاقة، وكان أستاذاً متمكناً من العرض الواضح المبين، ولذا كان يحتقر ما يتعمده المتشدقون بالعلم من نقاء اللغة وما يجري به العرف من دارج المبالغة في تقدير الصيغ (Forms) المستعارة، وخاصة عندما تجتمع، كما هو الشأن غالباً، مع الاتجاه إلى ناحية واحدة متعصبة، وما يشمله ذلك من عدم اهتمام بالصدق الأرحب للأشياء نفسها. وإذا ألقينا نظرة إلى بيكو، أمكننا أن نزكن التحليقات العالية التي كانت لتتم للفلسفة الإيطالية ، لولا أن الإصلاح الديني المضاد (Counter Reformation) قضى قضاء مبرماً على الحياة الروحية العليا للشعب.

هوامش الفصل الثالث - القسم الثالث

(١) بصفة رئيسية من ڤيسبازيانو فيورينتينو Vespasiano Fiorentino، في المجلد الأول من .Spicileg Romanum، لماى Mai، ومن تلك الطبعة نقلت جميع الاقتباسات في هذا الكتاب. وهناك طبعة أخرى أكثر حداثة لبارتولى Bartoli (فلورنسا، ١٨٥٩). والمؤلف كان بائع كتب ووكيل نسخ فلورنسى حوالى وبعد منتصف القرن الخامس عشر.

(٢) انظر بتـرارك Cf. Petratch, Epist. Fam., ed. Fracasetti, xviii, 2; xxiv, 12, var. 25، مع هوامش فراكاسيتّى فى الترجمة الإيطالية، .vol. iv, pp. 92-101, line 196 sqq، حيث يقدم أيضًا شذرة من ترجمة هوميروس Homer قبل زمن بيلاطس Pilato .

(٣) والتزييفات، التي عن طريقها كان الشغف بالعصور العهيدة يتحول إلى الربح أو إلى تسلية المتشردين الأوغاد، كان معروفًا عنها إنها لم تكن غير شائعة. انظر المقالات عن التواريخ الأدبية حول أنيوس من ڤيتربو Annius of Viterbo .

(٤) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٢١، Tommaso da Serezana usava dire, che dua cosa' farebbe, se egli potesse mai spendere, ch' era in libri e murare. E l' una e l' altra fece nel suo pontificato'. وفيما يتعلق بترجمته انظر إيبياس سيلڤيوس Æneas Sylvius, De Europa, cap. 59, p. 459، وبابينكورت .Papencordt, Ges. Der Stadt Rom., p. 502 انظر بصفة خاصة فويجت Voigt, op. cit., Book V .

(٥) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحات ٤٨ و ٦٥٨، ٦٦٥. انظر ج. مانيتّى -Cf. J. Manetti, Vita Nico lai V. in Murat., iii, ii col. 925 sqq.. وعن مسألة ما إذا كان وكيف أن كاليكستوس الثالث -Ca lixtus III شتت المكتبة جزئيًا مرة أخرى انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٢٨٤ مع ملاحظة ماى Mai. [ويقول باستور Pastor أنه ليس حقيقيًا أنه فعل ذلك، بينما يقبل روسى Rossi ذلك على أنه حقيقة واقعة- و. ج. W. G .

(٦) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٦١٧ وما بعدها.

(٧) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٤٥٧ وما بعدها.

(٨) (ولم يكتشف بوجّيو اكتشافاته في جنوب ألمانيا فقط، بل في مكتبات أديرة الراين وبرجانديا. ويورد بوركهارت أسماء سيلسوس Celsus وجيليوس Gellius، ولكنهم لم يتم اكتشافهم على يد بوجّيو، بنما هو يغفل تعقيباً لبريسيان Priscian على اثنى عشر سطراً من الإنيادة. انظر ,Cf. Walser Poggius Florentinus, pp. 48 sqq. (Leipzig, 1914) و. ج. W. G. .

(٩) انظر فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ١٩٢، انظر أيضًا مارين سانوبو Cf. Marin Sanudo, in Mu-
. rat., xxii, col. 1185 sqq.

(١٠) ويروى في ماليبييرو Malipiero, Ann, Venet., Archiv. Stor., vii, ii pp. 653, 655 كيف عولج الأمر مبدئيًا. وقد أعطى بيساريون Bissarion لجمهورية البندقية ٤٨٢ مخطوطًا إغريقيًا و٢٦٤ مخطوطًا لاتينيًا: انظر هـ. أورمونت H. Ormont في the Revue des Bibliothèques, iv, pp.
. 129-186 (1894)

(١١) (انظر إ. روستانيو E. Rostagno, Prefazione all' Eschilo Laurenziano, pp. 6 sqq.
(Florence, 1896)، عن تصحيحات طفيفة للمعلومات المذكورة عاليه– و. ج. W. G.).

(١٢) انظر فيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., ed. Mai, pp. 124 sqq.، و Inventario della Libreria Urbinata compilata nel Secolo XV de Federigo Veterano, Bibliotecario di Federigo I da Montefeltro Duca d'Urbino، الذي قدمها س. جواستي C. Guasti في Giornale Storico degli Archivi Toscani, vi, 127-147 (1862), and vii, 46-55, 130- 154 (1863). وعن آراء معاصرة عن المكتبة انظر فافر Favre, Mélanges d'Hist. Lit., i, 127, note 6 .

(والتالي هو مادة ملاحظات الدكتور جايجر على موضوع المؤلفين القدماء :

عن المكتبة الميديتشية انظر Cf. Delle Codicioni e della Vicenda della Libreria Medicea Privata dal 1494 al 1508 riceche di Enea Piccolomini, Arch. Stor. Ital., pp. 265 sqq., 3 serie, vol. xiv, pp. 101-129, 254-281; xx, 51-94; xxi, 102-112, 282-296..
والدكتور جايجر لا يأخذ على عاتقه إعداد تقدير عن القيم النسبية لمختلف الأعمال النادرة وغير المعروفة تقريبًا في المكتبة، ولا هو بقادر على تحديد أين يمكن العثور عليها الآن. وهو يلاحظ أن المعلومات حول بلاد الإغريق أكثر اكتمالاً منها حول إيطاليا، وهي علامة مميزة لذلك الزمان. والكتالوج يتضمن طبعات من الإنجيل، وكتب منفردة عنه، بالنص والحواشي، وكذلك أعمال إغريقية ورومانية في شكلها الأكثر اكتمالاً في ذلك الوقت، بالإضافة إلى كتب عبرية– "tractatus quidam rabbinorum hebr." مع أعمال عصرية أكثر، باللغة اللاتينية بصفة رئيسية، وقليلة بالإيطالية.

ويشكك الدكتور جايجر في الدقة المطلقة لكتالوج فيسبازيانو فيورينتينو عن مكتبة أوربينو. انظر الطبعة الألمانية - 314 ,313، أس. ج. ش. م. S G. C. M.).

(١٣) ربما عند وقوع أوربينو في يد قوات سيزار بورجيا. وقد تم التشكيك في وجود المخطوط؛ ولكنني لا أستطيع أن أصدق أن فيسبازيانو كان سيتكلم عن المقتطفات المأثورة (gnomic) من ميناندر، التي لا تمثل إلا حوالي مائتي سطر، بوصفها "tutte le opere"، ولا أنه يذكرها في القائمة الشاملة للمخطوطات، حتى بالرغم من أنه كان أمامه فقط أعمال بيندار وسوفوكليس الحالية لدينا. وليس من المستبعد أن ميناندار ذلك قد يظهر إلى النور يومًا ما.

(وكتالوج مكتبة أوربينو (انظر الهامش السابق)، الذي يرجع تاريخه إلى القرن الخامس عشر، ليس متطابقاً تماماً مع تقرير فيسبازيانو، ولا مع ملاحظات الدكتور بوركهارت حوله. وبوصفه مستنداً رسمياً،

فإنه يستحق اهتمامًا أكبر عن وصف فيسبازيانو، الذى، مثل معظم أوصافه، لا يمكن إعفاؤه بدرجة معينة من عدم الدقة في التفاصيل والميل إلى التجاوز. وفي هذا الكتالوج لا يوجد أي ذكر لمخطوط ميناندر. وبذلك يكون شك ماي في وجوده له ما يبرره. وبدلاً من "جميع أعمال بيندار"، نجد هنا "Pindaris Olimpia et Pithia". والكتالوج لا يفرق بين الكتب القديمة والحديثة، ويحتوى أعمال دانتي من بينها (Comædi? Thusco Carmine) وأعمال بوكاتشيو في صورة ناقصة جدًا؛ أما أعمال بترارك فهي كاملة تمامًا. ويمكن إضافة أن هذا الكتالوج يذكر كتابات إنسانية كثيرة ظلت حتى ذلك الحين مجهولة وغير مطبوعة، وأنه يحتوى مجموعات من امتيازات أمراء مونتيفيلترو، ويعدد بعناية الإهداءات المقدمة على يد المترجمين أو الكتاب الأصليين إلى فيديريجو من أوربينو- ل. ج. L. G. .

(١٤) لما يعقب ذلك، ومن ناحية جزئية ما سبق، انظر و. واتنباخ W. Wattenbach, Das Schriftwesen im Mittelalter, pp. 392 sqq., 505 (2nd ed., Leipzig, 1875). وانظر أيضًا القصيدة De Officio Scribæ، لفيل. بيروالدوس Phil. Beroaldus، الذى هو، مع ذلك، يتحدث بالأحرى عن الكاتب العمومي.

(١٥) وعندما أعلن بييرو دى ميديتشى Piero de' Medici، عند موت ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus، وهو ملك المجر المحب للكتب، أن النساخ scrittori يجب أن يخفضوا أجورهم الآن، نظرًا لأنهم لن يجدوا من يستخدمهم في حالة عدم خفض الأجور (sc., except in Italy). فلا بد أنه كان يقصد نساخ الإغريقية، وذلك لأن النساخ العاديون، الذين قد يُغرى المرء إلى اعتبار أنه يقصدهم، استمر عددهم كبيرًا في جميع أرجاء إيطاليا. انظر فابرونى Fabroni, Laurent. Magn., Adnot. 156. وانظر أيضًا Cf. Adnot. 154 .

(١٦) انظر جاى Gaye, Carteggio, i, p. 164. خطاب من عام ١٤٥٥ في عهد كاليكستوس الثالث. وقد كتب الإنجيل المصغر المنمنم الشهير لأوربينو بيد رجل فرنسي، وكان عاملاً عند فيسبازيانو. انظر داجينكور D'Agincourt, La Peinture, tab. 78. وعن النساخ الألمان في إيطاليا انظر كذلك ج. كامبورى G. Compori, Artisti Italiani e Stranieri negli Stati Estensi, p. 277 Modena, 1855)، وكذلك .Giornale di Erudizione Artistica, vol. ii, pp. 360 sqq انظر واتنباخ Wattenbach, Schriftwesen, p. 411, note 5. وعن الطباعين الألمان انظر أسفله.

(١٧) انظر فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٣٣٥

(١٨) انظر Ambr. Trav., Epist., i, p. 63. وكان البابا يقدم الخدمات بالتساوى إلى مكتبات أوربينو وبيسارو Pesaro (تلك الخاصة باليساندرو سفورزا الفصل الرابع، القسم الأول). وانظر أيضًا Cf. Arch. Stor. Ital., xxi, 103-106. الإنجيل والتعقيبات عليه؛ آباء الكنيسة؛ أرسطو، مع معقبيه، متضمنين ابن رشد وابن سينا؛ موسى بن ميمون؛ الترجمات اللاتينية للفلاسفة الإغريق؛ كتّاب النثر اللاتيني؛ ومن الشعراء لم يذكر سوى فرجيل وستاتيوس وأوفيد ولوكان.

(١٩) انظر فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ١٢٩

(٢٠) في قصيدة لروبرتوس أورسوس Artes-Quis Labor est fessis demptus ab Articulis" Ro-bertus Ursus، حوالي عام ١٤٧٠، Rerum Ital. Script. Ex Codd. Fiorent., tom. ii, col. 693. وهو يبتهج بطريقة متسرعة حول الانتشار السريع الذى كان مأمولاً للأدب الكلاسيكي القديم. انظر أيضًا (..Cf. Libri, Hist. Des Sciences Mathématiques, ii, 278 sqq انظر أيضًا تأبين لورنزو ڤاللا (Lor. Valla, Hist. Ztschr., xxxii, 62). وعن الطباعين في روما (والأوائل كانوا ألمانًا: هاهن Hahn وبانارتز Pannartz وشفاينهايم Schweinheim) انظر جاسبار. ڤيرون. Gas-par. Veron., Vita Pauli II, in Murat., iii, ii, col. 1046; وليـر Laire, Spec. Hist. Typo-graphiæ Romanæ, XV Sec. (Rome, 1778); وفريجوروڤيوس Gregorovius, vii, 525-33. وعن أول المتمتعين بالامتياز (Privilegium) في البندقية انظر مارين سانوبو Marin Sanudo, in Murat., xxii, col. 1189.

(٢١) وشئ من هذا القبيل سبق وأن وجد في عصر المخطوطات. انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٦٥٦، عن Cronaco del Mondo of Zembino of Pistoja.

(٢٢) انظر فابروني Fabroni, Laurent. Magn., Adnot. 212. وقد حدث في حالة التشهير والقذف De Exilio.

(٢٣) وحتى في بترارك فإن الوعي بسمو الإيطاليين على الإغريق كثيرًا ما يلاحظ: Epist. Fam., lib. i, Ep. 3; Epist. Sen., lib. xii, Ep. 2؛ وهو يمدح الإغريق رغمًا عنه: Carmina, lib. iii, 30, ed. Ros-setti, vol. ii, p. 342. وبعد ذلك بقرن من الزمان يكتب إينياس سيلڤيوس (Comm. To Panormi-ta, De Dictis et Factis Alfonsi, App.): "Alfonsus tanto est Socrate major quanto gravior Romanus homo quam Græcus putatur". وطبقًا لهذا الشعور فإن دراسة اليونانية لم تكن من الأهمية بمكان. ومن وثيقة تم الاستفادة منها أسفله، كتبت في حوالي ١٤٦٠، يظهر أن بورتشلليو Porcellio وتوماسو سينيكا Tommaso Seneca حاولا مقاومة التأثير الصاعد لليونانية. وبالمثل فإن باولو كورتيسي (1490) Paulo Cortese كان يناهض اليونانية، حتى لا تتأثر السلطة المائمة للاتينية. De Hominibus Doctis,p. 20. وعن الدراسات الإغريقية في إيطاليا انظر بصفة خاصة عمل فاڤر Favre, Mélanges d'Hist. Littér., i, passim.

(٢٤) انظر جايجر Geiger, Exkurs LIX في الطبعة الألمانية الثانية عشر من Die Kultur der Renais-sance in Italien.

(٢٥) انظر أعلاه، القسم الثالث، الفصل الثالث، وانظر أيضًا ڤويجت Cf. G. Voigtm, Wiederbelebung.

(٢٦) وانقراض هؤلاء الإغريق مذكور في بييريوس ڤاليريان Pierius Valerian, De Infelicitate Lite-rat.، عندما يتحدث عن لاسكاريس Lascaris, ed. Mencken, p. 332. وباولوس جوڤيوس Paul. Jovius، في نهاية عمله Elogia Literaria، يقول عن الألمان: "Quum literæ non latinæ modo cum pudore nostro, sed græcæ et hebraicæ in eorum terras fatali commigratione transierint" (about 1450). وبالمثل فإنه قبل ذلك بستين عامًا (١٤٨٢) صاح يوهان أرجيروبولوس

Joh. Argyropulos، عندما سمع ريوكلين Reuchlinالشاب يترجم ثوسيديدس Thucydides في قاعة محاضراته في روما، " Græcia nostra exilio transvolavit Alpes". انظر جايجر Geiger, Reuchlin, pp. 26 sqq. (Leipzig, 1871). ويوركهارت، ٢٧٣، ويمكن العثور على فقرة رائعة في جوفيانوس بونتانوس Jov. Pontan., Antonius, Opp., iv, p. 203: "In Græcia magis nunc Turcaicum discas quam Græcum. Quicquid enim doctorum habent Græcæ disciplinæ, in Italia nobiscum victitat".

(٢٧) وجاء جازا Gaza، مثلما جاء جيميستوس بليتو Gemisthos Pletho وبيسّاريون Bessarion، في زمن المجلس الفلورنسي في ١٤٣٨،

(٢٨) انظر رانكه Ranke, Päpste, i, 486 sqq.. انظر أيضاً نهاية هذا القسم من كتابنا.

(٢٩) انظر توماسو جار Tommaso Gar, Relazioni della Corte di Roma i, pp. 338, 379 .

(٣٠) جورج من طريبيزوند George of Trebizond، مدرس علم البيان في البندقية، بأجر مائة وخمسين دوقية في السنة انظر ماليبييرو (Malipiero, Archiv. Stor., vii, ii, p. 653). وعن كرسي اللغة اليونانية في بيروجيا انظر Archiv. Stor., xvi, ii, p. 19 of the Introduction. وفي حالة ريميني فإن هناك بعض الشك فيما إذا كانت اليونانية تدرس أم لا. انظر أيضاً Cf. Anecd. Litt., ii, p. 300. وفي بولونيا، وهي مركز الدراسات التشريعية، كان لأوريسبا Aurispa نجاح ضئيل. والتفاصيل عن الموضوع في مالاجولا Malagola .

(٣١) توجد معلومات وافية عن الموضوع في العمل الرائع لديدوه A. F. Didot, Alde Manuce et l'Hellenisme à Venise (Paris, 1875) .

(٣٢) وعن ما يعقب ذلك انظر أ. دي جوبرناتيس A. de Gubernatis, Matériaux pour servir à l'Histoire des études Orientales en Italie (Paris, Florence, etc., 1876) . والإضافات على يد سوف Soave في Bolletino Italiano degli Studi Orientali, i, 178 sqq.. وهناك تفاصيل أدق في أسفله.

(٣٣) انظر أسفله.

(٣٤) انظر Commentario della Vita di Messer Giannozzo Manetti, scritto da Vespasiano Bisticci, especially pp. 11, 44, 91 sqq. (Torino, 1862) .

(٣٥) انظر فيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., ed. Mai, pp. 48, 476, 578, 614. وكان الأخ الراهب فرا أمبروجيو كامالدوسي أيضاً يعرف العبرية. المصدر نفسه Ibid., p. 320. انظر أ. تراف، A. Trav., Epist., lib. xi, 16 .

(٣٦) انظر بلاتينا Platina, Vita Sixti IV, p. 332 .

(٣٧) انظر بينيدكتوس فاليوس Benedictus Faleus, De Origine Hebraicarum Græcarum Latinarumque Literatum (Naples, 1520) .

(٣٨) عن دانتي انظر فيجيلي Wegele, Dante, 2nd ed., p. 268، ولاسينيو Lasinio, Dante e le Lingue Semitiche, in the Rivista Orientale (Florence, 1867-68). وعن بوجّيو انظر Op-era, p. 297؛ وانظر ليون. بروني Leon. Bruni, Epist., lib. ix, 12؛ وانظر أيضًا جريجوروفيوس Cf. Gregorovius, vii, 555، وشبرد-تونيللي Shepherd-Tonelli, Vita di Poggio, I, 65. ورسالة بوجّيو إلى نيكّولي Niccoli، والتي فيها يتناول العبرية، قد نشرت بالفرنسية واللاتينية تحت عنوان Les Bains de Bade par Pogge، على يد أنطوني ميراى Anthony Méray, (Paris, 1876). وقد رغب بوجّيو أن يعرف على أية مبادئ ترجم جيروم الإنجيل، بينما ظل بروني على رأيه بأنه طالما أن ترجمة جيروم قائمة الآن فإن عدم الثقة فيها يظهر عن طريق تعلم العبرية. وعن مانيتّي بوصفه جامعًا للمخطوطات العبرية انظر شتاينشنايدر Steinschneider في العمل الذي تم الاقتباس منه في أسفله. وفي المكتبة في أوربينو كان هناك في المجموع واحد وستون مخطوطاً عبرياً. ومن بينها إنجيل "opus mirabile et integrum, cum glossis mirabiliter scriptus in modo avium, arborum et animalium in maximo volumine, ut vix a tribus hominibus feratur". وهذه، كما يظهر من قائمة أسّيماني Assemanni، موجودة حاليًا في الفاتيكان. وعن الطباعة لأول مرة بالعبرية انظر شتاينشنايدر وكاسّيل Steinschneider and Cassel, Jud. Typographie in Esch. u. Gru-ber, Realencyclop., sect. ii, Bd. 28, p. 34, and Catal. Bodl., by Steinschneider, pp 2821-2866 (1852-60). ومن الصفات المميزة أن من بين أول اثنتين من المطبعات فإن واحدة تخص مانتوا، والثانية تخص ريجيو، في كالابريا، بحيث أن طباعة الكتب العبرية بدأت تقريبًا في وقت معاصر في طرفي إيطاليا. وكان متولي الطباعة في مانتوا طبيبًا يهوديًا كانت تساعده زوجته. ويمكننا أن نذكر بوصفه أمراً عجيبًا أنه في Hypnerotomachia لبوليفيلو Polifilo، المكتوب في ١٤٦٧، والمطبوع في ١٤٩٩، ورقة ١٦٨أ fol. 68a، توجد فقرة قصيرة بالعبرية؛ وبالعكس لا تجيء العبرية في الطبعات الألدينية Aidine قبل ١٥٠١. ويقدم دى جوبرناتيس De Gubernatis علماء العبرية (صفحة ٨٠)، ولكن الأسناد الثقات لم يُقتبس لهم بصورة مفردة. (وتم إغفال ماركو ليبّومانّو Marco Lippomanno؛ انظر شتاينشنايدر في الكتاب المذكور أسفله). ويتم ذكر باولو دى كانالى Paolo de Canale بوصفه عالمًا عبريًا على يد بيير. ڤاليريان Pier. Valerian, De Infel. Literat., ed. Mencken, p. 296؛ وفي ١٤٨٨ أستاذًا في بولونيا Mag. Vicentiua; cf. Costituzione, Discipline e Riforme dell' Antico Studio Bolognese: Memoria del Prof. Luciano Scarabelli (Piacenza, 1876)؛ وفي ١٥١٤ أستاذًا في روما، أجاريوس جيداسيريوس Agarius Guidacerius، طبقًا لجريجوروفيوس Gregorovius, viii, 292، والفقرات المقتبسة هناك. وعن جيداسيريوس انظر شتاينشنايدر Steinschneider, Bibliogr. Handbuch, pp. 56, 157-161 (Leipzig, 1859).

(٣٩) وتأثير النشاط الأدبي لليهود في إيطاليا من الكبر والتوسع بحيث لا يمكن أن يمر في صمت. والفقرات التالية، التي، بدون أن نُحمِّل النص ما لا يطيقه، أحلتها إلى الهوامش، هي بكليتها مادة الاتصالات التي أرسلها لي الدكتور م. شتاينشنايدر، من برلين، الذى انتهز هذه الفرصة لأعبر له عن شكرى لمساعدته الودودة المستمرة. وقد قدم برهاناً مستفيضاً عن الموضوع في بحثه العميق والمفيد Letteratua Italia-na dei Giudei, in th review Il Buonatotti, vols. vi, viii, xi, xii (Rome, 1871-77; also printed separately)، الذى أحيل إليه القارئ.

لقد عاش كثير من اليهود فى روما فى عهد المعبد الثانى. وقد تبنوا بدقة اللغة والحضارة السائدة فى إيطاليا بحيث أنه حتى على مقابرهم لم يستخدموا النقوش العبرية، بل اللاتينية واليونانية (المنقولة على يد جاروتشى Garucci؛ انظر شتاينشنايدر Steinschneider, Hebr. Bibliogr., vi, p. 102, 1863).وفى إيطاليا السفلى استمر تعليم اليونانية خاصة خلال العصور الوسطى بين السكان بصفة عامة، وبصفة خاصة بين اليهود، الذين منهم من يقال عنهم إنهم علّموا فى جامعة ساليرنو، ونافسوا المسيحيين فى الإنتاج الأدبى (انظر شتاينشنايدر Cf. Steinschneider, Donnolo, in Virchow's Archiv., Bd. 39, 40). وهذه السيادة للحضارة الإغريقية استمرت حتى غزا العرب الشراقنة إيطاليا السفلى. ولكن قبل هذا الغزو كان يهود وسط إيطاليا يجاهدون فى سبيل المساواة أو التميز على إخوتهم فى الجنوب. وتمركز التعليم اليهودى فى روما، ومن هناك انتشر، فى وقت مبكر منذ القرن السادس عشر، إلى قرطبة والقيروان وجنوب ألمانيا. وعن طريق هؤلاء المهاجرين أصبحت اليهودية الإيطالية معلمة الجنس كله. وعن طريق أعمالها، وبخاصة عن طريق العمل Aruch لناتان بن بيكيل Nathan ben Jechiel (1101)، وهو قاموس عظيم للتلمود والمدراشية والتارجوم، "الذى، بالرغم من عدم تكوّنه بواسطة روح علمية أصيلة، يقدم مخزونًا ثريًا من المحتوى ويعتمد على أسناد ثقات مبكرين بحيث أن كنوزه لم تستنفد حتى الآن تماماً"، فإنها تمتعت بطريق غير مباشر بنفوذ عظيم (انظر أبراهام جايجر Abraham Geiger, Das Judenthum und seine Geschichte, Bd. ii, p. 170, Breslau, 1865; and the same author's Nachgelassene Schriften, Bd. II, pp. 129 and 154, Berlin, 1875). وبعد ذلك بقليل، فى القرن الثالث عشر، جعل الأدب اليهودى فى إيطاليا اليهود والمسيحين على اتصال، وتلقى من خلال فريديريك الثانى، وربما أكثر على يد ابنه مانفرد، نوعاً من المصادقة الرسمية. وعن هذا الاتصال فإن لدينا دليلاً فى حقيقة أن إيطاليًا، هو نيكولو دى جيوفيناتزو Niccolò di Giovinazzo، درس مع يهودى، هو موسى بن سالومو Moses ben Salomo، الترجمة الإيطالية لعمل بن ميمون الشهير More Nebuchim؛ وعن هذه المصادقة فى حقيقة أن الإمبراطور، الذى كان متميزًا بحرية تفكيره كمثل تميزه بحبه للآداب الشرقية، كان من المحتمل أنه السبب فى أن هذه الترجمة اللاتينية قد تمت، وأرسل فى طلب أناتولى Anatoli الشهير من بروفانس إلى إيطاليا، ليترجم أعمالاً لابن رشد إلى العبرية (انظر شتاينشنايدر Cf. Steinscneide, Hebr. Bibliogr., xv, 86، ورينان Renan, L'Averroes et l'Averroisme. p. 290, 3rd. ed., Paris, 1866). وهذه الإجراءات تثبت معرفة اليهود المبكرين باللاتينية، التى جعلت التواصل ممكنًا بينهم وبين المسيحيين– وهو تواصل واختلاط يحمل كلاً من صفات الصداقة أحيانًا وأحياناً أخرى صفات الهجوم العنيف. وهناك المزيد فى أن أناتولى، هيليل بن صامويل Hillel ben Samuel، فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، كرس نفسه للأدب اللاتينى؛ وهو قد درس فى إسبانيا، ثم عاد إلى إيطاليا، وهنا ترجم ترجمات كثيرة من اللاتينية إلى العبرية؛ ومن بينهم كتابات لهيبوقراط فى نسخة لاتينية. (وقد طبعت فى ١٦٤٧ على يد جابوتيوس، واحتسبت على أنها من تأليفه). وفى هذه الترجمة فهو يقدم كلمات إيطالية قليلة على سبيل الشرح، وبذلك فيما يحتمل، أو عن طريق نهجه الأدبى بأكمله، وضع نفسه فى موقف يسمح بتلقى اللوم لاحتقاره المذاهب اليهودية.

ولكن اليهود ذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك. فعند نهاية القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر اقتربوا بشدة من العلم المسيحى ومن ممثلى ثقافة عصر النهضة بحيث أن واحداً منهم، هو جودا رومانو Giuda Romano، فى سلسلة من الكتابات غير المطبوعة حتى ذلك الحين، أعمل جهده بحمية فى الفلسفة

المدرسانية، وفي أحد الأبحاث استخدم كلمات إيطالية ليفسر تعبيرات عبرية. وهو واحد من أوائل من فعلوا ذلك (انظر شتاينشنايدر .(Steinschneider, Giuda Romano, Rome, 1870وآخر، هو ابن عم لجودا اسمه مانويللا Manoella، وهو صديق لدانتي، كتب في تقليد له نوعًا من الكوميديا الإلهية بالعبرية، وفيها يمجد دانتي، وندب موته أيضًا في أغنية إيطالية (انظر أبراهام جايجر -Abraham Geiger, Jüd. Zeitsch., v, 286-331, Breslau, 1867). وثالث، هو موسى ريتي Mose Riete، المولود قرب نهاية القرن، كتب أعمالاً بالإيطالية (وتوجد عينة منها في كتالوج المخطوطات العبرية، لايدن، ١٨٥٨). وفي القرن الخامس عشر يمكننا أن ندرك بوضوح تأثير ونفوذ عصر النهضة في ميسير ليون Messer Leon، وهو كاتب يهودي الذي، في Rhetoric، يستخدم كوينتيليان وشيشرون بالإضافة إلى الأسناد الثقات اليهود. ومن أهم أشهر الكتاب اليهود في إيطاليا في القرن الخامس عشر كان إلياه ديل ميديجو Eliah del Medigo، وهو فيلسوف كان يعلِّم بصورة علنية كيهودي في بادوا وفلورنسا، وقد اختير ذات مرة بواسطة مجلس النواب الفلورنسي كمحكم في نزاع فلسفي (انظر أبراهام جايجر .(Abrahan Geiger, Nachgelassene Schriften, Bd. iii, 3, Berlin, 1876). وكان إلياه ديل ميديجو معلم بيكو ديللا ميراندولا؛ وبالإضافة إليه جوكانان اليمانّو -Jochananan Alemanno انظر أيضاً شتاينشنايدر ,Cf. Steinschneider, Polem. U. Apolog. Lit., Anh. 7 25وقائمة اليهود المثقفين العلماء في إيطاليا قد تنهي بذكر كالونيموس بن داڤيد Kalonymos ben David وأبراهام دي بالميس Abraham de Balmes مات ١٥٢٣)، والذي يعزى إليه الجزء الأكبر من ترجمات ابن رشد من العبرية إلى اللاتينية، والتي كانت لا تزال تقرأ علنًا في بادوا في القرن السابع عشر. وإلى هذا العالم يمكن أن يضاف ألدوس Aldus اليهودي، وجيرسون سونتشينو Gerson Soncino، الذي لم يجعل مطبعته فقط مركز الطباعة اليهودي، بل، عن طريق نشر الأعمال الإغريقية، تعدى على أرض ألدوس العظيم نفسه (انظر شتاينشنايدر -Steinschneider, Gerson Soncino und Aldus Manutius, Berlin, 1858). ع. L. W.

(٤٠) انظر بيير. ڤاليريان. ,Pier. Valerian., De Infel. Lit., ed. Menckem, 301، متحدثًا عن مونجاجو .Mongajo ويعرفه جوبرناتيس Gubernatis، صفحة ١٨٤، بأندريا ألباجو -Andrea Alpago من بيلليمو Bellemo، الذي يقال إنه أيضًا تعلم الآداب العربية وقام بالترحال في الشرق. وعن الدراسات العربية بصفة عامة، انظر جوبرناتيس صفحات ١٧٣ وما بعدها. وعن ترجمة حدثت في ١٣٤١ من العربية إلى الإيطالية انظر أيضًا ناردوتشي Cf. Narducci, Intorno ad Una Tradizione Italiana di Una Composizione Astronomica de Alfonso X Rè di Castiglia (Rome, 1865). وعن راميوسيو Ramusio انظر سانسوڤينو Sansovino, Venezia, fol. 250 .

(٤١) انظر جوبرناتيس صفحة ١٨٨. والكتاب الأول يحتوي صلوات مسيحية باللغة العربية؛ والترجمات الأولى إلى الإيطالية من القرآن ظهرت في ١٥٤٧. وفي ١٤٩٩ نلتقي مع أمثلة عربية قليلة ليست ناجحة جدًا في عمل بوليفلو .Polifilo, b. 7a وعن بدايات الدراسات المصرية أنظر جريجورڤيوس ,Gregorovius viii, p. 304 .

(٤٢) وبخاصة في الرسالة المُهمّة لعام ١٤٨٥ إلى إيرمولو باربارو Ermplo Barbaro، في .Ang. Politian Epistolæ, lib. ix. انظر أيضًا جو. بيتشي .Cf. Jo. Pici, Oratio de Hominis Dignitate وعن هذه المقالة انظر نهاية القسم الرابع؛ وعن بيكو نفسه سيُقدم المزيد في القسم السادس، الفصل الرابع.

الفصل الرابع

المذهب الإنسانى فى القرن الرابع عشر

والآن، من هؤلاء القوم الذين تولوا الوساطة بين عصرهم هم وبين عالم عهيد مبجل، وجعلوا من ذلك العصر الأخير عنصراً رئيسياً فى ثقافة الأول؟

كانوا جمهرة من أشد الناس تنوعًا، يتخذون اليوم وجهًا ويتخذون فى غدهم وجهًا آخر؛ ولكنهم كانوا يحسون أوضح إحساس، كما أن ذلك كان من المعترف به تمامًا فى زمانهم، أنهم يشكلون عنصراً جديداً تمام الجدة فى المجتمع. وربما أمكن اعتبار الشعراء المتجولين clerici vagantes بالقرن الثانى عشر، الذين أشرنا إلى شعرهم (القسم الثالث، الفصل الأول)، الرواد الأول لهم- من حيث نفس الوجود غير المستقر، والنظرات الحرة ، بل والأكثر من الحرة فى الحياة، مع وجود جرثومة وبذور نفس الميول الوثنية فى شعرهم على كل حال. ولكن ظهرت حضارة جديدة منافسة لثقافة العصور الوسطى بأسرها التى كانت كهنوتية جوهرًا وكانت الكنيسة تحدب عليها وترعاها، وأسست تلك الحضارة الجديدة نفسها على تلك الحضارة التى تركزت على الجانب الآخر من العصور الوسطى. وأصبح ممثلوها الفعالون ذوى نفوذ عظيم[١] لأنهم كانوا يعرفون ما عرف القدماء، ولأنهم كانوا يحاولون أن يكتبوا كما كان يكتب القدماء، ولأنهم بدءوا يفكرون، وسرعان ما شرعوا يحسون، كما كان القدماء يفكرون ويشعرون. وتشكل التراث الذى كرسوا له أنفسهم من خلال ألف موضع فأصبح انفتاحاً جديداً أصيلاً.

ويتفجع بعض الكتاب المحدثين لأن جرثومات ثقافة أكثر استقلالاً كما أنها قومية فى جوهرها، كالتى بفلورنسا حوالى عام ١٣٠٠، قد اكتسحت فيما بعد اكتساحًا تامًا

على يد الإنسانيين(٢). إذ لم يكن ثمة، فيما يخبروننا، فرد واحد بفلورنسا لا يعرف القراءة، بل لقد بلغ الأمر أنه حتى المكارية (الحمارين) كانوا يتغنون بأشعار دانتي؛ وكانت خير المخطوطات الإيطالية التي نملكها اليوم تنتسب أصلاً إلى صناع فلورنسيين مهرة؛ وعند ذلك صار في الإمكان إصدار دائرة معارف شعبية، مثل دائرة معارف تيسورو Tesoro التي وضعها برونيتو لاتيني Brunetto Latini؛ وتأسس ذلك كله على القوة وسلامة الخلق الراجع إلى المشاركة الشاملة في الشئون العامة وإلى التجارة والأسفار وإلى الذم المنتظم المتواصل للبلادة والكسل. ويذهب الناس إلى أن الفلورنسيين كانوا في ذلك الوقت موضع الاحترام ويحظون بنفوذ عظيم بكل أرجاء العالم، كما أن البابا بونيفاس الثامن أطلق عليهم، ولم يكن ذلك بغير سبب وجيه، "العنصر الخامس". وأدى تقدم المذهب الإنساني السريع بعد عام ١٤٠٠ إلى إنزال الشلل بالدوافع القومية. فمنذ ذلك الحين فصاعداً أصبح الناس لا ينظرون إلى العصر العتيق إلا من أجل الحصول على حل لكل مشكلة، ونتيجة لذلك سمحوا للأدب أن يهبط إلى مجرد الاقتباس. بل إن نفس سقوط الحرية المدنية يمكن أن يعزى جزئيًا إلى ذلك كله، وذلك نظرًا لأن "التعلم الجديد" كان يقوم على الطاعة للسلطة، ويضحي بالحقوق البلدية Municipal من أجل القانون الروماني، وبذلك اتجه إلى الحصول على رضاء المستبدين، وحصل عليه فعلاً.

وستشغلنا هذه التهم بين حين وآخر في مرحلة تالية من مراحل بحثنا هذا ،عندما يحين الوقت الذي نحاول فيه إنزالها عند مستوى قيمتها الحقيقية ووزن الخسائر قبالة المكاسب التي حققتها هذه الحركة. فأما الآن في لحظتنا الراهنة فلا بد أن نقصر أنفسنا على إظهار كيف حدث بالضرورة أن الحضارة، حتى حضارة القرن الرابع عشر القوي، مهدت الطريق للنصر التام للمذهب الإنساني، وكيف حدث بالدقة والضبط أن أعظم ممثلي الروح القومي الإيطالي كانوا هم أنفسهم عين الرجال الذين فتحوا على مصراعيه رتاج الإخلاص الذي لا حد له للعالم العهيد في القرن الخامس عشر.

ولنبدأ بدانتي. فلئن سبق أن ترأست الثقافة الإيطالية جماعة متعاقبة من العباقرة المتساوين قدراً، مهما تكن العناصر التي امتصتها وتمثلتها طبائعهم من العهد العتيق،

فإنهم على ذلك لم يفتهم الاحتفاظ ببصمة قومية مميزة خاصة وملحوظة بقوة. بيد أنه لم تتمخض إيطاليا ولا أوربا الغربية عن دانتي ثان، كما أنه كان ولا يزال الرجل الذى دفع لأول مرة العالم العهيد إلى منطقة الصدارة من الثقافة القومية. فهو فى "الكوميديا الإلهية "Divine Comedy يعامل العالمين العهيد والمسيحى لا، والحق يقال،على قدم المساواة فى السلطان، بل على أنهما يسيران متوازيين أحدهما إلى جوار الآخر. وكما حدث بالضبط فى فترة سابقة من العصور الوسطى أن الرموز والمرموز إليهم كانت تلتمس فى تاريخ العهدين القديم والجديد للكتاب المقدس، فكذلك يفعل دانتى، فإنه يجمع على الدوام بين صورة مسيحية وأخرى وثنية لأية حقيقة واحدة[٣]. وينبغى ألا يغيب عن البال أن الدورة المسيحية للتاريخ والأسطورة كانت مألوفة لدى الناس، بينما الدورة القديمة مجهولة نسبيًا، وكانت مملوءة بالأمل الموعود والاهتمام، ولا بد أنها بالضرورة كانت تملك اليد العليا وقصب السبق فى رهان المنافسة على العطف الشعبى العام يوم لم يعد هناك دانتى يمسك بزمام التوازن بين الطرفين المتنافسين.

ولا يخفى أن بترارك، الذى يعيش حيًا فى ذاكرة معظم الناس فى زماننا هذا بوصفه بصفة خاصة شاعرًا إيطاليًا عظيمًا، مدين بشهرته بين معاصريه لحقيقة كونه بالأحرى، ضربًا من المثل الحى للعالم العهيد، وأنه قلد جميع أساليب الشعر اللاتينى، وحاول بكتاباته الضخمة المسهبة التاريخية والفلسفية لا أن يقتلع من الجذور أعمال القدماء، بل أن يعرف الناس جميعًا بها. وكتب رسائل، كانت أبحاثًا فى مواد لها منابع قديم ممتع، حصل من ذلك على ذيوع صيت لا نستطيع فهمه ولكنه كان طبيعيًا فى عصر حرم من الكتاب الموجز (ذى الحجم المتوسط). وكان بترارك نفسه على ثقة ورجاء بأن تجلب له كتاباته اللاتينية الشهرة عند معاصريه وعند الخلف على سواء، كما أنه كان قليل التفكير والاهتمام بقصائده الإيطالية، كما أخبرنا بذلك فى مناسبات عدة، ولقد كان يرضى بأن يدمرهن بسرور لو أنه استطاع محوهن من ذاكرة الناس.



شكل (١٠٤) تتويج إينياس سيلڤيوس للشعراء

رسم بينتوريكيو

سيينا، مكتبة الكاتدرائية

تصوير أليناري

وكانت تلك هى حال بوكاتشيو بالضبط. فعلى مدى قرنين من الزمان، لم يكن أحد يعرف فيهما إلا القليل عن كتابه الديكاميرون Decamerone (أى الليالى العشر)[٤] شمال جبال الألب، طبقت شهرته الآفاق بكل أرجاء أوروبا، وذلك لسبب بسيط هو مصنفاته فى الرطازات القديمة Mythology والجغرافيا والسيره (ترجمة الحياة)، وإن أحد هذه الكتب وهو De Geneologia Dearum يحتوى فى كتابيه الرابع عشر والخامس عشر ذيلاً رائعًا، يناقش فيه مركز المذهب الإنسانى الذى كان لا يزال فتياً آنذاك بالنسبة لعصره. وينبغى لنا ألا تضللنا إشاراته الضيقة المانعة إلى الشعر poesia، وذلك لأن الفحص الأدق يدل على أنه يقصد بهذه التسمية جميع ألوان النشاط العقلى للعلماء الشعراء[٦]. فهذا هو الذى يصارع أعداءه بقوة بالغة- ألا وهم الأفراد الطائشون ذوو الجهل المطبق الذين لا يملكون طاقة ولا روحا إلا من أجل الخلاعة؛ وعالم اللاهوت السوفسطائى الذى يرى فى نبع الهيليكون الكستلانى وأجمة أبوللو حماقات سخيفة؛ والمحامون الشرهون، الذين كان الشعر لديهم يعد شيئًا زائداً غير ضرورى، لأنه أمر لا يمكن الوصول إلى المال عن طريقه، وأخيراً الرهبان المتسولون (mendacious) الذين يوصفون بطريقة اللف والدوران، ولكن بوضوح كاف، والذين كانوا يفرطون بحرية مطلقة فى اتهاماتهم للوثنية واللا أخلاقية[٧]. ثم يعقب ذلك الدفاع عن الشعر، والبرهان بأن شعر القدماء وشعر تابعيهم المحدثين لا يحتوى على أى شئ كاذب، ثم الثناء عليه، وبخاصة على المعانى الأكثر عمقًا والمنطوية على المجازات والاستعارات التى ينبغى لنا أن ننسبها دومًا إليه، وعن ذلك الغموض المحسوب الذى يقصد منه استبعاد العقل الغبى للجاهل.

وأخيراً عمد الكاتب، فى إشارته إلى عمله الحافل بالعلم الغزير[٨]، إلى تبرير العلاقة الجديدة التى أيد فيها عصره الوثنية. وهو يدفع بأن الوضع كان مختلفًا تماماً، يوم اضطرت "الكنيسة الأولى المبكرة" أن تشق سبيلها قتالاً بين ربوع الوثنيين. فأما الآن -"بحمد يسوع المسيح"!- فقد قويت مُنّة الدين الحق وتدمرت الوثنية وأصبح زمام المعسكر المعادى فى قبضة الكنيسة الظافرة. لقد أصبح من الممكن الآن مس الوثنية ودراستها بصورة توشك أن تكون تامة (fere) دون التعرض لأى خطر. ومع ذلك فإن بوكاتشيو لم يتمسك على الدوام بهذه وجهة النظر الليبرالية المتحررة. ويقوم أساس ارتداده جزئيًا إلى قابلية خلقه للتقلب والحركة، وجزئيًا على التحيز المغرض الذى لم

يبرح قوياً واسع الانتشار بأن مدارسة الكلاسيكيات كانت مما لا يليق برجال الكهنوت. وينبغى أن يضاف إلى هذه الأسباب التحذير الذى قدم إليه باسم بييترو بترونى Pietro Petroni المتوفى من الراهب جيواكينو تشيانى Gioacchino Ciani بأن يقلع عن دراسات الوثنية خشية التعرض للموت العاجل. وتبعاً لذلك عقد العزم على التخلى عنها، فلم يثنه عن عزمه الجبان إلا الحض الجدى الذى وجهه إليه بترارك، وبفضل التوضيح القدير الذى قدمه ذلك الأخير بأن فى الإمكان التوفيق بين المذهب الإنسانى وبين الدين[9].



شكل (٥-١) نصب تذكارى لقبر كارلو أريتينو
لديسيديريو دا ستينيانو
فلورنسا، سان كروتشى

وهكذا أصبحت هناك قضية جديدة في العالم وطبقة جديدة من الرجال للمحافظة عليها. ومن البلادة أن يسأل المرء ألم تكن هذه القضية جديرة بأن تتوقف في مسيرتها إلى النصر، وأن تكبح نفسها متعمدة، وأن تتنازل عن المكان الأول إلى العناصر القومية البحتة للثقافة. ولم يتهيأ لأي اعتقاد بأن يرسخ جذوره عميقة وثابتة في العقل الشعبي أكثر من ذلك الاقتناع بأن العالم العهيد كان أعلى لقب يؤهل للمجد تملكه إيطاليا.

وكان هناك حفل رمزي مألوف لدى هذا الجيل من العلماء والشعراء ظل حيًا طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وإن فقد العاطفة الأعلى التي ألهمته، وهو تتويج هامة الشاعر بإكليل الغار. والأصل إبان هذا النظام في العصور الوسطى غامض، كما أن الطقس المعمول به في الحفل لم يصبح ثابتًا قط. كان الأمر كله مظاهرة عامة، كان تعبيراً ظاهريًا ومرئياً للحماسة الأدبية[١٠]، فطبيعي من ثم أن يكون شكله قابلاً للتغير. ويبدو أن دانتي نفسه كان يفهمه على أنه تكريس نصف ديني، فأبدى رغبته في أن يتوج بباقة الغار في موقع التعميد بكنيسة القديس جيوفاني، حيث تلقى تعميده[١١] هو نفسه مثل الآلاف من أطفال فلورنسا. ويقول كاتب ترجمته " كان في مستطاعه أن يتلقى التاج بأي مكان بفضل شهرته، ولكنه لم يرغب إلا في مسقط رأسه، ومن ثم فإنه مات دون أن يتوج". ومن نفس المصدر نعلم أن العادة نفسها كانت لا تزال عند ذاك غير شائعة، وكان الرأي فيها أنها موروثة ورثها الرومان القدماء عن الإغريق. وأحدث مرجع يمكن أن نرجع فيه إلى تلك الممارسات يوجد في المسابقات الكابيتولية(*) للموسيقيين والشعراء وغيرهم من الفنانين التي استنها دوميتيان تقليداً للإغريق، وتقام كل خمس سنوات، وهي عادة لعلها استمرت فترة من الزمن بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية؛ ولكن نظرًا لأنه قل من الرجال الآخرين من كان ليتجرأ على تتويج نفسه، كما شاء دانتي أن يفعل، ينشأ هناك سؤال هو: لمن تنتمي هذه الوظيفة؟ فإن البرتينو

(*) الكابيتولية Capitoline : نسبةً إلى الكابيتول في روما أو بالإله جوبيتر الكابيتوليني على أحد تلال روما السبع. (المترجم)

موسّاتو (انظر القسم الثانى، الفصل الثالث) تُوج فى بادوا فى عام ١٣١٠ على يد الأسقف ورئيس الجامعة. وتنافست جامعة باريس، التى كان رئيسها فلورنسيًا آنذاك (١٣٤١)، والسلطات البلدية فى روما على شرف تتويج بترارك. وكان الرجل الذى نصب نفسه ممتحنًا له، وهو روبرت ملك أنجو، يتمنى بسرور لو قام بمراسم الاحتفال فى نابولى، ولكن بترارك فضل أن يتوج على الكابيتول على يدى سناتور روما (أى عضو الشيوخ). وظل هذا الشرف طويلاً أعلى مطمح للرجال، فهكذا بدا لعين چاكوبوس بيزينجا Jacobus Pizinga، وهو حاكم صقلى لامع[١٢]. ثم جاءت رحلة شارل الرابع الإيطالية، الذى كان يتسلى بأن يتملق غرور الطامحين من الرجال، وأن يبهر الحشود الجاهلة بالحفلات والمراسم البهية الجمال. حتى إذا بدأ من الخرافة القائلة بأن تتويج الشعراء كان حقًا وامتيازًا مقصورًا على أباطرة روما الأقدمين، فهو من ثم حقه وامتيازه الخاص، فإنه توج فى اليوم الخامس عشر من مايو ١٣٥٥ العالم الفلورنسى زانوبى ديللا ستradا Zanobi della Strada فى مدينة بيزا، فتسبب بذلك فى تكدر بترارك واستيائه، مما جهله يشكو قائلاً: "لقد جسر الغار المتبربر على تزيين هامة الرجل الذى تهواه عرائس الفن والشعر (Muses) الأوسيانية"(*)، كما تسبب ذلك فى امتلاء نفس بوكاتشيو بعظيم الاشمئزاز، فأبى أن يعترف بشرعية هذا التكليل البيزى lauren Pisana والواقع إنه من العدل أن يتساءل المرء عن أى حق لهذا الغريب، نصف السلافونى المولد، يخول له أن يجلس حكمًا فى جدارة الشعراء الإيطاليين. على أن الأباطرة ظلوا منذ ذلك الحين فصاعداً يكللون الشعراء بالغار حيثما ذهبوا فى أسفارهم؛ كما أن الباباوات وغيرهم من الأمراء اتخذوا لأنفسهم هذا الحق نفسه فى القرن الخامس عشر، حتى لم يعد يحسب فى النهاية أى اعتبار للمكان أو الظروف. وحدث بروما، فى عهد سيكستوس الرابع، أن قدمت أكاديمية[١٤] بومبونيوس لايتوس

(*) الأوسيانية :Ausonian هذا هو الاسم الذى اختص به فرجيل الإيطاليين فى الإينيادة. (المترجم)

Pomponius Laetus الإكليل استناداً إلى سلطانها الخاص. ولكن أوتى الفلورنسيون من حسن الذوق ما جعلهم لا يتوجون مشاهير الإنسانيين بينهم إلا بعد رحيلهم عن هذه الدنيا. فهكذا توج كل من كارلو أريتينو وليوناردو أريتينو، وألقى كلمة التأبين للأول عند ذاك ماتّيو بالميرى، وقال الكلمة عن الثانى جيانّوتزو مانيتّى، أمام أعضاء المجلس وعلى ملأ من الشعب بأجمعه، حيث كان الخطيب يقف عند رأس النعش الذى ترقد عليه الجثة موشحة فى ثوب من الحرير(١٥). وفوق هذا فإن كارلو أريتينو كُرِّم كذلك ببناء قبر له بكنيسة القديس كروتشى S. Croce، يعد من أجمل ما شيد فى عصر النهضة بأكمله.

هوامش الفصل الرابع - القسم الثالث

(١) وتقديرهم لأنفسهم يبينه بوجّيو ((De Avaritia, fol. 2)، الذي طبقًا له يستطيع مثل هؤلاء الأشخاص أن يقولوا إنهم عاشوا (se vixisse) وكتبوا كتبًا مثقفة وبليغة باللغة اللاتينية وترجموا اليونانية إلى اللاتينية.

(٢) وبخاصة ليبرى .Libri, Histoire des Sciences Mathém., ii, 159 sqq., 258 sqq .

(٣) الجحيم Purgatorio, xviii، يحتوى حالات مدهشة. وتسرع مارى أعلى الجبال، وقيصر إلى إسبانيا؛ ومارى فقيرة وفابريشيوس غير مهتم. وقد يمكننا هنا أن نبدى ملحوظة حول المقدمة المرتبة تاريخيًا للسيبيليين Sibyls في التاريخ الوثني للعصور العهيدة كما حاولها أوبيرتي في الديتّاموندو -Dittamon do (i, cap. 14, 15)، حوالي عام ١٣٦٠

(٤) والترجمة الألمانية الأولى للديكاميرون Decamerone، على يد هـ. شتاينهوفيل H. Steinhovel، طبعت في ١٤٧٢، وسرعان ما أصبحت شعبية. والترجمة للديكاميرون كلها كانت تقريبًا في كل مكان تسبقها ترجمات قصة جريزيلدا Griselda، التي كتبها بترارك باللاتينية.

(٥) وهذه الكتابات اللاتينية لبوكاتشيو تمت مناقشتها بروعة على يد شوك Schück, Zur Characteristik des ital. Hum. im 14 und 15 Jahrh. (Breslau, 1865)؛ وفي مقال في فليكايسن وماسيوس Fleckeisen and Masius, Jahrbücher für Phil. und Pädag., Bd. xx (1874) .

(٦) وتعنى كلمة Poeta، حتى في عمل دانتي (La Vita Nouva, p. 47)، فقط كاتب الأشعار اللاتينية، بينما تستخدم في الإيطالية تعبيرات .Rimatore, Dicitore per rima ومن الحقيقي أن الأسماء والأفكار أصبحت مختلطة بمضي الزمن. وعن أن بترارك دافع عن الشعر، وكيف، معروف جيدًا .Cf (Geigo, Pet., pp. 113-117). وبالإضافة إلى الأعداء الذين ضيقوا عليه الخناق بالاشتراك مع بوكاتشيو، كان عليه أن يواجه الأطباء. (Cf. Invectiræ in Medicum Ajurgantem, lib. i and ii) .

(٧) وشكا بترارك أيضًا عندما كان في أوج شهرته جدًا في لحظات الكآبة السوداوية أن نجمه الشرير قرر له أن يقضي سنواته الأخيرة بين الأوغاد .(extremi fures) في الرسالة المتخيلة إلى ليفي .Livy, Epist Fam., ed. Fracassetti, lib. i and ii .

(٨) وفي رسالة تالية من بوكاتشيو إلى جاكوبوس بيزينجا .Jacobus Pizinga (Opere Volgari, vol xvi)، يقصر نفسه بصورة أكثر صرامة في الشعر الحق. ومع ذلك فإنه يعرّف الشعر بأنه فقط هو الذي يعالج العصر العهيد، ويتجاهل الشعراء الجوالون Troubadours .

(٩) انظر بترارك Petrarch, Epist. Senil., lib. i, Ep.5 .

(١٠) بوكـاتشـيـو Boccaccio (Vita di Dante, p. 50): "La quale (laurea) non scienza ac- cresce ma è dell'acquistata certissimo testimonio e ornamento" .

(١١) انظرالفردوس ..Paradiso, xxv, 1 sqq وانظر بوكاتشيو Boccacio, Vita di Dante, p. 50. والنص هو كـمـا يلي: "Sopra le fonti di San Giovanni si era disposto de coronare". انظر أيضًا Cf. Paradiso,, i, 25 .

(١٢) انظر رسـالة بوكـاتشـيـو له في Opere Volgari, vol. xvi, p. 36: "Si prætdt Deus, conce- dente senatu Romuleo. . ." .

(١٣) انظر مـاتيو ڤيللاني Matt. Villani, v, 26. وكان هناك موكب مهيب على ظهور الخيل حـول المدينة، عندما صـاحب تابعو الإمبراطور، أي بارونات baroni، الشاعر. انظر بوكاتشيو في الموضع نفسه loc. cit.. وانظر بتـرارك ..Petrarch, Invectivæ contra Med. Præf انظر أيضًـا Epist. Fam. Volgarizzate da Fracassetti, iii, 128. وعن خطبة زانوبي Zanobi في حفل التتويج انظر فريديونج Friedjung, loc. cit., pp 308 sqq.. بالموضع نفسه. وقد تم أيضًا تتويج فازيو ديلي أوبيرتي Fazio degli Uberti، ولكنه لم يكن معلومًا أين وعلى يد من. ويشك رينيير Renier في أنه توج أبدًا (Liriche di Fazio degli Uberti, pp.ccvi sqq., Florence, 1883)- ل. ج. G. L. .

(١٤) انظر چاكوبو فولاتيرّانوس Jac. Volaterranus, in Murat., xxiii, col. 185 .

(١٥) انظر ڤيسبازيانو فيورنتينو صفحات ٥٧٥، ٥٩٨. انظر Vita Jan. Manetti, in Murat., xx, col. 543. وشهرة ليوناردو أريتينو كانت من العظمة في حياته بحيث أن الناس جاءوا من جميع الأنحاء لمجرد رؤيته؛ وقد جثا إسباني على ركبتيه أمامه (انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٥٦٨). وقد خصص حاكم مدينة فيرارا مبلغاً قدره مائة دوقية لإنشاء أثر لتخليد ذكر جوارينو، وكان في ذلك الوقت، ١٤٦١، مبلغًا ضخمًا جدًا. وعن تتويج الشعراء في إيطاليا توجد مجموعة جيدة ملخصة من الملاحظات والهوامش في كتاب فافر Favre, Mélanges d'Hist. Lit., i, 65 sqq.(1856) .

الفصل الخامس

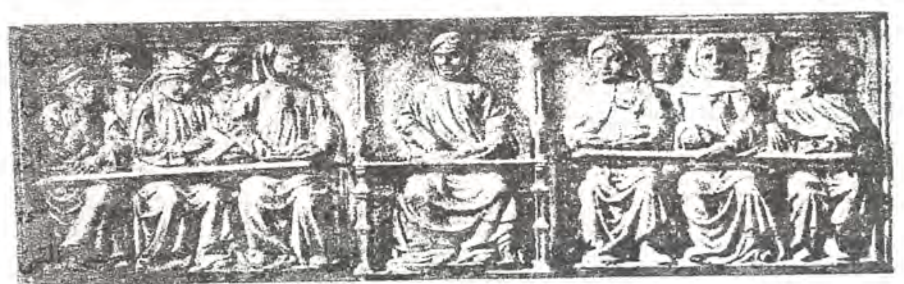
الجامعات والمدارس

إن سلطان العالم العهيد Antiquity على الثقافة، الذى نتحدث الآن عنه، يفترض مقدمًا أن "التعلم الجديد" تملك ناصية الجامعات. وتم ذلك على هذا النحو، ولكنه لم يبلغ على الإطلاق إلى المدى المأمول، ولم يحصل على النتائج التى ربما كانت تتوقع.

فإن قلة من الجامعات الإيطالية[١] هى التى أبرزت نفسها فى أكمل صورة لقوتها حتى أقبل القرنان الثالث عشر والرابع عشر، حين تهيأ لزيادة الثراء أن تجعل فى الإمكان توجيه عناية منظمة إلى التعليم. وفى البداية كانت هناك أنواع ثلاثة من الأستاذيات- أولاها للقانون المدنى، والأخرى للقانون الكنسى، وثالثتها للطب؛ وأضيفت بمضى الوقت أستاذيات لعلم البيان وللفلسفة وللفلك، وكان مفهوم العلم الأخير على وجه الجملة، وإن لم يكن على الدوام، متطابقًا مع التنجيم. وكانت المرتبات تتراوح تراوحًا بالغًا باختلاف الحالات. وكان مبلغ إجمالى يرصد فى بعض الأحيان. ونشطت المنافسة بانتشار الثقافة، حتى لقد كانت الجامعات المختلفة تحاول أن تغرى المعلمين الممتازين بالانتقال إليها، وفى هذه الظروف قيل أن بولونيا كرست فى بعض الأحيان نصف دخلها العام ٢٠,٠٠٠ دوقية للجامعة. وكانت التعيينات تقصر عادة على فترة معينة من الزمان[٢]، فتجعل حينًا لمدة نصف سنة فقط، حتى لقد كان المعلمون يضطرون أن يعيشوا عيش التجوال كالممثلين سواء. على أن التعيين مدى الحياة لم يكن مع ذلك أمرًا غير معروف. وكان يفرض على المعلم أحيانًا وعد بأن لا يعلم فى مكان آخر ما سبق أن علمه فى مكان ما. وكان هناك كذلك أساتذة متطوعون لا يتناولون أجورًا.

ومن بين الكراسى التى سبق ذكرها، كان علم البيان يطلبه وينشده الإنسانيون بوجه خاص؛ ومع ذلك فإن إلمام الواحد منهم بالعلوم القديمة وموضوعاتها هو الفيصل

الذي كان يحدد إمكان طموحه أو عدم طموحه إلى علوم القانون أو الطب أو الفلسفة أو الفلك. وكانت الأحوال الداخلية لعلوم ذلك الزمان متغيرة متقلبة كتغير الأحوال الظاهرية للمعلم. وكان أفراد معينون من رجال القانون والأطباء يتناولون أعلى المرتبات إلى حد بعيد بين الجميع، وكان الأولون منهم يعاملون كذلك بوجه رئيسي بوصفهم مستشارين في قضايا ومدعيات الدول التي كانت تستخدمهم. إذ حدث في بادوا أن محاميًا في القرن الخامس عشر حصل على مرتب مقداره ١٠٠٠ دوقية[٣]، كما قدم اقتراح يومًا بتعيين طبيب شهير بأجر سنوي قدره ٢٠٠٠ دوقية، مع منحه الحق في ممارسة العمل الخاص[٤]، كما سبق لذلك الرجل نفسه أن حصل على مبلغ ٧٠٠ فلورين ذهبي من بيزا. وعندما قبل المشرع بارتولوميو سوتشيني Bartlommeo Socini، وهو أستاذ في بيزا، أن تعينه البندقية في بادوا، وكان على وشك القيام بالرحلة إليها، اعتقلته الحكومة الفلورنسية ولم يفرج عنه إلا بعد سداده ١٨,٠٠٠ فلورين ذهبي على سبيل الكفالة[٥]. وإن التقدير الرفيع الذي كانت توضع عليه هذه الفروع العلمية ليوضح أمام أفهامنا السبب الذي كان من أجله الممتازون من علماء فقه اللغة (الفيلولوجيين) يوجهون أنفسهم نحو القانون والطب، بينما حدث من الناحية الأخرى أن كان الإخصائيون يضطرون أكثر فأكثر إلى احتياز شيء ما من الثقافة الأدبية الواسعة. وستتاح لنا الفرصة من فورنا للحديث عن عمل الإنسانيين في نواح أخرى من الحياة العملية.



شكل (١٠٦) المحاضر عن التاريخ
نحت من قبر المشرّع لورنزو بيني
بولونيا، الكاتدرائية

ومع ذلك فإن مكانة علماء الفيلولوچيا أو فقه اللغة بوصفهم ذاك، حتى عندما يكون المرتب عاليًا[٦]، ولا يحول دون الحصول على مصادر أخرى للدخل، كانت على الجملة مؤقتة وغير مؤكدة، حتى لقد كان مدرس بعينه يستطيع هو نفسه أن يرتبط مع عدد جم من المؤسسات. ومن الواضح أن التغيير كان مرغوبًا فيه من أجل التغيير نفسه، كما أن شيئًا جديدًا كان يتوقع من كل قادم جديد، وهو أمر كان طبيعيا فى عصر كان العلم فيه لا يزال فى دور التكوين والصنع، ويعتمد تبعًا لذلك إلى درجة غير قليلة على النفوذ الشخصى للمعلم. وكذلك أيضاً لم يكن يحدث على الدوام أن محاضراً عن المؤلفين الكلاسيكيين كان ينتمى حقًا لجامعة المدينة التى يدرس فيها. ويلغ من سهولة المواصلات ويسر وكثرة وسائل العيش المريح فى الأديرة وغيرها أن غدا القيام بمشروع خاص ممكنًا فى أحيان كثيرة. وفى العقود الأولى من القرن الخامس عشر[٧]، يوم كانت جامعة فلورنسا فى أزهى عصورها، ويوم كان رجال بلاط يوجينيوس الرابع، بل ربما حتى مارتن الخامس، يتزاحمون فى قاعات المحاضرات عندما كان كارلو أريتينو وفيليلفو يتنافسان على الحصول على أكبر عدد من الحضور، لم تقم هناك فحسب جامعة كاملة بين الأوغسطينيين التابعين للقديس سبيريتو S. Spirito، ولم تكن هناك فحسب جمعية من العلماء بين جماعة الكامالدوليسيين Camaldolesi التابعين لأنجيلى، بل وأفراد مميزون، يرتبون فرادى ومشتركين لتزويد أنفسهم وغيرهم بالتعليمين الفلسفى وفقه اللغوى (الفيلولوچى). ولم تكن هناك تقريبًا علاقة بين الدراسات اللغوية والعهيدية Antiquarian فى روما وبين الجامعة Sapienza، كما كانت تمتمد اعتمادًا قاطعًا تقريبًا على تعطف الفرادى من البابوات والكرادلة، أو على التعيينات فى دار المحفوظات البابوية. ولم تتم إعادة التنظيم الكبرى للجامعة Sapienza إلا فى عهد البابا ليو العاشر (١٥١٣)، بما حوت من المحاضرين الثمانية والثمانين، الذين كان من جملتهم رجال مقتدرون أكفاء، وإن لم يكن فيهم أحد من الدرجة الأولى، على رأس قسم الآثار (الأركيولوچيا Archaeology) ، ولكن هذا الالتماع الجديد كان قصير الأجل. وقد أسلفنا إليك الحديث موجزًا عن الأستاذيات الإغريقية والعبرانية فى إيطاليا (القسم الثالث، الفصل الثالث).

ولكي يتسنى لنا تدبيج صورة صحيحة لمنهج وطريقة التعليم العلمي التي كانت تتبع أنذاك ينبغي لنا أن نضرب صفحًا قدر جهد الطاقة عن نظامنا الأكاديمي الحالي. فإن الاختلاط بين المعلمين ومنازعات الجماهير، والاستخدام الدائم للاتينية، بل والإغريقية غالبًا، وكثرة تغيير المحاضرين، وندرة الكتب، كانت تضفي على الدراسات في ذلك الزمان لونًا لا نستطيع أن نتمثله أمام أنفسنا بغير جهد.

وكانت هناك مدارس لاتينية منبثة بكل مدينة ضئيلة الشأن، لم تكن على الإطلاق مجرد مدرسة إعدادية، فهي تهيئ الطلاب للتعليم الأعلى، بل لأنه في المرتبة الثانية، بعد القراءة والكتابة والحساب، كانت المعرفة باللاتينية ضرورة لازمة؛ ويتلو المنطق اللاتينية في المرتبة. ولا يفوتنا بوجه خاص أن هذه المدارس لم تكن تعتمد على الكنيسة، بل على المجلس البلدي (Municipality)؛ على أن بعضها كانت مجرد مشروعات خاصة للاستثمار.

وهذا النظام المدرسي، الذي كان يديره أفراد قلائل من الإنسانيين المبرزين، لم يبلغ فحسب درجة كمال أخاذ في التنظيم، بل لقد أصبح أداة لتعليم أعلى بالمعنى الحديث للعبارة. وقد اتصلت بتربية أطفال بيتين من بيوت الإمارة في شمال إيطاليا مؤسسات يمكن أن تعد شيئًا فريدًا في بابه.

وظهر في بلاط چيوڤان فرانتشيسكو جونزاجا بمدينة مانتوا (حكم ١٤٠٧-١٤٤٤) المعلم النابه الذكر فيتّورينو دا فيلتري[8] Vittorino da Feltre (ولد ١٣٧٩، ومات ١٤٤٦)، ويسمى أيضًا ڤيتُّوري داي رامبالدوني -Vittore dai Rambaldoni وكان يفضل أن يسمي المانتواني عن الفيلتريسي- وهو أحد أولئك الرجال الذين يكرسون حياتهم بأسرها لهدف كانت مواهبهم الطبيعية من أجله حرفة ومشغلة خاصة. لم يكد يكتب شيئًا، ثم عمد في الختام إلى تدمير القصائد القليلة التي كتبها في شبابه بعد أن استبقاها طويلاً في حوزته. لقد كان يدرس بجد لا ينال منه الجهد، لم يجر يومًا قط وراء الألقاب التي كان يحتقرها احتقاره لكل الامتيازات الظاهرية، وكان يعيش مرتبطًا بالصداقة الوثيقة مع المعلمين والرفاق والتلاميذ، الذين عرف كيف يحتفظ بحسن

نواياهم نحوه. كان متفوقًا فى التدريبات البدنية تفوقه فى التدريبات العقلية، وكان راكب خيل وراقصًا ومسايفًا يستثير الإعجاب، ويرتدى فى الشتاء ما يرتديه فى الصيف من الثياب، ولا ينتعل إلا الصندل مهما اشتدت برودة الصقيع، وعاش على هذا النحو حتى إنه لم يصب بمرض حتى وهو فى أرذل العمر. وبلغ من كبحه لجماح عواطفه وميوله الطبيعية للحسية الجنسية والغضب، أن ظل عفيفًا طوال حياته كلها، ولم يكد يمس إحساس أى إنسان بكلمة جارحة.



شكل (١٠٧) الدرس اللاتينى

حفر على الخشب من لوحة لفيريتوس: "اللغة اللاتينية الرائعة" (فورلى ١٤٩٥)

تصوير روزنتال، ميونيخ

ووكل إليه شئون تعليم أبناء وبنات أسرة الأمير، حتى لقد أصبحت إحداهن برعايته امرأة علاّمة. وعندما ذاع صيته بكل أرجاء إيطاليا، ووفد أعضاء العائلات الكبيرة والثرية من مسافات بعيدة، حتى من ألمانيا، التماسًا للدراسة على يديه، لم

يكتف جونزاجا فحسب بوجوب القيام باستقبالهم، بل يبدو أنه كان يعد من المفاخر المشرفة لمانتوا بأن تكون مدرسة العالم الأرستقراطي المختارة. فهنا لأول مرة كانت الألعاب الرياضية وجميع التداريب البدنية الرفيعة تزاول إلى جوار التعليم العلمي بوصفها شيئًا لا يستغنى عنه التعليم الليبرالي المتحرر. وبالإضافة إلى هؤلاء التلاميذ، جاءه آخرون، ممن كان تعليمهم يعد في نظر فيتورينو أسمى هدف له على ظهر البسيطة، وهم الفقراء الموهوبون، الذين كثيراً ما جاوه سبعين فرداً مجتمعين، وكان يعولهم بمنزله، يعلمهم حبًا في الله Per l'amore di Dio، جنبًا إلى جنب مع شباب الطبقة العليا الذين تعلموا هنا العيش تحت سقف واحد مع العبقرية التي لا تملك لقبًا. وكلما زاد عدد جمهور التلاميذ الذين توافدوا زرافات على مانتوا، زادت الحاجة إلى معلمين أكثر لبث التعليم فيهم، وهوالذي كان فيتورينو يتولى إدارته فقط، وهو تعليم كان الهدف منه تزويد كل تلميذ بذلك النوع من العلوم الذي كان التلميذ مهيأ لتلقيه أكثر من سواه. وكان جونزاجا يمنحه راتبًا سنويًا قدره ٢٤٠ فلورينًا ذهبيًا، كما بنى له فوق ذلك منزلاً رائعًا أسماه لاچيوكوسا، عاش فيه الأستاذ مع طلابه، كما سدد جميع النفقات التي تلزم فقراء الطلبة. فأما المبالغ التي كان الأمر يحتاج إليها بعد ذلك فقد كان فيتورينو يستجديها من الأمراء والأثرياء الذين كانوا، والحق يقال، لا يميرون في كل الحالات أذنًا مصغية لتوسلاته ويضطرونه بتحجر قلوبهم أن يستدين. على أنه ما لبث في آخر المطاف أن وجد نفسه يعيش ظروفًا مريحة، ويمتلك عقاراً صغيراً في المدينة ومزرعة في الريف، كان يقضي فيها هو وتلاميذه فترة العطلات، ويمتلك مجموعة شهيرة من الكتب كان يعيرها بسرور للناس أو يتنازل عنها لهم، وإن ناله غير قليل من الغضب إذا أخذت بغير إذن. وإنه ليقرأ في بكرة الصباح كتبًا دينية، ثم يعذب نفسه وينطلق إلى الكنيسة؛ وكان تلاميذه يلزمون بالذهاب إلى الكنيسة مثله، وأن يعترفوا مرة في كل شهر وأن يراعوا أيام الصيام بأشد دقة. وكان تلاميذه يحترمونه ولكنهم كان يرتعدون تلقاء نظرة منه. فإذا صدر عن أحدهم خطأ عوقب عليه فور حدوثه. وكان جميع معاصريه يجلونه بما لا يقل عن إجلال تلاميذه، ويتجشم الناس عناء الرحلة إلى مانتوا لمجرد رؤيته.



شكل (١٠٨) تعليم ماسيميليانو سفورزا
منمنمة من "أجرومية دوناتو"
ميلانو، تريفولزيانا

ومن الذين ركزوا تركيزًا شديدًا أشد على التضلع العلمي البحت جوارينو فيرونا[٩] Guarino Verona (1370-1460)، الذي استدعى في ١٤٢٩ إلى فيرارا من قبل نيقولو ديستي Niccolo d'Este ليتولى تأديب وليده ليونيللو Lionello، والذي شرع بعد أن أوشك تلميذه على تمام النمو، في ١٤٣٦، في التدريس بالجامعة أستاذًا للفصاحة واللغات القديمة. وبينما هو يظل بعدُ مؤدبًا لليونيللو، كان لديه تلاميذ آخرون كثّار وفدوا عليه من مختلف نواحي البلاد، وفي بيته كانت تقيم نخبة ممتازة من فقراء الطلبة، يتولى هو مئونتهم جزئيًا أو كليًا. وكان يخصص ساعات مسائه إلى شطر مديد من الليل للاستماع إلى الدروس أو المحادثة التعليمية المفيدة. وكان بيته هو أيضًا مقرًا

للتدين الدقيق والتمسك بالخلق الكريم. وكان جوارينو من دارسي الكتاب المقدس المواظبين ويعيش في علاقة من الود مع الأتقياء من معاصريه، وإن لم يتردد لحظة في كتابة دفاع عن الأدب الوثني ضدهم. ولم يكن يعنيه في قليل ولا كثير ولا يعني فيتورينو أن معظم الإنسانيين في زمانهما لا يستحقون إلا أقل الثناء من ناحيتي الأخلاق أو الدين. وليس مناقضًا للمفهوم ولا المتصور كيف أن جوارينو، على كل ذلك العمل اليومي المركز على كاهله، كان يجد الوقت لكتابة ترجماته عن اليونانية وتسطير الأعمال الأصيلة(١٠). وكان يعوزه ضبط النفس الحكيم والحلاوة الرقيقة التي كانت تحلي أخلاق فيتورينو، وكان ينفلت بسهولة، إلى نوبات عنف شديدة كانت كثيراً ما تؤدي إلى وقوع الشجار بينه وبين معاصريه من العلماء.

ولم يقف الأمر عند حد هذين البلاطين، بل تجاوزهما إلى كل أرجاء إيطاليا بعامة، في أن تعليم أبناء أسر الأمراء ظل بصورة جزئية وعلى مدى فترة معينة من السنين حكرة في يدي الإنسانيين، الذين صعدوا بذلك درجة أعلى في العالم الأرستقراطي. وأصبحت كتابة الأبحاث في تربية الأمراء، وكانت فيما سلف من عمل رجال اللاهوت، تدخل الآن في نطاق اختصاصاتهم.

ومنذ عهد بيير باولو ڤيرجيريو Pier Paolo Vergerio بات الأمراء الإيطاليون يوضعون تحت رعاية جيدة من هذه الناحية، ثم نقلت تلك العادة إلى ألمانيا على يدي إينياس سيلفيوس، الذي وجه تحضيضات ونصحاً مفصلاً إلى أميرين ألمانيين فتيين من آل هابسبرج(١١) في موضوع مواصلة دراساتهما، وفيه يحثهما كليهما، كما قد يتوقع، على أن يزكيا المذهب الإنساني، ويمداه بالعون والرعاية، ولكنهما يؤمران فيها بوجه خاص أن يجعلا من نفسيهما حاكمين مقتدرين كفئين، ومقاتلين قويين ذوي بأس شديد. ولعل إينياس كان على ذكر من أنه حين يخاطب هذين الشابين إنما كان يتحدث في الهواء، وأنه لم يجد أذنًا مصغية، ومن ثم فإنه عمد إلى وضع رسالته موضع النشر على ملأ الناس. على أن علاقات الإنسانيين بالحكام ستبحث في موضع منفصل.

هوامش الفصل الخامس - القسم الثالث

(١) انظر أيضًا ليبرى .Cf. Libri, Histoire des Sciences Mathém., ii, pp. 92 sqq وكانت بولونيا، كما هو معلوم جيداً، أقدم. وازدهرت بيزا في القرن الرابع عشر، ووقعت في الحروب مع فلورنسا، وتم إعادتها إلى ما كانت عليه على يد لورنزو الفاخر، "ad solatium veteris amissæ li-bertatis" كما يقول چيوفيو .Giovio, (Vita Leonis X, lib. i) وجامعة فلورنسا (انظر جاى .Cf. Gaye, Carteggio, i, pp. 461-560 passim، وماتيو فيلانى .i, 8, vii,90 انظر جيراردى -Ghe rardi, Statuti dell'Università e Studio Fiorentino (Florence, 1881)؛ وأيضًا إيزيد ديل لونجو (.Isid. Del Lungo, Florentia, pp. 101 sqq)، التي وجدت منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٣٢١، مع الحضور الإجبارى لمواطنى المدينة، أنشئت مرة أخرى بعد الموت الأسود فى عام ١٣٤٨، مع منحها دخلاً يصل إلى ٢٥٠٠ فلورينًا ذهبيًا، سقطت مرة أخرى فى الاضمحلال، ثم أعيد إنشاؤها مرة أخرى فى ١٣٥٧، وكرسى الأستاذية في شرح دانتى، الذى أنشئ عام ١٣٧٣ بناء على طلب كثير من المواطنين، تم ضمه إلى أستاذية الفيلولوچى والبيان، كما كان عندما شغله فيه فيليلفو.

(٢) وهذا ينبغى ملاحظته فى قوائم الأساتذة، مثل تلك الخاصة بجامعة بافيا فى عام ١٤٠٠ (انظر كوريو -Co rio. Storia di Milano, fol. 290) حيث (من بين آخرين) ظهر ما لا يقل عن عشرين مُكَمَّا .

(٣) انظر مارين سانودو Marin Sanudo, in Murat., xxii, col. 990 .

(٤) انظر فابرونى Fabroni, Laurent. Magn., Adnot. 52, in 1491 .

(٥) أنظر الليجريتّو Allegretto, Diario Sanesi, in Murat., xiii, col. 824 .

(٦) وقد طلب فيليلفو، عندما دعى إلى جامعة بيزا المنشأة حديثًا، على الأقل خمسمائة فلورينًا ذهبيًا. انظر أيضًا فابرونى .Cf. Fabroni, Laurent. Magn., ii, 75 sqq وقد توقفت المفاوضات، ليس فقط بسبب المرتب العالى المطلوب.

(٧) انظر أيضًا ڤيسبازيانو فيورينتينو .Cf. Vespas. Fiorent., pp. 271, 572. 582, 625 وانظر Vita Jan. Manetti, in Murat., xx, col. 531 sqq .

(٨) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو .Vespas. Fiorent., p. 1460 انظر بريندلاكوا rendilacqua وهو تلميذ لفيتّورينو Vittorino) Intorno alla Vita di V. da F.,1st ed. By Natale dalle Laste, 1774، الذى ترجمه جيزيبى برامبيلا .(Giuseppe Brambilla (Como, 1871 وانظر ك. روسمينى C. Rosmini, Idea dell'Ottimo Precettore nella Vita e Disciplina di Vittorino da Fel

Racheli وانظر الأعمال المتأخرة لراكيلي وفينوا tre e de' suoi Discepoli, (Bassano, 1801).
. (Milan, 1832) and Venoit (Paris, 1853)

(٩) انظر عمل فيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., p. 646، الذي يقول عنه، مع ذلك، ك. روسميني C. Rusmini, Vita e Disciplina di Guarino Veronese e de' suoi Discepoli, (3 vols, Brescia, 1856)، في (ii, 56)، إنه "formicolante di errori di fatto" .

(١٠) عن هذه وعن جوارينو Guarino بصفة عامة انظر فاتشيوس Facius, De Vir. Ill., pp. 17 sqq. وكورتيسيوس، Cortesius, De Hom. Doctis, p. 13. وكلاهما يتفقان على أن علماء الجيل التالي كانوا يفتخرون بأنهم كانوا تلاميذ جوارينو؛ ولكن بينما يمدح فازيو Fazio أعماله، يعتقد كورتيزي Cortese بأنه قد كان يمكنه المنافية بشهرته لو أنه لم يكتب شيئًا. وكان جوارينو وفيتّورينو أصدقاء، وساعدا بعضهما في دراساتهما. وكان معاصروهما مغرمين بالمقارنة بينهما، وفي تلك المقارنة كان جوارينو في المعتاد يتقلد المركز الأول (Sabellico, Dial. De Lingu. Lat. Reparata, in Rosmi) وكانت طريقة جوارينو فيما يتعلق بالإيرمافروديتو Ermafrodito رائعة؛ انظر روسميني Rosmini, ii, 46 sqq.. وكلا من هذين المعلمين كان يراعيالاعتدال في الطعام والشراب؛ ولم يتناولا أبدًا إلا النبيذ غير المخفف؛ وفي كليهما كانت مبادئ التعليم متماثلة؛ فلم يستخدما العقاب ؛ وكان أقسى عقاب يوقعه فيتّورينو هو أن يجعل الصبي يركع ويرقد على الأرض في حضور زملائه التلاميذ.

(١١) إلى الأرشيدوق سيجسموند Sigismond, Epist., 105, p. 600، وإلى الملك لاديسلاوس بوستيوموس Ladislaus Postumus, p. 695؛ والأخير على هيئة Tractatus de Liberorum Educatione . (1450)

الفصل السادس

أنصار المذهب الإنسانى

علينا فى المقام الأول أن نتحدث عن أولئك المواطنين، ومعظمهم من الفلورنسيين، الذين جعلوا الاهتمام بكل قديم عهيد واحداً من الأغراض الرئيسة لحيواتهم، والذين كانوا فى حد أنفسهم إما رجال علم نابهين، وإلا فهم من المتذوقين هواة الفنون والآداب dilettenti المتميزين الذين كانوا يساندون العلماء بكل الوسائل (انظر القسم الثالث، الفصل الثالث). كانت لهم أهمية خاصة ودلالة واضحة أثناء فترة الانتقال عند بداية القرن الخامس عشر، وذلك نظراً لأن فيهم تجلى المذهب الإنسانى أول ما تجلى بصورة عملية بوصف كونه عنصراً فى الحياة اليومية لا يستغنى عنه. ولم يحدث إلا بعد ذلك الزمن أن شرع الباباوات والأمراء فى الانشغال بذلك المذهب.

وقد سلفت الإشارة أكثر من مرة إلى كل من نيقولو نيقولى وجيانُّوزُّو مانيتى. ويصف ڤيسبازيانو[١] نيقولى بأنه رجل لا يتسامح قط فى شئ يجرى حوله غير منسجم مع روحه هو الكلاسيكية. وإن شخصه الرشيق طويل الثياب، وحديثه الرقيق وبيته المزدان بأنبل بقايا العالم العهيد، كانت تترك عنه فى الأنفس انطباعًا فريداً. كان شديد التدقيق فى النظافة فى كل شئ، وبخاصة على المائدة، حيث كانت تقف أمامه الزهريات العتيقة والطاسات البللورية من فوق أنصع سفرة بياضًا[٢]. ولا نملك هنا إلا أن نصف الطريقة الفاتنة التى اكتسب بها إلى رأيه شابًا فلورنسيًا مولعًا بالمتعة حتى حوله إلى الاهتمامات الفكرية[٣]. ذلك أن بييرو دى بازّى Piero de'Pazzi، وهو ابن لتاجر عظيم، ومرشح لنفس الحرفة، بهى الطلعة، منصرف تمامًا إلى متع العالم، كان

ربما فكر فى أى شئ آخر عدا الأدب. وذات يوم وهو يمر على قصر بوديستا[٤] -Palaz zo del Podesta، واستدعى نيقولو الشاب إليه، ومع أنهما لم يتبادلا من قبل قط كلمة واحدة فإن الشاب أصاخ لدعوة ذلك الرجل البالغ الاحترام. وسأله نيقولو من أبوه؟ فأجابه السيد أندريا دى بازّى. وعندما سئل بعد ذلك عن اتجاهاته؟ أجاب بييرو: "ما يفعل كل الشباب عادة، فإنى أمتع نفسى" (attendo a darmi buon tempo") فقال له نيقولى: "لما كنت ابنًا لأب كهذا، وكنت شديد بهاء الطلعة للناظرين، فإن من العار ألا تعلم شيئًا من اللغة اللاتينية، التى لا بد أن تكون حلية كبرى لك. فإن لم تتعلمها فلسوف تكون غير صالح لشئ؛ وما أن تمضى متعة الشباب، حتى تصبح رجلاً لا قيمة له" (virtu) وعندما سمع بييرو ذلك القول، أدرك على الفور أنه قول صادق، وقال إنه سوف يعمد بسرور إلى تحمل المشقة فى سبيل التعلم، لو [illegible] له معلم. وعند ذلك أجابه نيقولو بأنه سيتولى تدبير تلك المسألة. ثم دبر له [illegible] [illegible]اتينية والإغريقية، اسمه بونتانو Pontano، فعامله بييرو معاملته لأحد أفراد عائلته، ودفع له مئة فلورين ذهبى أجرًا سنويًا. وهجر كل المسرات التى ظل يعيش بظلها حتى آنذاك، وعكف على الدرس ليلاً ونهارًا، وأصبح صديقًا لكل عالم ورجل سياسة وتدبير نبيل الفكر. فحفظ عن ظهر قلب الإنيادة كلها وكثيرًا من خطب ليفى Livy، وكان ذلك بوجه خاص فى الطريق الموصل بين فلورنسا وبيته الريفى فى تريبيو[٥] Trebbio . وكان جيانوتزو مانيتّى (١٣٩٣-١٤٥٩) يمثل العالم العهيد بمعنى آخر وأرفع[٦]. كان مبكر النضج سابقًا لأوانه منذ سنوات عمره الأولى، فلم يكد يتجاوز سن الطفولة عندما ختم عهد تلمذته فى التجارة وأصبح كاتب حسابات فى أحد المصارف. على أن هذا العيش الذى عاشه سرعان ما بدا لعينه أجوفًا هشًا وعرضة للزوال والفناء، فشرع يحن إلى العلوم، التى يستطيع المرء من خلالها وحدها أن يبلغ الخلود. وعندئذ شغل نفسه بالكتب بصورة لم يفعلها قبله إلا قلة من الرجال العاديين، وأصبح، كما أسلفنا (القسم الثالث، الفصل الرابع)، من أرسخ علماء عصره قدمًا. وعندما عينته الحكومة ممثلاً عنها كمتصرف أو حاكم وجابى ضرائب فى بيشيا Pescia وبيستوجا Pistoja أنجز واجباته وفقًا للمثل الأعلى الرفيع الذى اجتمع حسه الدينى ودراساته الإنسانية على بثه فيه. ونجح فى

جباية أشد أنواع الضرائب كرهًا لدى الناس التى فرضتها الدولة الفلورنسية، ورفض قبول أى أجر لقاء خدماته. وبينما هو يعمل بوظيفة حاكم إقليمى كان يرفض قبول أية هدية، ويمقت كل رشوة، ويكبح القمار، ويحافظ على تزويد المنطقة جيداً بالقمح، وكان يطالب مرؤوسيه بالطاعة الدقيقة والنزاهة المطلقة من كل هوى، لم يكن يكلّ من الفصل فى القضايا فصلاً وديًا، كما كان يأتى بالعجائب فى إطفاء العواطف المُشتَعِلَة بما بيديه من طيبة. وكان أهالى بيستوجا يحبونه ويجلونه كأنه قديس، ولم يستطيعوا قط أن يكتشفوا إلى أى من الحزبين كان أميل؛ وعندما انتهت مدة خدمته بعث الحزبان بالسفراء إلى فلورنسا لكى يقدموا رجاءهم بمد مدة خدمته. وكأنما كان ليرمز إلى الحقوق والمصالح المشتركة للجميع، فكان يقضى أوقات فراغه فى كتابة تاريخ المدينة، الذى بقى لنا محفوظًا إلى اليوم، مجلداً تجليداً أرجوانى اللون، كقطعة أثرية مقدسة فى دار بلدية المدينة(٧). وعندما رحل أهدته المدينة راية تحمل شعار المدينة وخوذة فضية فاخرة. ومثل مانيتى فى بعثاته الدبلوماسية إلى البندقية وروما والملك ألفونسو، كما حدث فى بيستوجا، مصالح مدينته مسقط رأسه، وهو يحافظ بحرص شديد على شرفها، ولكنه أبى قبول ألوان التكريم التى قدمت إليه، وحصل على مجد عظيم بفضل خطبه ومفاوضاته العظيمة، وحاز بفضل حكمته وبعد نظره لقب "النبى".



شكل (١٠٩) مارسيليو فيتشينى
جزء من اللوحة الجصية "تضحية زكريا" لجيرلاندايو
فلورنسا. سانتا ماريا نوفيللا، تصوير أندرسون، روما

ومن شاء من القراء التزود بالمعلومات حول المادنين (المواطنين) العلماء من أبناء فلورنسا فى هذه الفترة، ينبغى أن يحالوا إلى ما كتبه ڤيسبازيانو، الذى كان يعرفهم جميعًا معرفة شخصية، وذلك لأن المدينة والجو الذى كان يكتب فيه، والشروط والظروف التى كان يخالط عليها جماعتهم، تكاد تكون لها أهمية أكبر من الحقائق التى يسجلها. وحتى لو اعتمدنا على الترجمة، بل أكثر من ذلك لو اعتمدنا على الإشارات الموجزة التى نحن مضطرون هنا إلى الاقتصار عليها، فإن كتابه يفقد جدارته الرئيسية. وإنه حتى لو لم يكن كاتبًا عظيمًا فإنه كان عميق الدراية بالموضوع الذى يكتب فيه، كما أنه كان يمتلك حسًا عميقًا بأهميته الذهنية.

ولو إنّا أردنا تحليل السحر الذى مارسه آل ميديتشى فى القرن الخامس عشر، وخاصة كوسيمو الأكبر (توفى ١٤٦٤) ولورنزو الفاخر (توفى ١٤٩٢)، على فلورنسا وعلى جميع معاصريهم، لوجدناه يكمن بدرجة أقل فى كفايتهم السياسية منه فى قيادتهم لثقافة العصر. فإن رجلاً فى مركز كوسيمو، يعمل تاجراً عظيماً وزعيم حزب، وقد انضوى أيضًا إلى جانبه جميع المفكرين والكتاب والباحثين، وكان الأول بين الفلورنسيين بحكم مولده والأول بين الإيطاليين بثقافته- ذلك الرجل كان منذ البداية بكل الدلالات والأغراض أميراً غير منازع. وإلى كوسيمو يعود المجد العظيم الخاص، ألا وهو أنه ميز فى الفلسفة الأفلاطونية أبدع زهرة فى عالم الفكر القديم[8]، وإنه ألهم جميع أصدقائه بذلك الاعتقاد نفسه، وبذلك بث فى الدوائر الإنسانية نفسها انتعاشًا جديداً آخر وأعلى درجة للعالم العهيد. والقصة معروفة لدينا بتفاصيلها الدقيقة[9]. ويدور الأمر كله على دعوة العالم العلامة يوهان أرجيروبولوس، وعلى الحماسة الشخصية لكوسيمو نفسه فى أخريات سنيه، التى كانت من العظم على حال مكنت مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino العظيم من أن يسمى نفسه، من ناحية الأفلاطونية على الأقل ودراستها، باسم الابن الروحى لكوسيمو. وفى عهد بييترو دى ميديتشى كان فيتشينو متربعًا بالفعل على رأس مدرسة؛ وإليه وفد ابن بييترو وحفيد كوسيمو، وهو لورنزو الذائع الصيت، من مدرسة المشائين (Peripatetics) . ومن جملة أنبه زملائه العلماء ذُكراً بارتولوميو فالورى Bartolommeo Valori ودوناتو أتشاجولى Donato Acciajuoli وبييرفيليبو باندولفينى Pierfilippo Pandolfini . ويصرح المعلم المتحمس فى فقرات كثيرة من كتاباته بأن لورنزو قد سبر جميع أعماق الفلسفة الأفلاطونية، كما أنه صرح بقناعته بأنه لولا أفلاطون لغدا من الصعب على المرء أن يكون مسيحيًا صالحًا أو مواطنًا صالحًا. وكانت حلقة العلماء الشهيرة التى أحاطت بلورنزو جماعة متحدة الكلمة، تتميز عن جميع الحلقات الأخرى المماثلة لها بهذه المحبة الحادة لفلسفة أعلى ومثالية. ولا يستطيع رجل من طراز بيكو ديللا ميراندولا أن يحس بالسعادة إلا فى عالم من هذا النوع. ولكن لعل أحسن ما يمكن أن يقال عن ذلك أنه، مع كل هذه العبادة للعالم العهيد وجد

الشعر الإيطالى هنا "ملاذاً قدسياً"، وأنه بين جميع شعاعات الضوء التي تدفقت من الحلقة التي كان فيها لورنزو هو البهرة لم يكن واحد أشد قوة من هذا. فأما كرجل سياسة وتدبير، فحدّث عنه ودع كل رجل يحكم عليه بما يشاء؛ ولا مفر لأى أجنبى من أن يتردد في إصدار الحكم على ما كان راجعًا في مصير فلورنسا إلى إثم وجريرة البشر وما يعود إلى الظروف، على أنه لم يحدث قط أن وجهت تهمة أشد جوراً من أن لورنزو، في مضمار الثقافة كان حامياً للفطن المتوسطة، وأنه بخطأ منه كان السبب في أن ليوناردو دافنشي وعالم الرياضيات الراهب لوكا باتشولو Fra Luca Pacciolo ظلا يعيشان في الخارج، وأن توسكانيللا Tosvanella وفيسبوتشي Vespuci وغيرهما على الأقل عاشوا بغير معونة منه على الأقل. والحق إنه لم يكن بالتأكيد رجلاً ذا عقل شمولي؛ ولكن لو استعرضنا جميع الرجال العظماء الذين حاولوا رعاية الاهتمامات الروحية وتزكيتها لوجدنا أن قلة منهم بالتأكيد بلغت من تعدد الجوانب مبلغه، كما أن واحداً منهم لم يتمكن من فؤاده الحاجة الباطنية إلى فعل ذلك بمثل هذا العمق.



شكل (١١٠) لورنزو دي ميديتشي

لفاساري

فلورنسا، أوفيزي

والعصر الذى نعيش فيه جهير الصوت تماماً فى إعلاء قدر الثقافة، وبخاصة قدر ثقافة العالم العهيد. غير أن الإخلاص المتحمس لتلك الثقافة وإدراك أن الحاجة إليها هى أولى وأعظم الحاجات جميعًا، فتلك أمور لا يمكن أن يعثر عليها إلا بين الفلورنسيين في القرن الخامس عشر والشطر المبكر من السادس عشر. وبين أيدينا حول هذه النقطة برهان غير مباشر يزيل الشكوك جميعًا. وما كان ليشيع إلى هذا الحد منح بنات الأسرة نصيبًا من تلك الدراسات لو لم يكن القوم يعدونها أنبل عمل يشتغل الإنسان به على ظهر البسيطة؛ وما كان النفي ليتحول إلى استتار أو غياب سعيد، كما فعل باللا ستروزى Palla Strozzi؛ ولا كان الرجال المستمتعون لكل تطرف فى الشهوات تتصوره العقول ليحتفظوا بالقوة والروح اللازمتين لكتابة المقالات والأبحاث النقدية عن كتاب بلينى فى "التاريخ الطبيعى" Natural History، كما فعل فيليبو ستروزى[١٠]. وليس من شأننا هنا أن نقدم الثناء ولا اللوم، بل أن نفهم روح العصر في صميم فرديته القوية بأسرها.

وبالإضافة إلى فلورنسا، كانت هناك مدن كثيرة فى إيطاليا كانت بها الأفراد والحلقات الاجتماعية تخصص كل طاقاتها لمساندة المذهب الإنسانى وحماية العلماء الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وتحفل مراسلات تلك الفترة بالإشارات إلى العلاقات الشخصية من هذا النوع[١١]. وقد توجه شعور الطبقات المتعلمة في هذا الاتجاه بقوة وبطريقة تكاد تكون قاطعة مانعة.

على أنه قد آن الأوان للتحدث عن المذهب الإنسانى فى البلاطات الإيطالية. وقد أسلفنا إليك الإشارة (القسم الأول، الفصل الثانى) إلى التحالف الطبيعى بين الطاغية المستبد والعالم، حيث كان كل منهما يعتمد بطريقة قاطعة على مواهبه دون غيرها؛ فأما أن العالم كان يفضل صراحًا البلاطات الأميرية على المدن الحرة فأمر من البديهى أن يُتوقع نتيجة للأجر الأعلى الذى كان يتقاضاه في الأولى منهما. وفى وقت بدا فيه أن ألفونسو الأكبر دوق أراجون يحتمل أن يصبح سيداً لإيطاليا بأكملها كتب إينياس سيلفيوس إلى مواطن آخر من سيينا يقول[١٢]: "كنت أفضل أن تحصل إيطاليا على السلام تحت حكمه منها تحت حكم المدن الحرة، وذلك لأن السخاء الملكي يكافئ التفوق المتميز بجميع أنواعه"[١٣]. وفى الآونة الأخيرة ركز الكتّاب تركيزاً شديداً على الناحية

التافهة لهذه العلاقة وعلى التملق المرتزق الذى ولدته، مثلما كان يحدث فيما سلف أن مدائح الإنسانيين أفضت إلى تبرير مفرط فى استحسانه وحكم مؤيد لنصرائهم. فلو أخذنا الأمور كلها مجتمعة، وجدنا أن مما يشرف النصراء أعظم تشريف أنهم كانوا يشعرون أنهم ملزمون أن يضعوا أنفسهم على رأس ثقافة عصرهم ووطنهم، مهما تكن تلك الثقافة ذات جانب واحد. ويدهشنا فى بعض الباباوات[14] عدم تهيب العواقب التى ربما أدى إليها "التعلم الجديد". ويبدو لنا ذلك شيئًا رائعًا جليلاً حقاً وإن كان غير شعورى. فإن نيقولاس الخامس كان وطيد الثقة بمستقبل الكنيسة، نظرًا لأن آلاف من العلماء كانوا يؤيدونها. وكان بيوس الثانى أبعد الناس عن تقديم تضحيات رائعة للمذهب الإنسانى كالتى قدمها نيقولاس، كما أن الشعراء الذين كانوا يؤمون بلاطه كانوا قليلى العدد؛ وإن كان هو نفسه الرأس الشخصى لجمهورية الأدب أكثر كثيرًا من سلفه، كما كان يستمتع بمركزه ذاك دون أن تساوره أدنى شكوك. وكان بولس الثانى أول من هاب وأبدى الشك وعدم الثقة فى ثقافة سكرتيريه، كما أن خلفاءه الثلاثة، سيكستوس وإنوسنت وإسكندر، تقبلوا الإهداءات (أى المؤلفات المهداة إليهم) وسمحوا لأنفسهم بأن يُتغنّى بذواتهم بصورة أثلجت صدور الشعراء- حتى لقد وجدت هناك قصيدة من نوع البورجيادة Borgiad، ربما صيغت فى الميزان سداسى التفاعيل[15]- ولكنهم كانوا كثيرى المشاغل بشئون أخرى، شديدى الانشغال بطلب مؤسسات أخرى لضمها إلى سلطانهم، بحيث ضاقوا بإرهاق أنفسهم كثيرًا بالعلماء الشعراء. وقد وجد يوليوس الثانى شعراء يقولون فيه المدائح لأنه هو نفسه لم يكن موضوعًا تافهًا للشعر (القسم الأول، الفصل العاشر)، ولكن لا يبدو أنه شغل نفسه كثيرًا بهم. وعقبه على العرش ليو العاشر، "بوصفه رومولوس Romulus على لسان نوما -"Numa وبعبارة أخرى، يتلخص الموقف فى أنه بعد الشغب شبه الحربى الذى مرت فيه السدة البابوية الأولى أصبح الرجاء معقوداً على ظهور أخرى جديدة، ميالة بكليتها إلى عرائس الفن والشعرMuses . وكان الاستمتاع بالنثر اللاتينى الرشيق والشعر الرخيم الألحان جزءًا من برنامج حياة ليو، ومن المؤكد أن مناصرته وحدبه أوتيت ثمارها بحيث أن شعراء اللاتينية لعهده خلفوا لنا صورة حية لذلك الروح الجزل واللامع الذكى لتلك الأيام الليونية "Leonine"، التى تمتلئ بها ترجمة حياة جوفيوس، بما لا يحصى من الأشعار

الإبيجرامية(*) والمدائح والفرائد(**) الغنائية والخطب(١٦). ولا إخال أن أميراً في كل تاريخ أوروبا بأجمعه تلقى مثل ذلك الإكبار المتشعب الجوانب، بالنسبة للأحداث الأخاذة القليلة في حياته. وكان يسمح للشعراء بالمثول بين يديه ساعة الظهيرة بوجه خاص، حين يكون الموسيقيين فرغوا من عزفهم(١٧)؛ ولكن واحداً من أفضلهم(١٧) يخبرنا كيف أنهم كانوا يتعقبونه عندما يسير في حديقته أو عندما ينسحب إلى مقره الخاص في حجرته، فإن فاتهم أن يتلقفوه هناك حاولوا أن يفوزوا بالتفاته بواسطة غريدة من غرائد المتسولين أو مدحة من مدائحهم، ممتلئة كالعادة بذكر جميع ما في جبل الأوليمب(***) من سكان(١٩). وذلك بأن ليو المسرف في ماله، الكاره لأن يحيط به إلا الوجوه الباشة، أبدى من الكرم في عطاياه ما بولغ فيه مبالغة خرافية في الأيام العسيرة التي أعقبت ذلك(٢٠). وقد أسلفنا إليك الحديث عن إعادة تنظيمه للجامعة) Sapienza القسم الثالث، الفصل الخامس). وينبغي لنا لكي لا نغمط تأثير ليو في المذهب الإنساني أن نحذر من أن تضللنا الألاعيب التي اختلطت به، كما ينبغي لنا ألا نسمح لأنفسنا أن تخدعنا السخرية الظاهرية التي كان هو نفسه يعامل بها هذه الأمور أحياناً (القسم الثاني، الفصل السادس). والأفضل أن يتركز حكمنا على الإمكانات الروحية التي لا حصر لها والتي تدخل ضمناً في كلمة "الدافع"، والتي في الإمكان، وإن لم يمكن قياسها في مجملها، تتبعها بعد دراسة أعمق، متابعة فعلية في حالات فردية. وأياً ما كان لخطر ونفوذ الإنسانيين الإيطاليين في أوروبا من تمكن منذ ١٥٢٠ فإنه يعتمد بطريقة أو بأخرى على الدافع الذي صدر عن ليو. فهو البابا الذي استطاع أن يقول أثناء منحه الإذن بطبع تاسيتوس Tacitus المكتشف حديثاً(٢١) أن الكُتَّاب العظام إنما هم قاعدة الحياة وأنهم عزاء في الملمات؛ وأن بذل العون للعلماء والحصول منهم على كتب فائقة ممتازة كان أحد أهدافه الرفيعة؛ وأنه يشكر الله الآن أن مكنه من نفع الجنس البشري بما أعان على صدور هذا الكتاب.

(*) الإبيجرامية : Epigram قصيدة قصيرة بارعة الذكاء (المترجم)

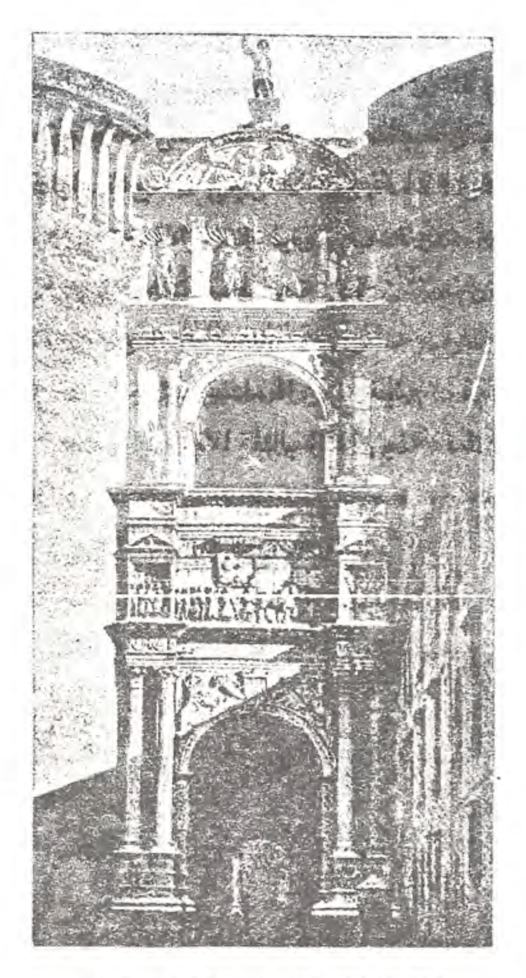
(**) الفريدة : Ode قصيدة من الشعر الغنائي (المترجم)

(***) جبل الأوليمب : Olympus مسكن الإله في الأساطير اليونانية القديمة (المترجم)

وأدى نهب روما فى ١٥٢٧ إلى تشتيت العلماء فضلاً عن الفنانين فى كل اتجاه، وإلى نشر صيت الراحل العظيم مايتشيناس M?cenas إلى أقصى تخوم إيطاليا.

ولو استعرضنا الأمراء العلماء فى القرن الخامس عشر لم نجد واحداً أبدى حماسة "للعالم العهيد" مثلما أبداه ألفونسو الكبير من أراجون، ملك نابولي (انظر القسم الأول، الفصل الخامس). ويبدو أن حماسته لم تتأثر ولم تتغير إطلاقاً، وأن الآثار والكتابات التى خلفها العالم القديم قد طبعت فيه، منذ وصوله إلى إيطاليا، انطباعًا بلغ من عمقه وقوته أن أعاد تشكيل حياته من جديد. ولعله كان متأثراً بمثال جده وسلفه روبرت، النصير الأكبر لبترارك، الذى ربما شاء أن يضاهيه أو يتفوق عليه. وإنه ليسلم برضى عجيب زمام الأراجون العصية لأخيه ويكرس نفسه تكريسًا مطلقًا لمقتنياته الجديدة. وأدخل فى خدمته[٢٢]، إما على التعاقب أو مجتمعين، كلا من جورج من طريبيزوند، وكريسولوراس الأصغر، ولورنزو فالا وبارتولوميو فاتشيو، وأنطونيو بانورميتا، وكان الأخيران منهم مؤرخيه؛ وكان بانورميتا يعلم الملك ورجال بلاطه مؤلفات ليفى Livy يومياً، حتى فى أثناء الحملات الحربية. وكان هؤلاء الرجال يكلفونه فى كل عام ٢٠,٠٠٠ فلورين ذهبى. وكان يمنح بانورميتا ألفًا (١٠٠٠) لقاء عمله؛ وحصل فيتشو مقابل كتابه "تاريخ ألفونسو" Historia Alfonsi، فضلاً عن مرتب سنوى قدره خمسمائة دوقية، على ١٥٠٠ دوقية هدية منه عندما تم الكتاب، مشفوعة بهذه الكلمات: "لم أعطك هذا العطاء أجراً، وذلك بأن عملك لا يمكن أن يجزيه حتى أن أعطيك أجمل مدنى؛ على أنى آمل أن أرضيك فى الحين المناسب"[٢٣]. وعندما اتخذ جيانوتزو مانيتّى سكرتيراً له فى أروع الظروف قال له: "سأقتسم معك آخر كسرة من خبزى". وعندما حضر جيانوتزو لأول مرة لتقديم تهانى الحكومة الفلورنسية فى زواج الأمير فيرّانتى بلغ من عظم الانطباع الذى بعثه أن الملك جلس على العرش بغير حراك، "كأنه تمثال برونزى، ولم يذب عن نفسه ذبابة استقرت على أنفه عند بداية الخطبة". واتخذ فى أثناء عملية إعادة القلعة إلى نصابها، من ڤيتروڤيوس Vitruvius دليلاً؛ فحيثما ذهب اصطحب معه كتب الأثر الكلاسيكى؛ وكان يعد يومه ضائعًا إذا لم يقرأ فيه شيئًا؛ فإذا

انخرط في القراءة لم يسمح بأي إزعاج، ولا حتى من عزف الموسيقي؛ كما أنه كان يحتقر كل معاصريه من الأمراء إن لم يكونوا من العلماء أو من نصراء العلوم ورعاتها. ويبدو أن مستراده المحبوب هو مكتبة قلعة نابولي، التي كان يقوم بفتحها بنفسه إن كان أمينها غائبًا، وهناك كان يجلس إلى نافذة تطل على الخليج، ويصغي إلى المحاورات العلمية المتقنة حول الثالوث. وذلك لأنه كان عميق التقي والتدين، ويجلس للاستماع لمن يتلو عليه الكتاب المقدس، فضلاً عن ليڤي وسينيكا، حتى أنه أوشك أن يعرفه عن ظهر قلب بعد تلاوته عليه أربع عشرة مرة. وكان يمنح من أردن من النساء أن يصبحن راهبات المال اللازم لدخولهن إلى الدير، كما كان يكثر من ارتياد الكنيسة في تحمس شديد ويصغي بانتباه كبير إلى المواعظ التي تلقى بها. ومن ذا الذي يستطيع أن يفهم فهمًا وافيًا المشاعر التي كان ينظر بها إلى البقايا الافتراضية أو الزائفة لليڤي (القسم الثاني، الفصل الرابع) في بادوا؟ يوم حصل برجاء وتوسل كبير، على عظمة ذراع من الهيكل العظمى من البنادقة، واستقبلها في نابولي استقبالاً فخمًا وقورًا وكيف أن العاطفة المسيحية والوثنية لا بد أنها كانت تختلط في قلبه اختلاطًا عجيبًا! وعندما حدث أثناء حملة عسكرية بمنطقة الابروزّي، عندما أوضح له بعض الناس أن بلدة سولمونا Sulmona، مسقط رأس أوڤيد، قريبة، قدم التحية للموقع وأبدى شكره لعبقريتها التي يحرسها القديسون. وكان يسعده أن يحقق نبوءة الشاعر العظيم بالنسبة لشهرته المستقبلة[٢٤]. وحدث فعلاً، أثناء دخوله الشهير لمدينة نابولي المقهورة (١٤٤٣)، أنه اختار هو نفسه أن يظهر أمام العالم على الطراز القديم. ففي مكان غير بعيد من السوق أحدث ثغرة عرضها أربعون ذراعاً مخترقة السور، ومر من خلالها في مركبة مذهبة، تشبهاً بمنتصر روماني[٢٥]. واحتفاظًا بذكرى ذلك المشهد أقيم قوس نصر فخيم من الرخام بالقلعة الجديدة Castello Nuovo. فأما خلفاؤه النابوليتيون (القسم الأول، الفصل الثاني) فلم يرثوا من هذا الشغف بالقديم العهيد، فضلاً عن كل صفاته الطيبة الأخرى، إلا النزر اليسير.



شكل (١١١) قوس نصر ألفونسو الأول
نابولي، كاستيل نوفو

[illegible] ربحو من أوربنو فاق ألفونسو بدرجة كبيرة في [illegible]
[illegible] وفيديريجو في التقدير العظيم [illegible] فيتوريتو دا [illegible]
[illegible] ولم يكن يقدر أي تقدير [illegible]
[illegible] كان يعمد إلى [illegible] وأجناس [illegible]

ومن أجل نيقولاس الخامس، كتبت معظم الترجمات عن اليونانية، وعدد من أجود التعليقات وما ماثلهن من أعمال. وقد أنفق المال الكثير على العلماء الذين كان ينتفع بخدماتهم، ولكن كان ينفق المال فيما يعود بالنفع. ولم يكن للشاعر الرسمي أي وجود في أوربينو، حيث كان الدوق نفسه أوسع من في بلاطه كله علمًا. صحيح أن العلم بالكلاسيكي العتيق لم يكن يشكل إلا جزءًا من ثقافته. فهو حاكم كثير المناقب والمهارات، وقائد وسيد كريم، متمكن من الشطر الأعظم من علوم زمانه، وذلك بهدف واضح هو تطبيقها تطبيقًا عمليًا. وتمكن باعتباره لاهوتيًا من أن يقرن بين اسكوتوس Scotus وتوماس الأكويني، وكان دريًا بكتابات آباء الكنيستين الشرقية والغربية، الأولى منهما من الترجمات إلى اللاتينية. فأما في مجال الفلسفة، فيبدو أنه ترك أفلاطون تمامًا لمعاصره كوسيمو، ولكنه كان يعرف جيد المعرفة، لا كتابي الأخلاق Ethics والسياسة Politics عند أرسطوطاليس فحسب، بل والفيزيقى Physics وبعض الأعمال الأخرى. فأما سائر قراءاته فتركزت بوجه خاص على قدامى المؤرخين، الذين كان يمتلك جميع أعمالهم؛ فهؤلاء، وليس الشعراء، "كان يداوم مطالعتهم، والاستماع لمن يتلوهم عليه".



شكل (١١٢) فيديريجو دا مونتيفلترى وهو يقرأ
لجوس فان جنت
روما قصر باربينى
تصوير أندرسون، روما

فأما آل سفورزا أيضًا(٢٧) فكانوا جميعًا رجالاً يتفاوتون فى مدى كونهم علماء ونصراء للأدب؛ وقد سبقت الإشارة العابرة إليهم (القسم الأول، الفصل الخامس). ويحتمل أن الدوق فرانشسكو كان يعتبر الثقافة الإنسانية جزءًا من مجريات الأحداث فى عملية تعليم أطفاله، ولو على الأقل لأسباب سياسية. إذ كان الشائع المعتقد أنه من المزايا القيمة أن يستطيع الأمير الاختلاط بأوثق الناس علمًا فى زمانه على قدم المساواة بهم. وأبدى لودوفيكو إيل مورو (المغربى)، الذى كان فى حد ذاته علامة فى

اللاتينية، اهتماماً بالشئون الفكرية امتد امتداداً بعيداً متجاوزاً حدود العلم المهيد الكلاسيكى (القسم الأول، الفصل الخامس).

وحتى صغار المستبدين أنفسهم كانوا يجرون وراء التحلى بمميزات مماثلة، كما أننا نظلمهم حين نظن أنهم لم يكونوا يساندون العلماء فى بلاطاتهم إلا بوصف كون ذلك وسيلة لنشر صيتهم. وإن حاكماً مثل بورسو من فيرارا (القسم الأول، الفصل الخامس)، بكل ما اتصف به من غرور، لا يبدو إطلاقاً أنه كان يلتمس الخلود من الشعراء، على ما جبلوا عليه من توق إلى مرضاته بما يكيلون له من مديح بقصيدة Borseid وما شاكل ذلك. فإنه فطر على إحساس بالكبرياء والتعالى بمنصبه كحاكم بحيث لا يهزه ذلك. غير أن الاختلاط بذوى العلم من الرجال، والاهتمام بمسائل العالم المهيد، والشغف الشديد بالمراسلات باللاتينية الرشيقة، كانت ضرورة لا بد منها لأمراء ذلك العصر. فما أمرّ الشكاوى التى عبر عنها الدوق ألفونسو، وهو ذو الاقتدار الواضح فى الشئون العملية، من أن ضعفه إبان الشباب قد أجبره أن يلتمس الترويح عن نفسه فى الاتجاهات اليدوية فقط[٢٨]! أم إن ذلك كان مجرد عذر يساق للاحتفاظ بمسافة تفصله عن الإنسانيين؟ إن طبيعة كطبيعته لم تكن مفهومة حتى من معاصريه.

وبلغ الأمر بهم أنه حتى أدنى المستبدين شأناً فى رومانيا Romagna كان يجد من الصعوبة بمكان أن يعيش دون أن يكون من حوله واحد أو اثنان من رجال الأدب. وكثيراً ما كان المؤدب والسكرتير شخصاً واحداً، كان فى بعض الأحيان، يقوم حقاً بدور القائم بجميع أنواع المهام فى البلاط[٢٩]. ونحن قد نكون عرضة أن نتخذ من صغر معيار هذه البلاطات سبباً فى صرف النظر عنها فى شئ متعجل من الاحتقار، ناسين أن أعلى الأشياء الروحية ليست بالضبط مسائل تخضع للقياس.

ولا بد أن الحياة وآداب السلوك فى بلاط ريمينى كانت مشهداً رائعاً أخاذاً فى ظل قائد المرتزقة condottiere الوثنى الجرئ سيجسموندو مالاتستا. لقد أحاط نفسه بعدد من رجال العلم، كان يمول بعضهم بسخاء ويمنحهم العطايا السنية، التى قد تصل إلى منحهم المزارع، بينما كان غيرهم يكسب قوته ومعاشه على الأقل بوصفهم

ضباطًا في جيشه[٣٠]. وجرت عادتهم أن يعقدوا في قلعته arx Sismundea حلقات مناقشة وحوار، غالبًا ما كانت من نوع خبيث جداً، بحضرة الملك rex كما كانوا يدعونه. وإنهم ليتغنون في قصائدهم اللاتينية بمديحه ويعلنون حبه (amour) للفاتنة الجميلة إيزوتا Isotta، التي تم تكريمًا لها واتخذ تذكارًا لها عملية إعادة البناء الشهيرة لكنيسة القديس فرانشسكو في ريميني .Divæ Isotta Sacrum وعندما كانت المنية توافي الإنسانيين أنفسهم كانوا يوارون في داخل أو تحت النواويس التي كانت الفجوات(*) Niches المشيدة في الجدران الخارجية للكنيسة مزدانة بها، مع كتابة نقش يشهد بأنهم أرقدوا هناك في العهد الذي كان فيه سيجسموندوس Sigismundus، ابن باندولفيوس Pan-dulfus، حاكمًا للبلاد[٣١]. ومن العسير علينا أيامنا هذه أن نصدق أن وحشًا مثل هذا الأمير كان يحس بأن متابعة العلوم وصداقة المستنيرين المثقفين ضرورة من ضرورات الحياة؛ ومع هذا فإن الرجل الذي أصدر ضده قرارًا بالحرمان وخاض عليه غمار الحرب وأحرقه في صورة تمثال، وهو البابا بيوس الثاني، يقول عنه: "سيجسموند عرف التاريخ وكانت لديه ذخيرة ضخمة من الفلسفة؛ وكأنما خلق ليتولى كل ما قام به من مهام"[٣٢].

(*) الفجوة : Niche تجويف غير نافذ في جدار الكنيسة. (المترجم)

هوامش الفصل السادس - القسم الثالث

(١) صفحة ٦٢٥ . عن نيكولو انظر أيضًا خطبة بوجّيو .Poggio, Opera, ed. 1513, fol. 102 sqq؛ وترجمة حياة على يد مانيتّي في كتابه .De Illustribus Longævis

(٢) والكلمات التالية لفيسبازيانو لا يمكن ترجمتها: "A vederlo in tavola cosi antico come era, era una gentilezza" .

(٣) المصدر نفسه، صفحة ٤٩٥

(٤) طبقًا لفيسبازيانو، صفحة ٢٧١، كان الرجال المثقفون معتادين على التقابل هنا للمناقشة.

(٥) وعن نيكّولو يمكن بالإضافة إلى ذلك ملاحظة أنه، مثل فيتّورينو، لم يكتب شيئًا، لأنه كان مقتنعًا أنه لا يستطيع معالجة أي شيء بشكل كامل كما كان يرغب؛ وأن حواسه كانت متوازنة بصورة مرهفة بحيث أنه "neque rudentem asinum, neque secantem serram, neque muscipulam vagientem sentire audireve poterat". ولكن الجوانب الأقل إيجابية في شخصية وخلق نيكّولو لا ينبغي أن تُنسى. فإنه سلب من أخيه حبيبته بينفينوتا Benvenuta، وأثار نقمة ليوناردو أريتينو بهذه الفعلة، وأصيب بالمرارة ضد كثير من أصدقائه على يد تلك الفتاة. وأخذ رفض إعارته الكتب بصورة سيئة، وتعارك معارك عنيفة مع جوارينو لذلك السبب. ولم يكن خاليًا من الغيرة الضيقة الأفق، التي تحت تأثيرها حاول أن أن يبعد كل من كريسولوراس Chrysoloras وبوجّيو وفيليلفو خارج فلورنسا.

(٦) انظر سيرة حياته ..Vita, by Naldus Naldi, in Murat., xx col. 532 sqq انظر بالإضافة إلى ذلك فيسبازيانو بيستيتشي Vespaziano Bisticci. Commentario dell Vita de Messer Giannozzo Manetti، الذي نشر لأول مرة على يد ب. فانفاني P. Fanfani, Collezione di Opere Inedite o Rare, vol. ii (Torino, 1862). وهذه التعقيبات Commentario ينبغي أن يتم التمييز بينها وبين سيرة الحياة القصيرة Vita لمانيتّي على يد نفس المؤلف، والتي فيها إشارات كثيرة إلى الأولى. وكان فيسبازيانو على صلة حميمة مع جيانوتزو مانيتّي، وفي السيرة حاول أن يرسم صورة مثالية لرجل دولة لفلورنسا التي أصابها الانحلال. وفيسبازيانو هو الخبير الثقة التي يستقي منها نالدي. انظر أيضًا الجذاذة في جاليتّي .Cf. Galetti, Phil. Vill. Liber Flor., pp. 129-138 (1847) وبعد موته بنصف قرن كان مانيتّي نسيًا منسيًا. انظر أيضًا باولو كورتيسي .Cf. Paolo Cortese, p. 21 .

(٧) وعنوان العمل، باللاتينية والإيطالية، مقدم في بيستيتشي .Bisticci, Commentario, pp 109, 112 .

(٨) وما كان معروفاً عن أفلاطون قبل ذلك يمكن فقط أن يكون جذاذات. وقد حدثت مناقشة غريبة على خصومة أفلاطون وأرسطو في فيرارا في عام ١٤٣٨، بين أوجو من سيينا Ugo of Siena والإغريق الذين جاءوا إلى المجلس. انظر أيضاً إينياس سيلفيوس Cf. Æneas Sylvius, De Europa, cap. 52 (Opera, p. 450).

(٩) في كتاب نيكولو فالوري Niccoló Valori, Life of Lorenzo the Magnificent, ed. Gaietti, p. 167. انظر أيضاً فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٤٢٦، وكان أول مساعدي أرجيروبولوس Argyropulos هم الأكياجولي Acciajuoli. المصدر نفسه Ibid., 571: الكاردينال بيسّاريون ونظراؤه بين أفلاطون وأرسطو. المصدر نفسه Ibid., 223: كوسانوس Cusanus كأفلاطوني؛ وفي الواقع، فقط كلمات grande platonista. المصدر نفسه Ibid., 308: القطالوني نارتشيسو Narciso ونزاعاته مع أرجيروبولوس. المصدر نفسه Ibid., 571: الديالوجات المفردة لأفلاطون، التي ترجمها ليوناردو أريتينو. المصدر نفسه Ibid., 298: التأثير والنفوذ المتزايد للأفلاطونية الحديثة. وعن مارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino انظر ريمونت Reumont, Lorenzo dei Medici, ii, 27 sqq.

(١٠) انظر فارکی Varchi, Stor. Fiorent., p. 321. وهي صورة تخطيطية رائعة للشخصية والخلق.

(١١) حيوات جوارينو وفيتّوريو على يد روسميني المذكورة عاليه (هوامش أرقام ٨ و٩ الفصل السابق)، بالإضافة إلى حياة بوجّيو على يد شبرد، وبخاصة في الترجمة الإيطالية الموسعة لتونيللي (2 vols, Florence, 1825)؛ مراسلات بوجّيو، التي نشرها نفس الكاتب (2vols., Florance, 1832)؛ ورسائل بوجّيو في عمل ماي (Mai's Spicilegium, tom. x, pp. 221-272 (Rome, 1844. كلها تحتوي الكثير عن هذا الموضوع. وأيضاً رسالة مكتشفة حديثاً لبوجّيو في والسر Walser, Poggius Florentinus, pp. 428 sqq. (Leipzig, 1914).

(١٢) انظر (Epist. 39 (Opera, p. 526، إلى ماريانو سوتزينو Mariano Sozzino.

(١٣) ولا ينبغي أن نُضلل عن طريق حقيقة أنه بجانب كل هذه فإن الشكاوى كانت تسمع بكثرة عن عدم كفاءة الرعاية الأميرية وعدم اهتمام كثير من الأمراء بشهرتهم. انظر، مثلاً، بابت. مانتوان Bapt. Mantuan, Eclog. V، منذ وقت مبكر جداً هو القرن الخامس عشر؛ وأمبروجيو ترافيرساري Ambrogio Traversari, De Infelicitate Principum. وكان من المستحيل إرضاء الجميع.

(١٤) عن رعاية البابوات الأدبية والعلمية فنازلاً حتى نهاية القرن الخامس عشر انظر جريجوروفيوس، المجلدين السابع والثامن. وعن بيوس الثاني انظر فويجت Voigt, En. Silvio als Papst Pius II, Bd. iii, pp. 406-440 (Berlin, 1363). انظر أيضاً باستور Cf. also Pastor.

(١٥) انظر ليل. جريج. جيرالدوس Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temporis, ed. Wotke, p. 38، عندما يتحدث عن Sphærulus لكاميرينو Camerino. والرجل الفاضل لم يكمله في موعده، وعمله ظل راقداً لمدة أربعين عاماً في مكتبه. وعن المبالغ الضئيلة التي دفعها سيكستوس الرابع انظر بيير. فاليريانو Cf. Pier. Valeriano, De Infel. Lit.، عن تيودوروس جازا Teodorus Gaza. وتلقى في مقابل ترجمة عمل تعقيبي لأرسطو خمسين فلورينا ذهبيا، ab eo a quo se totum inau-

وعن الاستبعاد المتعمد للإنسانيين من مناصب الكاردينالية على يد البابوات ratum iri speraverat". قبل ليو . انظر أيضًا الخطبة التي ألقاها لورينزو جرانا Cf. Lor. Grana في جنازة الكاردينال إيجيديو Igidio، Anecd. Lit., iv, p. 307 .

(١٦) وأفضلها يمكن أن يعثر عليها في Deliciæ Poetarum Italorum، وفي ملاحق للطبعات المختلفة لروسكو، Roscoe, Leo X. ويقول كثير من الشعراء، والكتاب، مثل ألسيونيوس Alcyonius, De Exi-lio, ed. Mencken, p. 10، ، بصراحة أنهم يمدحون ليو ليضمنوا لأنفسهم الخلود.

(١٧) انظر باول، جوڤيوس Paul. Jovius, Elogia، عندما يتحدث عن جويدو بوستيوموس Guido Post-humus .

(١٨) انظر بيير، ڤاليريانو في Simia .

(١٩) انظر مرثية يوهان أوريليوس Joh. Aurelius في Deliciæ Poetarum Italorum .

(٢٠) والقصة الشهيرة عن الكيس الأرجواني المخملي والمملوء برزم الذهب من جميع الأحجام، والذي كان ليو معتادًا على وضع يده فيه بتهور، موجودة في جيرالدي Giraldi, Hecatommithi, vi, Nov. 8. ومن الناحية الأخرى، كان الشعراء المرتجلون improvisatori اللاتينيين يضربون بالسياط، عندما تكون قصائدهم مملوءة بالأخطاء. انظر ليل. جريج. جيرالدوس Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temp. Opp., ii, 398 (Basel, 1580) .

(٢١) انظر روسكو Roscoe, Leo X, ed. Bossi, iv, 181 .

(٢٢) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., pp. 68 sqq.. وعن الترجمات من اليونانية التي تمت بناء على أوامر ألفونسو انظر القسم الأول، الفصل الخامس؛ وانظر Vita Jan. Manetti, in Mu-rat., xx, col. 541 sqq., 550 sqq., 595. انظر بانورميتا Panormita, De Dictis et Factis Alphonsi, Regis Aragonum Libri Quatuor. Commentar. in eosdem Æneæ Sylvii, ed. Jacob Spiegel (Basel, 1538) .

(٢٣) وحتى ألفونسو لم يستطع أن يرضي الجميع- على سبيل المثال بوجّيو. انظر شبرد-تونيللي Shep-herd-Tonelli, Poggio, ii, 108 sqq.، ورسالة بوجّيو إلى فاتشيوس Facius في Fac. De Vir. Ill., ed Mehus, p. 88، حيث يكتب عن ألفونسو: "Ad ostentationem quædam facit quibus videatur doctis viris favere"؛ ورسالة بوجّيو إلى ماي Mai, Spicil., tom x, p. 241 .

(٢٤) انظر أوڤيد Ovid, Amores, iii, 11, vs. 11؛ وجوڤيانوس بونتانوس Jov. Pontan., De Prin-cipe.

(٢٥) انظر Giorn. Napolet., in Murat., xxi, col. 1127 .

(٢٦) انظر ڤيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., pp. 3, 119 sqq.. وانظر ما نصه: "Volle aver piena notizia d' ogni cosa, cosi sacra come gentile" .

(٢٧) وقد قسم آخر فرد من أسرة فيسكونتي اهتمامه بين ليفي والرومانسيات الفروسية الفرنسية ودانتي وبترارك. وكان يتم صرف الإنسانيين، الذين كانوا يقدمون أنفسهم إليه بوعد "جعله شهيراً"، بعد أيام قليلة. انظر أيضاً Cf. Decembrio, in Murat., xx, col. 1014 .

(٢٨) انظر باول. جوفيوس Paul. Jovius, Vita Alfonsi Ducis .

(٢٩) عن كولينوتشيو Collenuccio في بلاط جيوفاني سفورزا في بيسارو (ابن أليسّاندرو، انظر عاليه القسم الأول، الفصل الرابع)، الذي في النهاية قتله في ١٥٠٨، انظر الفصل الثاني، القسم الثاني، هامش ٥٠ وفي عهد آخر أفراد أسرة أورديلافّي Ordelaffi في فورلي كان كودروس أورسيوس Codrus Urceus يحتل المنصب (١٤٧٧-١٤٨٠)؛ انظر شكوى كودروس أورسيوس من على فراش الموت Opp., fol. liv (Ven. 1506)؛ وعن إقامته في فورلي انظر .Sermo VI وانظر أيضاً كارلو مالاجولا Cf. Carlo Malagola, Della Vita di C. U., App. IV (Bologna, 1877). ومن المستبدين المتعلمين يمكننا أن نذكر جاليوتّو مانفريدي من فاينزا Galeotto Manfreddi of Faenza، الذي قتلته زوجته في ١٤٨٨، وبعض أفراد أسرة بينتيفوجليو Bentivoglio في بولونيا.

(٣٠) انظر .Anecd. Lit., ii, pp. 305 sqq., 405 وسخر باسينيوس Basinius of Parma البارمي من بوتشيلليو Porcellio وتوماسو سينيكا Tommaso Seneca؛ فإنهما كانا طفيليين محتاجين، ولا بد أن يلعبا دور الجند في أيام شيخوختهما، بينما كان هو نفسه يستمتع بأجر وفيللا .ager & villa ويظهر من وثيقة قانونية ترجع إلى حوالي عام ١٤٦٠ أن بعض الإنسانيين، مثل الاثنين الأخيرين، كانوا ما يزالون يحاولون إعاقة انتشار اليونانية.

(٣١) وعن التفاصيل فيما يتعلق بهذه القبور انظر كيسلر Keyssler, Neueste Reisen, p. 924 .

(٣٢) انظر .Pii, II Comment., ii, p. 92 ويعني بالتاريخ كل ما له علاقة بالعهد القديم. وينتقده كورتيسيوس أيضاً بشدة، صفحة ٣٤ وما بعدها.

الفصل السابع

استخراج العالم العهيد : المراسلات والخطب اللاتينية

على أنه كان هناك هدفان كان الإنساني من أجلهما شيئًا لا يستغنى عنه لدى كل من الجمهوريات فضلاً عن الأمراء أو الباباوات- وأعنى بهما المراسلات الرسمية للدولة وإلقاء الخطب فى المناسبات العامة والخطيرة الهامة.

فلم يكن يتطلب فى السكرتير أن يكون فقط متمكنًا مقتدرًا فى اللاتينية، بل على العكس لم يكن هناك من يُعترف له بالمعرفة والقدرة الضروريتين لمنصب السكرتير إلا الإنسانيون. وهكذا كان أعظم الرجال فى فلك العلوم أثناء القرن الخامس عشر يكرسون فى الأغلب الأعم شطرًا ضخمًا من حياتهم لخدمة الدولة فى هذا المضمار. ولم يكن أحد يعلق أهمية ما على أصل الرجل أو موطنه. فمن بين الرجال الأربعة العظماء من السكرتيرين الفلورنسيين الذين شغلوا المنصب فيما بين ١٤٢٧، ١٤٦٥ انتسب[1] ثلاثة إلى مدينة أريتزو الخاضعة- وهم: ليوناردو (برونى) Leonardo (Bruni) وكارلو (مارسوبّينى) Carlo (Marsuppini) وبينيديتو أكولتى Benedetto Accolti؛ وكان بوجّيو من تيرا نوفا Terra Nuova، وهى أيضًا واقعة فى الأراضى الفلورنسية. والواقع أنه مضت فترة طويلة، كان فيها كثير من أعلى المناصب فى الدولة يُمنح من حيث المبدأ للأجانب. وكان ليوناردو وبوجيو وجيانوزّو مانيتى يعملون فى يوم أو آخر من حياتهم سكرتيرين خصوصيين للباباوات، وأوشك كارلو أريتينو أن يكون مثلهم. وشغل نفس المنصب بلوندوس من فورلى، وعلى الرغم من كل شئ، شغله أخيرًا حتى لورينزو فالا نفسه. ومنذ عهد نيقولاس الخامس وبيوس الثانى فصاعدًا[2] ظلت دار المحفوظات البابوية

تجتذب أكثر فأكثر أكفأ الرجال، وبقى الحال على ذلك حتى فى عهد آخر باباوات القرن الخامس عشر وإن كانوا قوماً قل اهتمامهم بالأدب. ولو رجعنا إلى بلاتينا فى كتابه تاريخ الباباوات History of the Popes، تتجلى لنا حياة بولس الثانى فى صورة قطعة فاتنة من الانتقام الذى انتقم به إنسانيٌ من البابا الواحد الذى لم يعرف كيف يسلك سلوكًا كريمًا نحو دار محفوظاته (chancery) - أى نحو تلك الحلقة "من الشعراء والخطباء الذين أضفوا على البلاط البابوى مجداً عظيمًا يعادل ما تلقوه منه". ومن المبهج للمرء أن يشهد غضبة السادة الأكرمين المتكبرين والأثرياء، الذين كانوا يعرفون كما يعرف البابا نفسه كيف يستخدمون مركزهم فى نهب الأجانب[٣]، عندما كانت تحدث بعض المناوشات حول الأسبقية، أى عندما كان يحدث مثلاً أن محامى المحكمة الكنسية advocati consistoriales يدعى لنفسه رتبة مساوية أو أعلى من رتبتهم[٤]. والرسول يوحنا الذى كشفت أمام بصيرته الأسرار السماوية Secreta c?lestia؛ وسكرتير بورسينا Porsenna الذى حسب موشيوس سكافولا Mucius Scaevola خطأ أنه الملك؛ ومايتشيناس M?cenas الذى كان سكرتيراً خاصًا لأوغسطوس؛ ورؤساء الأساقفة الذين كانوا يسمون فى ألمانيا باسم المستشارين، كانوا قومًا يُلجأ إليهم واحداً بعد الآخر[٥].

> "فألقى على السكرتيرين الرسوليين عبء القيام بأفدح الأعمال وأثقلها. وإلا فمن غيرهم يستطيع أن يفصل فى أمور تتعلق بالعقيدة الكاثوليكية؟ ومن غيرهم يصارع الكفر ويقر السلام فى نصابه؟ ومن يتوسط بين عظماء الملوك؟ ومن عداهم يكتب البيانات والحسابات الإحصائية لعالم المسيحية؟ إنهم هم الذين يدهشون الملوك والأمراء والأمم بكل ما يصدر عن البابا. وهم الذين يكتبون الأوامر والتعليمات للممثلين البابويين (legates) ولا يتلقون أوامرهم إلا من البابا، الذى يقومون على خدمته ليل نهار".

على أن أعلى أوج للمجد لم يتسنمه إلا السكرتيران الشهيران صاحبا الأسلوب لدى ليو العاشر وهما بييترو بيمبو وچاكوبو سادوليتو[٦].



شكل (١١٣) بلاتينا

جزء من صورة "استقبال سيكستوس الرابع لبلاتينا"، لميلوتزو دا فورلى

روما، الفاتيكان

تكن جميع دور المحفوظات (chanceries) تخرج وثائق على درجة متساوية [illegible]
[illegible]. إذ كان شائعًا جدًا وجود ضرب من الأسلوب الرسمى الركيك يكتب با[illegible]
لاتينية. وتحتوى مستندات ووثائق ميلانو التى احتفظ بها كوريو Coric [illegible]
يسترعى الأنظار بين هذا النوع من الإنشاء وبين الرسائل القليلة التى [illegible]
بيت الإمارة، التى لا بد أنها كتبت هى أيضًا فى لحظات ذات أهمية حرجة[٢]
[illegible] اللاتينية الخالصة النقية [illegible] كان [illegible] أصول [illegible] الاحتفاظ
[illegible] لا [illegible] شائعة فى جمعية [illegible] بالإضافة إلى هؤلاء الموظفين، كان
[illegible] من كل نوع [illegible] وكثيرًا ما كان
[illegible] الرسائل [illegible] فى أيامنا هذه، وهو الإملاء
[illegible] أموال الكاتب، أو أخذ [illegible] الآخرين؛ لقد كان ذلك يعتبر بالأحرى
[illegible] ليكون دليلًا على التبحر فى العلم ولاكتساب [illegible] من يوجه إليهم
[illegible] وقد بدأت هذه الرسائل مبكرًا [illegible] إحداث [illegible]، كما أن
[illegible] الذى كان أول من أدخل هذا الشكل من كتابة الرسائل [illegible] أشكال الأسلوب
[illegible] القديم، واصفًا لفظة "أنت" "Thou" الكلاسيكية [illegible] لفظة "أنت" "You"

العادية المستعملة فى اللاتينية الوسيطية. وأصبحت الرسائل فى فترة تالية مجموعات من العبارات المدارة إدارة أنيقة، يشجع بمقتضاها الرعايا أو يحقرون، ويداهن الزملاء بالملق أو يهانون، ويثنى بالمديح على النصراء (Patrons) أو يتسول منهم(٨).



شكل (١١٤) بييترو بيمبو

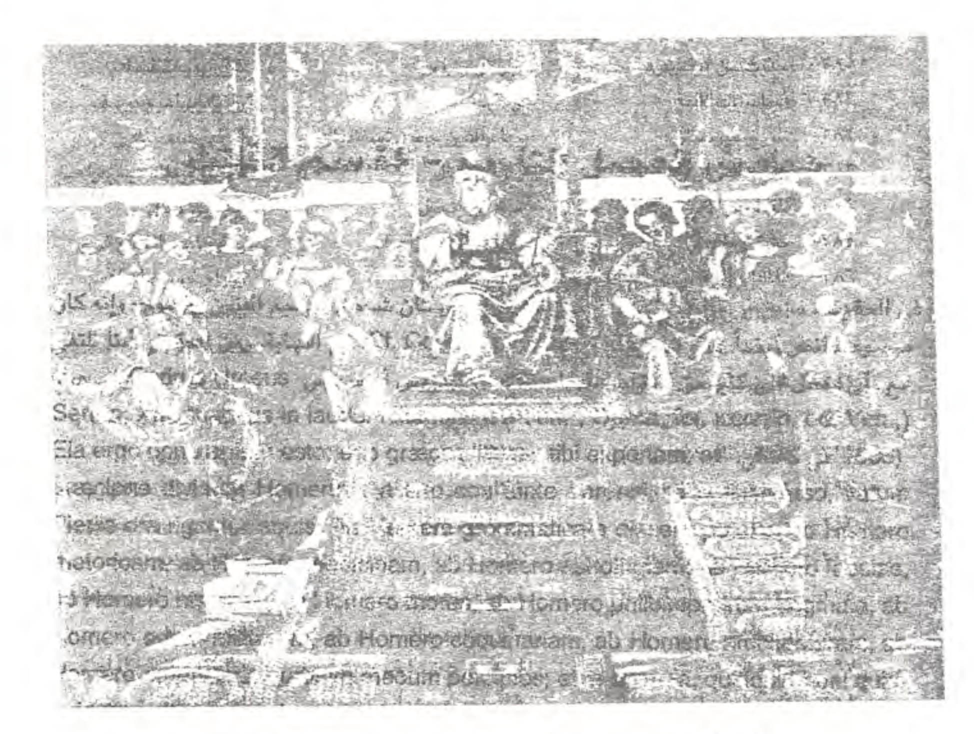
لتيتيان

روما، متحف باربينى

وأقبل القوم على رسائل شيشرون وبلينى وغيرهما يدرسونها فى ذلك الوقت بدأب شديد بوصفها نماذج تقتدى. ومنذ وقت مبكر هو القرن الخامس عشر ظهرت طائفة ضخمة من الصيغ والتعليمات اللازمة للمراسلات اللاتينية، كإضافة تضاف إلى الأعمال النحوية (الأجرومية) والمعجمية العظيمة، وهى أعمال يذهلنا كتلتها الضخمة حتى فى أيامنا هذه عندما ننظر إليها فى المكتبات. ولكن كما أن وجود هذه الأشياء المساعدة أغرى الكثيرين بالقيام بعمل ليس لهم به دراية حرفية، فكذلك دفع الرجال ذوو الاقتدار الحق إلى القيام بأعمال امتيازية أكثر صحة ولا يشوبها أدنى شية، حتى انتهى الأمر بأن ظهرت رسائل بوليتيان، كما ظهرت، عند بداية القرن السادس عشر، رسائل بييترو بيمبو، وتبوأت مكانتها كدرر يتيمة لا مثيل لها، وذلك ليس فى أسلوبها اللاتينى بصفة عامة وحسب، لكن أيضاً بوصفها نماذج للفن الأكثر خصوصية، فن كتابة الرسائل.

وبالإضافة إلى هذه ظهر في القرن السادس عشر الأسلوب الكلاسيكي للمراسلات الإيطالية، وهو الذي يقف على قمته بيمبو ثانية[٩]. وصيغة ذلك الأسلوب عصرية بحتة كما أنها تستبعد منها المؤثرات اللاتينية استبعاداً مقصوداً، على أن روحها تخترقها الاختراق التام وتمتلكها كل الامتلاك فكرات العالم العهيد. وتكتب هذه الرسائل في الأغلب الأعم، وإن كانت ذات طبيعة سرية من ناحية جزئية، مع نظرة إلى إمكان نشرها في المستقبل، كما تسطر دائماً في حدود افتراض أنها قد تكون جديرة بأن تعرض على المسامع والأنظار من أجل ما تحوي من رشاقة. وبعد عام ١٥٢٠ طفقت مجموعات مطبوعة منها تظهر في الأسواق، إما تضم رسائل مراسلين شتى في تعاقب غير منتظم، وإما لكتاب مفردين بأعينهم؛ وهنا حاز بيمبو ذاته، الذي طبقت شهرته الآفاق كمراسل لاتيني، مركزاً سامياً في لغته الأصلية - أعني الإيطالية[١٠].

غير أنه في زمان، وبين شعب "الاستماع" لديه من أغلى مسرات الحياة، حيث كل خيال مفعم بذكرى مجلس الشيوخ الروماني وخطبائه المفوهين، كان الخطيب يحتل مكاناً أعظم كثيراً من كاتب الرسائل[١١]. وقد هزت الفصاحة مكانة الكنيسة ونفوذها، التي فيها وجدت تلك الخطابة ملاذاً أثناء العصور الوسطى، فأصبحت الآن عنصراً هاماً لا يستغنى عنه وحلية للحياة الرفيعة بأسرها. وغدت كثير من الساعات الاجتماعية، التي كانت تُملأ حتى آنئذ بالموسيقى، توجه آنذاك إلى الخطابة اللاتينية أو الإيطالية؛ ومع هذا فإن بارثولوميو فاشيو طالما شكا من أن خطباء عصره كانوا ضعافاً بالموازنة إلى أمثالهم في العالم العهيد؛ فمن بين أضربٍ ثلاثة من الخطابة كانت أبوابها مفتوحة للأخيرين لم يتبق للأولين إلا ضرب واحد فقط، وذلك لأن الخطابة القضائية الجدلية قد هُجرت وسُلمت لرجال القانون، كما أنه أصبح لزاماً أن تُلقى الخطب في مجالس الحكومة بالإيطالية[١٢].



شكل (١١) إيبياس سيفوريس يلقي خطابه [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فأما المركز الاجتماعي للخطيب [illegible] إطلاقًا [illegible]
مطلوبًا إنما هو بمساعدة الوسط المثقف [illegible]
[illegible] كاستيلو Castello de [illegible]
أكثر ميلاً لخدمات النهضة عند زيارة فردريك الثالث وزيارة البابا بيوس الثاني[٣٦]
وكان [illegible] المتأخرون [illegible] في أي عرض [illegible]
الاحتفال [illegible] بل حتى في أيام أعياد القديسين. وقد حيل للأعضاء [illegible]
الإيطاليين في مجلس بازل (بال) في بعض الأحيان أن [illegible] بعض [illegible]

كبير أساقفة ميلانو، إينياس سيلفيوس، الذى لم يكن رُسِّمَ قسيسًا آنذاك، ليلقى حديثًا عامًا فى عيد القديس أمبروجيوس؛ على أنهم تقبلوا ذلك رغم دمدمات التذمر من رجال اللاهوت، وأصغوا إلى المتحدث بأعظم تطلع وانتباه[١٤].

وسنلقى الآن نظرة عجلى إلى أكثر مناسبات الخطب العامة شيوعًا وأشدها أهمية.

لم يكن من العبث غير المجدى، فى المقام الأول، أن يلقب السفراء المبعوثون من دولة إلى أخرى بلقب الخطباء. ومهما يكن شأن ما قد يعمل فى مجال المفاوضات السرية فإن المبعوث لم يكن يفوته على الإطلاق أن يظهر ظهورًا علنيًا على الملأ ويلقى خطابة عامة، فى ظل أعظم ما يستطاع من فخامة ومراسم احتفال[١٥]. على أنه جرت العادة بأنه مهما كبر حجم السفارة أن يتحدث فرد واحد عن الجميع؛ ولكن حدث لبيوس الثانى، وهو ناقد كان الجميع يسرهم أن يسمعهم، أن اضطر أن يصغى إلى وفد بأكمله، خطبوا أمامه الواحد تلو الآخر[١٦]. وكان الأمراء المتبحرون فى العلم ممن أوتوا موهبة الخطابة مغرمين هم أنفسهم بإلقاء الخطابات باللاتينية أو الإيطالية. وكان أطفال بيت سفورزا يدربون على هذه التدريبات. فإن الغلام جالياتزو ماريا ألقى فى ١٤٥٥ خطابًا متدفقًا أمام المجلس الكبير فى البندقية[١٧]، كما أن شقيقته إيبوليتا حيت البابا بيوس الثانى بخطاب رشيق فى مؤتمر مانتوا[١٨]. والحق إن بيوس نفسه راح طوال حياته كلها يستغل بشدة قدرته على الخطابة فى تمهيد السبيل لنفسه لكى يصعد فى النهاية إلى سدة البابوية. وعلى قدر عظمته كَعَلاَّمة ودبلوماسى، فإنه لم يكن فى الراجح ليتبوأ قط منصبه البابوى لولا ما رزق من شهرة وسحر فى فصاحته. "إذ لم يكن هناك شئ أرفع من كرامة خطابته"[١٩]. ولا مراء أن هذا كان سببًا فى أن جماهير غفيرة كانت تعدَّه أكفأ رجل لشغل ذلك المنصب، حتى قبل انتخابه.

وجرت العادة بأن يُستقبل الأمراء أيضًا فى المناسبات العامة بالخطب التى كانت تدوم ساعات أحيانًا. وكان ذلك يحدث فقط، بطبيعة الحال، عندما كان الأمير يُعرف بحبه للفصاحة[٢٠]؛ أو كان يرغب أن يُعرف بهذا، وكذلك عندما كان أحد المقتدرين فى

الخطابة حاضرًا، سواء أكان أستاذًا جامعيًا أو موظفًا أو رجل دين أو طبيبًا أو علاّمة في البلاط.

وكانت كل فرصة سياسية أخرى يتم انتهازها بنفس الدرجة من التلهف، كما أن احتشاد محبي الثقافة كان يعظم أو يصغر على قدر سمعة الخطيب. وفي عملية التغيير السنوية للموظفين العموميين، بل حتى عند تكريس الأساقفة الجدد، كان من المؤكد أن يتقدم أحد الإنسانيين فيخاطب جمهوره أحيانًا بالشعر المنظوم على ستة مقاطع او المقطعات الصافوية[٢١] (Sapphic verses) . وكثيرًا ما كان موظف حديث التعيين يضطر إلى إلقاء خطاب يرتبط كثيرًا أو قليلاً بنوعية عمله، كأن يتحدث مثلاً عن العدالة؛ ويكون من حسن طالعه أن يجيد أداء دوره! وكان يحدث في فلورنسا أنه حتى قواد المرتزقة condottieri، مهما يكن أصلهم أو تعليمهم، كانوا يضطرون اضطرارًا إلى التوفيق بين أنفسهم وبين العاطفة الشعبية، وكانوا يتلقون عند تسلمهم شارة منصبهم خطابًا رنانًا امام الجمهور المحتشد من أوسع سكرتيري الدولة علمًا[٢٢]. ويبدو أنه كانت تقام تحت أو بالقرب من اللوجيا دي لانتزي Loggia dei Lanzi - وهي البوابة المسقوفة التي اعتادت الحكومة أن تظهر فيها بوقار أمام الشعب– منصة أو منبر(rostia, ringhiera) لمثل هذه الأغراض.

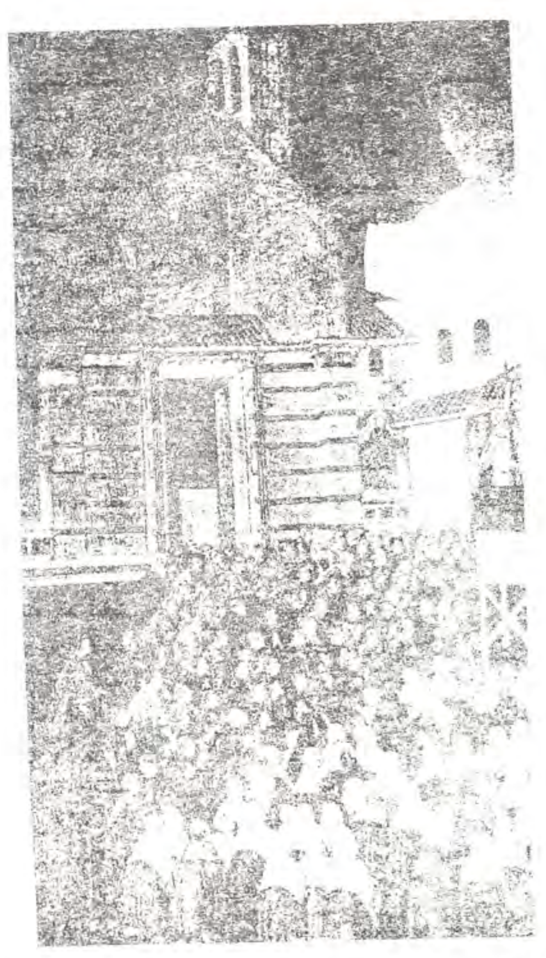
وكانت الاحتفالات السنوية، وبخاصة تلك التي تقام لذكرى وفاة الأمراء، تقرن عادة بخطب تذكارية. بل لقد بلغ الأمر أنه حتى الخطاب الجنازي الذي يسمى بهذا الاسم الدقيق كان يوكل على الجملة إلى أحد الإنسانيين، الذي كان يلقيه في الكنيسة، مرتديًا ملابس دنيوية عادية؛ ولم يقتصر أمر إسباغ هذا الشرف والتكريم على الأمراء وحدهم، بل تعداهم إلى الموظفين أو الأشخاص المتميزين بمميزات أخرى[٢٣]. وكان ذلك أيضاً هو الحال في الخطب التي تقال في الزفاف أو عقد الخطبة، مع فارق هي أنها كانت تلقى في القصر بدلاً من الكنيسة، كتلك التي ألقاها فيليلفو لمناسبة عقد خطبة أنّا سفورزا على ألفونسو ديستي Alfonso d'Este في قلعة ميلانو. ومن الممكن أن الاحتفال ربما قد أقيم في الكنيسة الصغيرة الملحقة بالقلعة. ولا شك أن علية العائلات

الممتازة كانت تستخدم خطباء الزفاف هؤلاء بوصفهم أحد دلائل الترف بين طبقات المجتمع السامي، وطلب من جوارينو في فيرارا أن يرسل أحداً من تلاميذه في هذه المناسبات[٢٤]. واقتصر عمل الكنيسة على القيام بالمراسم الدينية في حفلات الزفاف والجنائز.

وكانت الخطب الأكاديمية، سواء ما كان منها يلقى عند تنصيب معلم جديد أو افتتاح دورة جديدة من المحاضرات[٢٥]، تلقى على يد الأستاذ نفسه، وتعامل بوصفها فرصة لتجلية المواهب البيانية العظيمة. هذا إلى أن المحاضرات الجامعية العادية كانت لها كذلك في المعتاد سمة خطابية[٢٦].

أما فيما يتعلق بفصاحة التناظر الجدلي، فإن طابع الجمهور وكنهه كانت العامل الذي يحدد شكل الخطاب. فإذا اقتضت الحاجة أُثري الكلام بكل صنوف التبحر العلمي الفلسفي والعهيدي.

وقد يجوز لنا أن نذكر على سبيل المثال لنوع خاص من الخطب الكلمات التي كانت تلقى بالإيطالية في ساحات المعارك، إما قبل النزال أو بعده. ويعد فيديريجو من أوربينو[٢٧] مثلاً كلاسيكيًا في هذا الأسلوب؛ واعتاد أن يمر بين مفرزاته (كتائبه) من الجند وهم يقفون مصطفين في هيئة المعركة والقتال، وهو يبثهم بدوره بالكبرياء والحماسة والإقدام. وربما كان الواقع وحقيقة الأمر، على الأقل، أن كثيراً من الخطب الواردة في كتب المؤرخين العسكريين في القرن الخامس عشر، مثل الواردة عن بورسيليوس (القسم الأول، الفصل التاسع)، خيالية، على أنها ربما كانت أيضًا من ناحية جزئية تمثيلاً صادقًا لكلمات قيلت فعلا. بيد أن الخطب التي كانت تلقى، من الناحية الأخرى، على الميليشيا الفلورنسية[٢٨]، التي شكلت في ١٥٠٦ بتأثير ماكيافيللي بوجه خاص، والتي كانت تلقى أولاً في الاستعراضات العسكرية، ثم تلقى بعد ذلك في الأعياد السنوية الخاصة، كانت من نوع آخر. كانت ببساطة مجرد مناشدات عمومية لوطنية السامعين، كما كانت توجه إلى الجند المجتمعة بكنيسة كل حي من أحياء المدينة على لسان مواطن شاكي السلاح شاهر سيفه.



شكل (١١٦) القديس برناردينو يعظ أمام كنيسة سان فرانشيسكو في سيينا
سانو دي بييترو
سيينا، الكاتدرائية
تصوير الباحث

وأخيراً بدأت خطابة الفن في القرن الخامس عشر تفقد خصوصيتها المتميزة، بفضل كثير من رجال الدين في دوائر الثقافة الكلاسيكية، كما كانوا يطمحون إلى الجمال في خطاباتهم. فإن واعظ الشارع برناردينو دا سيينا Bernardino da Sienna،

الذى بلغ الأمر به أن عُد إبان حياته قديساً، والذى كان الأهالى يعبدونه عبادة، لم يكن فوق تلقى الدروس فى علم البيان على يد جواريتو ذائع الصيت، وإن كان لا يلقى عظاته إلا بالإيطالية. ولم يكن أحد يتوقع البتة، والحق يقال، من الوعاظ- ولا سيما وعاظ الصوم الكبير (Lenten)، شيئًا أكبر مما كانوا يتوقعونه فى ذلك الزمان؛ كما أنه لم تكن هناك جماهير قليلة لا تحتمل فقط وإنما تطالب بجرعة قوية من الفلسفة تلقى من على المنبر(٢٩). على أننا سوف نلتزم هنا أن نتحدث بوجه خاص عن الوعاظ المتازين الذين يظهرون بين حين وآخر فى اللاتينية، حيث أميطت عنهم كثير من فرصهم، كما لاحظ ذلك الرجال العلمانيون من العلماء. وهناك خطب كانت تترك دائما كلها للعلمانيين(٣٠) من الرجال مثل خطب أعياد لقديسين معينين، وخطب الزفاف والجنازات أو خطب تنصيب أسقف، بل حتى عند خطاب الاستهلال لأول قداس يعقده صديق من رجال الكهنوت أو خطاب الاحتفال بمناسبة دينية ما. وعلى كل حال فإن الذى كان يحدث فى البلاط البابوى أثناء القرن الخامس عشر، مهما تكن المناسبة، أن الوعاظ كانوا على الجملة من الرهبان. وكان جياكومو دا ڤولتيرا Giacomo da Volterra يقوم بانتظام فى عهد سيكستوس الرابع بحصر هؤلاء الوعاظ كما أنه ينتقدهم طبقًا لقواعد الفن(٣١). وعندى أن فيدرا إنجرامى Fedra Inghirami، الذى اشتهر خطيبًا فى عهد يوليوس الثانى، رسم على الأقل قسيسًا وشغل منصب كاهن بكنيسة لاتيران القديس يوحنا؛ وبالإضافة إليه كان المتقنون للاتينية منتشرين آنذاك بالقدر الكافى بين كبار المطارنة. وفى هذا الصدد كما فى غيره كان الامتياز المبالغ فيه الذى يحظى به الإنسانيون المجدفون أقل قوة فى أثناء القرن السادس عشر- وهى نقطة سنحدثك عنها من فورنا ببيان أوفى.

والآن، ماذا كان موضوع تلك الخطب وطابعها العام؟ لم تكن تعوز إيطاليىّ العصور الوسطى موهبة الفصاحة القومية، كما أن شيئًا يطلق عليه اسم "علم البيان" ينتسب منذ البداية إلى الفنون الحرة السبعة؛ ولكن بقدر ما كان الأمر يتعلق بإحياء المناهج القديمة، ينبغى أن ينسب هذا الفضل طبقًا لما حدده فيليبو فيلانى(٣٢) إلى

الفلورنسي برونو كاسيني Bruno Casini الذي توفي بالطاعون في عام ١٣٤٨، وظل- مدفوعاً بأهداف عملية هي إعداد مواطنيه للخطابة بيسر وحسن تأثير على الملأ- يعالج على نسق القدماء، الابتداع والإلقاء، والهيئة والطريقة، والإشارة والإيماء، كلاً منها في علاقته الصحيحة. ونقرأ أيضاً بمواطن أخرى عن تدريب خطابي يوجه فقط إلى التطبيق العملي وحده. وليس بين مناقب الناس ومهاراتهم ما كان يتفوق تقديره عندهم على القدرة على الارتجال الرشيق في اللاتينية[٣٣]. ولا شك أن الإقبال المتزايد على دراسة خطب شيشرون وكتاباته النظرية وكوينتيليان والمادحين للأباطرة وظهور دراسات جديدة[٣٤] وأصيلة، فضلاً عن التقدم العام في الدراسات العهيدية وخزائن المواد والفكر القديمة، التي اصبح من الممكن بل اللازم اليوم أن تورد وتنتهل، قد اجتمعت كلها لتشكل طابع الفصاحة الجديدة.



شكل (١١٧) تقديم خطاب مديح إلى الدوج باربارجو (١٤٨٦) من كابيللو

منمنمة من مخطوط بالمتحف البريطاني

على أن هذا الطابع يختلف اختلافًا بعيدًا تبعًا للفرد. فإن كثيرًا من الخطب تنطق بروح من الفصاحة الحقة، وبخاصة تلك التي تتمسك بالمادة المعالجة، ومن هذا القبيل تلك المجموعة الباقية لنا عن بيوس الثاني. ويشير التأثير الإعجازي الذي ينتجه جيانوتزو مانيتّي[٣٥] إلى خطيب لم ير له مثيل كثيرًا على كر التاريخ. وكانت احتشادات الجماهير الضخمة المحتشدة لسماعه حين يمثل مبعوثًا أمام نيقولاس الخامس وأمام الدوج (Doge) ومجلس البندقية أحداثًا لا يمكن نسيانها بسرعة. وعلى النقيض من ذلك، كان كثير من الخطباء ينتهزون الفرصة ليس فقط لتمليق غرور النابهين من سامعيهم، بل أيضا لشحن خطبهم بقدر هائل من الهراء العهيدي القديم. فكيف يمكن تحمل هذا الألم مدة ساعتين بل حتى ثلاث ؟ ذلك أمر لا يمكن تفهمه إلا متى وضعنا في حسباننا الاهتمام الحاد الذي كان الناس يحسونه آنذاك نحو أي شئ يتصل بالزمن العهيد، وندرة وكثرة عيوب الدراسات المكتوبة في ذلك الموضوع في وقت لم تكن الطباعة فيه إلا ضيقة الانتشار. إن مثل هذه الخطب كان لها على الأقل القيمة التي ادعيناها (القسم الثالث، الفصل السابع) لكثير من رسائل بترارك. على أن بعض الخطباء كانوا يتزيدون. فكانت معظم خطب فيليلفو نسيجًا مرقعًا شنيعًا من الاقتباسات الكلاسيكية والكتابية (أي المأخوذة عن الكتاب المقدس) جمعت في عجلة لتكون خيطًا من الأمور العادية البحتة، يوجه في أثنائها الخطاب إلى كبار القوم الذين يريد تمليقهم مرتبة تحت عنوان الفضائل الأصلية، أو ما ماثلها من عناوين، ولذا فإننا نعاني أشد المتاعب، في حالته هو وحالة كثير غيره، حين نحاول أن نستخلص الملحوظات التاريخية القليلة ذات القيمة التي تحتويها تلك الخطب حقًا. وعلى سبيل المثال تستهل خطبة علامة وأستاذ من بياتشنزا في استقبال الدوق جالياتزو ماريا في ١٤٦٧، بيوليوس قيصر، ثم إذا به يمضي فيخلط كتلة مكدسة من الاقتباسات الكلاسيكية مع مجموعة مأخوذة عن عمل مجازي رمزي من وضع الخطيب نفسه، ثم يختتم بنصيحة مجردة من الحكمة والحصافة وجهها إلى الحاكم[٣٦]. ومن يمن الطالع أن الوقت كان متأخرًا واكتفى ورضي الخطيب بتقديمه نسخة مكتوبة من مدحته إلى الأمير. ويبدأ فيليلفو حديثه في حفل خطبة عروس بكلمتي "أرسطوطاليس، المشائي . "Aristotle, the peripatetic

ويبدأ آخرون بقول "ب. كورنليوس سكيبيو "P. Cornelius Scipio، وما شاكل ذلك، وكأنما لا هم ولا سامعوهم كانوا مستطيعين الانتظار حتى يأتيهم باقتباس من الأدب القديم. وعند نهاية القرن الخامس عشر تحسن الذوق العام تحسنًا مفاجئًا وكان ذلك بوجه خاص عن طريق التأثير الفلورنسي، وأصبحت ممارسة الاقتباس محدودة بالحدود المناسبة. وأصبحت كثير من كتب المراجع موجودة يستطيع المتهل منها أن يجد قدر ما يريد مما كان حتى آنذاك موضع إعجاب الأمراء والناس.

ولما كانت معظم الخطب تكتب مقدمًا في المكتب، فإن مخطوطاتها كانت تصبح وسيلة لدعاية جديدة فيما بعد. على أنه من الناحية الأخرى كان يصحب الخطباء المرتجلين العظماء قوم مهمتهم الاختزال[٣٧]. وينبغي لنا بعد ذلك أن نتذكر أن معظم الخطب التي وصلت إلى أيدينا لم يكن المقصود بها أن تلقى فعلاً. فإن خطب المديح لبروالدس Beroaldus الأكبر مثلاً في لودوفيكو إيل مورو قدمت إليه كنسخة خطية[٣٨]. والواقع أنه كما أن الرسائل كانت تكتب معنونة إلى كل من يمكن تصوره من الأشخاص ومن أنحاء العالم بوصفها تدريبات أو صيغ محتذاة أو حتى لتقوم بغرض جدلي، فكذلك كانت هناك خطب تعد لمناسبات خيالية[٣٩] يقصد بها أن تستخدم نماذج في استقبال الأمراء والأساقفة وغيرهم من علية القوم.

على أن وفاة البابا ليو العاشر (١٥٢١) ونهب روما (١٥٢٧) يؤذنان للخطابة فضلاً عن غيرها من الفنون بفترة هبوط. وإن چيوفيو[٤٠] الذي نجا بشق النفس مما حل بالمدينة الخالدة Eternal City من تدمير، ليصف، لا بطريقة التقصي الدقيق، ولكن بلسان الصدق على الجملة، أسباب ذلك الانحطاط:

> "تستبعد مسرحيات بلاوتوس Pläutus وتيرينس Terence، التي كانت يومًا مدرسة في الأسلوب اللاتيني للرومان المتعلمين القدماء لتخلي مكانها للكوميديات الإيطالية. ولم يعد الخطباء رشيقو العبارة يجدون الاعتراف والجزاء الذي كانوا يحصلون عليه ذات يوم. ولم يعد محامو المحكمة الكنسية يعدون شيئًا إلا مقدمات خطبهم، ويلقون بقيتها- وهو

كتلة مكدسة مضطربة- حسب وحي اللحظة. وهبطت العظات الدينية وخطب المناسبات إلى المستوى نفسه. فإن احتاج الأمر إلى خطبة جنازية لأحد الكرادلة أو الشخصيات الكبيرة لم يلجأ القائمون عليها إلى خير خطيب في المدينة، ممن يلتزمون أن يدفعوا له مئة قطعة من الذهب، ولكنهم يستأجرون لأمر تافه أول مدع وقح للعلم يقدمن عليه صدقة، ممن لا يبغي شيئًا إلا أن يتحدث الناس عنه سواء حديث الخير أم السوء. وهم يقولون إن الميت لن يزداد حكمة وعقلاً لو وقف في المنبر قرد في ثياب سوداء وبدأ حديثه بدمدمة مبحوحة هامسة، ثم ينتقل رويدًا رويدًا إلى عواء عال. بل إنه حتى العظات التي تلقى في الاحتفالات البابوية الكبرى لم تعد لها أي جدوى مالية، شأنها فيما سبق من الزمان. وعاد الرهبان من جميع الطوائف إلى وضع أيديهم على العظات، وأخذوا يعظون كأنما يتحدثون إلى الرعاع والدهماء. وقبل هذا بسنوات قليلة فحسب ربما كانت عظة تلقى في قداس أمام البابا تمهد السبيل بكل يسر إلى منصب الأسقفية[*].

هوامش الفصل السابع - القسم الثالث

(١) انظر فابروني Fabroni, Cosmus, Adnol. 117؛ وفيسبازيانو فيورينتينو Vespas. Fiorent., passim. ويمكن العثور في إينياس سيلفيوس Æneas Sylvius, De Europa, cap. 54 (Opera, p. 454)، على فقرة مُهِمَّة تتعلق بمطالب الفلورنسيين من سكرتيريهم (يقول ب. فاتشيوس B. Facius متحدثًا عن تعيين بوجّيو سكرتيرًا: "(quod honor apud Florentinos magnus habetur*)".

(٢) انظر فويجت Voigt, En. Silvio als Papst Pius II, Bd. iii, 488 sqq.، عن التغيير، الذي كثيرًا ما كان يناقش وكثيراً ما كان يساء فهمه، الذي أجراه بيوس الثاني فيما يتعلق بالمختزلين. انظر أيضًا Cf. Pastor, Papste, ii, p. 304.

(٣) انظر أيضًا بيان جاكوب شبيجل Jacob Spiegel (1521) المقدم في تقارير أكاديمية فيينا Vienna Academy, lxxviii, 333.

(٤) انظر Anecd. Lit., i, pp. 119 sqq.. واسترحام (Actio ad Cardinales Deputatos) جاكوبوس فولاتيرّانوس Jacobus Volaterranus باسم السكرتيرين، الذي لا شك أنه يرجع إلى عهد سيكستوس الرابع (فويجت، الموضع المذكور، صفحة ٥٥٢، الحاشية). والدعاوى الإنسانية من advocati consistoriales تستقر على خطابتهم، كما تستقر تلك الخاصة بالسكرتيرين على مراسلاتهم.

(٥) وكان إينياس سيلفيوس خبيرًا بمكتب المحفوظات الإمبراطوري في عهد فريدريك الثالث. انظر أيضًا Cf. Epist. 23 and 105 (Opera, pp. 516 and 607).

(٦) وقد طبعت رسائل بيمبو وسادوليتو مكررًا؛ ورسائل الأول، على سبيل المثال، في Opera, vol. ii (Basel, 1556)، حيث كانت الرسائل المكتوبة باسم ليو العاشر مميزة من الرسائل الخاصة؛ ورسائل الأخير أكثر شمولاً (خمسة مجلدات، روما، ١٧٦٠). وقد قدمت بعض الإضافات لكليهما على يد كارلو مالاجولا في مجلة Il Baretti (Turin, 1875). وسيتم التحدث عن أسالوني Asaloni ليمبو في أسفله؛ وقد تم الحكم كالتالي على أهمية تلك الخاصة بسادوليتو للأسلوب اللاتيني على يد معاصر له هو بتروس ألسيونيوس Petrus Alcyonius, De Exilio, ed. Mencken, p. 119: "Solus autem nostrorum temporum aut certe cum paucis animadvertit elocutionem emendatam et latinam esse fundamentum oratoris; ad eamque obtinendam necesse esse latinam linguam expurgate quam inquinarunt nonnulli exquisitarum literarum omnino rudes et nullius judicii homines, qui partim a circumpadanis municpiis partim ex transalpinis provinciis, in hanc urbem confluxerunt. Emendavit igitur eruditiss-

mus hic vir corruptam et vitiosam linguæ latinæ consuetudinem, pura ac integra loquendi ratione" .

(٧) انظر كـوريو Corio, Storia di Milano, fol. 449، عن رسـالة إيزابيلا من أراجـون إلى والدها، ألفونسو من نابولي؛ fols. 451, 464، ورسـالتين من المغربي the Moor إلى شـارل الثامن. انظر أيضًا القصـة في Cf. Lettere Pittoriche, iii, 86 (Sebastiano del Piombo to Aretino)، كيف أن كليمنت السابع خلال نهب روما دعا الرجال المثقفين حوله، وجعل كل منهم يكتب على حدة رسالة إلى شارل الخامس.

(٨) عن مراسلات تلك الفترة بصفة عامة انظر فويجت Voigt, Wiederbelebung, 414-427 .

(٩) ووجد بيمبو أنه من الضروري أن يعتذر عن الكتابة بالإيطالية Ad Sempronium, Bembi Opera, vol. iii, 156 sqq. (Basel, 1556) .

(١٠) وعن مجموعة رسائل أريتينو انظر أعلاه الفصل الرابع، القسم الثاني وهامش ٣٤ فيه. وطبعت مجموعات الرسائل اللاتينية حتى في القرن الخامس عشر.

(١١) انظر أيضًا خطب فيليلفوس وسابيليكوس وبيروالدوس، إلخ.، وكتابات وحيوات جيانوتزو مانيتّي وإينياس سيلفيوس وغيرهما.

(١٢) انظر ب. ف. B. F., De Vir. Ill., ed. Mehus, p. 7.. ومانيتّي، كما ينص فيسبازيانو بيستيتشي في Comment., p. 51، قدم خطبًا كثيرة بالإيطالية، ثم بعد ذلك دوّنها باللاتينية. وكان علماء القرن الخامس عشر- باولو كورتيزي مثلاً- يحكمون على إنجازات الماضي فقط من وجهة نظر Eloquentia .

(١٣) انظر Diario Ferrarese, in Murat, xxiv, col. 198, 205 .

(١٤) انظر Pii II Comment., lib. i, p.10 .

(١٥) كان نجاح الخطيب المحظوظ عظيمًا، وكان خزي الخطيب الذي يفشل أمام الجهور لا يقل عظمة. والأمثلة على الحالة الأخيرة في بيتروس كرينيتوس Petrus Crinitus, De Honesta Disciplina, v, cap. 3. انظر أيضًا فيسبازيانو فيورينتينو صفحات ٣١٩ و٤٣١

(١٦) انظر Pii II Comment., lib. iv, p.205. وكـان هناك بعض الرومـانيين أيضًـا الذين انتظروه في فيتيربو. "Singuli per se verba fecere, ne alius alio melior vederetur, cum essent eloquentia ferme pares". ويضع جويتشـارديني جديًا (في بداية الكتاب الأول) حقيقة أن أسقف أريتزو لم يُسمح له بالتحدث باسم السفارة العامة للولايات (الدول) الإيطالية إلى اسكندر السادس المنتخب حديثًا، من بين الأسباب التي ساعدت على إحداث كارثة عام ١٤٩٤

(١٧) حكاها مارين سانودو Marin Sanudo, in Murat., xxii, col. 1160 .

(١٨) انظر Pii II Comment., lib. ii, p.107. وانظر أيضًا صفحة ٨٧، وألقت أميرة أخرى من أميرات الخطابة، وهي مادونّا باتّيستا مونتيفيلترو، التي كانت متزوجة من واحد من أسرة مالاتيستا، خطبة على سيجسموند ومارتين. انظر أيضًا Cf. Archiv. Stor., iv, i, p. 422, note .

(١٩) انظر De Expeditione in Turcas, in Murat., xxiii, col. 68. وينُص على: "Nihil enim Pii concionantis majestate sublimius". ناهيك عن السرور الساذج الذى يصف به بيوس انتصاراته الخاصة، انظر كامبانوس .Campanus, Vita Pii II, in Murat., iii, ii, passim وفى فترة تالية كانت هذه الخطب يتم الحكم عليها بطريقة أقل إعجابًا. انظر أيضاً فويجت ,Cf. Voigt, Enea Silvio ii, 275 sqq.

(٢٠) وتنهد شارل الخامس فى أنن چيوڤيو، عندما لم يستطع فى إحدى المناسبات أن يتابع التانق البلاغى لخطيب باللاتينية فى چنوا: "آه، كان معلمى ادريان مصيبًا عندما أخبرنى أنى يجب أن أعاقب من أجل كسلى الطفولى فى تعلم اللاتينية". انظر باول. چوڤيوس .Paul. Jovius, Vita Hadriani VI وكان الأمراء يجيبون على هذه الخطب من خلال خطبائهم الرسميين: فريديريك الثالث من خلال إينياس سيلڤيوس، رداً على جيانوتزو مانيتى. انظر ڤيسبازيانو بيستيتشى ,.Vespas. Bisticci, Comment p. 64.

(٢١) انظر ليل. جريج. جيرالدوس .Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temp., ed. Wotke, p 72. متحدثًا عن كوالينوتشيو. وقدم فيليلفو، وهو ليس رجل دين بل رجلاً علمانيًا متزوجًا، خطبة تقدمة فى الكاتدرائية فى كومو للأسقف سكارامبى Scarampi فى ١٤٦٠. انظر روسمينى -Rosmini, Fi lelfo, ii, 122, iii, 147.

(٢٢) انظر فابرونى Fabroni, Cosmus, Adnot. 52.

(٢٣) التى، مع ذلك، تسببت فى بعض الإساءة لچاك. ڤولاتيرانوس ,Jac. Volaterranus (in Murat., xxiii (col. 171 فى القداس المقام فى ذكرى بلاتينا

(٢٤) انظر Anecd. Lit., i, p. 299، فى خطبة فيدرا فى جنازة لود. بوداكاتارو Lod. Podacataro، الذى كان جوارينو يستخدمه فى العادة فى هذه المناسبات. وقدم جوارينو نفسه أكثر من خمسين خطبة فى الاحتفالات والجنائز، التى عددها روسمينى .Rosmini, Guarino, ii, 139-146 بوركهارت، ٢٢٣، ويلاحظ هنا الدكتور جايجر أن البندقية أيضًا كان لديها خطباء محترفون. انظر أيضًا فويجت – س. ج. ش. م (S. G. C. M.).

(٢٥) كثير من هذه المحاضرات الافتتاحية حفظت فى أعمال سابيليكوس، وبيروالدوس الأكبر وكودروس أورسيوس، الخ. وفى أعمال الأخير توجد هناك أيضًا بعض القصائد التى ألقاها "in principio studii".

(٢٦) وشهرة إلقاء بومبوناتزو Pomponazzo محفوظة فى باول. چوڤيوس .Paul. Jovius, Elogia Vir Doit., p. 134، وبوجه عام فإنه يظهر أن الخطب، التى كان شكلها مطلوبًا أن يكون كاملاً، كانت تحفظ عن ظهر قلب. وفى حالة جيانوتزو مانيتّى فنحن نعلم بصورة قاطعة أن الأمر كان كذلك فى مناسبة واحدة .(Comment., 39) انظر، مع ذلك، الوصف صفحة ٦٤، بالإضافة إلى التصريح الذى يخلص إلى أن مانيتّى كان يلقى مرتجلاً impromptu أفضل من أريتينو مع أنه كان يحضر الخطبة مسبقًا. ويخبرونا عن كودروس أرسيوس، الذى كانت ذاكرته ضعيفة، أنه كان يقرأ خطبه (Vita, at the end of his works, fol. lxx., Venice, 1506). والفقرة التالية ستوضح القيمة المبالغ فيها الموضوعة

على فن الخطابة: "Ausim affirmare perfectum oratorem (si quisquam modo sit perfectus orator) ita facile posse nitorem, lætitiam, lumina et umbras rebus dare quas oratione exponendas suscipit, ut pictorem suis coloribus et pigmentis facere videmus" (Petr. Alcyonius, De exilio, ed. Mencken, p. 136).

(٢٧) انظر فيسبازيانو فيورينتينو صفحة ١٠٣، وانظر أيضًا صفحة ٥٩٨، حيث يصف كيف جاءه جيانوتزو مانيتّي في المعسكر.

(٢٨) انظر .Archiv. Stor., xv, pp. 113, 121 وانظر مقدمة كانيستريني Canestrini صفحات ٣٢ وما بعدها. والتقارير عن اثنتين من مثل هذه الخطب للجنود؛ الأول على يد ألاماني دقيق بصورة رائعة وجدير بالمناسبة (١٥٢٨).

(٢٩) عن هذه النقطة انظر فاوستينوس تيردوسيوس Faustinus Terdoceus، في هجائيته De Triumpho Stultitiæ, lib. ii.

(٣٠) وكلٍ من هاتين الحالتين الرائعتين تحدثان في سابيليكوس .Sabellicus, Opera, fol. 61-82 الأولى De Origine et Auctu Religionis التي ألقيت من على المنبر أمام الرهبان الحفاة الأقدام؛ والثانية De Sacerdotii Laudibus التي ألقيت في البندقية.

(٣١) انظر جاك فولاتيرّانوس .Jac. Volaterranus, Diar. Roman., in Murat., xxiii, passim وفي col. 173 يتم ذكر موعظة رائعة ألقيت أمام البلاط، بالرغم من غياب سيكستوس الرابع. وأرعد باتر باولو توسكانيللا Pater Paolo Toscanlla ضد البابا وأسرته والكاردينالات. وابتسم سيكستوس عندما سمع بها.

(٣٢) انظر فيل.فيللاني Fil. Villani, Vitæ, ed. Galetti, p. 30.

(٣٣) انظر عاليه هامش ٢٦

(٣٤) انظر جورج طرابيزونت Georg. Trapezunt, Rhetorica، أول نظام كامل للتعليم (١٤٣٦). ويعالج إينياس سيلفيوس Æneas Sylvius, Artis Rhetoricæ Præcepta in th Opera, p. 992 (1456)، عمداً إنشاء الجمل وموضع الكلمات فقط. وهو مميز كمثال على التواتر الذي اتبع. وهو يذكر كتّابًا كثيرين غيرهم بعضهم غير معروف الآن. انظر أيضًا فويجت .Cf. C. Voigt, ii, 262 sqq.

(٣٥) وحياته in Murat., xx، مليئة بانتصارات بلاغته. انظر أيضًا فيسبازيانو فيورينتينو Cf. Vespas. Fiorent., pp. 592 sqq., and Comment., p.30. ولا تؤثر علينا هذه الخطب تأثيرًا كبيرًا - مثلاً، تلك التي ألقيت عند تتويج فريديريك الثالث، في .Frehr-Struve, Script. Rer. Germ., iii, 4-19 وعن خطب مانيتّي عند دفن ليوناردو أريتينو يقول شبرد-تونيللي (Poggio, ii, 67 sqq.): "L'orazione ch' ei compose, è ben la cosa la più meschina che potesse udirsi, piena di puerilità volgare nello stile, irrelevante negli argomenti e d' una prolissità insopportbile".

(٣٦) انظر Annales Placentini, in Murat., xx, col. 918.

(٣٧) مثلاً، مانيتّى. انظر أيضاً ڤيسبازيانو Vespasiano, Comment., p. 30؛ وبذلك أيضاً ساڤونارولا. انظر أيضًا بيرينز .Perrens, Vie de Savonarole, p. 163 والمختزلون، مع ذلك، لم يستطيعوا دائماً متابعته، أو، في الحق، متابعة أي مرتجل improvisatori سريع. وكان ساڤونارولا يعظ بالإيطالية. انظر باسك، ڤيلاري .Pasq. Villari, Vita de Savonarola

(٣٨) ولم تكن أبداً واحدة من أفضلها .(Opuscula Beroaldi,, fol. xviii-xxi, Basel, 1509) وكان أروع شئ فيها هو التأنق البياني في النهاية: "-Esto tibi ipsi archetypon et exemplar, teip . sum imitare", etc.

(٣٩) وكان ألبرتو دا ريڤالتا Alberto da Rivalta يكتب الرسائل والخطب من هذا النوع؛ انظر أيضًا .Cf the Annales Placentini التي كتبها أبوه أنتونيوس والتي أكملها هو بنفسه، في .Murat., xx .Col. 914 sqq، حيث يقدم المتحذلق بيانًا مفيداً عن خبرته وعمله الأدبي هو نفسه.

(٤٠) انظر .Pauli Jovii Dialogus de Viris Litteris Illustribus, in Tiraboschi, tom. vii, Parte IV ومع ذلك فإنه يقول بعد ذلك بعشر سنوات، في نهاية Elogia Literaria، ما نصه: "-Tenemus ad huc، بعد أن ذهبت الريادة في الفيلولوجيا إلى الجرما sinceræ et constantis eloquentiæ ..munitam arcem," etc والفقرة بأجمعها، المقدمة بالألمانية في جريجوروڤيوس ,Gregorovius .viii, 217 sqq، مهمة، لأنها تظهر وجهة النظر المأخوذة بواسطة أحد الإيطاليين من ألمانيا، ومرة أخرى تقتبس في أسفل في هذا الصدد.

الفصل الثامن

الأبحاث اللاتينية والتاريخ اللاتينى

ننتقل هنا من الكتابات الخطابية والرسائلية للإنسانيين إلى إبداعاتهم الأخرى التى كانت إلى حد ما صغر أو كبر استخرابات وإعادة إصدارات الزمان العهيد.

وينبغى أن تضم إلى هذه الاستخراجات والإصدارات البحث الذى كان كثيراً ما يتخذ صورة الحوار[1]. وهو فى حالتنا هذه كان يستعار مباشرة من شيشرون. ولكى ننصف قليلاً هذا الطراز من الأدب- حتى لا نقذف به جانباً لأول نظرة نلقيها عليه، بوصفه مصدراً للملل- ينبغى أن يوضع شيئان موضع الاعتبار. ذلك بأن القرن الذى نجا من تأثير العصور الوسطى أحس بالحاجة إلى شئ يتوسط بينه وبين العالم العهيد فى كثير من مسائل الأخلاق والفلسفة؛ وهنا تقدم كاتب الأبحاث والمحاورات فَسَدَّ هذه الحاجة. فإن الكثير مما يبدو لنا الآن مجرد شئ عادى فى كتاباتهم كان بالنسبة إليهم وإلى معاصريهم نظرة جديدة ومكتسبة بالكد للأشياء التى صمتت البشرية عنها منذ أيام العالم العهيد. وكانت اللغة أيضاً، فى هذا الشكل من الكتابة، سواء أكانت إيطالية أم لاتينية، تتحرك بحرية ومرونة أكثر منها فى السرد التاريخى أو فى الرسائل أو فى الخطابة، وبذا أصبحت فى حد ذاتها مصدراً لمتعة خاصة. ولا تزال كثير من الإنشاءات (التواليف) الإيطالية من ذلك الطراز تحتفظ بمكانتها كنماذج للأسلوب. وذُكر كثير من هذه الأعمال وسيظل يُذكر فى قابل الأيام بناء على محتوياتها؛ ونحن إنما نشير إليها هنا كطراز أو صنف. ومنذ عهد رسائل بترارك وأبحاثه فنازلاً إلى قريب من نهاية القرن الخامس عشر صار تكديس الاقتباسات الحافلة بالعلم، كما هو الحال عند

الخطباء، هو الشغل الأساسي الشاغل لمعظم هؤلاء الكتّاب. وعند ذلك امتدت يد التصفية والتنقية إلى الأسلوب بأسره، وبخاصة في الإيطالية، حتى تم في النهاية بكتاب أسولاني Asolani لبيمبو وكتاب الحياة المتوازنة Vita Sobria للويجي كورنارو[٢] Luigi Cornaro بلوغ درجة كمال كلاسيكي. وهنا أيضًا أصبحت الحقيقة الحاسمة متركزة في أن مواد العصور العهيدة بجميع أنواعها وصنوفها تستودع في الوقت نفسه في أعمال موسوعية (وهي مطبوعة الآن)، ولم تعد تقف حجر عثرة في طريق كاتب المقالة (essayist) .

ولم يكن بُدٌّ كذلك من أن تتحكم الروح الإنسانية في كتابة التاريخ. وعندي أننا لو عقدنا مقارنة سطحية بين تواريخ تلك الفترة وبين المدونات التاريخية (chronicles) السابقة عليها، وبخاصة بتلك الأعمال النابضة بالحياة القوية واللون واللماعية مثل أعمال آل ڤيللاني، لاقتادنا ذلك أن نتفجع بأعلى صوت على ما حدث من تغير. فكم تبدو إلى جانبها، ماسخة الطعم تقليدية عديمة الأصالة، أفضل ما ترك الإنسانيون، وبخاصة خلفاؤهم المباشرون بالغو الشهرة بين مؤرخي فلورنسا، وهما ليوناردو أريتينو وبوجّيو[٣] !! إذ لا تزال لذة القارئ يفسدها دومًا بإحساسه بأنه ضاعت في العبارات الكلاسيكية لمدونات فاتشيوس Facius وسابيليكوس Sabellicus وفوليتا Folieta وسينّاريجا Sennarega وبلاتينا Platina في مدونات مانتوا، وبيمبو في حوليات البندقية، بل حتى چيوڤيو في تواريخه (مؤلفاته التاريخية)- قد ضاعت أروع التلوينات المحلية والفردية والإخلاص الكامل للاهتمام بصدق الأحداث. وتزداد عدم ثقتنا قوة عندما نسمع أن ليڤي، النموذج المحتذى لهذه المدرسة من الكُتّاب، قُلِّدَ في نفس النقطة التي هو فيها في أقل درجات استحقاق التقليد والمحاكاة- على أساس أنه[٤] :"حوّل تقليدًا جافاً وعاريًا إلى رشاقة وجزالة" . ثم إذا نحن نلتقي في نفس المكان بتصريح مريب بأن واجب المؤرخ- كأنما هو والشاعر شئ واحد- يقضي عليه بأن يثير القارئ أو يفتنه أو يربكه. وينبغي لنا بعد ذلك أن نتذكر أن كثيراً من المؤرخين الإنسانيين لم يكونوا يدرون إلا أقل القليل بما يجرى خارج دائرتهم الخاصة، وكثيراً ما كانوا

يجبرون أن يوفقوا بين ذلك القليل وبين ذوق نصرائهم ومستخدميهم. وأخيراً نسائل أنفسنا هل احتقارهم للأمور العصرية الذى كان هؤلاء الإنسانيون أنفسهم يعترفون به صراحاً(٥) أحياناً لم يكن له بالضرورة آثار تعسة في معالجتهم لها. ويجد القارئ نفسه من غير وعى منه ينظر باهتمام وثقة أكثر إلى كُتّاب الحوليات اللاتينيين والإيطاليين المتسمين بالتواضع، أمثال كتاب بولونيا وفيرارا، الذين ظلوا مستمسكين بالأسلوب القديم، كما أنه يحس بامتنان أكثر نحو خير كُتّاب المدونات الأصلاء الذين كتبوا بالإيطالية – أى نحو مارينو سانودو Marino Sanudo وكوريو Corio وإنفيسورا Infes-sura الذين أعقبتهم عند بداية القرن السادس عشر تلك الفرقة الجديدة اللامعة من المؤرخين الوطنيين العظماء الذين كتبوا باللغة الأم.



شكل (١١٨) حفر على الخشب من رسم بلاتينا "حياة الباباوات" (البندقية، ١٥٠٤)

تصوير روزنتال، ميونيخ

ولا شك أن التاريخ المعاصر كان يكتب فى لغة الزمان بصورة أفضل كثيراً مما كان يحدث عندما يصب قسراً فى قوالب اللاتينية. فهل كانت الإيطالية أنسب أيضًا لسرد الأحداث الماضية من زمن بعيد أو للبحث التاريخى؟ ذلك سؤال يسمح بالنسبة لتلك الفترة بأكثر من جواب واحد. ذلك بأن اللاتينية كانت فى ذلك الزمان اللغة المشتركة (lingua franca) للمتعلمين من الناس، وذلك ليس فقط بالمعنى الدولى بوصفها وسيلة الاتصال بين الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، ولكن أيضًا من حيث التداول بين مختلف الأقاليم. ولم تزل وسائل التعبير الكتابى اللومباردية والبندقية والنابولية، وإن طال الأمد بضبطها على النموذج التوسكانى، كما أنها لا تحمل إلا آثاراً يسيرة من اللهجة المحلية الخاصة- لم تزل حتى آنذاك غير معترف بها عند الفلورنسيين. وكان ذلك أمرًا ذا أهمية أقل فى التواريخ المحلية المعاصرة، التى كانت على يقين تام من أنها ستجد القراء فى نفس الموضع الذى كتبت فيه، أكثر منها فى ألوان السرد المتعلقة بالماضى، التى كان مرغوبًا لها جمهور أكبر. ففى هذه الأخيرة كان من الضرورى التضحية بالمصالح المحلية للناس من أجل المصالح العمومية لرجال العلم. فإلى أى حد كان تأثير رجل مثل بلوندوس Blondus من فورلى يمتد ويبلغ، لو أنه كتب آثاره العظيمة فى العلوم بلهجة رومانيا Romagna ؟ لا شك أنها كانت ستهبط إلى درك الإهمال، ولو على الأقل بسبب احتقار الفلورنسيين، بينما هى وقد كتبت باللاتينية اكتسبت أعمق تأثير فى عالم العلوم الأوربى بأسره. بل الواقع أنه حتى الفلورنسيين أنفسهم فى القرن الخامس عشر كانوا يكتبون اللاتينية ليس فقط لأن عقولهم كانت متشربة بالمذهب الإنسانى ولكن لكى يتسع مجال من يقرأونهم.

وخاتمة القول، توجد مقالات لاتينية معينة فى التاريخ المعاصر تقف على قدم المساواة مع أجود الأعمال الإيطالية من نوعها. وعندما يهجر السرد المستمر المكتوب على طريقة ليفى- وهو على الفراش البروكرستيزى(*) الذى يتقبض فيه عدد وفير من

(*) الفراش البروكرستينى Procrustean : نسبة إلى بروكرستيز اللص الخرافى الذى كان يمد أرجل ضحاياه أو يقطعها لكى يجعل طولهم منسجمًا مع فراشه. (المترجم)

الكتاب- يصبح التغيير مدهشًا. وإذا بك تجد على حين بغتة أن بلاتينا وچيوفيو نفسيهما، اللذين نقرأ تاريخهما العظيم مجرد قراءة فقط لأنه لا بد لنا من ذلك وبالقدر اللازم فحسب، يتقدمان إلى الأمام كأساتذة فى أسلوب كتابة الترجمة (السيرة). وقد أسلفنا إليك الإشارة إلى تريستان كاراتشيولو Tristan Caracciolo وإلى تراجم فاتشيوس وإلى الوصف الطبوغرافى البندقى لسابيليكو، كما أن غيرهم سيذكرون فى سياق الكتاب. وسرعان ما اكتسبت كتابة التاريخ وإنشاؤه، شأن الرسائل والخطابة، نظريتها الخاصة. واتباعًا لمثال شيشرون، أعلنت بفخر وكبرياء قدر التاريخ وكرامته، وادعت بجرأة أن موسى والإنجيليين مؤرخون بسطاء، واختتمت دعاواها بنصائح جادة لا هزل فيها تحض على عدم التحيز الدقيق وحب الصدق[٦].

وطبيعى أن تهتم المقالات اللاتينية المكتوبة حول التاريخ الماضى، فى معظم شأنها، بالعصر الكلاسيكى العهيد. والشئ الذى يدهشنا أكثر أن نجده عند معظم هؤلاء الإنسانيين هو بعض الأعمال الضخمة فى تاريخ العصور الوسطى. وكان أول عمل من هذا النوع هو مدونة ماتيو بالميرى (١٤٤٩-١٤٤٩) Matteo Palmieri التى بدأها من حيث توقف بروسبر أكويتانوس Prosper Aquitanus، ولا شك أن أسلوبها كان بكل تأكيد مؤذيًا لمن جاء بعده من النقاد مثل باولو كورتيزى .Paolo Cortese وعندما نفتح كتاب "العقود" Decades لبلوندوس من فورلى تتملكنا الدهشة إذ نجد بين أيدينا تاريخًا عامًا شاملاً "Ab inclinatione Romanorum imperie"، شأن ما كتب چيبون، ممتلئًا بالدراسات الأصيلة حول مؤلفى كل قرن، ويشغله فى الصفحات الثلاثمائة الأولى من الأوراق، التاريخ القروسطى الباكر حتى وفاة فريديريك الثانى. وجاء ذلك كله بينما الأقاليم الشمالية لم يكن يطلب فيها شئ يتجاوز مدونات عن الباباوات والأباطرة والكراسة الزمنية . fasciculus tempotum وليس فى إمكاننا أن نتوقف لنريك هنا الكتابات التى استخدمها بلوندوس وأين وجد مواده، وإن كان هذا الإنصاف سوف يصله يومًا ما على يد مؤرخى الأدب[٧]. ولا مراء أن هذا الكتاب وحده يخول لنا أن نقول إن دراسة العالم العهيد هى التى جعلت دراسة العصور الوسطى شيئًا ممكنًا، وذلك أولاً بتدريب العقل على عادات النقد التاريخى غير المتحيز. وينبغى أن يضاف إلى

هذه الحقيقة أن العصور الوسطى كانت انتهت آنذاك في إيطاليا، وأن العقل الإيطالى كان أقدر على تقديرها تقديراً أفضل لأنه كان يقف خارجها. ومع هذا، فليس فى الإمكان الزعم بأنه حكم عليها على الفور حكماً منصفاً، وأقل من ذلك أن يمكن أن يقال أنه أصدر عليها الحكم مسترشداً بالتقوى. فأما في حقل الفنون فإن تحيزاً ثابتاً تجلى ضد كل ما أنتجته تلك القرون، كما أن أصحاب المذهب الإنسانى يؤرخون الحقبة الجديدة منذ ساعة ظهورهم هم أنفسهم. يقول بوكاتشيو[٨]:

> "إنى شرعت آمل وأومن بأن الله أسبغ رحمته على الاسم الإيطالى، وذلك لأنى أشهد أن طيبته اللانهائية تضع الأرواح فى صدور الإيطاليين مثلما وضعتها فى صدور القدماء- وهى أرواح تنشد الشهرة بطرق أخرى عدا السرقة والعنف، وأعنى بذلك وضعها إياها فى درب الشعر الذى يجعل الرجال مخلدين".

على أن هذا الخلق الضيق الظالم لم ينف البحث في عقول من هم أكثر موهبة، فى زمن غلب فيه أيضاً، بكل مكان آخر بأوروبا، اعتبار أى نوع من هذا القبيل من البحث أمراً مستحيلاً. وقد كان إجراء نقد[٩] تاريخى للعصور الوسطى ممكناً فقط بسبب أن المعالجة العقلية لجميع الموضوعات على يد الإنسانيين دربت الروح التاريخية. وفي القرن الخامس عشر بلغ من تغلغل هذه الروح فى تاريخ كل شئ حتى المدن الإيطالية الفردية أن تلاشت من الوجود قصص الجنيات البلهاء التى تدور حول أصل فلورنسا والبندقية وميلانو، بينما حدث في نفس الحين وبعده بزمن مديد أن مدونات الشمال كانت محشوة بهذا الهراء الخزعبلى، الخالى فى معظمه من كل قيمة شعرية، والذى أُخترع في زمن يرجع فى تأخره إلى القرن الرابع عشر.

وقد أشرنا فيما سلف إلى العلاقة الوثيقة بين التاريخ المحلى وعاطفة المجد أثناء الإشارة إلى فلورنسا (القسم الأول، الفصل السابع). وتأبى البندقية أن تكون متأخرة مسبوقة فى هذا المضمار. فمثلما أن نصراً بيناً عظيماً يحرزه الفلورنسيون[١٠] يتولد عنه أن تُدفع سفارة للبندقية أن تكتب إلى بلادها تطلب على جناح السرعة خطيباً

يرسل ليلحق بهم، فكذلك أيضًا أحس البنادقة بالحاجة الماسة إلى تاريخ يمكن أن يوضع موضع المقارنة بما أنتجه ليوناردو أريتينو وبوجّيو. ومن أجل إرضاء هذا الإحساس حدث في القرن الخامس عشر، بعد فشل مفاوضات مع چيوڤاني ماريا فيليلفو وغيره، أن ظهرت "عقود" Decades سابيليكوس، كما ظهر في القرن السادس عشر كتاب "التاريخ البندقي" Historia Rerum Venetarum من تأليف بييترو بيمبو، وكلاهما مكتوب بتكليف خاص من الجمهورية، حيث كان الثاني استمرارًا للأول.

فأما المؤرخون الفلورنسيون العظماء منذ بداية القرن السادس عشر (القسم الأول، الفصل السابع) فكانوا رجالاً يختلفون اختلافًا تامًا عن دعاة اللاتينية والمستمسكين بها، بيمبو وچيوڤو. كانوا يكتبون بالإيطالية لا لأنهم فحسب لا يستطيعون مباراة الرشاقة الشيشرونية التي يكتب بها علماء فقه اللغة، وإنما لأن كل ما في مقدورهم، شأن مكيافللي، أن يسجلوا بلسان حي النتائج الحية لمشاهداتهم المباشرة الخاصة- كما أننا يمكننا أن نضيف في حالة مكيافللي أنه كان يسجل ملاحظاته ومشاهداته عن الماضي- ولأنه، شأن الحال مع جويتشارديني Guicciardini وڤاركي Varchi وكثير غيرهما، كان أعظم ما يشتهونه ويرغبون فيه أن يكون لنظرتهم لمجرى الأحداث أوسع وأعمق ما يستطاع من الآثار العملية. وحتى حين لا يكتبون إلا لدائرة ضيقة من الأصدقاء، مثل فرانتشسيكو فيتوري، فإنهم يشعرون بحاجة داخلية للنطق بشهادتهم عن الرجال والأحداث، وتفسير وتبرير نصيبهم في تلك الأحداث.

ومع هذا، فبالإضافة إلى كل ما تتصف به لغتهم وأسلوبهم من خصائص، كانوا متأثرين بالعالم العهيد تأثرًا شديدًا، ولولا تأثيره لغدوا غير مستساغين عقليًا. لم يكونوا من أتباع المذهب الإنساني ولكنهم مروا من خلال مدرسة ذلك المذهب، كما أن صدورهم كانت تحوي من روح المؤرخين القدماء أكثر مما يحويه معظم مقلدي ليڤي. كانوا، شأن القدماء، مواطنين يكتبون لمواطنين.

هوامش الفصل الثامن - القسم الثالث

(١) ويتكون نوع خاص عن طريق الديالوجات نصف الهجائية، التي نسخها كوالينوتشبو، وكذلك بونتانو بصورة أكبر، من لوسيان. وأثار مثالهما إيرازموس وهاتين .Hutten ومن الأبحاث الحقة فإن أجزاء من كتابات بلوتارك الأخلاقية قد تكون نماذج لها.

(٢) انظر أسفله، القسم الرابع، الفصل الخامس.

(٣) انظر إبيجرامة سانازارو:

Dum patriam laudat, damnat dum Poggius hostem,'
. Nec malus est civis, nec bonus historicus"

(٤) انظر بينيديكتوس Benedictus, Caroli VIII Hist., in Eccard, Scriptores, ii, col. 1577 .

(٥) ويستنكر بيتروس كرينيتوس هذا الازدراء Petrus Crinitus, De Honesta Disciplina, lib. xviii, cap.9. والإنسانيون هنا يشبهون الكتّاب في زمن اضمحلال العهد المهيد، الذين فصلوا أيضاً أنفسهم من زمنهم الخاص. انظر أيضاً بوركهارت Cf. Burkhardt, Die Zeit Constantins des Grossen, 4th. Ed., pp. 272-275 (1924). وانظر عن الناحية الأخرى تصريحات بوجيو المختلفة في فويجت . Voigt, Wiederbelebumg, pp. 443 sqq.

(٦) انظر لورنزو ڤاللا، في مقدمة العمل Lorenzo Valla, preface to Historia Ferdinandi Regis Arag.; وانظر معارضة جياكومو زينو له في Giacomo Zeno, Vita Caroli Zeni, in Murat., xix, 204. انظر أيضاً جوارينو Guarino, in Rosmini, ii, 62 sqq., 177 sqq. .

(٧) (وقد تم إنصافه منذ ذلك الحين على يد ألفريد ماسيوس Alfred Masius, Flavio Biondo (Leipzig, 1879)، وبول بوخهولتز Paul Buchholz, Die Quellen der Historiarum Decades von Flavius Blondus, (Leipzig, 1881). انظر أيضاً ج. رومانو G. Romano, Degli Studi sul Medioevo nella Storici del Rinascimento (Pavia, 1892).- ج. (W. G. .

(٨) في الرسالة إلى بيتزينجا Pizinga, Opere Volgari, vol. xvi, p. 38. ومع رافاييل فولاتيرانوس Raph. Volaterranus, lib. xxi يبدأ العالم المثقف في القرن الرابع عشر. وهو نفس الكاتب الذي احتوت كتبه المبكرة إفادات كثيرة جداً– ممتازة بالنسبة لزمنه – عن تاريخ جميع البلاد.

(٩) وهنا، أيضاً، يُجني بترارك الطريق. انظر بصفة خاصة بحثه النقدي عن الدستور النمساوي، المدعى أنه ينحدر من قيصر Epist. Sen., xvi, 1 .

(١٠) مثل ذلك الخاص بجيانوتزو مانيتّي في حضرة نيكولاس الخامس والبلاط البابوي وحشد من الغرباء من جميع الأنحاء. انظر أيضاً ڤيسبازيانو فيورينتينو صفحة ٥٩١ وبصورة أكثر تفصيلاً في .Comment pp. 37-40.

الفصل التاسع

صبغ الثقافة العامة بصبغة لاتينية

ليس فى إمكاننا ترسم أثر المذهب الإنسانى فى العلوم الخاصة. فلكل منها تاريخه المخصص الذى يؤذن فيه الباحثون الإيطاليون لهذه الفترة بنشوء حقبة جديدة، وذلك بوجه خاص من خلال إعادتهم اكتشاف النتائج التى بلغها العالم العهيد[1]، التى تبدأ بها الفترة الحديثة للعلم الموضوع تحت البحث بشكل مميز يتفاوت فى تميزه زيادة ونقصانًا. فأما عن الفلسفة أيضًا فإنا ملزمون أن نحيل القارئ إلى الأعمال التاريخية الخاصة فى ذلك الموضوع. وسيبدو أثر قدماء الفلاسفة فى الثقافة الإيطالية هائلاً ضخمًا فى بعض الحين وتافهًا هزيلاً فى أحيان أخرى؛ فأما الأثر الجسيم فكان عندما نشهد أن مبادئ أرسطو المستقاة بوجه رئيسى من "الأخلاق"[2] "Ethics" و"السياسة" "Politics" وكلاهما اشتد انتشاره فى زمن مبكر- أصبحت الملك الشائع لكل إيطالى متعلم، وكيف أن منهج الفكر التجريدى بأكمله كان هو أرسطو المتحكم فيه[3]؛ ويتجلى الأثر الهزيل عندما نذكر كم كان تافهًا ذلك التأثير الدوجماتى للفلسفات القديمة، بل حتى تأثير الأفلاطونيين الفلورنسيين المتحمسين، على روح الشعب بصورة عامة. وعلى الجملة لا يزيد ما يبدو كائنا هو ذلك التأثير عن عاقبة للثقافة الجديدة عامة، ولا يتجاوز النمو والتطور الخاص الذى ألمّ بالعقل الإيطالى. فإذا انتقلنا إلى الحديث عن الدين فسنجد متسعًا فى القول فى ذلك الموضوع. بيد أننا فى الشطر الأعظم جداً من الحالات سنضطر إلى أن نعالج أقوال الأفراد أو دوائر المتعلمين لا الثقافة العامة للشعب؛ وهنا أيضًا ينبغى أن يقام حاجز مميز بين التمثل العقلى الحق للمذاهب القديمة

وبين الادعاءات الكاذبة التى تظهر وتزول بشكل طراز جديد أو موضة. وذلك لأن العالم العهيد لم يكن لدى الكثيرين إلا موضة وطرازًا حتى بين الراسخى القدم من العلماء.

ومع هذا، فإن جميع ما قد يبدو لعصرنا فى صورة ادعاء أو تظاهر ليس من اللازم آنذاك أنه كان كذلك بالفعل. مثال ذلك أن إطلاق الأسماء الإغريقية واللاتينية على الأطفال يعد خيرًا من عادة نقل تلك الأسماء، وبخاصة أسماء الإناث، عن القصص والروايات. وعندما كانت الحماسة للعالم القديم أقوى منها للقديسين كان من الأمور البسيطة والطبيعية تمامًا أن تسمى العائلات النبيلة أبناءها بأسماء أجاممنون Agamemnon وتيديوس Tydeus وأخيل[٤] Achilles، وأن يسمى مصور ابنه أبيلليس Apelles وابنته مينيرڤا[٥] Minerva . وكذلك أيضًا لن يبدو غير معقول أنه، بدلاً من اسم العائلة، الذى كثيرًا ما كان الناس يسرهم التخلص منه، كان الاختيار يقع على اسم قديم رنان جميل الجرس. وبديهى أن يتخلص الناس طواعية من أى اسم محلى يشترك فيه جميع سكان منطقة ما، ولم يتحول بعد إلى اسم أو لقب أسرة، وبخاصة عندما كانت ارتباطاته الدينية تجعله غير مستحب؛ فإن فيليبو دا س. جيمينيانو Filippo da S. Gemignano سمى نفسه كاللِيماخوسCallimachus . فأما الرجل، الذى أساءت عائلته الظن وأهانته، وقد جمع ثروته عالمًا يعمل بالمدن الأجنبية. فإنه استطاع- حتى لو كان اسمه سانسيڤيرينو Sanseverino - أن يدفع المال اللازم لتغيير اسمه إلى يوليوس بومبونيوس لايتوس .Julius Pomponius Laetus بل إنه قد يمكن اغتفار حتى مجرد الترجمة البسيطة للاسم إلى اللاتينية أو اليونانية، وهى العادة الشائعة المتبعة عند الناس جميعًا تقريبًا بألمانيا، والتماس العذر فى ذلك لجيل كان يتحدث باللاتينية ويكتب بها، وكان بحاجة إلى أسماء لا يمكن أن تضمحل فحسب، بل وأن تستخدم بيسر فى الشعر والنثر. على أن الأمر الجدير باللائمة والمتوجب للسخرية كان تغيير نصف الاسم فقط، سواء أكان اسم التعميد أو العائلة، لإضفاء رنين كلاسيكى ومعنى جديد عليه. وهكذا تحول چيوڤانى إلى چيوڤيانوس أو جانوس، كما تحول بييترو إلى بيتريوس أو بييريوس وأنطونيو إلى أونيوس وسانازارو إلى

سينسروس ولوكا جراسو إلى لوسيوس كراسوس. وعاش أريوستو الذى يتحدث ساخراً عن هذا كله[٦] حتى رأى أطفالاً يسمون على اسم أبطاله وبطلاته[٧].



شكل (١١٩) القديس جيروم. ركن من مكتبة فى القرن الخامس عشر
لجيرلاندايو
فلورنسا، أوجنيسانتى

وكذلك ينبغى لنا ألا نحكم حكماً شديد القسوة على تلتين **latinization** أى الصبغ بالصبغة اللاتينية كثير من العادات فى الحياة الاجتماعية، كأسماء الوظائف،

وكالمراسم، وما شابه ذلك، بين كُتّاب الفترة. فما دام الناس يقنعون بأسلوب لاتينى بسيط سيّال، كما كان الحال عند غالبية الكتاب من بترارك إلى إينياس سيلڤيوس، لم تكن تلك الممارسة بالواسعة الانتشار ولا الأخاذة الرائعة؛ على أنها غدت لا مفر منها عندما صار المطلوب هو لاتينية شيشرونية لا يعلق بها غبار خطأ. ومن ثم فإن الأسماء والأشياء العصرية لم تعد منسجمة والأسلوب حتى ينزل بها أولاً تغيير مصطنع. وكان الأدعياء المشدقون يجدون لذة في مخاطبة مستشارى المجلس البلدى بعبارة Partes Conscripti وبمخاطبة الراهبات باسم Virgines Vestales ويلقبون كل قديس باسم Divus or Deus . على أن رجالاً من ذوى الأذواق الأفضل، مثل باولو چيوڤيو، ما كانوا يفعلون ذلك إلا متى وحين لا يملكون إلا ذلك. ولكن كما أن چيوفيو يفعل ذلك بصورة طبيعية ولا يركز عليه أى تركيز، فلن يكدرنا أن نراه فى لغته الموسيقية الرخيمة يجعل الكرادلة يطلعون علينا تحت اسم "السناتورية" Senatores (أى أعضاء مجلس الشيوخ بروما القديمة)، ويخاطب كبيرهم وعميدهم بأنه "أمير الشيوخ "Princeps Senatus، ويسمى الحرم من رحمة الله والكنيسة باسم[8] Dirae، ويسمى الكرنڤال باسم Lupercalia وحسبنا هذا المثال لهذا المؤلف وحده نجتزئ منه ليحذرنا من استنتاج نتائج متعجلة من هذه اللزمات الخاصة بالأسلوب حول طرائق تفكير الكاتب بأكملها.

وغنى عن البيان أن تاريخ الإنشاء اللاتينى لا يمكن ترسمه هاهنا بالتفصيل. ذلك بأن الإنسانيين ظلوا أمد قرنين كاملين يتصرفون كأنما اللاتينية كانت، وينبغى أن تظل، اللغة الوحيدة الجديرة بالكتابة. ويتفجع بوجيو[9] لأن دانتى كتب أشعاره العظيمة بالإيطالية؛ والمعلوم كما نعرف جيداً أن دانتى حاول معالجة اللاتينية فعلاً، وكتب بداية "الجحيم "Inferno فى بحر الشعر المسمى بالسداسى القدود أولاً. وتعلق مستقبل الشعر الإيطالى بأسره على عدم استمراره العمل فى ذلك الأسلوب[10]، ولكن حتى بترارك نفسه اعتمد على شعره اللاتينى أكثر مما اعتمد على السونيتات(*) sonnets والقصائد الغنائية canzoni، كما أن بعضهم ودّ لو أن أريوستو نفسه يكتب قصيدته

(*) السونيتة أو الأمزوجة: قصيدة تتألف من أربعة عشر بيتاً. (المترجم)

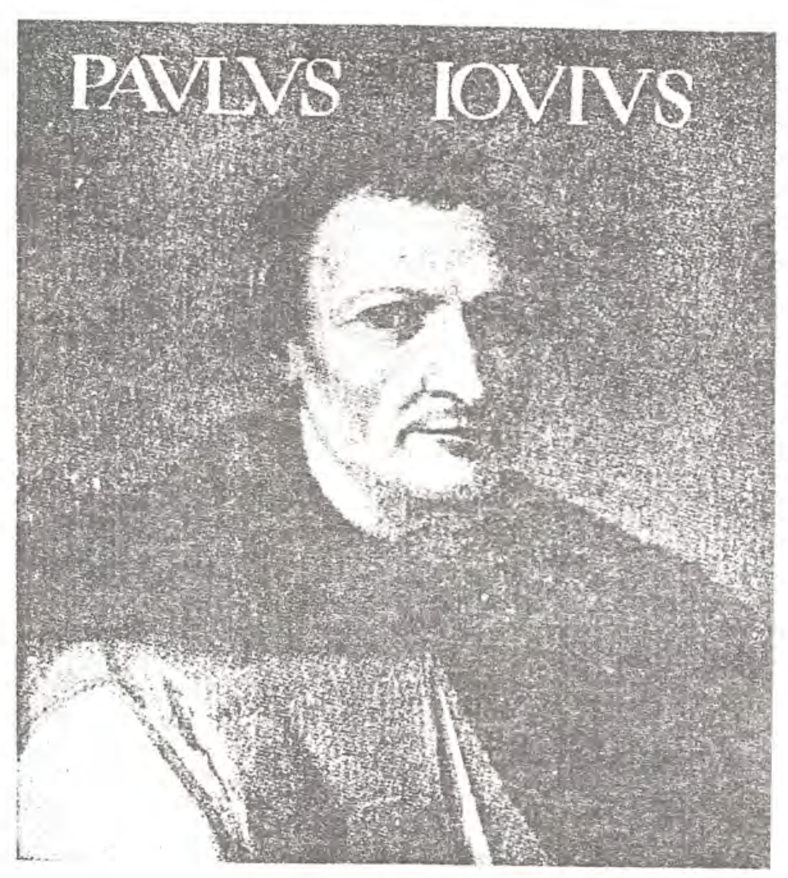
باللاتينية. ولم يوجد يومًا إكراه أشد من هذا فى الأدب[11]، ولكن الشعر نفض عن نفسه ذلك الإكراه فى معظم الأمر، ويمكن القول دون الوقوع فى شرك التفاؤل المفرط إنه كان من الخير للشعر الإيطالى أن تهيأت له كلتا الوسيلتين للتعبير عن نفسه. ففى كل منهما تم إنجاز شئ عظيم ومتميز بميزته الخاصة، كما أنه يمكننا أن نشهد فى كل منهما لماذا اختيرت اللاتينية أو الإيطالية. وربما أمكن قول ذلك نفسه حول النثر. ذلك أن مركز الثقافة الإيطالية وتأثيرها فى كل أرجاء العالم كان يتوقف على حقيقة كونها تحوى موضوعات معينة تعالج باللاتينية[12]- يوربى وأوروبى -Urbi et Orbi بينما النثر الإيطالى كان يكتب فى أحسن صورة بقلم من كان عدم الكتابة باللاتينية يكلفهم صراعًا جوانيًا.



شكل (١٢٠) شيشرون خطيبًا

منمنة من مخطوط فى مكتبة هوف، فيينا

وكان الناس عامة منذ القرن الرابع عشر يعترفون بشيشرون إماماً لأنقى نموذج للنثر. ولم يكن ذلك على الإطلاق راجعاً فقط إلى رأى هادئ يُفَضّل اختياره للغة وتركيبه لجمله وحسن بنائها وأسلوب إنشائه، بل يرجع بالأحرى إلى حقيقة أن الروح الإيطالية كانت تتجاوب تماماً وبصورة غريزية مع لطف كاتب الرسائل، ومع تألق الخطيب، ومع العرض المشرق للفكر الفلسفي. ولا شك أن بترارك نفسه كان يدرك بوضوح مواطن الضعف فى شيشرون كرجل أو كسياسى[١٣]، وإن بلغ فى احترامه إياه أن يأبى أن يفرح بها. وبعد عهد بترارك أصبح أسلوب الرسائل يُشكّل تماماً على غرار شيشرون؛ كما أن الباقين، باستثناء الأسلوب السردى، اتبعوا نفس المؤثر. ومع هذا فإن الشيشرونية الحقة، التى كانت تنبذ كل عبارة أو شبه جملة لا يمكن تبريرها بالرجوع إلى المرجع العظيم، لم تظهر قط حتى بلغ القرن الخامس عشر نهايته، عندما بدأت الكتابات النحوية (فى قواعد اللغة) للورنزو فالا تؤثر أثرها فى جميع أرجاء إيطاليا، وعندما مُحِّصت آراء مؤرخى الأدب الرومان وقورنت ببعضها البعض[١٤]. وأقبل القوم على كل ظل يسير من الفروق فى أسلوب القدماء يدرسونه بالتفات أدق ثم أدق، حتى بلغوا الخاتمة الحافلة بالعزاء والسلوى لأنفسهم فى النهاية وهى أنه عند شيشرون وحده يوجد النموذج الكامل الذى يمكن احتذاؤه، وأنه لو تم تقبل وتطويق جميع أشكال الأدب، فإنه يوجد فى "عصر شيشرون الخالد الذى يكاد يكون عصراً سماوياً"[١٥]. وهنا طفق رجال من أمثال بييترو بيمبو وبييرو فاليريانو يحولون كل طاقاتهم نحو هذا الهدف الأوحد. وبلغ الأمر أنه حتى أولئك الذين قاوموا طويلاً هذه النزعة وكونوا لأنفسهم أسلوباً عتيقاً نقلوه عن المؤلفين الأقدم عهداً[١٦]، خضعوا فى النهاية وانضموا لزمرة من يعبدون شيشرون. فصمم لونجوليوس Longolius، أخذاً بنصيحة بيمبو، أن يظل خمس سنين لا يقرأ شيئاً إلا شيشرون، وأقسم يميناً ألا يستخدم كلمة لم ترد على قلم ذلك المؤلف. كان هذا هو المزاج الذى انفجر فى النهاية أثناء الحرب العظمى التى نشبت بين رجال العلم، والتى تولى قيادة المعركة فيها إرازموس واسكاليجر Scaliger الأسن.



شكل (١٢١) باولو جيوفيو

فلورنسا، أوفيزى

تصوير ألينارى

إذ لم يكن جميع المعجبين بشيشرون ينظرون من ناحية واحدة فقط بمثل هذه الدرجة بحيث يعدونه المصدر الأوحد للغة. فقد حدث فى القرن الخامس عشر أن بوليتيان وإرمولا باربارو Ermola Barbaro قاما بجهد واعٍ متعمد لتشكيل أسلوب خاص بهما[١٧]، وكان ذلك بالطبع على أساس علمهم "الطافح الفياض"، وإن أخفقا فى إحياء نفس الرغبة فى الاستقلال فى نفوس تلاميذهما؛ كما أن مصدر رواية هذه

الحقيقة، وهو باولو چيوڤيو، رمى أيضًا نحو ذلك الهدف نفسه. فحاول أولاً، دون أن يصيب النجاح دائمًا، ولكن بقدر عظيم من القوة والرشاقة، ويثمن من جهد ليس بالقليل، أن ينتج في اللاتينية عددًا من الفكرات الحديثة، وبخاصة الجمالية aesthetic (الإصطيقية). وإن ما وصفه باللاتينية من مميزات كبار المصورين والنحاتين (المثّالين) في زمنه، ليحتوي على خليط من أشد التفسيرات والتأويلات ذكاء وتخبطًا[18]. وحتى ليو العاشر نفسه، الذي ركز مجده في الحقيقة القائلة[19] "ut lingua latina nostra pontificatu dictatur factu auctior"، كان ميالاً إلى التمسك بلاتينية متحررة لا إلى عملية "تلتين" على نحو قاطع مانع، وهو أمر كان، والحق يقال، منسجمًا وطبيعته المحبة للمسرات. كان يرضيه أن تكون اللاتينية التي ينبغي له أن يقرأ ويسمع حافلة بالحيوية والرشاقة والمجازات اللغوية. وفي ذلك الحين أيضًا لم يكن شيشرون يقدم للناس نموذجًا للحوار اللاتيني حتى لقد وجب هنا تقديم العبادة لآلهة أخرى عداه. وسدت الثغرة كوميديات بلوتوس وتيرينس، التي كثيرًا ما كانت تعرض بكل من داخل روما وخارجها، وكانت للممثلين بمثابة تداريب على اللاتينية لا يوازنها شئ بوصفها لغة الحياة اليومية. وظهر الدافع إلى دراسة الكوميديات اللاتينية القديمة والتقليدات الحديثة لها عندما اكتشفت مسرحيات لبلوتوس في Cod. Ursinianus الذي اجتلب إلى روما في ١٤٢٨ أو ١٤٢٩، وبعد ذلك ببضع سنين، في عهد البابا بولس الثاني، أصبح كردينال تيانو[20] Teano العلامة (ولعله نيقولو فورتيجيرا Niccolo Forteguerra من بيستوجا)، ذائع الصيت لجهوده النقدية الدقيقة في فرع العلوم الذي تخصص فيه. فشرع يعمل في أسوأ مسرحيات بلوتوس حالاً وأحفلها بالعيوب، وكانت خالية حتى من قائمة أسماء شخصيات المسرحية، ومضى بحرص شديد يعمل القلم في جميع بقايا ذلك المؤلف، واضعًا نصب عينه التركيز على اللغة بوجه خاص. وليس ببعيد أنه هو الذي كان الدافع الأول لعرض هذه المسرحيات على الجمهور. وبعد ذلك تناول بومبونيوس لايتيوس ذلك الموضوع نفسه بالمعالجة، وعمل مخرجًا يوم كانت أعمال بلوتوس تمثل على المسرح في بيوت كبار رجال الكنيسة[21]. ويشير چيوڤيو إلى أن

تمثيل هذه المسرحيات قل شيوعه بعد ١٥٢٠، كما شاهدنا ذلك (القسم الثالث، الفصل السابع) ويتخذه أحد أسباب انحطاط الفصاحة.

وقد يجوز لنا فى الختام أن نذكر التشابه بين الشيشرونية فى الأدب وإحياء فيتروفيوس على يد المعماريين فى مجال الفن[٢٢]. وهنا أيضًا ينطبق تمامًا القانون، الذى شمل سائر البقاع والأزمنة فى تاريخ عصر النهضة، وهو أن كل حركة فنية إنما تسبقها حركة مقابلة فى الثقافة العامة للعصر. والفترة الفاصلة بين الأمدين لا تزيد فى هذه الحالة عن عشرين عامًا، إذا نحن اعتمدنا على الكاردينال هادريان Hadrian من كورنيتو (١٥٠٥) فى إشارته إلى أوائل المعترف بهم من الفيتروفيين.

هوامش الفصل التاسع - القسم الثالث

(١) فى الحقيقة، سبق أن قيل إن هوميروس وحده هو الذى كان شاملاً لجميع الفنون والعلوم- وإنه كان موسوعة. انظر أيضاً Cf. Codri Urcei Opera, Sermo XIII، فى النهاية. ومن الحقيقى أننا نلتقى مع رأى مماثل لدى كثير من الكتاب القدماء. فكلمات كودروس أورسيوس Codrus Urceus فى عمله Sermo, XIII, "habitus in laudem liberalium artium"; Opera, fol. xxxviiib, ed. Ven.,) 1506) هى كالتالى: "Eia ergo bono animo esto; ego græcas litteras tibi exponam; et præcipue divinum Homerum, a quo ceu fonte perenni, ut scribit Naso, vatum Pieriis ora rigantur aquis. Ab Homero grammaticam discere poteris, ab Homero rhetoricam, ab Homero medicinam, ab Homero astrologiam, ab Homero fabulas, ab Homero historias, ab Homero mores, ab Homero philosophorum dogmata, ab Homero artem militarem, ab Homero coquinariam, ab Homero architecturam, ab Homero regendarum urbium modum percipies; et in summa, quidquid boni quidquid honesti animus hominis descendi cupidus optare potest, in Homero facile poteris invenire". ونفس المعنى نجده فى Sermo VII and VIII, Opera, fol. xxvi sqq.، الذى يتناول هوميروس وحده.

(٢) وقد جعل كاردينال من عند بول الثانى طباخيه يتعلمون "أخلاق" أرسطو Ethics. انظر أيضاً جاسبار. فيرون. Cf. Gaspar. Veron., Vita Pauli II, in Murat., iii, ii, col. 1034 .

(٣) وعن دراسة عن أرسطو عامة فإنه يوصى بخطبة لهيرمولاوس بارباروس Hermolaus Barbarus بوصفها مثقفة بصفة خاصة.

(٤) انظر بورسيلليس Bursellis, Ann. Bonon., in Murat., xxiii, col. 898 .

(٥) انظر فاسارى Vasari, xi, pp. 189, 257. وانظر Vite de Sodoma e de Garofalo. وليس مدهشاً أن النساء الخليعات فى روما اتخذن أكثر الأسماء القديمة تناغماً- جوليا ولوكريشيا وكاساندرا وبورشيا وفيرجينيا وبينتيسيليا، التى يظهرن بها عند أريتينو. وربما كان فى ذلك الوقت أن اليهود اتخذوا أسماء أعظم الأعداء الساميين للرومان- هانيبال Hannibal وهاميلكار Hamilcar وهاسدروبال Hasdrubal، التى لا زالوا يحملونها عادة حتى الآن فى روما. وهذا الادعاء الأخير لا يمكن أن يُعضَّد بالحجة والدليل. فلم يتكلم أى من زونتز Zunz, Namen der Jude (Leipzig, 1837), reprinted in Zunz, Gesammelte Schriften (Berlin, 1876)، ولا شتاينشنايدر فى مجموعته Il Buona-

rotti, ser. ii, vol. vi, pp. 196-199 (1871) عن أي يهودي من هذه الفترة يحمل هذه الأسماء، وحتى في أيامنا هذه، طبقاً لأبحاث الأمير بونكومباني من سينيور تاجلياكابو Prince Buoncompag- ni from Signor Tagliacapo، وهو المسئول عن المحفوظات اليهودية في روما، لا يوجد إلا قليل ممن يسمون أسدروبالي Asdrubate، ولا يوجد أي يحمل اسم أميلكاري Amilcare أو أنيبالي Anni- bale.- ج. G.. بـا ويوصي ل. ب. ألبرتي في L. B. Alberti, Della Familia, Opp., ii, p. 171 اختيار حريص للأسماء. ويحذر مافيو فيجيو Mt ffeo Vegio (De Educatione Liberorum, lib. i, c.x. قراءه من استخدام "nomia indecora barbara aut nova, aut quæ gentilium deor- um sunt". وأسماء مثل نيرون Nero تخزي حاملها؛ بينما أخرى، مثل شيشرون Cicero وبروتوس Brutus وناسو Naso ومارو Maro يمكن استخدامها "qualiter per se parum venusta prop- ter tamen eximiam illorum virtutem" .

(٦) "Quasi che 'l nome i buon giudici inganni,

E che quel meglio t' abbia a far poeta,

Che non farà lo studio di molt' anni?"

هكذا يمزح أريوستو، الذي أعطاه الحظ بالتأكيد اسماً متناغماً، في الساتيرة السابعة vs. 64 .

(٧) أو على أسماء أبطال وبطلات بوجاردو، التي هي جزئياً مثل تلك الخاصة به.

(٨) كان جنود الجيش الفرنسي في ١٥١٢ "omnibus diris ad inferos devocati!". وسيتم التحدث عن الأسقف الأمين تيتزيو Tezio لاحقاً وهو الذي نطق بكل جدية لعنة من ماكروبيوس ضد الفرق الأجنبية.

(٩) انظر لبوجيو De Infelicitate Principum, in Poggio's Opera, fol. 152 : "Cujus [Dantis] exstat poema præclarum, neque, si loteris Latinis constaret, ulla ex parte poetis superioribus [the ancients] postponendum". وطبقاً لبوكاتشيو، Vita di Dante, p. 74، ناقش "كثير من الرجال الحكماء" حتى في ذلك الوقت، مسألة لماذا لم يكتب دانتي باللاتينية. و كورتيسيوس Cortesius (De Hominibus Doctis, p. 7) يشكو: "Utinam tam bene cogitationes suas Latinis litteris mandare potuisset, quam bene patrium sermonem illustravit!". وهو يقول نفس الشكوى متحدثاً عن بترارك وبوكاتشيو.

(١٠) وكان عمله De Vulgari Eloquentia غير معروف تقريباً لمدة طويلة، وبالرغم من قيمته لنا، لم يؤثر قط نفس أثر الكوميديا الإلهية Devinae Comedia .

(١١) لمعرفة إلى أي مدى وصل هذا التعصب ليس علينا فقط إلا أن نشير إلى ليل. جريج. جيرالدوس Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temporis, passim. وفيسبازيانو بيستيتشي هو واحد من الكُتّاب اللاتين القلائل الذين اعترفوا علناً بأنهم لا يعرفون إلا القليل من اللاتينية (Commentario della Vita di G. Manetti, p. 2)، ولكنه كان يعرف ما يكفي لإدخال جمل لاتينية هنا وهناك في كتاباته، وأن يقرأ الرسائل اللاتينية (.ibid., pp. 96, 165). وبالإشارة إلى هذه النظرة المقصورة للاتينية يمكن اقتباس الفقرة التالية من بيتر. ألسيونيوس Petr. Alcyonius, De Exilio, ed. Menk-

Omnium max-" فهو يقول لو أن شيشرون استطاع أن يبعث ويشاهد ويلاحظ روما، en, p. 213.
ime illum credo perturbarent ineptiæ quorumdam qui, amisso studio veteris lingu? que eadem hujus urbis et universæ Italiæ propria erat, dies noctesque incumbunt in linguam Geticam aut Dacicam discendam eandemque omni ratione ampliendam, cum Gothi, Visigothi et Vandali [qui erant olim Getæ er Daci] eam . in Italos invexerant, ut artes et linguam et nomen Ronanum deterent"

(١٢) وكانت هناك تدريبات منتظمة للأسلوب، مثل في خطب Orations بيروالدوس الأسن، حيث توجد قصتان لبوكاتشيو وحتى أغنية canzone لبترارك مترجمة إلى اللاتينية.

(١٣) انظر أيضاً رسالة بترارك من الأرض إلى الظلال اللامعة أسفلها .. Opera, pp. 704 sqq. انظر أيضاً صفحة ٣٧٢ في العمل De Rep. Optime Administranda: "Sic esse doleo, sed sic est" .

(١٤) وهناك صورة هزلية عن النقاء التعصبي السائد في روما مقدمة على يد جوفيانوس بونتانوس في Antonius.

(١٥) انظر Hadriani (Corntani) Card. S. Chrysogoni de Sermone Latino Liber، ويوجه خاص المقدمة. وهو يجد في شيشرون ومعاصريه اللتين في شكله المطلق. ونفس كودروس أورسيوس، الذي وجد في هوميروس مجموع جميع العلوم (انظر عاليه هامش رقم ١) يقول في (Opp., ed. 1506, fol. lxv) نصه: Quidquid temporibus meis aut vidi aut studui librens omne illud" Cicero mihi felici dedit omine"، ويذهب إلى مدى أبعد فيقول في قصيدة أخرى (المصدر نفسه): . Non habet huic similem doctrinæ Græcia mater"

(١٦) باول. جوفيوس Paul. Jovius, Elogia Doct. Vir., pp. 187 sqq.، متحدثاً عن بابت. بيوس . Bapt. Pius

(١٧) باول. چوفيوس Paul. Jovius, Elogia, on Naugerius, p. 145. ويقول إن مثالهم كان: Aliquid in stylo proprium, quod peculiarem ex certa nota mentis effigiem referret, ex naturæ genio effinxisse". وكان بوليتيان عندما يكون على عجالة يعترض على كتابة رسائله باللاتينية. انظر أيضاً رافاييل فولاتيرانوس Cf. Raph. Volaterranus, Comment. Urban., lib. xxi. وكتب بوليتيان إلى كورتيسيوس في (Epist., lib. viii, Ep. 16) ما نصه : "Mihi vero longe honestior tauri facies, aut item leonis, quam dimiæ videtur"؛ رأجاب عليه كورتيسيوس: Ego malo esse assecla et simia Ciceronis quam alumnus". وعن رأي بيكو في اللغة اللاتينية انظر الرسالة المقتبسة عاليه (الفصل الرابع، القسم الثالث).

(١٨) باول. چوفيوس Dialogus de Viris Literis Illustribus, in Tiraboshi, ed. Venez. 1796, tom. vii, p. iv.. ومن المعلوم جيداً أن چيوفيو كان متلهفاً بشدة ليتولى العمل العظيم الذي أتمه فاساري. وفي الديالوج المذكور عاليه كان متوقعاً ومكروهاً أن اللاتينية ستفقد الآن سيادتها تماماً .

(١٩) فى التلخيص breve لعام ١٥١٧ إلى فرانتشيسكو دى روسى، الذى ألفه سادوليتو، in Roscoe, Leo X, ed. Bossi, vi, p. 172 .

(٢٠) انظر جاسبار. ڤيرون. Gaspar. Veron., Vita Pauli II, in Murat., iii, ii, col. 1031. وكانت تؤدى أيضاً مسرحيات سينيكا والترجمات اللاتينية للمسرحيات الدرامية الإغريقية.

(٢١) وعرضت فى فيرارا مسرحيات بلاوتوس بصورة رئيسية بالتعديلات الإيطالية على يد كولينوتشيو وجوارينو الأصغر وغيرهما ويغرض رئيسى هو الحبكة. وتجرأت إيزابيللا جونزاجا واعتبرته مملاً. وعن الكوميديا اللاتينية على وجه العموم انظر ر. بايبر R. Peiper, in Fleckeisen and Masius, Neue Jahrb. Für Phil. u. P?dag., xx, 131-138 (Leipzig, 1874), and Archiv. Für Lit-eratugesch., v, 541 sqq.. وعن بومبوس لايتوس Pomp. Lætus انظر Sabellici Opera, Epist., lib. xi, fol. 56 sqq.، وانظر أسفله عند نهاية القسم الثالث.

(٢٢) انظر أيضاً بوركهارت Burckhardt, Gesch. Der Renaissance in Italien, 38-41 .

الفصل العاشر

الشعر اللاتينى الحديث

وعلى كل فإن المصدر الأكبر لفخار الإنسانيين هو شعرهم اللاتينى الحديث. ومعالجة ذلك الضرب تعد داخل مجال عملنا، وذلك على الأقل بقدر ما تستطيع أن تبين لنا الخصائص المميزة للحركة الإنسانية.

وقد أسلفنا إليك (الفصل السابق) كيف كان الرأى العام مؤيدًا لذلك الشكل من الشعر وكيف أوشك هذا الشكل أن ينتزع جميع الأشكال الأخرى من جذورها ويحل محلها. ويمكننا أن نطمئن تمامًا أن أعظم أمم العالم موهبة وتطورًا عاليًا ممن كانت تعيش آنذاك فى العالم لم تتخل عن استخدام لغة كالإيطالية بدافع من الحماقة البحتة وبغير أن يعرفوا ما هم فاعلون. ولا بد أن وراء ما فعلوه سببًا قويًا راسخًا.

وكان هذا السبب هو إخلاصهم للعالم الغابر العهيد. ومن الضرورى أنه، شأن جميع أنوا ع الإخلاص الحارة والأصيلة، كان يدفع الناس إلى المحاكاة. وإنا لنجد فى أوقات أخرى من التاريخ وبين أمم أخرى محاولات منعزلة كثيرة من ذلك القبيل. ولكن إيطاليا هى وحدها التى كان يوجد بها الظرفان الرئيسيان اللازمان لاستمرارية وتطورية الشعر اللاتينى الحديث: وهما ظهور اهتمام عام بالموضوع بين ظهرانى الطبقات المتعلمة، واليقظة الجزئية للعبقرية الإيطالية القديمة بين الشعراء أنفسهم- ذلك الصدى العجيب لنغم سلالة عرقية بعيدة. وخير ما ينتج فى مثل هذه الظروف ليس التقليد والمحاكاة، وإنما الإنتاج الحر. وإذا نحن امتنعنا عن التسامح إزاء الأشكال المستعارة فى الفنون، وإذا نحن لم نضع قيمة للعالم الغابر القديم على الإطلاق أو لم

ننسب إليه بعض فضيلة ما سحرية لا يستطيع أحد بلوغها، وإذا لم تغفر أية زلات لشعراء اضطروا مثلاً أن يزكنوا أو يستكشفوا عدداً غفيراً من الكميات المقطعية (Syllabic)، فإنه يصبح لزاماً علينا أن ندع هذا الضرب من الأدب وشأنه. فلم تخلق أبدع أعماله لتحدى النقد، وإنما لإضفاء السرور على الشاعر وعلى آلاف من معاصريه[1] .

ومما ينكر أن أقل تلك الأعمال نُجْحًا على الإطلاق هو الذى وصل إليه السرد القصصي الملحمي المستقى من التاريخ أو من أساطير الزمان العهيد الغابر. ذلك أن العالم أنكر الظروف الضرورية اللازمة لظهور شعر ملحمي حى، أنكر ذلك ليس على الرومان فحسب، وهم آنذاك يُستخدمون نماذج تحتذى، بل حتى أنكر ذلك على الإغريق أنفسهم بعد هوميروس. وبديهى إنه لم ... الإمكان البحث عنه عند لاتين عصر النهضة. ومع ذلك فلعل قصيدة "أفريقيا" Africa لبترارك[2] وجدت قراء وسامعين بلغوا من الكثرة والتحمس قدر ما وجدته أية ملحمة فى العصور الحديثة. ذلك بأن هدف القصيد وأصله لم يكن ليخلو من التشويق. وقد اعترف القرن الرابع عشر بلباقة تاريخية سليمة بفترة الحرب البونية(*)(:الفينيقية) الثانية أنه عهد الأوج للعظمة الرومانية؛ ولم يستطع بترارك أن يقاوم الكتابة عن ذلك العهد. ولو أن سيليوس إيتاليكوس Silius Italicus كان مكتشفًا من قبل فالراجح أن بترارك كان ليختار موضوعًا آخر؛ ولكن الذى حدث فعلاً أن تمجيد اسكيبيو الأفريقي الأسن Scipio Africanus كان من التمشي الشديد مع روح القرن الرابع عشر بحيث أن شاعراً آخر، هو زانوبى دى سترادا Zanobi di Strada، اقترح هو أيضًا القيام بنفس العبء، ولم يسحب القصيدة إلا بسبب احترامه لبترارك بعد أن سار فيها بعيداً[3]. فلو أن تبريراً أيا كان شأنه كان مطلوبًا لقصيدة "أفريقيا"، فلقد كمن فى حقيقة أنه فى عهد بترارك وما بعده كان اسكيبيو مناطًا لاهتمام الجماهير بنفس القوة التى كان ليحظى بها لو

(*) عن الحروب البونية، يرجع القارئ إلى ولز "معالم تاريخ الإنسانية"، ترجمة المترجم، طبع هيئة الكتاب.

أنه حى، وأنه كان يعد عند الكثيرين رجلاً أعظم من الإسكندر وبومبى وقيصر(٤). فما عدد الملاحم العصرية التى تعالج موضوعًا بالغ الشعبية، بالغ التاريخية من حيث أساسه، وبالغ الأخذ بمجامع الخيال؟ نعم إن القصيدة بالنسبة إلينا شئ لا يمكن قراءته. ولذا فإنه عن موضوعات أو تيمات من نفس هذا القبيل يمكن إحالة القارئ إلى كتب تاريخ الأدب.



شكل (١٢٢) فينوس أمام جوبيتر

من الدورة الحصية عن أسطورة كيوبيد وبسيك، لرافاييل

روما، فيلا فارنيسينا

وهناك درب آخر أوسم وأثمر تم اكتشافه، هو توسعة واستكمال الرطازات الإغريقية-الرومانية (الميثولوجيا الجريكو-رومانية). وفى هذا الدرب أيضًا بدأ الشعر

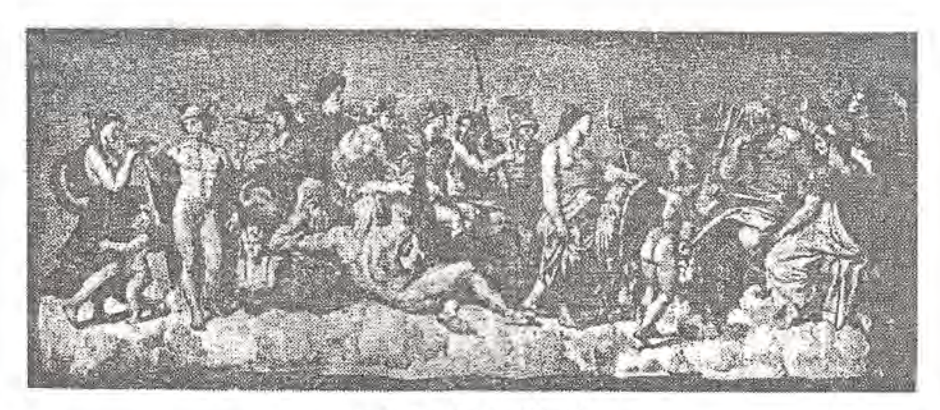
الإيطالى يأخذ نصيبه من زمن مبكر، بادئًا بقصيدة بوكاتشيو المعنونة تيسيد Teseide، التى تعد عند الجميع خير أعماله الشعرية. وفى عهد مارتن الخامس كتب مافيّو ڤيچيو Mafeo Veglo باللاتينية جزءًا ثالث عشر للإنيادة؛ نلتقى بالإضافة إليه بكثير من المحاولات الأقل أهمية، وبخاصة فى أسلوب كلوديان- منها قصيدة بعنوان Meleagris وأخرى بعنوان Hesperis، إلى غير ذلك. وأشد من ذلك عجبًا تلك الرطازات الخرافية المستحدثة آنفًا، التى عمرت أجمل بقاع إيطاليا بجنس بدائى من الآلهة والحوريات (النمفيات Nymphs) والجن، بل حتى الرعاة، حين يتداخل الأسلوبان الملحمى والرعوى بعضهما فى بعض. وفى أناشيد الرعاة السردية أو الحوارية بعد زمان بترارك تعامل الحياة الرعوية بطريقة متواضعة (تقليدية) بحتة[٥] ، بوصفها أداة يحملون عليها جميع ما يمكن من الأحاسيس والأخيلة؛ وسنعود إلى مس هذا الموضوع مرة ثانية فى سياق الكتاب. وسنجتزئ فى هذه اللحظة بالرطازات الخرافية الجديدة. ففيها نرى بطريقة أوضح من أى مكان آخر الأهمية المزدوجة للآلهة الأقدمين عند رجال عصر النهضة. فمن ناحية، تراهم يحلون محل التعبيرات التجريدية فى الشعر، ويجعلون الصور والأخيلة الرمزية الاستعارية إضافات زائدة عن الحاجة؛ كما أنها من الناحية الأخرى تخدم كعناصر حرة ومستقلة فى الفن، وبوصفها أشكالاً للجمال يمكن أن تحول إلى شئ من القيمة فى أية قصيدة وكل قصيدة. وضرب بوكاتشيو المثل بجرأة، بعالمه الطافح بالأخيلة، عالم الآلهة والرعاة الذين يسكنون الريف المحيط بفلورنسا فى قصيدتيه Ninfale d'Aneto وNinfale Fiesolano وكلاً من هاتين القصيدتين كتبتا باللاتينية. ولكن غرة الأدب فى ذلك الأوان هى قصيدة ساركا Sarca لبيترو بيمبو[٦]، التى تتحدث عن رب النهر الذى يحمل ذلك الاسم وكيف غازل النمفية (الحورية) جاردا؛ وعن حفل الزواج البديع الذى أقيم بكهف فى مونتى بالدو؛ وعن نبوءات مانتو ابنة تيريسياس Tiresias؛ وعن مولد الطفل مينشيوس Mincius، وعن تأسيس مانتوا؛ وعن المجد الذى تخبئه الأيام لفرجيل، ابن مينشيوس ومايا، نمفية (حورية) الأنديز. والبادئ بهذه الروكوكو الإنسانية هو بيمبو فى قصائد تتحلى بالجمال الباهر، وتختتم بتحية

توجه إلى فرجيل قد يحسده عليها كل شاعر. وكثيراً ما يستهان بهذه القصائد فتوصف بأنها مجرد قصائد خطابية. ومن الجلى أن هذه كلها إنما تعد مسائل ذوق نحن إزاءها أحرار فى تكوين رأينا فيها.

وفوق هذا فإننا نجد قصائد ملحمية طويلة تقام فى بحر السداسى القدود الشعرى، وتدور حول موضوعات كهنوتية أو من الكُتَّاب المقدس. ولم يكن المؤلفون بأية حال يبحثون دائمًا عن تفضيل الناس لهم ولا عن الحصول على مرضاة البابا. ومن المرجح أن خيرة الكُتَّاب وأفضلهم، بل حتى الكُتَّاب الأقل موهبة، مثل باتيستا مانتوفانو مؤلف "بارثينيس "Parthenice، كانت تخامرهم رغبة أمينة فى خدمة الديانة بقصائدهم اللاتينية- وهى رغبة كان ينسجم معها تصورهم نصف الوثنى عن الكاثوليكية انسجامًا كافيًا. ويستعرض جيرالدوس قائمة بأسماء هؤلاء الشعراء، الذين يستأثر بالمقام الأول بينهم ڤيدا Vida بقصيدته "كريستياد "Christiad وساناًزارو بكتبه الثلاث "دى بارتو ڤيرجينيس(٧) ."De Partu Virginis وهذا الشاعر ساناًزارو (ولد ١٤٥٨، ومات ١٥٣٠) قوى الأثر فى النفس بالمفيض الثابت القوى لشعره، الذى تختلط فيه العناصر المسيحية والوثنية دون وازع أو مانع، وبالقوة الاذنة التى يمتاز بها وصفه، وبالكمال المطلق لبراعته فى العمل. فإنه استطاع أن يتجاسر على إدخال إكلوجة (أنشودة) فرجيل الرابعة فى أغنيته عن الرعاة فى المذود (.II, 200 sqq) دون أن يخاف من أن يحث الناس بشئ من المقارنة بميلاد المسيح. وإنه ليبدى أحياناً فى ثنايا معالجته للعالم غير المرئى آيات تشهد له بجرأة جديرة بدانتى، كما حدث عندما قام الملك داود فى قصيدة موطن البطارقة Limbo of the Patriarchs من قبره ليغنى ويتنبأ (.I, 236 sqq) . أو عندما يخاطب "الحى السرمدى"، الجالس على العرش وهو مرتد بردة تحمل صوراً لجميع العناصر، مخاطبًا الملأ السماوى. وهو فى مرات لا يتردد فى أن ينسج الميثولوجيا الكلاسيكية كلها جميعًا فى موضوعه الذى يدبجه، على أن ذلك يتم دون إفساد التناسق القائم بينهم جميعًا. وذلك لأن الآلهة الوثنية إن هى إلا أشخاص

إضافية كمالية لا تلعب أى دور مُهم فى القصة. ولكى نقدر العبقرية الفنية لذلك العصر، ينبغى لنا ألا نرفض أن نضع فى حسباننا أعمالاً كهذه. وستظهر جدارة سانّازارو فى هيئة أعظم عندما نذير فى أذهاننا أن الخلط بين العناصر المسيحية والوثنية عرضة أن يزعجنا كثيراً فى استعراضنا الشعر أكثر مما يزعجنا فى الفن التشكيلى. فإن الأخير كان فوق هذا مستطيعًا أن يرضى العين بما حوى من جمال الشكل واللون، كما أنه كان على الجملة أكثر استقلالاً عن الموضوع من الشعر. فمع الفنون التشكيلية يهتم الخيال بوجه رئيسى بالشكل، فأما اهتمامه فى الشعر فهو بالمادة. فإن الأمين باتيستا مانتوفانو[٨] فى تقويمه للأعياد الدينية يجرب استخدام وسيلة أخرى. فإنه بدلاً من جعل الأرباب وأنصاف الأرباب يخدمون أهداف التاريخ المقدس يضعهم، مثلما كان يضعهم آباء الكنيسة، موضع المعارضة الفعالة لذلك التاريخ. فعندما يحيى الملك جبريل العذراء بمدينة الناصرة يطير وراءه ميركورى (أى عطارد) من الكرمل ويتسمع لدى الباب. وعند ذلك يعلن نتيجة تسمعه على الآلهة المجتمعين، ويستثيرهم بذلك إلى إصدار قرارات يائسة. أجل إنه بمواطن أخرى من كتاباته[٩] يقوم ثيتيس Thetis وسيرس Ceres وإيولوس Aeolus وغيرهم من الآلهة الوثنية بتقديم الإجلال طواعية لمجد المادونا السيدة العذراء.

وهناك آيات كثيرة منها شهرة سانّازارو والعدد الكبير لمقلديه والإجلال الحماسى الذى كان يقدم إليه من أعظم الرجال قدراً- مثل بيمبو الذى كتب نقش قبره وتيتيان الذى صور صورته- وكله تدل على مدى إعزازه وضرورته لدى عصره. فمن فضله أن قام للكنيسة على عتبات الإصلاح الدينى بحل مسألة هامة شغلتها، هى هل يجوز للشاعر أن يكون مسيحيًا وكلاسيكيًا فى نفس الحين؛ وصرح كل من ليو وكلمنت جهرة بشكرهما لما قام به من إنجازات.



شكل (١٢٣) اجتماع الآلهة

من الدورة الجصية عن أسطورة كيوبيد وبسيك، لرفاييل

روما، فيللا فارنيسينا

وها قد أصبح التاريخ المعاصر يعالج فى خاتمة المطاف شعراً فى بحر السداسى القدود أوالدوبيت distichs، وكان ذلك أحياناً بأسلوب سردى وأخرى بأسلوب مادح إطرائى ولكن فى الأشيع الأعم يساق تكريماً لأمير ما أو أسرة أميرية ما. وبذلك نلتقى بأسفورزادية[١٠] Sforziadوبورسيدية Borsied ولورنتيادية Laurentiad وبورجيادية Borgiad (انظر القسم الثالث، الفصل الرابع) وتريولزيادية Triulziad، وما ماثل ذلك من أسماء القصائد التاريخية. ولا مراء أن الهدف المنشود لم يتم الوصول إليه؛ لأن أولئك، الذين أصبحوا من المشاهير والآن من الخالدين، إنما يدينون بذلك لأى شئ إلا أن يكون من أجل هذا النوع من القصائد، التى كَنّ العالم لها ولا يزال كراهية لا يمكن انتزاع جذورها، حتى وإن تصادف أن كان كاتبها شاعراً مجيراً. وثم تأثير آخر مختلف تماماً تنتجه مشاهد أصغر وأبسط وأقل إدعاء تؤخذ من حيوات النابهين من الرجال، مثل تلك القصيدة التى تدور حول خروج ليو العاشر للصيد[١١] فى بالوHunt at Palo أو رحلة يوليوس الثانى التى دبجها هادريان من كورنيتو (القسم الأول، الفصل العاشر). وهناك أوصاف باهرة لرحلات صيد توجد عند إركولى ستروتزى وعند هادريان سالف الذكر وغيرهما؛ ومن المؤسف أن يسمح القارئ العصرى لنفسه بأن

يستثار أو يُنفر من الملق والدهان التى تمتلئ بها تلك المقطوعات دون أدنى ريب. وعندى أن المعالجة الأستاذية والقيمة التاريخية الضخمة لكثير من هذه القصائد البالغة الرشاقة تضمن لهن عمراً أطول من كثير من الأعمال الشديدة الذيوع فى أيامنا هذه وما يحتمل أن تبلغه.



شكل (١٢٤) مارس وڤينوس

لبييرو دى كوسيمو

برلين، متحف القيصر فريدريك

وإنك لتجد على الجملة أن هذه القصائد جيدة بالنسبة لضآلة المستخدم فيها من الخلة العاطفية والطابع العام. وإن بعض القصائد الملحمية الصغرى، حتى ما كان منها لأساتذة معترف بفضلهم، لتنتج عن غير قصد، بسبب سوء التوقيت فى إدخال العنصر الرطازى (الميثولوجى)، انطباعاً مضحكاً إلى حد لا يوصف. وذلك على سبيل المثال هو حال بكائية إركولى ستروتزى[١٢] على سيزار بورجيا. فإننا فيها نصغى إلى شكوى روما، التى ركزت كل آمالها على البابوين الإسبانيين كاليكتوس Calixtus الثالث وإسكندر السادس، التى رأت فى سيزار مخلصها الموعود. وتروى فيها تاريخه حتى كارثة ١٥٠٣. وعندئذ يسأل الشاعر ربة الفن والشعر عن مشورة الآلهة ورأيها فى تلك اللحظة[١٣]، ويخبر إراتو كيف حدث فرق الأوليمب، أن بالاس قام بدور الإسبان، كما قامت ڤينوس بدور الإيطاليين وكيف طوق كلاهما ركبتى جوبيتر، وكيف يقبلهما عندئذ ويهدئ روعهما ويوضح لهما أنه غير مستطيع أن يفعل لهما شيئًا ضد القدر الذى

نسجته "الباركاى"(*) Parcae، وإنما ستتحقق الوعود الإلهية على يد الطفل من بيت "ايستى-بورجيا"(١٤). وإنه ليعلن بعد روايته الأصل الخرافى لكل من العائلتين بأنه يستطيع أن يضفى الخلود على سيزار بنفس القدر الضئيل الذى كان يستطيعه ذات يوم، وذلك على الرغم من جميع التوسلات، على ممنون أو أخيل؛ ثم يختم بتأكيد حافل بالتعزية بأن سيزار سوف يدمر فى الحرب، قبل وفاته هو، أناسًا كثيرين. وعندئذ يسارع الإله مارس بالرحيل إلى نابولى ليثير الحرب والفوضى، بينما يتوجه بالاس إلى نيبى Nepi ثم يظهر هناك لسيزار وهو يحتضر فى صورة إسكندر السادس. ثم تختفى الربة البابوية "كما يختفى الطير"، بعد أن تسدى إليه النصح الجميل بأن يخضع لقدره ومصيره ويقنع بمجد اسمه.



شكل (١٢٥) موت بروكريس

لبييرو دى كوسيمو

لندن، المتحف القومى

على أنه ينبغى لنا، دونما يدعونا إلى ذاك داع، أن نحرم أنفسنا من متعة، تكون أحيانًا عظيمة جدًا، إذا نحن طرحنا جانبًا كل شئ تلعب الرطازات الكلاسيكية فيه دورًا مناسبًا بدرجات متفاوتة زيادة ونقصانًا. فهنا، كما هو الشأن فى التصوير والنحت، غالبًا ما يطبع الفن طابع النبل على ما هو فى حد ذاته مبتذل بحت. وجلى أن

(*) الباركاى: هى الربات الثلاث الموكلات بالقدر. (المترجم)

بدايات القصائد الباروديائية (أى المعارضات الساخرة) سيكتشفها هنا أيضًا محبو ذلك النوع من الأدب (القسم الثانى، الفصل الثالث). مثال ذلك قصيدة "الماكارونيدى" Macaroneide - التى تشكل بالنسبة لها القصيدة الفكاهية عربدات الآلهة Revels of the Gods بقلم چيوڤانى بيللينى Giovanni Bellini، موازيًا ومثيلاً مبكرًا.

وكذلك أيضًا ترى كثيرًا من القصائد السردية فى البحر السداسى إنما هى مجرد تدريبات، أو تكييفات لكتب التاريخ المدونة نثرًا، والتى لا بد أن يفضلها القارئ حيثما استطاع إليها سبيلاً. وأخيرًا صار كل شئ- كل شجار وكل احتفال- يصب فى قوالب النظم، وكان ذلك يجرى على كل لسان حتى الإنسانيين الجرمان لعهد الإصلاح الدينى(١٥). ومع هذا فإن من الظلم نسبة ذلك إلى مجرد إعواز الناس لما يشغلهم، أو إلى سهولة مفرطة فى سلك الأشعار بعضها إلى بعض. على أنه فى إيطاليا، على كل الأحوال، كان ذلك راجعًا إلى وفرة فى حسن الأسلوب، كما يوضح ذلك ويثبته كتلة التقارير والتواريخ المعاصرة، بل حتى النشرات فى "الخزانة" .tverza rima وكما أن نيقولو دا يوزّانو Niccolo da Uzzano نشر خطته للدستور الجديد، ونشر ماكيافللى رأيه فى تاريخ زمانه، ونشر ثالث حياة سافونارولا، كما نشر رابع حصار بيومبينو على يد ألفونسو الأكبر(١٦)، فى هذا البحر الشعرى العسير، لكى يحدثوا تأثيرًا أقوى، فإن الكثيرين جدًا أحسوا بالحاجة إلى بحر سداسى القدود للفوز بجمهورهم الخاص. ويتجلى المسموح به والمطلوب آنئذ فى هذا الشكل على أوضح صورة فى شعر المواعظ أوالشعر التعليمى Didactic لذلك الزمان. فإن ذيوعه وشعبيته لدى الناس فى القرن الخامس عشر شئ مذهل حقًا. فقد كان ألمع الإنسانيين ذكرًا على تمام الاستعداد لأن يعلنوا فى البحر السداسى عن الشعر اللاتينى أشد الأمور تفاهة عادية وأدعاها للسخرية والاشمئزاز، مثل صناعة الذهب، ولعبة الشطرنج، وتربية دودة القز، والتنجيم، والأمراض التناسلية (morbus gallicus). وذلك فضلاً عن قصائد إيطالية مطولة كثيرة من نفس هذا النوع. وفى أيامنا هذه يُشجب هذا النوع من الشعر ولا يقرأ، ولكن إلى أى مدى تستحق تلك

الأشعار القراءة؟ ذلك ما لا نستطيع القطع فيه برأى[١٧]. على أن هناك شيئًا واحدًا مؤكدًا هو أن حقبًا أعلى من حقبتنا كثيرًا فى حاسة الجمال- مثل عصر النهضة والعالم الإغريقى الرومانى (الجريكو رومانى)- لم تكن تستطيع الاستغناء عن هذا الطراز من الشعر. وربما يمكن الرد بأن الذى جعل هذا الطراز الشعرى غير لائق ليس قلة حاسة الجمال بل الجدية الأكبر حجمًا والمنهج المتغير للمعالجة العلمية، وهى نقطة ليس من الضرورى الخوض فيها.

وفى الآونة الأخيرة أعيد إصدار[١٨] أحد هذه الأعمال التعليمية والمواعظية بين حين وآخر وهو "فلك بروج الحياة "The Zodiac of Life تأليف مارسيللوس بالينجينيوس Marcellos Palingenius (بيير أنجيللو مانتزوللى Pier Angello Manzolli)، وهو كاتب متمسك سرًا بالبروتستانتية بمدينة فيرارا، كُتب حوالى ١٥٢٨. والكاتب يعمد إلى أن يربط مع أسمى التأملات عن الله والفضيلة والخلود مناقشة لكثير من المسائل الموصولة بالحياة العملية، ويعد، تأسيسًا على ذلك، مرجعًا ثقة له بعض الوزن فى تاريخ الأخلاقيات. وعلى الجملة ينبغى أن يعد عمله شيئًا يقع خارج حدود عصر النهضة، كما تدل عليه الحقيقة القائلة بأنه، فى انسجام تام مع الهدف التعليمى الجاد للقصيدة، ينزع المجاز الرمزى اللغوى إلى الحلول محل الرطازات (الميثولوجيا).

ولكن كان الشعر الغنائى، وبوجه خاص الرثائى، هو المقام الذى أصبح فيه الشاعر العالم أدنى ما يكون من العصر العهيد الغابر؛ ويأتى بعد قصائد الإبيجرام (أى القصائد القصيرة المختومة بحكمة أو فكرة بارعة).



شكل (١٢٦) عربدة الآلهة
لچيوڤانى بيللينى
ڤيلادلڤيا، مجموعة وايدنر

فأما فى مضمار الأسلوب الأخف، فإن كاتوللوس **Catullus** أوتى من البراعة ما جعله فتنة للإيطاليين. فليست بالقليلة تلك المادريجالات(*) اللاتينية الرشيقة، وليست بالقليلة تلك الساتيرات وتلك الرسائل الماكرة الخبيثة، التى هى فى الحقيقة مجرد اقتباسات منقولة عنه؛ وهنا أيضًا يُعَوِّل الشاعر على وفاة الببغاوات والكلاب المدللة، حتى حين لا تكون هناك أية محاكاة لفظية، بالضبط فى نفس النغم والأسلوب للقصيدة

(*) المادريجال : Madrigal قصيدة غزلية قصيرة. (المترجم)

عن عصفور ليسبيا "Lesbia sparrow . وهناك قصائد قصيرة من هذا النوع، لا يستطيع المرء تحديد[١٩] تاريخها مهما كان ناقداً خبيراً، وذلك في غياب البراهين الإيجابية التي تدل على أنها من أعمال القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

على أننا لا نكاد نستطيع، من الناحية الأخرى، أن نجد غريدة صيغت في البحر الصافوني Sapphic أوالأليكوني(*) لا تكشف بوضوح عن مصدرها الحديث. وهذا أمر يوضحه في الأغلب الأعم إسهاب لفظي بياني، ندر وجوده في العصر الغابر العهيد قبل زمان استاتيوس Statius، كما توضحه حاجة فريدة إلى التركز الغنائي (الليريكي) الذي لا يمكن الاستغناء عنه في هذا القبيل من الشعر. وقد يحدث أن فقرات مفردة من غريدة، مكونة أحياناً من اثنين أو ثلاث من الاستروفيات(**) ربما شابهت جذاذة عتيقة؛ على أن مقطوعة أطول يندر أن تحافظ على هذا الطابع من أولها إلى آخرها. وعندما تفعل ذلك، كما حدث مثلاً، في تلك الغريدة الممتازة المعنونة إلى ڤينوس To Venus لأندريا نافاجيرو Andrea Navagero، يكون من السهل علينا أن نشتم إعادة بسيطة للغرر اليتيمة القديمة[٢٠]. ويتخذ بعض كتاب الغرائد من القديسين موضوعاً لهم، كما يتوسلون إليهم التماساً للمعونة في أشعار صيغت بذوق سليم على غرار الغرائد المشابهة التي نظمها هوراس Horace وكاتوللوس Catullus . وهذه هي حال نافاجيرو في غريدته إلى كبير الملائكة جبريل Ode to the Archangel Gabriel، وبوجه خاص غريدة سانّازارو (انظر نفس هذا الفصل) الذي يمضي أشواطاً أبعد في احتيازه للعاطفة الوثنية. وهو يحتفل قبل كل شئ بقديسه الناصر والراعي[٢١] له، الذي أُلحقت كنيسته الصغيرة بفيللته الفخمة على شواطئ بوسيليبّو Posilippo، "هنالك كانت أمواج البحر تبتلع التيار الآتي من الصخور، ثم ترتطم بجدران الضريح الصغير". وينحصر بهجته في العيد السنوي للقديس نازارو، كما أن فروع الشجر وباقات الزهور التي

(*) الأليكوني: Alcaic نسبة إلى الشاعر ألكيوس المعاصر لصافو. (المترجم)

(**) الاستروفيات: ذلك الجزء من القصيدة الإغريقية القديمة الذي تنشده المجموعة أو الجوقة وهي تنتقل من اليمين إلى اليسار Strophes (المترجم)

تزدان بها الكنيسة الصغيرة في ذلك اليوم تبدو له كأنما هي هبات قربانية. وإنه- وهو مكتظ النفس بالأحزان، بعيد شقة المزار في منفاه بسانت نازير، على ضفاف نهر اللوار (بفرنسا)، مع فريديريك دى أراجون المنفى، ليحضر باقات من ورق شجر البقس والبلوط إلى وليه القديس في نفس العيد السنوى، متذكرًا السنوات السابقة؛ عندما كان من عادة شباب بوسيليبو أن يحضروا جميعًا لتحيته في زوارق مزدانة بحبال الزهور، راجين منه أن يعود إلى وطنه(٢٢).

وربما كانت أشد المماثلات الخداعة للأسلوب الكلاسيكي، لتحمله طبقة من القصائد في بحر الرثاء أو السداسي، وتتراوح مادته ما بين الرثاء، المسمى باسمه بدقة، إلى الإبيجرام. وكما أن الإنسانيين كانوا يعالجون ببالغ الحرية نص شعراء الرثاء الرومان، فكذلك كانوا يحسون بأنهم على أرضهم الخاصة إلى أقصى حد حين يقلدونهم. وإن مرثية نافاجيرو الموجهة إلى الليل، شأن قصائد غيرها تنتسب إلى نفس العصر والنوع، لمليئة بنقاط تذكرنا بالنماذج التي حاكاها؛ ولكن يحيط بها أميز وألطف الرنين العهيد القديم. والحق إن نافاجيرو(٢٣) يبدأ قبل كل شئ باختيار موضوع شعرى تمامًا، ثم يعمد بعد ذلك إلى معالجته لا بتقليد ومحاكاة ذليلة، بل بحرية أستاذ متمكن من أسلوب المختارات الأدبية Anthology، لأوفيد وكاتوللوس، أو إكلوجات فرجيل. وهو يستخدم الرطازة أى الميثولوچيا أضيق استخدام، وذلك مثلاً بقصد واحد فقط هو تقديم اسكتش (أى صورة تخطيطية) لمشهد الحياة الريفية في صلاة موجهة إلى سيريس(*) وغيرها من الآلهة الريفية. وهناك خطاب وجهه إلى وطنه عند عودته من سفارة قام بها إلى إسبانيا، وإن تركه ناقصًا لم يتمه، وربما كان جديرًا بأن يوضع جنبًا لجنب إلى جوار قصيد إيطاليا الجميلة Bella Italia, Amate Sponde الذى وضعه فينسنزو مونتى لو أن سائره كان معادلاً ومساويًا لهذه البداية:

(*) سيريس Ceres : ربة الزراعة عند الرومان.

"Salve, cura Deum, mundi felicior ora,
Formosae Veneris dulces salvete recessus;
Ut vos post tantos animi mentisque labores
Aspicio lustroque libens, ut munere vestro
Sollicitas toto depello e pectore curas!" (٢٤)

وكان الشكل الرثائي أو السداسي هو الشكل الذي كانت جميع العواطف العليا تجد فيه وسيلة تعبيرها، وكلاً من أنبل ألوان الحماسة الوطنية (انظر القسم الأول، الفصل العاشر، مرثية يوليوس الثاني) وأشد أنواع المدائح إحكامًا وإتقانًا للبيوت الحاكمة(٢٥)، فضلاً عن الأسى الرقيق لشخص اسمه تيبوللوس Tibullus . وإن فرانتشيسكو ماريو مولتزا Francesco Mario Molza الذي ينافس استايتوس ومارتيال Martial في تملقه كلمنت السابع وآل فارنيزي Farnesi، ليعطينا في مرثيته إلى "رفاقه" التي كتبها وهو على سرير المرض، أفكارًا عن الموت بلغت من الجمال وأصالة المذاق العهيد ما يمكن أن نجده عند شعراء الزمان الغابر العهيد، وذلك دونما استعارة أي شئ يذكر منها(٢٦). وكان سانّازارو خير من فهم روح المرثية الرومانية ومجالها وأفضل من أعاد إنتاجها، كما أن أحداً آخر من كُتّاب عصره لا يمنحنا بمثل هذا التنوع البالغ مختاراً من القصائد الجيدة في هذا الطراز من الشعر مثله. وستعرض لنا هنا وهناك الظروف الموائمة للتحدث عن بعض هذه المراثي بالإشارة إلى المواد التي تعالجها.

وأخيرًا أصبحت الإبيجرامية اللاتينية، في تلك الأيام مسألة ذات أهمية خطيرة، وذلك نظرًا لأن أبياتًا ذكية قليلة، محفورة على أثر من الآثار أو مقتبسة مثيرة للضحك عند الطبقة الراقية، ربما وضعت الأساس الراسخ لشهرة عالم. وقد تجلى هذا الميل مبكرًا في إيطاليا. وعندما علم الناس أن جويدو ديلا بولينتا Guido della Polenta كان يريد أن يقيم أثرًا عند قبر دانتي تقاطرت الكلمات لتكتب على شاهد قبره من كل صوب(٢٧)، "ولقد كتبها كل من شاء "عَرْضَ نفسه"، أو أراد تكريم الشاعر المتوفى، أو الفوز برضاء بولينتا". ونحن نقرأ على قبر كبير الأساقفة چيوڤاني فيسكونتي

(توفي ١٣٥٤) في الكاتدرائية بميلانو في أسفل قصيدة من البحر السداسي مكونة من ستة وثلاثين بيتًا: "الأستاذ جابريوسي دي زاموريس البارمي، دكتور في القانون، كتب هذه الأشعار". وبمضي الوقت، وبصفة رئيسية بتأثير مارتيال، وجزئية بفضل كاتوللوس، تَشَكَّل أدب رحيب الانتشار من هذا النوع. وكان يعد من أعظم ألوان النصر أن يخطئ الناس في مقطوعة إبيجرامية فيظنونها نسخة أصيلة منقولة عن قطعة قديمة من الرخام[٢٨]، أو عندما تبلغ من الجودة أن تحفظها إيطاليا كافة عن ظهر قلب، كما حدث في بعض مقطوعات بيمبو. وعندما دفعت حكومة البندقية إلى سانّازارو ستمائة دوقية لقاء كلمة تأبين صاغها في ثلاثة مقاطع من بحر الدوبيت[٢٩]، لم يعد أحد ذلك العطاء ضربًا من الإسراف السخي. وكانت المقطوعة الإبيجرامية تقدر ويحتفل بما لها من اعتبار بوصفها، في الحقيقة، الزبدة المركزة للشهرة عند جميع أفراد الطبقات المتعلمة في ذلك العصر. ومن الناحية الأخرى، لم يكن ثمة رجل يبلغ من القوة حدًا يجعله بمبعدة عن أن تصل إليه إبيجرامة ساتيرية ساخرة، بل الواقع إنه كان أقوى الناس مُنَّة بحاجة، من أجل كل نقش يضعونه أمام عين الجمهور، إلى معونة كل حريص عليم من العلماء، وذلك خشية أن تؤدي غلطة ما إلى أن تؤهلها للوقوع في مجموعات نقوش القبور[٣٠] السخيفة. وكانت الإبيجرافة(*) والإبيجرامة(**) فرعين من نفس ذلك الاتجاه؛ وكان إنتاج الأولى مؤسسًا على دراسة دءوب للآثار القديمة.

وكانت مدينة روما هي مدينة الإبيجرامات والنقوش فوق كل المدن الأخرى. ففي هذه الولاية، التي انعدمت فيها كل ألقاب الشرف الوراثية استلزم الأمر أن يبحث كل رجل عن خلود ذكره، كما أنه وجد في الإبيجرامية سلاحًا فعالاً على منافسيه. فإن بيوس الثاني يَعُد، مع رضى تام، تلك الدوبيتات- التي نظمها شاعره الأكبر كامبانوس Campanus لكل حادثة جرت في حكمه- أنها يمكن تحويلها إلى شئ شعري له قدره. وفي عهد البابوات الذين أعقبوه أصبحت الإبيجرامات الساخرة هي الموضة

(*) الإبيجرافة: هي كتابة منقوشة على مبنى أو تمثال.

(**) الإبيجرامة: هي القصيدة الحاوية لفكرة وحكمة بارعة موجزة.

الشائعة، حتى بلغت فى المعارضة لإسكندر السادس وعائلته، إلى ذروة القدح المتحدى. أجل إن سانازارو كان يكتب أشعاره وهو فى مكان آمن نسبيًا، بيد أن آخرين غيره ممن يعيشون إلى جوار البلاط بصورة مباشرة جرءوا على كتابة أشد أنواع التهجم قلة اكتراث (القسم الأول، الفصل العاشر). وفى إحدى المناسبات التى وجدت فيها ثمانية دوبيتات مثبتة على باب المكتبة[٣١] زاد إسكندر من قوة حرسه ثمانمائة رجل؛ وهنا نستطيع أن نتصور ماذا كان يمكن أن يفعل بالشاعر لو أنه أمسكه. وفى عهد ليو العاشر أصبحت الإبيجرامات اللاتينية كالخبز اليومى. ولم يكن عندهم صيغة يعدونها أليق ولا أحسن منها لإطراء البابا أو ذمه، أو لمعاقبة الأعداء والضحايا سواء ذكرت أسماؤهم أم لم تذكر، ولتدوين موضوعات حقيقية أو خيالية للنكت، والمعاكسات الخبيثة، والحزن أو التأمل. ألم تر إلى مجموعة العذراء الشهيرة التى فيها القديسة أنّا والطفل، التى حفرها أندريا سانسوفينو للقديس أوجوستينو، كيف كتب عليها ما لا يقل عن مئة وعشرين شخصًا أشعارًا لاتينية، ولم يكتبوها والحق يقال، عن تقوى ودين بقدر ما كتبوها بدافع التجلة للمولى النصير الذى أمر بصنع العمل[٣٢]. ولم يقف هذا الرجل يوهان جوريتز Johan Goritz من لوكسمبورج، وهو كاتب الالتماسات البابوى، على إقامة قداس (أى خدمة دينية) فى عيد القديسة أنّا، بل أقام مأدبة أدبية عظيمة فى حديقته على منحدرات الكابيتول. وعندئذ كان من الأمور الهامة أن ينخرط فى المسيرة، بقصيدة طويلة عنوانها De Poetis Urbanis، ذلك الجمهور من المنشدين الذين كانوا يلتمسون حظهم فى بلاط ليو. وقد تم ذلك على يد فرانتشيسكوس أرسيللوس[٣٣] Fran-ciscus Arisillus- وهو رجل لم يكن به حاجة إلى رعاية بابا ولا أمير، وتجرأ أن ينطق بما جاش به صدره من رأى، ولو كان ضد زملائه. ودامت الإبيجرامة إلى ما بعد عهد بولس الثالث وكان ذلك فى أصداء قليلة نادرة فقط، بينما استمرت الإبيجرافة فى ازدهار حتى القرن السابع عشر، عندما هلكت نهائيا من فرط التقعر الطنان.

فأما فى البندقية أيضًا، فإن هذا الشكل الشعرى كان له تاريخ خاص به، تستطيع ترسّمه بمساعدة قصيدة "البندقية" Venezia لفرانتشيسكو سانسوفينو .Francesco Sansovino وثمة عمل دائم لكتاب الإبيجرامة مهدته لهم الشعارات (brievi) على صور الأدواج فى القاعة العظمى لقصر الدوقية– وتتألف من

اثنين أو أربعة من الأبيات السداسية القد التى تدون أهم الحقائق وأجدرها بالانتباه أثناء حكم كل منهم(٢٤). وبالإضافة إلى ذلك، كانت قبور الأدواج فى القرن الرابع عشر تحمل نقوش قصيدة من النثر، تسجل الحقائق المجردة، وإلى جوارها أبيات طنانة من البحر السداسى أو الليونى .Leonine وبذلت فى القرن الخامس عشر عناية أكبر بالأسلوب؛ فأما فى القرن السادس عشر فإنها تبدو لعين الرائى فى أحسن صورها؛ وسرعان ما جاءت بعد ذلك أنواع كليلة تافهة من النقائض (Antithesis) والتشخيصات (أى إضفاء الصفات البشرية على الحيوان prosopopoeia)، والشجن الزائف (pathos) ومنح الصفات التجريدية- أى بالاختصار الافتعال والتقعر اللغوى الطنان. ويمكن العثور على قدر كبير من أثر الساتير (القصيد الساخر) والنقد المقنع للأحياء فى ثنايا المديح الصريح للموتى. وإنا لنجد فى فترة تالية أمثلة قليلة لترديد متعمد للأسلوب القديم البسيط.

وكانت الأعمال المعمارية والأعمال الزخرفية على الجملة تبنى بهدف ونظرة إلى تلقى النقوش، وغالبًا ما يكون ذلك فى تكرار كثير؛ وذلك بينما لم يفسح الشمال القوطى الطراز لها إلا نادرًا، و بصعوبة، مكانًا مناسبًا، ولا تترك فى الآثار الناووسية مثلاً، منطقة خالية إلا أشد الأجزاء تعرضًا للأنظار، وهى على التحديد، الحافة.

وعندى أننا ربما أخفقنا بما قلناه حتى الآن فى إقناع القارئ بالقيمة المميزة لهذا الشعر اللاتينى الذى وضعه الإيطاليون. وكانت السمة الغالبة لعملنا هى أن نشير إلى موضعه وضرورته فى تاريخ الحضارة. وظهرت(٢٥) له فى أيامه نفسها صورة كاريكاتورية- هى ما يسمى بالشعر الماكرونى (macaronic) . وقد كتبت الغرر الكريمة لهذا الطراز، وهى القصيدة المسماة بالمصنف أو الكراسة المكرونية Opus Macaronic-orumميرلينوس كوكايوس Merlinus Coccaius (تيوفيلو فولينجو Teofilo Folengoمن مانتوا). وستسنح لنا بين حين وآخر مناسبة للعودة إلى مادة هذه القصيدة. فأما عن الشكل- وهو البحر السداسى القد- فإن تأثيره الفكاهى يقع بصورة رئيسية فى كون هذه التخليطات تبدو للسامع طبيعية شأن كثير من زلات اللسان أو التدفق الصادر عن مرتجل لاتينى improvisatore متسرع. والتقليدات الألمانية المحاكية لا يبدو فيها أدنى فكرة عن هذا التأثير.

هوامش الفصل العاشر - القسم الثالث

(١) وعن ما يعقب ذلك انظر Deliciæ Poetarum Italorum; Paul. Jovius, Elogia; Lil. Greg. Gyraldus, De Poetis nostri Temporis; and the Appendices to Roscoe, Leo X, ed. Bossi .

(٢) وهناك طبعتان من القصيدة على يد بينجو Pingaud (Paris, 1872) وعلى يد كورّاديني Corradini (Padua, 1874). وفي ١٨٧٤ ظهرت أيضًا ترجمتان على يد ج. ب. جوادو G. B. Guado وأ. باليسا A. Palesa. وعن أفريقيا Africa قارن ل. جايجر L. Geiger, Petrarca, pp. 122 sqq., and p. 270, note 7 .

(٣) انظر فيليبّو ڤيلاني Filippo Villani, Vitæ, ed. Galetti, p. 16 .

(٤) انظر Franc. Aleardi Oratio in Laudem Franc. Sforziæ, in Murat., xxv, col. 384.. وعند مقارنة سكيبيو مع قيصر، كان رأى جوارينو وتشيرياكوس أنكونيتانوس Cyriacus Anconitanus أن الأول هو الأعظم، بينما بوجّيو (Opera, Epp., fol. 125, 134 sqq.) يعتقد أن الثاني هو الأعظم. وعن سكيبيو وهانيبال في منمنمات أتّافانتي Attavante انظر ڤاساري Vasari, iv, 41. انظر Vita di Giovanni di Fiesole. وأسماء كلاً منهم استخدمت لبيتشينينو وسفورزا. انظر الفصل التاسع، القسم الأول من كتابنا هذا. وكانت هناك نزاعات كبيرة حول العظمة النسبية للاثنين. انظر شيرد-تونيللي Shepherd-Tonelli, i, 262 sqq.، وروسميني؛ وانظر جوارينو Guarino, ii, 97-111 .

(٥) والاستثناءات المتوقدة، حيث الحياة الريفية تعالج بطريقة واقعية، ستذكر في أسفله.

(٦) طبعت في ماي Mai, Spicilegium Romanum, vol. viii, pp. 488-504؛ حوالي خمسمائة قصيدة سداسية المقاطع. ومدى صحة أو موثوقية هذه القصيدة، التي لم يذكرها بيمبو أبداً، هو أمر مشكوك فيه.- و. ج. W. G. وبييريو فاليريانو تابع الأسطورة في شعره. انظر عمله Carpio، في Deliciæ Poetarum Italorum، وأيضًا في الأعمال الأصغر للشاعر، صفحة ٤٢-٤٦، المنشورة في كولونيا في ١٨١١. واللوحات الجدارية الجصية لبروساسورتشي Brusasorci في بالاتزو (قصر) موراري Murari في ڤيرونا تمثل موضوع the Sarca .

(٧) نشرها وترجمها ت. أ. فاسناخت Th. A. Fassnacht في Drie Perlen der neulateinischen Poesie (Leutkirch, and Leipzig, 1875). انظر بالإضافة إلى ذلك Goethe's Werke (Hempel's ed.), vol. xxxii, pp. 157 and 411.

(٨) انظر De Sacris Diebus .

(٩) مثلاً، في الإكلوجة الثامنة.

(١٠) توجد هناك اثنتين من السفورزيادات Sforziads غير مكتملتين وغير مطبوعتين، واحدة على يد فيليلفو الأسن والأخرى على يد فيليلفو الأصغر. وعن الأخيرة انظر فافر Favre, Mélanges d'Hist. Lit., i, 156؛ وعن الأولى انظر روسميني Rosmini, Filelfo, ii, 157-175. ويقال إنها تصل إلى ١٢,٨٠٠ سطر وتحتوى الفقرة: "الشمس تقع في حب بيانكا".

(١١) انظر روسكو Roscoe, Leo X, ed. Bossi, viii, 184. وقصيدة في نفس الأسلوب في xii, 130. وقصيدة أنجيلبرت Angilbert عن بلاط شارل الأعظم تذكرنا بطريقة غريبة بعصر النهضة. انظر أيضًا Cf. Pertz, Monum., ii.

(١٢) انظر ستروتزي "Stozzi, Poetæ, pp. 31 sqq.: "Cæsaris Borgiæ ducis epicedium .

(١٣)

"Pontificem addiderat, flammis lustralibus omneis

Corporis ablutum labes, Dis Juppiter ipsis," etc

(١٤) كان هذا هو هيركيوليس الثاني من فيرارا، المولود في ٤ إبريل ١٥٠٨، ربما قبل قليلاً أو بعد قليلاً تأليف هذه القصيدة. ويقال قرب النهاية "Nascere, magne puer, matri expectate patrique .

(١٥) انظر أيضًا مجموعات Scriptores على يد سكارديوس Schardius وفريهر Freher، الخ، وانظر أيضًا عاليه هامش ٧١ الفصل العاشر القسم الأول.

(١٦) انظر أوتزانو Uzzano, see Archiv. Stor. Ital., iv, i. 296. وانظر ماكيافيللي Machiavelli, I Decennali. وانظر حياة سافونارولا تحت العنوان Cedrus Libani، للراهب فرا بينيديتّو Fra Benedetto. وانظر Assedio di Piombino, in Murat., xxv. وقد يمكننا أن نقتبس كنظير من Teuerdank وغيرها من الأعمال الشمالية المسجوعة (الطبعة المتأخرة منها على يد هالتاوس Hal- taus. Quedlinb. and Leipzig, 1836). والأغاني التاريخية الشعبية للجرمان، التي تم إنتاجها بوفرة شديدة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، يمكن مقارنتها بهذه القصائد الإيطالية.

(١٧) وقد يمكننا هنا أن نبدي ملاحظة حول عمل ل. ألامانّي L. Alamanni, Coltivazione، المكتوب على هيئة versi sciolti بالإيطالية، أن جميع الفقرات الشعرية الحقيقية والممتعة مستعارة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من القدماء (طبعة قديمة، باريس، ١٥٤٠؛ طبعة أعمال ألامانّي، في مجلدين، فلورنسا، ١٨٦٧).

(١٨) مثلاً، بواسطة ك. ج. فايسه C. G. Weise (Leipzig, 1832). والعمل، المقسم إلى اثنى عشر كتاباً، والمسمين على اسم الكواكب الاثنى عشر، مهدى إلى هيركيوليس الثاني من فيرارا. وفي الإهداء تجئ الكلمات الرائعة: "Nam quem alium patronum in tota Italia invenire possum, cui musæ cordi sunt, qui carmen sibi oblatum aut intelligat, aut examine recto expendere sciat?". وبالينجينيوس Palingenius يستخدم جوبيتر Juppiter وديوس Deus بلا قيود.

(١٩) وقصيدة ل. ب. البرتي L. B. Alberti الكوميدية الأولى، التي يدعى بأنها على يد مؤلف Lepidus، كانت تعتبر لمدة طويلة على أنها عمل من أعمال العهد المهيد.

(٢٠) وفي هذه الحالة (انظر أسفله، هامش ٢٨) عن المقدمة لعمل لوكريتيوس Lucretius وعمل هوراس Horace, Od., iv. 1 .

(٢١) والتضرع إلى قديس راع هو بصفة أساسية شئ وثنى. وعن مناسبة أكثر جدية انظر مرثاة سانّازارو In Festo die Divi Nazarii Martyris (Sann., Elegiæ, fol. 166 sqq., 1535) .

(٢٢)

"Sit satis ventos tolerasse et imbres

Ac minas fatorum hominumque fraudes

Da Pater tecto salientem avito

Cernere fumum!"

(٢٣) انظر Andr. Naugerii, Orationes duæ Carminaque Aliquot (4to, Venice, 1530). والقليل من الكارمينا carmina يمكن العثور عليها كليًا فى Deliciæ. وعن نافاجيرو Navagero وموته انظر بيير. ڤاليريانو Pier. Valeriano, De Inf. Lit., ed. Mencken, 326 sqq. .

(٢٤) انظر أيضًا تحية بترارك إلى إيطاليا، المكتوبة قبل أكثر من قرن من الزمان (١٣٥٣) فى Petr. Carmi-na Minora, ed. Rossetti, ii, 266 sqq. .

(٢٥) ولتكوين فكرة عما استطاع ليو أن يبتلعه انظر صلاة جويدو بوستومو سيلفيستري Guido Postumo Silvestri إلى المسيح والعذراء وجميع القديسين أن يحفظوا هذه numen فى الأرض، نظرًا لأن السماء كان لديها مسبقًا ما يكفيها منها. طبعت فى روسكو Roscoe, Leo X, ed Bossi, v. 237 .

(٢٦) انظر Molza's Poesie Volgari e Latine. ed. By Picrantonio Serassi (Bergamo, 1747) .

(٢٧) انظر بوكاتشيو Vita di Dante, p. 36.

(٢٨) ويسخر سانّازارو من رجل أزعجه بمثل هذه المزيفات. "Sint vetera h?c aliis, mi nova semper erunt." (Ad Rufum, Opera, fol. 41a, 1535) .

(٢٩) انظر De Mirabili Urbe Venetiis (opera, fol. 38b):

"Viderat Adriacis Venetam Neptunus in undis

Stare urbem et toto ponere jura mari:

Nunc mihi Tarpejas quantum vis Juppiter arceis

Objice et illa tui m nia Martis ait,

Si pelago Tybrim pr?fers, urbem aspice utramque

Illam homines dices, hanc posuisse deos."

(٣٠) انظر Lettere dei Principi, ., 38, 91.

(٣١) انظر ماليبييرو Malipiero, Ann. Venet., Archiv. Stor., vii, i, p. 508. وفى النهاية نقرأ، فى إشارة إلى القرار البابوى على أنه سلاح آل بورجيا:

Merge, Tyber, vitulos animosas ultor in undas;'

Bos cadat inferno victima magna Jovi!"

(٣٢) وعن المسألة بأكملها انظر روسكو Rocoe, Leo X, ed. Bossi, vii, 211; viii, 214 sqq.. والمجموعة المطبوعة، وهي حاليًا نادرة، من هذه الكوريتشيانا Coryciana لعام ١٥٢٤ تحتوى فقط القصائد اللاتينية؛ ورأى ڤاسارى كتابًا آخر في حوزة الأوغسطينيين كان به قصائد غنائية. وكانت عادة إضافة ملاحق إلى القصائد معدية بحيث أن المجموعة كان لا بد أن تحمى، بل حتى تختفي نهائيًا. وكان تغير جوريتز إلى Corycius senex قد اقترحه ڤيرجيل Virgil, Georg., iv, 127. وعن النهاية البائسة للرجل عند نهب روما انظر بيير. ڤاليريانو Pier. Valeriano, De Infel. Lit., ed. Menck-en, p. 369 .

(٣٣) وقد ظهر العمل أولاً في الكوريتشيانا Coryciana، مع مقدمات لسيلڤانوس Silvanus وكوريتشيوس Corycius نفسه؛ وأيضًا أعيد طبعه فى ملاحق روسكو Appendices to Roscoe, Leo X, ed. Bossi وفى Deliciæ. انظر أيضًا باول. چوڤيوس Paul. Jovius, Elogia، متحدثًا عن أرسيللوس Arsillus. وكذلك، عن العدد الكبير من كتّاب الإبيجرامة، انظر ليل. جريج. جيرالدوس بالموضع نفسه. وكان قلم ماركانتونيو كازانوڤا Marcantonio Casanova واحداً من الأقلام اللاذعة جداً. ومن بين المعروفين بصورة أقل، فإن يوهان ترماس موسكانيوس (Joh. Thomas Muscanius انظر Deli-ci?) يستحق الذكر. وعن كازانوڤا انظر بيير. ڤالير. Pier. Valer., De Infel. Lit., ed. Mencken, pp. 376 sqq.، وباول. چوڤيوس Paul. Jovius, Elogia, pp. 142 sqq.، الذى يقول عنه: "Nemo autem eo simplicitate ac innocentia vitæ melior". وأرسيليوس، فى الموضع المذكور، يتحدث عن placidos sales الخاصة به. وقليل من بعض قصائده في الكوريتشيانا Coryciana, J. 3 a sqq., L 1a 4b .

(٣٤) ويقتبس منهم مارين سانودو بانتظام فى Vita de' Duchi di Venezia, in Murat., xxii .

(٣٥) ويذكر سكارديونيوس De Urb. Patov. Antiq. (Græv., Thesaur., vi , III, col. 270)، المخترع بأنه شخص اسمه أوداكسيوس Odaxius من بادوا، كان يعيش حوالي منتصف القرن الخامس عشر. وتوجد قصائد مختلطة من اللاتينية ولغة البلد في وقت أبكر كثيراً فى كثير من أجزاء أوروبا.

الفصل الحادى عشر

سقوط الإنسانيين فى القرن السادس عشر

بعد قيام حلقات متعاقبة من العلماء-الشعراء، بدأت منذ بواكير القرن الرابع عشر، بملء إيطاليا والعالم كافة بعبادة العصور الخوالى العهيدة، وبعد أن حددت أشكال التعليم والثقافة، وغالباً ما تولت الزعامة فى الشئون السياسية، وبعد أن أعادت إلى حد غير قليل استخراج وإعادة إصدار الأدب القديم، حدث أنه فى إبان القرن السادس عشر، وقبل أن تنفصم قبضة مبادئهم وعلمهم المتبحر عن العقل العام للناس، أن سقطت الطبقة بأجمعها فى المهانة العامة العميقة. ومع أنهم كانوا لا يزالون يُتخذون نماذج يحتذيها الشعراء والخطباء والمؤرخون، فإن واحداً منهم لم يكن ليرضى أن يعد فى زمرتهم. وهنا أضيفت إلى التهمتين الرئيسيتين الموجهتين ضدهم- وهما الغرور الذاتى الشرير والفجور البشع- تهمة ثالثة من عدم الدين وجهتها إليهم بأعلى صوت القوى الصاعدة للإصلاح الدينى المضاد counter reformation .

وربما سأل سائل، لماذا لم توجه إليهم هذه التحذيرات اللائمة- سواء أكانت صحيحة أم زائفة- فى وقت أبكر ولم يتسامح الناس بها قبل ذلك؟ والواقع أنها سمعت منذ عهد مبكر جداً، غير أن الأثر الذى كانت تحدثه كان تافهاً لا وزن له، لسبب بسيط واضح هو أن الناس بلغ بهم فرط اعتمادهم على العلماء فى ناحية المعرفة بالعصر العهيد الغابر، وأن العلماء كانوا هم مالكى الثقافة القديمة وناشريها بين الناس. على أن انتشار الإصدارات المطبوعة من التراث الكلاسيكى[1] والكتب الدراسية المنظمة والقواميس الكبيرة جيدة الترتيب، بلغ من أثرها أن تحرر الناس من ضرورة الاختلاط

الشخصي بعلماء المذهب الإنساني، ولذا فإنه ما هو إلا أن أمكن من ناحية جزئية الاستغناء عنهم حتى أصبح التغير في الشعور الشعبى العام واضحًا. كان تغيراً قاسي فيه الناس جميعًا بدرجة سواء لا فرق بين أخيارهم وأشرارهم.

وكان أول من وجه تلك التهم هم الإنسانيون أنفسهم. ولو استعرضنا جميع الرجال الذين شكلوا على كر الأيام طبقة لوجدناهم أقل الناس إحساسًا بمصالحهم المشتركة، وأنهم أقل الناس احترامًا لما يجرى لهذا الإحساس. وكانت جميع الوسائل تعد مشروعة إذا رأى واحد منهم أن يقتلع آخر ويحل محله. ومن المناقشة الأدبية كانوا ينتقلون بفجائية مدهشة إلى أشد أنواع القدح شراسة وأشدها ضعفًا في الأساس المنطقى. وعندما لم يكن يرضيهم تفنيد ودحض معارضيهم كانوا ينشدون إبادتهم. ومن الجلي أن شيئًا من هذا ينبغي أن يضاف إلى حساب مكانتهم وظروفهم؛ وقد شهدنا كم كان العصر، الذى كانوا أعلى متكلميه صوتًا، يتحول بشكل شرس، ذهاباً وجيئة بدافع الشهوة إلى المجد وبدافع الشهوة إلى السخرية (الساتير). وفي الحياة العملية أيضًا كانت مكانتهم في حالة كانوا يلزمون إزاءها أن يقاتلوا دونها باستمرار. وعلى هذا النحو من المزاج الحاد كانوا يتكلمون ويصفون بعضهم بعضًا. فإن أعمال بوجِّيو لتحتوى بمفردها من القذى ما يكفى لإثارة التحيز على الطبقة بأسرها. كما أن تلك الأوبرات البوجِّية Opera Poggii لم تكن إلا تلك الأوبرات التى كثر طبعها، بكل من شمال جبال الألب وجنوبيها. وينبغي لنا أن نحذر من أن نبادر بالفرح والجذل عندما نلتقي بين هؤلاء الرجال بشخصية تبدو مبرأة من العيوب؛ فإن مواصلة البحث يكمن فيها على الدوام خطر الالتقاء بتهمة ما دنسة تؤدى إلى إفساد الصورة، وإن بدت التهمة غير معقولة. فإن كتلة القصائد اللاتينية غير اللائقة الدائرة على الألسن، وما إلى ذلك من البذاءة في حوار بونتانو المسمى أنطونيوس Antonius حول موضوع أسرته هو نفسه، قامت بالجزء الباقي من العمل على التشهير بالطبقة. ولم يكن القرن السادس عشر دريًا فحسب بكل هذه الأعراض القبيحة، بل إنه أصبح يمل طراز الإنسانيين. واضطر هؤلاء الرجال أن يدفعوا الثمن عن سوء الأعمال التى ارتكبوها

وعن الإسراف فى التكريم الذى أغدق عليهم حتى آنذاك. وشاء لهم حظهم العاثر أن أعظم شاعر فى الأمة كتب عنهم فى احتقار هادئ متعال(٢).

فأما التثريب واللائمة التى تجمعت حتى أثارت هذا القدر الكبير من الكراهية فكانت قائمة على أساس قوى يبررها تماماً. ومع هذا فإن كثيرين من علماء فقه اللغة (الفيلولوچيين) كانوا ينطوون على اتجاه وميل واضح لا تخطئه العين إلى التدقيق فى أمور الدين والأخلاق، كما أن مما يشهد بالبرهان بقلة المعرفة بتلك الفترة أن يندد بالطبقة جمعاء. ومع هذا فإن كثيرين منهم، ومن بينهم أعلى المتكلمين صوتًا، كانوا آثمين.

على أنه ثمة ثلاث حقائق تشرح، وربما تقلل من إثمهم: هى الوفرة الفياضة من الثراء والعطف والإكرام عندما كان الحظ فى جانبهم؛ وعدم التأكد من المستقبل، الذى كان الترف فيه أو العسر يتوقف على نزوات ولى أو نصير، أو على إساءة عدو؛ وأخيراً يجئ النفوذ المضلل للعالم القديم. وأدى ذلك إلى تقويض روحهم المعنوية دون أن يعوضهم عن ذلك بديل عنه؛ كما أنهم فى الشئون الدينية، نظراً لأنهم لم يكونوا ليستطيعوا على الإطلاق قبول الإيمان الإيجابى بالآلهة القديمة، فإن ذلك لم يؤثر فيهم إلا من الناحية السلبية والتشككية. ونظراً لأنهم كانوا بالفعل يتصورون العالم المهيد على نحو دوجماتى(*) (dogmatic) - أى أنهم اتخذوه مثالاً ونموذجًا لكل فكر وعمل- فإن أثره كان هنا ذا ضرر بليغ. على أن حقيقة وجود عصر يتخذ من العالم القديم وما أنتجه صنماً يعبده بإخلاص قاطع مانع لكل ما عداه لم يكن من خطأ الأفراد. وإنما هو عمل عناية تاريخية(**)، وهنا تستقر جميع ثقافة العصور التى أعقبت، والعصور التى ستجئ على حقيقة كونها كذلك، وأن كل أهداف الحياة عدا هذه وحدها، أهملت ووضعت على جنب بصورة متعمدة تماماً.

(*) الدوجماتى : هو المأخوذ أمراً مسلماً به من غير بينة أو دليل.

(**) يقصد بالعناية التاريخية نوع من التدبر والحيطة مُقدَّماً.

وجرت العادة بحياة الإنسانيين وسيرتهم فى الدنيا أنها كانت من نوع لا يسمح إلا لأقوى الشخصيات أن تمر من خلالها سليمة من الأذى. وجاء أول خطر، فى بعض الحالات، من الآباء، الذين كانوا يفكرون فى تحويل طفل مبكر التكوين إلى معجزة فى التعلم[٢]، رامقين بأعينهم إلى مركزه فى المستقبل فى تلك الطبقة التى كانت آنئذ سامية القدر. على أن المبكرى النضج والتكوين فى فتوتهم من الشباب قلما مع ذلك ارتفعوا عن مستوى معين؛ أو قل إنهم لو ارتفعوا فعلاً، فإنهم يضطرون إلى الوصول إلى تقدمهم وتطورهم التالى دافعين ثمنه أشد أنواع المحن مرارة. وكانت شهرة الإنسانيين ومكانتهم البراقة إغراء محفوفًا بالمخاطر لكل شاب طموح؛ إذ كان يبدو له أنه أيضًا "من خلل الكبرياء الفطرى لم يكن فى وسعه أن يعير اهتمامًا لأمور الحياة العادية والوضيعة". وكان يُدفع على هذا النحو إلى الغوص فى غمرات حياة من الانفعال وتقلب الأهواء، التى فيها تتعاقب الدراسات المرهقة، ومدد التلمذات والسكرتاريات والأستاذيات والوظائف فى ديار الأمراء والعداوات القاتلة والمخاطر، والترف والتسول وما لا حد له من إعجاب وما لا حد له من احتقار، تتعاقب على نحو مربك إحداها فوق الأخرى، وعلى صورة نحى فيها جانبًا فى أكثر الأحيان أصلب أنواع الجدارة والتبحر العلمى بفعل الوقاحة السطحية. ولكن أنكى الأمور وأسوأها هو أن مركز الإنسانى كان لا يكاد يستقيم ومقرًا ثابتًا، وذلك لأنه إما كان يجعل التغيرات الكثيرة فى محل الإقامة أمرًا محتماً للحصول على الرزق ولقمة العيش، أو أنه كان من شدة وقعه فى عقل الفرد ألا يحس بالسعادة لمدة طويلة أبدًا فى مكان واحد. فإنه لا يلبث حتى يسأم الناس، ولا يجد سلامًا بين العداوات التى استثارها ضده، بينما الناس بدورهم كانوا يطالبون بشئ جديد (القسم الثالث، الفصل الخامس). ويذكرنا الشئ الكثير من هذه الحياة بالسفسطائيين الإغريق فى عهد الإمبراطورية، كما يصفهم لنا فيلوستراتوس Philostratus، ومع هذا فإن مركز السفسطائيين كان أميز وأفضل. فكثيرًا ما كانوا يملكون النقود، أو كانوا يستطيعون الاستغناء عنها بسهولة أكثر من الإنسانيين، كما أنهم بوصفهم معلمين لعلم البيان، أكثر منهم علماء متبحرين فى العلم، كانوا يستمتعون فى حياتهم بقدر أكبر من الحرية والبساطة. على أن العالم فى عصر

النهضة كان مضطراً إلى الجمع بين التبحر فى العلم وبين القوة على مقاومة سلطان الاتجاهات والمواقف التى لا تبرح تتغير على الدوام. ويضاف إلى هذا ذلك الأثر المميت للإفراط الشديد فى الشهوات- ونظراً لأنه حر فى أن يفعل ما يستطيع فعله فإن أسوأ الأمور كان يتوقع منه- وهو ما ينطوى على عدم اكتراث كلى بقوانين الأخلاق التى يعترف بها الناس جميعاً. ولا يكاد يتصور أن يعيش أمثال هؤلاء الرجال بدون كبرياء جامح. كانوا فى حاجة إلى ذلك الكبرياء ولو على الأقل لحفظ رؤوسهم فوق سطح الماء، كما رسخ أقدامهم فيه ذلك الإعجاب الذى كانوا يتلقونه بالتناوب مع الكراهية فى ثنايا المعاملة التى كانوا يتلقونها من العالم. فهم أشد الأمثلة والضحايا أخذاً للقلوب فيما اتصفوا به من مذهب ذاتى جامح.

وبدأت الهجمات والصور الساتيرية الساخرة فى فترة مبكرة كما قلنا آنفًا. وكان يقوم حيال كل فردية ملحوظة بقوة، وحيال كل نوع من أنواع الامتياز وسيلة لإصلاح الخطأ دانية المأخذ فى ذوق السخرية عند الناس. وفى هذه الحالة بالذات كان الرجال أنفسهم يقدمون مادة وفيرة وفظيعة ما كان على القصائد الساخرة إلا أن تمد يدها إليها وتستخدمها. ففى القرن الخامس عشر راح باتيستا مانتوڤانو Battista Mantovano أثناء حديثه عن الأبالسة السبعة[4]، بإدراج الإنسانيين فى زمرتهم، ومع غيرهم، تحت عنوان .Superbia وهو يصف كيف أنهم، وقد خالوا أنفسهم أطفال أبوللو، فإنهم يسيرون فى الطرقات بجدية متكلفة، وبنظرات عابسة شريرة، وهم يحملقون آنا إلى ظلهم ويتفكرون آنا فى الثناء الشعبى الذى كانوا يتصيدونه، كالكراكى فى بحثها عن الطعام. ولكن الذى حدث فى القرن السادس عشر هو أن التهمة قدمت بكامل كيانها. ففضلاً عن أريوستو، فإن جيرالدوس[5] Gyraldus مؤرخهم الخاص، يقدم البرهان على ذلك، حيث ربما نقحت دراسته، التى كتبت برعاية ليو العاشر، فى قريب من عام ١٥٤٠. وإنا لنلتقى فى العصور القديمة والحديثة بالأمثلة المحذرة من الفوضى الخلقية والعيش الشقى اللذين يحياها العلماء، فهى تقابلنا بوفرة مدهشة، كما أنه توجه ضدهم رسمياً إلى جوار هذه اتهامات من أشنع الأنواع طبيعة. ومن بين هذه التهم الغضب والغرور، والعناد والإعجاب بالذات، والحياة الخاصة المنحلة، واللاأخلاقية من جميع الأوصاف،

والهرطقة والإلحاد؛ ويضاف إلى ذلك عادة التحدث بغير اقتناع، والسلطة المشئومة الشريرة على الحكومة، والحذلقة فى الكلام، وكفران وإنكار فضل المعلمين، وتملق الكبراء بمذلة، وهم الذين كانوا يبدون بإذاقة العالِم المتبحر طعم عطفهم وفضلهم ثم تركه بعد ذلك ليتضور جوعًا. ويختم الوصف بإشارة إلى العصر الذهبى، يوم لم يكن على ظهر البسيطة شئ من قبيل هذا العلم. ولم تلبث هذه التهم طويلاً حتى أصبحت تهمة الهرطقة أشدها خطرًا، حتى لقد بلغ الأمر أن جيرالدوس نفسه، عندما نشر فيما بعد كتابًا يافعًا عديم الضر تمامًا(٦)، اضطر إلى الاحتماء بعباءة الدوق هيركيوليس الثاني من فيرارا(٧)، نظرًا لأن رجالاً يعتقدون أن الأفضل أن يقضى الناس وقتهم فى دراسة الموضوعات المسيحية من أن يقضوه فى الأبحاث الميثولوچية أصبحوا الآن أصحاب اليد العليا. فبرر نفسه دافعاً بإن الدراسات الميثولوچية على النقيض من ذلك كانت فى ذلك الوقت تكاد تكون أقل فروع الدراسة ضررًا، لأنها تعالج موضوعات ذات طابع محايد تمامًا.

على أنه كان من واجب المؤرخ أن يبحث عن الأدلة التى يُخَفَّف فيها الحكم الخلقى ويُعَدَّل بواسطة العطف البشرى فلم يجد سنداً من حيث القيمة بالعمل الذى كثر الاقتباس منه تأليف بييريو ڤاليريانو(٨)، "عن عدم سعادة العالِم" On the Infelicity of the Scholar. وقد كتب فى ظل الانطباعات القاتمة التى خلفها نهب روما، الذى لا يبدو للكاتب أنه هو فقط أس الشقاء الرهيب الذى يرسف فيه رجال العلم، ولكنه فى واقع الحقيقة والتنفيذ العملى لمقدور من الشر طالما تعقبهم. وبييريو يهديه فى هذا المقام شعور بسيط يمكن أن يوصف على وجه الجملة بأنه صائب. فهو لا يقدم قوة خاصة، أنزلت النكبات بالعباقرة من الرجال بسبب عبقريتهم، ولكنه يذكر الحقائق، التى يحدث فيها غالبًا أن صدفة تعيسة الحظ تتزيا بزى المقدور. ونظرًا لعدم رغبته فى أن يسطر مأساة تراچيدية أو أن يحيل الأحداث إلى صراع قوى أعلى شأنًا، فإنه يقنع بأن يطرح أمامنا مشاهد الحياة اليومية. وهنا نتعرف إلى رجال يفقدون، فى أزمان الشغب والمتاعب، دخلهم أولاً ثم مناصبهم بعد ذلك؛ وإلى آخرين أثناء محاولتهم الوصول إلى منصبين يخسرون الاثنين معًا؛ وإلى البخلاء غير الاجتماعيين الذين يحملون معهم أموالهم حيثما ذهبوا مخيطة فى ثيابهم، ثم يموتون جنونًا عندما يُسلبون مالهم؛ وإلى

آخرين يقبلون مناصب ذات مرتب عال ثم تمسهم السوداوية (المالنخوليا) فإذا بهم يتحرقون شوقًا إلى حريتهم المفقودة. وإنا لنقرأ كيف أن بعضهم مات صغير السن بالطاعون أو الحمى، وكيف أن الكتابات التي كلفتهم عناءً بالغًا أحرقت ومعها فراشهم وملابسهم؛ وكيف أن آخرين عاشوا في رعب من تهديدات زملائهم لهم بالقتل؛ وكيف أن أحدهم ذبحه خادم جشع، وآخر أخذه قطاع الطرق أثناء سفره وتركوه يموت صبرًا في زنزانة سرداب لعدم قدرته على دفع الدية. ومات الكثيرون ضحية ما لا يمكن وصفه من الحزن والأسى لما لقوا من إهانات وبسبب الجوائز التي سلبت منهم احتيالاً ولم يحصلوا عليها. ويحدثوننا عن وفاة أحد البنادقة لأن ابنه، وهو أعجوبة شابة فتية، قد فارق الحياة؛ ثم أعقبه الأم والأخوة، كأنما اجتذبهم الطفل المفقود وراءه جميعًا. وكثيراً ما كان رجال، وبخاصة من البنادقة، ينهون حياتهم بالانتحار[٩]، وآخرون عن طريق التشريع السرى لأحد الطغاة. فمن ذا الذى يحس السعادة بعد كل شئ ؟ وبأية وسيلة ؟ عن طريق طمس كل الأحاسيس من أجل ذلك الشقاء ؟ وإن أحد المتكلمين في الحوار الذى غطى به بييريو جداله ليستطيع أن يعطى إجابة على هذه الأسئلة، هو جاسبارو كونتاريني Gasparo Contarini رفيع الشأن، الذى نتلفت عند ذكر اسمه، متطلعين أن نسمع على الأقل، شيئًا من أصدق وأعمق الأفكار التي كان الناس يتفكرون فيها حول مثل تلك الأمور. وإنه ليذكر الراهب أوربانو ڤاليريانو Fra Urbano Valeriano من بللونو[١٠] Belluno بوصفه نموذجًا للعالِم السعيد، وقد ظل أمدًا طويلاً يعلم الإغريقية بالبندقية، وزار بلاد اليونان والشرق، وأخذ قرب نهاية حياته يقوم بالرحلة في هذا القطر حينًا، وفي ذاك حينًا آخر، دون أن يمتطي صهوة جواد في حياته؛ ولم يملك قرشًا واحدًا، ودام يرفض كل آيات التكريم والتشريف، ثم ما لبث بعد شيخوخة مرحة سعيدة أن مات في سنته الرابعة والثمانين، دون أن يعرف، لو استثنينا وقوعه مرة من فوق سلم خشبي، ساعة واحدة من ساعات المرض. وماذا كان الفرق بين مثل هذا الرجل وبين رجل "إنساني"؟ فأما الثاني فكان ينطوى على إرادة أكثر حرية، وعلى نزعة ذاتية أكثر مما يستطيع تحويله إلى أهداف السعادة. فأما الراهب المتسول الذى عاش منذ صباه في الدير، ولم يأكل ولم ينم قط إلا وفق القواعد المقررة، فتوقف عن رؤية القسر الذى يعيش في ظلاله. وبفعل قوة هذه العادة عاش، محوطًا بكل أنواع

الصعوبات، عيشة سلام داخلي أثر بها في سامعيه أكثر كثيراً مما أثر فيهم بتعليمه. فإنهم حين كانوا ينظرون إليه، كانوا يستطيعون الاعتقاد بأنه مما يتوقف على أنفسنا أن نصمد أمام سوء الحظ أو نخضع له.

"وبين الحاجة والعناء عاش سعيداً لأنه شاء أن يكون كذلك، لأنه لم يكوّن أية عادات سيئة، ولم يكن ذا نزوات، ولا غير ثابت، ولا غير ذي اعتدال؛ بل كان يقنع دائما بالقليل أو بلا شئ".

ولو أنا سمعنا كونتاريني نفسه، للعبت الدوافع الدينية دون مراء دوراً في الجدال- ولكن الفيلسوف الواقعي المنتعل صندلاً يتحدث بوضوحٍ كافٍ. وهناك شخصية مماثلة لهذه، ولكنها موضوعة في ظروف أخرى، هي شخصية فابيو كالفو Fabio Calvo من مدينة رافنا، وهو المعلق الذي كتب حواشي هيبّوكراتيس[11]. .Hippocrates عاش حتى بلغ سناً عالية في روما، لا يأكل إلا الحبوب "شأن الفيثاغوريين"، وسكن في كوخ زرىٍ لا يفضل برميل ديوجينيس إلا قليلاً. وراح ينفق من المعاش الذي ربطه عليه البابا ليو ما يمسك الجسم والروح معًا، ثم يهب الباقي للمحتاجين. لم يكن سليم الصحة، مثل الراهب أوربينو، كما أنه ليس من المحتمل أنه ، مثله أيضاً، مات وعلى شفتيه ابتسامة. وترامى الأمر إلى أنه، وقد بلغ التسعين من العمر، قبض عليه الإسبان أثناء نهب روما، وقد رجوا أن يحصلوا في مقابله على فدية، ومات جوعًا في إحدى المستشفيات. ولكن اسمه سجل في ملكوت الخالدين، وذلك لأن رافاييل أحب الرجل الشيخ كأنه أبوه، وكرمه بوصفه معلمًا، وكان يأتيه التماساً لنصحه في كل الأمور. ولعل أهم موضوع كانا يتحادثان فيه هو إعادة روما القديمة إلى سابق عهدها (القسم الثالث، الفصل الثاني)، وربما تبودل الحديث بينهما حول مسائل أعظم وأعلى شأنًا. فمن ذا الذي يستطيع أن يحدثنا عن نصيب فابيو، الذي ربما كان له، في فكرة مدرسة أثينا The School of Athens، وفي غير ذلك من الأعمال العظمى للأستاذ الفنان؟

وإنا لنود بسرور تام أن نختم هذا القسم من مقالنا بصورة شخصية سارة جذابة. فإن بومبونيوس لايتوس Pomponius Lætus، الذي سنتحدث عنه بإيجاز، معروف لدينا بصفة رئيسية من خلال رسالة تلميذه سابيليكوس[12]، وفيها يضفي

تلويناً عهيداً على شخصيته. ومع هذا فإن كثيراً من ملامح تلك الشخصية واضحة يمكن تبينها. كان (القسم الثالث، الفصل التاسع) ابناً غير شرعي لأحد أفراد أسرة سانسيفيريني Sanseverini النابولية، أمراء ساليرنو، الذين لم يرض مع ذلك أن يعترف بهم، حيث كتب رداً على دعوة وجهت إليه للعيش معهم، تلك الرسالة الشهيرة:

'Pomponius Laetus cognatis et propinquis suis, saluten. Quod petitis fieri non potest valete".

كان شخصه صغيراً غير ذي أهمية ، له عينان صغيرتان سريعتا الحركة وثياب عجيبة، عاش أثناء العقود الأخيرة من القرن الخامس عشر، أستاذاً بجامعة روما، إما في كوخه بالتل الإسكويليني Esquiline، أو في كرمته على الكويرينال Quirinal . وكان في الأولى يربي البط والدواجن، فأما الكرمة الثانية يزدرعها وفقًا لأدق نواميس كاتو Cato وفارو Varro وكولوميللا Colomella . وكان يقضي عطلاته في صيد السمك أو الطيور وفي الكامبانيا Campagna، أوفي إقامة الموائد بجوار نبع ظليل أو على ضفاف نهر التيبر. أما الثراء والترف فكانا موضع احتقاره. ولما كان هو نفسه طليق النفس من كل حسد أو حديث لا ينطوي على الخير، فإنه لم يكن ليطيق أن يراهما في غيره من الناس. ولم يكن يطلق لسانه من عقاله إلا ضد الهرم الكهنوتي، وعاش حتى آخر أيامه مزدرياً للديانة بأكملها. واشترك في حملة اضطهاد الإنسانيين التي بدأها البابا بولس الثاني، وأسلمه البنادقة إلى ذلك الحبر؛ ولكن لم يعثر القوم على وسيلة ينتزعون بها منه أية اعترافات. ومن ثم فقد تحول البابا والمطارنة إلى مصادقته ومساندته، وعندما نهب بيته في الاضطرابات التي حدثت في عهد سيكستوس الرابع جمع له الناس من المال ما أربى على ما فقد. ولم يوجد مدرس أشد رعاية للضمير منه. وكان من المحقق أن يُرَى قبل بزوغ النهار هابطًا التل الإيسكويليني حاملاً مصباحه، حتى إذا بلغ قاعة المحاضرات وجدها على الدوام مكتظة تماماً بالتلاميذ الذين حضروا في منتصف الليل ليحجزوا لأنفسهم مكاناً. وكانت به لجلجة تضطره على الدوام أن يتكلم بتؤدة وعناية، ولكن إلقاءه كان متوازناً قوي الأثر. وتشهد أعماله القليلة بطريقة

كتابة دقيقة وذات عناية. فلم يحدث قبله أن عالمًا عالج نص المؤلفين الأقدمين بطريقة أكثر رزانة واعتدالاً منه ولا أضبط منه. وكانت بقايا العصر الغابر العهيد التى تحيط به فى روما تمس أحاسيسه بعمق بليغ يجعله يقف أمامها كالمأخوذ المشدوه، أو تجعله ينفجر لمرآها مغرورق العينين بالدموع. ولما كان مستعداً للتخلى عن دراساته الخاصة لكى يساعد غيره، فإنه كان موضع الحب من الناس جميعًا، وكان له أصدقاء كثيرو العدد؛ فلما حانت منيته بلغ الأمر أنه حتى إسكندر السادس أرسل رجال بلاطه للمشى خلف نعشه الذى حمله أعظم تلامذته امتيازاً. وشهد صلاة الجنازة فى كنيسة أراتشيلى Araceli أربعون أسقفًا وجميع السفراء الأجانب.

وكان لايتوس هو الذى قام بتقديم وإدارة عرض المسرحيات القديمة فى روما، وهى بوجه رئيسى مسرحيات بلوتين Plautine (القسم الثالث، الفصل التاسع). وكان يحتفل فى كل عام بالعيد السنوى لتأسيس المدينة بإقامة حفل كان أصدقاؤه وتلاميذه يلقون فيه الخطب والقصائد. وكانت هذه الاجتماعات هى الأصل فيما اكتسب اسم الأكاديمية الرومانية واحتفظ به طويلاً. كانت مجرد اتحاد حر من الأفراد، ولا تتصل بأية مؤسسة ثابتة. وفضلاً عن الظروف التى سبق ذكرها، كانت تنعقد[١٣] بدعوة من نصير يناصرها، أو للاحتفال بذكرى عضو رحل عن الدنيا مثل بلاتينا. وفى مثل هذه الأوقات كان مطران عضو فى الأكاديمية يتلو قداسًا؛ وعند ذلك يرقى بومبونيو المنبر ويلقى خطابًا؛ وعندئذ يعقبه آخر ويتلو مرثية شعرية. ويختم الحفل بالمأدبة المعتادة من الخطب والتلاوات، سواء منها المرح والجاد، كما أن الأكاديميين، وبخاصة بلاتينا نفسه، حصلوا مسبقًا على شهرة وسمعة بوصفهم نواقة[١٤]. وفى مناسبات أخرى كان الضيوف يمثلون تمثيليات هزلية على الطريقة الأتيللانية (atellan) القديمة. ودامت الأكاديمية فى شكلها الأصلى الأول، بوصفها جماعة حرة لعناصر مختلفة جداً، حتى يوم نهب روما، وضمت بين ضيوفها أنجيلوس كولوتشيوس Angelus Coloccius، ويوهان كوريتشيوس Joh. Corycius (القسم الثالث، الفصل العاشر) وغيرهما. فأما قيمتها الدقيقة فى الحياة الفكرية للناس فهى شئ يعسر تقديره عسر تقدير أى اتحاد

اجتماعى من ذلك النوع نفسه؛ ومع ذلك فإن رجلاً مثل سادوليتو[١٥] يعدها واحدة من أنفس ذكريات شبابه. ومما هو جدير بالملاحظة أن عدداً كبيراً من الأكاديميات ظهرت ثم ذهبت فى كثير من المدن الإيطالية، حسب عدد وأهمية الإنسانيين المقيمين بها، والرعاية المالية التى وهبها لها النصراء والأثرياء. ويصح لنا أن نذكر من بينها أكاديمية نابولى، التى كان قطبها چوڤيانوس بونتاس **Jovianus Pontanus**، والتى أرسلت مجموعة من المستوطنين إلى ليتشى[١٦] **Lecce**، وكذلك أكاديمية بوردينونى **Pordenone**، التى تشكل منها بلاط وحاشية قائد المرتزقة ألڤيانو[١٧] **Condottiere Alviano.** وقد أسلفنا إليك الحديث عن الدائرة المحيطة بالأمير لودوفيكو إيل مورو وأهميتها الخاصة الفريدة لذلك الأمير (القسم الأول، الفصل الخامس).



شكل (١٢٧) چوڤيانوس بونتانوس (چيوڤيانو بونتانو)

ويبدو أنه حدث فى قريب من منتصف القرن السادس عشر أن هذه الجماعات مر

بها تغيير كلي شامل. فإن الإنسانيين، وقد طردوا في مجالات أخرى من مركزهم الأعلى المتمكن، وأخذ رجال الإصلاح الديني المضاد ينظرون إليهم شذراً، فقدوا تحكمهم في الأكاديميات؛ وهنا حدث، كما جرى بكل مكان آخر، أن الشعر الإيطالي حل محل الشعر اللاتيني. ولم ينقض طويل زمن حتى كانت لكل مدينة في أدنى درجات الأهمية أكاديميتها، ذات الاسم العجيب الخيالي[١٨]، ولها عطاياها المالية وهباتها واشتراكاتها. وورثت المؤسسات الجديدة عن سابقاتها، بالإضافة إلى ما ورثته من تلاوة للأشعار، تلك المآدب المألوفة وتقديم المسرحيات، التي كان يمثلها أحياناً أعضاء الأكاديمية أنفسهم، أو يمثلها تحت إشرافهم هواة صغار، وأحياناً ممثلون مأجورون محترفون. وإذن فقد ظل مصير المسرح الإيطالي، ثم مصير الأوبرا بعد ذلك، طويلاً في يد هذه الجماعات والاتحادات.

هوامش الفصل الحادى عشر - القسم الثالث

(١) ولا ينبغي أن ننسى أنهم طبعوا سريعًا مع كل من السكوليا scholia القديمة والتعقيبات العصرية.

(٢) انظر أريوستو .Ariosto, Satira, vii (date, 1531)

(٣) ونحن نلتقي وأطفالاً كثيرين مثل هؤلاء، ومع ذلك لا يمكنني أن أعطى أى مثال تم فيه تناولهم بمثل هذا الوضوح. والشاب المعجزة جوليو كامبانيولا Giulio Campagnola لم يكن واحدًا من أولئك الذين كانوا مدفوعين بغرض طموحي. انظر أيضًا سكارديونيوس .Cf. Scardeonius, De Urb. Patav. Antiq., in Græv., Thesaur., vi , 3, col. 276 وعن الحالة المماثلة لتشكّينو براتشي Cecchi-no Bracci (مات ١٤٤٥، في سنته الخامسة عشرة) انظر أيضًا تروكّي .Cf. Trucchi, Poesie Ital. Ined., iii, p. 229 وحاول والد كاردانو "memoriam artificilem instillare"، وعلمه عندما كان لا يزال طفلاً علم فلك العرب. انظر كاردانوس .Cardanus, De Propria Vita, cap. 34 ويمكن إضافة مانويلو للقائمة. إلا إذا أخذنا تعبيره "في سن السادسة كنت كأنما أنا في سن الثمانين" على أنه جملة لا معنى لها. انظر أيضاً Cf. Litbl. Des Orients, p. 21 (1843) .

(٤) انظر بابت. مانتوان. .Bapt. Mantuan., De Calamitatibus Temporum, lib. i

(٥) انظر ليل. جريج. جيرالدوس -Lil. Greg. Gyraldus, Progymnasma adversus Literas et Lite ratos (Opp., ii, 422-455, ed. Basil., 1580). الإهداءات ١٥٤٠-١٥٤١؛ والعمل نفسه موجه إلى جيوڤاني فرانتشيسكو بيكو، وعلى ذلك انتهى العمل فيه قبل ١٥٢٢

(٦) انظر ليل. جريج. جيرالدوس .(Lil. Greg. Gyraldus, Hercules (Opp., i, pp. 544-570 والإهداء دليل ساطع وغريب على أول الحركات المروعة لمحاكم التفتيش.

(٧) وكان يعتبر، كما رأينا، على أنه آخر الحامين للعلماء.

(٨) انظر .De Infel. Lit وعن الطبعات انظر عاليه، هامش ٦٤ الفصل السابع، القسم الأول. وقبل مغادرة روما عاش بييرو فاليريانو طويلاً في وضع جيد كأستاذ في بادوا. وفي نهاية عمله يعبر عن الأمل في أن يجئ شارل الخامس وكليمنت السابع بعهد أفضل للعلماء.

(٩) انظر الجحيم لدانتي .Inferno, xiii, 58 sqq، ويوجه خاص ٩٣ .sqq، حيث يتحدث بتروس دى ڤينيس Petrus de Veneis عن انتحاره هو نفسه.

(١٠) انظر بيير. ڤاليريانو صفحات ٣٩٧ وما بعدها وصفحة ٤٠٢ وكان عم الكاتب.

(١١) انظر كولي كالجانيني C lii Calcagnini, Opera, ed. Basil., 1544. p. 101، في الكتاب السابع من Epistles, No. 27، الرسالة إلى جاكوب زيجلر Jacob Ziegler. انظر أيضًا بيير. ڤاليريانو .Cf. De Inf. Lit., ed Mencken, pp. 369 sqq.

(١٢) انظر ..M. Ant. Sabellici Opera, Epist., lib. xi, fol. 56 وانظر أيضًا ترجمة الحياة في -Elogia لباولو جيوفيو، صفحات ٧٦ وما بعدها. والأخيرة ظهرت منفصلة في ستراسبورج في ١٥١٠ تحت عنوان سابيليكوس .Sabdllicus, Vita Pomponii Læti

(١٣) انظر چاك. فولاتيرّانوس ,Diar. Rom., in Murat., xxiii, col. 161, 171, 185; Anecd. Lit., ii 168 sqq..

(١٤) انظر باول. جوفيوس .Paul. Jovius, De Romanis Piscibus, cap. 17 and 34

(١٥) انظر سادوليتّو .Epist. 106, of the year 1529

(١٦) انظر أنتونيو جالاتي .Anton. Galatei, Epist. 10 and 12, in Mai, Spicileg. Rom., vol. viii

(٢٧) (بالرغم من أن السؤال لا يزال يدور حول ما إذا كان هذا لم يستحق الاسم بأنه اجتماع عرضي لرجال متعلمين أكثر منه أنه أكاديمية.– و. ج. .W. G).

(١٨) كان ذلك هو الحال حتى قبل منتصف القرن. انظر أيضاً ليل. جريج. جيرالدوس -Cf. De Poetis nos tri Temp., ii, ed. Wotke, p. 91.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

-١	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
-٢	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
-٤	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضري
-٥	ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
-٦	اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
-٧	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
-٨	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
-٩	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
-١٠	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
-١١	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
-١٢	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
-١٣	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
-١٤	التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
-١٥	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسي سميث	أشرف رفيق عفيفي
-١٦	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
-١٧	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
-١٨	الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
-١٩	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
-٢٠	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
-٢١	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
-٢٢	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
-٢٣	تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
-٢٤	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
-٢٥	مثنوي	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
-٢٦	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
-٢٧	التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
-٢٨	رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
-٢٩	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
-٣٠	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
-٣١	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب
-٣٢	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
-٣٣	التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
-٣٤	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
-٣٥	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
-٣٦	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد علي
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستي	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسي التدعيمي	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسي سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	علي يوسف علي
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود علي مكي
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطي
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبري محمد عبد الغني
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعي
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسي العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلي
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومي

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين للمسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادي بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالي للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعي	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق علي	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة مقالات فى بلاغة النقد المعاصر | بول دى مان | سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس | كونفوشيوس | محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى | الحاج أبو بكر إمام وآخرون | مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١) | زين العابدين المراغى | محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية) | بيتر أبراهامز | محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث | مجموعة من النقاد | ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) | إسماعيل فصيح | محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) | فالنتين راسبوتين | أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق | شمس العلماء شبلى النعمانى | جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى | إدوين إمرى وآخرون | إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية | يعقوب لانداو | جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل | جيرمى سيبروك | فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة | جوزايا رويس | أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤) | رينيه ويليك | مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية | الطاف حسين حالى | جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم | زالمان شازار | أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات | لويجى لوقا كافاللى- سفورزا | أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً | جيمس جلايك | على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية) | رامون خوتاسندير | محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى | دان أوريان | محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر) | سنائى الغزنوى | يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير | جوناثان كلر | محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان | مرزبان بن رستم بن شروين | يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر | ريمون فلاور | سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع | أنتونى جيدنز | محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢) | زين العابدين المراغى | محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم | مجموعة من المؤلفين | أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان | صمويل بيكيت وهارولد بينتر | نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) | خوليو كورتاثار | على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية) | كازو إيشجورو | طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون | بارى باركر | على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى | جريجورى جوزدانيس | رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا | رونالد جراى | نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر | باول فيرابند | السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا | برانكا ماجاس | منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية) | جابرييل جارثيا ماركيث | السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى | ديفيد هربت لورانس | طاهر محمد على البربرى

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزي (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادي	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- في انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة في فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكي
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم جيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	جوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الجينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف. س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (جـ١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء جاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (جـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال في المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد علي بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩- أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن سارد وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروينداتي روي	فخري لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- أقدم لك: نظرية الكم	ج. ب. ماك إيفوي وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار البيغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرلن جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول وليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صموئيل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السيررونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	علي عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل لشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي	سير رويرت هاى	يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب في زمن الفراعنة	برونو آليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥- الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودى جروفز	محيي الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	جون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحي عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت أبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩- تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربوني	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أماني فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية في العالم	رويرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	مرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافي	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦- قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم ى. أدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥- الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد يللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد ر. تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر	جون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨- بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى	جي دي موباسان	سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥- أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوي
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبري التهامي
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبري التهامي
٦٦٢- رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبري التهامي
٦٦٣- امرأة عابثة	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعي
٦٦٤- الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشي	ليلى الجبالي
٦٦٩- ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلي
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطي
٦٧١- قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوي
٦٧٤- ديوان الإمام الخميني	آية الله العظمى الخميني	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدني
٦٧٧- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٨- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمي
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠- سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١- هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلي فش	أحمد الشيمي
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكري	صبري محمد حسن

٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية) | نى. م. ألوكو | صبرى محمد حسن
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أناكندا) (جـ١) | أوراثيو كيروجا | رزق أحمد بهنسي
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢) | أوراثيو كيروجا | رزق أحمد بهنسي
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية) | ماكسين هونج كنجستون | سحر توفيق
٦٨٧- محبوبة (رواية) | فتانة حاج سيد جوادى | ماجدة العنانى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى | فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار | فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩- الملف (مسرحية) | تادووش روجيفيتش | هناء عبد الفتاح
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا | (مختارات) | رمسيس عوض
٦٩١- ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته | (مختارات) | رمسيس عوض
٦٩٢- أقدم لك: الوجودية | ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت | حمدى الجابرى
٦٩٣- أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة) | حاييم برشيت وآخرون | جمال الجزيرى
٦٩٤- أقدم لك: دريدا | جيف كولينز وبيل مايبلين | حمدى الجابرى
٦٩٥- أقدم لك: رسل | ديف روبنسون وجودى جروف | إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦- أقدم لك: روسو | ديف روبنسون وأوسكار زاريت | إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧- أقدم لك: أرسطو | روبرت ودفين وجودى جروفس | إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨- أقدم لك: عصر التنوير | ليود سبنسر وأندرزيجى كروز | إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩- أقدم لك: التحليل النفسى | إيفان وارد وأوسكار زارايت | جمال الجزيرى
٧٠٠- الكاتب وواقعه | ماريو بارجاس يوسا | بسمة عبدالرحمن
٧٠١- الذاكرة والحداثة | وليم رود فيفيان | منى البرنس
٧٠٢- الأمثال الفارسية | أحمد وكيليان | محمود علاوى
٧٠٣- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢) | إدوارد جرانفيل براون | أمين الشواربى
٧٠٤- فيه ما فيه | مولانا جلال الدين الرومى | محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥- فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام | الإمام الغزالى | عبدالحميد مدكور
٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات | جونسون ف. يان | عزت عامر
٧٠٧- أقدم لك: فالتر بنيامين | هوارد كاليجل وآخرون | وفاء عبدالقادر
٧٠٨- فراعنة من؟ | دونالد مالكولم ريد | رءوف عباس
٧٠٩- معنى الحياة | ألفريد أدلر | عادل نجيب بشرى
٧١٠- الأطفال والتكنولوجيا والثقافة | إيان هاتشباى وجومووران - إليس | دعاء محمد الخطيب
٧١١- درة التاج | ميرزا محمد هادى رسوا | هناء عبد الفتاح
٧١٢- ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ١) | هوميروس | سليمان البستانى
٧١٣- ميراث الترجمة: الإلياذة (جـ٢) | هوميروس | سليمان البستانى
٧١٤- ميراث الترجمة: حديث القلوب | لامنيه | حنا صاوه
٧١٥- جامعة كل المعارف (جـ١) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين
٧١٦- جامعة كل المعارف (جـ٢) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين
٧١٧- جامعة كل المعارف (جـ٣) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين
٧١٨- جامعة كل المعارف (جـ٤) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين
٧١٩- جامعة كل المعارف (جـ٥) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين
٧٢٠- جامعة كل المعارف (جـ٦) | مجموعة من المؤلفين | نخبة من المترجمين

٧٢١-	فلسفة المتكلمين في الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	فريدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبي للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المثر السلطانية	بيك الدتيلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خاردييل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجة الدهلوى (شعر تصوف)	خواجة الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تيرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيذر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة ناكاماشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولة والرعاية الإنسانية	فيك جورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاجين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة إدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

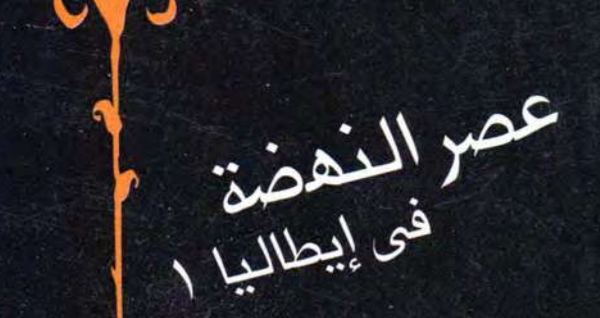
٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسي للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠-	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثي	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولي	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة في الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعي
٨٠٣-	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل ميرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجي
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربري
٨٠٦-	الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحي حقي: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢-	تقل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولي	فريد الزاهى
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥-	فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦-	العدو الأمريكى	فيليب روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧-	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩-	الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠-	ميراث الترجمة: هملت (مسرحية)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١-	هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢-	فن الرباعي (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣-	وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤-	لغة الدراما	دافيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥-	ميراث الترجمة: عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٢٨٨/ ٢٠٠٥







لسنا أصحاب أهداف الحكمة الأبدية، فإنها تخرج عن طوقنا. ويؤدى بنا هذا الادعاء (الهيجلى) الجرىء المتعلق بخطة عالمية إلى المغالطات، لأنه ينطلق عن قضايا مغلوطة...

على أننا مع ذلك سنبدأ من النقطة الواحدة المفتوحة أمامنا، وهى المركز الأبدى لجميع الأشياء : الإنسان فى معاناته، وكفاحه، وفعله، وشأنه الآن وكما كان وكما سيكون إلى أبد الآبدين.

ياكوب بوركهارت

مقدمة تأملات فى التاريخ

بهذه الكلمات صدرت الطبعة الأمريكية لكتاب "حضارة عصر النهضة فى إيطاليا". ولم يكن ياكوب بوركهارت يتكهن بأن هذه الدراسة التى قدمها بتواضع شديد وأسماها بالمقالة، ستصبح التفسير القاطع لحقبة عظيمة فى التاريخ. ولم يكن ليتخيل أن كل مؤرخ ذى شأن لعصر النهضة سوف يحاول أن يشحذ أو يمحو الصورة التى خلقها بوركهارت. ولذا يندر أن يكون لأى عمل تاريخى هذا الأثر المستمر الذى أحدثه بوركهارت بكتابه "حضارة عصر النهضة فى إيطاليا".

